

وحي القلم

تأليف
مصطفى صادق الرافعي



الكتابية العصرية
مكتبة - بيروت

وَحْيِ الْقَلَمِ

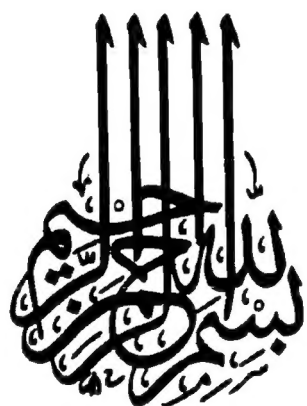
وَحْيُ الْقَلَمِ

تأليف
مُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيِّ

راجعته وَاَعْتَنَى بِهِ
د. دُرُويشُ المَجْوَيْدِي

الجزء الثاني

المكتبة العصرية
بيروت



الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام

كما تطلع الشمس بأنوارها فتعجز ينبوع الضوء المسمى النهار، يولد النبي فيوجد في الإنسانية ينبوع النور المسمى بالدين. وليس النهار إلا بقطة الحياة تحقق أعمالها، وليس الدين إلا بقطة النفس تحقق فضائلها.

والشمس خلقها الله حاملة طابعة الإلهي، في عمله للمادة تحول به وتغير، والنبي يرسله الله حاملاً مثل ذلك الطابع في عمله ترقى فيه وتسمو.

ورعشات الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في نور من الكلام.

والعامل الإلهي العظيم يعمل في نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين: أجرام النور من الشموس والكواكب، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء.

فليس النبي إنساناً من العظماء يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق، ومع المنطق الشك، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة، ولكنه إنسان نجوي يقرأ بمثل «التللكوب» في الدقة، معه العلم، ومع العلم الإيمان، ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها.

والحياة تثنى علم التاريخ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء - صلوات الله عليهم - تجعل التاريخ هو يثنى علم الحياة، فإنما النبي إشراق إلهي على الإنسانية، يقرؤها في فلكها الأخلاقي، ويجذبها إلى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب.

ويجيء النبي فتجيء الحقيقة الإلهية معه في مثل بلاغة الفن البياني، لتكون أقوى أثراً، وأيسر فهماً، وأبدع تمثيلاً، وليس عليها خلاف من الجس. وهذا هو الأسلوب الذي يجعل إنساناً واحداً قرن الناس جميعاً، كما تكون البلاغة فن لغة بأكملها، هو الشخص المفسر إذا تعمف^(١) الناس الحياة لا يدرون أين يؤمنون

(١) تعمف: اجتهد، جاوز الحد المعقول.

منها، ولا كيف يتهدّون فيها، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا، ثم يُخلَق رجلٌ واحد ليكون هو التفسير لما مضى وما يأتي، فتظهر به حقائق الآداب العالية في قالب من الإنسان العامل المرئي، أبلغ مما تظهر في قصة متكلمة مروية.

وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفس النبي أبلغ نفوس قومه، حتى لهو في طباعه وشماله طبيعة قائمة وحدها، كأنها الوضع النفساني الدقيق الذي ينصب لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء^(١). وكان الحقيقة السامية في هذا النبي تُنادي الناس: أن قابِلُوا على هذا الأصل وصَحُّوا ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الإنسانية.

* * *

ومن ثم فنبى البشرية كلها من بعث بالدين أعمالاً مفضلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يُعطي الحياة في كل عصر عقلها العملي الثابت المستقر تُنظَّم به أحوال النفس على مِيزة وبصيرة، ويدع للحياة عقلها العلمي المتجدد المتغير تُنظَّم به أحوال الطبيعة على قضد وهدى، وهذه هي حقيقة الإسلام في أخص معانيه، لا يعني عنه في ذلك دين آخر، ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة، كأنما هو نبع في الأرض لِمعاني النور، بإزاء الشمس نبع النور في السماء.

وكل ذلك تراه في نفس محمد ﷺ، فهي في مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة، لا يمكن أن تعرف الأرض أكمل منها، ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألهين وجعلت في نصاب واحد - ما بلغت أن يجيء منها مثل نفسه ﷺ. ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدرة في عزقه. وهي النفس الاجتماعية الكبرى، من أين تدبرتها رأيتها على الإنسانية كالشمس في الأفق الأعلى تنبسط وتضحي.

وتلك هي الشهادة له ﷺ بأنه خاتم الأنبياء، وأن دينه هو دين الإنسانية الأخير، فهذا الدين في مجموعِه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة في مجموعها: صلابته بمقدار الحق الإنساني الثابت، لا بمقدار الإنسان المتغير الذي

(١) تنازع البقاء: صراع البقاء.

يَكُونُ عِنْدَ سَبَبِ جَبَلًا صُلْدًا^(١) يَشْمَخُ^(٢)، وَعِنْدَ سَبَبٍ آخَرَ مَاءً عَذْبًا يَجْرِي.

وهو دينٌ يعلو بالقوة ويدعو إليها، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم، ويستفرغ همُّه في ذلك، لا لإعزاز الأتقى وإذلال الأضعف، ولكن لارتفاع بالأضعف إلى الأقوى، وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة، أنَّ هذه إنما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها، أمَّا هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها، وتلك تعمل للتفريق، وهو يعمل للمساواة، وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية.

ومن هنا كان طبيعياً في الإسلام ما جاء به من أنه لا فضيلة إلا وهو يطبع عليها صورة ألجنة بنعيمها الخالد، ولا رذيلة إلا وهو يضع عليها صورة النار الأبدية وقودها الناس والحجارة، فلا تنظر العين المسلمة إلى أسباب الحياة نظرة الفكر المتنازع: يحرص على ما يكون له ويشره^(٣) إلى ما ليس له، ويمكر الحيلة، ويدع وسائل الخداع، ويزيد بكل ذلك في تعقيد الدنيا - بل نظرة القلب المسالم: يخلع الدنيا ويسخو بكل مضمون فيها، فيعف عن كثير، ويعرف الإنسانية ويطمع في غاياتها العليا، فيعفو عن كثير، ويدرك أنَّ الحلال وإن حلَّ فوراءه حسابه، وأنَّ الحرام وإن غرَّ ليس إلا تعلل^(٤) ساعة ذاهبة ثم من ورائه عقاب الأبد.

ويخرج من ذلك أن يكون أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله - تعالى - قانون وجود الإنسان على الأرض، فمن أي عطفيه^(٥) التفت هذا الإنسان وجدَّ على يمينه ويُسرتِه ملكين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها، فهو كالمتهَم المستراب^(٦) به في سياسة النفس: لا يمشي خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان^(٧) عليه حتى أسباب الثَّبة، ويجمعان منه حتى نزوات الكبد، ويُترجمان عنه حتى معاني النظر.

وإذا قامت هذه المحكمة الملائكية وتقررت في اعتبار النفس، قام منها على النفس شرع نافذ هو قانون الإرادة المميزة، وتريد الحسنات وتعمل لها، وتخشى

(١) صُلْدًا: قاسياً.

(٢) يشمخ: يتسامى.

(٣) يشره: يعنى للحصول على ما ليس له بطمع.

(٤) تعلل: تمنى النفس.

(٥) عطفيه: جنبيه.

(٦) المستراب: الشاك.

(٧) يحصيان: يعدان.

السيئات وتنفّر منها، فإذا معاني الجسد يحكم بعضها بعضاً، لا لتحقيق الحكومة والسلطة، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة، وإذا نواميس الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان، قد نهضت إلى جانبها نواميس الإرادة الحكيمة في الإنسان، وإذا صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادة تهمّة عند قاضيتها في محكمتها، وإذا كلّ ما في الإنسان وما حول الإنسان، لا يراذ منه إلا سلام النفس في عاقبتها؛ وإذا معنى السلام هو المعنى الغالب المتصرف بالإنسانية في دنياها.

وكل أعمال الإسلام وأخلاقه وآدابه، فتلك هي غايتها، وهذه هي فلسفتها؛ لا يقرؤها للإنسانية حسَب، بل يقرؤها في الوراثة غرضاً بالاعتياد والبرّان الدائم، لتكون علماً وعملاً، فتمكّن لسلام النفس بين الأسلحة المسددة إليها من ضرورات الحياة، في أيدي الأعداء المتألبّة^(١) عليها من شهوات الغريزة.

فليس يعلم السلام إلا إذا عمّ هذا الدين بأخلاقه فشمل الأرض أو أكثرها؛ فإن قانون العالم حينئذ يصبح متزعزعا من طبيعة التراحم، فإما أنسخ به قانون التنازع الطبيعي، وإما كسر من شيرته؛ ويولد المولود يومئذ وتولد معه الأخلاق الإنسانية.



تقرير معنى الدرام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذرة من الخير وأكثر، وضبط ذلك برياضة عملية دائمة مفروضة على الناس جميعاً هذا هو أساس العقيدة الإسلامية؛ ولا صلاح للإنسانية بغيره يردها إلى سبيل قصدها^(٢)، فإن من ذلك تكون أوصاف العقلية التي تغلب على المجتمع، وتجانس بين أفرادها، فتوجه الإنسانية كلها نحو الممكن من كمالها، ولا تزال توجهها نحو ما هو أعلى، وتحكم فاسدها بصالحها، وتأخذ عاصيتها بمطيعيها، وتجعل الشرف الإنساني غرضها الأول، لأن الله الحق غرضها الأخير؛ فيصبح الأمر - وهذا دينه - كلما تقدّم به العمر كمل فيه أثنان: الإنسان، والأشريعة. ولا يعود طالب السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجري وراء ظله ليُمسكه؛ فلا يدرك في الآخر شيئاً غير معرفته أنه كان في عمل باطل وسعي ضائع.

وإسلام يحرض أشد الجزم وأبلغه على تقرير ذلك المعنى الإلهي

(١) الأعداء المتألبّة: المجتمعين المتضيقين على من يتخفونه عدواً.

(٢) قصدها: غايتها.

العظيم، لا بالمنطق، ولكن بالعمل؛ ثم في النفس وعواطفها، لا في العقل وآرائه؛ ثم على وجه التعميم، دون الاستثناء والخصوص؛ وذلك هو سرُّ مشقَّتِهِ على النفس بما يفرضه عليها؛ فإن فلسفته أن هذه النفس هي أساس العالم، وأن النظام الخُلقي هو أساس النفس، وأن العمل الدائم هو أساس النظام، وأن روح العمل الدائم تكون فيما يشقُّ بعض المشقة ولا يبلغ العُسْر والحرَج^(١)، كما تكون فيما يسهل بعض السهولة ولا يبلغ الكسل والإهمال.

وللنفس وجهان: ما تُعلن، وما تُسرّ؛ ولا صدق لإعلانها حتى يصدق ضميرها، ولا صلاح لجهرها^(٢) حتى يصلح السرُّ فيها، ولا يكون الإنسان الاجتماعي فاضلاً بمشهده^(٣) حتى يكون كذلك بغيه.

وللعالم كذلك وجهان: حاضره الذي يمرُّ فيه، وآتیه الذي يمتدُّ له؛ ولا يفلح حاضرٌ منقطع لا يورث ما بعده كما ورث قبله، وما حاضرُ الإنسانية إلا جزء من عمل الناس في استمرارِ فضائلهم باقيةً نامية.

وللنظام أيضاً وجهان: نظام الرغبة على الطاعة والأطمئنان لها، ونظام الرغبة على الخشية^(٤) والثقة منها. ولا يستقيم شأنُ أساسه أُلطاعة في النفس، ولا يستمرُّ نظامٌ عليه خلافٌ من فكرِ العاملِ به.

وللعمل الدائم طريقتان: إحداهما طريقةُ الجادِّ يعملُ للعاقبة يستيقظها، فلا يجدُ مما يشقُّ عليه إلا لذةَ المغالبةِ للنصر: كلُّ مرارةٍ من قبله هي حلاوةٌ فيه من بعد، ولا يعرفُ للمحنة^(٥) يبتلى بها إلا معناها الحقيقي وهو إيقاظُ نفسه، فيصبحُ الصبرُ عنده كصبرِ المُحبِّ على أشياءٍ ممَّنْ تُحبُّه؛ صبرٌ فيه من السحرِ ما يكسو ألجزمَانُ في بعض الأحيان خيالَ الاستمتاع، ويذيقُ النفسَ في العجزِ عن بعض أغراضها - لذةَ كلذةٍ إدراكه.



تلك هي فلسفةُ الإسلام؛ لا قِوامٌ للأمرِ فيها ولا مساكٌ له إلا بتقريرِ معنى الدوامِ لكلِّ أعمالِ النفس، ووضعِ طابعِ الجنةِ على أعمالِ الجنة، وطابعِ النارِ على

(١) الحرج: الشعور بالضيق والشدة.

(٢) لجهرها: لإعلانها.

(٣) بمشهده: بحضوره.

(٤) الخشية: الخوف.

(٥) المحنة: المصيبة.

أعمال النار - وحياطة كل فرد من الناس حياطة رياضية عملية بين الساعة والساعة، بل بين الدقيقة والدقيقة، بما يكلف من أعمال جسمه وحواسه، ثم أعمال قلبه ونيته - وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية، فلا يحاول كل إنسان أن يجعل بطنه في حجم مملكة أو مدينة أو قرية، بما يتقص^(١) من حقوق غيره؛ بل تتسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الإنسانية؛ وبهذا لا يغيره تتعین مقاييس الأخلاق في الأرض: بالمصلحة لا باللذة؛ فلا يقع الخطأ ولا التزوير، وتحل المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عقداً فيها.

والاستيلاء بذلك المعنى على العقلي والعاطفة هو وحده الطريقة لإنشاء طبيعة أخير في الناس على نسقها الطبيعي، كما أنه هو وحده الطريقة لتطهير التاريخ الإنساني من أوبائه الاقتصادية^(٢)، التي جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس، وتركب الناس يهدم بعضهم بعضاً، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسع بيته.

وأساس العمل في الإسلام إخضاع الحياة للعقيدة، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة، فيكون الفقير مُعْدِماً^(٣) ويتعفف، ويكون الغني موسراً ويتصدق، ويكون الشَّره طامعاً ويُمسك، ويكون القوي قادراً ويُخجَم^(٤)، وكما قال العرب في تحقيق ناموس الأنفة والحمية وغلبيته على الناموس الاقتصادي: «تجوع الحره ولا تاكل بشديتها».

* * *

تريد الإنسانية امتداداً غير امتدادها التجاري في الأرض، وتحتاج إلى معنى يقرؤ إنسانها غير الحيوان الذي فيه؛ وإذا قاذ الغراب قوماً فإنما هو - كما قال شاعرنا - يمر بهم على جيب الكلاب... والإنسانية اليوم في مثل ليل حوشي^(٥) مظلم أخلط بعضه في بعض، وليست معاني الإسلام إلا الإشراف الإلهي على هذه الكثافة المادية المترامية، وإذا رُفِع المصباح لم تجد الظلام إلا وراء الحدود التي تنتهي إليها أشعته.

(١) يتقص: يأخذ.

(٢) أوبائه الاقتصادية: أمراضه، كالفقر والعوز والجوع... (٤) يحجم: يمسك.

(٣) معدماً: فقيراً لا يملك مالاً. (٥) حوشي: متوحش.

وقد علمنا من طبيعة النفس أنَّ إنسانية الفرد لا تعظم وتسمو وتخيّل وتفرخ فرحها الصادق وتحزن حزنها السّامي - إلّا أن تعيش في محبوب؛ فإنسانية العالم لا تكون مثل ذلك إلّا إذا عاشت في نبيها الطّبيعي، نبي أخلاقيها الصحيحة وأدائها العالية ونظامها الدقيق؛ وأين تجد هذا المحبوب الأعظم إلّا في محمدٍ ودين محمد؟

وعجيب أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبي العظيم خمس مرات في الأذان كل يوم، يُنادى باسمه الشريف ملء الجوّ؛ ثم حكمة ذكره في كل صلاة من الفريضة والنافلة^(١)، يُهنس باسمه الكريم ملء النفس! وهل الحكمة من ذلك إلّا الفرض عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم ولا يوماً واحداً من التاريخ، ولا جزءاً واحداً من اليوم؛ فيمتد الزمن مهما امتدّ والإسلام كأنه على أوّله، وكأنه في يومه لا في دهر بعيد؛ والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه تبعته روح الرسالة، ويسطع في نفسه إشراق النبوة، فيكون دائماً في أمره كالمسلم الأول الذي غير وجه الأرض؛ ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه وفضائله وحيّيته في كل بقعة من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة، لا كما نرى اليوم؛ فإن كل أرض إسلاميّة يكاد لا يظهر فيها إلّا إنسانها التاريخي بجهله وخرافاته وما ورث من القَدَم؛ فهنا المسلم الفرعوني، وفي ناحية المسلم الوثني، وفي بلد المسلم المجوسي^(٢)، وفي جهة المسلم المعطل . . . وما يُريد الإسلام إلّا نفس المسلم الإنساني.

أيها المسلم!

لا تنقطع من نبيك العظيم، وعش فيه أبداً، وأجعلهُ مثلك الأعلى؛ وحين تذكرهُ في كل وقت فكُن كأنك بين يديه؛ كُن دائماً كالمسلم الأول؛ كُن دائماً أبناً المعجزة.

(١) الناقل من كل شيء: الزائد.

(٢) المجوسي: عابد النار.

حَقِيقَةُ الْمُسْلِمِ

لا يعرف التاريخ غيرَ محمدٍ ﷺ رجلاً أفرغَ اللهُ وجودَهُ في الوجودِ الإنساني كله؛ كما تنصبُ المادَّةُ في المادَّة، ليمتزجَ بها فتحوَّلها، فتحدثَ منها الجديد، فإذا الإنسانيةُ تتحوَّلُ به وتنمو، وإذا هو ﷺ وجودٌ سارٍ فيها فما تبرَّحُ هذه الإنسانيةُ تنمو به وتتحوَّل.

كَانَ الْمَعْنَى الْأَدْمِيَّ فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَأَنَّمَا وَهَنَ^(١) مِنْ طَوْلِ الْأَدَمِ عَلَيْهِ، يَتَحَقَّقُ^(٢) وَيَمُحُوهُ وَيَتَعَاوَرُهُ^(٣) بِالْشَّرِّ وَالْمُنْكَرِ؛ فَابْتَعَثَ اللَّهُ تَارِيخَ الْعَقْلِ بِأَدَمَ جَدِيدٍ بَدَأَتْ بِهِ الدُّنْيَا فِي تَطَوُّرِهَا الْأَعْلَى مِنْ حَيْثُ يَرْتَفِعُ الْإِنْسَانُ عَلَى ذَاتِهِ، كَمَا بَدَأَتْ مِنْ حَيْثُ يُوجَدُ الْإِنْسَانُ فِي ذَاتِهِ؛ فَكَانَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ دَهْرَهَا بَيْنَ اثْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا فَتَحَ لَهَا طَرِيقَ الْمَجِيِّ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالثَّانِي فَتَحَ لَهَا طَرِيقَ الْعُودَةِ إِلَيْهَا: كَانَ فِي آدَمَ سِرُّ وجودِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَكَانَ فِي مُحَمَّدٍ سِرُّ كَمَالِهَا.



وَلِهَذَا سُمِّيَ الدِّينُ (بِالْإِسْلَامِ)؛ لِأَنَّهُ إِسْلَامُ النَّفْسِ إِلَى وَاجِبِهَا، أَيْ إِلَى الْحَقِيقَةِ مِنَ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ؛ كَأَنَّ الْمُسْلِمَ يُنْكَرُ ذَاتَهُ فَيُسَلِّمُهَا إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ تُصَرِّفُهَا وَتَغْتَمِلُهَا فِي كَمَالِهَا وَمَعَالِيهَا؛ فَلَا حَظَّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ يُمَسِّكُهَا عَلَى شَهَوَاتِهِ وَمَنَافِعِهِ، وَلَكِنْ لِلْإِنْسَانِيَّةِ بِهَا الْحَظُّ.

وَمَا الْإِسْلَامُ فِي جَمَلِهِ إِلَّا هَذَا الْمَبْدَأُ: مَبْدَأُ إِنْكَارِ الذَّاتِ وَ(إِسْلَامُهَا) طَائِعَةً عَلَى الْمُنْشِطِ^(٤) وَالْمَكْرُوهِ لِقُرُوضِهَا وَوَجَابِئِهَا؛ وَكَلَّمَا نَكَصَتْ^(٥) إِلَى مَنْزَعِهَا الْخَيَوَانِيِّ، أَسْلَمَهَا صَاحِبُهَا إِلَى وَازِعِهَا^(٦) الْإِلَهِيِّ؛ وَهُوَ أَبَدًا يَرُوضُهَا^(٧) عَلَى هَذِهِ

(١) وَهَنَ: ضَعُفَ.

(٢) يَتَحَقَّقُ: يَظْلَمُهُ.

(٣) يَتَعَاوَرُهُ: يَتَجَاوِزُهُ، يَتَاوَشُهُ.

(٤) الْمُنْشِطُ: الْمَجْدُ وَالْحَيَرَةُ وَالْحِمَاسُ.

(٥) نَكَصَتْ: تَرَاوَعَتْ.

(٦) وَازِعُهَا: رَادِعُهَا.

(٧) يَرُوضُهَا: يَدْرِبُهَا.

الحركة ما دام حيًّا؛ فيتنزَّعها كلُّ يوم من أوهام دنياها، ليضعها ما بين يدي حقيقتها الإلهية: يروضها على ذلك كلِّ يوم وليلة خمسَ مراتٍ مُسماةً في اللغة خمسَ صلوات، لا يكون الإسلام إسلاماً بغيرها؛ فلا غرو^(١) وكانت الصلاة بهذا المعنى كما وصفها النبي ﷺ هي عماد الدين.

بين ساعاتٍ وساعاتٍ في كلِّ مطلعٍ شمسٍ من حياة المسلم صلاة، أي إسلام النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشاملة^(٢) القائمة على الطاعة للفرص الإلهي، وإنكاراً لمعانيها الذاتية ألقانية التي هي مادة الشرِّ في الأرض، وإقارها لحظاتٍ في خَيْرِ الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكراتها. ومعنى ذلك كله تحقيق المسلم لوجود روجه؛ إذ كانت أعمال الدنيا في جملتها طُرُقاً تنشئت فيها الأرواح وتبعثر، حتى تَصِلَ روح الأخ عن روح أخيه فتذكرها ولا تعرفها!

وهذا الوجود الروحي هو مبعث الحالة العقلية التي جاء الإسلام لينهدي الإنسانية إليها: حالة السلام الروحاني الذي يجعل حرب الدنيا المهلكة حرباً في خارج النفس لا في داخلها، ويجعل ثروة الإنسان مُقدَّرة بما يعامل الله والإنسانية عليه؛ فلا يكون ذهبه وفضته ما كتبت عليه الدول: «ضرب في مملكة كذا»، ولكن ما يراه هو قد كتبت عليه: «صنِّع في مملكة نفسي»؛ ومن ثم لا يكون وجوده الاجتماعي للأخذ حسب، بل للعطاء أيضاً، فإن قانون المال هو الجمع، أما قانون العمل فهو التبذل.

بالانصراف إلى الصلاة وجمع النية عليها، يستشعر المسلم أنه قد حطَّم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان، وخَرَجَ منها إلى روحانية لا يُحدُّ فيها إلا بالله وحده.

وبالقيام في الصلاة، يُحقِّق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر الآسافي على الجسم كله، ليمتزج بجلال الكون ووقاره، كأنه كائن متَّصِبٌ مع الكائنات يسبح بحمده. وبالتولي شطر القبلة^(٣) في سمتها^(٤) الذي لا يتغيَّر على اختلاف أوضاع

(١) لا غرو: لا شك، لا ريب.

(٢) الشاملة: الجامعة، ويقصد بذلك صلاة الجماعة لأهميتها والثواب.

(٣) شطر القبلة: ناحيتها.

(٤) سمتها: وقارها ومظهرها.

الأرض، يَعْرِفُ الْمُسْلِمُ حَقِيقَةَ الرَّمْزِ لِلْمَرْكَزِ الثَّابِتِ فِي رُوحَانِيَّةِ الْحَيَاةِ؛ فَيَحْمِلُ قَلْبُهُ مَعْنَى الْأَطْمَئِنَانِ وَالْإِسْتِقْرَارِ عَلَى جَاذِبِيَّةِ الدُّنْيَا وَقَلَقِهَا.

وبالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، يُشْعِرُ الْمُسْلِمُ نَفْسَهُ مَعْنَى السَّمَوِّ وَالرَّفْعَةِ عَلَى كُلِّ مَا عَدَا الْخَالِقَ مِنْ وَجُودِ الْكَوْنِ.

وبالْجُلُوسَةِ فِي الصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ التَّحِيَّاتِ الطَّيِّبَاتِ، يَكُونُ الْمُسْلِمُ جَالِساً فَوْقَ الدُّنْيَا يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَيَشْهَدُ وَيَدْعُو.

وبالتَّسْلِيمِ الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ، يُقْبَلُ الْمُسْلِمُ عَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا إِقْبَالاً جَدِيداً: مِنْ جِهَتِي السَّلَامِ وَالرَّحْمَةِ.

هِيَ لَحَظَاتٌ مِنَ الْحَيَاةِ كُلِّ يَوْمٍ فِي غَيْرِ أَشْيَاءِ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ لِجَمْعِ الشُّهُوَاتِ وَتَقْيِيدِهَا بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ بِسُلْسُلِهَا وَأَغْلَالِهَا مِنْ حَرَكَاتِ الصَّلَاةِ، وَلِتَمْزِيقِ الْفَنَاءِ خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلِّ يَوْمٍ عَنِ النَّفْسِ؛ فَيَرَى الْمُسْلِمُ مِنْ وَرَائِهِ حَقِيقَةَ الْخُلُودِ، فَتَشْعُرُ أَلْرُوحُ أَنَّهَا تَنْمُو وَتَتَّسِعُ.

هِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ، وَهِيَ كَذَلِكَ خَمْسُ مَرَّاتٍ يَتَرَفَّعُ فِيهَا الْقَلْبُ مِمَّا أَمْتَلَأَ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا، فَمَا أَدَقُّ وَأَبْدَعُ وَأَصْدَقُ قَوْلُهُ ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».



لَمْ يَكُنِ الْإِسْلَامُ فِي حَقِيقَتِهِ إِلَّا إِبْدَاعاً لِلصُّيغَةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَنْتَظِمُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِيهَا؛ وَلِهَذَا كَانَتْ آدَابُهُ كُلُّهَا حُرَاساً عَلَى الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ، كَأَنَّهَا مَلَائِكَةٌ مِنَ الْمَعَانِي؛ وَكَانَ الْإِسْلَامُ بِهَا عَمَلاً إِصْلَاحِيّاً وَقَعَ بِهِ التَّطَوُّرُ فِي عَالَمِ الْغَرِيزَةِ، فَتَقَلَّعَ إِلَى عَالَمِ الْخُلُقِ، ثُمَّ أَرْتَقَى بِالْخُلُقِ إِلَى الْحَقِّ، ثُمَّ سَمَا بِالْحَقِّ إِلَى الْخَيْرِ الْعَامِّ؛ فَهُوَ سَمَرُ فَوْقَ الْحَيَاةِ بِثَلَاثَةِ طَبَقَاتٍ، وَتَدْرُجُ إِلَى الْكَمَالِ فِي ثَلَاثِ مَنَازِلَ، وَأَبْتَعَادُ عَنِ الْأَوْهَامِ بِمَسَافَةِ ثَلَاثِ حَقَاقٍ.

وَبِتِلْكَ الْأَعْمَالِ وَالْآدَابِ كَانَتْ الدُّنْيَا الْمُسْلِمَةُ الَّتِي أُسَّسَهَا النَّبِيُّ ﷺ دُنْيَا أَسْلَمَتْ طَبِيعَتُهَا، فَأَصْبَحَتْ عَلَى مَا أَرَادَ الْمُسْلِمُونَ لَا مَا أَرَادَتْ هِيَ؛ وَكَأَنَّهَا قَائِمَةٌ بِنَوَامِيسَ مِنْ أَهْلِهَا، لَا عَلَى أَهْلِهَا؛ وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَغْزُو الْأَمَمَ بِالْعَرَبِ وَيَفْتَتِحُهَا، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ إِقْلِيماً مِنَ الدُّنْيَا كَانَ يُحَارِبُ سَائِرَ أَقَالِيمِ الْأَرْضِ بِالطَّبِيعَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْجَدِيدَةِ لِهَذَا الدِّينِ.

وَكَانَ اللَّهُ - تَعَالَى - أَلْقَى فِي رِمَالِ الْجَزِيرَةِ رُوحَ الْبَحْرِ، وَبَعَثَهَا بَعْثَهُ الْإِلَهِيِّ

لأمره، فكان النبي ﷺ هو نقطة المد التي يفور البحر منها، وكان المسلمون أمواجه التي غسّلت بها الدنيا...

لهذا سمع المسلمون الأولون كلام الله - تعالى - في كتابه، وكلام رسوله ﷺ، لا كما يسمعون القول، ولكن كما يتلقون الحكم النافذ المقتضي^(١)؛ ولم يجدوا فيه البلاغة وحدها، بل روعة أمر السماء في بلاغة؛ واتصلوا بنبيهم، ثم بعضهم ببعض، لا كما يتصل إنسان بإنسان، بل كما تتصل الأمواج بقوة المد، ثم كما يمد بعضها بعضاً في قوة واحدة.

وحققوا في كماله ﷺ وجودهم النفسي؛ فكانوا من زخارف الحياة وباطليها في موضع الحقيقة الذي يرى فيه الشيء لا شيء.

ورأوا في إرادته ﷺ النقطة الثابتة فيما يتضارب من خيالات النفس؛ فكانوا أكبر علماء الأخلاق على الأرض، لا من كتب ولا علم ولا فلسفة، بل من قلب نبيهم وحده.

وعرفوا به ﷺ تمام الرجولة؛ ومتى تمت هذه الرجولة تمامها في إنسان، رجعت له الطفولة في روجه، وأمتلك تلك الطبيعة التي لا يملكها إلا أعظم الفلاسفة والحكماء فأصبح كأنما يمشي في الحياة إلى الجنة بخطوات مسددة لا تزيغ^(٢) ولا تنحرف، فلا شر ولا ذيلة؛ وديناء هي الدنيا كلها بشمسها وقمرها، يملكها وإن لم يملك منها شيئاً، ما دامت في قلبه طبيعة السرور، فلا فقر ولا غنى مما يشعر الناس بمعانيه، بل كل ما أمكن فهو غنى كامل، إذ لم تعد القوة في المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها، بل القوة في الروح التي تتصرف بطبيعة الوجود، وتدفع قوى الجسم بمثل دوافع الطفولة النامية المتغلبة، حتى لتجعل من النور والهواء ما يؤتد^(٣) به مع الخبز القفار، كما يؤتد باللحم وأطياب الأطعمة.

وبذلك لا تسلط ضرورة على الجسم - كالجوع والفقير والألم ونحوها - إلا كان تسلطها كأنه أمر من قوة في الوجود إلى قوة في هذا الجسم: أن تظهر لتعمل عملها الممّجّز في إبطال هذه الضرورة. وهذا الجنس من الناس كالأزهار على

(١) المقتضي: المقتر.

(٢) لا تزيغ: لا تتحول ولا تنحرف.

(٣) يؤتد: يؤكل من الطعام.

أغصانها الخُضر؛ لو قالت شيئاً لقالت: إن ثروتي في الحياة هي الحياة نفسها،
فليس لي فقر ولا غنى، بل طبيعة أولاً طبيعة.

ولقد كان المسلم يُضرب بالسيف في سبيل الله، فتقع ضربات السيوف على
جسمه فتمزقه؛ فما يُحسها إلا كأنها قبل أصدقاء من الملائكة يلقونه ويعانقونه!
وكان يُبتلى في نفسه وماله، فلا يشعر في ذلك أنه المرزأ^(١) المبتلى يُعرف
فيه الحزن والانكسار، بل تظهر فيه الإنسانية المنتصرة كما يظهر التاريخ الظاهر في
بطوله العظيم أصيب في كل موضع من جسمه بجراح، فهي جراح وتشويه وألم،
وهي شهادة النصر!

ولم تكن أثقال المسلم من دنياء أثقالاً على نفسه، بل كانت له أسباب قوة
وسمو؛ كالنسر المخلوق لطبقات الجو العليا، ويحمل دائماً من أجل هذه الطبقات
ثقل جناحيه العظيمين.

وكانت الحقيقة التي جعلها النبي ﷺ مثلهم الأعلى، وأقرها في أنفسهم
بجميع أخلاقه وأعماله - أن الفضائل كلها واجبة على كل مسلم لنفسه، إذ إنها
واجبة بكل مسلم على غيره، فلا تكون في الأمة إلا إرادة واحدة متعانة، تجعل
المسلم وما هو روح أمته تعمل به أعمالها هي لا أعماله وحدها.

المسلم إنسان ممتد بمنافعه في معناه الاجتماعي حول أمته كلها، لا إنسان ضيق
مجتمع حول نفسه بهذه المنافع؛ وهو من غيره في صدق المعاملة الاجتماعية كالتاجر
من التاجر؛ تقول الأمانة لكلهما: لا قيمة لميزانك إلا أن يصدق ميزان أخيك.

ولن يكون الإسلام صحيحاً تاماً حتى يجعل حامله مثلاً من نبيه في أخلاق
الله؛ فما هو بشخص يضبط طبيعته: يقهرها مرة وتقهره مراراً؛ ولكن طبيعة تضبط
شخصها فهي قانون وجوده.

لا يضطرب من شيء، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار؟

لا يخاف من شيء، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة؟

لا يخشى مخلوقاً، وكيف يخشى ومعه الله؟

أيها الأسد، هل أنت بجملتك إلا في طبيعة محالِك وأنيابك...؟

(١) المرزأ: المصاب بالابتلاءات المختلفة.

وحي الهجرة

إِنَّ التَّارِيخَ لَيْتَكَلَّمُ بِلُغَةٍ أَوْسَعَ مِنْ أَلْفَاظِهِ إِذَا قَرَأَهُ مَنْ يَقْرُؤُهُ عَلَى أَنَّهُ بَعْضُ نَوَامِيسِ الوجود، صُوِّرَتْ فِيهَا النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ كَيْفَ أَغْتَوَّرَتْ أَغْرَاضَهَا، وَكَيْفَ مَدَّتْ فِي نَسَقِهَا^(١)، وَكَيْفَ تَغْلَغَلَتْ فِي مَسَالِكِهَا، وَمَا تَأْتَى لَهَا فَجَرَتْ بِهِ مَجْرَاهَا، وَمَا دَفَعَهَا فَانْحَدَرَتْ مِنْهُ إِلَى مَقَارِهَا^(٢)؛ فَهوَ لَيْسَ بِكَلَامٍ تَسْتَقْبِلُهُ تَقْرَأُ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ أَحْوَالٌ مِنَ الوجود تَعْتَرِضُهَا فَتُغَيِّرُ عَلَيْكَ حِسَّكَ بِإِلْهَامِهَا وَأَحْلَامِهَا، وَتَتَنَازَلُهَا مِنْ نَاحِيَةٍ فَتَتَنَازَلُكَ مِنَ الْآخَرَى؛ فَإِذَا الْكَلِمَةُ مِنْ وَرَائِهَا مَعْنَى، مِنْ وَرَائِهِ طَبِيعَةٌ، مِنْ وَرَائِهَا سَبَبٌ وَحِكْمَةٌ؛ وَإِذَا كُلُّ حَادِثَةٍ فِيهَا إِنْسَانِيَّتُهَا وَالْهِئَتُهَا مَعًا، وَإِذَا الوجودُ فِي ذَهْنِكَ كَالسَّاعَةِ تَرْسُمُ لَكَ حَدَّ الثَّانِيَةِ بِخَطَرَتَيْنِ، وَحَدَّ الدَّقِيقَةِ مِنْ عَدَدٍ مُحَدَّدٍ مِنَ الثَّوَانِي، وَحَدَّ السَّاعَةِ إِلَى حَدِّ الْيَوْمِ؛ وَإِذَا الْبَيَانُ فِي نَفْسِكَ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْحَوَاشِي، وَإِذَا التَّارِيخُ فِيمَا تَقْرُؤُهُ مُفْتَنٌ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ يَبْقِيءُ عَلَيْكَ مِنَ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ بَظَلَالٍ هِيَ صِلَتُكَ أَنْتَ أَيُّهَا الْحَيُّ الْمَوْجُودُ بِأَسْرَارٍ مَا كَانَ مَوْجُودًا مِنْ قَبْلِ.

كَذَلِكَ قَرَأْتُ بِالْأَمْسِ تَارِيخَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي كِتَابِ أَبِي جَعْفَرٍ الطَّبْرِيِّ لِأَكْتُبَ عَنْهُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، فَلَمْ أَكُنْ - عَلِيمُ اللَّهِ - فِي كِتَابٍ وَلَا فِي حِكَايَةٍ، بَلْ فِي عَالَمٍ أَنْبَقَ فِي نَفْسِي مَخْلُوقًا تَامًا بِأَهْلِهِ، وَحَوَادِثَ أَهْلِهِ، وَأَسْرَارِ أَهْلِهِ جَمِيعًا؛ كَمَا يَرَى الْمُحِبُّ حَبِيبَهُ: لَا يَكُونُ الْجَمِيلُ فِي مَحَلٍّ إِلَّا أَمْتَلَأَ مَكَانَهُ بِعَاشِقِهِ، فَهوَ مَكَانٌ مِنَ النَّفْسِ، لَا مِنَ الدُّنْيَا وَحْدَهَا، وَفِيهِ الْحَيَاءُ كَمَا هِيَ فِي الوجودِ بِمَظْهَرِ الْمَادَةِ، وَكَمَا هِيَ فِي الْحُبِّ بِمَظْهَرِ الرُّوحِ.

وَتِلْكَ حَالَةٌ مِنَ الْقِرَاءَةِ بِالرُّوحِ وَالْكِتَابَةِ بِالرُّوحِ، مَتَى أَنْتَ سَمَوْتَ إِلَيْهَا رَأَيْتَ فِيهَا غَيْرَ الْمَعْنَى يُخْرِجُ مَعْنَى، وَمِنْ لَا شَيْءٍ تُخَلِّقُ أَشْيَاءَ، لِأَنَّكَ مِنْهَا أَتَّصَلْتَ بِأَسْرَارِ نَفْسِكَ، وَمِنْ نَفْسِكَ أَتَّصَلْتَ بِأَسْرَارِ فَوْقَهَا؛ فَيُصْبِحُ التَّارِيخُ مَعَكَ فَنَ الوجودِ الْإِنْسَانِي عَلَى الرُّوحِ الَّذِي أَفْضَتْ بِهِ الْحِكْمَةُ إِلَى الْحَيَاةِ لِتَسْتَمِرَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ،

(٢) مَقَارِهَا: أَمَاكِنُهَا.

(١) نَسَقُهَا: طَرَاظُهَا وَعَلَى شَكْلِهَا.

لا فَنُ عَلِمَ النَّاسِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَفْضَتْ^(١) بِهِ الْحَوَادِثُ مِمَّا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ .

نَشَأَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَكَّةَ ، وَاسْتَنْبَى عَلَى رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ سِنِّهِ ، وَغَبَرَ^(٢) ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يَدْعُو إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يُهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْإِسْلَامِ أَوَّلَ بَدْأَتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ وَغُلَامٌ : أَمَّا الرَّجُلُ فَهُوَ هُوَ ﷺ ، وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَزَوْجُهُ خَدِيجَةُ ، وَأَمَّا الْغُلَامُ فَعَلِيٌّ ابْنُ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ .

ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ النَّمُوِّ فِي الْإِسْلَامِ بَحْرٌ وَعَبْدٌ : أَمَّا الْحُرُّ فَأَبُو بَكْرٍ ، وَأَمَّا الْعَبْدُ فَبِلَالٌ ، ثُمَّ اتَّسَقَ النَّمُوُّ قَلِيلًا قَلِيلًا يُطْءِ الْهَمُومُ فِي سِيرِهَا ، وَصَبَرَ الْحُرُّ فِي تَجَلِّدِهِ ؛ وَكَأَنَّ التَّارِيخَ وَقَفَ لَا يَتَزَحَّزَحُ ، ضَيِّقٌ لَا يَتَسَيَّعُ ، جَامِدٌ لَا يَنْمُو ؛ وَكَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخُو الشَّمْسِ : يَطْلُعُ كِلَاهِمَا وَحَدَهُ كُلُّ يَوْمٍ . حَتَّى إِذَا كَانَتِ الْهَجْرَةُ مِنْ بَعْدُ ، فَانْتَقَلَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، بَدَأَتْ الدُّنْيَا تَتَقَلَّقُلُ^(٣) ، كَأَنَّمَا مَرَّ بِقَدَمِهِ عَلَى مَرْكَزِهَا فَحَرَّكَهَا ؛ وَكَانَتْ خَطَوَاتُهُ فِي هَجْرَتِهِ تَخْطُ فِي الْأَرْضِ ، وَمَعَانِيهَا تَخْطُ فِي التَّارِيخِ ؛ وَكَانَتْ الْمَسَافَةُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، وَمَعْنَاهَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .

لَقَدْ كَانَ فِي مَكَّةَ يَغْرُضُ الْإِسْلَامَ عَلَى الْعَرَبِ كَمَا يُغْرَضُ الذَّهَبُ عَلَى الْاِمْتَوَحَشِينَ : يَرُوزُهُ بَرِيْقًا وَشُعَاعًا ثُمَّ لَا قِيَمَةَ لَهُ ، وَمَا بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ حَاجَةٌ بَنِي آدَمَ إِلَّا الْاِمْتَوَحَشِينَ ، وَكَانُوا فِي الْمَحَادَّةِ^(٤) وَالْمَخَالَفَةِ الْحَقْمَاءِ ، وَالْبُلُوْغُ بِدَعْوَتِهِ مَبْلَغُ الْأَوْهَامِ وَالْاِسَاطِيرِ - كَمَا يَكُونُ الْمَرِيضُ بِذَاتِ صَدْرِهِ مَعَ الَّذِي يَدْعُوهُ فِي لَيْلَةٍ قَارَةً إِلَى مَدَاوِئِهِ جَسَمِهِ بِأَشْعَةِ الْكَوَاكِبِ ؛ وَكَانَتْ مَكَّةُ هَذِهِ صَخْرًا جُغْرَافِيًّا يَتَحَطَّمُ وَلَا يَلِينُ ، وَكَأَنَّ الشَّيْطَانَ نَفْسَهُ وَضَعَ هَذَا الصَّخْرَ فِي مَجْرَى الزَّمَنِ لِيَصْدُ بِهِ التَّارِيخَ الْإِسْلَامِيَّ عَنِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا .

وَأُوذِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَكُذِّبَ وَأُهِنَ ، وَرَجَفَ بِهِ الْوَادِي بِخَطْوِهِ فِيهِ عَلَى زَلَّازِلٍ تَتَقَلَّبُ ، وَنَابِذَةً^(٥) قَوْمُهُ وَتَذَامَرُوا^(٦) فِيهِ ، وَحَضُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ ، وَانْصَفَقَ^(٧) عَنْهُ عَامَةُ النَّاسِ وَتَرَكُوهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ اللَّهَ مِنْهُمْ ؛ فَأُصِيبَ كَبِيرًا بِالْيَتَمِّ مِنْ قَوْمِهِ ، كَمَا أُصِيبَ صَغِيرًا بِالْيَتَمِّ مِنْ أَبِيهِ .

(١) أُرِدَتْ : أَوْصَلَتْ .

(٢) غَبَرَ : مَضَى .

(٣) تَتَقَلَّقُلُ : تَتَمَلَّلُ .

(٤) الْمَحَادَّةُ : الْمَعَانِدَةُ وَالْمَخَالَفَةُ وَالْعِدَاءُ .

(٥) نَابِذَ : رَفَضَ وَأَخْرَجَ وَأَفْرَدَ .

(٦) تَذَامَرُوا : اتَّحَدُوا وَاحْتَشَدُوا جَمَاعَاتٍ

جَمَاعَاتٍ .

(٧) انْصَفَقَ : تَخَلَّى وَاجْتَنَبَ .

وكانَ لا يسمعُ بقادمٍ يقدُمُ مِنَ العربِ لَهُ أَسْمٌ وشرفٌ، إِلَّا تصدَّى^(١) لَهُ فدعاهُ إلى اللَّهِ وعرضَ نفسَهُ عليه؛ ومع ذلك بقيتِ الدَّعوةُ تلوِّحُ وتختفي كما يَشُقُّ البرقُ من سحابةٍ على السَّماءِ: ليسَ إِلَّا أَن يَرى ثم لا شيءَ بعدَ أَن يَرى!

فهذا تاريخُ ما قبلَ الهجرةِ في جملةِ معناه، غيرَ أَنِّي لم أقرأه تاريخاً، بل قرأتُ فيه فصلاً رائعاً من حِكْمَةِ إلهية، وضَعَهُ اللَّهُ كالمقدمةِ لتاريخِ الإسلامِ في الأرض؛ مقدمةٌ مِنَ الحوادثِ والأيامِ تحيا وتمرُّ في نَسَقٍ^(٢) الروايةِ الإلهيةِ المنطويةِ على رموزِها وأسرارِها، وتظهرُ فيها رَحْمَةُ اللَّهِ تعملُ بقسوةٍ، وحِكْمَةُ اللَّهِ تتجلَّى في غُموضٍ؛ فلو أنتَ حققتَ النَّظَرَ لرَأيتَ تاريخَ الإسلامِ يتألهُ^(٣) في هذه الحَفْبةِ، بحيثَ لا تَقْرؤه أَنفُسُ المؤمنةِ إِلَّا خاشعةً كأنها تُصَلِّي، ولا تَدْبُرُهُ إِلَّا خاضعةً كأنها تتعَبَّدُ.

بدأ الإسلامُ في رجلٍ وأمرأةٍ وغلَام، ثم زاد حرّاً وعبداً؛ أليستَ هذه الخمسُ هي كُلُّ أطوارِ البشريةِ في وجودِها، مخلوقةً في الإنسانيةِ والطبيعةِ، ومصنوعةً في السِّياسَةِ والاجتماعِ؛ فهلْ هنا مطلعُ القصيدةِ، وأوَّلُ الرمزِ في شعرِ التَّاريخِ.

ولَبَّثَ النَّبِيُّ ﷺ ثلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً لا يَبْغِيهِ^(٤) قَوْمُهُ إِلَّا شِراً، على أَنَّهُ دَائِبٌ^(٥) يَطْلُبُ ثُمَّ لا يجدُ، وَيَعْرِضُ ثُمَّ لا يَقْبَلُ منه، وَيُخْفِقُ ثُمَّ لا يَعْتَرِيهِ أَلْيَاسٌ، وَيَجْهَدُ ثُمَّ لا يَتَخَوَّنُهُ أَلْمَلَلُ^(٦)، وَيَسْتَمِرُّ ماضياً لا يَتَحَرَّفُ^(٧)، ومعزوماً لا يَتَحَوَّلُ؛ أليستَ هذه هي أسمى معاني التربيةِ الإنسانيةِ أظهرَها اللَّهُ كُلَّها في نبيِّه، فَعَمِلَ بها وَتَبَّتْ عليها، وكانت ثلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً في هذا المعنى كعمرِ طفلٍ وُلِدَ ونشأ وأَحْكَمَ تَهْذِيبُهُ بِالْحَوَادِثِ، حتى تَسَلَّمَتْهُ الرُّجُولَةُ أَلْكاملَةُ بمعانيها مِنَ الطُّفُولَةِ أَلْكاملَةِ بوسائِلِها؟

أفليسَ هذا فصلاً فلسفياً دقيقاً يَعْلَمُ أَلْمسلمينَ كيفَ يَجِبُ أَن يَنشَأَ أَلْمسلمُ: غِناءً في قلبِهِ، وقُوَّةً في إيمانِهِ، وموضَعُهُ في الحَيَاةِ موضعُ النافعِ قبلَ أَلْمنتفعِ، وأَلْمصليحِ قبلَ أَلْمقلدِ؛ وفي نفسِهِ من قوَّةِ أَلْحَيَاةِ ما يموتُ به في هذه النفسِ أَكْثَرُ ما في الأَرْضِ والناسِ من شهواتٍ ومطامعٍ؟

(١) تصدَّى: خرج لمواجهته.

(٢) نسق: نمط منسجم.

(٣) يتأله: يسمو ويعلو كالإله.

(٤) لا يبغيه: لا يريد له.

(٥) دائب: مستمر.

(٦) لا يتخونه الملل: لا يداخله.

(٧) لا يتحرّف: لا يميل ولا يتحوّل.

ثم أليست تلك العوامل الأخلاقية هي هي التي أقيمت في منبع التاريخ الإسلامي ليُعَبَّ منها تياره؛ فتدفعه في مجراه بين الأمم، وتجعل من أخصائص الخصائص الإسلامية في هذه الدنيا - أثبات على الخطوة المتقدمة وإن لم تتقدم، وعلى الحق وإن لم يتحقق؛ والتبرؤ من الأثرة وإن شئت^(١) عليها النفس، واحتقار الضعيف وإن حكمت وتسلط، ومقاومة الباطل وإن ساد وغلب، وحمل الناس على مخاض الخير وإن ردوا بالشر، والعمل للعمل وإن لم يأت بشيء، والواجب للواجب وإن لم يكن فيه كبير فائدة، وبقاء الرجل رجلاً وإن حطمه كل ما حوله؟

ثم هي هي البرهانات القائمة للدهر قيام المنارة في الساحل - على نبوة محمد ﷺ تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنه روح وغاياتها المحتومة بالقدر، لا جسم ووسائله المتعلبة بالطبيعة؛ ولو كان رجلاً أبتهته^(٢) نفسه، لتمحل^(٣) الجيل لسياسته، ولأخذت طمعاً من كل مطمع، ولركذ مع الحوادث وهب، ولما أستمروا طوال هذه المدة لا يتجه وهو فرد إلا أنجاء الإنسانية كلها كأنما هو هي.

ولو هو كان رجل المملك أو رجل السياسة، لاستقام والثوى، ولأدرك ما يتغني في سنوات قليلة، ولأوجد الحوادث يتعلق عليها، ولما أفلت ما كان موجوداً منه يتعلق به، ولما أنتزع نفسه من محله في قومه وكان واسطة فيهم، ولا ترك عوامل الزمن تبعده وهي كانت تدينه.

قالوا: إن عمه أبا طالب بعث إليه حين كلمته فريش فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي: كذا وكذا، فأبقي علي وعلى نفسك. ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء^(٤)، وأنه خاذله^(٥)، ومسلّمه، وأنه قد ضعف عن نصريه والقيام معه، فقال: يا عمه، - والله - لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته. ثم استعبر ﷺ فبكى.

يا دموع النبوة! لقد أثبت أن النفس العظيمة لن تتعزى عن شيء منها بشيء.

(١) شئت: بخلت وقلت.

(٢) أبتهته: اختارته.

(٣) تمحل: أوجد الأعذار الواهية.

(٤) بداء: رأي جديد.

(٥) خاذله: متخلي عنه.

من غيرها كائناً ما كان، لا من ذهبِ الأرضِ وفضّتها، ولا من ذهبِ السماءِ وفضّتها إذا وُضِعَتِ الشَّمْسُ في يَدِ وَالْقَمَرُ في الأُخْرَى.

وكلُّ حوادثِ المَدَةِ قَبْلَ الهِجْرَةِ على طولها لَيْسَتْ إِلَّا دَلِيلٌ ذَلِكَ الزَّمَنِ على أَنَّهُ زَمَنٌ نَبِيٌّ، لا زَمَنٌ مَلِكٍ أو سِياسِيٍّ أو زَعِيمٍ؛ ودَلِيلُ الحَقِيقَةِ على أَنَّ هذا اليَقينُ الثَّابِتُ لَيْسَ يَقينُ الإنسانِ الاجتماعيِّ من جِهَةِ قُوَّتِهِ، بل يَقينُ الإنسانِ الإلهيِّ من جِهَةِ قَلْبِهِ؛ ودَلِيلُ الحِكْمَةِ على أَنَّ هذا الدينَ لَيْسَ مِنَ العَقائِدِ المَوْضُوعَةِ التي تَنْشُرُها عَذْوَى النَفْسِ لِلنَفْسِ؛ فها هو ذا لا يَلِغُ أَهْلُهُ في ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً أَكْثَرَ مِمَّا تَبْلُغُ أَسْرَةُ تَتَوَلَّدُ في هذه الحَقِيقَةِ؛ ودَلِيلُ الإنسانيَّةِ على أَنَّهُ وَخِي اللَّهِ يَبْجَاؤُ الإِخاءِ العالَميِّ والوَحدَةِ الإنسانيَّةِ. أَفَلَمْ يَكُنْ خُرُوجُهُ عن موطنِهِ هو تَحَقُّقُهُ في العالَمِ؟

ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، كَانَتْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ دَلِيلًا تُثَبِّتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ رَجُلٌ مُلْكٌ، ولا سِياسَةٌ، ولا زُعامةٌ؛ ولو كانَ واحداً من هَؤُلَاءِ لَأَدْرَكَ في قَلِيلٍ؛ وَلَيْسَ مُبْتَدِئٌ شَرِيعَةٍ من نَفْسِهِ، وَإِلَّا لَمَّا غَبَرَ في قَوْمِهِ وَكَانَهُ لَمْ يَجْذِمِمْ وَهَمَ حَوْلَهُ؛ وَلَيْسَ صَاحِبُ فِكْرَةٍ تَعْمَلُ أَسَالِيبُ النَفْسِ في أَتْشَارِها؛ ولو كانَهُ لَحَمَلَهُمْ على مَخْضِها وَمَمْزُوجِها؛ وَلَيْسَ رَجُلًا مُتَعَلِّقًا بِالْمُضَادَّاتِ الأَاجتماعيَّةِ، ولو هو كانَ لَجَعَلَ إيمانَ يَوْمِ كُفْرٍ يَوْمٍ؛ وَلَيْسَ مُضْلِحٌ عَشِيرَةٍ يَهْذُبُ مِنْها على قَدَرٍ ما تَقْبَلُ مِنْهُ سِياسَةٌ وَمُخَادَعَةٌ، ولا رَجُلٌ وَطَنِيٌّ تَكُونُ غايَتُهُ أَنْ يَشْمَخَ في أَرْضِهِ شُمُوخَ جَبَلٍ فيها، دُونَ أَنْ يُحَاوَلَ ما بَلَغَ إِلَيْهِ من إِطْلالِهِ على الدُّنيا إِطْلالَ السَّماءِ على الأَرْضِ، ولا رَجُلٌ حاضِرُهُ إِذْ كانَ وَاثِقًا دائِمًا أَنَّ مَعَهُ أَكْغَدَ وَآيَتِهِ، وَإِنْ أَدْبَرَ^(١) عَنْهُ اليَوْمُ وَذَاهَبَهُ؛ ولا رَجُلٌ طَبِيعَتُهُ أَلْبَشَرِيَّةٌ يَلْتَمِسُ لَهَا ما يَلْتَمِسُ الجانِعُ لِبَطْنِهِ، ولا رَجُلٌ شَخْصِيَّةٌ يَسْتَهْوِي بها وَيَسْحَرُ، ولا رَجُلٌ بَطْشِيٍّ يَغْلِبُ بِهِ وَيَتَسَلَّطُ، ولا رَجُلٌ الأَرْضِ في الأَرْضِ، وَلَكِنْ رَجُلُ السَّماءِ في الأَرْضِ.

هذه هي حِكْمَةُ اللَّهِ في تَدْبِيرِهِ لِنَبِيِّهِ قَبْلَ الهِجْرَةِ: قَبَضَ عَنْ أَطْرافِ الزَّمَنِ، وَحَصَرَهُ مِنْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً في مِثْلِ سَنَةٍ واحِدَةٍ، لا تَصُدُرُ بِهِ الأُمُورُ مُضَادَّةً كِي تُثَبِّتَ أَنَّها لا تَصُدُرُ بِهِ؛ ولا تَسْتَحِقُّ بِهِ الحَقِيقَةَ لِتَدُلَّ على أَنَّها لَيْسَتْ مِنْ قُوَّتِهِ وَعَمَلِهِ.

(١) أدبر: رجع راجعاً.

وكان ﷺ على ذلك - وهو في حدود نفيه وضيق مكانه - يتسّع في الزمن من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه، وكأثما كانت شمس اليوم الذي سينتصر فيه - قبل أن تشرق على الدنيا بثلاث عشرة سنة - مشرقة في قلبه ﷺ

والفصل من السنة لا يقدمه الناس ولا يؤخرونه، لأنه من سير الكون كله؛ والسحابة لا يشعلون برقها بالمصابيح، ومع النبي من مثل ذلك برهان الله على رسالته، إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فحل الفصل، وأنطلقت الصاعقة، وكانت الهجرة.

تلك هي المقدمة الإلهية للتاريخ، وكان طبيعياً أن يطرد التاريخ بعدها، حتى قال الرشيد للسحابة وقد مرّت به: أمطري حيث شئت فسيأتي خراجك!

فلسفة قصة

ماتت خديجة زوج النبي ﷺ ومات عمه أبو طالب في عام واحد، في السنة العاشرة من النبوة، فعظمت المصيبة فيهما عليه، إذ كان عمه هذا يمنعه من أذى قريش، ويقوم دونه فلا يخلصون إليه بمكره؛ وكان أبو طالب من قريش كالعقيدة السياسية: هي بطبيعتها قوة نافذة على قوة القبيلة؛ فمن ثم كان هو وحده المشكلة النفسية المعقدة التي تعمل قريش جاهدة في حلها، وقامت المعركة الإسلامية الأولى بين إرادتهم وإرادته، وهم أمة تحكمهم الكلمة الاجتماعية التي تسيّر عنهم في أقبائل؛ وتاريخهم ما يقال في الألسنة من معاني المدح والذم، فيخشون المقالة أكثر مما يخشون الغارة، وقد لا يبالون بالقتلى والجرحى منهم، ولكنهم يبالون بالكلمات المجروحة.

فكان من لطيف صنع الله للإسلام، وعجيب تدبيره في حماية نبيه ﷺ - وضع هذه القوة النفسية في أول تاريخ النبوة، تشتغل بها سخافات قريش، وتكون عملاً لفراغهم الروحي، وتثير فيهم الإشكال السياسي الذي يعطل قانونهم الوحي إلى أن يتم عمل الأسباب الخفية التي تكسر هذا القانون، فإن المصنع الإلهي لا يخرج أعماله التامة العظيمة إلا من أجزاء دقيقة.

أما خديجة زوج النبي ﷺ فكانت في هذه المحنة قلباً مع قلبه العظيم، وكانت لنفسه كقول (نعم) للكلمة الصادقة التي يقول لها كل الناس (لا)؛ وما زالت المرأة الكاملة المحبوبة هي التي تُعطي الرجل ما نقص من معاني الحياة، وتلد له الممرات من عواطفها كما تلد من أحشائها، فالوجود يعمل بها عملين عظيمين: أحدهما زيادة الحياة في الأجسام، والآخر إتمام نقصها في المعاني.

وبموت أبي طالب وخديجة، أفرّد النبي ﷺ بجسمه وقلبه، ليتجرد^(١) من الحالة التي يغلب فيها الجسد، إلى الحالة التي تغلب فيها الإرادة، ثم ليخرج من

(١) ليتجرد: ليتفرغ، ليتخلص.

أيام الأستقرار في أرضه، إلى الأيام المتحركة به في هجرته، ثم ليتهيّ بذلك إلى غاية قوميته الصغيرة المحدودة، فيتصل من ذلك بأول عالميته الكبرى.

وأراد الله - تعالى - أن يبدأ هذا الجليل العظيم من أسمى خلال الجلال والعظمة، ليكون أول أمره شهادة بكماله، وكانت الحسنه فيه بشهادة السيئه من قومه، فجلمه بشهادة رعونتهم^(١)، وأثأته^(٢) بدليل طيشهم، وجكمته ببرهان سفاهتهم^(٣)؛ وبذلك ظهر الروحاني روحانيًا في لمادة.

قالوا: فالث منه قريش، ووصلوا من أذه إلى ما لم يكونوا يصلون إليه في حياة عمه، حتى نثر بعضهم التراب على رأسه، كأنما يعلمونه أنه أهون عليهم من أن يكون خرا، فضلا عن أن يكون عزيزا، فضلا عن أن يكون نبيا؛ قالوا: فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي!

كانت تبكي إذ لا تعلم أن هذا التراب على رأس النبي العظيم هو شذوذ الحياة الأرضية الدنيئة، في مقابلة إنسانها الشاذ المنفرد. هذه القبضة من التراب الأرضي قبضة سفيهه، تحاول رد الممالك الإسلامية العظيمة أن تنشأ نشأتها وتعمل عملها في التاريخ، فهي في مقدارها وسخافتها ومحاولتها، كعقل قريش حينئذ في مقدارها وسخافتها ومحاولتها.

أما النبي ﷺ فقال لبيته: «يا بني لا تبكي، فإن الله مانع أباك». حسبت ذلك هوانا وضيعة، فأعلمها أن قبضة من التراب لا تطمر النجم، وأن هذه الحثوة الترابية لا تسمى معركة أثارها الخيل فجاءت بنتيجة، وأن ساعة من الحزن في يوم، لا يحكم بها على الزمن كله، وأن هذه الثروة التي تحركت الآن هي حمق الغباوة: قوتها نهايتها.

«يا بني لا تبكي فإن الله مانع أباك». أي ليس للنبي كبرياء ينالها الناس أو يغضون^(٤) عنها فيأتي الدمع مترجما عن المعنى الإنساني الناقص مثبتا أنه ناقص، إنما هي النبوة: قانونها غير ما اعتادت النفس من أفراح وأحزان، وهي النبوة: تجعل المختار لها غير محدود بجسده الضعيف، بل حدوده الحقائق التي فيها

(٣) سفاهتهم: طيشهم ودناءتهم.

(٤) غص الطرف: أغص عينه.

(١) رعونتهم: حماقتهم.

(٢) أثأته: ترويه.

قوتها، فهو في مَنَعَةِ الواقع الَّذِي لَا بَدَأَ أَنْ يَقَعَ، فلو أمكنَ أَنْ يُحَدَفَ يَوْمٌ مِنَ الزَّمَنِ
أَوْ يُؤَخَّرَ عَنْ وَقْتِهِ، أمكنَ أَنْ يُؤَخَّرَ النَّبِيُّ أَوْ يُحَدَفَ.

«يا بنية لا تبكي إِنَّ اللَّهَ مانِعٌ أَبَاكَ». لا - والله - ما يقول هذه الكلمة إِلَّا نبيٌّ
وَسِعَ التاريخُ في نفسه الكبيرة قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ هذا التاريخُ في الدنيا، فكلمتهُ هي
الإيمانُ والثقةُ إذ يتكلمُ عن موجود.

ترابٌ ينثرهُ سفيةٌ على رأسِ النبي! ويحك يا حَقَّارَةَ المادَّة؛ إِنَّ ارتفاعَكَ لعنة،
إِنَّ ارتفاعَكَ لعنة.



قالوا: وخرج رسولُ اللَّهِ ﷺ وحدهُ إلى الطائف، يلتمسُ من ثقيفِ النصرِ
والمَنَعَةِ لَهُ من قومه، فلَمَّا أَنتَهَى إلى الطائفِ عَمَدًا^(١) إلى نَفَرٍ من ثقيفٍ هم يومئذٍ
سادتهم وأشرافهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى اللَّهِ وكلَّمهم بما جاءهم لَهُ من نُصْرَتِهِ
والقيامِ مَعَهُ في الإسلامِ على مَنْ خالفَهُ من قومه، فلم يفعلوا وأغروا^(٢) بِهِ سفهاءَهم
وعبيدَهُم بسبِّهِ ويصبحونَ بِهِ، حتى أَجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ والجأؤُهُ إلى حائطٍ^(٣) لِعُتْبَةَ
ابنِ ربيعةٍ وشيبةِ بنِ ربيعةٍ وهما فيه. وَرَجَعَ عَنْهُ مِنْ سفهاءِ ثقيفٍ من كانَ يَتَّبِعُهُ،
فعمدَ ﷺ إلى ظِلِّ حُبْلَةٍ^(٤) من عَنَبٍ فجلسَ فيه، وأبنا ربيعةً ينظرانِ إليه ويريانِ ما
لَقِيَ مِنَ السفهاءِ.

فلَمَّا أَطْمَأَنَّ ﷺ في مجلسِهِ قال: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ
حِيلَتِي، وهواني على الناسِ؛ يا أرحمَ الراحمين، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَظْعِفِينَ وَأَنْتَ
رَبِّي، إلی مَنْ تَكَلَّنِي، إلی بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي^(٥)»، أو إلی عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ يَكُنْ
بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي. أَعُوذُ بِنورِ وَجْهِكَ الَّذِي
أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَّحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ، أَوْ
يَحُلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ!».



ألا ما أكملَ هذه الإنسانية التي تُثَبِّتُ أَنَّ قُوَّةَ الْخَلْقِ هي درجةٌ أَرْفَعُ مِنَ الْخَلْقِ

(١) عمد: لجأ.

(٢) أغروا: حثوا وشجعوا.

(٤) الحُبْلَةُ بالضم: الكرم.

(٥) يتجهمني: يستبطني بوجه كربه.

(٣) الحائط: البستان، وجميع على حوائط.

نفسه، فهذا فنُّ الصبرِ لا الصبرُ فقط، وفنُّ الجَلْمِ لا الجَلْمُ وحده.

قوةُ الخُلُقِ هي التي تجعلُ الرجلَ العظيمَ ثابتاً في مركزِ تاريخه لا متقلِّباً في تواريخِ الناس، محدوداً بعظائمِ شخصيتهِ الخالدة لا بمصالحِ شخصه الفاني، ناظراً في الحياةِ إلى الوضعِ الثابتِ للحقيقةِ لا إلى الوضعِ المتغيّرِ للمنتفعة.

وما كانَ أولئك الأشرافُ وسفهاؤهم وعبيدُهم إلا معانيَ الظلم، والشر، والضعف، تقولُ للنبيِّ العظيمِ الذي جاءَ يمحوها ويُدبِّلُ منها: إنا أشياء ثابتةٌ في البشرية.

لم يكنْ منهمُ أشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ، بل كانَ منهمُ العُنفُ^(١)، والرقُّ، والطَّيشُ، تُسَخَّرُ ثلاثُها من نبيِّ العدل، والحرية، والعقل، فما تُسَخَّرُ إلا من نفسها. صفاتُ الحياةِ قد أحاطتْ بمجدِ الحياة، لُتِبَتِ الصِّغائرُ أنَّها الصِّغائرُ، وَلِتِبَتِ المجدُ أنَّه المجد.

كانَ ألفريقانِ هما الفكرتَينِ المتعادَتَينِ أبدأً على الأرض: إحداهما عِشْ لتَأْكُلَ وتَسْتَمِيعَ وإنْ أهْلَكْتَ، والأخرى عِشْ لتَعْمَلَ وتَنْفَعِ النَّاسَ وإنْ هَلَكْتَ.

كانتِ الأقدارُ تُبادي هذا الروحَ الواسعَ بذلك الروحَ الضيقَ، لينطلقَ الواسعُ من مكانه ويستقبلَ الدنيا التي عليه أنْ يُنشِئها. فأولئك الأشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ إنْ هم إلا الضيقُ، والركودُ، وذُلُّ العيش، حولَ السَّعةِ الروحيةِ، والسمو، وطَهارةِ الحياة.

وقَفَ المعنى السماويُّ بينَ معاني الأرض، ولكنْ نورَ الشمسِ ينبسطُ على الترابِ فلا يُعْفَرُهُ الترابُ^(٢)، وما هو بنورٍ يُضيءُ أكثرَ ممَّا هو قوةٌ تعملُ بالعناصرِ التي من طبيعتها أنْ تحوِّلَ، في العناصرِ التي من شأنها أنْ تتحوِّلَ.

وكانَ بينَ النبيِّ ﷺ وبينَ أولئك المستهزئينَ قوةٌ أخرى، هي القدرةُ التي تعملُ بهذا النبيِّ للعالمِ كُلِّه، وبهذه القدرةِ لم ينظرِ النبيُّ إلى قريشٍ وصَوْلَتِهِمْ^(٣) عليه إلا كما ينظرُ إلى شيءٍ انقضى، فكانَ الوجودُ الذي يُحيطُ به غيرَ موجود، وكانتِ حقيقةُ الزمنِ الآتي تجعلُ الزمنَ الحاضرَ بلا حقيقة.

(١) العسف: الجور والظلم.

(٢) يعفَرُه التراب: يلوِّثُه ويغْطِيه.

(٣) صَوْلَتِهِمْ: جَوْلَتِهِمْ، تغلبهم.

وإلى هذه القدرة توجّه النبي ﷺ بذلك الدعاء البليغ الخالد، يشكو أنه إنسان فيه الضعف وقلة الحيلة، فينطق الإنساني فيه بالشّطر^(١) الأول من الدعاء يذكر أنفراذه وآثار أنفراذه، ويتوجّع لما بينه وبين إنسانيه قومه، ثم ينطق الروحاني فيه بعد ذلك إلى آخر الدعاء متوجّهاً إلى مصدره الإلهي قائلاً أول ما يقول: إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي.

ولعمري لو نطق الشّمس تدعو الله لما خرجت عن هذا المعنى ولا زادت على قوله: «أعوذ بنور وجهك»، تلتمس^(٢) من مصدر النور الأزلي حياة وجودها الكامل.

* * *

ولقد هزئوا من قبل بالمسيح (عليه السلام) فقال للسّاحرين منه: ليس نبيّ بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته. وبهذا ردّ عليهم ردّ من أنسلخ منهم، وقال لهم قول من ليس له حكم فيهم، وأخذهم بالشرعية الأدبية لا العملية؛ إذ كان (عليه السلام) كالحكمة الطائفة ليست لكل قلب ولا لكل عقل، ولكنها لمن أعد لها؛ وشرعته أكثرها في التعبير وأقلها في العمل، ولم تجيء بالقوة العاملة فلم يكن بدّ من أن تضع الموعظة في مكان السيف، وأن تكون قائمة على النهي أكثر مما هي قائمة على الأمر، وأن تكون كشمس الشتاء الجميلة: لا تغلي بها الأرض، وإنما عملها أن تمهد^(٣) هذه الأرض لفصل آخر.

أما نبينا ﷺ فلم يجب المستهزئين، إذ كانت القوة الكامنة في بلاد العرب كلها كامنة فيه، وكان صدره العظيم يحمل للعالم كلمة جديدة لا تقبل الدنيا أن تعامله عليها إلا بطريقتها الحربية؛ فلم يرّد ردّ الشاعر الذي يريد من الكلمة معناها البليغ، ولكئنه سكّ سكوت المشتري الذي لا يريد من الكلمة إلا عملها حين يتكلّم؛ وكان في سكوته كلام كثير في فلسفة الإرادة والحرية والتطور، وأن لا بدّ أن يتحوّل القوم، وأن لا بدّ أن يتفطر^(٤) هذا الشجر الأجرد عن ورق جديد أخضر ينمو بالحياة.

لم يتسخط^(٥) ولم يقل شيئاً، وكان كالصانع الذي لا يرّد على خطأ الآلة بسخط ولا بأس، بل بإرسال يده في إصلاحها.

(١) الشطر: الجانب والقسم.

(٢) تلتمس: يتفطر: يتفتح ويستبّت.

(٣) تمهد: تفتح المجال وتهيبه.

(٤) يتفطر: يتسخط: يغضب.

قالوا: ورأى أبنا ربيعة، عُتْبَةُ وشَيْبَةُ ما لقي النبي ﷺ من السفهاء، فتحرَّكَتْ لَهُ رَجْمُهُمَا^(١)، فَذَعَرُوا غَلَاماً لهما نَصْرَانِيًّا يُقَالُ لَهُ عَدَّاسٌ، فَقَالَا لَهُ: خُذْ قِطْفًا مِنْ هَذَا الْعَنْبِ وَضَعُهُ فِي ذَلِكَ الطَّبَقِ، ثُمَّ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ فَقُلَّ لَهُ يَأْكُلُ مِنْهُ. فَفَعَلَ عَدَّاسٌ ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ حَتَّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا وَضَعَ يَدَهُ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ» ثُمَّ أَكَلَ؛ فَنَظَرَ عَدَّاسٌ إِلَى وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: - وَاللهِ - إِنَّ هَذَا لَكَلَامٌ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبَلَدَةِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمِنْ أَهْلِ أَيْنِ الْبَلَدِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ وَمَا دِينُكَ؟
قَالَ: أَنَا نَصْرَانِيٌّ وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَيْزَى. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَرِيْبَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى؟ قَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ^(٢) مَا يُونُسُ بْنُ مَتَّى؟ قَالَ ﷺ ذَاكَ أَخِي: كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ.

فَاكْبَ عَدَّاسٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقْبُلُ رَأْسَهُ وَيَدِيهِ وَرَجْلِيهِ.

يَا عَجَباً لِمَوْزِ الْقَدْرِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ!

لَقَدْ أَسْرَعَ الْخَيْرُ وَالْكَرَامَةُ وَالْإِجْلَالُ فَأَقْبَلَتْ نَعْتَدُ عَنْ أَلْسِنِ وَالسَّفَاهَةِ وَالطَّيْشِ، وَجَاءَتْ أَلْقُبُلَاتُ بَعْدَ كَلِمَاتِ الْعَدَاوَةِ.

وَكَانَ أَبْنَا رَبِيعَةَ مِنَ الَّذِينَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ، وَمَتَمَّنَّ مَتَمَّنُوا إِلَى أَبِي طَالِبٍ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَكْفَهُ عَنْهُمْ أَوْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، أَوْ يُنَازِلُوهُ وَإِيَّاهُ حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ، فَانْقَلَبَتِ الْغَرِيزَةُ الْوَحْشِيَّةُ إِلَى مَعْنَاهَا الْإِنْسَانِيَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الدِّينَ، لِأَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ الدِّينِيَّ لِلْفَكْرِ لَا لِلْغَرِيزَةِ.

وَجَاءَتْ النَّصْرَانِيَّةُ تُعَانِقُ الْإِسْلَامَ وَتُعَزُّهُ، إِذِ الدِّينُ الصَّحِيحُ مِنَ الدِّينِ الصَّحِيحِ كَالْأَخِ مِنْ أَخِيهِ، خَيْرٌ أَنْ تَسْبَ الْإِخْوَةُ الدَّمِ وَنَسَبِ الْأَدْبَانِ الْعَقْلِ.

ثُمَّ أَنْتُمْ الْقَدَرُ رَمَزُهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، بِقِطْفِ الْعَنْبِ سَائِغًا عَذْبًا مَمْلُوءًا خَلَاوَةً؛ فَبِاسْمِ اللَّهِ كَانَ قِطْفُ الْعَنْبِ رَمْزًا لِهَذَا الْعَقُودِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي أَمْتَلَأَ حَبًّا كُلَّ حَبَّةٍ فِيهِ مَمْلُوكَةٌ.

(٢) بِدْرِيكَ: يَعْلَمُكَ.

(١) رَحْمَتُهُمَا: إِحْسَانُهُمَا بِالْقَرَابَةِ.

فوق الأدبية الإسراء والمعراج

من أعجب ما اتَّفَقَ لي أنَّي فرغت^(١) من تسويد هذا المقالِ ثمَّ أردتُ نقله، فتعسَّرَ عليَّ وصُرِفَتْ عنه بالُم شديدٍ أعترائي^(٢)، ونالني منه ثقلَةٌ في الدماغ؛ ثم كشفهُ اللهُ بعدَ يومٍ فراجعتُ الْكِتَابَةَ، فإذا قلبي ينبعثُ بهذه الكلمات:

كيف يَسْتَوِيءُ الْمُسْلِمُونَ الْعَجَزَ، وفي أولِ دينهم تسخيرُ الطَّيْعَةِ؟

كيف يَسْتَمْهِدُونَ الْرَاحَةَ^(٣)، وفي صَدْرِ تاريخهم عملُ المعجزة الكبرى؟

كيف يَزْكُونُ إلى الجَهِلِ، وأولُ أمرهم آخِرُ غاياتِ الْعِلْمِ؟

كيف لا يحملونَ النورَ لِلْعَالَمِ ونيهم هو الْكَائِنُ الْتوراني الْأَعْظَمُ؟



قصةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ هي من خصائصِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ هذا النجمُ الْإِنْسَانِي الْعَظِيمُ؛ وهو النورُ الْمُتَجَسِّدُ لِهَدَايَةِ الْعَالَمِ فِي خَيْرَةِ ظُلُمَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ؛ فَإِنَّ سَمَاءَ الْإِنْسَانِ تُظْلِمُ وتُضِيءُ من داخلِهِ بِأَغْرَاضِهِ وَمَعَانِيهِ. وَاللَّهُ - تعالى - قد خَلَقَ لِلْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ شَمْساً واحدةً تُنِيرُهُ وتُحْيِيهِ وتَقْلِبُ عليه بَليِّله ونَهَارِهِ، بيدَ أَنَّهُ تركَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يصنَعَ لِنَفْسِهِ شَمْسَ قَلْبِهِ وَغَمَاقِهَا وسَحَابَتِهَا وما تُسْفِرُ بِهِ وما تُظْلِمُ فيه. ولِهَذَا سُمِّيَ الْقُرْآنُ نوراً لِعَمَلِ آدَابِهِ في النَّفْسِ، ووُصِفَ الْمُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُمْ ﴿يَتَقَنُّونَ نُورَهُمْ بِنَورِ أَنْبِيَائِهِمْ وَيَكْتُمُونَ﴾، وكانَ اثْرُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى في تَعْبِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنْ يجعلَ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ نوراً يمشونَ بِهِ.

وقد حازَ الْمُفَسِّرُونَ في حِكْمَةِ ذِكْرِ «الليل» في آيَةِ «الْإِسْرَاءِ» من قَوْلِهِ - تعالى - : ﴿مُتَجَنِّزِينَ إِلَى آلِهَتِهِمْ بِمَنِيِّهِمْ. فَلَا يَرَوْنَ إِلَى السَّجِدِ الْكَرَامِ إِلَى السَّجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْعَرْنِ﴾. فَإِنَّ السُّرَى في لغةِ الْعَرَبِ لَا يَكُونُ إِلَّا لَيْلاً.

(١) فرغت: انتهت.

(٢) أعترائي: داخلني وسيطر علي.

(٣) يستمهدون الراحة: يجعلونها مهداً لهم.

وَأَلْجَكُمُ هِيَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْقِصَّةَ قِصَّةَ (النَّجْم) الْإِنْسَانِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي تَحَوَّلَ مِنْ إِنْسَانِيَّتِهِ إِلَى نُورِهِ السَّمَاوِيِّ فِي هَذِهِ الْمَعْجَزَةِ، وَيَتِمُّ هَذِهِ الْعَجِيبَةُ أَنَّ آيَاتِ «الْمِعْرَاجِ» لَمْ تَجِءْ إِلَّا فِي سُورَةِ: «وَالنَّجْم».

وعلى تأويل أَن ذَكَرَ (الليل) إِشَارَةً إِلَى قِصَّةِ النَّجْمِ، تَكُونُ الْآيَةُ بَرَاهَنَ نَفْسِهَا، وَتَكُونُ فِي نَسَقِهَا^(١) قَدْ جَاءَتْ مَعْجَزَةٌ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ الْبَيِّنَاتِ؛ فَإِذَا قِيلَ إِنَّ نَجْمًا دَارَ فِي السَّمَاءِ، أَوْ قَطَعَ مَا تَقَطَّعُهُ النُّجُومُ مِنَ الْمَسَافَاتِ الَّتِي تُفَجِّرُ الْحَسَابَ، فَهَلْ فِي ذَلِكَ مِنْ عَجِيبٍ؟ وَهَلْ فِيهِ شَكٌّ أَوْ نَظَرٌ أَوْ تَرَدُّدٌ؟ وَهَلْ هُوَ إِلَّا مِنْ بَعْضِ مَا يُسَبِّحُ اللَّهَ بِذِكْرِهِ؟ وَهَلْ يَكُونُ إِلَّا آيَةٌ أَتَّصَلْتُ بِالْآيَاتِ الَّتِي نَرَاهَا أَتَّصَالَ الْوُجُودُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ؟

وَأَنَا مَا يَكَادُ يَنْقُضِي عَجَبِي مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنُرِيَنَّكَ مِنْ بَيْنِنَا﴾. مَعَ أَنَّ الْأَلْفَاظَ كَمَا تَرَى مَكْشُوفَةٌ وَاضِحَةٌ، يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّ لَيْسَ وَرَاءَهَا شَيْءٌ، وَوَرَاءَهَا السِّرُّ الْأَكْبَرُ؛ فَإِنَّهَا بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ نَصُّ عَلَى إِشْرَافِ النَّبِيِّ ﷺ فَوْقَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ يَرَى بِغَيْرِ حِجَابِ الْحَوَاسِّ مِمَّا مَرَّجَعُهُ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ لَا قُدْرَةَ نَفْسِهِ؛ بِخِلَافِ مَا لَوْ كَانَتْ الْعِبَارَةُ: «لِيرَى مِنْ آيَاتِنَا» فَإِنَّ هَذَا يَجْعَلُهُ لِنَفْسِهِ فِي حُدُودِ قُوَّتِهَا وَحَوَاسِّهَا وَزَمَانِهَا وَمَكَانِهَا، فَيَضْطَرُّبُ الْكَلَامَ، وَيَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْأَعْتِرَاضُ وَلَا تَكُونُ ثُمَّ مَعْجَزَةٌ.

وَتَحْوِيلُ فِعْلٍ (الرُّؤْيَى) مِنْ صِيغَةٍ إِلَى صِيغَةٍ كَمَا رَأَيْتَ، هُوَ بَعِينُهُ إِشَارَةٌ إِلَى تَحْوِيلِ أَرَائِنِي مِنْ شَكْلِ إِلَى شَكْلِ كَمَا سَتَعْرِفُهُ، وَهَذِهِ مَعْجَزَةٌ أُخْرَى يَسْجُدُ لَهَا الْعَقْلُ؛ فَبَارَكَ اللَّهُ مُتَرِلٌ هَذَا الْكَلَامُ!

وَإِذَا كَانَ ﷺ نَجْمًا إِنْسَانِيًّا فِي نُورِهِ، فَلَنْ يَأْتِيَ هَذَا إِلَّا مِنْ غَلْبَةِ رُوحَانِيَّتِهِ عَلَى مَادَّتِهِ؛ وَإِذَا غَلَبَتْ رُوحَانِيَّتُهُ كَانَتْ قَوَاهُ الْنَفْسِيَّةُ مَهْيَأَةً فِي الدُّنْيَا لِمِثْلِ حَالَتِهَا فِي الْأُخْرَى؛ فَهُوَ فِي هَذِهِ الْمَعْجَزَةِ أَشْبَهُ بِالْهَوَاءِ الْمَتَحَرِّكِ. فَقُلِ الْآنَ: أَيْعُتْرَضُ عَلَى الْهَوَاءِ إِذَا أَرْتَفَعَ بِأَنَّهُ لَمْ يَرْتَفِعْ فِي طَيَّارَةٍ...؟

وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْإِنْسَانُ إِذَا سَمَا دَرَجَةً وَاحِدَةً فِي ثَبَاتِ قَوَاهُ الرُّوحِيَّةِ، سَمَا بِهَا دَرَجَاتٍ فَوْقَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَسُخِّرَتْ لَهُ الْمَعَانِي الَّتِي تُسَخَّرُ غَيْرُهُ مِنَ الْبَنَانِ، وَنَشَأَتْ لَهُ نَوَامِيسُ أَخْلَاقِيَّةٌ غَيْرُ النَوَامِيسِ الَّتِي تَسَلَّطُ بِهَا الْأَهْوَاءُ. وَمَتَى وُجِدَ الشَّيْءُ مِنَ الْأَشْيَاءِ كَانَتْ طِبَائِعُ وَجُودِهِ هِيَ نَوَامِيسُهُ؛ فَالِنَّازُ مِثْلًا إِذَا هِيَ تَضَرَّعَتْ أَوْ جَدَّتِ الْإِحْرَاقُ فِيمَا

(١) نَسَقُهَا: نَمَطُهَا، نُمُودُجُهَا.

يحترق، فإن وُضِعَ فيها ما لا يحترقُ أبطلَ نوايسِها وغلبَ عليها.

وكلُّ معجزةٍ تُحدثُ فهذا هو سبيلُها في إيجادِ النوايسِ الخاصةِ بها وإبطالِ النوايسِ المألوفةِ، وبهذا يُقال: إنها خَرَقَتِ العادةَ. ومنَ النورِ نورٌ لا يَشْفُ^(١) له غيرُ الهواءِ، ومنه أشعةُ (رونجن) التي تشفُ لها الجدرانُ والحُجُبُ؛ فهذه معجزةٌ في ذاك.

والنبيُّ لا يكونُ نبيًّا حتى يكونَ في إنسانِه إنسانٌ آخرُ بنوايسٍ تجعلُهُ أقربَ إلى الملائكةِ في روحانيَّتها، وما ينزلُ إنسانُهُ الظاهرُ مِنَ الإنسانِ الباطنِ فيه إلَّا منزلةٌ مَنْ يتلقَى مِنْ يُعْطِي؛ فذاك الباطنُ هو للحقائقِ التي لا تحملُها الدنيا، وهذا الظاهرُ لما يُمكنُ أَنْ يبلُغَ إليه الكمالُ في المثلِ الإنسانيِّ الأعلى، ولولا ذلك الباطنُ ما أَسْتَطاعَ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ أَنْ يحملَ همومَ أمةٍ كاملةٍ لا تُضَيِّيه ولا تُغَيِّرُهُ ولا تُعْجِزُهُ.

فحقيقةُ النبوةِ أنَّها قوةٌ مِنَ الوجودِ في إنسانٍ مختارٍ جاءتْ تُصْلِحُ الوجودَ الإنسانيَّ بِهِ لَتَقَرَّ في هذه الحيوانيةِ المهدِّبةِ مَثَلُها الأعلى، بدلايتها على طريقِها النفسيِّ مَعَ طريقِها النفسيِّ مع طريقِها الطبيعيِّ؛ فيكونُ مَعَ الانحِطاطِ الرقيُّ، ومَعَ النقصِ الكمالُ، ومع حُكْمِ الغريزةِ التحكُّمُ في الغريزةِ، ومع الظلمةِ الماديةِ الإشرافُ الروحانيُّ.

وما المعجزاتُ إلَّا شأُنُ تلكِ القوةِ الباطنةِ لا شأُنُ إنسانِها الظاهرِ، وَمَنِ الَّذِي يُنْكَرُ أَنْ قُوَى الوجودِ هي في نفسها إعجازٌ للعقلِ البشريِّ؟ وهلْ يُنْكَرُ اليومَ أحدٌ شأُنَ هذه القوةِ في (الراديو) حينَ مَسَّتْهُ فجعلتِ الكلمةَ التي تُرْسَلُ بَيْنَ الشرقِ والغربِ، كالكلمةِ بَيْنَ أَثْنَيْنِ يتحدثانِ في مجلسٍ واحدٍ؟

ونحنُ نرى معجزاتِ التَّنْوِيمِ المَغْنَطِيسِيِّ وما يُبَصِّرُهُ أَلْتَانَمُ وما يسمعه، وما ينكشفُ لَهُ مِمَّا وراءَ الزمانِ والمكانِ؛ وليسَ التَّنْوِيمُ شيئاً إلَّا تسليطُ الذاتِ الباطنةِ بقواها الروحيةِ العجيبةِ، على الذاتِ الظاهرةِ المقيَّدةِ بحواسِّها المحدودةِ، فَتُطْعَى عليها، فتُضَيِّحُ أَلْحَواسَ مطلقةً شائعةً في الوجودِ بِمَقْدَارٍ ما فيها من قِوَاهُ لا بِمَقْدَارٍ ما فيها من قوةٍ شخصيِّها.

وعلى نحوٍ من ذلك يتصلُّ الرجلُ الروحانيُّ بِذَاتِهِ الباطنةِ، فيوقِعُ شخصَه الظاهرَ في أَلَسْتِهَواءِ^(٢)، فينكشفُ لَهُ الوجودُ، وَيُبَصِّرُ ما يَقَعُ على الأبعدِ، ويرى ما

(٢) الاستهواء: الاستحالة القلبية.

(١) يشف: يرق.

هو آتٍ قبل أن يأتي؛ وما ألكون في هذه الحالة إلا كالمعشوق يقول لعاشقِهِ الذي وقع في قلبِهِ الحب: قد آتيتك نوراً تنظر به جمالي.

وفي علماء عصرنا من يفكر في الصعود إلى القمر، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك، وفيهم من تقع له العجائب في استحضار الأرواح وتسخيرها؛ وكل ذلك أولُ أكرهانِ الكوني الذي سيلزم العلم فيضطره في يوم ما إلى الإقرار بصحة الإسراء والمعراج.

ونحن قبل أن نبدئ رأيتنا في القصة نلّم بها العامة موجزة؛ فقد اختلفت فيها الأحاديث ووقع فيها تخليط كثير، فجاءت فنونا وأنواعاً من طُرُق شتى، حتى جمعها بعضهم في جزءين، وما تحتل كل ذلك ولا بعضه، ولكن روح الرواية في ذلك الزمن كانت كروح الصحافة في هذا العصر: متى فارت فوزها استحدثت من كل عبارة عبارة أخرى، وعلى هذه الطريقة تخرج من العبارتين عبارة ثالثة، فيكون الأصل معنى واحداً وإذا هو يمد من يمينه ويساره.

ولا يرون بذلك بأساً؛ فإنهم يشدون به الرأي، ويضاعفون منه اليقين، ويزيدون ضوءاً في نور المعنى، وما داموا قد أثبتوا الأصل واستيقنوه، فلا حرج أن يؤيد القول بعضه بعضاً، بأجتهاد في عبارة، وأستنباط من أخرى، وزيادة في الثالثة معاً هو بسيل منها، على نحو ما نرى من فن الرواية القصصية؛ إذ تتعدّد الأساليب والعبارات مختلفة متنوّعة، وليس تحتها إلا حقيقة واحدة لا تختلف. والقصص الديني في هذه اللغة العربية فن كامل قائم بنفسه، لا يبدع العقل والخيال والعاطفة أقوى منه ولا أعجب ولا أغرب.

هذا في متن القصة، أمّا في واقعيتها فقد اختلفوا اختلافاً آخر: هل كان الإسراء والمعراج يقظة أو مناماً؟ وبالروح وحدها، أو بالروح والجسم معاً: وإثما ذكرنا هذا الخلاف لأنّه الدليل القاطع على أن النبي ﷺ لم يخبر بشيء من ذلك، فلم يعين لهم وجهاً من هذه الأوجه. والحكمة في ذلك أن عقولهم لم تكن تحتل الإدراك العلمي الذي أساسه ما عرّف اليوم من أمر الكهرباء والآثير...

والخلاصة التي تتأدى^(١) من القصة: أنّه ﷺ كان مضطجعا، فأناء جبريل،

(١) تتأدى: نستج.

فأخرجَه مِنَ المسجد، فأركبَه البَرّاق، فأتى بيتَ المقدس، ثُمَّ دخلَ المسجدَ فصلّى فيه، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ، فَاسْتَفْتَحَهَا جبريلُ واحدةً واحدةً، فرأى فيها من آياتِ رَبِّهِ، وَاجْتَمَعَ بِالْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ -، وَصَعِدَ فِي سَمَاءٍ بَعْدَ سَمَاءٍ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَعَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا، فرأى ﷺ مظهرَ الْجَمَالِ الْأَزَلِيِّ، ثُمَّ رُجَّ^(١) بِهِ فِي النُّورِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ مَا أَوْحَى.

أَمَّا وَشْيُ الْقِصَّةِ وَطَرَازُهَا فَبَابٌ عَجِيبٌ مِنَ الرَّمُوزِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يُرْمَزُ بِهَا إِلَى تَجْسِيدِ الْأَعْمَالِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ: تَكُونُ تَعَبًا وَتَقَعُ فَائِدَةٌ، أَوْ تُلْتَمَسُ مَنَفَعَةٌ وَشَهْوَةٌ وَتَقَعُ مُضِرَّةٌ وَحِمَاةٌ، ثُمَّ تَفْتَنُ مِنْ هَذِهِ وَتَلِكِ الصُّورُ الزَّمْنِيَّةُ الَّتِي تَوْهَمُهَا أَصْحَابُهَا، وَتَخْلُدُ الصُّورُ الْأَبَدِيَّةُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا حَقَائِقُهَا.

وَمِنْ هَذِهِ الرَّمُوزِ الْأَبَدِيَّةِ قَوْلُهُ: فَجَاءَنِي جبريلُ بِنَاءٍ مِنْ خَمِيرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَأَخَذْتُ الْلَبَنَ، فَقَالَ جبريلُ: أَخَذْتُ الْفِطْرَةَ. وَأَنَّهُ مَرٌّ عَلَى قَوْمٍ يَزْرَعُونَ وَيَحْصُدُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ، كُلَّمَا حَصَدُوا عَادَ كَمَا كَانَ؛ فَسَأَلَ مَا هَذَا؟ قَالَ جبريلُ هَؤُلَاءِ الْمَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ سَبْعُمِائَةٍ ضِعْفٍ. ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ تُرَضِّخُ^(٢) رُؤُوسَهُمْ بِالصَّخَرِ، كُلَّمَا رُضِّخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ وَلَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ؛ فَقَالَ مَا هَذَا؟ قَالَ جبريلُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَتَنَاقَلُ رُؤُوسُهُمْ عَنِ الصَّلَاةِ. ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَحْمٌ نَضِيجٌ فِي قَدَرٍ، وَلَحْمٌ آخَرُ نِيءٌ فِي قَدَرٍ خَبِيثٍ، فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنَ الْكَنِئِ الْخَبِيثِ وَيَدْعُونَ النَّضِيجَ؛ فَقَالَ مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ جبريلُ: هَذَا الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ الْحَلَالُ الطَّيِّبُ فَيَأْتِي أَمْرًا خَبِيثَةً، وَالْمَرْأَةُ تَقُومُ مِنْ عِنْدِ زَوْجِهَا حَلَالًا طَيِّبًا فَتَأْتِي رَجُلًا خَبِيثًا. ثُمَّ أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ جَمَعَ حِزْمَةً عَظِيمَةً لَا يَسْتَطِيعُ حَمْلَهَا وَهُوَ يَزِيدُ عَلَيْهَا، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا جبريلُ؟ قَالَ: هَذَا الرَّجُلُ تَكُونُ عَلَيْهِ أَمَانَاتُ النَّاسِ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَدَائِهَا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا. ثُمَّ رَأَى نِسَاءً مَعْلَقَاتٍ بِشَدِيهِنَّ؛ فَسَأَلَ، فَقَالَ جبريلُ: هَؤُلَاءِ اللَّاتِي أَدْخَلْنَ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ لَيْسَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ.

وَنَحْنُ عَلَى الرَّأْيِ الَّذِي عَلَيْهِ جَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: مِنْ أَنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمِعْرَاجَ كَانَا بِالْجِسْمِ وَالرُّوحِ مَعًا عَلَى التَّأْوِيلِ الَّذِي سُبِّحَتْهُ؛ وَيُثَبِّتُ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي

(٢) تَرْضَخُ: تَضْرِبُ وَتَشْدُخُ.

(١) زَجَّ بِهِ: أَدْجَلَ.

سورة (والنجم): ﴿إِذْ يَتَنَبَّأُ الْمَلَائِكَةُ مَا يَشَاءُ مَا رَآهُ الْبَصَرُ وَمَا طَعَنَ﴾. فلا يكون البصر يزيع^(١) ويطنى إلا في الجسم، ولا يتنفي عنه ذلك إلا وهو في الجسم. ولم ينتبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب في قوله: ﴿وَمَا طَعَنَ﴾: فذلك نص على أنه كان يرى بجسم قد تحول عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شيء؛ إذ لا يكون طغيان البصر إلا من تسلط الخيال عليه بأهواء الجسم التي لا يستقيم بها حكم على حقيقته، فما زاع البصر بكونه مقيّد الحاسة، ولا طغى بكونه مُطلق الخيال، بل كان كما يريه الله من آياته، أي كان حقيقة كونية في غير حالتها الأرضية الناقصة.

والذين قالوا إنّ الإسراء والمعراج كانا رؤيا رآها النبي ﷺ احتجوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّبُوبَ أَلَيْسَ أَرْبَبُكَ إِلَّا فَتَنَةً لِلنَّاسِ﴾. وقد خلط المفسرون في هذا أيضاً، وإنما كان التعبير بلفظ «الرؤيا» - وهي التي تكون مناماً - لنفي تأثير الحواس على الرائي، وإثبات أن الطبيعة الآدمية بجملتها كانت فيه كالنائمة عن حياتها الأرضية بحقائقها وأخيلتها معاً، فليس نائماً كالنائم، ولا مستيقظاً كالمستيقظ.

وفي أساس القصة جبريل والبراق، وهما القوة الملائكية والقوة الطبيعية، أو الروح الملائكي والروح الطبيعي؛ ولم يوصف البراق بأنه دابة إلا رمزاً، إذ لا يأتي للعرب أن يفهموا ما يراؤ منه؛ وعندنا أنه سمي البراق من البرق، وما البرق إلا الكهربائية، وهذا هو المراد منه؛ فذلك قوة كهربائية متى نبّضت جمعت أول العالم بآخره؛ وهذه هي الحكمة في أن آية الإسراء لم تذكر أنه كان محمولاً على شيء، إذا لم يكن محمولاً إلا على روح الأنثى.

وما دامت القوة الملائكية والقوة الطبيعية قد سُخرتا له ﷺ فلا معنى لأن يكون ذلك للروح دون الجسم، بل اجتماعهما معاً في القصة دليل على أن سر المعجزة إنما كان في تسيير ملامة جسمه الشريف لهاتين الحالتين؛ فيتحول في صورة كونية ملائكية بين سر الملك وسر الطبيعة، وحينئذ لا تجري عليه أحكام الحواس ولا أحكام المادة.

ومن الممكن أن تتحول الأجسام إلى حالتها الأثيرية^(٢) في بعض الأحوال الخارقة، وبهذا يُعلّل طي الأرض لبعض أرواحانيين، وتعلّل خوارق كثيرة ممّا

(٢) الأثيرية: الهوائية.

(١) يزيع: يحيد ويتحول.

يَحْدُثُ فِي اسْتِحْضَارِ الْأَرْوَاحِ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَمِمَّا يَأْتِيهِ فَقَرَاءُ الْهِنْدِ، وَمِمَّا كَانَ يَصْنَعُهُ «هُودِينِي» الْأَمْرِيكِيُّ: إِذْ كَانُوا يَغْلُوتُهُ بِالسَّلَاسِلِ وَالْقَيْدِ ثُمَّ يَرُونَهُ طَلِيقًا؛ وَيَحْبِسُونَهُ فِي السَّجُونِ الْمُحَصَّنَةِ يَقُومُ عَلَيْهَا الْحَرَّاسُ وَتُمَسِّكُهُ فِيهَا الْأَبْوَابُ وَالْجُدْرَانُ ثُمَّ يَجِدُونَهُ فِي بَعْضِ الْفَنَاقِدِ.

وَلَيْسَ لِلْعَقْلِ أَنْ يُنَكِّرَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ تَرْكِيبَ الطَّبِيعَةِ رَدُّ عَلَيْهِ، وَنَقْضُهُ هُوَ رَدُّ عَلَى نَفْسِهِ، وَالْمُسْتَحْبِلُ عَلَى الْأَعْمَى هُوَ أَيْسَرُ الْمُمْكِنَاتِ عَلَى الْمُبْصِرِ.

فَإِنَّ تَرَى أَنَّ ذَكَرَ الْبَرَّاقِ وَالْمَلِكِ فِي أُسَاسِ قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ هُوَ صَلَءُ الْقِصَّةِ بِالْمُعْجَزَةِ، وَهُوَ عَيْنُهُ صَلَاطُهَا بِالْبَرَّهَانِ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا لَمَّا كَانَ لَهَا تَفْسِيرٌ.

* * *

وَالْقِصَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ تُثَبِّتُ أَنَّ هَذَا الْوُجُودَ يَرُقُّ وَيُنْكَشِفُ وَيَسْتَضِيءُ كُلَّمَا سَمَا الْإِنْسَانُ بِرُوحِهِ، وَيَغْلُظُ وَيَتَكَثَّفُ وَيَتَحَجَّبُ كُلَّمَا نَزَلَ بِهَا، وَهِيَ مِنْ نَاحِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ قِصَّةُ تَصِفُهُ بِمُظْهِرِهِ الْكَوْنِيِّ فِي عَظَمَتِهِ الْخَالِدَةِ كَمَا رَأَى ذَاتَهُ الْكَامِلَةَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ، وَمِنْ نَاحِيَةِ كُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ هِيَ كَالدَّرْسِ فِي أَنْ يَكُونَ لِقَلْبِ الْمُؤْمِنِ مِعْرَاجٌ سَمَاقِيٌّ فَوْقَ هَذِهِ الدُّنْيَا، لِيَشْهَدَ بِبَصِيرَتِهِ أَنْوَارَ الْحَقِّ، وَجَمَالَ الْخَيْرِ، وَتَجَسَّدَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي صَوْرِهَا الْخَالِدَةِ؛ فَيَكُونُ بِتَدْبِيرِ الْقِصَّةِ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْزِلُ؛ فَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْحَقَائِقِ الْأَسَاسِيَّةِ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ، فَيَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ تَعَقُّدَ الْأَخِيلَةِ الَّتِي هِيَ أُسَاسُ أَلْبَاقٍ عَلَى الرُّوحِ.

وَمَتَى اسْتَنَارَ الْقَلْبُ كَانَ حَيًّا فِي صَاحِبِهِ، وَكَانَ حَيًّا فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ. وَمَتَى سَلِمَتِ الْحَيَاةُ مِنْ تَعَقُّدِ الْخَيَالِ الْفَاسِدِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ اللَّهِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ الْحَقُّ وَالْخَيْرُ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ الرَّحْمَةُ وَالْحُبُّ.

الإنسانية العليا

من أوصاف النبي ﷺ أَنَّهُ كَانَ متواصِلَ الْأَحْزَانِ، دَائِمَ الْفِكْرَةِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ، طَوِيلَ السَّكْتِ، لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، لَيْسَ بِالْجَافِي^(١) وَلَا الْمَهِينِ، يُعَظِّمُ النِّعْمَةَ وَإِنْ دَقَّتْ لَا يَذُمُّ مِنْهَا شَيْئاً، وَلَا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا وَلَا مَا كَانَ لَهَا، فَإِذَا تُعْذِي الْحَقُّ لَمْ يَقُمْ لِنَفْسِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ، وَلَا يَغْضِبُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا؛ وَكَانَ خَافِضَ الطَّرْفِ^(٢)، نَظَرُهُ إِلَى الْأَرْضِ أَطْوَلَ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، مَنْ رَأَاهُ بِدِيهَةِ هَابَةٍ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ، لَا يَحْسِبُ جَلِيسُهُ أَنْ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ، وَلَا يَطْوِي عَنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بَشَرَةً^(٣)، قَدْ وَسَّعَ النَّاسَ بَسْطُهُ وَخَلَقَهُ، فَصَارَ لَهُمْ أَبًا، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً؛ يُحَسِّنُ الْحَسَنَ وَيَقْوِيهِ، وَيُقْبِحُ الْقَبِيحَ وَيُؤْهِيه^(٤)، مُعْتَدِلُ الْأَمْرِ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ؛ وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً، لَا يَثْبُتُ بَصَرُهُ فِي وَجْهِ أَحَدٍ، لَهُ نَوْرٌ يَعْلُوهُ كَأَنَّ السَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، لَا يُؤَيِّسُ^(٥) رَاجِيَهُ، وَلَا يُخَيِّبُ عَافِيَهُ^(٦)، وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمَيْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ؛ أَجْوَدُ النَّاسِ بِالْخَيْرِ.

* * *

صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى صَاحِبِ هَذِهِ الْوَسَائِلِ الَّتِي لَا يَجْدُ الْكَمَالَ الْإِنْسَانِي مَذْهَباً عَنْهَا وَلَا عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا، وَلَا يَجْدُ النِّقْصَ الْبَشَرِيَّ مَسَاعاً^(٧) إِلَيْهَا وَلَا إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا؛ فَفِيهَا الْمَعْنَى الْتَامُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ، كَمَا أَنَّ فِيهَا الْمَعْنَى الْتَامُ لِلْحَقِّ، وَمِنْ أَجْتِمَاعِ هَذَيْنِ يَكُونُ فِيهَا الْمَعْنَى الْتَامُ لِلْإِيمَانِ.

هِيَ صِفَاتُ إِنْسَانِيَّتِهَا الْعَظِيمِ، وَقَدْ أَجْتَمَعَتْ لَهُ لِتَأْخُذَ عَنْهُ الْحَيَاةُ إِنْسَانِيَّتَهَا الْعَالِيَةَ؛ فَهِيَ بِذَلِكَ مِنْ بُرْهَانَاتِ نَبَوِيَّهِ وَرِسَالَتِهِ.

(١) الجافي: القاسي الغليظ.

(٢) الطَّرْفُ: سكون الرأى: النظر.

(٣) بشره: سروره وإبتسامه وبسطه.

(٤) يؤهيه: يضعفه.

(٥) يؤيس: يقطع ويفقد الأمل من رجائه.

(٦) العافي: المحتاج.

(٧) مساعاً: سبيلاً.

ولو جمعت كل أوصافه ﷺ ونظمتمتها بعضها إلى بعض، واعتبرت بها بأسرارها العِلْمِيَّة - لرأيت منها كَوْنًا معنويًا دقيقاً قائماً بهذا الإنسان الأعظم، كما يقوم هذا الكون الكبير بسُنَنِه وأصول الحكمة فيه، ولايقنت أن هذا النبي الكريم إن هو إلا مُعْجَمٌ نفسي حي ألفته الحكمة الإلهية بعلم من علمها، وقوة من قوتها، لتتخرج به الأمة التي تُبدعُ ألعالم إبداعاً جديداً، وتُنشِئُ النشأة المحفوظة له في أطوار كماله.

ولن ترى في الإنسانية أسمى من اجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض ولأني لأكاد كلما تأملتُها أحسبُ هذا السمو قضاءً وقدرًا بإنسان على الإنسانية كلها. وهي دليل على أنه الإنسان الذي خُلِقَ للعالم لا لنفسه؛ فهو لا ينمو بما يكون على الناس من الحق، ولكن بما يكون للناس عليه من الواجبات، كأنما هو حقيقة كونية تعيش عيشها، فما تكون في الوجود إلا لتقرّر وجودها هي، ولا تنتهي حين تنتهي بذاتها إلا لبداً معانيها في غيرها، فهو ﷺ إنسان غرس في التاريخ غرساً ليكون حداً لزمان وأولاً لزمان بعده، وما كانت حياته تلك إلا طريقة غرسه، وهو أبداً أصبح في الدنيا كانه جهة من الجهات لا إنسان من الناس، فلن يتغير أو يفتح إلا إذا تغير أو محي المشرق والمغرب.

ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضت به كتب الشمايل من أمثالها، لا نقرأها أوصافاً ولا جليلة، بل نراها صفحة إلهية مصنفة أبداع تصنيف وأدقه، وبين وراء تأليفها تفسير طويل لا يتهدى^(١) الفكر البشري لأحسن منه ولا أصح ولا أكمل؛ فقد اجتمعت تلك الصفات في إنسانها اجتماع الأجزاء في المسألة الرياضية: لا ينبغي أن تزيد أو تنقص، إذ كان في مجموعها ما وجد له مجموعها.

ويكاد الارتباط بين أجزاء المسألة يكون هو بعينه صورة للارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة؛ فإن كل جزء منها موضوع وضعا لا يتم الكل إلا به، حتى لا موضع فيها لقلّة أو كثرة؛ وهذا معنى قوله ﷺ «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، وأنت إذا دققت في هذا الحديث أدركت من مغنايته أن هناك طبيعة أخلاقية مفردة^(٢) تجري على قانونها الذي وضعه الله لها وأحكمها به.

وأعجب ما يدهشنا من مجموع صفاته ﷺ أن فيها دليلاً بيناً على أنه مخلوق خلقه متميزة بنفسها، كخلقة القلب الإنساني: نظامه حياته وحياته نظامه، وكأنما

(٢) مفردة: مميزة.

(١) لا يتهدى: لا يعثر.

أعترته حالة نفسية كالتى تعترى القلب في استشعار الخطر فتخرجه من طبيعته إلى أقوى منها، فلا يزال يمد أعضاء الجسم بمدد لا ينفد من القوة والصبر، يجعل الحياة فيها على أضعافها كأنها حياة كانت مخبوءة وظهرت بغتة؛ وفي هذه الحالة تتجه غرائز النفس كلها إلى جهة واحدة كأنها مقدرة بميزان، مضبوطة بقياس؛ فترجع على تناقضها واختلافها متعاونة يؤازر^(١) بعضها بعضاً، وكان قانونها الطبيعي أن تتجادب وتتساقط وتفسر الواحدة منها عمل الأخرى، فيجىء بها الشيء وضده معاً: كالصدق والكذب، والطمع والقناعة، والشهوات الثائرة والخمود الساكن، إلى آخر ما تعد من هذه الغرائز؛ ولكنها في استشعار الخطر تكون كالأشياء لا كالأضداد، فيشد بعضها بعضاً، ويتمم التقيض منها نقيضه، وتجري كلها في قانون واحد: هو الدفاع بأجزائها عن مجموعها؛ فترى النازع منها وإنه لمستقر في أشد من ألقيد، وكان فيه غير طبيعته.

وهل يُنبئك مجموع صفاته ﷺ إلا أنه يعيش معيشة القلب إذا اختلف ما حوله وفجأته بغتات^(٢) الوجود فتجأز أن يكون منبعاً للحياة إلى أن يكون حافظاً للحياة في منبعها؟

وتلك الحالة - كما مر بك - تجعل وجود الإنسان هو وجود إرادته وعقله، لا وجود شهواته وغرائزه؛ وكذلك عاش نبينا ﷺ فهو مدة حياته في وجود إرادته لا غيرها، حتى ليس عليه سبيل لغميزة أو لائمة، كأنه خلق تشده نية مستيقظة قد نبهها ما ينبئ النفس من الغرر والخطر. ولعل هذا الشعور في نفسه ﷺ هو التفسير لقوله: «نية المؤمن خير من عمله». إلى أحاديث كثيرة مما يجري في معنى هذه الكلمة الجامعة؛ يريد بها: أن نية المؤمن لا تنطوي إلا على الخير الكامل، فهو - ما دامت نيته على صلاحها وسرّه على إخلاصه - لا يعدد أليسير من الشر يسيراً، ولا يرى الكثير من الخير كثيراً؛ فالأصل لقائمه في تلك النية المؤمنة ألا يبدأ الشر كي لا يوجد، وألا ينتهي الخير كي لا يفنى؛ فالمؤمن من ذلك على الخير والكمال أبداً، في حين أن عمله بطبيعته الإنسانية يتناول الخير والشر جميعاً، ثم لا يكون إلا عملاً إنسانياً على نقص واضطراب والتواء.

وقد لا يستطيع المؤمن أن يأتي الخير في بعض أحواله، ولكنه يستطيع دائماً

(٢) بغتات: مفاجآت.

(١) يؤازر: يعضد ويقوي.

أَنْ يَنْوِيَهُ وَيَرْغَبَ فِيهِ وَيَغْزَمَ عَلَيْهِ، لِيُحَقِّقَ ضَمِيرَهُ فِي كُلِّ مَا يَهْمُهُ بِهِ؛ وَيَحْصِرَ أَفْكَارَهُ فِي قَانُونٍ نَبِيَّتِهِ أَلْمُؤْمَنَةُ. وَهَذَا هُوَ الْأَسَاسُ فِي عِلْمِ الْأَخْلَاقِ، لَا أَسَاسٌ مِنْ دُونِهِ.

وَالنِّيَّةُ مِنْ بَعْدِ هِيَ حَارِسُ الْعَمَلِ؛ فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُذْعِنَ^(١) وَأَنْ يَأْبَى، وَمَنْ ثُمَّ تَكُونُ هَذِهِ النِّيَّةُ رَدًّا وَمُدَافَعَةً مِنْ نَاحِيَةٍ، وَأَسْتِجَابَةً وَمُطَاوَعَةً مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى؛ فَهِيَ عَلَى الْحَقِيقَةِ مَتَى صَلَحَتْ كَانَتْ أَسْتِقْلَالًا تَامًا لِلْإِرَادَةِ، وَكَانَتْ مَعَ ذَلِكَ ضَبْطًا لِهَذِهِ الْإِرَادَةِ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الَّتِي يَنْتَظِمُ بِهَا قَانُونُ الْمَبْدَأِ السَّامِيِّ.

ثُمَّ إِنَّهُ لَا ضَابِطَ لِصِحَّةِ الْعَمَلِ وَأَسْتِقَامَتِهِ إِلَّا النِّيَّةُ الْأَصْحِيحَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ؛ فَالْتَزَوِيرُ وَالْتَلْبِيسُ كِلَاهُمَا سَهْلٌ ميسورٌ فِي الْأَعْمَالِ، وَلَكِنَّهُمَا مُسْتَحِيلَانِ فِي النِّيَّةِ إِذَا خُلِصَتْ.

وهي كذلك ضابطة للفضائل تُوجِّهُ الْقُلُوبَ عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَفَاوُتِهَا أَتَجَاهًا وَاحِدًا لَا يَخْتَلِفُ؛ فَيَكُونُ طَرِيقُ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ، مِنْ نَاحِيَةِ الطَّرِيقِ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ اللَّهِ.

وَأَشْوَاقُ الْأَرْوَاحِ بِطَبِيعَتِهَا لَا تَنْتَهِي، فَيُعَارِضُهَا الْجِسْمُ بِجَعْلِ حَاجَاتِهِ غَيْرَ مُتَنَهِيَةٍ؛ يُحَاوِلُ أَنْ يَطْمَسَ^(٢) بِهِذِهِ عَلَى تِلْكَ، وَأَنْ يُغْلِبَ الْحَيَوَانِيَّةَ عَلَى الْإِرْوَاحَانِيَّةِ، فَإِذَا كَانَتِ النِّيَّةُ مُسْتَبْقِظَةً كَفَّتْهُ وَأَمَانَتْ أَكْثَرَ نَزْعَاتِهِ، وَوَضَعَتْ لِكُلِّ حَاجَةٍ حَدًّا وَنِهَاجَةً؛ وَبِذَلِكَ تَرْجِعُ النِّيَّةُ إِلَى أَنْ تَكُونَ قُوَّةً فِي الْنَفْسِ يَخْرُجُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَحُدُّهُ مِنْ جِسْمِهِ، لِيَخْرُجَ بِذَلِكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَحُدُّهُ مِنْ مَعَانِي الْأَرْضِ...

وهي بعدَ هَذَا كُلِّهِ تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَاجِبِهِ كَأَنَّهُ رَقِيبٌ حَيٌّ فِي قَلْبِهِ، لَا يُرَائِيهِ وَلَا يُجَامِلُهُ، وَلَا يُخَدِّعُ مِنْ تَأْوِيلٍ، وَلَا يُغَرُّ بِفَلَسَفَةٍ وَلَا تَزْيِينٍ، وَلَا يُسَكِّنُهُ مَا تُسَوِّلُ الْنَفْسُ^(٣)، وَلَا يَزَالُ دَائِمًا يَقُولُ لِلْإِنْسَانِ فِي قَلْبِهِ: إِنَّ الْخَطَأَ أَكْبَرَ الْخَطَأِ أَنْ تَنْظِمَ الْحَيَاةَ مِنْ حَوْلِكَ وَتَتْرَكَ الْفَوَاضِي فِي قَلْبِكَ.

وَجَمَلَةُ الْقَوْلِ فِي مَعَانِي النِّيَّةِ أَنَّهَا قُوَّةٌ تَجْعَلُ بَاطِنَ الْجِسْمِ مُتَسَاوِقًا مَعَ ظَاهِرِهِ، فَتَتَعَاوَنُ الْغَرَائِزُ الْمَخْتَلِفَةُ فِي الْنَفْسِ تَعَاوُنًا سَهْلًا طَبِيعِيًّا مُطَرِّدًا، كَمَا تَتَعَاوَنُ أَعْضَاءُ الْجِسْمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي أَطْرَادٍ وَسَهُولَةٍ وَطَبِيعَةٍ.

(١) يُذْعِنُ: يَخْضَعُ.

(٢) يَطْمَسُ: يَغْطِي.

(٣) تُسَوِّلُ الْنَفْسُ: تَوَسَّوسَ.

وكل صفات النبي ﷺ - مما ذكرناه وما لم نذكره - متى أعُثِرَتْ بذلك الأصل الذي بيّناه أنظّمها جميعاً، فجاء بعضها تماماً على بعض في نسقٍ رياضيٍّ عجيب، وظهرت حِكْمَةُ كُلِّ منها واضحةً مكشوفةً، ورأيتها في مجموعها تصف لك عمراً هندسياً دقيقاً قد بلغ الغاية من الكمال والروعة والدقة، لا يُعَدُّ جزءٌ منه جزءاً، بل كُلهُ أجزاؤه، وأجزاؤه كُلهُ؛ كالوضع الهندسي: إما أن يكون بكُلهُ، وإما ألا تكون فيه الهندسة كلها.

وليس مجموع تلك الصفات في معناه إلا صنعة الإنسان صنعةً جديدةً تُخرجه موجوداً من ذات نفسه، وتُكسِرُ ألقاب الأرضي الذي صُبَّ فيه وتُفرِّغه في مثل قالب الكون، فإذا هو غير هذا الإنسان الضيق المنحصر في جسمه ودواعي جسمه، فلا تُخضعه المادة، ولا يؤتى من سوء نظره لنفسه، ولا تغره^(١) الدنيا، ولا يمسكه الزمان؛ إذ كانت هذه هي صفات المستعبد بأهوائه لا الحر فيها، والخاضع بنفسه لا المستقل بها، والمقبور في إنسانيته لا الحي فوق إنسانيته؛ ومثل هذا المستعبد الخاضع المقبور لا وجود له إلا في حُكْمِ حواسه، فعمله ما يعيش به لا ما يعيش من أجله؛ ويتصل بكل شيء اتصالاً مبتوراً^(٢) ينتهي في هوى من أهواء الحيوان الذي فيه.

ومن المقابلة العجيبة أن يكون في الإنسان الاجتماعي حيواناً، تُقابله الحكمة في الحيوان الأليف بإنسان، وحكمها واحد ومنطقهما لا يختلف. فلو أنك سألت حيواناً الأعصاب عن صاحبه الإنسان لقال لك: هو غلتي ومزعتي. ولو سألت كلباً عن حبه صاحبه ومبلغ هذا الحب في نفسه لما زاد في جوابه على أنه يُحِبُّ حُبَّ اللقمة والعظمة.

ومتى كان الإنسان في حكم حواسه لم تغد الأشياء عنده كما هي في نفسها بمعانيها الطبيعية المحدودة، وأنقلبَت كما هي في وهجه بمعانٍ متفاوتة مضطربة، فلا يشعر المرء بأنتلاف الوجود وتعاونه، ولكن بأختلافه وتناقضه، فيمن ثم لا تكون أسباب اللذة إلا من أسباب الألم، ويدخل في كل حُبٍّ بغضٌ، وفي كل رغبة طمعٌ، وفي كل خير شرٌ، وفي كل صريح خبيءٌ، وهلمَّ جزءاً؛ إذ لا بد من هذا كله متى غلبَ الفاني على الباقي، ولا بد من كل هذا في تمثيل رواية الحواس الخادعة

(٢) مبتوراً: مقطوعاً.

(١) تغره: تخدعه.

التي أساسها التغير والتقلب، حتى لَكَأَنَّ النَّفْسَ إِنَّمَا تَعِيشُ بِهَا فِي ظَاهِرٍ مِنَ الْحَيَاةِ لَا فِي الْحَيَاةِ نَفْسِهَا.

وهذا الخِدا عَجَلٌ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَشْيَاءِ النَّفْسِ لَا يَبْدَأُ إِلَّا لِيَتَهَيَّ، ثُمَّ لَا يَنْتَهِي إِلَّا لِيَبْدَأَ؛ فَمَا تَزَالُ هَذِهِ النَّفْسُ طَامِعَةً فِيمَا لَا تَنَالُهُ، وَلَا يَزَالُ مِنْ ذَلِكَ مَصْدَرٌ لِأَلَامِهَا الْجَسَدِيَّةِ؛ ثُمَّ إِذَا هِيَ نَالَتْ مَنَالَهَا سَكِنَتْ، فَلَا يَزَالُ مِنْ ذَلِكَ مَصْدَرٌ آخَرُ لِأَلَامِهَا الْمَعْنَوِيَّةِ. وَلَنْ يَجِيءَ الصَّحِيحُ مِنْ غَيْرِ الصَّحِيحِ؛ فَالْكُونُ كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا كَذِبًا فِي النَّفْسِ الْكَاذِبَةِ بِحَوَاسِّهَا.

وَلَدَا كَانَ أَخْصُ أَوْصَافِهِ ﷺ رَاجِعًا إِلَى خُرُوجِهِ مِنْ سُلْطَانِ نَفْسِهِ، فَلَا يَغْضَبُ لَهَا، وَلَا يُطْلِفُهَا مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا تَذْمُهُ أَوْ تَمْدَحُهُ، وَلَا يُحِبُّ فِيهَا، وَلَا يُبْغِضُ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَا يُهَاجِرُهَا، وَلَا يَسْتَلِينُ لَهَا فِي مَأْكَلٍ وَلَا مَلْبَسٍ، وَلَا يَأْخُذُهَا إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِالْإِنْسَانِيَّةِ؛ فَأَفْرَاحُهَا أَحْزَانُهَا، وَأَمَلُهَا أَشْوَاقُهَا، وَأَمَلَاتُهَا أَعْمَالُهَا، وَجَسَابُهَا فِي طَبِيعَتِهَا، وَحَوَادِثُهَا مِنَ الْعَقْلِ لَا مِنَ الْحَوَاسِّ، وَعَظَمَتُهَا إِنْثَابُ ذَاتِهَا فِي غَيْرِهَا، لَا إِنْثَابُ غَيْرِهَا فِي ذَاتِهَا؛ وَغَايَتُهَا فِي الْبَاقِي لَا الْزَائِلُ، وَفِي الْخَالِدِ لَا الْفَانِي، وَمَا دَامَ الْحَاضِرُ مُتَحَرِّكًا فَهُوَ طَارِيءٌ عَابِرٌ أَوْشَكُ أُمُورِ الدُّنْيَا زَوَالًا، وَالْعَمَلُ لَهُ عَلَى مَقْدَارِهِ فِي قَلَّةٍ لُتَيْهِ^(١) وَهَوَانِ أَمْرِهِ، وَالْاهْتِمَامُ أَبَدًا بِمَا وَرَاءَهُ لَا بِهِ.

فَأُولُ النَّفْسِ النِّيَّةُ الْعَامِلَةُ لِآخِرَتِهَا، وَآخِرُ النَّفْسِ مَا تُوْدِي إِلَيْهِ أَعْمَالُ هَذِهِ النِّيَّةِ؛ فَلَيْسَ فِي إِنْسَانِ الدُّنْيَا إِلَّا إِنْسَانُ الْعَالَمِ الْآخِرِ؛ وَبِهَذَا يُقَدَّرُ صَمْتُهُ وَكَلَامُهُ، وَحَرَكَتُهُ وَسُكُونُهُ، وَمَا يَأْتِي وَمَا يَدَعُ، وَمَا يُحِبُّ وَمَا يَكْرَهُ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ عَلَى ذَلِكَ أَلَعْتَابٍ إِنَّمَا هُوَ صُورَةُ الْحَقِيقَةِ الْعَامِلَةِ فِيهِ.

وَجَمَاعُ الْأَمْرِ^(٢) أَلَّا يَكُونَ مُسْتَقْبَلُ الْإِنْسَانِ عَلَامَةً أَسْتَهْزَأَ بِجَانِبِ مَاضِيهِ، وَلَا عَلَامَةً أَسْتَفْهَمَ، وَلَا عَلَامَةً إِنْكَارَ.

وَتَدُلُّ صِفَاتُ النَّبِيِّ ﷺ بِاجْتِمَاعِهَا وَتَسَاوُقِهَا^(٣) عَلَى حَقِيقَةِ عَظَمَى لَمْ يَتَنَبَّأَ إِلَيْهَا أَحَدٌ؛ وَهِيَ أَنَّ جَمِيعَ خُصَائِصِهَا الْفَرْصِيَّةِ مُرَهَّقَةٌ^(٤) مَتِيقْظَةٌ، وَهَذَا مِمَّا يَنْدُرُ

(١) لُتَيْهِ: مَكْتَهُ، بَقَاة.

(٢) جَمَاعُ الْأَمْرِ: الْخِلَاصَةُ.

(٣) تَسَاوُقُهَا: تَجَانُسُهَا.

(٤) مُرَهَّقَةٌ: مُتَعَبَةٌ.

وقوعه وإمكانه؛ فإنَّ الرجلَ مِنَ النَّاسِ لَيَكُونُ حَيًّا بِالْحَيَاةِ، وَلَكِنْ جَوَانِبَ كَثِيرَةً مِنْ نَفْسِهِ قَدْ طَاحَ بِهَا أَلَمُوتٌ، أَوْ مَرِيضَةٌ وَذَلِكَ أَوَّلُ أَلَمُوتٍ؛ أَوْ غَافِلَةٌ وَذَلِكَ شِبْهُ أَلَمُوتٍ؛ أَمَّا الْحَيُّ الْعَظِيمُ فَهُوَ الَّذِي يَحْيَا بِأَكْثَرِ خَصَائِصِ نَفْسِهِ، وَأَمَّا الْحَيُّ الْأَعْظَمُ فَهُوَ الَّذِي يَحْيَا بِجَمِيعِ خَصَائِصِهَا، تَمْلُؤُهُ الْحَيَاةُ فَيَمْلَأُ الْحَيَاةَ، وَيَتَمَدَّدُ السُّرُّ فِيهِ لِيُرِيَهُ حَقَائِقُ الْأَشْيَاءِ وَيَهْدِيَهُ وَيُدَلِّهِ، فَيَكُونُ بِنَفْسِهِ رُؤْيَا لِلنَّاسِ وَهِدَايَةً وَدَلَالَةً؛ وَمِثْلُ هَذَا يَعْظُمُ ثُمَّ يَعْظُمُ حَتَّى لَيُرَى الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ كَالْفَرْقِ بَيْنَ نَوْرِ لَيْسَ أَلْحَمَّ وَأَلَدَمَ، وَبَيْنَ ثَرَابٍ لَيْسَ أَلْدَمَ وَأَللَّحَمَ.

وذلك لا يَكَادُ يَتَفَقُّ إِلَّا فِي مَرَاتِبَ أَعْلَاهَا أَلَامْتِيَّازُ فِي النُّبُوَّةِ، ثُمَّ تَدْنُو إِلَى النُّبُوَّةِ؛ ثُمَّ تَنْزِلُ إِلَى أَلَامْتِيَّازٍ فِي الْحِكْمَةِ؛ ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى عِبْقَرِيَّةِ الشُّعْرِ. فَأَكْبَرُ الشُّعْرَاءِ قَاطِبَةٌ كَالنَّبِيِّ فِي مَعْنَاهُ إِلَّا أَنَّهُ نَبِيٌّ صَغِيرٌ، وَإِلَّا أَنَّهُ فِي حُدُودِ قَلْبِهِ.

وهذه أَلْقَوَى الثَّلَاثُ هِيَ الَّتِي أَبْدَعَتْهَا الْحِكْمَةُ أَلِإِلَهِيَّةُ لِتَحْوِيلِ الْحَيَاةِ وَالسُّمُوءِ بِهَا؛ فَالشُّعْرَاءُ يَسْتَوْحِي أَلْجَمَالَ إِذَا تَالَهُ أَلْجَمَالَ فِي قَلْبِهِ، وَالْحَكِيمُ يَسْتَوْحِي الْحَقِيقَةَ إِذَا تَالَهَتْ فِي نَفْسِهِ، وَالنَّبِيُّ يَسْتَوْحِي أَلْأُلُوهِيَّةَ نَفْسَهَا.

«كَانَ ﷺ مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ» وَلَكِنَّهَا أَحْزَانُ النُّبُوَّةِ تَكْسُو الْحَيَاةَ فَرَحَ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ؛ وَهُوَ فَرَحٌ كُلُّهُ حَزَنٌ وَتَأَمُّلٌ، وَفِكْرَةٌ وَخُشُوعٌ، وَطَهَرٌ وَفَضِيلَةٌ؛ وَمَا فَرَحَ أَعْظَمُ الشُّعْرَاءِ بِطَرَبِ أَلْوُجُودٍ وَجَمَالِ الْمَوْجُودَاتِ إِلَّا شَيْءٌ قَلِيلٌ مِنْ حَزَنِ النَّبِيِّ.

«وَكَانَ دَائِمَ أَلْفِكْرَةٍ لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ» إِذْ هُوَ مَكْلُوفٌ أَنْ يَصْنَعَ الْإِنْسَانَ الْجَدِيدَ وَيُنْفَخَ^(١) أَلْأَدَمِيَّةَ فِيهِ. وَفِكْرَةُ النَّبِيِّ هِيَ مَعِيشَتُهُ بِنَفْسِهِ مَعَ الْحَقَائِقِ أَلْعُلْيَا، إِذْ لَا يَرَى أَكْثَرَهَا تَعِيشُ فِي النَّاسِ، وَهِيَ أَلْفَرْدِيَّةُ وَأَسْتِقْلَالُهَا وَسُمُوءُهَا؛ لِأَنَّهَا إِطَاقَةُ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ لِوَحْدَتِهَا، بِخِلَافِ أَلْأَنْفُسِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي لَا تُطَبِّقُهَا، فَدَائِبُهَا أَبَدًا أَنْ تَبْحَثَ عَمَّا تَسْتَعِيدُ لَهُ، أَوْ تَنْسَى ذَاتَهَا فِيهِ، أَوْ تَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ مِنْ ذَاتِهَا. وَمَتَى كَانَتْ أَلْأَنْفُسُ فَارِغَةً كَانَتْ تَفْكِيرُهَا مَضَاعِفَةً لِفَرَاغِهَا، فَهِيَ تَفْرُ مِنْهُ إِلَى مَا يُلْهِمُهَا عَنْهُ؛ وَلَكِنْ أَلْعَظِيمُ يَعْيشُ فِي أَمْتِلَاءِ نَفْسِهِ؛ وَعَالَمُهُ أَلْدَاخِلِيُّ تَسْمِيَةِ أَلْغَلْغَةِ أَحْيَانًا: الْفِكْرَةُ؛ وَتَسْمِيَةِ أَحْيَانًا: الصَّمْتُ.

«وَكَانَ ﷺ طَوِيلَ السَّنَكِتِ لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ»، وَمَنْ أَلصَمَتْ أَنْوَاعُ:

(١) يَنْفَخُ: يَمَيِّزُ بَيْنَ الْجَيِّدِ وَالرَّدِيِّ..

فَنَوْعٌ يَكُونُ طَرِيقَةً مِنْ طَرَقِ الْفَهْمِ بَيْنَ الْمَرَّةِ وَبَيْنَ أَسْرَارِ مَا يُحِيطُ بِهِ ؛ وَنَوْعٌ يَغْشَى الْإِنْسَانَ الْعَظِيمَ لِيَكُونَ عَلَامَةً عَلَى رَهْبَةِ السِّرِّ الَّذِي فِي نَفْسِهِ الْعَظِيمَةِ ؛ وَنَوْعٌ ثَالِثٌ يَكُونُ فِي صَاحِبِهِ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ الْحُكْمِ عَلَى صَمْتِ النَّاسِ وَكَلَامِهِمْ ؛ وَنَوْعٌ رَابِعٌ هُوَ كَالْفَصْلِ بَيْنَ أَعْمَالِ الْجَسَدِ وَبَيْنَ أَلْرُوحِ فِي سَاعَةِ أَعْمَالِهَا ؛ وَنَوْعٌ خَامِسٌ يَكُونُ صِمْتًا عَلَى دَوِيٍّ تَحْتَهُ يُشْبِهُ نَوْمًا سَاكِنًا عَلَى أَحْلَامٍ جَمِيلَةٍ تَتَحَرَّكُ .

عَلَى هَذَا الَّتَمَطِ يَجِبُ أَنْ تُفَسَّرَ كُلُّ أَوْصَافِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَهِيَ بِمَجْمُوعِهَا طَائِعٌ إِلَهِيٌّ عَلَى حَيَاتِهِ الشَّرِيفَةِ ، يُثَبَّتُ لِلدُّنْيَا بِكُلِّ بَرَهَانَاتِ الْعِلْمِ وَالْفَلَسَفَةِ أَنَّهُ الْإِنْسَانُ الْأَفْضَلُ ، وَأَنَّهُ الْأَقْدَرُ ، وَأَنَّهُ الْأَقْوَى .

سُمُو الْفَقْرِ فِي الْمَصْلَحِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْأَعْظَمِ

١

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مَا يَصِفُ التَّارِيخُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ بِطَبِيعَتِهِ فَوْقَ
الْإِسْتِغْنَاءِ، فَهُوَ فَقِيرٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالْفَقْرِ، وَلَا تَنَالُهُ الْمَعَانِي الْنَفْسِيَّةُ الَّتِي تَعْلُو
بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا وَتَنْزِلُ بِعَرَضٍ، فَمَا كَانَتْ بِهِ خَلَّةٌ تُحْدِثُ هَذَا فِي الْحَيَاةِ فَيُزِمُّهَا
أَلْمَالُ^(١)، وَلَا كَانَ يَتَحَرَّكُ فِي سَفْيٍ يُتَّقَى فِيهِ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ لِيَجْمَعَ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا
كَانَ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ الْبُعِيدِ وَالْقَرِيبِ مِنْ طَمَعٍ أَدْرَكَ أَوْ طَمَعٍ أَخْفَقَ، وَلَا نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِي
الْحِسْبَةِ وَالْتِدْبِيرِ لِيَتَدَبَّرَ مَعِيشَتَهُ فَيَحْتَطِبَهَا^(٢) ذَهَباً أَوْ فِضَّةً، وَلَا أَسْتَقَرَّ فِي قَلْبِهِ الْعَظِيمِ
مَا يَجْعَلُ لِلدِّينَارِ مَعْنَى الدِّينَارِ وَلَا لِلدَّرْهَمِ مَعْنَى الدَّرْهَمِ؛ فَإِنَّ الْمَعْنَى الْحَيَّ لِهَذَا
الْمَالِ هُوَ إِظْهَارُ الْنَفْسِ رَابِيَةً مُتَجَسِّمَةً فِي صُورَةٍ تَكْبَرُ فِي قَدْرِ مِنَ السَّعَةِ وَالْغِنَى؛
وَالْمَعْنَى الْحَيَّ لِلْفَقْرِ مِنَ أَلْمَالِ هُوَ إِبْرَازُ الْنَفْسِ ضَمِيلَةً مُثْرَوِيَةً فِي صُورَةٍ تَصْغُرُ عَلَى
قَدْرِ مِنَ الضَّيْقِ وَالْعُسْرَةِ.

إِنَّ فَقْرَهُ ﷺ كَانَ مِنْ أَنَّهُ يَتَسَّعُ فِي الْكُوفِ لَا فِي أَلْمَالِ، فَهُوَ فَقْرٌ يُعَدُّ مِنْ
مُعْجَزَاتِهِ الْكُبْرَى الَّتِي لَمْ يَتَنَبَّهْ إِلَيْهَا أَحَدٌ إِلَى الْآنَ، وَهُوَ خَاصٌّ بِهِ وَمِنْ أَيْنَ تَدَبَّرْتُهُ
رَأَيْتُهُ فِي حَقِيقَتِهِ مُعْجَزَةٌ تَوَاضَعَتْ وَغَيَّرَتْ أَسْمَهَا؛ مُعْجَزَةٌ فِيهَا الْحَقَائِقُ الْنَفْسِيَّةُ
وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ الْكُبْرَى، وَقَدْ سَبَقَتْ زَمَنُهَا بِأَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا، وَهِيَ الْيَوْمَ تُثَبِّتُ بِالْبَرْهَانِ
مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ: «إِنَّمَا أَنَا رَحِمَةٌ مُهْدَاةٌ».

نَحْنُ فِي عَصْرِ تَكَادُ الْفَضِيلَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِيهِ تَلْحَقُ بِالْأَلْفَاظِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ
عَلَى مَا كَانَ قَدِيمًا... بَلْ عَادَتْ كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ الشَّعْرِ تُرَادُّ لِتَحْرِيكِ النَّسِيمِ

(٢) يحتلبها: يستخرج منها.

(١) يرممها المال: يصلحها.

الْفُؤُويُّ الرَّاكِدُ فِي الْخَيَالِ، كَمَا تَقُولُ: السَّحَابُ الْأَزْرَقُ، وَالْفَجَرُ الْأَبْيَضُ، وَالشَّمْسُ الْأَحْمَرُ، وَالْطَّارِيفُ^(١) الْوَرْدِيُّ عَلَى ذَيْلِ الشَّمْسِ. وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَنْظُرُ أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَكْثَرِهِمْ بِاعْيُنٍ فِيهَا مَعْنَى وَحْشِيٌّ لَوْ لَمَسَ لَضَرْبَ أَوْ طَعَنَ أَوْ دَبَحَ.

وَعَمِلَتِ الْمَدِينَةُ أَعْمَالَهَا فَلَمْ تَزِدْ عَلَى أَنْ أُخْرِجَتِ الشَّكْلَ الشَّعْرِيَّ لِإِنْسَانِهَا الْفَنِيِّ مُتَهَاوِنَةً^(٢) تَرْفًا، وَنِعْمَةً، وَأَفْتِنَانًا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ أَيْسَرِ الْحَلَالِ إِلَى الْفُطَيْعِ الْمُتَفَاجِسِ فِي الْإِبَاحَةِ؛ فَكَأَنَّمَا وَضَعَتِ الْمَدِينَةُ عَقْلًا فِي وَحْشٍ، فَجَاءَ وَقَدْ زَاغَتْ^(٣) فِيهِ الطَّبِيعَةُ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ؛ ثُمَّ قَابَلَتْهُ بِالشَّكْلِ الْوَحْشِيِّ لِإِنْسَانِهَا الْفَقِيرِ، فَكَأَنَّمَا تَزَعَّتْ عَقْلًا مِنْ إِنْسَانٍ، فَجَاءَ وَقَدْ ضَلَّتْ فِيهِ الطَّبِيعَةُ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ؛ وَكَانَ مَعَ الْأَوَّلِ سَرَفُ الْهَوَى بِالطَّبِيعَةِ، وَكَانَ مَعَ الثَّانِي بِالطَّبِيعَةِ سَرَفُ الْحِمَاةِ.

وَقَدْ أَصْبَحَ مِنْ تَهْكُمِ الْحَيَاةِ بِأَهْلِهَا أَنْ يَكُونَ الْفَقِيرُ فَقِيرًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ صِنَاعَتَهُ فِي الْمَدِينَةِ عَمَلٌ الْغَنِيِّ لِلْأَغْنَاءِ... وَأَنْ يَكُونَ الْغَنِيُّ غَنِيًّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ عَمَلَهُ فِي الْمَدِينَةِ هُوَ صِنْعَةُ الْفَقْرِ لِيُضْمِرَهُ!

وُخْرِجَتْ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ مَسَائِلُ جَدِيدَةٌ فِي فِلَسَفَةِ الْمُعَايِشَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يَسْمُونَهَا «الاجْتِمَاعَ»؛ إِلَى أَسْئَلَةٍ كَثِيرَةٍ لَوْ ذَهَبْنَا نَعْدُهَا وَنَصِفُهَا لَطَالَ بِنَا الْقَوْلَ، وَكَلَّمَا عَامِلَةً عَلَى نَزْعِ الشُّعُورِ الْعَقْلِيِّ مِنَ الْحَيَاةِ لِتُظْهَرَ أَسْخَفُ مِمَّا هِيَ، وَأَقْبَحُ مِمَّنْ كَانَتْ؛ حَتَّى أَصْبَحَتِ الشَّمْسُ تَطْلُعُ تَمَحُّو لَيْلًا عَنِ الْمَادَةِ وَتُلْقِي لَيْلًا عَلَى النَّفْسِ، فِي حِينٍ أَنْ الْدِّينَ وَالْإِنْسَانِيَّةَ لَا يَعْمَلَانِ غَيْرَ بَثِّ هَذَا النُّورِ الْعَقْلِيِّ فِي الْأَشْيَاءِ وَالْمَعَانِي لِتُظْهَرَ الْحَيَاةُ مُضِيئَةً مُلْتَبِعَةً، فَتُصْبِحُ أَوْضَحَ مِمَّا هِيَ فِي نَفْسِهَا، وَأَجْمَلَ مِمَّا هِيَ فِي الطَّبِيعَةِ.

فِي مِثْلِ هَذِهِ التَّرَعَّاتِ الْمُتَقَاتِلَةِ الَّتِي صَعِدَتْ بِالْفِلَسَفَةِ وَنَزَلَتْ، وَجَعَلَتْ مِنَ الْعِلْمِ فِي صَدْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَلَأَ سَمَاءَ مِنَ الْغُيُومِ بِسَوَادِهَا وَرَغْدِهَا وَصَوَاعِقِهَا، وَتَرَكَّتْ أَلْعَالِمَ يَضْجُ ضَجِيجُهُ الزَّمْرَجُ فِي قَلْبِ كُلِّ حَيٍّ حَتَّى لَتَدَاعُ الْهَمُومُ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ إِذَاعَةُ الْأَصْوَاتِ إِلَى أَسْمَاعِهِمْ فِي «الرَّادِيُو»... فِي مِثْلِ هَذَا الْبَلَاءِ الْكَمَاحِ تَتَلَقَّتْ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَى التَّارِيخِ تَسْأَلُهُ دَرْسًا مِنَ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ الْقَدِيمِ تَطْبُ مِنْ لَهُذِهِ الْحِمَاةِ الْجَدِيدَةِ، وَلَوْ عَلِمَتْ لَعَلِمَتْ أَنَّ دَرْسَ هَذَا الْعَصْرِ فِي عِلَاجِ مَشَاكِلِهِ

(١) التَّطَارِيفُ: الْإِشَاعَاتُ.

(٢) مُتَهَاوِنَةً: مُتَسَارِعَةً مُتَهَالِكَةً.

(٣) زَاغَتْ: مَالَتْ انْحَرَفَتْ.

الإنسانية هو «محمد» ﷺ، الذي لن يبلغ أحد في وصفه الاجتماعي ما بلغ هو في قوله: «إنما أنا رحمة مهداة».

هذا المصلح الاجتماعي الأعظم يُلقى فقره اليوم درساً على الدنيا العلمية الفلسفية، لا من كتاب ولا فكر، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته؛ إذ ليس المصلح من فكّر وكتب، ووعظ وخطب، ولكنه الحي العظيم الذي تلمسه الفكرة العظيمة لتحيّا فيه، وتجعل له عمراً ذهنيّاً مُصرّفاً على حكمها، فيكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها.

وما كان محمد ﷺ إلا عمراً ذهنيّاً مخضاً، تمرّ فيه المعاني الإلهية لتظهر للناس إلهية مفسّرة. وكلّ حياته ﷺ دروسٌ مفضّة مختلفة المعاني، ولكنها في جملتها تُخاطب الإنسان على الدهر بهذه الجملة: أيّها الحي، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك: أي إذا كانت الحياة في الحقيقة فلا تكن أنت في الكذب، وإذا كانت الحياة في الرجولة البصيرة فلا تكن في الطفولة النّزقة^(١)، فإنّ الرجل يعرف ويذكر، فهو بذلك وراء الحقيقي؛ ولكنّ الطفل يجهل ولا يعرف الدنيا إلا بعينه، فهو وراء ألهم، ومن ثمّ طيشه ونزقه، وإشارته كلّ عاجل وإن قلّ، وعمله أن تكون حياته النفسية الضئيلة في مثلِ توثّب أعضاء جسمه، حتى كأنه أبداً يلعب بظاهره وباطنه معاً...

أيّها الحي، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك: أي الحياة في ذاتك الداخلية وقانون كمالها، فإذا استطعت أن تُخرج للأرض معنى سماءاً من ذاتك فهذا هو الجديد دائماً في الإنسانية، وأنت بذلك عاشق في القريب القريب من الروح، وأنت به شيء إلهي؛ وإذا لم تستطع وعشت في دمك وأعصابك فهذا هو القديم دائماً في الحيوانية، وأنت بذلك عاشق في البعيد البعيد من النفس، وأنت به شيء أرضي كالبحر والتراب.

هنا: أي في الإرادة التي فيك وحدك. ولا هناك: أي في الخيال الذي هو في كلّ شيء. وهنا، في أخلاقك وفضائلك التي لا تدفعك إلى طريق من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهداية والحكمة؛ وليس هناك، في أموالك ومعاشيك

(١) النزقة: الطائشة المنحرفة.

أَلْتِي تَجْعَلُكَ كَاللَّصِّ مُنْدِفِعاً إِلَى كُلِّ طَرِيقٍ مَتَى كَانَ هُوَ بَعِينَهُ طَرِيقاً إِلَى نَهَبَةٍ أَوْ سَرَقَةٍ .
 هنا، في الروح، إذ تشعرُ أَلرُّوحُ أَنَّهَا موجودةٌ، ثم تعملُ لِتُثَبِّتَ أَنَّهَا شاعرةٌ بوجودِها،
 ماضيةٌ إلى مصيرِها، منتهيةٌ بجسديها إلى الموتِ الإنسانيِّ على سُنَّةِ النفسِ الخالدةِ؛
 وليسَ هناك في أَلْحَسِّ، إذ يتعلَّقُ أَلْحَسُّ بما يتقلَّبُ على الجسمِ، فهو مهتاجٌ لِشعوره
 بِوَشِكِّ فَتَائِهِ فلا يُخَدِّثُ إِلَّا أَلْأَلَمَ إِنْ نَالَ أَوْ لَمْ يَنْلُ، وهو منتَهٍ بجسمِهِ إلى أَلْمَوْتِ
 أَلْحَيَوَانِيِّ بَيْنَ أَكَلٍ وَمَأْكُولٍ على سُنَّةِ الطَّيْبَةِ الْفَانِيَةِ .

أَيُّهَا أَلْحَيُّ، إِذَا كَانَتْ أَلْحَيَاةُ هُنَا فلا تَكُنْ أَنْتَ هُنَاكَ .



إِنَّ أَلْحَكِيمَ أَلَّذِي يَنْظُرُ إِلَى مَا وَرَاءَ أَلْأَشْيَاءِ فَيَتَعَرَّفُ أَسْرَارَهَا، لَا تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ
 أَلَّذِي يَتَعَلَّقُ بِظَاهِرِهَا وَلَا أَخْلَاقُهُ وَلَا نَظَرُتُهُ؛ هَذَا أَلْأَخِيرُ هُوَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ
 أَلْأَشْيَاءِ لَهُ مَظْهَرُ أَلْمَادَةِ وَجِدَاعُهَا عَنِ أَلْحَقِيقَةِ؛ وَذَلِكَ أَلْأَوَّلُ هُوَ نَفْسُهُ سَرٌّ مِنْ
 أَلْأَسْرَارِ لَهُ رَوْعَةُ السَّرِّ وَكَشْفُهُ عَنِ أَلْحَقِيقَةِ . وَلِهَذَا كَانَ فِي حَيَاةِ أَلْأَنْبِيَاءِ وَأَلْحُكَمَاءِ مَا
 لَا يُطَبِّقُهُ أَلنَّاسُ وَلَا يَضْطَرُّونَهُ إِذَا تَكَلَّفُوهُ، بَلْ يَنْخَرِقُ عَلَيْهِمْ فَيَكُونُ مِنْهُ أَلْعَجْزُ
 وَأَلْغَلَطُ، وَيَحْدُثُ مِنْ أَلْغَلَطِ أَلزَّلُّ .

وَنَظَرُهُ نَبِيًّا ﷺ إِلَى هَذَا أَلْوُجُودِ نَظَرُهُ شَامِلَةٌ مُدْرِكَةٌ لِحَقِيقَةِ أَلْأَنْهَاءِ، فَيَرَى
 بِدَايَةَ كُلِّ شَيْءٍ مَادِيٍّ هِيَ زَيْهَاتِيَّتُهُ فِي أَلتَّوُّ وَأَلَّلَحْظَةِ، فَلَا وَجُودَ لَهُ إِلَّا عَارِضاً مَارّاً،
 فَهُوَ فِي أَعْتَابِهِ مَوْجُودٌ غَيْرُ مَوْجُودٍ، مُبْتَدِئٌ مُنْتَهٍ مَعاً؛ وَبِذَلِكَ تَبْطُلُ عِنْدَهُ أَلْأَشْيَاءُ
 أَلْمَادِيَّةُ وَتَأْثِيرُهَا، فَلَا تَتَّصِلُ بِنَفْسِهِ أَلْعَالِيَةِ إِلَّا مِنْ أَضْعَفِ جِهَاتِهَا، وَيَجِدُ لَهَا أَلنَّاسُ
 فِي حَيَاتِهِمْ أَلشَّجَرَةَ وَالفَرْعَ وَأَلثَّمَرَةَ، وَمَا لَهَا عِنْدَهُ هُوَ جَذْرٌ وَلَا فَرْعٌ؛ وَبِهَذَا لَمْ يُفَتِّنْهُ
 شَيْءٌ وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ شَيْءٌ .

وَكَانَتْ أَلدُّنْيَا تَطُولُ أَلنَّاسَ وَتَتَقَاصِرُ عَنْهُ، وَكَانَتْ مُنْقَطِعَةً أَلتَّمَاءِ وَهُوَ ذَاهِبٌ فِي
 نَمْوِهِ أَلرُّوحِيِّ، وَكَأَنَّهَا هِيَ صُورَةُ أُخْرَى مِنْ أَدَمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)؛ فَكِلَاهُمَا لَمَسَ
 بِنَفْسِهِ أَلْحَيَاةَ جَدِيدَةً خَالِيَةً مِمَّا جَمَعَ فِيهَا أَلزَّمَنُ وَأَهْلُهُ مِنْ طَمَعٍ وَشَرٍّ، وَجَاءَ أَدَمُ
 لِيُعْطِيَ أَلْأَرْضَ نَاسَهَا مِنْ صُلْبِهِ، وَجَاءَ مُحَمَّدٌ لِيُعْطِيَ أَلنَّاسَ قَوَانِينَهُمْ مِنْ فُضَائِلِهِ؛
 فَأَدَمُ بِشَخْصِهِ هُوَ دُنْيَا بُعِثَتْ لِتَتَّسِعَ، وَمُحَمَّدٌ بِشَخْصِهِ هُوَ دُنْيَا بُعِثَتْ لِتُنْتَظَمَ .

وَمَاذَا يُفَهِّمُ مِنْ أَلْفَلَسَفَةِ أَلْأَخْلَاقِيَّةِ أَلنَّبَوِيَّةِ أَلْعَظِيمَةِ؟ يُفَهِّمُ مِنْهَا أَنَّ أَلشَّهَوَاتِ
 خُلِقَتْ مَعَ أَلْإِنْسَانِ تَتَحَكَّمُ فِيهِ، لِیَنْقَلِبَ بِهَا إِنْسَاناً يَتَحَكَّمُ فِيهَا؛ وَأَنَّ أَلْإِنْسَانَ

الصحيح الذي لم تُزَوَّه الدنيا يجب أن يكون ذا روح يمتد فيفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يصبح في حكم النور وأنطلاقه وحريته، ولا ينكمش فيحصره جسمه في غاياته وضروراته فيرتد إلى ما هو أسفل أسفل حتى يعود في حكم التراب وأسره وعبوديته. فالفقر وما إليه، والزهد وما هو بسبيل منه، والآنصراف عن الشهوات والردائل - كل ذلك إن هو إلا تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال، وشيئاً بعد شيء، لتضيء على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تُباليها ولا تُقيم لها وزناً. فبينما الناس يرون الأموال والشهوات مادة حياة وعمل وشعور، تراها هي مادة بحث ومعرفة واعتبار ليس غير؛ وبهذا تكون النفس العظيمة في الدنيا كاستاذ المعلم: تدخل المادة إلى معلمه وهي مادة وفكرة، وتخرج منه وهي حقيقة ومعرفة، وعلى أي أحوالها فهي إنما تُحسن في ذلك المعلم بأصابع علمية دقيقة ليس فيها الجمع ولا الجزص، ولكن فيها الذهن والفكر؛ وليس لها طبيعة الرغبة والغفلة، ولكن طبيعة الانتباه والتحرز، وليست في أسر المادة، ولكن المادة في أسرها ما شاءت.

ولا يسمى فقره ﷺ زهداً كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ ولا يحققون أصوله النفسية؛ وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوي بأرواح مظلمة تُريهم ما ترى العين إذا ما اختلط الظلام وليس الأشياء فتراءت مُجملة لا تفصيل لها، مُفرغة لا تُبين فيها؛ وما بها من ذلك شيء، غير أنها تتراءى في بقية من البصر لا تعمُرُها.

وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك، وتنصرف عنه وهو بك متعلق؟ فتلك سُخرية ومثلة، وفي رأي تشوية للجسم بروحه، وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها؛ فليس يعلم إلا الله وحده: أذاك تفسير لإنسانية الزاهد بالنور، أم هو تفسير بالتراب.

ولقد كان ﷺ يملك المال ويحده، وكان أجود به من أريج المرسلة، ولكنه لا يدعه يتناسل^(١) عنده، ولا يتركه يثبُت في عمله، وإنما كان عمله ترجمة لإحساسه الروحي؛ فهو رسول تعليمي، قلبه العظيم في القوانين الكثيرة من واجباته، وهو يريد إثبات وحدة الإنسانية، وأن هذا الإنسان مع المادة الصامتة

(١) يتناسل: يتكاثر.

العمياء مادة مفكرة مميزة، وأن الدين قوة روحية يلقي بها المؤمن أحوال الحياة فلا يثبت بإزائها شيء على شئتيه، إذ الروح خلود وبقاء، والمادة فناء وتحول، ومن ثم تخضع الحوادث للروح المؤمنة وتتغير معها، فإن لم تخضع لم تخضعها، وإن لم تتغير الروح بها؛ وأساس الإيمان أن ما ينتهي لا ينبغي أن يتصرف بما لا ينتهي. ما قيمة العقيدة إلا بصدقها في الحياة، وأكثر ما يصنع هذا المال: إما الكذب الصراح في الحياة، وإما شبهة الكذب؛ ولهذا تنزه النبي ﷺ عن التعلق به، وزاده بعداً منه أنه نبي الإنسانية ومثلها الأعلى، فحياته الشريفة ليست كما نرى في الناس: إيجاداً لحل مسائل الفرد وتعقيداً لمسائل غيره، ولا توسعاً من ناحية وتضييقاً من الناحية الأخرى، ولا جمعاً من هنا ومنعاً من هناك؛ بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفة إلى إقرار التوازن في الإنسانية، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلاف مراتبهم كيف يكون لهم عقل واحد من أكون؛ وبهذا العقل الكوني السليم ترى المؤمن إذا عرض له الشيء من الدنيا يفتنه أو يضربه عن واجبه الإنساني - أثبت نفسه العظيمة إلا أن ترتفع بطبيعتها، فإذا هو في قانون السموات، وإذا المادة في قانون الثقل؛ فيرتفع وتهاوى^(١) ويصبح الذهب - وإنه ذهب - وليس فيه عند المؤمن إلا روح التراب.

(١) تهاوى: تسقط وترسب.

سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم

٢

قَالَتْ عَائِشَةُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا): لَمْ يَمْتَلِءْ جَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ شَيْعَاءَ قَطٍّ، وَإِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ لَا يَسْأَلُهُمْ طَعَاماً وَلَا يَتَشَهَّاهُ؛ إِنْ أَطْعَمُوهُ أَكَل، وَمَا أَطْعَمُوهُ قَبِلَ، وَمَا سَقَوْهُ شَرِبَ.

وَقَالَتْ: مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَبِزِ الشَّعِيرِ يَوْمِينَ مُتَابَعِينَ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وعنها: كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ نَمَكُّ شَهْراً مَا نَسْتَوْقِدُ بَنَارَ، إِنْ هُوَ إِلَّا الْتَمَرُ وَالْمَاءُ.
وَقَالَتْ: مَا رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَطٍّ غَدَاءً لِعِشَاءٍ، وَلَا عِشَاءً لِعَدَاءٍ وَلَا اتَّخَذَ مِنْ شَيْءٍ زَوْجِينَ؛ لَا قَمِيصِينَ، وَلَا رِدَائِينَ، وَلَا إِزَارِينَ، وَلَا زَوْجِينَ مِنَ الْتَعَالِ.
وَيُرَوَّى عَنْهَا، قَالَتْ: تُوْفِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَطْرَ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي.

وَقَالَتْ: تُوْفِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ فِي ثَلَاثِينَ صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ.

وعن أبي عباس: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبِيتُ الْبِلَالِيَّ الْمَتَابِعَةَ وَأَهْلَهُ طَاوِيًّا^(١) لَا يَجِدُونَ عِشَاءً، وَإِنَّمَا كَانَ خَبِزُهُمُ الشَّعِيرُ.

وعن الحسن، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «وَاللَّهِ مَا أَمْسَى فِي آلِ مُحَمَّدٍ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ، وَإِنَّهَا لَتِسْعَةُ آيَاتٍ!» وَاللَّهُ مَا قَالَهَا أَسْتَقْلَالاً، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ تَنَاسَى بِهِ أُمَّتَهُ.

(١) طَاوِيًّا: جَائِعاً لَمْ يَأْكُلْ شَيْئاً.

وعن ابنِ مجير قال: أصابَ النَّبِيَّ ﷺ جُوعٌ يوماً، فعمد^(١) إلى حجرٍ فوضَعَهُ على بطنِهِ، ثم قال: «ألا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا، جائعةٌ عاريةٌ يومَ القيامةِ؛ ألا ربُّ مُكْرِمٍ نفسَهُ وهو مُهِينٌ لها؛ ألا ربُّ مُهِينٍ نفسَهُ وهو مُكْرِمٌ لها».

وَحُيِّرَ ﷺ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ «أَحْدٍ» ذهاباً فقال: «لا يا ربُّ؛ أجوعُ يوماً فأدعوك، وأشبعُ يوماً فأحمدُك!».

وكانَ يقولُ في دعائِهِ وَيُكثِرُ منه: «اللهمَّ أَخِينِي مُسْكِيناً، وَأَمْتِنِي مُسْكِيناً، وَأَحْزِنِي فِي زُمْرَةِ^(٢) الْمَساكِينِ».

هذا هو سِنْدُ أَلَمَةٍ، يُمَسِّكُهُ فِي الْحَيَاةِ نَبِيًّا عَظِيماً ما يُخْرِجُ غَيْرَهُ مِنْهَا ذَلِيلاً مُحْتَقِراً، وكأَنَّمَا أَشْرَقَ صَفَاءُ نَفْسِهِ عَلَى تَرابِ الْأَرْضِ فَرَدَّهُ أَشْعَةُ نَورٍ، على حينِ يُلْقِي النَّاسُ عَلَى هَذَا التُّرابِ من ظلامِ أَنْفُسِهِمْ فلا يَبْقَى تَراباً بل يَرْجِعُ ظَلاماً، فَكَأَنَّهُمْ إِذْ يَمْشُونَ عَلَيْهِ يَطْلُؤُونَ المِجْهُولَ بِخَوْفِهِ وَرَوْعَتِهِ؛ ثم لا يَسْتَقِرُّ ظَلاماً بل يَرْجِعُ أَلَمًا، فَكَأَنَّهُمْ يَنْتَبِهُونَ عَلَى الْمَرَضِ لا عَلَى الْحَيَاةِ؛ ثم لا يَثْبُتُ أَلَمًا بل يَتَحَوَّلُ فُورَةً وَتَوْتُباً تَكُونُ مِنْهُ نَزَوَاتُ^(٣) الْحَمَقِ وَالْجَنُونِ فِي النَّفْسِ.

هؤلاء الذين تَعِيشُ أَنْفُسُهُمْ فِي التُّرابِ، وَيَتَمَرَّغُونَ بِأَخْلَاقِهِمْ فِيهِ، يَنْقَلِبُونَ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ صَنَعِ التُّرابِ نَاساً دُوداً كَطَبْعِ الدُّودِ لا يَقَعُ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَفْسَدَهُ أَوْ قَدَّرَهُ؛ أَوْ قَوْماً سُوساً كَطَبْعِ السُّوسِ لا يَنَالُ شَيْئاً إِلَّا نَخَّرَهُ أَوْ عَابَهُ، فَهُمْ يَوْقِعُونَ الْخَلَلَ فِي نِظَامِ أَنْفُسِهِمْ، فَإِذَا هِيَ طَائِشَةٌ تُخِيلُ لَهُمْ كَأَنَّمَا اخْتَلَّتْ نَوَامِيسُ الدُّنْيَا، وَكَأَنَّ اللَّهَ قَبَضَهُمْ وَبَسَطَ غَيْرَهُمْ، وَشَغَلَهُمْ وَفَرَّغَ مِنْ عِداهِمْ، وَأَبْتَلَاهُمْ عَلَى مُسْكَةِ الرِّزْقِ^(٤) بِالشَّهْوَةِ الْمَسْجُورَةِ^(٥) الَّتِي لَا تَحْقُقُ، فَضَرَبَهُمْ بِالْمِجَاهِدَةِ الَّتِي لَا تَنْقُطِعُ؛ وَأَنْعَمَ عَلَى غَيْرِهِمْ فِي بَسْطَةِ الرِّزْقِ بِالشَّجَرَةِ الْمَسْجُورَةِ الَّتِي لَا تُقَطِّعُ مِنْهَا ثَمَرَةً إِلَّا نَبَتَ غَيْرُهَا فِي مَكَانِهَا.

إِنَّ ما وَصَفْنَاهُ مِنْ فَقْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَتِيدٌ حَاضِرٌ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ نَفْسَهُ فِي هَمِّ أَلَمَالٍ، وَلَا جَعَلَتْهُ نَفْسُهُ فِي هَمِّ أَلْفَقَرٍ، وَأَنَّهُ لَقِيَ الْحَيَاةَ حَامِلاً لَا

(١) عمد إلى حجر: أتى بحجر.

(٤) مُسْكَةُ الرِّزْقِ: ضيق العيش.

(٢) زمرة: جماعة.

(٥) الشهوة المسجورة: الجامحة.

(٣) نزوات: رغبات.

محمولاً، واستقرَّ فيها هادئاً لا مضطرباً - كلُّ ذلك إنما يُثبتُ لِلدنيا أَنَّهُ خُلِقَ وَبُعِثَ وعاشَ ليكونَ درساً عملياً في حلِّ المشكلاتِ الاجتماعية، يُعلِّمُ الناسَ أَنَّهُم لا تتعقَّدُ بطبيعتها، ولكن بطائِعهم فيها، ولا تستمرُّ بقوَّتها، ولكن بإمدادِ قواهم لها؛ ولا تغلبُ بصوْلَتِها^(١)، ولكن بجزعهم^(٢) منها؛ ولا تُغْضِلُ^(٣) من ذاتِ نفسها، ولكن من سوءِ أثرهم عليها وسوءِ نظرهم لأنفسهم ولها.

فإذا قرأتَ الأحاديثَ التي أسلفتها فلا تقرأها زُهداً وتقللاً، ولا فقراً وجوعاً، ولا اختلالاً وحاجة، كما تُترجمُها نفسك أو تُحسُّها ضرورتُك؛ بل أنظرْ فيها واعتبرْها بنفسه هو ﷺ، ثم أقرأها شريعةَ اجتماعيةَ مُفضَّلةَ على طبيعةِ النفس، قائمةً على أن تأخذَ نفسَ الإنسانِ من قوَى الدنيا عناصرَها الحيَّة، لِتُعْطِيَ الحياةَ من ذلك قوَّةَ عناصرها.

والحياةُ العاملةُ غيرُ الحياةِ الوداعة، هما ذكرٌ وأنثى؛ فأما الأولى فهي ما وصفنا وحكيها، وأما الثانيةُ فهي تغلُّ النعمة، وإطلاقَ قانونِ التناسلِ في أكمالِ يُنمِّي بعضُه بعضاً، ويَنبُتُ بعضُه على بعض، ثُمَّ إقامةُ الحياةِ على الزينةِ ومُفَوِّماتها، وقيامُ الزينةِ على الخداعِ وطباعه، فيُقبلُ المرءُ من دنياه على ما هو جديرٌ أن يصرفَه عنها، ويُحبُّ منها ما كان ينبغي أن يباغضَه فيها. وكلُّ ما رأيتُ وعلمتُ في رجلٍ، قُوَّتُه القوَّةُ فهو هناك؛ وكلُّ ما علمتُ ورأيتُ في أنثى، قوتُها الضعْفُ فهو هنا.

فالسوادُ الذي تراه في فقره ﷺ هو السوادُ الحيُّ؛ سوادُ الليلِ حولَ الروحِ النُّجميةِ الساطعة؛ وذلك الترابُ هو الترابُ الحيُّ؛ ترابُ الزرعِ تحتَ النُصرةِ والخُصرة؛ وتلك الحاجةُ الجسميَّةُ هي الحاجةُ الحيَّةُ الدافعةُ إلى حريَّةِ النفس؛ وذلك الإقلالُ من فهمِ اللذةِ هو الإقلالُ الحيُّ الذي يزيدُ قوَّةَ فهمِ الجمالِ في السماءِ والأرضِ وما بينهما، وذلك الضيقُ في خَيْرٍ^(٤) المتناهِ للحاسةِ هو الضيقُ الحيُّ الذي يُوسِّعُ خَيْرَ المتناهِ للروحِ. وبالجملَةِ فذلك النقصُ مِنَ المادَّةِ لم يكنْ إلَّا لنفيِ النقصِ عَنِ الأفضليةِ، وذلك الاحتقارُ لِلعَرَضِ الفاني الزائلِ هو المعنى الآخرُ لِتقدِّسِ الخالدِ الباقي.

(٣) تعضل: تشتدّ وتقوى.

(٤) خَيْرٌ: ملك.

(١) الصولة: الغلبة.

(٢) بجزعهم: بخوفهم.

فليس هناك خُبْرُ الشعير، ولا الجوع، ولا رهْنُ الدرع عند اليهودي. كلا، كلا، بل هناك حقيقة نفسية عقلية، ثابتة مثزنة، قائمة بعناصرها السامية: مِنَ اليقين والعقل والحكمة، إلى الرفق والجلم والتواضع، تُخبرُ هذه الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أن ذلك النبي العظيم هو الرجل الاجتماعي أكتام بأخلاقه وفضائله، وهو الذي بُعثَ لتنتقيح غريزة تنازع البقاء، وكسّر هذه الحيوانية، وقنّع^(١) نزواتها، وإماتة دواعيها، والسمو بخواطرها؛ فهو بتفسيه صورة الكمال الذي بُعثَ لتحقيقه وإثبات أنه الممكن لا الممتنع، والحققي لا الخيالي.

ليس هناك دِرْعٌ مرهونة في ثلاثين صاعاً، ولا فقرٌ ولا خبرُ الشعير. كلا، كلا، بل هناك تقرير أن النصر في معركة الحياة لا يأتي من المال والثراء والمتاع، ولكن من المعاناة والشدة والصبر؛ وأن التقدم الإنساني لا يُباعُ ببعاء، ولا يُؤخذُ هوناً^(٢)؛ بل هو انتزاع من الحوادث بالأخلاق التي تتغلب على الأزمات ولا تتغلب الأزمات عليها، وأن هذا المال وهذه الشهوات - في حقائق الحياة ومصابيرها - ككنوز الأحلام: لا تكون كنوزاً إلا في مواضعها من أرض الغفلة والنوم، فلا لذة منها إلا بمقدار خفيف من هذه الغفلة. وليس إلا الأحمق أو المخدول أو الضائع هو الذي يقطع العمر نائماً أبداً ليظل مالكاً أبداً لهذه الكنوز. وهو يعلم أنه لا بد مستيقظ، وأنه متى أنتبه في آخرته لم يجد منها شيئاً «وجد الله عنده فوقه حسابته».

كلا، كلا، ليس هناك فقرٌ ولا جوعٌ وما إليهما، بل هناك وضع هذه الحقيقة: ينبغي أن تجد نفسك، وموضع نفسك، وإيمان نفسك، وعزة نفسك. فإذا أدركت ذلك ورفعت نفسك إلى موضعها الحق، وأقررت فيها، وحسنتها عليه، وحددتها بالإنسانية من ناحية وباللّه من الناحية المقابلة - رأيت إذن أن قيمتك الصحيحة في أن تكون وسيلة تُعطي وتعمل لتعطي، لا غاية تأخذ وتعمل لتأخذ، ومهما ضيق عليك فإنما أنت كالشجرة الطيبة تأخذ تراباً وتصنع خلاوة.

وما قط نبئت شجرة في مكانها لتأكل وتشرب وتختزن السمد والتراب وتحصنها وتمنعها عن غيرها، ولو قد فعلت ذلك شجرة لكان هلاكها فيما تفعل، إذ تحاول أن تضاعف فائدتها من قانون العالم، فيكون طعمها سريعاً في

(٢) هوناً: سهلاً.

(١) قمع: ضرب وقهر وأذل.

إفساد الصلة بينهما، فلا يجد القانون فيها نظامه، ومن ثم لا تجد في القانون نظامها، فيهلكها الذي كان يحييها، وتستعبد لحظ نفسها، فيفقد ذلك حرية الحياة التي كانت لها في نفسها.

* * *

يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِنَّ نَفْسَهُ تُنْزِعُ مِنْ بَيْنِ جَنِبَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ». فهذا هو أسمى قانون اجتماعي يمكن أن تظفر به الإنسانية، وما يأتي لها ذلك إلا إذا أصبحت تلك المعاني التي أومأنا^(١) إليها شعوراً اجتماعياً عاماً مقررراً في النفس، قائماً فيها على إيمانٍ راسخ بأن الفرد هو صورة المجتمع لا صورة نفسه وحدها، وأن الناس كحب القمح في السنبلة، ليس لجميعه إلا قانون واحد، فموضع كل حبة من السنبلة هو ثروتها، علت أو سفلت، وكثر ما تأخذ أو قل؛ وإذا كان أساس الحياة في الحبة منها أن تجد قوامها وكيفياتها من مادة الأرض، فتمام الحياة فيها أن يغمرها النور من حولها، وأن يستمر النور من حولها يغمرها.

فالحبة من السنبلة بكل خير على كل حال، وإنها لتنزع وما بها أئها نزع، ولكيها أدت ما تؤدي، وأنقطعت من قانون لتتصل بقانون غيره، وما أعتت ولا أفتقرت، ولا أكثرت ولا أخفت بل حققت موضعها، فإنها ما نبث لتبقى، وما نمت إلا لينقطع نماؤها. وكذلك المؤمن الصحيح الإيمان، الصادق النظر في الحياة: هو أبدأ في قانون آخرته، فهو أبدأ في عمل ضميره.

والناس في هذه الحياة كحشد عظيم يتدفق من مضيق بين جبلين ينفذ إلى الفضاء؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنهم مفضون^(٢) إلى هذه النهاية مروا آمنين وكان في يقينهم السلامة، وفي صبرهم الوقاية، وفي نظامهم التوفيق، وفي تعاونهم الحياة؛ فهم بكل خير على كل حال، ما دام هذا قانون جميعهم؛ فأبما رجل شد منهم فاضطرب فطاش^(٣)، هلك وأهلك من حوله، ومن عكس منهم موضعه ونكص على عقبيه، أهلك من حوله وهلك، والموت أشقى الموت هنا في هذا المضيق بين الجبلين - اعتبار الحاضر حاضراً فقط، والضجر منه، وجعل كل إنسان نفسه

(١) أومأنا: أشرنا.

(٢) مفضون: واصلون، متهون إلى.

غاية . والحياةُ هنا الحياة - اعتبارُ الحاضرِ بما وراءه، والصبرُ على شدِّته، وجعلُ الإنسانِ نفسه وسيلة .

فذلك معنى خبزِ الشعير، والقَلَّةِ والضيق، ورهنِ الدرعِ عندَ يهوديٍّ من سيِّدِ الخَلْقِ وأَكمليهم، وَمَنْ لو شاءَ لَمَشَى على أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ . فهو ﷺ يُعَلِّمُ الْإِنْسَانِيَّةَ أَنَّ الرَّجُلَ الْعَظِيمَ النَّفْسِ لَا يَكُونُ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا ضَيْفًا نَازِلًا عَلَى نَفْسِهِ .

ومن معاني ذلك الفقرِ العظيمِ أَنَّ خَبْزَ الشعيرِ هو رَمَزٌ من رموزِ الحياةِ على التحلُّلِ من خُلُقِ الأثَرَةِ، والبراءَةِ من هوى التَّرفِ؛ ورهنُ الدرعِ رَمَزٌ آخَرُ على التخلُّصِ مِنَ الْكِبَرِيَاءِ وَالطَّمَعِ؛ والعُسْرَةُ رَمَزٌ ثَالِثٌ على مجاهدةِ المللِ الْحَيِّ الَّذِي يُفْسِدُ الْحَيَاةَ كَمَا يُفْسِدُ بَعْضُ الْنَبَاتِ الْنَبَاتِ . ومجموعُ هذه الرموزِ رَمَزٌ بِحَالِهِ على وجوبِ الْإِيقَاطِ النَّفْسِيِّ لِلأُمَّةِ الْعَزِيزَةِ الَّتِي تَقْوُدُ أَنْفُسَهَا بِمَقَاسَةِ الشَّدَائِدِ وَمُجَاهِدَةِ الطَّبَاعِ، لِتَكُونَ فِي كُلِّ فَرْدٍ مَادَّةُ الْجَيْشِ، وَلِيَصْلَحَ هَذَا الْجَيْشُ قَائِدًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ .

على أَنَّهُ ﷺ حَثَّ عَلَى طَلَبِ الْيَسَّارِ^(١)، وَالتَّغْلُلِ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّرِيفَةِ بِالْعَلَّةِ وَالْمَالِ، فَقَالَ: «إِنَّكَ إِنْ تَدَخَّ عِيَالُكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ^(٢) النَّاسَ» . ورأى عابداً قَدْ أَنْقَطَعَ لِلْعِبَادَةِ حَتَّى أَكَلَتْ نَفْسُهُ جَسَمَهُ، وَوَصَفُوا لَهُ مِنْ زُهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَقَالَ ﷺ: «مَنْ يَعُولُهُ؟» قَالُوا: كُلَّنَا نَعُولُهُ . فَقَالَ: «كُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ . . .» إِلَى أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مَرْوِيَّةٍ، هِيَ تَمَامُ الْقَانُونِ الْأَدَبِيِّ الْأَجْتِمَاعِيِّ فِي الدُّنْيَا، تُثَبِّتُ أَنَّ الْحَيَّ إِنْ هُوَ إِلَّا عَمَلُ الْحَيِّ .

ولكنَّ حِينَ يَكُونُ سَيِّدُ الْأُمَّةِ وَصَاحِبُ شَرِيعَتِهَا رَجُلًا فَقِيرًا، عَامِلًا مُجَاهِدًا، يَكْدُحُ^(٣) لِعَيْشِهِ، وَيَجُوعُ يَوْمًا وَيَشْبَعُ يَوْمًا، فَلَمْ يَقْلُبْ يَدَهُ فِي تِلَادٍ^(٤) مِنَ الْمَالِ يَرْتُهُ، وَلَمْ يَجْمَعْهُمَا عَلَى طَرِيفٍ^(٥) مِنْهُ يُورِّثُهُ - فَذَلِكَ هُوَ مَا بَيَّنَّاهُ وَشَرَحْنَاهُ، وَذَلِكَ كَالْأَمْرِ نَافِذًا لَا رُخْصَةً فِيهِ، عَلَى الْأَلَّا يَتَّخِذُ الْغَنَى مِنَ الْفَقِيرِ عَبْدًا أَجْتِمَاعِيًّا لِفَقْرِ هَذَا وَلِمَالِ ذَاكَ؛ بَلْ هِيَ الْمَسَاوَاةُ الْنَفْسِيَّةُ لَا غَيْرُهَا وَإِنْ

(١) البَّار: الغنى .

(٢) يَتَكَفَّفُونَ: يعيشون على الكفاف وشطف العيش .

(٤) تِلَادُ الْمَالِ: الحال الموروث .

(٣) يَكْدُحُ: يتعب ويجد في عمله .

(٥) طَرِيفُ الْمَالِ: حليته وجديده .

أَخْتَلَفَتْ طَبَقَاتُ الْأَجْتِمَاعِ . وَالْأَكْرَمُ هُوَ الْآتِقَى لِلَّهِ بِمَعْنَى اتَّقَى، وَالْأَفْوَمُ
بِالْوَاجِبِ عَلَى مَعْنَى الْوَاجِبِ، وَالْأَكْفَأُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ فِي مَعَانِي الْإِنْسَانِيَّةِ .

فَقَرُّ ذَلِكَ السَّيِّدِ الْأَعْظَمِ لَيْسَ فَقْرًا، بَلْ هُوَ كَمَا رَأَيْتَ: ضَبْطُ السُّلْطَةِ الْكَائِنَةِ
فِي طَبِيعَةِ التَّمَلُّكِ، لِإِقْيَامِ التَّعَاوُنِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى أَسَاسِهِ الْعَمَلِيِّ؛ هُوَ الْمَحَاجَزَةُ
الْعَادِلَةُ بَيْنَ الْمَصَالِحِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ الْطَاغِيَةِ: يَمْنَعُ أَنْ تَأْكُلَ مَصْلَحَةُ مَصْلَحَةٍ فَتَهْلِكَ بِهَا،
وَيُوجِبُ أَنْ تَلِدَ الْمَصْلَحَةُ مَصْلَحَةً لِتَحْيَا بِهَا .

وَالنَّبِيُّ الْفَقِيرُ الْعَظِيمُ هُوَ فِي التَّارِيخِ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ هَذِهِ الْمَعَانِي، كَالْقَاضِي
الْجَالِسِ وَرَاءَ مَوَازِ الْقَانُونِ . ﷺ .

درس من النبوة

قالوا: إنه لما نصر الله (تعالى) رسوله ورد عنه الأحزاب وفتح عليه فُرِظَةً والنَّضِير^(١)، ظنَّ أزواجه عليه السلام أنه اختصَّ بنفائس اليهود وذخائرهم؛ وكنَّ يسع نسوة: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وصفية، وميمونة، وزينب، وجويرة؛ ففعدنَّ حوله وقلن: يا رسول الله، بناتُ كسرى وقنصر في الحلي والحلل، والإماء والخول^(٢)، ونحن ما نراه من ألفافة والضيق... وآلمن قلبه بمطالبتهم له بتوسعة الحال، وأن يعاملهنَّ بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم؛ فأمره الله (تعالى) أن يتلو عليهنَّ ما نزل في أمرهنَّ من تخييرهنَّ في فراقه، وذلك قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَتَبْغَيْنَهَا فَنَعَالَيْكَ أَمْتَمَكُنَّ وَأَسْرِمَكُنَّ سَرَلًا وَجِيالًا^(٣) وَلَئِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا .

قالوا: وبدأ عليه السلام بعائشة - وهي أحبهنَّ إليه - فقال لها: «إني ذاكركَ لكِ أمراً ما أحبُّ أن تعجلي فيه حتى تستأمرِي أبويك». قالت: ما هو؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفبكِ أستمِرُّ أبوي؟ بل اختار الله - تعالى - ورسوله. ثم تتابعت كلهن على ذلك، فسمَّاهنَّ الله «أمهات المؤمنين»، تعظيماً لحقهنَّ، وتأكيذاً لحرمتهنَّ، وتفضيلاً لهنَّ على سائر النساء.



هذه هي القصة كما تُقرأ في التاريخ وكما ظهرت في الزمان والمكان، فلنقرأها نحن كما هي في معاني الحكماء، وكما ظهرت في الإنسانية العالية؛ فسنجد لها غوراً^(٤) بعيداً، ونعرف فيها دلالة سامية، ونتبين تحقيقاً فلسفياً دقيقاً للأوهام والحقائق.

(١) قريظة والنضير: هما قيلتان وحيان من أحياء اليهود في المدينة.

(٢) الخول: الخدم والخدم.

(٣) السراج: الطلاق، أما متعة الطلاق فهي الصداق المتأخر.

(٤) غوراً: عمقاً.

وهي قبلَ كلِّ هذا ومعَ كلِّ هذا تنطوي على حكمةٍ رائعةٍ لم يتنبَّه لها أحد، ومن أجلها ذُكرت في القرآن الكريم، لتكونَ نصًّا تاريخيًّا قاطعاً يُدافعُ به التاريخُ عن هذا النبيِّ العظيم في أمر من أمورِ العقلِ والعريضة، فإنَّ جهلةَ المبشرين في زمننا هذا، وكثيراً من أهل الزَّيغ^(١) والإلحاد، وطائفةٍ من قِصارِ النظرِ في التحقيق - يزعمونَ أنَّ محمداً ﷺ إنما استكثَرَ مِنَ النساءِ لأهواءِ نفسيةٍ محضةٍ وشهواتٍ كالشهوات؛ ويتطرَّقونَ من هذا الزعمِ إلى الشبهة، ومن الشبهة إلى سوء الظنِّ، ومن سوء الظنِّ إلى قبحِ الرأي؛ وكلُّهم غيبيٌّ جاهل؛ فلو كان الأمرُ على ذلك أو على قريبٍ منه أو نحوٍ من قريبه، لَمَا كَانَتْ هذه القِصَّةُ التي أساسُها نفيُ الزينةِ وتجريدُ نساؤه جميعاً منها، وتصحيحُ النِّيَّةِ بينه وبينهنَّ على حياةٍ لا تحيا فيها معاني المرأة، وتحتَ جوٍّ لا يكونُ أبداً جوُّ الزَّهر. وأمره من قِبَلِ رَبِّهِ أَنْ يُخَيَّرَهُنَّ جميعاً بينَ سراجِهِنَّ فيكُنَّ كالنساءِ ويجذُنَّ ما شِئْنَ من دنيا المرأة، وبينَ إمساكِهِنَّ فلا يَكُنَّ معه إلا في طبيعةٍ أخرى تبدأ من حيث تنهي الدنيا وزينتها.

فألقِصَّةُ نفسها ردُّ على زعمِ الشهوات، إذ ليستَ هذه لغةُ الشهوة، ولا سياسةُ معانيها، ولا أسلوبُ غضبِها أو رِضاها. وما هُنا تمليقٌ، ولا إطراء، ولا نُعومةٌ، ولا حِرْصٌ على لذة، ولا تعبيرٌ بلغةِ الحاسة؛ والقِصَّةُ بعدُ مكشوفةٌ صريحةٌ ليس فيها معنى ولا شبهةٌ معنى من حرارةِ القلب، ولا أثرٌ ولا بقيَّةُ أثرٍ من ميلِ النفس، ولا حرفٌ أو صوتٌ حرفٍ من لغةِ الدَّم. وهي على منطِقٍ آخرَ غيرِ المنطِقِ الَّذي تُستمالُ به المرأة، فلم تقتصرْ على نفيِ الدنيا وزينةِ الدنيا عنهنَّ، بل نَقَبَ الأَمَلُ في ذلك أيضاً إلى آخرِ الدهر، وأماثتَ معناه في نفوسِهِنَّ، بقُصْرِ الإرادةِ مِنْهُنَّ على هذه الثلاثة: اللُّهُ في أمرِه ونهيه، والرسولُ في شِدائِه ومُكابِدَتِه^(٢)، والدارُ الآخرةُ في تكاليفِها ومُكاريهِها. فليسَ هنا ظُرفٌ، ولا رقةٌ، ولا عاطفةٌ، ولا سياسةٌ لطبيعةِ المرأة، ولا اعتبارٌ لِمزاجِها، ولا زُلْفَى^(٣) لِإثوثِها، ثم هو تخييرٌ صريحٌ بينَ ضديْنِ لا تتلوَّنُ بينهما حالةٌ تكونُ منهما معاً، ثم هو عامٌّ لِجميعِ زوجاتِه لا يستثني مِنْهُنَّ واحدةً ولا أكثر.

والحريصُ على المرأةِ والأستمتاعُ بها لا يأتي بشيءٍ من هذا، بل يُخاطبُ في

(١) الزَّيغ: الانحراف عن الدين والكفر.

(٢) مكابדתه: عاش فيه بجهد ومشقة.

(٣) زُلْفَى: تقرب.

المرأة خيالها أول ما يُخاطب، ويُشبعه مُبالغةً وتأكيذاً، ويوسعُه رجاءً وأملاً، ويقرُبُ له الزمَنُ البعيد، حتى لو كان في أول الليل وكان الخلافُ على الوقت، لحَقَّقَ له أنَّ الظَهَرَ بعد ساعة . . .

وبرهان آخر؛ وهو أنَّ النبي ﷺ لم يتزوَّج نساءً لِمَتاعٍ ممَّا يُمتنعُ الخيالُ به، فلو كان وَضَعَ الأمرِ على ذلك لَمَّا استقامَ ذلك إلا بالزينة وبالفنِّ الأناعم في الثوبِ والحليَّةِ والتشكُّلِ كما نرى في الطبيعةِ الفنية، فإنَّ المُمثِّلَةَ لا تمثلُ الروايةَ إلا في المسرحِ المهيأ بمناظرِهِ وجوهِه . . . وقد كانت نساؤه ﷺ أعرفَ به؛ وها هو ذا ينفي الزينةَ عَنْهُنَّ ويُخَيِّرُهُنَّ إطلاقاً إذا أصرَّرنَ عليها. فهل ترى في هذا صورةَ فكرٍ من أفكارِ الشهوة؟ وهل ترى إلا الكمالَ المحض؟ وهل كانت متابعَةً للزواجِ ألتسعِ إلا تسعةَ برَهاناتٍ على هذا الكمال؟

وكانَ النبي ﷺ يُلقِي بهذه القصةِ درساً مستفيضاً في فلسفةِ الخيالِ وسوءِ أثرِهِ، على المرأةِ في أنوثيَّتها، وعلى الرجلِ في رجوليَّته؛ وأنَّ ذلك تعقيدٌ في الشهواتِ يُقابِلُهُ تعقيدٌ في الطبع، وكَذِبٌ في الحقيقةِ ينشأ عَنْهُ كَذِبٌ في الخلقِ، وأنَّه صَرَفٌ للمرأةِ إلى حياةِ الأحلامِ والأمانِيِّ والطيشِ والبَطَرِ والفراغِ، وتعويدُها عاداتٍ تُفَسِّدُ عاطفتِها، وتُضَيِّفُ إليها التَصَنُّعَ فتُضَعِّفُ قوَّتَها النفسِيَّةَ القائمةَ على إبداعِ الجمالِ من حقيقتِها لا من مظهرِها، وتحقيقُ الفائدةِ من عملِها لا من شكلِها.

وكلُّ محاسنِ المرأةِ هي خيالٌ متخيَّلٌ ولا حقيقةٌ لشيءٍ منها في الطبيعة، وإنَّما حقيقتُها في العينِ الناظرةِ إليها فلا تكونُ امرأةً فاتنةً إلا لِلِمفتونِ بها ليسَ غير. ولو رَدَّتِ الطبيعةُ على مَنْ يُشَبِّبُ^(١) بأمرأةٍ جميلةٍ فيقولُ لها: هذه محاسنُك وهذه فتتَّكُ وهذا سحرُك وهذا وهذا؛ لَقَالَتْ لَهُ الطبيعةُ: بل هذه كُلُّها شهواتُك أنت . . .

وبهذا يختلفُ الجمالُ عندَ النَّظر؛ فلا يفتنُ الأعمى جمالُ الصورةِ ولا سحرُ الشكلِ ولا فَرَاهَةُ المنظر، وإنَّما يفتنه صوتُ المرأةِ ومَجَسَّهَا^(٢) ورائحتها.

فلا حقيقةً في المرأةِ إلا المرأةُ نفسها؛ ولو أُخِذَتْ كُلُّ أنثى على حقيقتِها هذه لَمَّا فَسَدَ رجلٌ ولا شَقِيَّتْ امرأةٌ، ولا انتظمتْ حياةُ كُلِّ زوجينِ بأسبابِها التي فيها. وذلك هو المثلُ المضروبُ في القصة.

(٢) مجتَنَّاها: لمساها.

(١) يَشَبِّبُ: يَنزِلُ.

يُرِيدُ النَّبِيُّ ﷺ لِيُعْلَمَ أَمْتَهُ أَنْ حَيْفَ^(١) الْغَرِيزَةِ عَلَى الْعَقْلِ إِسْفَادٌ لِهَذَا الْعَقْلِ، وَأَنَّهُ مَتَى أُخْضِعَتِ الْمَرْأَةُ لِحِظِّ الْغَرِيزَةِ وَأَخْتِيَارِهَا، كَانَتْ حَيَاتُهَا أَسْتِجَابَةً لِحَنُونِ أَرْجْلِهَا، وَمَلَأَتْهَا مَعَانِي التَّزَيُّدِ وَالْتَصْنُوعِ؛ فَيُوشِكُ أَنْ يَنْقَلِبَ هَذَا عَنْ طَبِيعَتِهَا السَّامِيَةِ الَّتِي أَكْثَرُهَا فِي الْجُرْمَانِ وَالْإِثَارِ وَالْأَصْبِرِ وَالْإِحْتِمَالِ، وَيُرْذُّهَا إِلَى أَضْدَادِ هَذِهِ الصِّفَاتِ، فَيَقُومُ أَمْرُهَا بَعْدُ عَلَى الْأَثَرِ وَالْمَصْلَحَةِ وَالْتَفَادِي وَالضَّجَرِ وَالْتَبَرُّمِ^(٢) وَالْإِلْحَاحِ وَالْإِزْعَاجِ، وَيُضْعَفُ مَعْنَى السَّلْبِ الْأَرَاخِ فِي نَفْسِهَا مِنْ أَصْلِ الْفِطْرَةِ؛ فَيَتَبَدَّلُ حَيَاؤُهَا، وَفِي الْحَيَاءِ رُذُهَا عَنْ أَشْيَاءٍ؛ وَيَقِلُّ إِخْلَاصُهَا، وَفِي الْإِخْلَاصِ رُذُهَا عَنْ أَشْيَاءٍ أُخْرَى؛ وَيَكْثُرُ طَمَعُهَا، وَفِي قَنَاعَتِهَا مُحَاجَزَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّرِّ.

وَبِهَذَا وَنَحْوِهِ يَفْسُدُ مَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ الْمُتَصْنَعَةِ؛ فَإِذَا أَكْثَرَ الْمُتَصْنَعَاتِ لَا يَكُونُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَشَاكِلُ فَقَطْ، بَلْ تَكُونُ مِنْ حُلُولِ الْمَشَاكِلِ مَعَهُنَّ مَشَاكِلُ أُخْرَى...

وَلِبَابِ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَجْعَلُ نَفْسَهُ فِي الزَّوْجِ الْمَثَلِ الشَّعْبِيِّ الْأَكْمَلَ كَمَا هُوَ دَأْبُهُ^(٣) فِي كُلِّ صِفَاتِهِ الشَّرِيفَةِ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ زَوْجَانُهُ جَمِيعاً كُنُسَاءَ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، لِيَكُونَ مِنْهُنَّ الْمَثَلُ الْأَعْلَى لِلْمَرْأَةِ الْمُؤْمِنَةِ الْعَامِلَةِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي تَبْرُعُ الْبِرَاعَةَ. كُلُّهَا فِي الصَّبْرِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْعِفَّةِ وَالصَّرَاحَةِ وَالْقَنَاعَةِ، فَلَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ زَيْنَةً تَطْلُبُ زَيْنَةً لِيَتَمَّ بِهَا فِي الْخِيَالِ، وَلَكِنْ إِنْسَانِيَّةً تَطْلُبُ كَمَالَهَا الْإِنْسَانِي لِيَتَمَّ بِهِ فِي الْوَاقِعِ.

وَهَذِهِ الزَّيْنَةُ الَّتِي تَتَصْنَعُ بِهَا الْمَرْأَةُ تَكَادُ تَكُونُ صُورَةَ الْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ وَالتَّعَقُّدِ، وَكَلَّمَا أَسْرَفَتْ فِي هَذِهِ أَسْرَفَتْ فِي تِلْكَ، بَلَّهَ الْزَيْنَةُ لَوَجْهِ الْمَرْأَةِ وَجَسْمِهَا سِلَاحٌ مِنْ أَسْلِحَةِ الْمَعَانِي: كَالْأَظْفَرِ وَالْمَخَالِبِ وَالْأَنْيَابِ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ لَوْحِشِيَّةُ الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ الْكَفْتَرِسَةِ، وَتِلْكَ لَوْحِشِيَّةُ الْغَرِيزَةِ الْحَيَّةِ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَفْتَرَسَ. وَلَا تُنْكِرُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا أَنَّ الزَّيْنَةَ عَلَى جَسْمِهَا ثَرَرَةٌ طَوِيلَةٌ تَقُولُ وَتَقُولُ وَتَقُولُ...

وَأَمَّا يَكُونُ أَسَاسُ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ، فِي الْإِنْسَانِ الْعَامِلِ الْمُجَاهِدِ: لَا يَحْضُرُ نَفْسُهُ فِي شَيْءٍ يُسَمَّى مَتَاعاً أَوْ زَيْنَةً، وَلَا يَقْدِرُ نَفْسُهُ بِمَا يَجْمَعُ لَهَا أَوْ بِمَا يَجْمَعُ حَوْلَهَا، وَلَا يَعْتَدُّ مَا يَكُونُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا كَالْتَعْبِيرِ مِنْ عَمَلِ الشَّهَوَاتِ عَنِ الشَّهَوَاتِ.

(١) حَيْفٌ: ظَلَمٌ، جَوْرٌ.

(٢) التَّبَرُّمُ: إِظْهَارُ الْمَلَلِ وَالضَّجَرِ.

(٣) دَأْبُهُ: عَادَتُهُ.

ونبيئنا ﷺ هو الغاية في هذا. دخلَ عليه مرةً عمرُ بنُ الخطاب، فإذا هو على حصيرٍ وعليه إزارُهُ وليسَ عليه غيره، وإذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبه. قال عمر: وإذا أنا بقُبْضَةٍ من شعيرٍ نحو الصاع، وإذا إهابٌ معلقٌ^(١)، فأبتدرتُ عيناى^(٢)، فقال: ما يُبكيك يا ابنَ الخطاب؟ قال: عمر: يا نبيَّ الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبك، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلّا ما أرى، وذاك كسرى وقبصرُ في الثمارِ والأنهارِ وأنت نبيُّ الله وصفوته وهذه خزائنك؟

وجاء مرةً من سفرٍ فدخل على أبنته فاطمة (رضي الله عنها) فرأى على بابها سِتْرًا وفي يديها قُلْبَيْنِ^(٣) من فضة، فرجع؛ فدخلَ عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرتهُ برجوعِ أبيها، فسأله في ذلك فقال ﷺ: من أجلِ السِتْرِ والسَّوَارِينِ.

فلما أخبرها أبو رافع هتكت^(٤) السِتْرَ ونزعتِ السَّوَارِينِ فأرسلتَ بهما بلالاً إلى النبي ﷺ وقالت: قد تصدَّقْتُ به، فضعه حيثَ ترى. فقال ليلاً: اذهبِ فيَّعه وأدفعه إلى أهلِ الكُفَّةِ^(٥) فباعَ القُلْبَيْنِ بدرهمين ونصف (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدَّقَ به عليهم.

يا بنتَ النبي العظيم! وأنت أيضاً لا يرضى لكِ أبوكِ جليّةٌ بدرهمين ونصف وإنَّ في المسلمينَ فقراءَ لا يملكونَ مثلاًها.

أي رجلٍ شغبني على الأرضِ كمحمدٍ ﷺ، فيه لئامةٌ كلّها غريزةُ الأب، وفيه على كلّ أحواله اليقينُ الَّذي لا يتحوّل، وفيه الطَّبِيعَةُ التَّامَةُ التي يكونُ بها الحقيقِيُّ هو الحقيقِي.

يا بنتَ النبي العظيم! إنَّ زينةَ بدرهمين ونصف، لا تكونُ زينةً في رأيِ الحقِّ إذا أمكنَ أن تكونَ صدقةُ بدرهمين ونصف؛ إنَّ فيها حينئذٍ معنىً غيرَ معناها؛ فيها حقُّ النفسِ غالباً على حقِّ الجماعة؛ وفيها الإيمانُ بالمنفعةِ حاكماً على الإيمانِ بالخير؛ وفيها ما ليسَ بضروريٍّ قد جازَ على ما هو الضروري؛ وفيها خطأٌ من الكمالِ إنَّ صَحَّ في حسابِ الحلالِ والحرامِ لم يصحَّ في حسابِ الثَّوابِ والرحمةِ.

تعالوا أيُّها الاشتراكيونَ فأعرفوا نبيَّكمَ الأعظم؛ إنَّ مذهبكم ما لم تُخيه

(١) الإهاب: هو كيس من جلد كان يتخله العرب وعاء.

(٢) ابتدرت عيناى: دعت.

(٣) القُلْب، بالضم هو سوار من فضة.

(٤) هتكت السِتْر: مزقه.

(٥) الكُفَّة: بالضم، هي الغرفة.

فضائل الإسلام وشرائعه - إنَّ مذهبكم لكالشجرة الذابلة تعلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيوط . . . كلُّ يوم تجلُّون، وكلُّ يوم تربطون، ولا ثمرة في الطبيعة.

ليست قصة التخيير هذه مسألة من مسائل الغنى والفقير في معاني المادة، ولكنها مسألة من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح؛ فهي صريحة في أنَّ النبي ﷺ أستاذ الإنسانية كلها؛ واجبه أن يكون فضيلة حياة في كلِّ حياة، وأن يكون عزاء في كلِّ فقر، وأن يكون تهدياً في كلِّ غنى، ومن ثمَّ فهو في شخصه وسيرته القانون الأدبيُّ للجميع.

وكأنه ﷺ يريدُ ليُعلم الأمة بهذه القصة أنَّ الجماعات لا تصلح بالقوانين والشرائع والأمر والنهي، ولكن بعمل عظمائها في الأمر والنهي؛ وأنَّ الحاكم على الناس لا ينبغي أن يحكم إلا إذا كان في نفسه وطبيعته يحسُّ فتنة الدنيا إحساس المتسلط^(١) لا الخاضع، ليكون أولُّ استقلاله استقلال داخله.

فليس ذلك فقراً ولا زهداً كما ترى في ظاهر القصة، ولكنها جزاء النفس العظمى في تقرير حقائقها العملية.



وتنتهي القصة في عبارة القرآن الكريم بتسمية زواجه ﷺ: «أمهات المؤمنين» بعد أن أخذن الله ورسوله والدار الآخرة؛ وعلماء التفسير يقولون: إنَّ الله (تعالى) كافأهن بهذه التسمية؛ وليس ذلك بشيء ولا فيه كبير معنى، وإنما تُشعر هذه التسمية بمعنى دقيق هو آية من آيات الإعجاز؛ فإنَّ الزوجة الكاملة لا تكمل في الحياة ولا تكمل الحياة بها إلا إذا كان وصفها مع رجلها كوصف الأم: ترى ابنها بالقلب ومعانيه، لا بالغريزة وحظوظها؛ فكلُّ حياة حينئذٍ ممكنة السعادة لهذه الزوجة، وكلُّ شقاء محتمل بصبر، وكلُّ جهاد فيه لذته الطبيعية، إذ يقرم البيت على الحب الذي هو الحب الخالص لا المنفعة، وتكون زينة الحياة وجود الحي نفسه لا وجود المادة، وتثبت النفس على أوفاء الطبيعة كوفاء الأم، وذلك خلق لا يغسر عليه في سبيل حقيقته أن يتغلب على الدنيا وزينتها.

وآخر ما نستخرج من القصة في درس النبوة هذه الحكمة:

بحسب المؤمن إذا دخل داره أن يجد حقيقة نفسه الطيبة، وإن لم يجد حقيقة كبرى ولا قيصراً.

(١) المتسلط: المسيطر.

شهرُ للثورة فلسفة الصيام

لم أقرأ لأحدٍ قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحكمته؛ أمّا منفعةُ للجسم، وأنه نوعٌ مِنَ الطَّبِّ لَهُ، وبَابٌ مِنَ السياسةِ في تَدْبِيرِهِ؛ فقد فرَغَ الأطباءُ من تحقيقِ أَلْقَوْلِ في ذلك؛ وكانَ أيامَ هذا الشهرِ الْمَبَارِكِ إِنْ هِيَ إِلَّا ثَلَاثُونَ حَبَّةً تَوْخَذُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً لِتَقْوِيَةِ الْمَعِدَةِ وَتَصْفِيَةِ الدَّمِ وَحِيَاظَةِ أَنْسَجَةِ الْجِسْمِ؛ وَلَكِنَّا أَلَانَ لَسْنَا بِصَدَدٍ مِنْ هَذَا، وَإِنَّمَا نَسْتُوْحِي تِلْكَ الْحَقِيقَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْكَبْرَى الَّتِي سَرَعَتْ هَذَا الشَّرْعَ لِإِسْياسَةِ الْحَقَائِقِ الْأَرْضِيَّةِ الصَّغِيرَةِ، عَامِلَةً عَلَى اسْتِمْرَارِ الْفِكْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهَا، كَيْ لَا تَتَبَدَّلَ النَّفْسُ عَلَى تَغْيِيرِ الْوَأْدِ وَتَبَدُّلِهَا، وَلِكَيْلَا تَجْهَلَ الدُّنْيَا مَعَانِي التَّرْقِيْعِ إِذَا أَتَتْ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا مَعَانِي التَّمْزِيقِ.

مِنْ مَعْجَزَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ يَذْخَرُ^(١) فِي الْأَلْفَاظِ الْمَعْرُوفَةِ فِي كُلِّ زَمَنِ، حَقَائِقَ غَيْرَ مَعْرُوفَةٍ لِكُلِّ زَمَنِ، فَيُجَلِّيْهَا^(٢) لَوْفَتِهَا حِينَ يَضُجُّ الزَّمَانُ الْعِلْمِيُّ فِي مَنَاهِتِهِ وَخَيْرَتِهِ، فَيَشْغَبُ^(٣) عَلَى التَّارِيخِ وَأَهْلِهِ مُسْتَخْفًا بِالْأَدْيَانِ، وَيَذْهَبُ يَتَّبِعُ الْحَقَائِقَ، وَيَسْتَقْصِي فِي فَنُونِ الْمَعْرِفَةِ، لِيَسْتَخْلَصَ مِنْ بَيْنِ كُفْرٍ وَإِيمَانٍ دِينَاً طَبِيعِيّاً سَائِغاً، يَتَنَاوَلُ الْحَيَاةَ أَوَّلَ مَا يَتَنَاوَلُ فَيَضْطُّهَا بِأَسْرَارِ الْعِلْمِ، وَيُوجِّهُهَا بِالْعِلْمِ إِلَى غَايَتِهَا الصَّحِيحَةِ، وَيُضَاعِفُ قُوَاهَا بِأَسَالِيْبِهِ الطَّبِيعِيَّةِ، لِيُحَقِّقَ فِي إِنْسَانِيَّةِ الْعَالَمِ هَذِهِ الشَّيْئَةَ الْمَجْهُولَةَ الَّتِي تَوَهَّمُهَا الْمَذَاهِبُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ بَيْنَ يَدَيِ عُلَمَائِهَا: لَمْ يَحْقُقُوهَا وَلَمْ يَنَاسُوا مِنْهَا، وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْمَذَاهِبُ كَعَقَارِبِ السَّاعَةِ فِي دَوْرَتِهَا: تَبَدُّأٌ مِنْ حَيْثُ تَبَدُّأٌ ثُمَّ لَا تَنْتَهِي إِلَّا إِلَى حَيْثُ تَبَدُّأٌ...

يَضْطَرُّ الْاِسْتِرَاكِيُون فِي أَوْرُوبَا وَقَدْ عَجَزُوا عَجَزَ مَنْ يُحَاوِلُ تَغْيِيرَ الْإِنْسَانِ

(١) يَذْخَرُ: يُوَفِّرُ وَيَخْتَزِنُ.

(٢) يَجَلِّيْهَا: يَشْغَبُ: يَشْوْشُ.

(٣) يَشْغَبُ: يَكْشَفُهَا.

بزيادة ونقص في أعصابه؛ ولا يزال مذهبهم في الدنيا مذهب كُتُب ورسائل؛ ولو أنهم تدبَّروا حكمة الصوم في الإسلام، لَرَأَوْا هذا الشهرَ نظاماً عملياً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة: فهذا الصوم فَرَقَ إجباريَ فرضه الشريعة على الناسِ فرضاً ليتساوَى الجميعُ في بواطنهم، سواءٌ منهم مَنْ مَلَكَ أَلْمليونَ مِنَ الدنانير، وَمَنْ مَلَكَ القِرْشَ الواحد، وَمَنْ لم يملك شيئاً؛ كما يتساوَى الناسُ جميعاً في ذهابِ كِبَرائِهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلامُ على كُلِّ مسلم؛ وفي ذهابِ تفاوتِهم الاجتماعيِّ بالحج الذي يفرضه على مَنْ أَسْتَطاع.

فَقَرَّ إجباريُّ يُرادُ بِهِ إشعارُ النفسِ الإنسانيةِ بطريقةٍ عمليةٍ واضحةٍ كُلِّ اللُّوح، أَنَّ الحَيَاةَ الصَّحِيحَةَ وراءَ الحَيَاةِ لا فيها، وَأَنَّها إِنَّمَا تَكُونُ على أُنْمُها حينَ يتساوَى الناسُ في الشُّعُورِ لا حينَ يَختلفون، وحينَ يتعاطفون بِإحساسِ الأَلَمِ الواحدِ لا حينَ يتنازَعون بِإحساسِ الأهواءِ المتعددة.

ولو حَقَّقْتَ لَرَأَيْتَ الناسَ لا يَختلفون في الإنسانيةِ بعقولهم، ولا بأنسابهم، ولا بمراتبهم، ولا بما ملكوا؛ وَإِنَّمَا يَختلفون ببطونهم وأحكام هذه البطونِ على أَلْعَلِّ وألْعاطفة؛ فَمِنْ أَلْبطنِ نَكْبَةُ الإنسانيةِ، وهو أَلْعَلُّ العَمَلِ على الأرضِ؛ وَإِذَا اختلفَ أَلْبطنُ وألْدماغُ في ضرورةٍ، مَدَّ أَلْبطنُ مَدَّهُ من قُوَى الهضمِ فلم يَبْقَ ولم يَذَر.

ومن ههنا يتناولُ الصومُ بِالتهذيبِ والتأديبِ والتدريبِ، ويجعلُ الناسَ فِيهِ سَوَاءً: لَيْسَ لِجميعهمِ إِلَّا شُعُورٌ واحدٌ وَجِسٌّ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ؛ وَيُحَكِّمُ الأَمْرَ فيحولُ بَيْنَ هذا أَلْبطنِ وَبَيْنَ أَلْمادةِ، وَيُبَالِغُ في إِحكامِهِ فِيمَسِكُ حَوَاشِيَهُ العَصِيَّةِ في الجِسْمِ كُلَّهُ يَمْنَعُها تَغْذِيَّتَها وَلَذَنَّتَها حَتَّى نَفْثَةً من دَخِينَةٍ^(١)

وبهذا يَضَعُ الإنسانيةَ كُلَّها في حالَةٍ نفسِيَّةٍ واحدةٍ تَتَلَبَّسُ بِها النفسُ في مشارِقِ الأرضِ ومغارِبِها، وَيُطْلَقُ في هذه الإنسانيةِ كُلَّها صَوْتُ الرُّوحِ يَعْلَمُ الرِّحْمَةَ ويدعو إليها، فَيُشْبِعُ فِيها بهذا الجُوعَ فِكْرَةَ مَعِيْنَةٍ هي كُلُّ ما في مذهبِ الاشتراكيةِ مِنْ أَلْحَقِّ، وهي تلكَ الفِكْرَةُ التي يَكُونُ عَنها مساواةُ الغنيِّ لِلْفَقيرِ من طبيعتهِ، وَأَطْمِئنانُ الْفقيرِ إِلَى الغنيِّ بِطبيعتهِ؛ ومن هَذَيْنِ: (الاطمئنانِ والمساواةِ)، يَكُونُ هَدوءُ الحَيَاةِ بهدوءِ النفسينِ اللَّتَيْنِ هُما السَّلْبُ والإيجابُ في هذا الاجتماعِ الْإنسانيِّ؛ وَإِذَا أَنتَ

(١) الدخينة كلمة استعملها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي للسيجارة.

نزعَت هذه الفكرة من الاشتراكية بقي هذا المذهب كله عبثاً من العبث في محاولة جعل التاريخ الإنساني تاريخاً لا طبيعة له .

* * *

من قواعد النفس أنَّ الرحمة تنشأ عن الألم، وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم، إذ يُبالغ أشد المبالغة، ويدقق كل التدقيق، في منع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدة آخرها آخر أطاعة؛ فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث؛ فهما طريقتان كما ترى: مُبصرة وعمياء، وخاصة وعامة، وعلى نظام وعلى فجأة .

ومنى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير، أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ، وحكم الوازع^(١) النفسي على المادة؛ فيسمع الغني في ضميره صوت الفقير يقول: «أعطني». ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء، بل طلباً من الأمر لا مفر من تلبية والاستجابة لمعانيه، كما يواسي المبتلى من كان في مثل بلاته .

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن يُحذف من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة، ليحل في محله تاريخ النفس؟ وأنا مُستيقن أن هناك نسبة رياضية هي الحكمة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً، وأن هذه النسبة متحققة في أعمال النفس للجسم، وأعمال الجسم للنفس؛ كأنة الشهر الضحي الذي يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام^(٢) وتغيير المعيشة، لأحداث الترميم العصبي في الجسم، ولعل ذلك آت من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الإنساني وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل في المحاق؛ إذ تنتفخ العروق وتربو في النصف الأول من الشهر، كأثها في (مد) من نور القمر ما دام هذا النور إلى زيادة، ثم يُراجعها (الجزر) في النصف الثاني حتى كأ للدم إضاءة وظلاماً . وإذا ثبت أن للقمر أثراً في الأمراض العصبية، وفي مد الدم وجزره^(٣)، فهذا من أعجب الحكمة في أن يكون الصيام شهراً قمرياً دون غيره .

(١) الوازع: الزادع .

(٢) الاستجمام: الراحة .

(٣) الجزر: انحسار ماء البحر وانخفاضه عكس المد .

وفي ترائي الهلالِ ووجوبِ الصومِ لِرؤيتهِ معنًى دقيقً آخر، وهو - مع إثباتِ رؤيةِ الهلالِ وإعلانها - إثباتُ الإرادةِ وإعلانها، كأنما أتبعَتْ أولُ الشعاعِ السماويِّ في التنبيهِ الإنسانيِّ العامِّ لفروضِ الرحمةِ والإنسانيةِ والبرِّ.

وهنا حِكْمَةٌ كبيرةٌ من حِكَمِ الصومِ، وهي عملهُ في تربيةِ الإرادةِ وتقويتها بهذا الأسلوبِ العمليِّ، الَّذي يَدْرَبُ الصائمَ على أن يَمْنَعَ باختياره من شهواتِهِ ولذَّةِ حيوانيَّتِهِ، مُصِرّاً على الامتناعِ، مُتَهَيِّئاً لَهُ بعزيمَتِهِ، صابراً عَلَيْهِ بأخلاقِ الصبرِ، مُزاولاً في كُلِّ ذلكِ أَفْضَلَ طَريقَةٍ نَفْسِيَّةٍ لاكتسابِ الفكرةِ الثابتَةِ ترسُّخٌ لا تَغْيَرُ ولا تَحْوُلُ، ولا تَعْدُو عليها عوادي الغريزةِ.

وإدراكُ هذه القوَّةِ مِنَ الإرادةِ الْعَمَلِيَّةِ منزلةٌ أَجْتماعِيَّةٌ ساميةٌ، هي في الْإِنْسَانِيَّةِ فوقَ منزلةِ الذِّكَاءِ والعِلْمِ، ففي هذين تعرضُ الْفِكْرَةُ مازةً مُرَوِّرها، ولكئُها في الإرادةِ تَعْرِضُ لِتَسْتَقَرَّ وتَحَقِّقُ. فانظرْ في أي قانونٍ مِنَ الْقَوَانِينِ، وفي أَيَّةِ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، تجدُ ثَلَاثِينَ يوماً من كُلِّ سَنَةٍ قد فُرِضَتْ فرضاً لِتَرْبِيَةِ إِرَادَةِ الشَّعْبِ ومزاولتِهِ فِكْرَةً نَفْسِيَّةً واحدةً بخصائِصِها ومُلابساتِها حتَّى تَسْتَقَرَّ وترسُخَ وتعودَ جزءاً من عملِ الْإِنْسَانِ، لا خيالاً يَمُرُّ بِرَأْسِهِ مَرّاً.

الْيَسْتُ هذه هي إِتاحَةُ^(١) الْفُرْصَةِ الْعَمَلِيَّةِ التي جعلوها أساساً في تكوينِ الإرادةِ؟ وهل تَبْلُغُ الإرادةُ فيما تَبْلُغُ، أَعلى من منزلتها حينَ تَجْعَلُ شهواتِ المرءِ مُذْعِنَةً لِفِكْرِهِ، مُنْقَادَةً لِلْوَازِعِ النَفْسِيِّ فيه، مُصَرِّفَةً بِالْحَسَنِ الدِّينِيِّ الْمَسْطُورِ على النَفْسِ ومُشاعِرِها.

أَمَّا - والله - لو عَمَّ هذا الصَّوْمُ الْإِسْلَامِيُّ أَهْلَ الْأَرْضِ جَمِيعاً، لَأَلَّ مَعْنَاهُ أَنْ يَكُونَ إِجْماعاً مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّها على إِعْلانِ الثَّورَةِ شَهْراً كامِلاً في السَّنةِ، لِتَطْهِيرِ الْعَالَمِ مِنْ رذائِلِهِ وفسادِهِ، وَمَحَقِّ^(٢) الْأَثَرَةِ والبَخْلِ فيه، وَطَرْجِ الْمَسْأَلَةِ النَفْسِيَّةِ لِيتَذَرَّسَها أَهْلُ الْأَرْضِ دِرَاسَةً عَمَلِيَّةً مَدَّةَ هذا الشَّهِرِ بطولِهِ، فَيَهْبِطُ كُلُّ رَجُلٍ وَكُلُّ أَمْرَأَةٍ إِلَى أَعْمَاقِ نَفْسِهِ وَمَكَامِنِها، لِيَخْتَبِرَ في مَصْنَعِ فِكْرِهِ مَعْنَى الْحَاجَةِ وَمَعْنَى الْفَقْرِ، وَلِيَفْهَمَ في طَبِيعَةِ جَسَدِهِ - لا في الْكُتُبِ - مَعَانِيَ الصَّبْرِ والثَّبَاتِ والإِرَادَةِ، وَلِيَبْلُغَ مِنْ ذَلِكَ وَذَلِكَ دَرَجَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْمَوَاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ؛ فَيُحَقِّقُ بِهِذِهِ وَتِلْكَ مَعَانِيَ الْإِخَاءِ وَالْحَرِيَّةِ وَالْمَسَاوَاةِ.

(٢) محق: محو.

(١) إِتاحة: إِفْصاحُ الْمَجَالِ.

شهرٌ هو أيامٌ قلبيةٌ في الزمن؛ متى أشرقت على الدنيا قالَ الزمنُ لِأهلِهِ: هذه أيامٌ من أنفسِكُم لا من أيامي، ومن طبيعتِكُم لا من طبيعتي؛ فيُقْبَلُ الْعَالَمُ كُلُّهُ على حالةٍ نفسيةٍ بالغةِ السمو، يتعهَّدُ فيها النفسُ برياضتها على معالي الأمور ومكارم الأخلاق، ويفهمُ الحياةَ على وجهٍ آخرَ غيرِ وجهها الكالِح، ويراهَا كأنَّما أُجِيعَتْ من طعامِها اليوميِّ كما جاعَ هو، وكأنَّما أُفْرِغَتْ من حَسائِشِها وشهواتِها كما فَرِغَ هو، وكأنَّما أُلْزِمَتْ معانيَ التَّقوى كما أُلْزِمَها هو. وما أَجْمَلَ وأَبْدَعَ أَنْ تَظْهَرَ الْحَيَاةُ في الْعَالَمِ كُلِّهِ - ولو يوماً واحداً - حاملةً في يَدِها السُّبْحَةَ...! فكيف بها على ذلك شهراً من كُلِّ سنة؟

إنَّها - واللَّهِ - طريقةٌ عمليةٌ لِرِسْوَخِ فكرةِ الْخَيْرِ والْحَقِّ في النفس؛ وتطهيرِ الْاجْتِمَاعِ من خَسائِسِ الْعَقْلِ الْمَادِيِّ؛ ورَدُّ هذه الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْمَحْكُومَةِ في ظاهِرِها بِالْقَوَانِينِ، والمَحْرُورَةِ مِنَ الْقَوَانِينِ في باطنِها - إلى قانونٍ من باطنِها نفسِهِ يُطَهِّرُ مَشَاعِرَها، ويسمو بِاحْسَائِيسِها، وَيَضْرِفُها إلى معانيِ إِنْسَانِيَّتِها، وَيُهْدِبُ من زياداتِها، ويحذفُ كثيراً من فَضُولِها، حتى يرجعُ بها إلى نحوٍ من بَرَاءَةِ الطُّفُولَةِ، فيجعلُها صافيةً مُشْرِقةً بما يجتذبُ إليها من معانيِ الْخَيْرِ والصفاءِ والإِشراقِ؛ إِذْ كَانَ من عملِ الفِكرَةِ الثابتَةِ في الْنَفْسِ أَنْ تدعوَ إليها ما يلائِمُها ويَتَّصِلُ بطبيعتها من الْفِكْرِ الْأُخْرَى. والنفسُ في هذا الشهرِ مُحْتَبَسَةٌ في فكرةِ الْخَيْرِ وحدها، فهي تَبْنِي بناءَها من ذلك ما أَسْتَطَاعَتْ.

هذا على الْحَقِيقَةِ لَيْسَ شهراً مِنَ الْأَشْهُرِ، بل هو فصلٌ نَفْسَانِيٌّ كِفَصُولِ الطَّبِيعَةِ في دَوْرَانِها؛ وَلَهُوَ - واللَّهِ - أشبهُ بِفصلِ الشِّتَاءِ في حلولِهِ على الدُّنْيَا بِالْجَوِ الَّذِي من طبيعَتِهِ الْأَسْحَبُ وَالْغَيْثُ، ومن عملِهِ إِمْدَادُ الْحَيَاةِ بِرِسَائِلِ لَهَا ما بَعْدَها إلى آخرِ السَّنَةِ، ومن رِياضَتِهِ أَنْ يُكْسِبَها الصَّلابةَ وَالْانْكِماشَ وَالْحِفْظَ، ومن غايَتِهِ إِعْدَادُ الطَّبِيعَةِ لِلتَفْتِيحِ عن جِمالِ باطنِها في أَلْبَرِيعِ الَّذِي يَتْلُوهُ.

وعجيبٌ جداً أَنَّ هذا الشهرَ الَّذِي يَدْخُرُ فِيهِ الْجِسْمُ من قُوَّاهِ الْمَعْنَوِيَّةِ فيُوَدِّعُها مَضْرُوفٍ رُوحَانِيَّةٍ، لِيَجِدَ مِنْها عِنْدَ الشَّدائِدِ مَدَدَ الْكَيْسِ وَالْثَبَاتِ وَالْعِزْمِ وَالْجَلْدِ وَالْخَشُونَةِ - عجيبٌ جداً أَنَّ هذا الشهرَ الْاِقْتِصَادِيَّ هو من أيامِ السَّنَةِ كِفائِدَةُ $\frac{1}{3}$ ٨ في المائة... فكأنَّهُ يُسَجَّلُ في أَعْصَابِ الْمُؤْمِنِ حِسَابُ قُوَّتِهِ وَرَبِحِهِ فَلَهُ في كُلِّ سَنَةٍ زِيَادَةُ $\frac{1}{3}$ ٨ من قُوَّتِهِ الْمَعْنَوِيَّةِ الرُّوحَانِيَّةِ.

وسخرَ الْعِظَائِمِ في هذه الدُّنْيَا إِنَّمَا يَكُونُ في الْأُمَّةِ الَّتِي تَعْرِفُ كَيْفَ تَدْخُرُ هذه

القوة وتوفرها ليستمدّها عند الحاجة، وذلك هو سرُّ أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر في دمايهم وأعصابهم ما تجد الجيوش العظمى اليوم في مخازن العتاد والأسلحة والذخيرة.

كلُّ ما ذكرته في هذا المقال من فلسفة الصوم؛ فإنما أستخرجته من هذه الآية الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ ثَمَرٌ﴾. وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها معنى «التقوى»، أمّا أنا فأولتها من «الاتقاء»؛ فبالصوم يتقي المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعته معدته، وآلا يعامل الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة؛ ويتقي المجتمع على إنسانيته وطبيعته مثل ذلك، فلا يكون إنسان مع إنسان كحمار مع إنسان: يبيعه القوة كلها بالقليل من العلف.

وبالصوم يتقي هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه، فإن ما بين يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه، وما خلفه هو الجيل الذي سيرث من هذه الطبائع والأخلاق، فيعمل بنفسه في الحاضر، ويعمل بالحاضر في الآتي.

وكلُّ ما شرخناه فهو اتقاء ضررٍ لجلب منفعة، واتقاء رذيلةٍ لجلب فضيلة؛ وبهذا التأويل تتوجه الآية الكريمة جهة فلسفية عالية، لا يأتي البيان ولا العلم ولا الفلسفة بأوجز^(١) ولا أكمل من لفظها؛ ويتوجه الصيام على أنه شريعة اجتماعية إنسانية عامة؛ يتقي بها الاجتماع ضرور نفسه؛ ولن يتهدّب العالم إلا إذا كان له مع القوانين النافذة هذا القانون العام الذي أسمه الصوم، ومعناه «قانون البطن»...

ألا ما أعظمك يا شهر رمضان! لو عرفك العالم حق معرفتك لسمّاك: «مدرسة الثلاثين يوماً».

(١) أوجز: أخصر، أبلغ.

ثبات الأخلاق

لو أنني سئلت أن أجمل فلسفة الدين الإسلامي كلها في لفظين، لقلت: إنها ثبات الأخلاق «ولو سئل أكبر فلاسفة الدنيا أن يوجز علاج الإنسانية كله في حرفين، لَمَا زاد على القول: إنه ثبات الأخلاق. ولو اجتمع كل علماء أوربا ليدرسوا المدينة الأوربية ويحضرُوا ما يُعزِّزها في كلمتين لقالوا: ثبات الأخلاق.

فليس ينتظر العالم أنبياء ولا فلاسفة ولا مُصلحين ولا علماء يُدعون له بِدعاً جديداً؛ وإنما هو يترقَّب^(١) مَنْ يستطيع أن يفسرَ له الإسلام هذا التفسير، ويُثبتَ للدنيا أن كلَّ العبادات الإسلامية هي وسائلٌ عمليةٌ تمنعُ الأخلاق الإنسانية أن تتبدَّلَ في الحيّ فيخلع منها ويلبس، إذا تبدَّلت أحوال الحياة فصعدت بإنسانها أو نزلت؛ وأن الإسلام يأتى على كلِّ مسلم أن يكونَ إنساناً حالته التي هو فيها من الثروة أو العُلم، ومن الارتفاع أو الضُّعة^(٢)، ومن خمولِ المنزل أو نباهتها^(٣)؛ ويُوجبُ على كلِّ مسلم أن يكونَ إنساناً الدرجة التي أنتهى إليها الكونُ في سموه وكماله، وفي تَقْلِبِهِ على منازلِهِ بعد أن صُفِّي في شريعة بعد شريعة، وتجربة بعد تجربة، وعِلْم بعد عِلْم.

انتهت المدينة إلى تبدُّلِ الأخلاقِ بتبدُّلِ أحوالِ الحياة، فَمَنْ كَانَ تَقِيًّا على الْفَقْرِ وَالْإِمْلَاقِ^(٤) وَحَرَمَهُ الْإِعْسَارُ^(٥) فَنَوَى اللِّذَّةَ، ثُمَّ أَيْسَرَ مِنْ بَعْدُ؛ جَازَ لَهُ أَنْ يَكُونَ فَاجِرًا عَلَى الْغِنَى وَأَنْ يَتَسَمَّحَ لِفُجُورِهِ عَلَى مَدِّ مَا يَطْوُحُ بِهِ أَلْمَالُ، وَإِنْ أَصْبَحَ فِي كُلِّ دِينَارٍ مِنْ مَالِهِ شِقَاءٌ نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةٍ أَوْ فَسَادًا.

وَمَنْ وُلِدَ فِي بطن كُرُوحٍ، أَوْ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ، وَجَبَ أَنْ يَبْقَى أَرْضًا إِنْسَانِيَّةً؛ كَأَنَّ أَلَّهُ (سُبْحَانَهُ) لَمْ يَبْنِ مِنْ عِظَامِهِ وَلَحْمِهِ وَأَعْصَابِهِ إِلَّا خَرِبَةً أَدَمِيَّةً مِنْ غَيْرِ هَنْدَسَةٍ

(١) يترقَّب: ينتظر.

(٢) الضُّعة: المذلة.

(٣) نباهتها: علو منزلتها.

(٤) الإملاق: الفقر الشديد المدقع.

(٥) الإِعْسَارُ: الفقر.

ولا نظام ولا فن... ثُمَّ يُقَابَلُهُ مَنْ وُلِدَ فِي الْقَصْرِ أَوْ شَبِهَ الْقَصْرِ فَلَهُ حَكْمٌ آخَرُ،
كَأَنَّ اللَّهَ (سُبْحَانَهُ) قَدْ رَكَّبَ مِنْ عَظَمِهِ وَدَمِهِ وَتَكْوِينِهِ آيَةً هَنْدَسِيَّةً وَأَعْجُوبَةً فَنً،
وَطَرَفَةً تَدْبِيرٍ، وَشَيْئاً مَعَ شَيْءٍ، وَطَبَقَةً عَلَى طَبَقَةٍ.

ولكنَّ الإسلامَ يُقَرِّرُ ثَبَاتَ الْخُلُقِ وَيُوجِبُهُ وَيُنْشِئُ النَّفْسَ عَلَيْهِ، وَيَجْعَلُهُ فِي
جَيَاظَةِ الْمَجْتَمَعِ وَجِرَاسَتِهِ، لِأَنَّ هُنَاكَ حَدُوداً فِي الْإِنْسَانِيَّةِ تَمَيِّزُ بِحُدُودٍ فِي الْحَيَاةِ،
وَلَا بَدْءَ مِنَ الضُّبْطِ فِي هَذِهِ وَهَذِهِ، حَتَّى لَا يَكُونَ وَضْعٌ إِلَّا وَرَاءَهُ تَقْدِيرٌ، وَلَا تَقْدِيرٌ
إِلَّا مَعَهُ حِكْمَةٌ، وَلَا حِكْمَةٌ إِلَّا فِيهَا مَصْلَحَةٌ؛ وَحَتَّى لَا تَعْلُوَ الْحَيَاةُ وَلَا تَنْزِلَ إِلَّا
بِمَثَلٍ مَا تَرَى مِنْ كِفَتَي مِيزَانٍ شَدَّتَا فِي عِلَاقَةٍ تَجْمَعُهُمَا وَتَحَرُّكُهُمَا مَعاً، فَهِيَ بِذَاتِهَا
هِيَ الَّتِي تَنْزِلُ بِالنَّازِلِ لِنَدْلُ عَلَيْهِ، وَتَشِيلُ بِالْعَالِي لِتَبَيِّنَ عَنْهُ؛ فَالْإِسْلَامُ مِنَ الْمَدْنِيَّةِ
هُوَ مَدْنِيَّةُ هَذِهِ الْمَدْنِيَّةِ.

إِنَّهَا لَنْ تَتَغَيَّرَ مَادَّةُ الْعَظَمِ وَاللَّحْمِ وَالْدَّمِ فِي الْإِنْسَانِ فَهِيَ ثَابِتَةٌ مُقَدَّرَةٌ عَلَيْهِ،
وَلَنْ تَتَبَدَّلَ الْكُسْنُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي تُوجِدُهَا وَتُفْنِيهَا فَهِيَ مُصَرَّفَةٌ لَهَا قَاضِيَةٌ عَلَيْهَا، وَبَيْنَ
عَمَلِ هَذِهِ الْمَادَّةِ وَعَمَلِ قَانُونِهَا، فِيهَا تَكُونُ أَسْرَارُ التَّكْوِينِ: وَفِي هَذِهِ الْأَسْرَارِ تَجْدُ
تَارِيخَ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلَّهُ سَابِحاً فِي الدَّمِ.

هِيَ الْغَرَائِزُ تَعْمَلُ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ عَمَلَهَا الْإِلَهِي، وَهِيَ مُحَدَّدَةٌ مُحْكَمَةٌ عَلَى مَا
يَكُونُ مِنْ تَعَادِيهَا وَأَخْتِلَافِ بَيْنِهَا، وَكَأَنَّهَا خُلِقَتْ بِمَجْمُوعِهَا لِمَجْمُوعِهَا؛ وَمَنْ ثُمَّ
يَكُونُ الْخُلُقُ الصَّحِيحُ فِي مَعْنَاهُ قَانُوناً إِلَهِيّاً عَلَى قُوَّةِ كَقُوَّةِ الْكُونِ وَضَبْطِ كَضَبْطِهِ.

وبِهَذِهِ الْقُوَّةَ وَهَذَا الضُّبْطَ يَسْتَطِيعُ الْخُلُقُ أَنْ يَحْوَلَ الْمَادَّةُ الَّتِي تُعَارِضُهُ إِذَا هُوَ
أَشْتَدَّ وَضَلْبٌ، وَلَكِنَّهُ يَتَحَوَّلُ مَعَهَا إِذَا هُوَ لَانَ أَوْ ضَعُفَ. فَهوَ قَدَرٌ إِلَّا أَنَّهُ فِي
طَاعَتِكَ، إِذْ هُوَ قُوَّةُ الْفَضْلِ بَيْنَ إِنْسَانِيَّتِكَ وَحَيَوَانِيَّتِكَ، كَمَا أَنَّهُ قُوَّةُ الْمَزْجِ بَيْنَهُمَا،
كَمَا أَنَّهُ قُوَّةُ التَّعْدِيلِ فِيهِمَا، وَقَدْ سَوَّغَ^(١) الْقُدْرَةَ عَلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ جَمِيعاً، وَلَوْ لَا أَنَّهُ
بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ لَعَاشَ الْإِنْسَانُ طَوْلَ التَّارِيخِ قَبْلَ التَّارِيخِ، إِذْ لَنْ يَكُونَ لَهُ حِينَئِذٍ كَوْنٌ
تَوَرَّخُ فُضَائِلُهُ أَوْ رَذَائِلُهُ بِمَدْحٍ أَوْ دَمٍّ.

فَلَا عِبْرَةَ^(٢) بِمَظْهَرِ الْحَيَاةِ فِي الْفَرْدِ، إِذِ الْفَرْدُ مُقَيَّدٌ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ بِمَجْمُوعٍ هُوَ

(١) سَوَّغَ: عَلَّلَ وَسَمَحَ.

(٢) عِبْرَةٌ، بِكسر العين: الدرس والأمثلة.

للمجموع وليس له وحده: فإنك ترى الغرائز دائبة^(١) في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنن من أعمالها، ودائبة كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسُنن أخرى؛ فليس قانون الفرد إلاّ أمراً عارضاً كما ترى؛ وبهذا يمكن أن يتحول الفرد على أسباب مختلفة، ثم تبقى الأخلاق التي بينه وبين المجموع ثابتة على صورتها.

فالأخلاق على أنها لأفراد، هي في حقيقتها حُكم المجتمع على أفرادها؛ فيقوامها بالأخبار الاجتماعي لا غير.

وحيث يقع الفساد في المُجمّع عليه من آداب الناس، ويلتوي ما كان مستقيماً، وتشتبه العالِيَّة والسافِلَة^(٢)، وتُطرح^(٣) المبالاة بالضمير الاجتماعي، ويقوم وزن الحكم في اجتماعهم على القبيح والمنكر، وتجري العبرة فيما يعتبرونه بالردائل والمحرمات، ولا يعجب الناس إلا ما يفسدُهم، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ويجل في محل العادة؛ فهناك لا يساك للخلق السليم على فرد، ولا بد من تحول الفرد في حقيقته؛ إذ كان لا يجيء أبداً إلا مُتصدعاً^(٤) في كل مظهره الاجتماعي، فأيما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثلوماً، وكأنة منتقل من عالم إلى عالم ثانٍ بغير نوايس الأول.

وما شد من هذه القاعدة إلاّ الأنبياء وأفراد من الحكماء؛ فأما أولئك فهم قوة التحويل في تاريخ الإنسانية: لا يبعث أحدهم إلا ليهيج به الهيج في التاريخ، ويتطرق به الناس إلى سبل جديدة كأنما تطردهم إليها العواصف والزلازل وألبراكين، لا شريعته ومبادئه وأدابه؛ وأما الحكماء الناضجون فيهم دائماً في هذه الإنسانية أمكنة بشرية مُحَصَّنة لحفظ كنوزها وإحرازها في أنفسهم، فلهم في ذات أنفسهم عظمة ومَنعة كالجبال في ذات الأرض.

الأخلاق في رأيي هي الطريقة لتنظيم الشخصية الفردية على مقتضى الواجبات العامة، فالإصلاح فيها إنما يكون من عمل هذه الواجبات، أي من ناحية المجتمع والقائمين على حكمه. وعندي أن للشعب ظاهراً وباطناً؛ فباطنه هو الدين

(١) دائبة: مستمرة بطلبها.

(٣) تُطرح: تُرمى وتُتجاهل.

(٢) السافلة: الرعاع.

(٤) متصدعاً: منهتماً.

الذي يحكم الفرد، وظاهره هو القانون الذي يحكم الجميع، ولن يصلح للباطن المتصل بالغيب إلا ذلك الحكم الديني المتصل بالغيب مثله؛ ومن هنا تبين مواضع الاختلال في المدنية الأوربية الجديدة؛ فهي في ظاهر الشعب دون باطنه، والفرد فاسد بها في ذات نفسه إذا هو تحلل من الدين، ولكنه مع ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهره الاجتماعي بالقوانين وبالآداب العامة التي تفرضها القوانين، فلا يبرح هائلاً من الأخلاق ساخراً بها؛ لأنها غير ثابتة فيه، ثم لا تكون عنده أخلاقاً يعتد بها إلا إذا درت بها منافعه، وإلا فهي ضارة إذا كانت منها مضرّة، وهي مؤلمة إذا حالت دون الكليات. ولا ينفك هذا الفرد يتحول لأنه مطلق في باطنه غير مقيّد إلا بأهوائه ونزعاته، وكلمات الفضيلة والرذيلة معدومتان في لغة الأهواء والنزعات؛ إذ أغاية التمتع واللذة والنجاح، وليكن السبب ما هو كائن.

وبهذا فلن تقوم القوانين في أوربا إذا فني المؤمنون بالأديان فيها أو كثرهم^(١) الملاحدون، وهم اليوم يبصرون بأعينهم ما فعلت عقيلة الحرب العظمى في طوائف منهم قد خربت أنفسهم من إيمانهم فتحولوا ذلك التحول الذي أومأنا إليه، فإذا أعصابهم بعد الحرب ما تزال محاربة مقاتلة ترمي في كل شيء بروح الدم والأشلاء والقبور والتعفن والبلى. وأنتهت الحرب بين أمم وأمم، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق.

وقديماً حارب المسلمون، وفتحوا العالم، ودوخوا الأمم؛ فأثبتوا في كل أرض هذي دينهم وقوة أخلاقهم الثابتة، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو من ورائها في السلم، وذلك بثبات باطنهم الذي لا يتحول، ولا تستخفه الحياة بنزقها، ولا تسفه^(٢) المديئات فتحمله على الطيش.

ولو كانوا هم أهل هذه الحرب الأخيرة بكل ما قدفت به الدنيا. لبقيت لهم العقلية المؤمنة القوية، لأن كل مسلم فإنما هو عقيلته في سلطان باطنه الثابت القار على حدود بيئة محصلة مقسومة، تحوطها وتمسكها أعمال الإيمان التي أحكمها الإسلام أشد إحكام بفرضها على النفوس منوعة مكررة: كالصلاة والصوم والزكاة، ليمنع بها تغيراً ويحدث بها تغيراً آخر، ويجعلها كالحارس للإرادة ما تزال تمر بها وتعهدها بين الساعة والساعة.

إنما الظاهر والباطن كالموج والساحل؛ فإذا جنّ الموج فلن يصير ما بقي

(١) كثرهم: فاخرهم بكثرته.

(٢) تسفه: تنزل به إلى الحضيض.

الساحل ركيناً هادئاً مشدوداً بأغصاده في طبقات الأرض . أمّا إذا ماج الساحل . . .
فذلك أسلوب آخر غير أسلوب البحار والأعاصير؛ ولا جَرَمٌ ^(١) ألا يكون إلا خسفاً
بالأرض والكما وما يتصل بهما .

في الكون أصل لا يتغير ولا يتبدل، هو قانون ضبط القوة وتصريفها وتوجيهها
على مقتضى الحكمة . ويقابله في الإنسان قانون مثله لا بد منه لضبط معاني الإنسان
وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال . وكل فروض الدين الإسلامي وواجباته
وآدابه، إن هي إلا حركة هذا القانون في عمله؛ فما تلك إلا طرق ثابتة لخلق الحس
الأدبي، وتثبيته بالتكرار، وإدخاله في ناموس طبيعي ياجرائه في الأنفس مجرى العادة،
وجعله بكل ذلك قوة في باطنها، فتسمى الواجبات والآداب فروضاً دينية؛ وما هي في
الواقع إلا عناصر تكوين النفس العالية، وتكون أوامر وهي حقائق .

ومن ذلك أروانا - نحن الشرقيين - نمتاز على الأوربيين بأننا أقرب منهم إلى
قوانين الكون؛ ففي أنفسنا ضوابط قوية متينة إذا نحن أقررنا مدينتهم فيها - وهي
بطبيعتها لا تقبل إلا محاسن هذه المدنية - سبقناهم وتركنا غبار أقدامنا في
وجوههم، وكنا الطبقة المصفاة التي ينشدونها ^(٢) في إنسانيتهم الكراهة ^(٣) ولا
يجدونها، ونمتاز عنهم من جهة أخرى بأننا لم نشيء هذه المدنية ولم نشئنا،
فليس حقاً علينا أن نأخذ سيئاتها من حسناتها، وحماقتها في حكمتها، وتزويرها في
حقيقتها؛ وأن نسيغ ^(٤) منها الحلوة والمرّة، والناضجة والفجة؛ وإنما نحن نحصلها
ونقتبسها ونرتجع منها الرجعة الحسنة؛ فلا نأخذ إلا الشيء الصالح مكان الشيء قد
كان دونه عندنا ونذع ما سوى ذلك؛ ثم لا نأخذ ولا نذع إلا على الأصول الضابطة
المحكمية في أدياننا وآدابنا؛ ولسنا مثلهم متصلين من حاضر مدينتهم بمثل
ماضيهم، بيد أن العجب الذي ما يفرغ عجب من، أن الموسومين ^(٥) مِنّا بالتجديد
لا يحاولون أول وهلة وآخرها إلا هدم تلك الضوابط التي هي كل ما نمتاز به،
والتي هي كذلك كل ما تحتاج إليه أوربا لضبط مدينتها؛ ويسمون ذلك تجديداً،
ولهُو بأن يسمى حماقة وجهلاً أولى وأحق .

(١) لا جرم: لا شك .

(٢) ينشدونها: يطلبونها .

(٣) الكراهة: الحالية .

(٤) نسيغ: نجد طعم .

(٥) الموسومين: المعروفين بطابع التجديد .

أقول ولا أبالي: إننا أثبتنا في نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد أحترفوا^(١) النقل من لغات أوربا، ولا عقل إلا عقل ما ينقلونه: فصنعتهم الترجمة من حيث يدرون أو لا يدرون صنعة تقليد مخض ومُتَابِعَة مُسْتَعْبِدَة، وأصبح عقلمهم - بحكم العادة والطبيعة - إذا فكر أنجذب إلى ذلك الأصل لا يخرج عليه ولا يتحول عنه. وإذا صحَّ أنَّ أعمالنا هي التي تعلمنا - كما يقول بعض الحكماء - فهم بذلك خطر أي خطر على الشعب وقوميتيه وذاتيتيه وخصائصه، ويوشك إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعون إليه أن... أن يترجموه إلى شعب آخر..

* * *

إنَّ أوربا ومدنيَّتها لا تُساوي عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تُحقِّق فينا من اتساع الذاتية بعلومها وفنونها، فإنما الذاتية وحدها هي أساس قوتنا في النزاع العالمي بكلِّ مظاهره أيها كان؛ ولها وحدها، وباعتبار منها دون سواها، نأخذ ما نأخذ من مدنيَّة أوربا ونهمل ما نهمل؛ ولا يجوز أن نترك أثبت في هذا ولا أن نسامح في دقة المحاسبة عليه.

فألمحافظة على الضوابط الإنسانية القويَّة التي هي مظاهر الأديان فينا، ثم إدخال الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته، ثم تسيق مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط، ثم العمل على اتحاد المشاعر وتمارُجها لتقويم هذا المظهر الشعبي في جملته بتقويم أجزائه - هذه هي الأركان الأربعة التي لا يقوم على غيرها بناء الشرق.

والإلحاد والنزعات السافلة وتخايف المدنيَّة الأوربيَّة التي لا عمل لها إلا أن تُظهر الخطر في أجمل أشكاله... ثم الجهل بعلوم القويَّة الحديثة وبأصول التدبير وحياطة الاجتماع وما جرى هذا المجرى، ثم التذليس^(٢) على الأمة بآراء المُقلِّدين والزائفين والمستعمرين لمحق الأخلاق الشعبيَّة القويَّة وما اتَّصل بذلك، ثم التخاذل والشقاق وتدابُر الطوائف وما كان بسبيلها - تلك هي المَعاول الأربعة التي لا يهدم غيرها بناء الشرق.

فليكن دائماً شعارنا - نحن الشرقيين - هذه الكلمة: أخلاقنا قبل مدنيَّتهم.

(١) احترفوا: اتخذوا حرفة.

(٢) التذليس: الكذب.

قُلْتُ لِنَفْسِي وَقَالَتْ لِي...

قُلْتُ لِنَفْسِي: ويحك يا نفس! مالي أتحاملُ عليك؛ فإذا وفيت بما في وُشْعِكَ أَرَدْتُ مِنْكَ ما فوقَهُ وكَلَفْتُكَ أَنْ تَسْعِيَ؛ فلا أزالُ أُعَيْتُكَ^(١) من بعدِ كمالٍ فيما هو أكملُ منه، وبعدَ الحَسَنِ فيما هو الأحسن؛ وما أنفكُ أَجْهُدُكَ كُلَّما راجَعَكَ النشاط، وأُضْنِيكَ كُلَّما ثابَّتِ الْقُوَّة؛ فإن تَكُنْ لك همومٌ فأنا أَكْبَرُها، وإذا ساوَرَتْكَ الأَحْزانُ فأكثرُها مِمَّا أَجْلِبُ عليك.

أَنْتِ يا نفسُ سائِرةٌ على النَّهْجِ، وأنا أَعْتَسِفُ^(٢) بك أريدُ الطَّيْرانَ لا السَّيرَ، وأبتغي عَمَلَ الأَعْمَارِ في عُمْرٍ، وأَسْتَحِثُّكَ من كُلِّ هَجْعَةٍ^(٣) راحةٍ بفَجْرِ تَعَبٍ جَدِيدٍ، وكأَنِّي لَكَ زَمَنٌ يُمَادُّ بَعْضُهُ بَعْضاً، فما يَسْرُحُ يَنْبِتُ عليك من ظلامِ بنورٍ ومن نورٍ بظلامٍ؛ لِيَهْتِيَءَ لَكَ الْقُوَّةُ التي تَمْتَدُّ بِكَ في التاريخ من بَعْدٍ، فتُذهِبِينَ حِينَ تذهِبِينَ ويعيشُ قَلْبُكَ في العالَمِ سارِياً بكلماتِ أَفْراحِهِ وأَحْزانِهِ.

وَقَالَتْ لِي النَفْسُ: أُمَّا أنا فَإِنِّي مَعَكَ دَأْباً كَالْحَبِيبَةِ الْوَفِيَّةِ لِمَنْ تُحِبُّهُ: ترى خُضُوعَها أَحْيائاً هو أَحْسَنُ الْمَقاوِمَةِ؛ وأُمَّا أَنْتِ فإذا لم تَكُنْ تَتَعَبُ ولا تَزَالُ تَتَعَبُ فكيف تُرِينِي أَنَّكَ تَتَقَدَّمُ ولا تَزَالُ تَتَقَدَّمُ؟

لَيْسَتْ دُنْيَاكَ يا صاحِبِي ما تَجِدُهُ من غَيْرِكَ، بل ما تُوجِدُهُ بِنَفْسِكَ؛ فَإِنْ لم تَزِدْ شَيْئاً على الدُّنْيا كُنْتَ أَنْتِ زائِداً على الدُّنْيا؛ وَإِنْ لم تَدْعُها أَحْسَنَ مِمَّا وَجَدْتَهَا فَقَدْ وَجَدْتَهَا وما وَجَدْتَكَ؛ وفي نَفْسِكَ أَوَّلُ حُدُودِ دُنْيَاكَ وآخِرُ حُدُودِها. وقد تَكُونُ دُنْيا بَعْضِ النَّاسِ حانِوتاً صَغِيراً، ودُنْيا الآخِرِ كَالْقَرْيَةِ الْمُكْمَلَمَةِ^(٤)، ودُنْيا بَعْضِهِم كَالْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ؛ أُمَّا دُنْيا الْعَظِيمِ فَقارَةٌ بِأَكْمَلِها، وإذا أَنْفَرَدَ أَمْتَدَّ في الدُّنْيا فَكانَ هو الدُّنْيا.

(١) هجعة: رقدة.

(٢) اعتسف: اتعب.

(٣) المللمة: يقصد بذلك القرية الصغيرة.

(٤) اعتسف: عنف.

وَالْقُوَّةُ يَا صَاحِبِي تُغْتَذَى بِالتَّعَبِ وَالْمُعَانَاةِ؛ فَمَا عَانِيَتْهُ أَلْيَوْمَ حَرَكَةٌ مِنْ جَسْمِكَ، أَلْفَيْتَهُ^(١) غَدًا فِي جَسْمِكَ قُوَّةً مِنْ قُوَى اللَّحْمِ وَالدَّمِ. وَسَاعَةُ الرَّاحَةِ بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ التَّعَبِ، هِيَ فِي لَذَّتِهَا كَأَيَّامٍ مِنَ الرَّاحَةِ بَعْدَ تَعَبٍ سَاعَةٍ. وَمَا أَشْبَهَ الْحَيَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَوَشَكَ انْقِطَاعِهِ مِنْهَا، بِمَنْ خُلِقَ لِيَعِيشَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ عَلَيْهِ سَاعَاتُهَا وَدَقَائِقُهَا وَثَوَانِيهَا؛ أَفْتَرَاهُ يَغْفُلُ فَيَقْدِرُهَا ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ، وَيَذْهَبُ يُسْرِفُ فِيهَا ضَرْوبًا مِنْ لَهْوِهِ وَلَعِبِهِ وَمُجُونِهِ، إِلَّا إِذَا كَانَ أَحْمَقُّ أَحْمَقً إِلَى نَهَايَةِ الْحُمُقِ؟

إِتَعَبَ تَعَبَكَ يَا صَاحِبِي، فَفِي النَّاسِ تَعَبٌ مَخْلُوقٌ مِنْ عَمَلِهِ، فَهُوَ لَيْتُنْ هَيِّنٌ مُسَوًى تَسْوِيَةً؛ وَفِيهِمْ تَعَبٌ خَالِقٌ عَمَلُهُ، فَهُوَ جَبَّارٌ مَتَمَرِّدٌ لَهُ الْفَهْرُ وَالْعَلْبَةُ. وَأَنْتَ إِنَّمَا تَكْذُ لِتَسْمُوَ بِرُوحِكَ إِلَى هُمُومِ الْحَقِيقَةِ الْعَالِيَةِ، وَتَسْمُوَ بِجَسْمِكَ إِلَى مَشَقَاتِ أَلْرُوحِ الْعَظِيمَةِ؛ فَذَلِكَ يَا صَاحِبِي لَيْسَ تَعَبًا فِي حَفْرِ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُ تَعَبٌ فِي حَفْرِ الْكَتْرِ.

إِتَعَبْ يَا صَاحِبِي تَعَبَكَ؛ فَإِنَّ عَنَاءَ أَلْرُوحِ هُوَ عُمْرُهَا؛ فَأَعْمَالُكَ عُمْرُكَ أَلْرُوحَانِي، كَعُمْرِ الْجَسْمِ لِلْجَسْمِ؛ وَاحِدٌ هَذَيْنِ عُمْرٌ مَا يَعِيشُ، وَالْآخَرُ عُمْرٌ مَا سَيَعِيشُ.

قُلْتُ لِنَفْسِي: فَقَدْ مَلَلْتُ أَشْيَاءَ وَتَبَرَّمْتُ بِأَشْيَاءَ. وَإِنْ عَمَلُ التَّغْيِيرِ فِي الدُّنْيَا لَهْوَ هَذَمٍ لَهَا كُلَّمَا بُنِيتْ، ثُمَّ يَنْأُوها كُلَّمَا هُدِمَتْ؛ فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ فِي السَّاعَةِ أَلْوَّاحِدَةِ بِصُورَتَيْنِ مَعًا؛ وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ خَلَطْتُهُ بِالنَّفْسِ يَذْهَبُ فِيهَا ذَهَابَ الْمَاءِ فِي الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ يَوْمٌ، أَوْ عَهْدٌ كَالْيَوْمِ، رَأَيْتُ فِي مَكَانِهِ إِنْسَانًا خِيَالِيًا كَمَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الثُّحَاةِ فِيهَا قَوْلَانِ...! فَهُوَ يَحْتَمِلُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ تَأْوِيلَ مَا أَظُنُّ بِهِ مِنْ خَيْرٍ، وَمَا أَتَوَقَّعُ بِهِ مِنْ شَرٍّ! وَكَمْ مِنْ أَسْمٍ جَمِيلٍ إِذَا هَجَسَ^(٢) فِي خَاطِرِي قُلْتُ: آه، هَذَا الَّذِي كَانَ...!

أَمَّا - وَاللهِ - إِنَّ نِيَابَ النَّاسِ لَتَجْعَلُهُمْ أَكْثَرَ تَشَابُهَا فِي رَأْيِ أَلْنَفْسِ، مِمَّا تَجْعَلُهُمْ وَجُوهُهُمْ أَلَّتِي لَا تَخْتَلِفُ فِي رَأْيِ أَلْعَيْنِ: وَإِنِّي لَأَرَى الْعَالَمَ أحيانًا كَالْقِطَارِ السَّرِيعِ مَنْطَلِقًا بِرُكْبِهِ وَلَيْسَ فِيهِ مَنْ يَقُودُهُ، وَأَرَى أَلْغَفْلَةَ الْمُفْرِطَةِ^(٣) قَدْ بَلَغَتْ مِنْ هَذَا النَّاسِ مَبْلَغَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ حَيٌّ فِي الْحَيَاةِ كَالْمَوْطَفِ تَحْتَ أَلْتَجْرِبَةِ، فَإِذَا قَضَى أَلْمَدَّةَ قِيلَ لَهُ: اِبْدَأْ مِنَ الْآنَ. كَأَنَّهُ إِذَا عَاشَ يَتَعَلَّمُ أَلْخَيْرَ وَالْشَّرَّ، وَيُدْرِكُ مَا يَصْلُحُ وَمَا لَا

(١) أَلْفَيْتَهُ: وَجَدْتَهُ.

(٢) هَجَسَ: طَرَأَ عَلَى بَالِي.

(٣) الْمُفْرِطَةُ: الزَّائِدَةُ.

يصلح، وأنتهى من عمره إلى النهاية المحدودة - رَجَعَ من بعدها يعيش منتظماً على استواء واستقامة، وفي إدراك وتميز. مع أن الخرافة نفسها لم تقبل قط أن يُعدَّ منها في أوهام الحياة أن رجلاً بلغ الثمانين أو التسعين وحان أجله فأصبحوا لم يجدوه ميتاً في فراشه؛ بل وجدوه مولوداً في فراشه...!

وقالت لي النفس: وأنت ما شأئك بالناس والعالم؟ يا هذا ليس لمصباح الطريق أن يقول: «إنَّ الطريقَ مظلم». إنما قوله إذا أراد كلاماً أن يقول: «هأنذا مُضيء».

والحكيم لا يضجر ولا يضيئ ولا يتملل، كما أنه لا يسخف ولا يطيش ولا يسترسل^(١) في كذب ألوههم؛ فإن هذا كله أثر الحياة البهيمية في هذه البهيمية الإنسانية، لا أثر الروح القوية في إنسانها. والحيوان هو الذي يجوع ويشبع لا النفس. وبين كل شئين مما يغتور الحيوانية - كالخلو والامتلاء، واللذة والألم - تعمل قوى الحيوان أشياء كثيرة التي تتسلط بها على النفس، لتخطها من مرتبة إلى أن تجعلها كنفس الحيوان؛ ولهذا كان أول الحكمة ضبط الأدوات الحيوانية في الجسم، كما توضع اليد العالمية على مفاتيح القطار المنطلي تسعر مِرْجله ويغلي.

إعمل يا صاحبي عملك؛ فإذا رأيت في العاملين من يضجر فلا تضجر مثله، بل خذ أطمئناؤه إلى اطمئنانك، ودعه يخلو وتضاعف أنت.

إنه ليوشك أن يكون في الناس ناس (كالبنوك)؛ هذه مستودعات للمال تحفظه وتخرج منه وتثمره، وتلك مستودعات للفضائل تحفظها وتخرج منها وتزيدها. وإفلاس رجل من أهل المال، هو إطلاق النكبة مسدسها على رجل تقتله؛ ولكن إفلاس (بنك) هو إطلاق النكبة مدفعها الكبير على مدينة تدمرها.



قلت لنفسي: فما أشدَّ الألم في تحويل هذا الجسد إلى شيه روح مع الروح! تلك هي المعجزة التي لا توجد في غير الأنبياء، ولكن العمل لها يجعلها كأنها موجودة. والأسد المحبوس محبوس فيه قوته وطباعه؛ فإن زال الوجود الحديدي من حوله أو هتت^(٢) ناحية منه، انطلق ألوحش. والرجل الفاضل فاضل ما دام في

(٢) وهنت: ضعفت.

(١) استرسل: تمادى واستمر.

قَفَصِهِ الْفِكْرِي، وهو ما دامَ في هذا القفصِ فعليه أن يكونَ دائماً نموذجاً معروضاً للتفتيح^(١) المُمكن في النفسِ الإنسانية: تُصَيِّهُ السَّيِّئَةُ مِنَ النَّاسِ لِتُخْتَبَرَ فِيهِ الْحَسَنَةُ، وَتَبْلُوَةُ الْخِيَانَةِ لِتَجِدَ الْوَفَاءَ، وَيَكْرَهُ الْبُغْضُ لِيقَابِلَهُ بِالْحُبِّ، وَتَأْتِيهِ أَلْعَنَةُ لِتَجِدَ الْمَغْفِرَةَ؛ وَلَهُ قَلْبٌ لَا يَتَعَبُ فَيَبْلُغُ مَزَلَةً إِلَّا أَبْتَدَأَ أَلْتَعَبَ لِيَبْلُغَ مَزَلَةً أَعْلَى مِنْهَا، وَلَهُ فِكْرٌ كُلَّمَا جَهَدَ فَأَدْرَكَ حَقِيقَةً كَانَتْ الْحَقِيقَةُ أَنْ يَجْهَدَ فَيُدرِكَ غَيْرَهَا.

وَقَالَتْ لِي الْنَفْسُ: إِنَّ مَنْ فَاقَ النَّاسَ بِنَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ كَانَتْ عَظَمَتُهُ فِي أَنْ يَفُوقَ نَفْسَهُ الْكَبِيرَةَ؛ إِنَّ الشَّيْءَ الْآنْهَائِي لَا يُوْجَدُ إِلَّا فِي الصَّغَائِرِ وَالْأَشْرِّ، أَمَّا الْخَيْرُ وَالْكَمَالُ وَعِظَانُمُ الْنَفْسِ وَالْجَمَالُ الْآسَنِي، فَهَذِهِ حَقَائِقُ أَرْلِيَّةٌ وَجِدَتْ لِنَفْسِهَا: كَالِهَوَاءِ يَتَنَفَّسُهُ كُلُّ الْأَحْيَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ وَلَا يَنْتَهِي، وَلَا يُعْرَفُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْأَصْفَاتُ مُنْبَعَةً إِلَى الْنَفُوسِ مِنْ أَنْوَارِ الْمَلَائِكَةِ، وَبِهَذَا كَانَ أَكْبَرُ النَّاسِ حُطَّاءَ مِنْهَا هُمُ الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَّصِلِينَ بِتِلْكَ الْأَنْوَارِ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَنْ جَعَلَ فِي كُلِّ الْنَفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَصْلًا صَغِيرًا يَجْمَعُ فِكْرَةَ الْخَيْرِ وَالْكَمَالِ وَعِظَانِمُ الْنَفْسِ وَالْجَمَالِ الْآسَنِي، وَقَدْ تَعَظَّمَ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا أَوْ بَعْضُهَا، وَقَدْ تَصَعَّرُ فِيهِ بَعْضُهَا أَوْ كُلُّهَا: أَلَا وَهُوَ الْحُبُّ.

لَا بُدَّ أَنْ تَمُرَّ كُلُّ حَيَاةٍ إِنْسَانِيَّةٍ فِي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحُبِّ؛ مِنْ رِقَّةِ الْنَفْسِ وَرَحْمَتِهَا، إِلَى هَوَى الْنَفْسِ وَعِشْقِهَا.

وَإِذَا بَلَغَ الْحُبُّ أَنْ يَكُونَ عِشْقًا، وَضَعَ يَدُهُ عَلَى الْمَفَاتِيحِ الْعَصَبِيَّةِ لِلنَّفْسِ، وَفَتَحَ لِلْعِظَانِمِ وَالْمُعْجَزَاتِ أَبْوَابَهَا؛ حَتَّى إِنَّهُ لِيَجْعَلُ الْخُرَافَةَ الْفَارِغَةَ مَعْجَزَةً دَقِيقَةً، وَيَمْلَأُ الْحَيَاةَ بِمَعَانٍ لَمْ تَكُنْ فِيهَا مِنْ قَبْلُ، وَيَصْبِحُ سِرُّ هَذَا الْحُبِّ لَا يَنْتَهِي؛ إِذْ هُوَ سِرٌّ لَا يُدْرَكَ وَلَا يُعْرَفُ.

إِجْهَدُ جُهِدَكَ يَا صَاحِبِي، فَمَا هُوَ قَفْصُكَ الْفِكْرِيُّ ذَلِكَ الشِّعَاعُ الَّذِي يَحْبُسُكَ، وَلَكِنَّهُ صَفْلٌ^(٢) الْنَفْسِ لِتَتَلَقَّى الْأَنْوَارَ، وَلَا بُدَّ لِلْمَرَاةِ مِنْ ظَاهِرٍ غَيْرِ ظَاهِرِ الْحَبْرِ لِتَكُونَ بِهِ مَرَاةً.

قُلْتُ لِنَفْسِي: فَمَا أَشَدُّهُ مَضْضًا^(٣) أَعَانِيهِ! إِنَّ أَمْرِي لَيَذْهَبُ فُرْطًا^(٤) أَكَلَمَا

(٣) مَضْضًا: أَلَمًا وَعَذَابًا.

(٤) فُرْطًا: مَجَاوِزًا الْحَدَّ.

(١) التفتيح: التمييز بين الصالح والطالح.

(٢) صَفْلٌ: تَهْذِيبٌ.

أَبْتَنَيْتُ مِنَ الْحَيَاةِ مَرَحاً أَطْرَبَ لَهُ وَأَهْتَزْ، جَاءَنِي الْحَيَاةُ بِفِكْرَةٍ اسْتَكْدُ^(١) فِيهَا وَأَدَأَبُ؟ أَهَذَا السُّرُورُ الَّذِي لَا يَزَالُ يَقَعُ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ الَّذِي لَا يَكَادُ يَقَعُ لِي؟ وَهَلْ أَنَا شَجَرَةٌ فِي مَغْرِبِهَا: تَنُمُو صَاعِدَةً بِفُرُوعِهَا، وَنَازِلَةً بِجُنُودِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَبْرُحُ مَكَانَهَا؟ أَوْ أَنَا يَمَثَالٌ عَلَى قَاعِدَتِهِ: لَا يَتَزَحْزَحُ عَنْهَا إِلَّا سَاعَةً لَا يَكُونُ يَمَثَالاً، وَلَا يَدْعُهَا حَتَّى تَدْعَهُ مَعَانِي الْعِظَمَةِ الَّتِي تُصِيبُ لَهَا؟

قَالَتْ لِي النَّفْسُ: وَيْحَكَ! لَا تَطْلُبْ فِي كَوْنِكَ الصَّغِيرِ مَا لَيْسَ فِيهِ؛ إِنَّ النَّاسَ لَوْ أَرْتَفَعُوا إِلَى السَّمَاءِ وَتَقَلَّبُوا فِيهَا كَمَا يَسِيحُ^(٢) أَهْلُ قَارَةِ مِنَ الْأَرْضِ فِي قَارَةٍ غَيْرِهَا، وَابْتَدَعُوا أَنْ يَحْمِلُوا مَعَهُمْ مِمَّا هُنَاكَ تَذَكَارًا صَغِيرًا إِلَى الْأَرْضِ - لَوَجَدُوا أَصْغَرَ مَا هُنَاكَ أَكْبَرَ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهَا؛ فَأَنْتِ سَائِحٌ فِي سَمَاوَاتِ.

أَنْتِ كَالنَّائِمِ: لَهُ أَنْ يَرَى وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئاً مِمَّا يَرَى إِلَّا وَضَعَهُ، وَحِكْمَتَهُ، وَالسُّرُورُ بِمَا أَلْتَدُّ مِنْهُ، وَالْأَلَمُ بِمَا تَوَجَّعَ لَهُ.

لَنْ تَكُونَ فِي الْأَرْضِ شَجَرَةً بِرَجْلَيْنِ تَذْهَبُ هُنَا وَهَهُنَا، وَلَكِنْ الشَّجَرَةُ تُرْسَلُ أَثْمَارَهَا يَتَنَاقَلُهَا النَّاسُ، وَهِيَ تُبْدِعُ الثَّمَارَ إِبداعَ الْمُؤَلِّفِ الْعَبْقَرِيِّ مَا يُؤَلِّفُهُ بِأَشَدِّ الْكُدِّ وَأَعْظَمِ الْجَهْدِ، مُطْلِقَةً ضَمِيرَهَا فِي الْفِكْرَةِ الصَّغِيرَةِ، تَعْقِدُهَا شَيْئاً شَيْئاً، ثُمَّ تَعُودُ عَلَيْهَا بِالزِّيَادَةِ، وَلَا تَزَالُ كُلَّ وَقْتٍ تَعُودُ عَلَيْهَا حَتَّى تَسْتَفْرِغَ^(٣) أَقْصَى الْقُوَّةِ؛ ثُمَّ يَكُونُ سُرُورُهَا فِي أَنْ تَهَبَ فَائِدَتَهَا، لِأَنَّهَا لِذَلِكَ وَجِدَتْ.

إِنَّ فِي الشَّجَرَةِ طَبِيعَةً صَادِقَةً لَا شَهْوَةَ مَكْذُوبَةٍ؛ فَالْحَيَاةُ فِيهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَأَكْثَرَ مَا تَكُونُ الْحَيَاةُ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى مَجَازِهَا؛ وَشَرَطُ الْمَجَازِ الْخَيَالُ وَالْمَبَالِغَةُ وَالْتَّلْوِينُ؛ وَلَكِنْ مَتَى اخْتَارَ اللَّهُ رَجُلًا فَأَقَرَّ فِيهِ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ الصَّادِقَةِ، وَوَهَبَ لَهُ الْعَاطِفَةَ الْقَادِرَةَ الَّتِي تَصْنَعُ ثِمَارَهَا - فَقَدْ غَرَسَهُ شَجَرَةً فِي مَثَبِهَا لَا مَفْرَ وَلَا مَدْوَحَةَ^(٤)، وَقَدْ يُخَيَّلُ لَهُ ضَعْفُ طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ أحياناً أَنْ تُضْرَعَ الْمَجِيدُ الَّتِي تَعْلُوهُ وَتَنَالُكَ كَشَعَاعِ الْكَوْكَبِ، هِيَ تَعْبُهُ وَضَجْرُهُ، أَوْ أَثَرُ انْخِذَالِهِ^(٥) وَالْمِوِ وَمَسْكَنَتِهِ؛ وَهَذَا مِنْ شَقَاءِ الْعَقْلِ؛ فَإِنَّهُ دَائِماً يُضَيَّفُ شَيْئاً إِلَى شَيْءٍ، وَيُخْلِطُ مَعْنَى بِمَعْنَى، وَلَا يَتْرُكُ حَقِيقَةً عَلَى مَا هِيَ؛ كَأَنَّ فِيهِ مَا فِي الطِّفْلِ مِنْ غَرِيزَةِ التَّقْلِيدِ؛

(١) اسْتَكْدُ: اتَّعَبَ.

(٤) لَا مَدْوَحَةَ: لَا مَلْجَأَ.

(٢) يَسِيحُ: يَتَقَلَّبُ وَيَتَرَحَّلُ.

(٥) انْخِذَالُهُ: انْهَزَامُهُ.

(٣) تَسْتَفْرِغُ: تَتَخَلَّصُ.

وَالْعَقْلُ لَا يَرَى أَمَامَهُ إِلَّا الْإِلَهِيَّةَ، فَهُوَ يُقْلِدُهَا فِي مُدَاخَلَةِ الْأَشْيَاءِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ،
لِإِجَادِ الْأَسْرَارِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ.

وَمَنْ تَمَّ كَانَتْ الْحَقِيقَةُ الصَّرِيحَةُ الثَّابِتَةُ مَدْعَاةً لِلْمَلَلِ الْعَقْلِيِّ فِي الْإِنْسَانِ، لَا
يَكَاذُ يُقِيمُ عَلَيْهَا أَوْ يَتَّقِيْدُ بِهَا، فَمَا نَالَ شَيْئاً إِلَّا لِيَطْمَعَ فِي غَيْرِهِ، وَمَا فَازَ بِلَذَّةٍ إِلَّا
لِيَزْهَدَ فِيهَا، وَأَجَلُ مَا أَحَبَّهُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَنَالَهُ، فَإِذَا نَالَهُ وَقَعَ فِيهِ مَعْنَى مَوْتِهِ، وَبَدَأَ فِي
النَّفْسِ عُمراً آخَرَ مِنْ حَالَةِ أُخْرَى، أَوْ مَاتَ وَلَمْ يَبْدَأْ؛ فَلَا بَدْءَ لِهَذَا الْإِنْسَانِ مَعَ كُلِّ
صَوَابٍ مِنْ جُزْءٍ مِنَ الْخَطَا، فَإِنَّهُ هُوَ لَمْ يَجِدْ خَطَأً فِي شَيْءٍ أَتَتْكَ لِنَفْسِهِ^(١) الْخَطَا
الْمُضْحَكُ فِي شِبْهِ رَوَايَةِ خِيَالِيَّةٍ.

إِنَّهُ لَشِعْرٌ سَخِيفٌ بِالْغُ السَخَافَةِ أَنْ يُتَخَيَّلَ الْغَرِيبُ مَفْكُراً فِي ضَيْدٍ سَمَكَةٍ
رَأَاهَا. . . وَلَكِنْ هَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْأَبْلَاغَةِ عِنْدَ الْعَقْلِ الَّذِي يَبْحُثُ عَنْ وَهْمٍ يُضْفِيهِ إِلَى
هَذِهِ الْحَقِيقَةِ لِيُضْحِكَ مِنْهَا، كَمَا يَبْحُثُ لِنَفْسِهِ أحياناً فِي أَجْمَلِ حَقَائِقِ اللَّذَّةِ عَنْ أَلَمٍ
يَتَأَلَّمُ بِهِ لِيَعْبَسَ فِيهِ!

قُلْتُ لِنَفْسِي: فَهَلْ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُحْرِقَ دَمِي لِأَنِّي أَفَكِّرُ، وَهَلْ أَظِلُّ دَائِماً بِهَذَا
التَّفَكُّيرِ كَالَّذِي يَنْظُرُ فِي وَجْهِ حَسَنَاءَ بِمَنْظَارٍ مَكْبَرٍ: لَا يُرِيهِ ذَلِكَ الْوَجْهَ الْمَعشُوقَ إِلَّا
تُقُوباً وَتَخْرِيماً كَأَنَّهُ خَشْبَةٌ تُزَعَّتْ مِنْهَا مَسَامِيرُ غَلِيظَةٌ. . . ! فَلَا يَجِدُ الْمَسْكِينُ هَذِهِ
الْحَقِيقَةَ إِلَّا لِيَفْقِدَ ذَلِكَ الْجَمَالَ؟ وَهَلْ بَدْءٌ مِنْ أَشْبَهٍ بَيْنَ بَعْضِ النَّاسِ وَبَيْنَ مَا أَرْتَضِدُّ
لَهُ مِنْ عَمَلٍ يَحْيَا بِهِ؛ فَلَا يَكُونُ الْخُودِي^(٢) خُودِيّاً إِلَّا لِشَبِّهِ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الْخَيْلِ
وَالْبَغَالِ وَالْحَمِيرِ. . . ؟

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ: إِنْ فَاسَّ الْحَطَّابُ لَا تَكُونُ مِنْ أَدَاةِ الطَّيِّبِ؛ فَخُذْ لِكُلِّ
شَيْءٍ أَدَاتَهُ، وَكُنْ جَاهِلاً أحياناً، وَلَكِنْ مِثْلَ الْجَهْلِ الَّذِي يَصْنَعُ لَوَجْهِ الطِّفْلِ بِشَاشَتِهِ
الدَّائِمَةِ؛ فَهَذَا الْجَهْلُ هُوَ أَكْبَرُ عِلْمِ الْأَشْعُورِ الدَّقِيقِ الْآمِرْهَفِ، وَلَوْلَاهُ لَهْلَكَ الْأَنْبِيَاءُ
وَالْحُكَمَاءُ وَالشُّعْرَاءُ غَمّاً وَكَمَدًا، وَلَكَانُوا فِي هَذَا الْوُجُودِ، عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ، بَيْنَ
هَذِهِ الْحَقَائِقِ - كَالَّذِي قُبِدَ وَحُسِسَ فِي رَهَجٍ^(٣) تُثِيرُهُ الْقَدَمُ وَالْخُفُّ وَالْحَافِرُ: لَا
يَتَنَفَّسُ إِلَّا الْغَبَارَ يَثَارُ مِنْ حَوْلِهِ إِلَى أَنْ يُقْضَى عَلَيْهِ.

(١) اتفك لنفسه: كذب واخترع ليسوغ ما هو عليه.

(٢) الخودي: سائق العربية يجزها حصان.

(٣) رهج: شغب.

إجهل جهلك يا صاحبي في هذه الشهوات الخسيسة؛ فإنها العِلمُ الخبيثُ
الذي يُفسدُ الروحَ، وأعرف كيف تقول لِرُوحِكَ الطُّفلةِ في ملائكتيها حينَ تُساوِرُكَ
الشهوات: هذا ليس لي؛ هذا لا ينبغي لي.

إنَّ الروحَ الكبيرةَ هي في حقيقتها الطُّفلُ الملائكي.

وعِلمُ خسائسِ الحياةِ يجعلُ للإنسانَ في كُلِّ خسيصةٍ نفساً تتعلَّقُ بها، فيكونُ
المسكينُ بينَ نفسينِ وثلاثٍ وأربعٍ، إلى ثلاثينِ وأربعينِ كلُّهُنَّ يتنازعُنَّه، فيضيقُ بهذه
الكثرة، ويُصبحُ بعضُهُ بلاءً على بعضٍ، وتَشغَلُهُ الفُضُولُ، فيعودُ لها كالمزبلةِ لِمَا
أُلقيَ فيها، ويُمَحِّقُ^(١) في نَفْسِهِ الطَّبِيعِيَّةِ جِسْرَ الفِرَجِ بجمالِ الطَّبِيعَةِ، كما يُمَحِّقُ في
المزبلةِ معنى النظافةِ ومعنى الجِسْرِ بها.

هذه الأنفسُ الخياليةُ في هذا الإنسانِ المنكودِ، هيَ الأرواحُ التي يَنفُخُها في
مصائبِهِ، فتجعلُها مصائبَ حيَّةٍ تعيشُ في وجودِهِ وتعملُ فيه أعمالَها، ولولاها
لَمَاتَتْ في نَفْسِهِ مطامعُ كثيرةٍ، فَمَاتَتْ لَهُ مصائبُ كثيرةٍ.

أنظرَ بالروحِ الشاعرةِ، تَرَى الكونَ كُلَّهُ في سَمَائِهِ وأَرْضِهِ أنسجَاماً واحداً ليسَ
فيه إلاَّ الجمالُ والسحرُ وفِتْنَةُ الطَّربِ، وأنظرَ بالعقلِ العالمِ، فلنَ تَرَى في الكونِ
كُلِّهِ إلاَّ موادَّ عِلمِ الطَّبِيعَةِ وَالْكِيمِيَاءِ.

ومَدَى الروحِ جمالُ الكونِ كُلِّهِ؛ ومَدَى العقلِ قطعةٌ من حَجَرٍ، أو عَظْمَةٌ من
حيوانٍ، أو نَسِيجَةٌ من نباتٍ، أو فِلْدَةٌ من معدنٍ، وما أشَبَها.

إجهلُ جهلك يا صاحبي؛ ففي كُلِّ حُسْنٍ غَزَلٌ بشرطِ ألا تكونَ ألعاشقُ
الطامعِ، وإلاَّ أَصَبْتَ في كُلِّ حَسَنِ هَمًّا وَمَشْغَلَةً...!

قُلْتُ لِنَفْسِي: إلى الآنَ لم أَقُلْ لِكَ ذَلِكَ المعنى الذي كَتَمْتُهُ عَنْكَ.

وقالَتْ لِي النفسُ: وإلى الآنَ لم أَقُلْ لِكَ إِلَّا جَوَابَ ذَلِكَ الذي كَتَمْتُهُ عَنِّي..

(١) يمحَق: يمحو.

الانحار

١

حَدَّثَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ الْكُوفِيُّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ، وَمَعِيَ سَعِيدُ بْنُ عَثْمَانَ، وَمُجَاهِدٌ، وَدَاوُدُ الْأَزْدِيُّ وَجَمَاعَةٌ - أَقْبَلَ فَتَى فَجَلَسَ قَرِيبًا مِنَّا، وَكَانَ تَلْقَاءَ وَجْهِي؛ لَا أُمْدُ نَظْرِي إِلَّا أَنْطَلَقَ فِي سَمْتِهِ^(١) وَوَقَفَ عَلَيْهِ، وَكُنَّا نَحْدُثُ فَرَأَيْنَهُ يَتَسَمَّعُ إِلَى حَدِيثِنَا؛ فَلَمَّا تَكَلَّمَ سَعِيدٌ - وَكَانَ خَافَتِ الصَّوْتِ مِنْ عِلَّةٍ بِهِ، وَكُنَّا نُسَمِّيهِ الْنَمْلَةَ الصَّخَابَةَ - رَأَيْتُ الْفَتَى يَتَرَخَّفُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ يَقَعُ فِي سَمَاعِهِ حَسِيرٌ نَمْلَتَنَا.

وَكَانَ سَعِيدٌ يَقُولُ: اجْتَرِثُ^(٢) أَنَا وَالشَّعْبِيُّ أَمْسِ بِعُمْرَانَ الْخَيَّاطِ، فَمَارَحَهُ الشَّيْخُ فَقَالَ لَهُ: عِنْدَنَا جِبٌّ^(٣) مَكْسُورٌ، تَخِيطُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خِيطٌ مِنْ رِيحٍ! فَقُلْتُ أَنَا: فَأَذْهَبُ فَجِئْنَا بِالْمِعْزَلِ الَّذِي يَغْزِلُ الْهَوَاءَ لِنَضْعَ لَكَ الْخِيطَ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي تَنَادُرِ شَيْخِنَا وَمَا يَتَّفِقُ لَهُ؛ أَخْبَرَنِي أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فِي مَسْأَلَةٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْبَيْتَ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ أَمْرَأَتِهِ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ أَيْكُمَا الشَّعْبِيُّ...؟ فَأَوْمَأَ الشَّيْخُ إِلَى أَمْرَأَتِهِ وَقَالَ: هَذِهِ...!

قَالَ الْمُسَيَّبُ: وَضَحَكْنَا جَمِيعًا، وَأَخَذَ نَظْرِي الْغَلَامَ فَإِذَا هُوَ نَاكِسٌ حَزَنًا وَهَمًّا، وَكَأَنَّهُ لَا يَتَسَمَّعُ إِلَيْنَا لِيَسْمَعَ، بَلْ لِيَشْغُلَ نَفْسَهُ عَنْ شَيْءٍ فِيهَا، فَتَتَوَرَّعُ خَوَاطِرُهُ، فَيَتَبَدَّدُ اجْتِمَاعُهَا عَلَى هُمٍّ بِصَوْتٍ مِنْ هُنَا وَصَوْتٍ مِنْ هُنَا، كَمَا يَفْعَلُ الْمَحْزُونُ فِي مَغَالِبَةِ الْحَزَنِ وَمُدَافَعَتِهِ: يَشْغُلُ عَنْهُ بَصَرُهُ وَقَلْبُهُ وَسَمْعُهُ جَمِيعًا، فَيَكُونُ الْحَزَنُ فِيهِ وَكَأَنَّهُ بَعِيدٌ مِنْهُ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَمْرٌ أَمَاتَ الضَّحِكَ فِي هَذَا الْفَتَى وَكَسَرَ جِدَّتَهُ^(٤) وَشَبَابَهُ.

(١) السمت: حسن هيئته ومنظره في الدين.

(٢) اجترث: التفتت.

(٣) الجب: بكسر الحاء هو الزير.

(٤) حدته: قوته.

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ: رَأَيْتُكَ يَا بُنَيَّ مُقْبِلًا عَلَيْنَا كَالْمَنْصَرِفِ عَنَّا؛ فَمَا بِالْكَ لَمْ تَضْحَكْ وَقَدْ ضَحَكْنَا جَمِيعًا؟

قال: إِيكَ عَنِي يَا هَذَا؛ فَأَيْنَ مِنِّي الضَّحْكُ وَأَنَا عَلَى شَفِيرِ^(١) الْقَبْرِ، وَرُوحُ الْتَرَابِ مَالِيَّةٌ عَيْنِي فِي كُلِّ مَا أَرَى، وَكَأَنَّ حُفْرَتِي أَبْتَلَعَتِ الدُّنْيَا الَّتِي أَنَا فِيهَا لِتَأْخُذَنِي فِيهَا، وَأَنَا السَّاعَةُ مَيِّتٌ حَيٌّ؛ رِجْلٌ فِي الدُّنْيَا وَرِجْلٌ فِي الْآخِرَةِ!

قُلْتُ: فَأَعْلَمْنِي مَا بِكَ يَا بُنَيَّ، فَلَقَدْ أَحْتَسَبْتُ وَلَدًا لِي كَانَ فِي مِثْلِ سِنِّكَ وَشَبَابِكَ وَلَمْ أَرْزُقْ غَيْرَهُ، قَلْبِي بَعْدَهُ مَرِيضٌ بِهِ، يَتَوَسَّمُهُ مَفْرَقًا فِي لِدَاتِهِ، مُتَوَهِّمًا أَنَّ وَجْوهَهُمْ تَجْمَعُهُ بِمَلَامِحِهِ؛ فَأَنَا مِنْ ذَلِكَ أَحْبَبَهُمْ جَمِيعًا وَأَطِيلُ النَّظَرَ إِلَيْهِمْ وَأَتَأَمَّلُ فِي وَجْوهِهِمْ، وَلَسْتُ أَرَى أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا كَانَ لَهُ وَلِقَلْبِي حَدِيثٌ! فَإِنَّ رَأْيَتُهُ حَزِينًا مِثْلَكَ تَقَطَّعَتْ لَهُ مِنْ إِشْفَاقِي وَرَحْمَةٍ، وَطَالَعَنِي فَتَائِي فِي مِثْلِ هَمِّهِ وَحَزْنِهِ وَأَنْكَسَارِهِ؛ فَيَعُودُ قَلْبِي كَالْعَيْنِ الَّتِي غَشَّاهَا الدَّمْعُ، تَحْمِلُ أَثْرَ الْحَزَنِ وَمَعْنَاهُ وَسْرَهُ؛ فَبُنَيْتِي مَا تَجِدُ يَا بُنَيَّ، فَلَعَلَّ لِي سَبَبًا إِلَى كَشْفِ ضُرِّكَ أَوْ إِسْعَافِكَ بِحَاجَتِكَ؛ وَلَعَلَّكَ تَكُونُ قَدْ خَزَنْتَ مِنْ أَمْرِ قَرِيبٍ الْمُتَنَاولِ هَيْئِ الْمَحَاوَلَةِ، لَمْ يَجْعَلْهُ عِنْدَكَ كَبِيرًا أَنَّهُ كَبِيرٌ، وَلَكِنْ أَنَّتُكَ أَنْتَ صَغِيرٌ.

قال الفتى: مَهْلًا يَا عَمِّ، فَإِنَّ مَا نَزَلَ بِنَا مِمَّا تَنْقَطِعُ عِنْدَهُ الْحَبِيلَةُ وَلَا تَنْقَاضُ فِيهِ الْوَسَائِلُ، وَلَا عِلَاجَ مِنْهُ إِلَّا بِالْمَوْتِ يَأْخُذُهَا وَيَأْخُذُهَا!

قُلْتُ: يَا بُنَيَّ، هَذِهِ كَلِمَةٌ مَا أَحْسَبُ أَحَدًا يَقُولُهَا إِلَّا مِنْ أَجْلِ لِقَاتِهِ بِجَنَائِيهِ وَلَمْ يَعْفُ أَهْلُ الْكَدِّ، فَهَلْ جَنَيْتَ أَوْ جَنَى أَبُوكَ عَلَى أَحَدٍ؟

قال: إِنْ أَلَامَ قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ، فَإِنِّي تَرَكْتُ أَبِي السَّاعَةَ مُجْمِعًا عَلَى إِزْهَاقِ نَفْسِهِ، وَقَدْ أَغْلَقْتُ عَلَيْهِ الْدَارَ وَأَسْتَوْتُ^(٢) مِنْ أَلْبَابِ!

قال المسيَّب: فَكَأَنَّمَا لَدَغْتَنِي حَيَّةٌ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَكْبِرْتُ أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَقْتُلُ نَفْسَهُ: فَتَنَاهَضْتُ، وَلَكِنْ الْغُلَامَ أَمْسَكَ بِي وَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَزَالُ حَيًّا، وَسَيَقْتُلُ نَفْسَهُ مَتَى أَظْلَمَ اللَّيْلُ وَهَدَّاتِ الرَّجُلِ.

قُلْتُ: أَلْحَمْدُ لِلَّهِ، إِنَّ فِي النُّورِ عَقْلًا، وَلَكِنْ مَا الَّذِي صَارَ بِهِ إِلَى مَا قُلْتُ، وَكَيْفَ تَرَكْتَهُ لِقَدَرِهِ وَجِئْتُ؟

(٢) استوتق، تأكد.

(١) شفير: حافة.

قال الفتى: إِنَّهُ قَالَ لِي: يا ولدي، لَيْسَ لَكَ أَبٌ بَعْدِي؛ فَإِنْ أَرَدْتَ الْخَلْقَ بِي فَارْجِعْ مَعَ اللَّيْلِ لِتُسَلِّمَ أَنْفُسَنَا، وَإِنْ آتَزْتَ الْحَيَاةَ فَارْجِعْ مَعَ الصُّبْحِ لِتُسَلِّمَنِي إِلَى غَاسِلِي!

قُلْتُ: أَفَأَمِنْ أَنْتَ أَلَّا يَكُونَ أَبُوكَ قَدْ أَخْرَجَكَ عَنْهُ لِأَنَّ عَيْنَكَ تُمَسِّكُ يَدَهُ وَتَرُدُّهُ عَمَّا يَهْمُ بِهِ، حَتَّى إِذَا خَلَا وَجْهُهُ مِنْكَ أَزْهَقَ نَفْسَهُ؟

قال: لَمْ أَدْعُهُ حَتَّى أَقْسَمَ أَنْ يَحْيَا إِلَى اللَّيْلِ، وَحَتَّى أَقْسَمْتُ أَنْ أَرْجِعَ لِأَمُوتَ مَعَهُ؛ فَإِنْ لَمْ تُمَسِّكْهُ يَمِينُهُ أَمْسَكْهُ أَنْتَظَارِي، وَقَدْ فَرَعْتَ الْحَيَاةَ مَثًا فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ نَفِرَّ عَنْهَا؛ وَمَنْ كَانَ فِيهَا كُتًّا فِيهِ ثُمَّ أَنْحَدَرَ إِلَى مَا أَنْحَدَرْنَا إِلَيْهِ، لَمْ يَرِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ ضَعْفٌ وَلَا أَسْتِكَائَةٌ: وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِأَسْأَلَ هَذَا الْإِمَامَ (الشَّعْبِيَّ) وَجْهًا مِنَ الرَّأْيِ فَيَمُنَّ يَقْتُلُ نَفْسَهُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا، وَنَزَلَتْ بِهِ الْتِزَالَاتُ، وَتَعَذَّرَ الْفُتُورُ، وَأَشْتَدَّ الْفُضْرُ، وَتَدَلَّتْ بِهِ الْمَسْكَنَةُ إِلَى خَضِيضِهَا، وَأُلْجِئْتُ إِلَى أَحْوَالِ دَقَّتْهُ دَقُّ الرَّحَى (١) لِمَا تَدُورُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَعْذَلْهُ إِلَّا رَأْيِي وَاحِدٌ فِي مَعْنَى الدُّنْيَا: هُوَ أَنَّهُ مَكْذُوبٌ مَرْوَرٌ عَلَى الدُّنْيَا.

قُلْتُ: يَا بَنِي، فَإِنِّي أَرَاكَ أَدِيبًا؛ فَمَنْ أَبُوكَ؟

قال: هُوَ فَلَانُ التَّاجِرِ، ظَهَرَ ظُهُورُ الْقَمَرِ وَمُحِقٌّ (٢) مُحَاقَهُ، وَهُوَ الْيَوْمَ فِي أَخْلُكِ اللَّيَالِي وَأَشَدُّهَا انْطِمَاسًا؛ جَهْدُهُ (٣) أَلْفَقَرٍ، وَيَا لَيْتَهُ كَانَ أَلْفَقَرٍ وَحْدَهُ، بَلِ أَنْتَهَكْتُهُ الْعِلْلَ، وَلَيْتَهَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا الْعِلْلَ مَعَ الْفَقْرِ، بَلِ أَخَذَ الْمَوْتَ أَمْرَاتُهُ فَمَاتَتْ هُمًّا بِهِ وَبِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ غَيْرِي وَغَيْرُهَا، وَكَانَ كُلُّ مَنْ ثَلَاثَتِنَا يَحْيَا لِثَلَاثِينَ الْآخَرِينَ، فَهَذَا مَا كَانَ يَجْعَلُ كَلَامًا مِثْلًا لَا يَفِرُّ إِلَّا أَمْتَلًا، وَلَمَّا ذَهَبَتْ الْأُمُّ ذَهَبَتْ الْحَقِيقَةُ الَّتِي كُنَّا نَقَاتِلُ الْأَيَّامَ عَنْهَا، وَكَانَتْ هِيَ وَحْدَهَا ثَرِينَا الْحَيَاةَ بِمَعْنَاهَا إِنْ جَاءَتْنَا الْحَيَاةُ فَارَغَةً مِنَ الْمَعْنَى، وَكُنَّا مِنْ أَجْلِهَا نَفْهَمُ الْأَيَّامَ عَلَى أَنَّهَا مُجَاهَدَةٌ الْبَقَاءَ؛ أَمَّا الْآنَ فَالْحَيَاةُ عِنْدَنَا قَتْلُ الْحَيَاةِ...!

قُلْتُ: يَا بَنِي، فَإِنَّكَ - وَاللَّهِ - مَعَ أَدَبِكَ لَجَكِيمٌ، وَإِنِّي لَأَنْتَسُ (٤) بِكَ عَلَى الْمَوْتِ، فَكَيْفَ رَدُّكَ حَيَاةَ أُمِّكَ عَنْ قَتْلِ نَفْسِكَ وَلَا تَرُدُّكَ حَيَاةُ أَبِيكَ؟

قال: لَوْ بَقِيَ أَبِي حَيًّا لَبَقِيتُ، وَلَكِنْ أَلْدَهَرَ قَدْ أَتَنَزَّعَ مِنْهُ آخِرُ مَا كَانَ يَمْلِكُ مِنْ

(٣) جهده: أُنْعَبِه.

(٤) أنتس: أضن.

(١) الرّحى: الطاحون.

(٢) محق: خفي.

أسباب القوة، حين أخذ القلب الشفيق الذي كان يجعله يرتعد إذا فُكّر في الموت : فهو الآن كالذي يُحارب عن نفسه تلقاء عدو لا يرحمه ؛ إن عجزَ عن عدوه فالرأي قتل نفسه ليستريح من تنكيل العدو به .



قال المسيّب بن رافع : وأدركتُ أنّ الفتى يُريدُ من سؤال الشيخ تحلةً يطمئن إليها أن يموت مسلماً إذا قتل نفسه كالمضطرّ أو المُكرّه ؛ فأشفقتُ^(١) أن أكسرَ نفسه إذا أنا حدّثته أو أفتيته ؛ وقلْتُ : هذا مريضٌ يحتاجُ العلاجَ لا الفتيا ؛ وكان إمامنا (الشعبي) حكيماً لجناً قطناً ، سَفَرَ بينَ أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهل الروم^(٢) ، فحسدنا العاهلُ أن يكونَ فينا مثله . وقلْتُ : لعلَّ الله يحدثُ بهِ أمراً . فأخذتُ بيد الفتى إليه ، ومشيتُ أكلّمهُ وأرقُّهُ عن نفسه . وقلْتُ له : أما تدري أنّك حين فرغت من سرور الحياة فرغتَ من غرورها أيضاً ، وأن الزاهدَ المنقطعَ في غُرْعَةٍ^(٣) الجبل ينظرُ من صومعته إلى الدنيا ، ليسَ بأحكم ولا أبصرَ ممّن ينظرُ من آلامِهِ إلى الدنيا ؟

يا بني : إنّ الزاهدَ يحسبُ أنّه قد فرَّ من الرذائلِ إلى فضائله ، ولكنَّ فراره من مجاهدةِ الرذيلةِ هو في نفسه رذيلةٌ لكلِّ فضائله . وماذا تكونُ العفةُ والأمانةُ والصدقُ والوفاءُ والبرُّ والإحسانُ وغيرها ، إذا كانتَ فيمّن أنقطعَ في صحراءٍ أو على رأسِ جبلٍ ؟ أيزعمُ أحدٌ أنّ الصدقَ فضيلةٌ في إنسانٍ ليسَ حولُهُ إلا عشرةُ أحجارٍ ؟ وإيم الله إنّ الخالي من مُجاهدةِ الرذائلِ جميعاً ، لهُوَ الخالي من أفضائلٍ جميعاً !

يا بني : إنّ من الناسِ من يختارهُمُ اللهُ فيكونون قَمَحَ هذه الإنسانية : يَنْبُتُونَ ويُحَصِّدُونَ وَيُطَحِّنُونَ وَيُعَجِّنُونَ وَيُخَبِّزُونَ ، ليكونوا غذاءَ الإنسانية في بعضِ فضائلها . وما أراك أنتَ وأباك إلا من المختارين ، كأن في أعراقكما دمَ نبيٍّ يُقتلُ أو يُضَلُّ !

قال المسيّب : وأنتهينا إلى دارِ الشعبي ، فطرقتُ الباب ، وجاءَ الشيخُ ففتحَ لنا ، وسلّمنا وسلّم ، ثم بَدَرْتُ فَقُلْتُ : يا أبا عمرو ، إنّ أبا هذا كانَ من حاليهِ كَيْتٌ وكَيْتٌ ، فترادفتُ^(٤) عليه المصائبُ ، وتوالتِ الكُتُباتُ ، وتواترتِ الأسقامُ^(٥) . ثُمَّ

(١) أشفقت : خفت .

(٢) عاهل الروم : قيصر الروم ، ملكهم .

(٣) غُرْعَةُ الجبل ، بالضمّ : رأسه ومعظمه .

(٤) ترادفت : توالى .

(٥) الأسقام : الأمراض .

أَقْتَصَصْتُ مَا قَالَ ابْنُهُ حَرْفًا حَرْفًا، ثُمَّ قُلْتُ: وَإِنَّ الْآنَ مُوشِكٌ أَنْ يَزْهِقَ نَفْسَهُ
وَسَيَتَّبِعُهُ ابْنُهُ هَذَا؛ وَقَدْ (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ) فَجَاءَ يَسْأَلُكَ: أَيْمُوتُ مُسْلِمًا مِّنَ الْجِيءِ
وَأَكْرَهٍ وَأَضْطَرُّ وَأَسْتَضَاقُ وَأَخْتَلُّ، فَتَحْسَى ^(١) سُمًّا فَهَلْكَ أَوْ تَوَجًّا ^(٢) بِحَدِيدَةٍ فَقَضَى،
أَوْ ذُبَحَ نَفْسُهُ بِنَضْلِ فَخَفَّتْ، أَوْ حَزَّ فِي يَدِهِ بِسَكِينٍ فَمَا رَقَا دُمُهُ ^(٣) حَتَّى مَاتَ، أَوْ
أَخْتَقَى فِي حَبْلِ فَاضَتْ نَفْسُهُ ^(٤)، أَوْ تَرَدَّى ^(٥) مِنْ شَاهِقٍ فَطَاحَ . . . !

وَأَدْرَكَ الشَّيْخَ مَعْنَى قَوْلِي: (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ)، وَمَعْنَى مَا أَكْثَرْتُ مِنَ الْأَلْفَافِ
الْمُتَرَادِفَةِ عَلَى الْقَتْلِ وَمَا اسْتَقْصَيْتُ مِنْ وَجُوهِهِ؛ فَعَلِمَ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ الْفُتْيَا وَالنُّصْ،
وَلَكِنِّي سَأَلْتُهُ الْحِكْمَةَ وَالسِّيَاسَةَ؛ فَقَالَ: هَذَا - وَاللَّهِ - رَجُلٌ كَرِيمٌ، أَخَذْتُهُ الْأَنْفَعَةَ
وَعِزَّةَ النَّفْسِ، وَمَا أَنَا السَّاعَةُ بِمَغْزَلٍ عَنْ هَمِّهِ، فَذَهَبَ نَكَلْمُهُ وَاللَّهُ أَلْمَسْتَعَانُ.

وَمُسْتَبْنَا ثَلَاثَتُنَا، فَلَمَّا شَارَفْنَا أَلْدَارَ قَالَ الْفَتَى: إِنَّهُ لَا يَفْتَحُ لِي إِذَا رَأَاكُمْ، وَرُبَّمَا
اسْتَقْفَرُ ^(٦) بِنَفْسِهِ فَارْهَقَهَا، وَسَاتَسَوَّرُ الْحَائِطَ ^(٧) وَأَتَدَلِّي ثُمَّ أَفْتَحُ لَكُمْ فَتَدْخُلَانِ وَأَنَا عِنْدَهُ.

وَدَخَلْنَا، فَإِذَا رَجُلٌ كَالْمَرِيضِ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ، خَوَّازٍ ^(٨) مَسْلُوبُ الْقُوَّةِ، أَنْزَعَجَ
قَلْبُهُ إِلَى الْمَوْتِ وَمَا بِهِ جُرْأَةٌ، وَإِلَى الْحَيَاةِ وَمَا بِهِ قُوَّةٌ؛ وَصَغُرَ إِلَيْهِ نَفْسُهُ أَنَّهَا
أَصْبَحَتْ فِي مَعَامِلَةِ النَّاسِ كَالدَّرْهِمِ الزَّائِفِ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ، وَثَابَرَ عَلَيْهِ دَاءُ الْحُزَنِ
فَاضْنَاهُ وَتَرَكَهُ رُوحًا تَتَقَعَّقُ فِي جِلْدِهَا، فَهِيَ تَهْمُ فِي لَحْظَةٍ أَنْ تَتَبَّ وَتَتَدَلَّقَ.

وَسَلَّمَ الشَّيْخُ وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى الرَّجُلِ، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،
﴿وَالصَّبِيرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَرَجِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾».

فَقَطَعَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ كَالْمَحْنَقِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، قَدْ صَبَرْنَا حَتَّى جَاءَ مَا لَا
صَبَرَ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ خَلَوْنَا مِنْ مَعَانِي الْأَكْلَامِ كُلِّهِ، فَمَا نَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا لَفْظَةً وَاحِدَةً نَمْلِكُ
مَعْنَاهَا، هِيَ أَنْ نَنْتَهِيَ!

وَمَذَ الشَّيْخُ عَيْنَهُ فَرَأَى كُوَّةً ^(٩) مَسْدُودَةً فِي الْجِدَارِ، فَقَالَ لِي: افْتَحْ هَذِهِ وَدَعْ

(١) تحسنى: شرب.

(٢) توجأ: ضرب نفسه بالسكين.

(٣) رقاً دمه: توقف نزفه.

(٤) فاضت نفسه: مات.

(٥) تردى: رمى نفسه من عل.

(٦) استقفر: أثار.

(٧) تسوّر الحائط: صعد فوقه.

(٨) خوّاز: ضعيف.

(٩) كوة: فتحة صغيرة في جدار.

ألهواء يتكلمُ معنا كلامه . فقمْتُ إليها فعالجتها حتى فتحتها، ونفذَ منها رَوْحَ الدنيا، وقالَ الشيخُ للرجل: أصغِ إليّ، فإذا أنا فرغتُ مِنَ الكلامِ فشأنُكَ بنفسِكَ :

أعلّمتُ أَنَّ رجلاً مِنَ المسلمينَ قد مَرِضَ، فأغضَلَ مَرَضُهُ^(١) فأبتهُ على سريره ثلاثينَ سنةً لا يتحرّكُ، وطَوَى فيه الرجلُ الذي كَانَ حَيًّا ونشَرَ منه الرجلُ الذي سيكونُ ميتاً، فبقيَ لا حياً ولا ميتاً ثلاثينَ سنةً . . . ؟

قالَ أَلرجلُ : وفي الدنيا مَنْ يعيشُ على هذه الحالِ ثلاثينَ سنةً ؟

قالَ الشيخُ : صَحَّحَ الكلامَ وأسألُ . أيصبرُ على هذه الحالِ ثلاثينَ سنةً ولا يقولُ : (جاءَ ما لا صبرَ عليه) وأيُّ شيءٍ لا صبرَ عليه عندَ أَلرجلِ أَلْمؤمنِ الذي يعلمُ أَنَّ البلاءَ مالٌ غيرُ أَنَّهُ لا يُوَضَعُ في الكيسِ بل في أَلجسمِ ؟

أفتدري مَنْ كَانَ الصابرَ ثلاثينَ سنةً على بلاءِ الحياةِ والموتِ مجتمعينَ في عظامٍ مُمدَّدةٍ على سريره؟ إِنَّهُ إمامنا (عمرانُ بنُ حُصَيْنِ أَلخُزاعي) الَّذي أَرسلَهُ عمرُ بنُ الخطابِ يُفَقِّهُ أَهْلَ البصرةَ، وتولَّى قضاءها، وكانَ الحسنُ البصريُّ يحلفُ باللهِ ما قَدِمَها خيرٌ لهم منَ عمرانَ بنِ حُصَيْنِ . ولقد دخلْتُ عليه أنا وأخوه (العلاءُ)، فرأيناهُ مُتَبَيِّناً على سريرِ أَلجريدِ كأنما شُدَّ بِأَلجبالِ وما شُدَّ إِلَّا بانتهالكِ عَصَبِهِ وذَوْبانٍ لَحْمِهِ وَوَقْنِ^(٢) عِظامِهِ ؛ فبكى أخوه، فقال : لِمَ تبكي ؟ قال : لأني أراكُ على هذه أَلحالِ العظيمةِ ؟ قالَ : لا تَبْكُ ؛ فَإِنَّ أَحبَّهُ إلى اللَّهِ تعالى أَحبُّهُ إليّ . ثم قالَ : إِنَّ هذه الأَرْضَ تحملُ أَلجبالَ فلا يشعُرُ موضعُ منها بِأَلجبلِ القائمِ عليه، إِذْ كَانَ تَماسُكُ الأَرْضِ كُلِّها قد جَعَلَ لِكُلِّ موضعٍ منها قوَّةُ أَلجميعِ، ولولا هذا لَدَكَّ^(٣) أَلجبلُ موضِعَهُ وغَارَ بِهِ ؛ وكذلك يحملُ أَلْمؤمنُ مثلَ أَلجبالِ مِنَ أَلبلاءِ على أَعْضائِهِ لا يَنكسرُ لها ولا يَتَهَدَّمُ ؛ إِذْ كانت قوَّةُ رَوْحِهِ قوَّةً في كُلِّ موضعٍ، فألبلاءُ محمولٌ على هِمَّةِ أَلروحِ لا على أَلجسمِ، وهذا معنى الخبيرِ : «إِنَّ أَلْمؤمنَ بِكُلِّ خيرٍ على كُلِّ حالٍ، إِنَّ رُوحَهُ لَتَنزِعُ منَ بينِ جَنِيهِ وهو يَحْمَدُ أَللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ !» .

ثُمَّ قالَ : ولكنَّ ذاكَ هو أَلْمؤمنُ، فمن آمَنَ باللهِ فكأنما قالَ لَهُ : «أَمَجِّني !» وكيف تراكُ إِذا كُنْتَ بطلاً مِنَ الأبطالِ مع قائدِ أَلجيشِ، أَمَّا تفرَضُ عليك شجاعَتُكَ أَنَّ تقولَ لِلقائدِ : «أَمَتَحَنِّي وَأَزِمَ بي حيثُ شِئتُ !» وَإِذا رَمَى بِكَ فرجعتُ مُتَحَنِّناً

(١) أعضَلَ مرضه : اشتدَّ حتى صعبَ الشفاءُ منه .

(٢) وقْنٍ : ضعيف .

(٣) دَكَّ : حطَّم .

بالجراح^(١) ونالكَ أَلْبَنُزُ وأَلْتَشْوِيه، أَثَرَاهَا أَوْصَافاً لِمَصَانِيكَ، أَمْ ثَنَاءٌ عَلَى شَجَاعَتِكَ؟
 ثُمَّ قَالَ: إِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ أَطْمَئِنَانًا فِي النَّفْسِ عَلَى زَلَالِهَا وَكَوَارِثِهَا،
 لَمْ يَكُنْ إِيْمَانًا، بَلْ هُوَ دَعْوَى بِالْفَكْرِ أَوْ بِاللِّسَانِ لَا يَغْدُوهُمَا، كَدَعْوَى الْجَبَانِ أَنَّهُ
 بَطْلٌ، حَتَّى إِذَا فَجَأَهُ الرُّوعُ^(٢) أَحْدَثَ فِي نِيَابِهِ مِنَ الْخَوْفِ . . . وَمِنْ ثَمَّ كَانَ قَتْلُ
 الْمُؤْمِنِ نَفْسَهُ لِيَلَاءٍ أَوْ مَرَضٍ أَوْ غَيْرِهِمَا كَفَرًا بِاللَّهِ وَتَكْذِيبًا لِإِيمَانِهِ، وَكَانَ عَمَلُهُ هَذَا
 صُورَةً أُخْرَى مِنْ طَيْشِ الْجَبَانِ الَّذِي أَحْدَثَ فِي نِيَابِهِ!

وَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ هُوَ بَشَاشَةُ الرُّوحِ، وَإِعْطَاءُ أَلَلِهِ الرُّضَى مِنَ الْقَلْبِ، ثَقَّةٌ
 بِوَعْدِهِ وَرَجَاءٌ لِمَا عِنْدَهُ، وَمِنْ هَذَيْنِ يَكُونُ الْأَطْمَئِنَانُ. وَبِالْبَشَاشَةِ وَالرُّضَى وَالثَّقَّةِ
 وَالرَّجَاءِ، يُصْبِحُ الْإِيمَانُ عَقْلًا ثَانِيًا مَعَ الْعَقْلِ؛ فَإِذَا أَبْتَلِيَ الْمُؤْمِنُ بِمَا يَذْهَبُ مَعَهُ
 أَلْصَبْرُ وَيَطِيشُ لَهُ الْعَقْلُ، وَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ فِي مِثْلِ الْجُنُونِ - بَرَزَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ عَقْلُهُ
 أَلرُّوحَانِيُّ وَتَوَلَّى سِيَاسَةَ جَسَدِهِ حَتَّى يُفَيِّقَ أَلْعَقْلَ الْأَوَّلَ. وَيَجِيءُ الْخَوْفُ مِنْ عَذَابِ
 أَللَّهِ وَنَقَمَتِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَيَغْمُرُ بِهِ خَوْفُ النَّفْسِ مِنَ أَلْفَقْرِ أَوْ أَلْمَرَضِ أَوْ غَيْرِهِمَا
 فَيَقْتُلُ أَقْوَاهُمَا أَلْأَضْعَفَ، وَيُخْرِجُ الْأَعَزَّ مِنْهُمَا الْأَذَلَّ.

فَالْأَطْمَئِنَانُ بِالْإِيمَانِ هُوَ قَتْلُ الْخَوْفِ الدُّنْيَوِيِّ بِالتَّسْلِيمِ وَالرُّضَى، أَوْ تَحْوِيلُهُ
 عَنْ مَعْنَاهُ بِجَعْلِ أَلْبَلَاءِ ثَوَابًا وَحَسَنَاتٍ، أَوْ تَجْرِيدُهُ مِنْ أَوْهَامِهِ بِأَعْتِبَارِ الْحَيَاةِ سَائِرَةً
 بِكُلِّ مَا فِيهَا إِلَى الْمَوْتِ؛ وَهُوَ بِهَذَا عَقْلٌ رُوحَانِيٌّ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي تَصْرِيفِ الدُّنْيَا،
 يَتْرَكُ أَلْنَفْسَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، تَقُولُ لِمَصَانِيْهِهَا وَهِيَ مَطْمَئِنَةٌ: نَعَمْ. وَتَقُولُ لِشَهْوَاتِهَا
 وَهِيَ مَطْمَئِنَةٌ: لَا.

وَمَا الْإِنْسَانُ فِي هَذَا الْكُونِ؟ وَمَا خَيْرُهُ وَشَرُّهُ؟ وَمَا سَخَطُهُ وَرِضَاهُ؟ إِنْ كُلُّ
 ذَلِكَ إِلَّا كَمَا تَرَى قَبْضَةً مِنَ أَلْتَرَابِ تَتَكَبَّرُ وَقَدْ نَسِيتَ أَنَّهُ سَيَأْتِي مَنْ يَكْنُسُهَا. . . .!

قَالَ الشَّيْخُ: وَأَنْظُرْ، أَمَا تُبْتَلَى الشَّجَرَةُ الْخَضْرَاءُ فِي بَعْضِ أَوْقَاتِهَا بِمِثْلِ مَا
 يُبْتَلَى بِهِ الْإِنْسَانُ؟، غَيْرَ أَنَّ لَهَا عَقْلًا رُوحَانِيًّا مُسْتَقَرًّا فِي دَاخِلِهَا يُمْسِكُ الْحَيَاةَ عَلَيْهَا
 وَيَتَرَبَّصُّ^(٣) حَالًا غَيْرَ أَلْحَالِ؛ وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ فَالْسَّعَادَةُ كُلُّهَا فِي
 دَاخِلِهَا، وَلَهَا دَائِمًا رِبْعٌ عَلَى قَدْرِهَا حَتَّى فِي قُرْ^(٤) الشَّتَاءِ.

(٣) يَتَرَبَّصُّ: يَنْتَظِرُ.

(٤) الْقُرْ: الْبَرْدُ الشَّدِيدُ.

(١) مُتَخَذًا بِالْجِرَاحِ: مَمْتَلَأًا جِرَاحًا فِي سَائِرِ جَسَدِهِ.

(٢) الرُّوعُ: الْخَوْفُ الشَّدِيدُ.

فالعقل الروحاني الآتي من الإيمان، لا عمل له إلا أن ينشئ للنفس غريزة متصرفة في كل غرائزها، تكمل شيئاً وتنفص من شيء. وتوجه إلى ناحية وتصرف عن ناحية؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبر من مصائبها وأكبر من لذاتها جميعاً.

وتلك الغريزة هي نفسها معنى الرضى بالقدر خير وشره، وهي تأتي بالتأويل لكل هموم الدنيا، فتضع في النكبات معاني شريفة تنزع منها شرها وأذاها للنفس؛ وليست المصيبة شيئاً لولا تأذي النفس بها. وإذا وقع التأويل في معاني النكبات أصبحت تعمل عمل الفضائل، وتغيرت طبيعتها فيعود الفقر باباً من الزهد، والمرض نوعاً من الجهاد، والخيبة طريقاً من الصبر، والحزن وجهاً من الرجاء، وهلم جرا.

والنفس وحدها كنز عظيم، وفيها وحدها الفرح والابتهاج لا في غيرها، وما لذات الدنيا إلا وسائل لإثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج، فإن وجدا مع الفقر بطلت عزه أكمال وأصبح حجراً من الأحجار؛ والبلبل يتغرّد بختجرتيه الصغيرة ما لا تغني فيه آلات التطريب كلها. وفي النفس حياة ما حولها، فإذا قويت هذه النفس أذلت الدنيا، وإذا ضعفت أذلتها الدنيا!

قال ألمسيب: ثم سكنت الشيخ قليلاً، وكنت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه، وقد أشرق وجهه وتنضر وأنقلب إلى روحه التي كان منصرفاً عنها، فعادت مصائبه تضغط روحاً لينه كما تضغط اليد على الماء، وأيقن أن النكبة كلها هي أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته، فينكب أول ما ينكب في صبره ويقينه.

ثم قال الشيخ، ولقد رأيت بعيني رأسي معجزة (العقل الروحاني) وكيف يصنع: رأيت عروة بن الزبير وهو شيخ كبير، عند الوليد بن عبد الملك، وقد وقعت في رجله الأكلة^(١): فأشاروا عليه بقطعها لا تفسد جسده كله، فدعي له من يقطعها فلمّا جاء قال له: نسقيك الخمر حتى لا تجد لها ألماً. فقال عروة: لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية! قال: فنسقيك المُرَقِد^(٢). فقال عروة: ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه!

(١) الأكلة، بضم الهمزة هي الحكة بكسر الحاء. (٢) المرقد: ما يسقى بالأجنية البنج.

ثُمَّ دَخَلَ رَجَالٌ أَنْكَرَهُمْ عُرْوَةً، فَقَالَ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: يُمَسْكُونُكَ، فَإِنَّ
الْأَلَمَ رَبُّمَا عَزَبَ^(١) مَعَهُ الصَّبْرُ. قَالَ أَرْجُو أَنْ أَكْفِيَكُمْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي!

قال الشيخ: فانظر أيها الضعيف الذي يُريدُ قتلَ نفسه كيف صنع عُروّة،
وكيف استقبلَ ألبلاء، وكيف صبرَ وكيف احتمل. إنه أنصرفَ بحسه إلى النفس
فأنبسطَ روحه عليه، وأخذ يكبرُ ويهللُ ليقى مع روحه وحدها، وخرجَ من دنيا
ظاهره إلى دنيا باطنه، وغمرت حواسه وأعصابه بالنور الإلهي من معنى التكبير
والتهليل، فقطعَ القاطعُ كعبه بالسكين وهو لا يلتفت، حتى إذا بلغَ العظمَ وضعَ
عليها المنشارَ ونشرها وعروّة في التكبير والتهليل؛ ثم جيءَ بالزيت مغلياً في
مغاري^(٢) الحديد فحُسمَ^(٣) به مكانُ القطع، فغُشيَ على عُروّة ساعةً ثم أفاقَ وهو
يمسحُ العرقَ عن وجهه، ولم يسمعْ منه في كلِّ هذه الآلام الماحقة أنه ولا آهة،
ولم يقلْ قبلها ولا بعدها ولا بينَ ذلك: «جاء ما لا صبرَ عليه...!».

قال المسيب: وأزهف^(٤) بأسُ الرجلِ الضعيفِ وقوي جاشه^(٥)، وأنبعثَ فيه
الروحُ إلى عُمرٍ جديد، ونشأ له البقيتُ من عقله الروحاني، وعرفَ أن ما لا يمكنُ
أن يدركَ، يمكنُ أن يُتركَ.

وجاء هذا العقلُ الروحانيُّ فمرَّ بالمنشارِ على ألياس الذي كانَ في نفسه
فقطعه، فما راعنا إلا أن وثبَ الرجلُ قائماً يقول: الله أكبرُ مِنَ الدنيا، الله أكبرُ مِنَ
الدنيا!.

ثم أكب^(٦) على يد الشيخ وهو يقول: صدقت؛ «إن كلَّ ذلك إلا كما ترى
قبضةً من الترابِ تتكبر، وقد نبيت أنه سيأتي من يكنسها!».

ماذا يصنعُ الإنسانُ إذا غلظَ في مسألةٍ من مسائل الدنيا إلا أن يتحرى^(٧)
ألصواب، ويجتهدَ في الرجوعِ إليه، ويصبرَ على ما يناله في ذلك؟ وماذا يصنعُ
الإنسانُ إذا غلظت فيه مسألة...؟

(١) عذب: نفذ.

(٢) مغاري: ملاعق.

(٣) حسم: سكر.

(٤) أزهف: رقى.

(٥) الجاش: السيطرة على النفس.

(٦) أكب: انحنى.

(٧) يتحرى: يتقصى.

الانحمار

٢

قال المسيب بن رافع: وقام الشعبي إلى الرجل فأغتنقه فراحاً بما آل أمره إليه، بعد إذ رأى النور يجري على لونه ويترقرق في ديباجته^(١)؛ كأنما وقَعَ الصلح بين وجهه وبين الحياة. ثُمَّ قَالَ لَهُ: نِعَمَ أَخُو الْإِسْلَامِ أَنْتَ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ خِذْلَانِهِ، فَإِنَّهُ مَا خَذَلَكَ إِلَّا وَضَعَكَ نَفْسَكَ بِإِزَاءِ اللَّهِ تُعَارِضُهُ أَوْ تُجَارِيهِ فِي قَدَرَتِهِ، فَيَكِلُكَ إِلَى هَذِهِ النَّفْسِ، فَتَنْتَهِي بِكَ إِلَى الْعِجْزِ، وَيَنْتَهِي الْعِجْزُ بِكَ إِلَى السُّخْطِ؛ وَمَتَى كُنْتَ عَاجِزاً سَاحِطاً، مَحْصُوراً فِي نَفْسِكَ؛ مَوْكُولاً إِلَى قَدَرَتِكَ، كُنْتَ كَالْأَسَدِ الْجَائِعِ فِي الْقَفْرِ^(٢)، إِذَا ظَنَّ أَنَّ قُوَّتَهُ تَتَنَاوَلُ خَلْقَ الْفَرِيسَةِ؛ فَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى نَفْسِكَ الْيَاسَ وَالْأَنْزِعَاجَ وَالْكَأَبَةَ؛ وَأَمْثَالَهَا مِنْ هَذِهِ الْمُهْلِكَاتِ تَفْدَحُ^(٣) فِي قَلْبِكَ أَلْسُكَ فِي اللَّهِ، وَتُثَبِّتُ فِي رُوعِكَ شَرَّ الْحَيَاةِ، وَتُهْدِي إِلَى خَاطِرِكَ حِمَاقَاتِ الْعَقْلِ، وَتَقْرُزُ عَنْدَكَ عِجْزَ الْإِرَادَةِ؛ فَتَنْتَهِي مِنْ كُلِّ ذَلِكَ مَيِّتاً قَدْ أَزْهَقْتَكَ نَفْسُكَ قَبْلَ أَنْ تُزْهِقَهَا!

ولو كُنْتَ بَدَّلَ إِيْمَانِكَ بِنَفْسِكَ قَدْ آمَنْتَ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيْمَانِ، لَسَلَّطَكَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِكَ وَلَمْ يَسْلُطْهَا عَلَيْكَ؛ فَإِذَا رَمَتْكَ أَلْمَاطِمُ بِالْحَاجَةِ الَّتِي لَا تَقْدِرُ عَلَيْهَا، رَمَيْتَهَا مِنْ نَفْسِكَ بِالِاسْتِغْنَاءِ الَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ؛ وَإِذَا جَاءَتْكَ أَلْشَّهَوَاتُ مِنْ نَاحِيَةِ الرِّغْبَةِ الْمَقْبَلَةِ، جِئْتَهَا مِنْ نَاحِيَةِ الزُّهْدِ الْمُنْصَرَفِ، وَإِذَا سَاوَرَتْكَ كِبْرِيَاءُ الدُّنْيَا أَذْلَلَتْهَا بِكِبْرِيَاءِ الْآخِرَةِ.

وبهذا تنقلبُ الْأَحْزَانُ وَالْآلَامُ ضُروباً مِنْ فَرَحِ الْفَوْزِ وَالْإِنْتِصَارِ عَلَى النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا، وَكَانَتْ فَنُوناً مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْهَمِّ، وَتَعَوُّدُ مَوْضِعِ فَخْرِ وَمِبَاهَاةٍ، وَكَانَتْ أَسْبَابَ خِزْيٍ وَأَنْكَسَارٍ. «وَعَزِيمَةُ الْإِيْمَانِ إِذَا هِيَ قَوِيَتْ حَصَرَتْ أَلْبَاءَ فِي مَقْدَارِهِ، فَإِذَا حَصَرَتْهُ لَمْ تَزَلْ تَنْقُصُ مِنْ مَعَانِيهِ شَيْئاً شَيْئاً، فَإِذَا ضَعُفَتْ هَذِهِ الْعَزِيمَةُ جَاءَ

(٣) تقدح: تشعل..

(٢) القفر: الصحراء.

(١) ديباجته: مجيئه.

ألبلاء غامراً مُتَفَشِّياً يُجَاوِزُ مِقْدَارَهُ بِمَا يَصْحَبُهُ مِنَ الْخَوْفِ وَالرُّوعِ، فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تَزِيدُ شَيْئاً بِمَا فِيهِ وَبِمَا لَيْسَ فِيهِ .

ولِلإِيمَانِ ضَوْءٌ فِي النَّفْسِ يُنِيرُ مَا حَوْلَهَا فَتَرَاهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ أَلْفَانِيَةً وَشِينِكاً أَنْ يَزُولَ؛ فَإِذَا أَنْطَفَأَ هَذَا الضَّوُّ أَنْطَمَسَتْ الْأَشْيَاءُ، فَتَوَهَّمُهَا النَّفْسُ أَرْهَاماً مُتَبَايِنَةً^(١) عَلَى أَحْوَالِهَا الْمَخْتَلِفَةِ؛ كَمَا يَرَى الْأَعْمَى بِوَهْمِهِ: لَا عَيْنُهُ مَعَ الْأَشْيَاءِ تَكُونُ فِي طَبِيعَتِهَا، وَلَا أَشْيَاؤُهُ عِنْدَ عَيْنِهِ تَكُونُ فِي حَقِيقَتِهَا .

* * *

قَالَ الْمَسِيبُ: وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ طَفَلَتْ^(٢) لِلْمَغِيبِ؛ فَقَالَ الْإِمَامُ لِلرَّجُلِ: قُمْ فَتَوَضَّأْ وَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ، وَسَأُعَلِّمُكَ أَمْرًا تَنْتَفِعُ بِهِ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ: فَإِذَا قُمْتَ إِلَى وَضُوءِكَ فَأَيِّقَنَّ فِي نَفْسِكَ وَأَعِزِّمْ فِي خَاطِرِكَ عَلَى أَنَّ فِي هَذَا الْمَاءِ سِرًّا رُوحَانِيًّا مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ وَالْحَيَاةِ، وَأَنَّهُ رَمَزٌ لِلسَّمَاءِ عِنْدَكَ، وَأَنَّكَ إِنَّمَا تَتَطَهَّرُ بِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ نَفْسِكَ الَّتِي أَمْتَدَّتْ عَلَى أَطْرَافِكَ؛ ثُمَّ سَمَّيْتُ اللَّهَ (تَعَالَى) مُفِيضًا أَسْمَهُ الْقَادِرِ الْكَرِيمِ عَلَى الْمَاءِ وَعَلَى نَفْسِكَ مَعًا، ثُمَّ تَمَثَّلْتُ أَنَّكَ غَسَلْتَ يَدَيْكَ بِمَا فِيهِمَا وَمِمَّا تَتَعَاطَاهُ بِهِمَا مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا، وَأَنَّكَ أَخَذْتَ فِيهِمَا مِنَ السَّمَاءِ لَوَاجِهَكَ وَأَعْضَائِكَ؛ وَقَرَّرْتُ عِنْدَ نَفْسِكَ أَنَّ الْوُضُوءَ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا مَسْحَةٌ سَمَاوِيَّةٌ تُسَبِّغُهَا عَلَى كُلِّ أَطْرَافِكَ، لِيَشْعُرَ بِهَا جِسْمُكَ وَعَقْلُكَ؛ وَأَنَّكَ بِهَذِهِ الْمَسْحَةِ السَّمَاوِيَّةِ تَسْتَقْبِلُ اللَّهَ فِي صَلَاتِكَ سَمَاوِيًّا لَا أَرْضِيًّا .

فَإِذَا أَنْتِ اسْتَشْعَرْتَ هَذَا وَعَمَلْتِ عَلَيْهِ وَصَارَ عَادَةً لَكَ، فَإِنَّ الْوُضُوءَ حِينَئِذٍ يَنْزِلُ مِنَ النَّفْسِ مَنْزِلَةً الدَّوَاءِ، كُلَّمَا أَغْتَمَمْتَ أَوْ تَسَخَّطْتَ أَوْ غَشِيَتْكَ حُزْنٌ أَوْ عَرَضَ لَكَ وَسْوَاسٌ، فَمَا تَتَوَضَّأُ عَلَى تِلْكَ النِّيَّةِ إِلَّا غَسَلْتَ الْحَيَاةَ وَغَسَلْتَ السَّاعَةَ الَّتِي أَنْتِ فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ. وَتَرَى الْمَاءَ تَحْسِبُهُ هَدُوءًا لِيُنْأَ لِيَنَّ الرُّضَى، وَإِذَا هُوَ يَنْسَابُ فِي شُعُورِكَ وَفِي أَحْوَالِكَ جَمِيعًا .

قَالَ الْمَسِيبُ: وَقُمْتُ أَنَا فَجَدَّدْتُ وَضُوءِي عَلَى هَذِهِ الْكَصْفَةِ بِتِلْكَ النِّيَّةِ، فَإِذَا أَنَا عِنْدَ نَفْسِي مُسْتَضِيءٌ بِرُوحِ نَجْمِيَّةٍ لَهَا إِشْرَاقٌ وَسَنَاءٌ، وَإِذَا الْوُضُوءُ فِي أَضْعَافِ مَعَانِيهِ هُوَ مَا عَلَّمْنَا مِنْ أَنَّهُ الظَّهَارَةُ وَالنَّظَافَةُ، أَمَّا فِي أَقْوَى مَعَانِيهِ فَهُوَ إِفَاضَةُ مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا التَّقْدِيسُ وَالتَّزْكِيَةُ وَغَسْلُ الْوَقْتِ الْإِنْسَانِي مِمَّا يُخَالِطُهُ كُلَّمَا مَرَّتْ

(٢) طَفَلَتْ: مَالَتْ .

(١) مُتَبَايِنَةٌ: مُخْتَلِفَةٌ .

ساعات، وأبتدأه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطولاً مترطّباً بالماء.

ثم صلى بنا الشيخ، وأمرني بالمبيت مع الرجل، كأنما خشي البدوات^(١) أن تبدو له فتنتص عزمه، أو هو زادني عليه لأغير شخصه وأبدل وحدته التي كان فيها، أو كأن الشيخ لم يأمن على الرجل أن يكون إنسانه الروحي قد تنبه بأكمله فوضعتني كالتبیه له.

وجاءنا العشاء من دار الشيخ فطعمنا، ثم قام الرجل فتوضأ وصلينا العتمة وجلسنا نتحدث، فاستبأته نبأه^(٢)، فقال: مهلاً. ثم نهض فتوضأ الثالثة وقال: تالله ما أعرف الوضوء بعد اليوم إلا ملاسة بين السماء والنفس، وما أعرف وقته من الروح إلا كساعة الفجر على النبات الأخضر.

قال المسيب: وأصبحنا فغدونا على الإمام، ثم لزمني الرجل في بعض أموري، ثم وافينا المسجد صلاة العصر لحضور درس الشيخ؛ وكان الناس كالحب المتراص على العنقود، لا أدري من ساقهم وجمعمهم؛ كأنما علمت الكوفة أن رجلاً مسلماً كفر بالله كفره صلعاء وأنه سيحضر درس الشيخ، وسيحضر الشيخ من أجله، فهبت الرياح الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها.

وجلس الشيخ مجلس الحديث فقال:

رؤينا أن رجلاً كانت به جراحة، فأتى قرناً^(٣) له فأخذ مشقصاً^(٤) فذبح به نفسه، فلم يصل عليه النبي ﷺ، وترك جنازته مطرودة تقتحم متلفة الآخرة كما أقتحمت متلفة الدنيا!

رؤينا في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعن نفسه يطعن نفسه في النار، والذي يقتحم يقتحم في النار!»

رؤينا عنه ﷺ: «من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة!»

رؤينا عنه ﷺ قال: «كان رجل به جراح فقتل نفسه، فقال الله: بذرني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة!».

(١) البدوات: المفاجئات.

(٣) القرن بالفتح: جعبة الشباب.

(٢) استبأته نبأه: سأله عنه.

(٤) المشقص: سهم ذو نصل عريض.

قال الشعبي: يقول الله: «بَدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ...» أي بدرني^(١) وتأله فَجَعَلَ
نَفْسَهُ إِلَهَ نَفْسِهِ، فَقَبَضَهَا وَتَوَقَّاهَا، فَكَانَ ظَالِمًا.

بَدَرْنِي وتأله في آخر أنفاسِهِ لحِظَةً يَنْقَلِبُ إِلَيَّ، فَكَانَ مَعَ ظُلْمِهِ مَغْرُورًا أَحْمَقُ!
بدرني وتأله حين ضاق، فَهَوَّرَ نَفْسَهُ^(٢) في الموت من عجزِهِ أَنْ يُمَسِّكَهَا في
الحياة، فَكَانَ عاجزاً مَعَ ظُلْمِهِ وَغُرُورِهِ وَحُمَقِهِ!

بدرني وتأله على جهله بِسِرِّ الْحَيَاةِ وَحِكْمَتِهَا، فلم يَسْتَحِ هذا المخلوق الظالم
المغرور في حمقه وعجزِهِ وجهله - لم يستح أَنْ يجثني في صورة إله!
بَدَرْنِي وتأله، فَطَعَّ نَفْسَهُ طَابَعَهَا الْأَبَدِيُّ من غِيٍّ وَتَمَرِّدٍ وَسَفَاهَةٍ، وَأَرْسَلَهَا إِلَيَّ
مَقْتُولَةً يَرُدُّهَا عَلَيَّ.

بدرني وتأله كأنما يقول: إِنَّ لَهُ نَصْفَ الْأَمْرِ وَلِيَّ النِّصْفِ: أنا أحييتُ وهو
أَمَاتُ...!

بَدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ! قال الشعبي: وَإِنَّمَا تُحْرَمُ الْجَنَّةُ عَلَى
مَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ، إِذْ يَنْقَلِبُ إِلَى اللَّهِ وَعَلَى رُوحِهِ جَنَائِةً يَدُو مَا تُفَارِقُهَا إِلَى الْأَبَدِ: فَهُوَ
هَنَّاكَ جِيفَةً مِنَ الْجَيْفِ مَسْمُومَةٌ أَبَدًا، أَوْ مَخْنُوقَةٌ أَبَدًا، أَوْ مَذْبُوحَةٌ أَبَدًا، أَوْ مَهْشُمَةٌ
أَبَدًا يَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَنْتَ بَدَرْتَنِي بِنَفْسِكَ، وَجَرَيْتَ مَعِيَ فِي الْقَدَرِ مَجْرَى وَاحِدًا،
فَسْتَخْلَدُ نَفْسَكَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ عَمَلِكَ، وَمَا قَتَلْتَ إِلَّا حَسَنَاتِكَ.

قال الشعبي: ولو عرفَ قَاتِلُ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيَصْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ جِيفَةً أَبَدِيَّةً، فَمَنْ ذَا
الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ كَذَا وَكَذَا تَحَوَّلَ جِمَارًا وَبَقِيَ جِمَارًا، فَيَرْضَى أَنْ يَتَحَوَّلَ
وَيُسْرَعَ لِيَتَحَوَّلَ؟

مِنْ ذَلِكَ نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ نَفْسَهُ، كَمَا يَنْظُرُ إِلَى ذَبَابَةٍ
تَوَجَّهَتْ بِالسَّبَبِ إِلَى الشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْأَفْلَاقِ كُلِّهَا، ثُمَّ جَاءَتْهُ وَقَوْلُ: اشْهَدْ لِي.

قال الشيخ: وَمِمَّنْ يَقْتُلُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ؟ أَمَا إِنَّ الْمَوْتَ آتٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا
مَقْصَرَ لِحَيٍّ عَنْهُ، وَهُوَ الْخَبِيئَةُ الْكُبْرَى تُلْقَى عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ؛ فَمَا ضَرَرُ الْخَبِيئَةِ
الصَّغِيرَةِ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ؟

(٢) هَوَّرَ نَفْسَهُ: أَزْهَقَهَا.

(١) بدرني: سَقَيْتَنِي وَأَتَى إِلَيَّ.

إِنَّ المرءَ لَا يَقْتُلُ نَفْسَهُ مِنْ نَجَاحِ بِلٍ مِنْ خَبِيَّةٍ، فَإِنَّ كَانَتْ الْخَبِيَّةُ مِنْ مَالٍ فَهِيَ الْفَقْرُ أَوْ الْحَاجَةُ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ عَافِيَةٍ فَهِيَ الْمَرَضُ أَوْ الْإِخْتِلَالُ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ عِزَّةٍ فَهِيَ الْذُلُّ أَوْ الْبُؤْسُ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ - كَالنِّسَاءِ وَغَيْرِهِنَّ - فَهِيَ الْعَجْزُ عَنِ الشَّهْوَةِ وَفَسَادُ التَّخَيُّلِ، كُلُّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي الْنَّاسِ، يَحْمِلُهُ أَهْلُهُ رَاضِينَ بِهِ صَابِرِينَ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْغَبَارُ النَّفْسِيُّ لِهَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى نَفْسِ أَهْلِهَا. وَبِأَعْجَابٍ! إِنَّ الْعُمَيَّانَ هُمَ بِالطَّبِيعَةِ أَكْثَرُ النَّاسِ ضَحْكَاً وَأَبْتَسَاماً وَعَبَثاً وَسُخْرِيَةً، أَفْتَرِيدُونَ أَنْ تُخَاطِبَكُمُ الْحَيَاةُ بِأَفْصَحَ مِنْ ذَلِكَ؟

لَيْسَتْ الْخَبِيَّةُ هِيَ الْكُشْرُ، بَلِ الْكُشْرُ كُلُّهُ فِي الْعَقْلِ إِذَا تَبَلَّدَ فَجَمَدَ عَلَى حَالِهِ وَاحِدَةً مِنَ الطَّمَعِ الْخَائِبِ، أَوْ فِي الْإِرَادَةِ إِذَا وَهَّتْ فَقَبِثَتْ مُتَعَلِّقَةً بِمَا لَمْ يَوْجَدْ. أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ حِينَ لَا يُبَالِي الْعَقْلُ وَلَا الْإِرَادَةُ لَا يَبْقَى لِلْخَبِيَّةِ مَعْنًى وَلَا أَثَرٌ فِي النَّفْسِ، وَلَا يَخِيبُ الْإِنْسَانُ حِينَئِذٍ، بَلْ تَخِيبُ الْخَبِيَّةُ نَفْسَهَا؟

لِهَذَا يَأْبَى الْإِسْلَامُ عَلَى أَهْلِهِ الْتَرَفَ الْعَقْلِيِّ وَالتَّخَيُّلَ الْفَاسِدَ، وَيَشْتَدُّ كُلُّ الشَّدَةِ فِي أَمْرِ الْإِرَادَةِ، فَلَا يَتَرَخَّصُ فِي شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِهَا، وَلَا يَزَالُ يُنْمِيهَا بِأَعْمَالٍ يَوْمِيَّةٍ تَشْدُ مِنْهَا لِتَكُونَ رَقِيبَةً عَلَى الْعَقْلِ حَارِسَةً لَهُ، فَإِنَّ لِلْعَقْلِ أَمْرَضاً كَثِيرَةً يَقْسُ فِيهَا دَرَجَاتٍ مِنَ الطَّيْشِ حَتَّى يَبْلُغَ الْجَنُونَ أحياناً؛ فَكَانَتْ الْإِرَادَةُ عَقْلاً لِلْعَقْلِ؛ هِيَ لَيْتُهُ إِذَا تَصَلَّبَ، وَهِيَ حَرَكَتُهُ إِذَا تَبَلَّدَ، وَهِيَ جَلْمُهُ إِذَا طَاشَ، وَهِيَ رِضَاهُ إِذَا سَخِطَ.

الْإِرَادَةُ شَيْءٌ بَيْنَ أَلْرُوحِ وَأَلْعَقْلِ، فَهِيَ بَيْنَ وَجُودَيْنِ؛ وَلِهَذَا يَكُونُ بِهَا الْإِنْسَانُ بَيْنَ وَجُودَيْنِ أَيْضاً، فَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ وَهُوَ فِي الدُّنْيَا كَالْمُنْفَصِلِ عَنْهَا، إِذْ يَكُونُ فِي وَجُودِهِ الْأَقْوَى وَجُودُ رُوحِهِ، وَأَكْبَرُ هُمٍّ نَجَاحُهُ فِي هَذَا الْوُجُودِ.

وَهَذَا النِّجَاحُ لَا يَأْتِي مِنَ الْمَالِ، وَلَا تُحَقِّقُهُ الْعَافِيَةُ، وَلَا تُبْرِئُهُ الشَّهْوَاتُ، وَلَا يُسَبِّهِ^(١) التَّخَيُّلُ الْفَاسِدُ؛ وَلَا يَكُونُ مِنْ مَتَاعِ الْغُرُورِ، وَلَا مِمَّا عُمَرُهُ خَمْسُونَ سَنَةً أَوْ مِائَةً سَنَةً؛ بَلْ يَأْتِي مِمَّا عُمَرُهُ الْخُلُودُ وَمِمَّا هُوَ بَاقٍ أَبَداً فِي مَعَانِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ وَالصَّلَاحِ؛ فَهِيَ تَعِينُ الْمَرَضُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ مِمَّا لَا تُعِينُ الصَّحَّةَ، وَتُقَيِّدُ الْفَقْرَ بِحَقَائِقِهِ مَا لَا تُقَيِّدُ الثَّرْوَةَ؛ وَهِيَ يَكُونُ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِيَّ عَامِلاً أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ مُتَخَيِّلٌ، وَقَانِعاً أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ طَامِعٌ؛ وَهِيَ لَا مَوْضِعَ لَغَلْبَةِ الشَّهْوَةِ، وَلَا كِبْرِيَاءِ النَّفْسِ، وَلَا

(١) يَسْنِيهِ: يَجْعَلُهُ سَنِيّاً نِيلاً.

حُبِّ الذات؛ وهذه الثلاث هي جالية الشفاء على الإنسان حتى في أحوال السعادة، وبدونها يكون الإنسان هائلاً حتى في أحوال الشقاء.

بالإرادة المؤمنة القويّة ينصرف ذكاء المؤمن إلى حقائق العالم وصلاح النفس بها، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاء إلى خيال الإنسان وفساد الإنسان...

وإذا انصرف الذكاء إلى حقائق الدنيا كان العقل سهلاً مرناً مطواعاً، وأستحال عليه أن يفهم فكرة قتل النفس أو يقرّها، فإنّ هذه الفكرة الخبيثة لا تستطرق إلى العقل إلا إذا تحجّر وأنحصر في غرض واحد قد خاب وخابت فيه الإرادة ففرغت الدنيا عنده.

ولو أن أماً تمّ عزمه على قتل نفسه ثم صابر الدنيا أياماً، لأنفسح عزمه أو رك^(١)؛ إذ يلين العقل في هذه المدة نوعاً ما، ويجعل الصبر بينه وبين المصيبة مسافة ما، فتتغير حالة النفس هوناً ما؛ فالصبر كالترّوح بالهواء على العقل الذي يكاد يختنق من احتباسه في معنى واحد مقلّ من جوانبه «ومثل العقل في هذه الحال مثل القائم في إعصار لفته بالتراب لفاً وسدّ عليه منافذ الهواء، وحبسّه في هذا التراب الملتفّ حبس الحشرة في جوف القصبه؛ فهو على اليقين أنّها حالة ساعة طارئة في الزمن لا حالة الزمن؛ وأنّ الهواء الذي جاء بهذا ألهم هو الذي يذهب بهذا ألهم.

وكما أنّ الأرض هي شيء غير هذا الإعصار الشائر منها، فالحياة كذلك هي أمر آخر غير شقاها.

قال الإمام: وفي كتاب الله آيات تدلّان على أنّه كتاب الدنيا كلها، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين: أحدهما المثال الروحيّ للفرد الكامل، والآخر المثال الروحيّ للجماعة الكاملة.

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾.

وأما الثانية فهي قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ

بينهم﴾.

(١) رك: ضعف.

ففي رجاء اللَّهِ واليوم الآخر يتسامى الإنسان فوق هذه الحياة الفانية، فتمزج همومها حوله ولا تصدمه، إذ هي في الحقيقة تجري من تحته فكأن لا سلطان لها عليه؛ وهذه الهموم تجد في مثل هذه النفس قوى بالغة تصرفها كيف شاءت، فلا يجيء الهَمُّ قوةً تسحق ضعفاً، بل قوةً تمتحن قوةً أخرى أو تُثيرها لتكون عملاً ظاهراً يقلده الناس ويتفعّلون منه بالأسوة الحسنة، والأسوة وحدها هي علم الحياة.

وقد ترى الفقير من الناس تحسبه مسكيناً، وهو في حقيقته أستاذ من أكبر الأساتذة يلقي على الناس دروساً في نفسه القويّة.

وفي رجاء اللَّهِ واليوم الآخر يبطل أكبر أسباب الشر في الناس، وهو نظَرُ الإنسان لِمَنْ هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظراً لا يبعث إلا الجفد والسخط، فينظر المؤمن حينئذٍ إلى ما في الناس من الخير والصلاح والإيمان والحق والفضيلة، وهذه بطبيعتها لا تبعث إلا السرور والغبطة. ومن جعلها في تفكيره أبطل أكثر الدنيا من تفكيره؛ وبها تسقط الفروق بين الناس عاليهم ونازلهم؛ كالرجل الفقير العالم إذا قديم على الغني العالم؛ جمع بينهما الاتفاق العقلي وسقط ما عداه.

وفي رجاء اللَّهِ واليوم الآخر يعيش الإنسان غمرة الطويل أو القصير كأنه في يوم يصبح منه غادياً على الحشر والحساب؛ فهو متصل بالخلود غير مغني إلا بأسبابه؛ وبهذا تكون أمراضه وآلامه ومصائبه ليست مكاره من الدنيا، بل هي تلك المكاره التي حُفَّت الجنة بها؛ ولا يضره الجزمان لأنه قريب الزوال، ولا يغره المتاع لأنه قريب الزوال أيضاً.

وفي رجاء اللَّهِ واليوم الآخر يسود الإنسان على نفسه؛ ومن كان سيّد نفسه كان سيّد ما حولها يصرفه بحكمه، ومن كان عبّد نفسه صرفه بحكمه كل ما حوله.

قال الشعبي: وأما المثال الروحي للجماعة الكاملة، فهو في وصف المؤمنين بأنهم «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ»؛ فهذا هذا، ما أحسبه يحتاج إلى بسط وبيان.

إن أكثر ما يضيّق به الإنسان يكون من قبل من حوله ممن يعايشهم ويتصل بهم لا من قبل نفسه، فإذا قام اجتماع أمة على أنهم (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) تفرّرت العظمة النفسية للجميع على السواء؛ ومن كانوا كذلك لم يخفوا الفقير بفقره، ولم يعظموا الغني لغناه، وإنما يخفون ويعظمون لصفات سامية أو حقيرة. وبين هؤلاء يكون الفقير الصابر أعظم قدراً من الغني الشاكر، وإعظام الناس

لِفَضِيلَةِ الْفَقِيرِ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ فَقْرَهُ عِنْدَ نَفْسِهِ شَيْئاً ذَا قِيَمَةٍ فِي الْإِنْسَانِيَةِ .

ومتى تَصَحَّحَتْ آراءُ الجماعةِ في هذه المعاني المؤلمة لِلنَّاسِ بَطَلَ الْمُها
وَأَسْتَحَالَتْ معانيها، وصارَ لا يَبْلَى معنَى من معاني الحياة في إنسانٍ إِلَّا وَضَعَ إيمانهُ
معنَى جديداً في مكانه، وتَصَبَّحَ الْفَضِيلَةُ وَحَدَّها غَايَةُ النَّفْسِ في الجميع؛ وبذلك
يَصْبِرُ الْفَرْدُ على مصائبه، لا بِقُوَّتِهِ وَحْدَهُ، ولكنَّ بِجميعِ القُوَى التي حوَّلَهُ . أَفْلا
تَرَوْنَ أَنَّ إعْجَابَ النَّاسِ بِالشَّجَاعَةِ وتَعْظِيمَهُمُ صَاحِبَها يَضَعُ في أَلَمِ السَّلاحِ لَذَّةً
يُحْسِنُها لَحْمُ الشَّجَاعِ الْبَطْلُ؟

قالَ الْمَسِيبُ بْنُ رَافِعٍ : فَقامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَجْلِسِ، فَقالَ . أَيُّها الشَّيْخُ، وإِذا
فَسَدَ النَّاسُ وَغَلَطَتْ قُلُوبُهُمْ، وَتَقَطَّعَتْ بَيْنَهُمُ الْأَسْبابُ، وَلَمْ يَعُودُوا (رُحَماءُ
بينهم)، وَشَمِتُوا بِالْفَقِيرِ، وَتَهَزَّؤُوا بِالْمُبْتَلَى وَطَرَحُوا فِي أَلْسِنَتِهِمْ كَمَا يَطْرَحُ الشَّاعِرُ
فِي لِسَانِهِ رَجُلًا يَهْجُوهُ لَا يَكْفُ عَنْهُ - فَمَا عَسَى أَنْ يَصْنَعَ الْمَسْكِينُ حِينَئِذٍ وَكُلُّ شَيْءٍ
يُدْفَعُهُ إِلَى قَتْلِ نَفْسِهِ؟

وقالَ الشَّعْبِيُّ : هُنا الرَّجاءُ في اللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ، وَهُوَ شَعورٌ لَا يُشْتَرَى
بِمالٍ، وَلَا يُلْتَمَسُ مِنْ أَحَدٍ، وَلَا يَغْسَرُ على مَنْ أَرادَهُ؛ وَالْفَقِيرُ وَالْمُبْتَلَى وَغَيْرُهُما
إِنَّمَا يَصْنَعُ كُلُّهُمْ مِثْلَهُ السَّامِي؛ فَالصَّبْرُ على هَذَا الْعَنَتِ هُوَ صَبْرٌ على إِتِمَامِ
الْمِثَالِ، وَإِذا وَقَعَ ما يَسُوءُكَ أَوْ يُحْزِنُكَ فَابْحَثْ فِيهِ عَنِ فِكْرَتِهِ السَّامِيَةِ، فَقَلِّمًا يَخْلُو
مِنْها، بَلِّ قَلِّمًا يَجِيءُ إِلَّا بِها .

قالَ الْمَسِيبُ : فَقامَ آخَرُ فَقالَ : وَكيفَ يَصْنَعُ أَمْرُؤُ الْآلِ^(١) أَحْوالَ الدُّنْيا إلى ما
يُخِيفُهُ، أَوْ بَلَغَ إِلَهُمْ مَبْلَغُهُ مِنْ قَلْبِهِ فَهُمْ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ؟

قالَ الشَّعْبِيُّ : فَلْيَجْعَلِ الْخَوْفَ خَوْفَيْنِ : أَحَدُهُما خَوْفُهُ عَذابَ اللَّهِ خالِداً
مُخْلِداً فِيهِ أَبَداً؛ فَيَذْهَبِ الْأَقْوى بِالْأَضْعَفِ . وَإِذا أَبْتَلِيَ فَلْيَضْمُ إِلَى نَفْسِهِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ
بَلاءَ مِنْهُ؛ لِيَكُونَ هُمُّ أَحَدَ هُمَيْنِ، فَيَذْهَبِ الْأَثْقَلُ بِالْأَخْفِ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ وَنَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْحِياَةِ كَالَّذِي أُعْطِيَ طِفْلاً نَزَقاً طَيَّاشاً عارِماً مَتَمَرِّداً
لِيُؤَدَّبَهُ وَيُحَكِّمَ تَرْبِيَتَهُ وَتَقْوِيَمَهُ فَيُثَبِّتَ بِذلِكَ أَنَّهُ أَسْأَدُ، فَيُعْطَى أَجْرَ صَبْرِهِ وَعَمَلِهِ، ثُمَّ
يَضِيقُ الْأَسْأَدُ بِالطِّفْلِ ساعَةً فَيَقْتُلُهُ . أَكذلكَ التَّأدِيبُ وَالتَّربِيَةُ؟

(١) آلَت : تَحَوَّلَتْ .

الانشجار

٣

قال أَلَمْسِيْبُ بْنُ رَافِعٍ: وَكَانَ الْإِمَامُ قَدْ شَغَلَ خَاطِرُهُ^(١) بِهَذِهِ الْقِصَّةِ فَأَخَذَتْ تَمُدُّ مَدَّهَا فِي نَفْسِهِ، وَمَكَّنَتْ لَهُ مِنْ مَعَانِيهَا بِمِقْدَارٍ مَا مَكَّنَ لَهَا فِي هَمِّهِ، وَتَفَتَّقَ بِهَا ذَهْنُهُ عَنْ أَسَالِيْبٍ عَجِيْبَةٍ يَتَهَيَّأُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ كَمَا يَلِدُ الْمَعْنَى الْمَعْنَى. فَلَمَّا قَالَ الْرَجُلَانِ مَقَالَهُمَا آنَفًا وَأَجَابَهُمَا بِتِلْكَ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، أَنْقَذَ لَهُ مِنْ كَلَامِهِمَا وَكَلَامِهِ رَأْيِي فَقَالَ:

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ: أَنْشُدْكُمْ اَللَّهَ وَالْإِسْلَامَ أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْكُمْ ضَاقَ بِرُوحِهِ يَوْمًا فَأَرَادَ إِزْهَاقَهَا إِلَّا كَشَفَ لِأَهْلِ الْمَجْلِسِ نَفْسَهُ وَصَدَّقْنَا عَنْ أَمْرِهِ؛ وَلَا يَجِدُنْ فِي ذَلِكَ ثَلَبًا^(٢) وَلَا عَابًا، فَإِنَّمَا اَلنَّكْبَةُ مَذْهَبٌ مِنْ مَذَاهِبِ الْقَدَرِ فِي اَلتَّعْلِيمِ؛ وَقَدْ يَكُونُ أَبْتِدَاءُ اَلْمُصِيبَةِ فِي رَجُلٍ هُوَ أَبْتِدَاءُ اَلْحِكْمَةِ فِيهِ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ؛ وَمَا مِنْ حَزِينٍ إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ فِي بَعْضِ سَاعَاتِ حَزْنِهِ أَنَّهُ قَدْ غُيِّبَتْ فِيهِ أَسْرَارٌ لَمْ تَكُنْ فِيهِ، وَهَذَا مِنْ إِبَانَةِ اَلْحَقِيقَةِ عَنْ نَفْسِهَا وَمَوْضِعِهَا كَمَا لِأَلَّا^(٣) فِي سَيْفِ بَرِيْقِهِ.

وَعَقْلُ آلِهِمْ عَقْلٌ عَظِيمٌ، فَلَوْ قَدْ أُرِيدَ اسْتِخْرَاجُ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ النَّاسُ مِنَ اَللَّذَاتِ وَالتَّعَمُّ؛ لَكَانَ مِنْ شَرْحِ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْحَمِيرِ وَالبَغَالِ وَالدَّوَابِّ مَا لَا يَكُونُ مِثْلُهُ وَلَا قُرَابُهُ فِي اَلْعُقْلَاءِ، وَلَا تَبْلُغُهُ الْقُوَى اَلْأَدْمِيَّةُ فِي أَهْلِهَا؛ بَيَدَ أَنَّهُ لَوْ أُرِيدَ عِلْمٌ مِنَ الْبُؤْسِ وَاَلْأَلَمِ وَاَلْحَاجَةِ لَمَّا وَجِدَ شَرْحُهُ إِلَّا فِي النَّاسِ، ثُمَّ لَا يَكُونُ الْخَاصُّ مِنْهُ إِلَّا فِي الْخَاصَّةِ مِنْهُمْ.

وَمَا بَانَ أَهْلُ النِّعْمَةِ وَلَا غَمَرُوا الْمَسَاكِينَ فِي تَطَاوُلِهِمْ بِأَعْنَاقِهِمْ إِلَّا مِنْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَكْتَفَ الشَّيَاطِينِ؛ فَالشَّيْطَانُ دَابَّةُ الْغَنِيِّ الَّذِي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ فِي غِنَاؤِهِ وَيَحْسِبُ نَفْسَهُ مُحْخَلًى لِشَهْوَاتِهِ وَنَعِيمِهِ؛ كَمَا هُوَ دَابَّةُ الْعَالَمِ الَّذِي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ

(١) خَاطِرُهُ: بِالْهَاءِ.

(٢) ثَلَبًا: عَابًا وَعَيْبًا.

(٣) لَأَلَّا: لَأَلَّا: التَّعَمُّ وَبَرَقَ.

في عِلْمِهِ، ويزعمُ نفسهُ مخْلِى لِعَقْلِهِ أو رَأْيِهِ، وما طَالَ الطَوِيلُ بِذلك ولا عن ذلك قَصُرَ الْقَصِيرِ، وهل يَصِحُّ في الرأْي أن يُقالَ هذا أطولُ من هذا لأنَّ الأولُ فوقَ السُّلَمِ والآخِرُ فوقَ رجليه...؟

قال المَسِيبُ: فقامَ شيخٌ من أَقْصَى المَجْلِسِ وأقبلَ يَتَخَطَّى الرِّقابَ وَالنَّاسَ يَنْفَرُجُونَ^(١) لَهُ حَتَّى وَقَفَ بِإِزاءِ الإمامِ؛ وَتَفَرَّسَتْهُ^(٢) وَجَعَلَتْ عَيْنِي تَعْجُمُهُ^(٣)، فإذا شَيْخٌ تَبْدُو طَلاقُهُ وَجْهَهُ شَباباً على وَجْهِهِ، أَبْلَجُ الْغُرَّةِ مُتَهَلِّلٌ عَلَيْهِ بِشائِئَةِ الْإِيْمَانِ وفي أَسارِيرِهِ أَثَرٌ من تَغْطِيبٍ قَدِيمٍ، يَنْطَلِقُ هذا وَذاك أَنَّ الرَّجُلَ فِيمَا أَتَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ قَدْ كانَ أَطْفَأَ الْمِصْبَاحَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَّةً ثُمَّ أَضَاءَهُ. وَعَجِبْتُ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ هذا الشَّيْخِ قَدْ هُمَ بِقَتْلِ نَفْسِهِ يَوْمًا، وَأَنَا أَرى بَعِيْنِي نَفْسَهُ هَذِهِ مُنْبِثَةٌ فِي الْحَيَاةِ أَنْبِثَاقَ التَّخْلِةِ السَّحُوقِ.

وتكلمَ هذا الرَّجُلُ فقال:

أَمَّا إِذْ نَاشَدْتَنِي^(٤) اللهُ وَالْإِسْلَامَ وَمِثاقَ الْعِلْمِ وَوَحْيَ الْأَقْدَارِ فِي حِكْمَتِهَا، فَإِنِّي مَحْدُوثٌ بِخَبْرِي عَلَى وَصْفِهِ وَرَضْفِهِ: أَمَلَقْتُ^(٥) مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَقَفَ بِي مِنَ الدَّهْرِ مَا كانَ يَجْرِي، وَأَصْبَحْتُ فِي مُزاوِلَةِ الدُّنْيا كَعاصِرِ الْحَجَرِ يُرِيدُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهُ، وَعَجَزْتُ يَدَيَّ حَتَّى لَقُفْتُ دُجاجةً فِي نَبْشِها التُّرابَ عَنِ الْحَبَّةِ وَالْحَشْرَةِ أَقْدَرُ مِنِّي؛ وَطَرَقَتْنِي النُّوْائِبُ^(٦) كَأَنَّمَا هِيَ تُسَاكِنُنِي فِي دَارِي، وَأَكْلَنِي الدَّهْرُ لَحْماً وَرِمانِي عِظَماً، فَمَا كانَ يَقْفُ عَلَيَّ إِلَّا كِلابُ الطَّرِيقِ؛ وَلِي يَوْمِئِذٍ أَمْرَةٌ أَعْقَبَتْ مِنْها طِفْلاً، وَيَلْزَمُنِي حَقُّهُمَا وَلَا أَسْتَطِيعُهُ؛ وَكانَ بَيْنَنا حُبٌّ فَوْقَ المِعاشِرةِ وَالْأَلْفَةِ قَدْ تَرَكَني مِنْ أَمْرَاتِي هَذِهِ كَالشَّاعِرِ الْغَزَلِ مِنْ صَاحِبَتِهِ، غَيْرَ أَنَّ الشَّعْرَ فِي دَمِي لَا فِي لِسَانِي.

فَلَمَّا نَهَكْنِي^(٧) الْمِصائبُ وَتَناءَلَتْنِي مِنْ قَرِيبٍ وَمِنْ بَعِيدٍ؛ قُلْتُ لِلْمِراةِ ذاتِ يَوْمٍ وَقد شَجِبَتْ وَأَنْكَسَرَ وَجْهُها وَتَقَبَّضَ^(٨) مِنْ هُزالِهِ: وَأَيُّمَ اللَّهِ يا فِلاَنَةُ لَوْ جازَ أَنْ يُؤْكَلَ لَحْمُ الْأَدَمِيِّ لَذَبَحْتُ نَفْسِي لِتَأْكُلِي وَتَدْرِي عَلَى الصَّبِيِّ؛ وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْكَبَ رَأْسِي وَأَذْهَبَ عَلَى وَجْهِهِ لِتَفْقِدَانِي فَتَفْقِدَا شَوْمِي عَلَيْكما؛ وَلَكِنْ رَدَّنِي

(١) يَفْرُجُونَ لَهُ: يُسَحِّقُونَ لَهُ الطَّرِيقَ.

(٢) تَفَرَّسَتْهُ: نَظَرَتْ إِلَيْهِ بِإِمعانٍ.

(٣) تَعْجُمُهُ: تَتَعَصَّصُهُ.

(٤) نَاشَدْتَنِي اللهُ: اسْتَحْلَفْتَنِي.

(٥) أَمَلَقْتُ: افْتَرَعْتُ.

(٦) طَرَقَتْنِي النُّوْائِبُ: حَلَّتْ بِي المِصائبُ.

(٧) نَهَكْتَنِي: أَتَعَبَتْنِي وَأَضْعَفَتْنِي.

(٨) تَقَبَّضَ: انْكَمَشَ.

قلبي، وهو حَسَنِي في هذه الدنيا الصغيرة التي بَيْنَكُما، فليس لي مِنَ الأرضِ مَشْرِقٌ ولا مَغْرِبٌ إِلَّا أَنْتَ وهذا الصَّبِيُّ. وَلَسْتُ أَدرِي - واللَّهُ - ما نَصْنَعُ بالحِياةِ وقد كُنَّا من بَنائِها الْأَخْضَرِ فَرَجَعْنَا من حَظِّها الْيَاسِ؛ وَعَادَتِ الشَّمْسُ لَا تَغْذُوهَا بل تَمْتَصُّ مِنْهَا ما بَقِيَ، وَلَا تَسْتَضِيءُ لَهَا، وَلَكِنْ تَسْتَوَقِّدُ عَلَيْهَا!

إِنَّ مَنْ فَقَدَ الْخَيْرَ وَوَقَعَ فِي الشَّرِّ، حَرِيٌّ^(١) أَنْ يَكُونَ قد أَصَابَ خَيْرًا عَظِيمًا إِذَا قَتَلَ نَفْسَهُ فَخَلَصَ مِنَ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ جَمِيعًا، لَا يُكْذِبِي^(٢) وَلَا يَنْجَحُ، وَلَا يَأْلَمُ وَلَا يَلْدُ؛ وَكَمَا أَنْكَرْتَهُ الدُّنْيَا فَلْيَنْكَرْهَا. أَمَّا إِنَّهُ إِنْ كَانَ الْقَبْرِ الْقَابِرَ وَلَكِنْ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ لَا عَلَى ظَهْرِهَا كَحَالِنَا؛ وَإِنْ كَانَ أَلَمُوتٍ فَأَلَمُوتٍ وَلَكِنْ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ وَفِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا كَهَذَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ أَنْوَاعًا أَنْوَاعًا. قَدْ مَاتَتْ أَيَّامُنَا، وَتَرَكْنَا نَعِيشَ كَالْمَوْتَى لَا أَيَّامَ لَهُمْ، وَزَادَ عَلَيْنَا أَلَمُوتِي فِي النِّعْمَةِ وَالرَّاحَةِ أَنَّهُمْ لَا يَتَطَقَّلُونَ^(٣) عَلَى أَيَّامٍ غَيْرِهِمْ فَيُطْرَدُوا عَنْ يَوْمٍ هَذَا وَيَوْمَ ذَلِكَ.

قال: فَاسْتَعْبِرْتُ^(٤) الْمَرْأَةَ بَاكِئَةً، وَلَمَّا فَرَعَتْ مِنْ كَلَامِ دَمْعِهَا قَالَتْ: كَأَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَفْجَعَنَّا فِيكَ؟ قُلْتُ: مَا عَذَّبْتُ مَا فِي نَفْسِي؛ وَلَكِنْ هَلْ بَقِيَ فِي مَنْ تَفْجَعِينَ فِيهِ؟ أَمَّا ذَهَبَ مِنِّي ذَاكَ الَّذِي كَانَ لَكَ زَوْجًا وَكَاسِيًا، وَجَاءَ الَّذِي هُوَ هُمُكَ وَهُمْ هَذَا الصَّبِيُّ مِنْ رَجُلٍ كَالْحَفْرَةِ لَا تَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانِهَا وَتَأْخُذُ وَلَا تُعْطِي؟

أَمْ وَاللَّهِ لَكَانِي خُلِقْتُ إِنْسَانًا خَطَأً، حَتَّى إِذَا تَبَيَّنَ الْغَلْطُ أُرِيدُ إِرْجَاعِي إِلَى الْحَيَاةِ فَلَمْ يَأْتْ لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ، وَبَقِيتُ بَيْنَهُمَا؛ يَمُرُّ النَّاسُ بِي فَيَقُولُونَ: إِنْسَانٌ مُسْكِنٌ. وَأَحْسَبُ لَوْ نَطَقَتِ الْأَكْلَابُ لَقَالَتْ عَنِّي: كَلْبٌ مُسْكِنٌ. يَا عَجَبًا! عَجَبًا لَا يَنْتَهِي! أَصَبَحْتُ الدُّنْيَا فِي يَدِنَا مِنَ الْعَجْزِ وَالْيَاسِ كَأَنَّمَا هِيَ بَغْرَةٌ نَجْهَدُ فِي تَحْوِيلِهَا بِأَقْوَنَةٍ أَوْ لَوْلَةٍ...

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: وَاللَّهِ لَشُنْ حَيِّتٍ عَلَى هَذَا إِنْ هَذَا لَكَفَرُ قَبِيحٌ، وَلَكِنْ مَتَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ لَا فَيْحٌ وَأَشَدُّ.

فَقُلْتُ لَهَا: وَيَحْكُ وَمَاذَا تَنْظُرُ الْعَيْنُ الْمُبْصِرَةُ فِي الظَّلَامِ الْحَالِكِ إِلَّا مَا تَنْظُرُ الْعَمِيَاءُ؟

قَالَتْ: وَلِمَ لَا تَنْظُرُ كَمَا يَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ بَنُو اللَّهِ؟

(٣) يتطقلون: يعيشون على حساب غيرهم.

(٤) استعبرت: بكت.

(١) حري: جدير.

(٢) أكذى: قل خيره وعطاؤه.

قُلْتُ: فَانْظُرِي أَنْتِ وَخَبِّرِينِي مَاذَا تَرَيْنِ . أَتَرَيْنِ رَغِيفًا؟ أَتَرَيْنِ إِدَامًا؟ أَتَرَيْنِ دِينَارًا؟

قَالَتْ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى كُلَّ ذَلِكَ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . أَرَى قَمَرًا سَيَكْشِفُ هَذِهِ السُّدُقَةَ^(١) الْمُظْلِمَةَ إِنْ لَمْ يَطْلُعْ فَكَانَ قَدْ .

قَالَ: فَعَاظَتْنِي الْمَرْأَةُ وَرَأَيْتُهَا حِينَئِذٍ أَشَدَّ عَلَيَّ بِقَلَّةِ ذَاتِ عَقْلِهَا مِنْ قَلَّةِ ذَاتِ يَدِي؛ وَلَوْلَا حُبِّي إِيَّاهَا وَرَحْمَتِي لَهَا لَأَوْقَعْتُ بِهَا^(٢) . وَأَسْتَحْكَمُ فِي ضَمِيرِي أَنْ أَزْهِقَ نَفْسِي وَأَدْعَهَا لِمَا كُتِبَ لَهَا .

وَقُلْتُ: إِنَّ جُبْنَ الْمَرْأَةِ هُوَ نَصْفُ إِيْمَانِهَا حِينَ لَا يَكُونُ نَصْفُ عَقْلِهَا، وَلِلْقَدَرِ يَدٌ ضَعِيفَةٌ عَلَى النِّسَاءِ تَضَعُوهُنَّ وَتَمْسَحُ دُمُوعَهُنَّ، وَلَهُ يَدٌ أُخْرَى عَلَى الرِّجَالِ ثَقِيلَةٌ تَصْفَعُ الرِّجْلَ وَتَأْخُذُ بِحَلْقِهِ فَتَعَصِرُهُ .

قَالَ: وَكَثُتْ قَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي هَذِهِ الْخَلِيقَةِ؛ أَرْحَامٌ تَذْفَعُ، وَأَرْضٌ تَبْلَعُ . فَحَضَرَنِي هَذَا الْقَوْلُ تِلْكَ السَّاعَةَ وَشُبَّهَ لِي، وَأَعْتَقَدْتُ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ شَيْءٌ حَقِيرٌ فِي الْغَايَةِ مِنَ الْهَوَانِ وَالضُّعْفِ: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا، وَأَنْقَلَبَتْ بِهِ كُرْهًا، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا؛ وَهُوَ مِنْ سُؤْمِيهِ عَلَيْهَا إِذَا دَنَا لَهَا أَنْ تَضَعَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا حَتَّى يَضْرِبَهَا الْمَخَاضُ فَتَنْقَلِبُ وَتَصْبِيحُ وَتَتَمَرَّقُ وَتَنْصَدِعُ^(٣)؛ وَرَبِّمًا نَشِبَ فِيهَا فَتَقْتُلَهَا، وَرَبِّمًا التَوَى فَيُبْقِرُ بَطْنُهَا عَنْهُ . وَإِذَا هِيَ وَلَدَتْهُ عَلَى أَيِّ حَالِهَا مِنْ عُسْرِ وَتَطْرِيقٍ بِمَثَلِ الْمَطَارِقِ الْمُحِطَّمَةِ، أَوْ سَرَاحٍ وَرَوَاحٍ كَمَا يَتَسَرَّرُ - فَإِنَّمَا تَلِدُهُ فِي مَشِيمَةٍ وَدِمَاءٍ وَقَدَرٍ مِنَ الْأَخْلَاطِ كَأَنَّمَا هُوَ خَارِجٌ مِنْ جُرْحٍ . ثُمَّ تَتَنَاوَلُهُ الدُّنْيَا فَتَضَعُهُ مِنْ مَعَانِيهَا فِي أَقْبَحَ وَأَقْدَرَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . ثُمَّ يَسْتَوْفِي مُدَّتَهُ فَيَأْخُذُهُ الْقَبْرُ فَيَكُونُ شَرًّا عَلَيْهِ فِي تَمْزِيْقِهِ وَتَعْفِينِهِ وَإِحَالَتِهِ .

قَالَ: وَحَضَرَنِي مَعَ كَلِمَةِ الْجَاهِلِيَّةِ قَوْلُ ذَلِكَ الْجَاهِلِ الرَّنْدِيقِ الَّذِي يُعْرِفُ (بِالْبُقْلِيِّ) - إِذْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ كَالْبَقْلَةِ، فَإِذَا مَاتَ لَمْ يَزْجَعْ . وَقُلْتُ لِنَفْسِي: إِنَّمَا أَنْتِ بَقْلَةٌ حَمَقَاءُ ذَاوِيَةٌ فِي أَرْضٍ نَشَاشَةٍ^(٤)، فَتَقْتُلُهَا مِلْحُ أَرْضِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَحْيَاها .

(١) السُّدُقَةُ: الظِّلْمَةُ وَالْعَتَمَةُ .

(٢) أَوْقَعَتْ بِهَا: نَزَلَتْ بِهَا ضَرْبًا .

(٣) تَنْصَدِعُ: تَنْكَسِرُ .

(٤) الْأَرْضُ النَّشَاشَةُ: السَّبْخَةُ الَّتِي يَوْجَدُ فِيهَا الْمَاءُ وَالْمِلْحُ .

قال: وثُرْتُ إلى المِديَّة^(١) أريدُ أن أتوجَّأَ بها، فتبادرنِي المرأةُ وتحولُ بيني وبينَها؛ وأكادُ أبطِشُ بها مِنَ الغَيْظِ، وكانتُ رُوحُ الجَحِيمِ تَزْفِرُ من حولي لو سَمِعوا سمعوا لها شَهِيقاً وهي تَفُورُ؛ فما أدري أَيُّ مَلَكٍ هَبَطَ بوخي الجَنَّةِ في لِسَانِ أُمْرَأَتِي.

قُلْتُ لها: إِنَّها عَزَمَتْ مِنِّي أن أَقتَلَ نفسي.

قَالَتْ: وما أريدُ أن أنقُضَها ولستُ أرُدُّكَ عنها وستُمنُضيها.

قُلْتُ: فخلِّي بينَ نفسي وبينَ المِديَّةِ.

قَالَتْ: كلُّنا نَفْسٌ أنا وأنتَ والصَّبِيُّ فَلنَنقُضَ معاً؛ وما بنفسي عن نَفْسِكَ رَغْبَةٌ ولا ندُعُ الصَّبِيَّ يَتِيماً يَصِفَعُهُ مَنْ يُعْلِمُهُ، ويضربُهُ ابْنُ هذا وابنُ ذاكِ إذ لا يَسْتَطِيعُ أن يقولَ في أولادِ الناسِ أنا ابنُ ذلكَ ولا ابنُ هذا.

قُلْتُ: هذا هو الرأْي.

قَالَتْ: فَنعالَ أدْبَحِ أَلْطُفَلِ



قالَ المَسِيَّبُ بنُ رافعٍ: وما بَلَغَ الرَّجُلُ في قِصَّتِهِ إلى ذَبْحِ صَغيرِهِ حتى ضَجَّ الناسُ ضَجَّةً مُنكَرَةً؛ وتَوَهَّمَ كُلُّ أبٍ مِنْهُمْ أنْ طِفْلُهُ الصَّغِيرَ مُمَدَّدٌ لِلذَّبْحِ وهو يُنادي أباهُ وَيَشُقُّ حَلْفَهُ بِالصُّراخِ: يا أباي يا أباي؛ أدرَكُنِي يا أباي.

أما الإمامُ فَدَمَعَتْ عِناهُ وكَثُتْ بَينَ يَدَيْهِ فسمَعْتُهُ يقولُ: إِنَّا لِلَّهِ، كيفَ تصنعُ جَهَنَّمُ حَظَبَها؟

وأنا فما قَطُ نَسِيتُ هذهَ الكلمةَ، وما قَطُ رأيتُ من بَعْدِها كافراً ولا فاسِقاً فأغْتَبِزْتُ أَعمالَهُ إلاَّ كانَ كُلُّ ذلكَ شيئاً واحداً هو طَريقَةُ صَنعَتِهِ حَظَباً . . . كأنَّ الشَّيْطَانَ لَعَنَهُ اللَّهُ يقولُ لِأَتِباعِهِ؛ جَفَّفُوهُ . . .

وكانتُ هُتَيْهاتُ، ثُمَّ فاءَ الناسُ ورجعوا إلى أنفُسِهِم وصاحوا بالمتكلمِ: ثم ماذا؟



قالَ الرَّجُلُ: ففتَحْتُ عَيني وقلبي معاً ورَمَقْتُ^(٢) أَلْطُفَلَ المَسْكِينِ الَّذِي لا يَمْلِكُ إلاَّ يَدَيْهِ الضَّعِيفَتَيْنِ؛ ونظَرْتُ إلى مَجْرَى السَّكِينِ من حَلْقِهِ وإلى مَحْزَها^(٣) في

(١) المِديَّة: السكين.

(٢) رمق: نظر بطرف نظره.

(٣) محزها: موضع الذبح.

رَقَبَتِهِ اللَّيْنَةَ؛ وَرَأَيْتُهُ كَأَنَّمَا تَفَرَّقَ بَصَرُهُ مِنَ الْفَرْعِ عَلَى كُلِّ جِهَةٍ، وَرَأَيْتُهُ يَتَضَرَّعُ لِي بِعَيْنَيْهِ الْبَاكِتَيْنِ أَلَّا أَذْبَحَهُ، وَرَأَيْتُهُ يَتَوَسَّلُ بِيَدَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ كَأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ مَتْنِي أَمَامَ قَاتِلِهِ، ثُمَّ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَتَلَوَّى وَيَتَنَفَّضُ وَيَصْرُخُ مِنَ أَلَمِ الذَّبْحِ تَحْتَ يَدِ أَبِيهِ؛ تَحْتَ يَدِ أَبِيهِ التُّعَسِ.

يا ويلتأ! لَقَدْ أَخَذَنِي مَا كَانَ يَأْخُذَنِي لَوْ تَهَدَّمَتِ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ، وَحَسَبْتُ الْكَوْنَ كُلَّهُ قَدْ أَنْفَجَرَ صُرَاحًا مِنْ أَجْلِ الطِّفْلِ الضَّعِيفِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ إِلَّا رَبُّهُ أَمَامَ الْقَاتِلِ.

فَهَزَوْتُ^(١) مَسْرِعًا وَتَرَكْتُ الدَّارَ وَالْمَرْأَةَ وَالصَّبِيَّ وَأَنَا أَقُولُ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. يَا مَنْ خَلَقَ الطِّفْلَ عَالِمَهُ أُمُّهُ وَأَبُوهُ وَحَدَّاهُمَا وَبَاقِي الْعَالَمِ هَبَاءً عِنْدَهُ. يَا مَنْ دَبَّرَ الرُّضِيعَ فَوَهَبَهُ مُلْكًا وَمَمْلَكَةً وَغَنَى وَسُرُورًا وَفِرْحَانًا، كُلُّ ذَلِكَ فِي ثَدْيِ أُمِّهِ وَصَدْرِهَا لَا غَيْرَ يَا إِلَهِي: أُنْسِنِي مِثْلَ هَذَا النِّسْيَانِ، وَأَرْزُقْنِي مِثْلَ هَذَا الرِّزْقِ، وَأَكْفُلْنِي بِمِثْلِ هَذَا التَّدْبِيرِ فَإِنِّي مُنْقَطِعٌ إِلَّا مِنْ رَحْمَتِكَ أَنْقِطَاعَ الرُّضِيعِ إِلَّا مِنْ أُمِّهِ.

قَالَ الرَّجُلُ: وَلَقَدْ كُنْتُ مَغْرُورًا كَالْجِيْفَةِ الرَّاكِدَةِ تَحْسِبُ أَنَّهَا هِيَ تَفُورُ حِينَ فَارَقْتُ حَسْرَاتِهَا. وَلَقَدْ كُنْتُ أَحْقَرُ مِنَ الذَّبَابِ الَّذِي لَا يَجِدُ حَقَائِقَهُ، وَلَا يَلْتَمِسُهَا إِلَّا فِي أَقْدَرِ الْقَدَرِ.

وَمَا كِدْتُ أَمْضِي كَمَا تَسُوقُنِي رَجُلَايَ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتًا نَدِيًّا مَطْلُولًا يَرْجِعُ تَرْجِيعَ الْوَرَقَاءِ^(٢) فِي تَخَنُّانِهَا وَهُوَ يُرْتَلِّ هَذِهِ الْآيَةَ:

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾^(٣)

قَالَ: فَوَقَفْتُ أَسْمَعُ وَمَاذَا كُنْتُ أَسْمَعُ؟ هَذِهِ شُعْلٌ لَا كَلِمَاتٍ، أَحْرَقْتُ كُلَّ مَا كَانَ حَوْلِي وَلَمَسْتُ مِصْبَاحَ رُوحِي الْمُنْطَفِئِ فَإِذَا هُوَ يَتَوَهَّجُ، وَإِذَا الدُّنْيَا كُلُّهَا تَتَوَهَّجُ فِي نَوْرِهِ، وَأَرْتَفَعَتْ نَفْسِي عَنِ الْجَذْبِ^(٤) الَّذِي كُنْتُ فِيهِ وَكَأَنَّمَا لَفْتَنِي سَحَابَةٌ مِنَ السُّحُبِ، فَفِي رُوحِي نَسِيمُ الْمَاءِ الْبَارِدِ وَرَائِحَةُ الْمَاءِ الْعَذْبِ.

لَعَنَ أَلَلُهُ هَذَا الْأَضْطِرَابَ الَّذِي يُبْتَلَى الْخَائِفُ بِهِ. إِنَّا نَحْسِبُهُ أَضْطِرَابًا وَمَا هُوَ

(٣) فُرْطًا: تَتَقَاسَمُ الْأَهْوَاءُ.

(٤) الْجَذْبُ: الْمَحَلُّ.

(١) هَرَوْتُ: وَكَضْتُ.

(٢) الْوَرَقَاءُ: الْيَمَامَةُ.

إِلَّا اختلاط الحقائق على النفس وَذَهَابُ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ، وَتَضَرُّبُ الشَّرِّ فِي الْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فِي الشَّرِّ حَتَّى لَا يَبِينَ جَنْسٌ مِنْ جَنْسٍ، وَلَا يُعْرَفَ حَدٌّ مِنْ حَدٍّ، وَلَا تَمْتَّازَ حَقِيقَةٌ مِنْ حَقِيقَةٍ. وَبِهَذَا يَكُونُ الزَّمَنُ عَلَى الْمَبْتَلَى كَالْمَاءِ الَّذِي جَمَدٌ لَا يَتَحَرَّكُ وَلَا يَتَسَاوِرُ. فَيَلْوَحُ الشَّرُّ وَكَأَنَّهُ دَائِمًا لَا يَزَالُ فِي أَوَّلِهِ يُنْذِرُ بِالْأَهْوَالِ، وَقَدْ يَكُونُ هَوْلُهُ أَنْتَهَى أَوْ يُوشِكُ.

قَالَ الرَّجُلُ: وَكُنْتُ أَرَى يَأْسِي قَدْ أَغْتَرَى كُلَّ شَيْءٍ، فَأَمْتَدَّ إِلَى آخِرِ الْكَوْنِ وَإِلَى آخِرِ الزَّمَنِ؛ فَلَمَّا سَكَنَ مَا بِي إِذَا هُوَ قَدْ كَانَ يَأْسُ يَوْمٍ أَوْ أَيَّامٍ فِي مَكَانٍ مِنَ الْأَمَكَةِ؛ أَمَّا مَا وَرَاءَ هَذِهِ الْأَيَّامِ وَمَا خَلْفَ هَذَا الْمَكَانِ، فَذَلِكَ حُكْمُهُ حُكْمُ الشَّمْسِ الَّتِي تَطْلُعُ وَتَغِيبُ عَلَى الدُّنْيَا لِإِحْيَائِهَا، وَحُكْمُ الْمَاءِ الَّذِي تَنْهَبِي السَّمَاءُ بِهِ لِيَسْقِيَ الْأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا، وَحُكْمُ اسْتِمْرَارِ هَذِهِ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ فِي مَدَارِهَا لَا تُمَسِكُهَا وَلَا تَرْفُهَا إِلَّا قُوَّةُ خَالِقِهَا.

أَيْنَ أَثَرُ الْإِنْسَانِ الدُّنْيَا الْحَقِيرِ فِي كُلِّ ذَلِكَ؟ وَهَلِ الْحَيَاةُ إِلَّا بِكُلِّ ذَلِكَ؟ وَمَا الَّذِي فِي يَدِ الْإِنْسَانِ الْعَاجِزِ مِنْ هَذَا النِّظَامِ كُلِّهِ فَيَسُوعُ^(١) لَهُ أَنْ يَقُولَ فِي حَادِثَةٍ مِنْ حَوَادِثِهِ إِنَّ الْخَيْرَ لَا يَبْتَدِئُ وَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَنْتَهِي؟

تَعْتَرِي الْمَصَائِبُ هَذَا الْإِنْسَانَ لِتَمَحُوَ مِنْ نَفْسِهِ الْخِصَّةَ وَالْدَنَاءَةَ، وَتَكْثُرَ الشَّرُّ وَالْكِبْرِيَاءُ، وَتَفْشَأَ^(٢) الْحِدَّةُ وَالطَّيْشُ؛ فَلَا يَكُونُ مِنْ حُمُقِهِ إِلَّا أَنْ يَزِيدَ بِهَا طَيْشًا وَجِدَّةً، وَكِبْرِيَاءً وَشَرًّا، وَدَنَاءَةً وَخِصَّةً، فَهَذِهِ مَصِيبَةُ الْإِنْسَانِ لَا تَكُ.

الْمَصِيبَةُ هِيَ مَا يَنْشَأُ فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الْمَصِيبَةِ.

قَالَ: وَرَدَّدْتُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ فِي نَفْسِي لَا أَشْبَعُ مِنْهَا، وَجَعَلْتُ أُرْتَلُّهَا أَحْسَنَ تَرْتِيلٍ وَأَطْرَبَةً وَأَشْجَاهُ؛ فَكَانَتْ نَفْسِي تَهْتَرُ وَتَرْتَجُ كَأَنَّمَا هِيَ تَبْدَأُ تَنْظِيمَ مَا فِيهَا لِإِقْرَارِ كُلِّ حَقِيقَةٍ فِي مَوْضِعِهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْاِخْتِلَاطِ وَالْاضْطِرَابِ.

صَبَرَ النَّفْسُ مَعَ الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ رُوحَانِيَّتَهَا تَمَثِيلًا دَائِمًا بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، وَعَلَى نُورِ الْحَيَاةِ وَظِلَامِهَا، يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ الَّذِي سَبِيلُهُ الْحُبُّ لَا غَيْرُهُ مِنْ مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ. وَتَقْيِيدُ الْعَيْنَيْنِ بِهَذَا الْمَثَلِ الْأَعْلَى كَمَا يَكُونُ الْأَمْرُ فِي الْجَمَالِ وَالْحُبِّ؛ وَالرِّبْطُ عَلَى

(١) يسوع: يسمَح.

(٢) فشا الغضب: سَكَنَهُ وَكَسَرَهُ.

الإرادة كَيْلًا تَنْفَلَّتْ فَتُحَيِّفُ^(١) إلى حقائِرِ الدنيا المسماة هُزْأً وتهكماً زينة الدنيا، تلك التي تُشبهُ حقائِقَ الذبابِ العالية... فتكونُ قَدْرَةَ نَجِسَةٍ، ولكنها مع ذلك زينة الحياة لهذا الخَلْقِ الذُّبَابِي.

تلك - والله - هي أسباب السعادة والقوة. أما المصائب كلها، فهي في إغفال القلبِ الإنساني عن ذكرِ الله.

قال: وَلَمَّا صَحَّحْتُ تَوْبَتِي، وَقَوَّيَ الْيَقِينَ فِي نَفْسِي، كَبُرَتْ رُوحِي وَأَتَسَعْتُ، وَأَتَبَعْتُ لَهَا بَوَاعُثَ مِنْ غَيْرِ حَقَائِقِ الذُّبَابِ، وَأَشْرَقَ فِيهَا الْجَمَالُ الْإِلَهِيُّ سَاطِعاً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ الصُّبْحُ يَطْلُعُ عَلَيَّ كَأَنَّهُ وِلَادَةٌ جَدِيدَةٌ، فَأَنَا دَائِماً فِي عُمُرِ طِفْلِ، وَجَاءَنِي الْخَيْرُ مِنْ حَيْثُ أَحْتَسِبُ^(٢) وَلَا أَحْتَسِبُ، وَكَأَنَّمَا نِمْتُ فَأَتَنَبَّهُتُ غَنِيّاً وَعَمِلَ القلبُ الْحَيُّ فِي الزَّمَنِ الْحَيِّ.

ولقد أفدتُ مِنْ الْآيَةِ طَبِيعَةً لَمْ تَكُنْ فِيَّ، وَلَا يَثْبُتُ مَعَهَا الشَّرُّ أَبَداً، فَأَصْبَحَ مِنْ خُصَالِي أَنْ أَرَى الْحَاضِرَ كُلَّهُ مَتَحَرِّكاً يَمُرُّ بِمَا فِيهِ مِنْ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ جَمِيعاً، وَأَسْتَشْعِرُ حَرَكَتَهُ مِثْلَمَا تَرَى عَيْنَايَ مِنْ قَطَارِ الْإِبِلِ يَهْتَرُّ تَحْتَ رِحَالِهِ وَهُوَ يُغْدُ السَّيْرَ^(٣).

لَمْ أَتَبَعُ قَلِيلاً وَأَنَا أَمْشِي مُطْمَئِناً تَائِباً مَتَوَكِّلاً حَتَّى دَعَانِي رَجُلٌ ذُو نَعْمَةٍ وَمُرُوءَةٍ وَجَاءَهُ، وَكَأَنَّمَا كَلَّمَهُ قَلْبُهُ أَوْ كَلَّمَهُ وَجْهِي فِي قَلْبِهِ فَاسْتَنْبَأَنِي، وَبَشَّتُهُ^(٤) حَالِي وَأَقْتَصَصْتُ قِصَّتِي. فَقَالَ: سَيُحْيِيكَ اللَّهُ بِالطِّفْلِ الَّذِي كَذَبْتَ تَقَلُّهُ فَأَرْجِعْ إِلَى دَارِكَ. ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيَّ دَنَانِيرَ وَقَالَ: ائْتِجِرْ بِهَذِهِ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ وَبِرُكَّتِهِ فَسَيَمُو فِيهَا طِفْلٌ مِنْ أَلْمَالِ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ. وَقَدْ صَدَقَ إِيْمَانُهُ وَإِيْمَانِي، فَبَارِكْ لِي اللَّهُ وَنَمَا طِفْلُ الْمَالِ وَبَلَغَ وَجَاوَزَ إِلَى شَبَابِهِ.

قَالَ الْمَسِيَّبُ: وَجَلَسَ الرَّجُلُ وَكَانَ كَالْخَطِيبِ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَقَالَ الْإِمَامُ: مَا أَشْبَهَ النُّكْبَةَ بِالْبَيْضَةِ تُحَسَّبُ سِجْنًا لِمَا فِيهَا وَهِيَ تَحَوُّطُهُ وَتَرْبِيَّتُهُ وَتُعِينُهُ عَلَى تَمَامِهِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا الصَّبْرُ إِلَى مَدَّةٍ، وَالرَّضَى إِلَى غَايَةٍ، ثُمَّ تُنْقَفُ الْبَيْضَةُ فَيَخْرُجُ خَلْقاً آخَرًا. وَمَا أَلْمُؤْمِنُ فِي دُنْيَاهُ إِلَّا كَالْفَرْخِ فِي بَيْضَتِهِ، عَمَلُهُ أَنْ يَتَكَوَّنَ فِيهَا، وَتَمَامُهُ أَنْ يَنْبَثِقَ شَخْصُهُ الْكَامِلُ فَيَخْرُجَ إِلَى عَالَمِهِ الْكَامِلِ.

(١) تَسَفَّ: تَنَحَّطَ.

(٣) يَغْدُ السَّيْرَ: يَجْدُ فِي سِيرِهِ.

(٤) بَشَّتُهُ: أَعْلَمْتُهُ وَأَطْلَعْتُهُ عَلَى أَمْرِي.

(٢) احْتَسِبُ: اعْتَقَدَ وَظَنَّ وَأَمَلَ.

الانحرار

٤

قال المسيب بن رافع: ومذ الإمام عينه وقد رُفِعَ له شخص من المجلس؛ ثم جلى بنظره كأنما يتطلع إلى عجيبة كالحق إذا بطل، والصدق إذا كذب؛ ثم ردّ بصره عليّ كأنه يُعجِبُنِي من عجبهِ؛ ثم سَجَا^(١) طرفه كأنما أنكر رأي عينيه فهو يلتمس رأي قلبه. وتبيّنت في وجهه أنقباضاً خيلاً إليّ أنّ الشيطان جاء بهذا الرجل يُفجِّمُهُ^(٢) به يُريهِ كيف يجعل أحد المؤمنين الصالحين يتحمّس في دينه ليرجع بعد ذلك أصلاً لا غنى عنه في إنشاء قصة كُفرا!

هذا هو ضيفنا (أبو محمد البصري) يتخوّض^(٣) الناس ليجيء فيُحدِّثنا حديثه في قتل نفسه والاثم بربه؛ فلما قيل لي: إنّ قوس السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره، قد وقع إلى الأرض وأصطبغ من ألوانه أحوالاً وأقداراً؛ لكان هذا كهذا في تعاطيه وإنكاره والعجب منه؛ فأبو محمد من الرجال الخمس^(٤) الذين لو كُفِّرَ أحدهم ثم قيل: «إنه كفر»، لقصر اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شئنها، كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تألّى أن يعمل عملاً يخرج به من الكون، فلا يبقى في أرض ولا سماء ولا تناله يد الله! إنّ في لفظ الكفر مع ذلك، وفي لفظ الجنون مع هذا - شيئاً من نفاق العقل وتأديبه في أداء المعنى الآخر الذي لا يُشبهه جنون ولا كفر.

ونعوذ بالله من خذلانه^(٥)؛ فلقد يكون الرجل المؤمن في تشدّده وإغاليه في الدين - كالذي يصنع حبلاً يقتله فتلاً شديداً فيمرّه على طاقٍ بعد طاقٍ، ليكون أشدّ

(١) سجا: سكن ودام.

(٢) يفجّمه: يقنعه ويتغلب عليه.

(٣) يتخوّض: يتخطى.

(٤) الخمس: أي المتحمسين في دينهم.

(٥) خذلانه: تخليه.

لَهُ وَأَقْوَى، ثُمَّ يُجَادِبُهُ الشَّيْطَانُ حَبْلَهُ، فَإِذَا هُوَ كَانَ فِي الْوَهْنِ مِثْلَ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً فِي سَقْفِ حَدَادٍ؛ فَرَأَتْهُ يَصُبُّ الْحَدِيدَ الْمَصْهُورَ يَجْعَلُهُ سِلْسِلَةً خَلَقَةً فِي حَلَقَةٍ، فَذَهَبَتْ تَحْكِيهِ وَتُرْسِلُ مِنْ لُعَابِهَا خَيْطاً فِي خَيْطِ تَرْعُمُهُ سِلْسِلَةٌ...!

إِنَّ مَعَ كُلِّ مُؤْمِنٍ شَيْطَانَهُ يَتَرَبَّصُ^(١) بِهِ، فَلهَذَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ كَالَّذِي يَشْعُرُ أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا مِنْذُ سَاعَةٍ، فَهُوَ أَبَدًا مُحْتَرَسٌ مَتَهَيِّئٌ مُتَجَدِّدُ الْحَوَاسِّ مُزْهَفُهُا يَسْتَقْبِلُ بِهَا الدُّنْيَا جَدِيدَةً عَلَى نَفْسِهِ بَيْنَ الْفَتْرَةِ وَالْفَتْرَةِ: وَمِنْ هَذَا حِكْمَةُ أَنْ يُؤَذَّنَ الْمُؤَدَّنُ، وَأَنْ تُقَامَ الصَّلَاةُ مِرَاراً فِي الْيَوْمِ، فَكَلَّمَا بَدَأَ وَقْتُ قَالَ الْمُؤْمِنُ: الْآنَ أَبَدًا إِيْمَانِي أَطْهَرَ مَا كَانَ وَأَقْوَى.

وَقَالَ الْإِمَامُ: هَيْهَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! فَقَالَ الْبَصْرِيُّ وَقَدْ رَأَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِ الْإِمَامِ: لَا يُفْزِعُكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَدْ يَجْعَلُ مَا يُحِبُّهُ هُوَ فِيمَا نَكَرَهُ نَحْنُ؛ وَلَيْسَ لِلْأَقْدَارِ لُغَةٌ فَتَجَرِّي عَلَى الْفَاطِنَا؛ وَقَدْ تُسَمَّى النَّازِلَةُ^(٢) تَنْزُلُ بِنَا خَسَاراً وَهِيَ رِيحٌ، أَوْ نَقُولُ مُصِيبَةٌ جَاءَتْ لِتَبْدِيلِ الْحَيَاةِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا طَرِيقَةً تَبْسُرُ لِتَبْدِيلِ الْفِكْرِ. إِنَّمَا لُغَةُ الْقَدَرِ فِي شَيْءٍ هِيَ حَقِيقَةُ هَذَا الشَّيْءِ حِينَ تَظْهَرُ الْحَقِيقَةُ؛ وَكَأَيُّنَ مِنْ حَادِثَةٍ لَا تُصِيبُ أَمْرًا فِي نَفْسِهِ إِلَّا لِيَتَقَعَ بِهَا الْحَرْبُ بَيْنَ هَذِهِ النَّفْسِ وَبَيْنَ غَرَائِزِهَا. فَتَكُونُ أَعْمَالُ الطَّبِيعَةِ الْمَعَادِيَةِ أَسْبَاباً فِي أَعْمَالِ الْعَقْلِ الْمُنْتَصِرِ.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ الَّذِي يُفْضَى عَلَى الْإِنْسَانِ، لَا يَكُونُ إِلَّا وَسَائِلَ مِنَ الْقَدَرِ يُرَدُّ بِهَا الْإِنْسَانُ إِلَى عَالَمِ فِكْرِهِ الْخَاصِّ بِهِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا عَالَمٌ وَاحِدٌ لِكُلِّ مَنْ فِيهَا، وَلَكِنْ دَائِرَةُ الْفِكْرِ وَالنَّفْسِ هِيَ لِصَاحِبِهَا عَالَمُهُ وَحْدَهُ. وَالسَّعِيدُ مَنْ قَرَّ فِي عَالَمِهِ هَذَا وَأَسْتَطَاعَ أَنْ يَحْكَمَ فِيهِ كَالْمَلِكِ فِي مَمْلَكَتِهِ، نَافِذَ الْأَمْرِ فِي صَغِيرَتِهَا وَكَبِيرَتِهَا؛ وَالشَّقِيُّ مَنْ لَا يَزَالُ ضَائِعاً فِي كُلِّ هَذَا كَالْأَجْنَبِيِّ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ وَغَيْرِ قَوْمِهِ وَغَيْرِ أَهْلِهِ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ يُصْبِحُ أَجْنَبِيًّا عَنِ الْإِنْسَانِ مَا دَامَ هُوَ أَجْنَبِيًّا عَنْ نَفْسِهِ.

لَقَدْ كُنْتُ ضَالًّا عَنْ نَفْسِي وَعَالَمِيهَا، فَكُنْتُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَسْتَشْعِرُ شُعُورَ اللَّصِّ، أَشْيَاؤُهُ هِيَ أَشْيَاءُ النَّاسِ جَمِيعاً؛ وَاللَّصُّ يَنْظُرُ إِلَى أَمْوَالِ النَّاسِ بَعِيْنِي شَاعِرٍ مُتَحَبِّبٍ كَلِفٍ^(٣)، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ بَعِيْنِي مُقَاتِلٍ مَتَرَبِّصٍ حَذِرٍ.

(١) يَتَرَبَّصُ بِهِ: يَتَحَيَّنُ الْفُرْصَ.

(٢) النَّازِلَةُ: الْمَصِيبَةُ الطَّارِئَةُ.

(٣) كَلِفٌ: عَاشِقٌ.

وَكُنْتُ نَزَقًا^(١) حديدَ الطبعِ سريعَ ألبادة^(٢)؛ وَمَنْ فَقَدَ عَالَمَ نَفْسِهِ وَكَانَ فِي مَثَلِ اللَّصِّ الَّذِي ذَكَرْتُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الطَّبَاعَ تَكُونُ هِيَ أَسْلِحَتَهُ يَدْفَعُ بِهَا أَوْ يَعْتَدِي. وما قَطُّ تَمَكَّنَ إِنْسَانٌ مِنْ نَفْسِهِ وَأَحَاطَ بِهَا وَنَفَذَ فِيهَا تَصَرُّفَهُ؛ إِلَّا كَانَ رَاضِيًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذْ يَتَّصِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِجَهْتِهِ أَلْسَامِيَّةٍ لَا غَيْرَهَا، حَتَّى فِي اتِّصَالِهِ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النَّاسِ وَأَعْدَائِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ؛ فَمَا يَرَى هَوْلًا وَلَا هَوْلًا إِلَّا أَمْتَحَانًا لِفَضَائِلِهِ وَإِثْبَاتًا لَهَا. وَقَدْ يَكُونُ عَدُوُّكَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ عَيْنًا لَكَ فِي رُؤْيَا نَفْسِكَ؛ ففِيهِ بَرَكَةُ هَذِهِ الْحَاسَةِ وَنِعْمَتُهَا.

ولو نحن كُثًّا مُسْلِمِينَ إِسْلَامَ نَبِيِّنَا ﷺ، وَإِسْلَامَ الْمُقْتَدِينَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ - لَأَدْرِكُنَا سِرُّ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ؛ وَهُوَ أَنَّ يَقَرَّ الْإِنْسَانُ فِي عَالَمِ نَفْسِهِ وَيَجْعَلَ بَاطِنَهُ كِبَاطِنَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَهِي، لَيْسَ فِيهِ إِلَّا قَانُونُهُ الْوَاحِدُ الْمُسْتَمِرُّ بِهِ إِلَى جِهَةِ الْكَمَالِ، الْمَرْتَفِعُ بِهِ مِنْ أَجْلِ كَمَالِهِ عَنْ دَوَافِعِ غَيْرِهِ؛ فَتَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى نَقْصِ غَيْرِهِ هُوَ أَوَّلُ نَفْسِهِ. وَالْمُؤْمِنُ كَالْغَصْنِ؛ إِنْ أَثْمَرَ فَتِلْكَ ثَمَارُ نَفْسِهِ، وَإِنْ عَطَلَ لَمْ يَشْحَذْ وَلَمْ يَحْشُدْ وَأَسْتَمِرَّ يَعْمَلُ بِقَانُونِهِ.

ولقد نشأتُ فِي مَغْرَسِ^(٣) كَرِيمٍ، عَلَى صُورَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ تُشَبِّهُ صُورَةَ الثَّمَرَةِ الْخُلُوةِ، اجْتَمَعَ لَهَا مِنْ طَبِيعَةِ مَغْرَسِهَا وَمَرْتَبَتِهَا مَا تَتَعَيَّنُ بِهِ مِنْ حِلَاوَةٍ وَنَكْهَةٍ وَمَذَاقٍ؛ فَلَمَّا عَقَلْتُ^(٤) وَعَرَفْتُ النَّاسَ بَعْدَ فَجَارِيَتِهِمْ^(٥) وَخَالَطْتُهُمْ، رَأَيْتُنِي مِنْهُمْ كَالْتَفَاحَةِ لِمَقَاةٍ فِي الْبَصْلِ. وَكَانَتْ أَلْتَفَاحَةُ حَمَقَاءَ فَرَاذَتْ حُمَقًا، وَكَانَتْ جَدِيدَةً فَرَاذَتْ حِدَةً، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْحِكْمَةَ قَدْ مَسَحَتْ فِي الدُّنْيَا وَبَدَلَتْ إِذْ خَلَقَتِ الْبَصْلَةَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَتِ أَلْتَفَاحَةَ؛ وَمَا عَلِمْتُ الْخُرْقَاءَ أَنَّ الْكَمَالَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مَجْمُوعُ نَقَائِصٍ، وَأَنَّ لِلْجَمَالِ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا الَّذِي أَسْمُهُ الْقُبْحُ؛ لَا يُعْرَفُ هَذَا إِلَّا مِنْ هَذَا؛ وَأَنَّ الْبَصْلَةَ لَوْ أَدْرَكْتُ مَا يُرِيدُ النَّاسُ مِنْ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى التَّفَاحَةِ لَسَمَّيْتُ نَفْسَهَا هِيَ التَّفَاحَةَ، وَقَالْتُ عَنْ هَذِهِ إِنَّهَا هِيَ الْبَصْلَةُ!

ولمَّا رَأَيْتُ تَفَاحَتِي أَنَّهَا عَاجِزَةٌ أَنْ تَجْعَلَ الشَّجَرَ كُلَّهُ فِي مِثْلِ مَرْتَبَتِهَا وَمَغْرَسِهَا - قَالَتْ: إِنَّ الْأَمْرَ أَكْبَرَ مِنْ طَبِيعَتِي، وَمَا دَامَ سِرُّ الْكُونِ مُغْلَقًا فَلَا تَعْرِيفَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ

(١) نزقًا: سريع الغضب، طائشًا.

(٢) عقلت: أدركت.

(٣) المغرس: المنبت في بيت وعائلة.

(٤) جاريته: ماشيته وواقته.

(٥) مغرس: منبت في بيت وعائلة.

سِرٌّ مَغْلُوقٌ، وَلَيَنْبَقَ كُلُّ شَيْءٍ فِي طَبِيعَةٍ نَفْسِهِ، فَعَلَى هَذَا يَصْلُحُ كُلُّ شَيْءٍ وَلَوْ فِي نَفْسِهِ وَحْدَهَا.

قال أبو محمد: ولكن بَقِيَتْ وَخْشَةُ الدُّنْيَا وَجَفَوْتُهَا، إِذْ لَمْ أَكُنْ أَهْتَدِيْتُ إِلَى عَالَمِي، وَلَا تَأَكَّدْتُ عَقِيدَتِي بِنَفْسِي؛ فَكَانَ كُلُّ مَا حَوْلِي مُتَجَسِّسًا^(١) فِي رُوحِي بِشِرِّهِ، وَكَانَتْ أَلَدُنْيَا بِهِذَا كَالْمُتَطَابِقَةِ فِي رَأْيِي عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، وَزَادَنِي أَنِّي كُنْتُ رَجُلًا عَزَبًا مُتَعَفِّفًا؛ وَمَا أَشْبَهَ فَرَاغَ الرَّجُولَةِ مِنَ الْمَرْأَةِ بِفَرَاغِ الْعَقْلِ مِنَ الذِّكَاءِ؛ هَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْبَلِيدُ، وَتِلْكَ هِيَ أَلَرَجُولَةُ الْبَلِيدَةِ!

وَالْمَرْأَةُ تُضَاعِفُ مَعْنَى الْحَيَاةِ فِي النَّفْسِ، فَلَا جَرَمَ كَانَ الْخَلَاءُ مِنْهَا مُضَاعَفَةً لِمَعْنَى الْمَوْتِ؛ عَلِمَ هَذَا مَنْ عَلِمَ وَجْهَهُ مِنْ جَهْلٍ، فَكُنْتُ أَعِيشُ مِنَ الْكُوْنِ فِي فَرَاغٍ مَيِّتٍ، وَكُنْتُ أَحْسِرُ فِي كُلِّ مَا حَوْلِي وَخْشَةً عَقْلِيَّةً تُشْعِرُنِي أَنَّ الدُّنْيَا غَيْرُ تَامَةٍ؛ وَكَيْفَ تَتِمُّ فِي عَيْنِي دُنْيَا أَرَاهَا غَيْرَ الدُّنْيَا الَّتِي فِي قَلْبِي؟

وَعَرَفْتُ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَمْضِي عَلَى الرَّجُلِ الْعَزَبِ الْمُتَعَفِّفِ لَا يَمْضِي حَتَّى يُهَيِّئَ فِيهِ مَرَضٌ يَوْمَ آخَرٍ. وَمِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمَرِيضَةِ الْمُتَهَالِكَةِ، تُعَدُّ الْحَيَاةُ أَنْتِقَامَهَا مِنْ هَذَا الْحَيِّ الَّذِي نَقَضَ آيَتَهَا وَأَفْثَتَ عَلَيْهَا^(٢)، وَجَعَلَ نَفْسَهُ كَالْإِلَهِ لَا زَوْجَةَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةً!

وَأَيْمُ اللَّهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْرَحُ بِالرَّجُلِ الزَّانِي وَبِالْمَرْأَةِ الزَّانِيَةِ مَا يَفْرَحُ بِالرَّجُلِ الْعَزَبِ وَبِالْمَرْأَةِ الْغَزَبَاءِ؛ لِأَنَّهُ فِي ذِينِكَ رَذِيلَةٌ فِي أَسْلُوبِهَا، أَمَّا فِي هَذَيْنِ فَالشَّيْطَانُ رَذِيلَةٌ فِي أَسْلُوبِ فَضِيلَةٍ...! هُنَاكَ يَلُمُّ الشَّيْطَانُ وَيَمْضِي، وَهَنَا يَأْتِي الشَّيْطَانُ وَيُقِيمُ!

وَقَدْ عِشْتُ مَا عِشْتُ بِقَلْبٍ مُغْلَقٍ وَعَقْلٍ مُفْتَوِّحٍ؛ وَلَيَنْتَنِي كُنْتُ جَاهِلًا مُغْلِقًا عَقْلَهُ، وَكَانَ قَلْبِي مُفْتَوِّحًا لِأَفْرَاحِ هَذَا الْكُوْنِ الْعَظِيمِ!

وَمَضَتْ أَيَّامِي يَضْرِبُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَيَمْرُضُ بَعْضُهَا بَعْضًا حَتَّى أَنْتَهَتْ مُسْتَهَاها، وَجَاءَ الْيَوْمُ الْمُذْنَقُ^(٣) الْهَالِكُ الَّذِي سَيَمُوتُ.

أَصْبَحْتُ فَقُلْتُ لِنَفْسِي: كَمْ تَعِيشِينَ وَيَحْكُ فِي أَحْكَامِ جَسَدٍ مُخْتَلٍ لَا تَصْدُقُ أَحْكَامَهُ، وَمَا أَنْتِ مَعَهُ فِي طَبِيعَتِكَ وَلَا هُوَ مَعَكَ فِي طَبِيعَتِهِ؛ فَفِيمَ اجْتِمَاعُكُمَا إِلَّا عَلَى بِلَانِي وَنَكَدِي^(٤)؟

(٣) المذنف: المريض مرضاً ثقیلاً.

(٤) نكدي: سوء حظي.

(١) منبجساً: نابتاً.

(٢) افثات عليها: جار عليها في الحكم.

لم تصطلحاً قط على واجب ولا لذة، ولا حلال ولا حرام؛ فأنتما عدوان لا هم لِكليهما إلا إفسادُ المَسْرُةِ التي تُعْرِضُ لِلآخر. وما أدري بِمَنْ يَسْخَرُ الشَّيْطَانُ منكما؟ فالعابدُ الذي يُوسَّسُ باللذاتِ يتمنى اقترافها، كالفاجرِ الذي يواقعها ويقتحمها!

ويحك يا نفس! إنِّي رأيتُ هذه الدنيا الخرقاءَ لم تُقدِّم لي إلا رغيفاً وقالت: إملأ بهذا بطنك وعقلك وعينك وأذنيك ومشاعرك. آه، آه! مُمكنٌ واحدٌ معه أربعُ مستحيلات؛ إنَّ هذا لا يُلَبَّسُ^(١) أن يذهبَ مني بالأربعة التي تُمكنني على الحياة: الأملِ والعقلِ والإيمانِ والصبرِ.

لقد أَسْتَوَى في هذه الكآبةِ صغيرٌ هُمِّي وكبيره، وما أراني إلا قد أشرفتُ على الهلكةِ التي لا باقيةَ لها، فإنَّ وجهي المتكلِّجُ^(٢) المتقبَّضُ يَدُلُّ مني على أعصابٍ مُحْتَضِرَةٍ نَهَكْنَهَا^(٣) أمراضها ووساوسها، وإنَّما وجهُ الإنسانِ في قُطُوبِهِ^(٤) أو تَهْلِيلِهِ هو وجهه ووجهُ دُنياهُ تَعَبٌ أو تَبَسُّمٌ.

وتالله لقد عجزتُ عن كِفاحِ الدنيا بهذه الأعصابِ المريضةِ الواهنة؛ فإنَّ جِبَالَةَ الصَّيْدِ - صَيْدِ الوحشِ - لا تكونُ من خَيْطِ الإبرة...! وأراني أصبحتُ كإنسانٍ حَجَرِيٍّ ليس في طبيعتهِ أَلْتِواءٌ إلى يمينِ الحياةِ ويسارها؛ وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ من صلابتي أَنِّي أَلَسَدٌ، ولكنِّي أَسَدٌ من حَجَرٍ، لا تَفْرِضُ قُوَّتُهُ الْفِرَارَ منه على أحداً

قال أبو محمد: ورأيتُ نفسي في هذا الحوارِ كَأَلَمِيَّةٍ، لا تُجِيبُ ولا تَعْتَرِضُ ولا تُنْكِرُ، وكُنْتُ أَظُنُّهَا تُراوِدُنِي على الحياةِ أو تَرُدُّنِي عن عَوائتي^(٥)؛ فَمَلَانِي سكونُها جَزَعاً، وأيقنتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، وَأَنَّهُ أَخَذَ بِمَنَافِذِهَا، فَأَرَدْتُ الصَّلَاةَ فَثَقُلْتُ عنها ورأيتُني لا أَصْلَحُ لها، بل خُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي إِذَا قُمْتُ إلى الصَّلَاةِ فإِنَّمَا قُمْتُ لِأَتَهَيَّأَ بِالصَّلَاةِ!

وجعلَ الشَّيْطَانُ يأخذُنِي عن عقلي ويردُّنِي إليه، ثُمَّ يأخذُنِي ويردُّنِي، حتَّى تَوَهَّمْتُ أَنِّي جُنَيْتٌ، وكأَنَّمَا كَانَ يُرِيدُ اللَّعِينُ بَقِيَّةَ إيماني يُجاذِبُنِي فيها وأُجاذِبُهُ، فلم أَلْبَثُ أَن مَسَّنِي خيالٌ وأَلْقَيْتُ هذه البَقِيَّةَ في يديه!

(١) لا يلبسني: لا ييقيني.

(٢) المتكلِّج: المتعب، المصفر.

(٣) نهكتها: أتعبتها.

(٤) قُطُوبُهُ: عبوسه.

(٥) عَوائتي: ضلالي.

ثُمَّ أَقَفْتُ إِفَاقَةً سَرِيعَةً، فَرَأَيْتُ (المصحفَ) يَرُقُبُنِي قَرِيباً، فَعُدْتُ بِهِ^(١) وَعَظَفْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: إِمْنَعِ الْضَرْبَةَ عَنْ قَلْبِي. بَيَّدَ أَنِّي أَحْسَسْتُ أَنَّهُ خَصَمِي فِي مَوْقِفِي لَا ظَهِيرِي؛ كَأَنِّي جَعَلْتُهُ مَصْحَفًا عِنْدَ زَنْدِيقٍ، فَكَانَ كُلُّ إِيْمَانِي الَّذِي بَقِيَ لِي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنِّي ضَعَفْتُ عَنْ حَمَلِ الْمَصْحَفِ كَمَا ثَقُلْتُ عَنِ الصَّلَاةِ، فَبَقِيَ أَطَاهَرُ طَاهِرًا وَأَلْتَجِسُ نَجَسًا.

وَلَمْ تَكُنْ نَفْسِي فِي وَلَا كُنْتُ فِيهَا؛ فَرَأَيْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ لَا أُدْرِي مَا هُوَ، غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعْقُولًا مِنْ تَخَالِيطِ مَجْنُونٍ تَرَكَهُ عَقْلُهُ مِنْ سَاعَةٍ: بِقَايَا شُعُورٍ ضَعِيفٍ، وَبَقَايَا فَهْمٍ مَرِيضٍ، تَتَصَاغَرُ فِيهِمَا الدُّنْيَا، وَتَحَاقَرُ بِهِمَا الْعَقْلُ. فَلَمَّا أَنْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا لَمْ أَعْقِلْ مَا عَمَلْتُ، وَكَانَتْ أَلْمُوسَى قَدْ أَصَابَتْ مِنْ يَدِي عِزْقًا نَاشِرًا^(٢) مُتَثَبِّرًا، فَفَارَ الدَّمُ وَأَنْفَجَرَ مِنْهُ مِثْلُ الْيَنْبُوعِ ضَرِبَ عَنْهُ الصَّخْرُ فَأَنْشَقَ فَأَنْبَقَ.

وَتَحَقَّقْتُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ الْمَوْتُ فَفَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ

قَالَ الْمَسِيبُ رَاوِي الْقِصَّةِ: وَتَجَهَّمُ وَجْهَ الرَّجُلِ فَأَطْرَقَ وَسَكَتَ، وَكَانَ عَلَى وَجْهِهِ شَفَقٌ مُخَمَّرٌ فَأَظْلَمَ بَعَثَةً عِنْدَ مَا قَالَ: «فَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ».

وَأَرْتَجُّ الْمَسْجِدَ بَصِيحَةً وَاحِدَةً: فَرَأَيْتُ مَاذَا؟ رَأَيْتُ مَاذَا؟

وَبَعَثَتِ الصَّبِيحَةُ أَبَا مُحَمَّدٍ فَقَالَ: رَأَيْتُ ثَلَاثَةً وَجُوهَ أَشْرَفَتْ مِنَ الْمَصْحَفِ تَنْظُرُ إِلَيَّ كَالْعَاتِبَةِ، وَكَانَ أَوْسَطُهَا كَالْقَمَرِ الطَّالِعِ، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ الْجَنَّةِ كُلُّهَا وَجْهًا لَكَانَتْهُ فِي نُضْرَتِهِ وَبِشَاشَتِهِ. وَغَمَّغَمَتِ^(٣) أَلْوَجُوهُ الثَّلَاثَةُ بِكَلِمَاتٍ لَمْ أَسْمَعْ مِنْهَا شَيْئًا، وَلَكِنْ نَظَرَهَا إِلَيَّ كَأَن يُوْذِي لِي مَعَانِيَهَا، وَكَأَنَّهُا تَقُولُ: «أَكْذَلِكِ الْمُؤْمِنُ . . . ؟».

ثُمَّ غَابَتْ وَتَخَلَّتْ عَنِّي وَبَرَزَتْ ثَلَاثَةٌ وَجُوهَ أُخْرَى، كَأَنَّهَا نَقَائِضُ تِلْكَ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَوْسَطِهَا، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ الْجَحِيمِ كُلُّهَا وَجْهًا لَكَانَتْهُ فِي نُكْرِهِ وَهَوْلِهِ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ الْوَجْهَ الْأَصْغَرَ مِنْهَا وَجْهَ سُورَةٍ مِنْ سُورَةِ الْمَصْحَفِ، فَفَكَّرْتُ، فَوَقَعَ لِي مِمَّا قَامَ فِي نَفْسِي مِنَ اللَّعْنَةِ أَنَّهَا: ﴿تَبَّتْ يَدَايَ لِهَهِ وَتَبَّ﴾ . . .

(١) عدت به: لجأت إليه.

(٢) ناشراً: نافراً.

(٣) غمغمت الوجوه بانت عن دعر وخوف.

وَطَمَسَ^(١) الظلام هذه الرؤيا وتَعَيَّمَتِ الدنيا، فأيقنْتُ أَنَّ أَنامي قد أَقْبَلْتُ علي ظُلْمَةٌ بعدَ ظُلْمَةٍ، وألتمَعُ شيءٌ أحمر، فنظَرْتُ فإذا الدَّمُ يتخالَّلُ في عيني كأنه شُعْلٌ تتلَوَّى، فجزِعتُ أشدَّ الجزع، وحسبْتُها طرائقُ ممتدَّةٍ لِرُوحِي تذهبُ بها إلى الجحيم . وماتتُ كُلَّ خواطري بعدَ ذلك إِلَّا فكرةً واحدةً بَقِيَتْ حيَّةً تأكلُ في قلبي أَكلَ النار، وهي: «كَيْفَ تَجْرَأُثُ فَوْضَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ حُفْمِي؟» .

ويقولون: إِنَّ أَخْتِي قد رَأَيْتُنِي أَتَشَحَّطُ^(٢) في دمي فصاحت، وجاءَ الناسُ على صَوْنِها، وكانَ فيهم طبيب، فبعدَ لَأيِّ ما، أَستطاعَ حَبَسَ الدَّم، وأَحْتالَ حِيلَتُهُ حتَّى أَسَفُ^(٣) الجُرحِ دواءً وَضَمَدَهُ؛ فجعلْتُ أَثوبُ نَفْساً بعدَ نَفْسٍ، وراجعتُ قليلاً قليلاً . . . ثم طافَتِ الحَياءُ على عيني ففتَحْتُها، فإذا الأشياءُ تبدو لي وليسَ فيها حقائق ولا معانٍ، كأنها تَتَخَلَّقُ^(٤) جديدةً تحتَ بصري، وكأنَّها خارجةٌ لِإِسعائِها من يدِ اللَّهِ! وماتلُثُ شيئاً بعدَ ساعات، فأحسستُ أَنَّ نَفْسي قد رجعتُ إليَّ ساخرةً مِنِّي تقول: كَيْفَ رَأَيْتُ عَمَلَ الْعَقْلِ أَيُّها العاقلُ؟

وبدأتِ الحَياءُ تتجددُ، فاقسَمْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسي أَنَّ أَجَدَّدَ إيماني بِاللَّهِ . ولم أَكْذُ أَفْعَلُ حتَّى أحسستُ أَنَّ قُوَّةَ الوجودِ كُلِّها مستقرَّةٌ في رُوحِي، وَحُيِّلَ إليَّ أَنِّي أَنَا وَحْدِي الْقَوِيُّ على هذه الأرضِ قُوَّةً جِبَالِها وصخورِها، على حينَ كانَ جِسمي ممدداً كالْمَيْتِ لا يَتَماسَكُ مِنَ الضَّعْفِ!

فايقنْتُ حينئذٍ ما أَعْرِفُهُ قَطُّ مِنَ الدُّنيا ولم أَشْعُرْ به قَطُّ في الحَياءِ ولم يَأْتِنِي بِهِ عِلْمٌ ولا فَكْرٌ: أَيْقَنْتُ أَنَّها مُعْجَزَةُ الإِيمانِ الجَدِيدِ الغَضِّ^(٥)، الْمُتَّصِلِ بِاللَّهِ لِتَوْهِ كِإِيمانِ الأنبياءِ دونَ أَنَّ تَلْمَسُهُ شُهرةٌ، أو تَعْتَرِضُهُ خاطرةٌ، أو تُكْذِرُهُ ذَرَّةٌ واحدةٌ من فَكْرِ أَرْضِي دَنِسٍ .

قال المَسِيبُ: ثُمَّ جَلَسَ المُتَحَدِّثُ، وكانَ الناسُ في آخِرِ كَلامِهِ كأنَّما غادروا الدُّنيا ساعَةً، ورجعوا إليها على مِثْلِ حالِهِ ومِثْلِ إيمانِهِ؛ فَسَكَتَ الإِمامُ ولم يَتَكَلَّمْ، لِيَدْعَ كُلُّ نَفْسٍ نَكلِمَ صاحِبِها .

(١) طمس: غطى .

(٢) أتشخط: أتخطب .

(٤) تتخلن: تبدو على هيئة جديدة .

(٥) الغض: الطرية .

(٣) أسف: أسعف الجرح بوضع الدواء فيه لينقطع .

الانتحار

٥

قال المسيّب بن رافع: وأطرق الناس قليلاً بعدَ خَبَر (أبي محمد البُضري)؛ إذ كانَ كلُّ منهم قد جَمَعَ باله لِمَا سَمِعَ، وأخذَ يَحْدِسُ^(١)، في نَفْسِهِ ويُرَاجِعُهَا أَلرَأْيَ، وكانَ المجلسُ قد أَمْتَدَّ بنا منذَ العَصْرِ وما يكادُ النهارُ يُشْعِرُنَا بِإِدْبَارِهِ، حتّى أَعْتَرَضَتْ في شَمْسِهِ الغُبرَةُ التي تُعْتَرِيهَا إذا ذَنَتْ أَنْ تَغْرُبَ. وكانَ إلى يساري فتى زَيَّانَ الشَّبابِ، حَسَنُ الصُّورَةِ، وَضِيءُ مُشْرِقٍ، لَهُ هَيْئَةٌ وَسَمْتٌ، أَقْبَلَ عَلَيَّ الْأَيَّامَ، وَأَقْبَلَتِ الْأَيَّامُ عَلَيْهِ.

فسمعتني أطرُنُ على أذُنِ (مجاهدِ الأزدي)؛ وكنتُ أعرِفُه شاعراً في كلامِهِ وشاعراً في قلبِهِ؛ فقلْتُ لَهُ: إِنَّهُ لم يَبْقَ مِنَ النِّهارِ يا مجاهدُ إلَّا مِثْلُ صَبْرِ الْمُحِبِّ دَنَا لَهُ الْموْعِدُ؛ ولم يَبْقَ مِنَ الشَّمْسِ إلَّا مِثْلُ مَا تَتَلَقَّفُ صَاحِبَتُهُ، تَأْخُذُ عَلَيْهَا ثَوْبَهَا وَغَلَاثِلَهَا، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تُسْقِطَهَا مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا، لِيَتَرَى جَمَالَ جَسَمِهَا هُنَا وَهُنَا!

فَاهْتَزُّ أَلْفَتِي لِهَذِهِ أَلْكَلِمَاتِ، وَسَالَتِ أَلرَّقَةُ فِي أَعْطَافِهِ، وَقَالَ: يا عَمَّ، أَمَا تَرَى مَا بَقِيَ مِنَ النِّهارِ كَأَنَّهُ وَجْهُ بَالِكٍ مَسَحَ دُمُوعُهُ وَلَيْسَ حَوْلَهُ إِلَّا كَأَبَةُ أَلزَّمَنِ...؟

قلْتُ: كَأَنَّ لَكَ خَبيراً يا فتى، فَإِنْ كَانَ شَأْنُكَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ فَقُصِّهِ عَلَيْنَا وَعَلَّلْنَا بِهِ سَائِرَ أَلْوَقْتٍ إِلَى أَنْ تَجِبَ الشَّمْسَ، وَلَعَلَّكَ طَائِرٌ بَنَّا طَيْرَةً فَوْقَ الدُّنْيَا.

قال: قَمَّةُ^(٢)؟

قلت: تَقُومُ فَتَتَكَلَّمُ، فَإِنِّي أَرَى لَكَ لِسَاناً وَبَيَاناً.

قال: أَوْ يَخْسُنُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ عَنْ صَرَعَةِ الْحُبِّ وَصَرِيحِهِ، وَعَاشِقَةٍ وَعَاشِقٍ؟

(١) يحدس: يفكر ويقلب فكرة على فكرة. (٢) مة: اسم فعل أمر بمعنى أسكت.

فبادرَ مجاهدٌ فقال: ويحك يا فتى! لقد تَحَجَّرْتَ واسعاً؛ إِنَّ الْمُؤْمَنَ لَيُصَلِّي بين يدي اللَّهِ وكتابُ سيئاتِهِ في عَنَقِهِ منشورٌ مقروء. وهل أوقاتُ الصَّلَاةِ إِلَّا ساعاتُ قَلْبِيَّةٍ لِكُلِّ يومٍ مِنَ الزَّمنِ، تأتي السَّاعَةُ مِمَّا قَبْلُهَا كما تأتي توبَةُ القَلْبِ مِمَّا عَمِلَ الجِسمُ؟ إِنَّمَا يَتَلَقَّى المَسْجِدُ مَنْ يَدْخُلُهُ لِسَاعَتِهِ التي يَدْخُلُهُ فِيهَا، ولو أَنَّهُ حَاسِبُهُ عن أَمْسٍ وَأَوَّلٍ مِنْهُ وما خَلَا مِنْ قَبْلِ، لَطَرَدَهُ مِنَ العَبَةِ! إِنَّ المَسْجِدَ يا بُنَيَّ إِنَّمَا يَقُولُ لِداخِلِهِ: أَدْخُلْ في زَمَنِي ودَعْ زَمَنَكَ، وتعالَ إِلَيَّ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْأَرْضِي، لِتَتَحَقَّقَ أَنَّ فِيكَ حَاسَةً مِنَ السَّمَاءِ، وَجِئْتَنِي بِقَلْبِكَ وفِكْرِكَ، لِيَشْعُرَا سَاعَةً أَنَّهُمَا فِيَّ لا فِيكَ. ولَسْنَا الآنَ يا بُنَيَّ في مُتَحَدِّثٍ كَنَدِي القومِ يتطارحون فيه أخبارَهُمْ، بَلْ نَحْنُ في مَجْلِسِ عَالَمٍ تَكَلَّمْتُ فِيهِ رَقَبَةً هَذَا ورَقَبَةً هَذَا بِمَا سَمِعْتُ؛ فَقُمْ أَنْتَ فَأَذْكَرَ عِلْمَ قَلْبِكَ وقُصَّ عَلَيْنَا خَبَرُ طَيْشِ الحُبِّ والشَّبابِ الَّذِي يُشَبِّهُ الكَلَامَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ كَلَاماً عَنِ الصَّعُودِ إِلَى القَمَرِ والقَبْضِ مِنْ هُنَاكَ عَلَى البَرَقِ!

* * *

قال المَسِيَّبُ: فَاتَهَضَّ الفتى، ورَأَيْتُ مجاهدًا يَتَهَدَّى كَأَنَّمَا أَنْصَدَعْتُ^(١) كِبْدُهُ: فَقُلْتُ: ما بِأَلْكَ؟ قال: إِنَّ شَبَابِي قد مَرَّ عَلَيَّ السَّاعَةُ فَتَسَمْتُ مِنْهُ فِي بُرْدَةٍ^(٢) هَذَا الفتى، ثُمَّ فَقَدْتُهُ فَقَدًا ثَانِيًا فَهَرَمْتُ هَرَمًا ثَانِيًا، وَجَاءَنِي الْحُزْنُ مِنْ إِحْسَاسِي بِأَنِّي شَيْخٌ، حُزْنٌ مَنْ هَمَّ أَنْ يَدْخُلَ بَابَ حَبِيبٍ ثُمَّ رُدَّ...!

وتحدَّثَ أَلْفَتِي، فَإِذَا هُوَ يَدِيرُ بَيْنَ فُكَيْهِ لِسَانَ شَاعِرٍ عَظِيمٍ، يَتَكَلَّمُ كَلَامَهُ بِنَفْسَيْنِ: إِحْدَاهُمَا بَشَرِيَّةً تَصْنَعُ الِمعْنَى واللفظ، والأُخْرَى عُلوِيَّةً تُلْقِي فِيهَا النِّارَ والنُّورَ.

قال: إِنَّ لِي قِصَّةَ أَيُّهَا الشَّيْخُ، لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الكَلَامُ الَّذِي دُفِنَتْ فِيهِ مَعَانِيهَا؛ وَقَدْ تَأْتِي الْقِصَّةُ مِنْ أَخْبَارِ القَلْبِ مُفَعَّمَةً بِالآلَامِ والأَحْزَانِ، لا يُرَادُ بِآلَامِهَا وَأَحْزَانِهَا إِلَّا إِيجَادُ أخْلَاقٍ لِلْقَلْبِ يَعِيشُ بِهَا وَيَتَبَدَّلُ. وَالَّذِي قُدِّرَ عَلَيْهِ الحُبُّ لا يَكُونُ قد أَحَبَّ غَيْرَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَكُونُ قد تَعَلَّمَ كَيْفَ يَنْسَى نَفْسَهُ في غَيْرِهِ، وَهَذِهِ كَمَا هِيَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الحُبِّ؛ فَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الإِحْسَانِ.

ومَتَى صَدَقَ المَرءُ في حُبِّهِ كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِكْرَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا فِكْرَةٌ، والأُخْرَى عَقِيدَةٌ تَجْعَلُ هَذِهِ الفِكْرَةَ ثَابِتَةً لا تَتَغَيَّرُ؛ وَهَذِهِ كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الحُبِّ فَهِيَ طَبِيعَةُ الْدِّينِ.

(٢) بُرْدَةٌ: ثوب.

(١) انصدعت: تحطمت، تكسرت.

ولا شيء في الدنيا غيرُ الحُبِّ يستطيعُ أنْ يَنْقُلَ إلى الدنيا ناراً صغيرةً وجنةً صغيرةً، بقدرِ ما يكفي عذابَ نفسٍ واحدةٍ أو نعيمها! وهذه حالةٌ فوقَ البشرية.

والفضائلُ عَامَّتُها تعملُ في نقلِ الإنسانِ من حيوانِيَّتهِ، وقد لا تَنْقُلُ إلا أقلَّهُ ويبقى في الحيوانِيَّةِ أكثرُهُ: ولكنَّ الحُبَّ الصادقَ يقتلُ الإنسانَ من حيوانِيَّتهِ بمرَّةٍ واحدة، يَنْدُ أنَّه لا يكونُ كذلك إلا إذا قَتَلَهُ بِأَلَمِهِ؛ فهو كأعلى النسلِكِ والعبادة.

كَانَ خَبِيرِي أَنِّي دُعِيتُ يوماً إلى ما يُدعى لِمِثْلِهِ الشَّبَابُ في مجلسٍ غِناءٍ وشراب. يا لَهُ من مجلس! وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، والبعوضةُ في قصتي أنا كاتِبُ امرأةٍ نصرانيَّةٍ. . . قِيِنَّةُ^(١) فلانِ المغنيَّةِ الحاذقةُ الْمُخِسِنَةُ المتأدِّبةُ، تحفَظُ الخبرَ وتروي الشعرَ، وتكلمُ بألفاظٍ فيها حلاوةٌ وجهيها، وتخلُقُ الثَّكَّةَ إذا شاءتْ خَلَقَ الزهرةَ المتفتِّحةَ عليها، سَقِطُ الندى؛ وتجدُّ بالحديثِ ما شاءتْ وتَهْزُلُ، فتجعلُ للكلامِ عقلاً وشهوةً تُضَاعِفُ بهما مَنْ تحدِّثُهُ في شهورِهِ وعقلِهِ!

وستجري في قصتها ألفاظُ القصةِ نفسها، لا أتأثَّمُ من ذلك ولا أتذمُّ؛ فقد ذَكَرَ اللَّهُ الخمرَ بلفظِ الخمرِ ولم يَقُلْ: «الماءُ الذي فيه السُّكَّرُ»، ووَصَفَ الشيطانَ ولم يقل: «الملكُ الذي عَمِلَ عَمَلُ المرأةِ الْحَسَناءِ في تكبُّرها»، وذَكَرَ الأصنامَ بأنَّها الأصنامُ، ولم يُسمِّها: «حاملةُ السماءِ التي يصنعها الإنسانُ بيديه» وحكايةٌ ما بينَ الرجلِ والمرأةِ هي كلامٌ يَقْبَلُ بعضُهُ بعضاً ويلتزمُ ويتعاقبُ!

قالَ المَسِيبُ: فَبَسَمَ إِمَامُنَا ونظَرَتْ عيناهُ تَسْأَلانِ سِوَالاً. أنا مجاهدُ الأزديِّ فكانَ من هزَّةِ الطَّرَبِ كأنَّهُ على قَتَبٍ بَعِيرٍ، وقال: لِلَّهِ دَرُهُ فَتَى، إِنَّ هَذَا لَبَيَانٌ كَحِيلِ أَلْعَيْنِ . . .

ثمَّ قالَ الفتى: وذهبتُ إلى المجلسِ وقد جعلتُهُ هذه المغنيَّةُ من حواشيهِ وأطرافِهِ كأنَّهُ تَفْسِيرٌ لَهَا هي. أنا هي فجعلتُ نفسها تَفْسِيراً لِكَلِمَةٍ واحدةٍ هي: «اللَّذَّةُ . . .»

قالَ المَسِيبُ: وطربَ مجاهدٌ طَرَباً شديداً، وسمعتُهُ يُخافِتُ بصوتهِ يقول: «لِلَّهِ دَرُها امرأةٌ؛ هذه، هذه عَدُوَّةُ الْخَوَرِ الْعَيْنِ!».

ثمَّ قالَ أَلْفَتَى: وَتَطَرَّبَ جماعةُ أَهْلِ الْمَجْلِسِ إلى الشَّربِ، وما ذُقْتُ خمرأ

(١) قينة: أمة، بفتح الميم.

قط، ولن أذوقها ولو شربها الناس جميعاً، ولن أذوقها ولو أنقطع ألغيث ولم تمطر
 السماء إلا خمرًا؛ فلأني مذكنت يافعاً رأيت أبي يشربها، وكانت أُمِّي تلومهُ فيها
 وتشتدُّ في تعنيفهِ وتحتدِّم^(١)، وكانا يتشاحنان^(٢) فينالها بالآذَى وَيَنْدِرِي^(٣) عليها
 بالسبِّ وفُخْشِ القول. وسَكِرَ مرةً وغلبهُ السكرُ حتى ثارت أحشاؤهُ، قَذَرَعَهُ^(٤)
 القيءُ فتوهَّمَنِي وعاء، وجاء إليَّ وأنا جالسٌ فأمسك بي وقاءً في ججري، حتى
 أفرغ جوفهُ؛ وثارت أُمِّي لِتَنْتَرِعَهُ وأنشأت تُعالجُهُ عني فتصارَعَ جنونُهُ وعقلُها حتى
 كَفَأَتْهُ^(٥) على وجههِ كالإناء؛ فالتوى كالحية بطناً لظهِرٍ، وأستجمع كالقنفذ في
 شوكة، ثم لكَرَّها برجلِهِ أسفلَ بطنِها فأنقلبَت، وأصابَ رأسُها إِجَانَةً^(٦) العجينِ
 فتَلَمَّ^(٧) تَلِيمَ الإناءِ كأنما شُدِخَ^(٨) ضرباً بحجرٍ، وأنتَرَ دماغُها على الأرض أمامَ
 عيني، ورأيتها لم تزد على أن دَفَعَتْ بإحدى يديها في ألْهواء، وضمت بالأخرى
 إلى صدرِها، تنوَّهَ أنها تحميني وتدفعهُ عني؛ ثُمَّ سَكَنْتُ، ولو لم تمت مِنَ الشَّجَةِ
 في رأسِها لَمَاتَتْ مِنَ الضَّرْبَةِ في بطنِها!

قال المسيب: وأطرق الفتى هُنيئةً وأطرقَ الناسُ معهُ؛ فرفعَ مُجاهدٌ صوتهُ
 وقال: رَجَمَهَا اللَّهُ! فقالَ الناسُ جميعاً: رَجَمَهَا اللَّهُ.

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى: وَكَانَ عَامَّةً مَنْ فِي الْمَجْلِسِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ مِنِّي، وَيَعْرِفُونَ أَنَّهُ
 لَوْ سَاعَ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَشْرَبَ دَمَ أُمِّهِ مَا شَرِبْتُ أَنَا الْخَمْرَ، فَقَالُوا لِلْمَغْنِيَةِ: إِنَّ هَذَا لَا
 يَدْخُلُ فِي دِيوَانِنَا^(٩) فنظرتُ إليَّ، وهربتُ أنا من نظرتِها بإطراق؛ ثُمَّ قَالَتْ: تَشْرَبُ
 عَلَى وَجْهِ؟ فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ وَجْهَكَ يَقُولُ لِي: لَا تَشْرَبُ... فتضاحكتُ وَقَالَتْ:
 أَهوَ يَقُولُ لَكَ غَيْرَ مَا يَقُولُ لِهَؤُلَاءِ؟ فَهَرَبْتُ مِنْ كَلَامِهَا بِإِطْرَاقٍ أُخْرَى، وَوَصَلَتْ
 الْإِطْرَاقَتَانِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ قَلْبِي؛ وَتَبَّعَتْ فِيهَا مِثْلُ حُنُوِّ الْأُمِّ عَلَى طِفْلِهَا إِذَا أَذْنَتْهُ بِلِسَانِهَا
 فَأَطْرَقَ سَاكِتاً يَشْكُوها إِلَى قَلْبِهَا!

وَأَلْتَفَتْتُ لِمَنْ حَضَرَ وَقَالَتْ لَهُمْ: لَسْتُ أَطِيبُ لَكُمْ وَلَا تَنْتَفِعُونَ بِي إِلَّا أَنْ

(١) تحتدِّم: تشتد.

(٢) يتشاحنان: يتشاجران.

(٣) تندرِي: تشق.

(٤) ذرعه: فاجأه.

(٥) شُدِخَ: ضرب رأسه.

(٦) إِجَانَة: آنية يعجن فيها العجين.

(٧) تَلَمَّ: تعبّر قديم العهد، يريدون به الشرب كأنه

ديوان ملك.

(٨) كَفَأَ الْإِنَاءَ: قلبه.

تَشْرَبُوا لِي وَلَهُ وَلَا نَفْسَكُمْ، وَأَنْحَظْ عَلَيْهِمُ السَّاقِي، فَشَرَبُوا أَرْطَالاً وَأَرْطَالاً، وَهِيَ بَيْنَ ذَلِكَ تُغْنِيهِمْ وَقَدْ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِمْ وَخَلَا وَجْهَهَا لَهُمْ مِنْ دُونِي وَإِنَّمَا تُخَالِسُنِي^(١) الْبُظْرَةَ بَعْدَ الْبُظْرَةِ.

فَوْسُوسَ لِي شَيْطَانِي أَنْ تَشْدُدَ مَعَ هَذِهِ بِمَثَلِ عَزَمَتِكَ مَعَ الْخَمْرِ فَإِنَّمَا هُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ. وَلَكِنِّي كُنْتُ أَجِدُ الْبُظْرَةَ^(٢) إِلَيْهَا، فَمَرَّةً أَوَامِقُهَا نَظْرَةُ الْمُحِبِّ لِلْحَبِيبِ، وَمَرَّةً أَغْضِي عَنْهَا بِنَظْرَةٍ لَا تَنْظُرُ؛ وَكَأَنِّي بِذَلِكَ كُنْتُ آخِذُهَا وَأَدْعُهَا، وَأَصِلُهَا وَأَهْجُرُهَا. فَقَالَتْ لِي كَالْمُنْكَرَةِ عَلَيَّ: مَا بِأَلْكَ تَنْظُرُ إِلَيَّ هَكَذَا؟ وَلَكِنْ هَيْئَةً وَجْهَهَا جَعَلْتِ الْمَعْنَى: لَا تَنْظُرِي إِلَيَّ إِلَّا هَكَذَا...!

وَأَسْرَعَ الشَّرَابُ فِي الْقَوْمِ وَأَفْرَطَ عَلَيْهِمُ السُّكْرُ؛ فَبَقِيَتْ لِي وَحْدِي وَبَقِيَتْ لَهَا وَحْدَهَا؛ ثُمَّ تَنَاوَلَتْ عَوْدَهَا وَضَمَّتْهُ إِلَيْهَا ضَمًّا شَدِيداً أَكْثَرَ مِنَ الضَّمِّ... وَالْمُسْتَهْ صَدْرُهَا وَنَهْدُهَا، ثُمَّ رَنَتْ إِلَيَّ بِمَعْنَى، فَمَا شَكَّكَتُ أَنَّهَا ضَمَّتْ لِي أَنَا وَالْعُودُ؛ ثُمَّ غَنَّتْ هَذَا الصَّوْتُ:

أَلَا قَاتِلَ اللَّئِ الْهَمَامَةَ غُدُوَةً عَلَى الْغَصَنِ؛ مَاذَا هَيَّجَتْ حِينَ غَنَّتِ؟
فَمَا سَكَتَتْ حَتَّى أَوْنَيْتَ لِصَوْتِهَا وَقُلْتُ: تُرَى هَذِي الْهَمَامَةُ جُنَّتِ؟

وَمَا وَجَدُ أَعْرَابِيَّةً قَذَفَتْ بِهَا صُرُوفُ الْنَوَى^(٣) مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكْ ظَنَّتْ..
إِذَا ذَكَرْتَ مَاءَ أَلْعِضَاءِ^(٤) وَطَيْبِهِ وَبَرَزَ الْجَمَى مِنْ بَطْنِ جَنْبِ^(٥)، أَرُنْتُ^(٦)
بِأَكْثَرِ مَنِي لَوْعَةٍ، غَيْرَ أَنَّنِي أَجْمَعُ أَحْشَائِي عَلَى مَا أَجُنْتُ^(٧)!
وَعَنَّتْهُ غِنَاءٌ مِنْ قَلْبِ يَشْنُ، وَصَدْرُ يَنْتَهَدُ، وَأَحْشَاءُ لَا تُخْفِي مَا أَجُنْتُ^(٨)؛
وَكَأَنَّهُ تَرْتَفِعُ بِالصَّوْتِ ثُمَّ كَأَنَّمَا يَهْمِي^(٩) أَلْدَمُعُ عَلَى صَوْتِهَا، فَيَرْتَعِشُ وَيَتَزَلُّ قَلِيلاً
قَلِيلاً حَتَّى يَشْنَ أُنَيْنَ أَلْبَاكِيةٍ، ثُمَّ يَمْتَلِجُ^(١٠) فِي صَدْرِهَا مَعَ الْحُبِّ، فَيَتَرَدَّدُ عَالِياً
وَنَازِلاً، ثُمَّ يَرْفُضُ أَلْكَلَامُ فِي آخِرِهِ دُمُوعاً تَجْرِي.

-
- (١) تخالسنِي: تسارقتني.
(٢) أخذُ النظر: أَمَعَنُ النظر.
(٣) صُرُوف: مصائب. النوى: البعد.
(٤) أَلْعِضَاءُ: ضرب من الشجر، ذو أشواك.
(٥) جَنْبُ: اسم مكان.
(٦) أَرُنْتُ، نشطت.
(٧) أَجْمَعُ: أخفي شيئاً في صدري.
(٨) أَجُنْتُ: من أجن الثوب إذا دَقَّ.
(٩) يَهْمِي: ينهمر.
(١٠) يَمْتَلِجُ: يختلج.

قال المسيب: فنظر إليّ مُجاهدٌ وقال: عدوةُ الجئةِ - واللّه - هذه يا أبا محمد، لا تقبلُ الجئةَ مَنْ يكونُ معها. تقولُ له: كنتُ معَ عدوتي!

ثم قال الفتى: وكان القومُ قد انتشروا، فاعتراهم نصفُ النومِ وبقي نصفُ اليقظةِ في حواسهم، فكلُّ ما رأوه مثلاً كأحلام لا وجودَ لها إلا خلفَ أجفانهم المُثقلةِ سُكراً ونُعاساً. ووثبتَ أَلْمَغْنِيَةُ فجاءت إلى جانبي وألتصقت بي، وأسرعَ الشيطانُ فوسوسَ لي: أن أحذرَ فإنك رجلٌ صدق، وإذا صدقتُ في الخمرِ فلا تكذبُ في هذه، ولئن مسستها إنها لضياعك أجزرُ الدهر!

فعجبتُ أشدَّ العجبِ أن يكونَ شيطاني أسلمَ وأعنتُ عليه كما أعينَ الأنبياءُ على شياطينهم. ولكنَّ اللعينَ مضى يضدني عن المرأةِ دونَ معانيها، وكان مني كالذي يُدني الماءَ من عيني أَلْقَتِلِ أَلْمَتْلَهَبِ جَوْفَهُ ثم يجعلُهُ دائماً قَوْتِ فيه، ولقد كنتُ مِنَ الفُحُولَةِ بحيثُ يبدو لي من شدةِ القُورَةِ في دمي وشبابي أنني أجمعُ في جسمي رجالاً عِدَّةً، ولكنَّ ضَرْبَنِي الشيطانُ بالخجلِ فلم أستطعُ أن أكونَ رجلاً معَ هذه المرأةِ.

وعجبتُ هي لذلك وما أسرعَ ما نطقَ الشيطانُ على لسانها بالموعظةِ الحسنَةِ...! فقالتُ أحببتُك ما لم أحبَّ أحداً، وأحببتُ خجلَك أكثرَ منك، فما يسرُّني أن تأثمَ في فتدخُلَ النارَ بحُبي، ولو أنك ابتعتني من مولاي؟ فقلتُ: بكم اشتراك؟ قالت: بألفِ دينار! قلتُ: وأين هي مني وأنا لو بغتُ نفسي ما حصلتُ لي؟

فتممَ الشيطانُ موعظته، وقالتُ وأشارَت إلى قلبها: إنَّ قلبي هذا قبلك غنياً كنتُ أو فقيراً، وأحسُّ بك وخدك حُبَّ العذراءِ أوَّلَ ما تُحبُّ، وأنا - كما تراني - أعيشُ في الميثاقِ كالمُكرَهَةِ عليها، فسأعملُ على أن تكونَ أنتُ حَسَنَتِي عندَ الله، أذهبُ إليه حامِلةً في قلبي حُبِّي إياك وعِفتي عنك، ولئن كانت عِفةٌ مَنْ لا يشتهي ولا يجدُ تُعدُّ فضيلةً كاملةً، إن عِفةً مَنْ يجدُ ويشتهي لتُعدُّ ديناً بحاله. ولا يزالُ حُبِّي بَكَراً، ولا أزالُ في ذلك عذراءَ القلبِ، وهؤلاء قد نزعوا أَلْحياءَ عني من أجلِ أنفُسِهِم، فألْبَسْنِيهِ أنتُ من أجلكِ خاصَّةً؛ وإنَّ قوَّةَ حُبِّي كالذي سيتألمُ بك ويتعذبُ منك ليطولَ ما يصبرُ عنك، ستكونُ هي بعينها قوَّةُ لِفْضيلتي وطهارتي.

ثُمَّ تناولت عودَهَا وَسَوْتَهُ وَغَنَّتْ:

فلو أَنَا عَلَى حَجَرٍ دُبَحْنَا جَرَى الدَّمِيَانِ بالخَبَرِ الْبَقِيصِ^(١)
وجعلتْ تَأَوُّهُ فِي غِنَائِهَا كَأَنَّهَا تُذْبَحُ ذَبْحًا، ثُمَّ وَضَعَتْ الْعُودَ جَانِبًا وَقَالَتْ: مَا
أَشْقَانِي! إِذَا أَتَفَقَّتْ لِي سَاعَةٌ زَوَاجِي فِي غَيْرِ وَقْتِهَا فَجَاءَتْ كَالْحُلُمِ يَأْتِي بِخِيَالِ
الزَّمَنِ فَلَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا خِيَالُ الْأَشْيَاءِ.

ثُمَّ سَأَلَتْنِي: مَا بِأَلْكَ لَمْ تَشْرَبِ الْخَمْرَ وَلَمْ تَدْخُلِ فِي الدِّيَوَانِ؟ فَبَدَرَ شَيْطَانِي
الْمُؤْمِنَ. وَسَاقَ فِي لِسَانِي خَبَرَ أُمِّي وَأَبِي، فَانْتَضَحَتْ عَيْنَاهَا بَاكِئَةً وَنَمَّ لَهَا رَأْيِي
فَنِي كَرَأْيِي أَنَا فِي الْمُسْكِرِ؛ وَكَأَنَّ شَيْطَانَهَا بَعْدَ ذَلِكَ شَيْطَانًا خَبِيثًا مَعَ أَصْحَابِهَا،
وَبَطْرِيقًا زَاهِدًا مَعِيَ أَنَا وَحْدِي!

وَرَأَيْتُهَا لَا تُجَالِسُنِي إِلَّا مُتَزَايِلَةً^(٢) كَالْعُدْرَاءِ الْخَفَرَةِ إِذَا انْقَبَضَتْ وَغَطَّتْ
وَجْهَهَا، وَصَارَتْ تَخَافُنِي لِأَنَّهَا تُحْبِنِي، وَهَيَّيْنِي الشَّيْطَانَ إِلَيْهَا فَعَادَتْ لَا تَرَى فِيَّ
الرَّجُلَ الَّذِي هُوَ تَحْتَ عَيْنَيْهَا الْكُثَيَّتَيْنِ... وَلَكِنَّ الْقَدِيسَ الَّذِي تَحْتَ قَلْبِهَا الْبُكَرَ.
وَلَمْ يَغْدُ جَمَالِي هُوَ الَّذِي يُعْجِبُهَا وَيُضَيِّبُهَا، بَلْ كَانَ يُعْجِبُهَا مَنِّي أَنِّي صَنَعْتُ
فَضِيلَتَهَا الَّتِي لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا غَيْرِي....

وَأَنْطَلَقَ الشَّيْطَانُ بَعْدَ ذَلِكَ فِيَّ وَفِيهَا بَدَاهَتُهُ وَخُنْكَتِهِ وَبِكُلِّ مَا جَرَّبْتُ فِي النِّسَاءِ
وَالرِّجَالِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ إِلَى يَوْمِي وَيَوْمِهَا!.. فَكَأَنَّ يَجْذِبُنِي إِلَيْهَا أَشَدَّ
الْجَذْبِ، وَيَدْفَعُهَا عَنِّي أَقْوَى الدَّفْعِ، ثُمَّ يُغْرِنِي بِكُلِّ رَذَائِلِهَا وَلَا يُغْرِبُهَا هِيَ إِلَّا
بِفَضَائِلِي. وَأَلْقَى مِنْهَا فِي دَمِي فِكْرَةَ شَهْوَةٍ مَجْنُونَةٍ مُتَقَلِّبَةٍ، وَأَلْقَى مِنِّي فِي دَمِهَا فِكْرَةَ
حِكْمَةٍ رَزِينَةٍ مُسْتَقِرَّةٍ. وَكُنْتُ أَلْقَاهَا كُلَّ يَوْمٍ وَأَسْمَعُ غِنَاءَهَا؛ فَمَا هُوَ بِالْغِنَاءِ وَلَكِنَّهُ
صَوْتُ كُلِّ مَا فِيهَا لِكُلِّ مَا فِيَّ، حَتَّى لَوْ أَلْتَصَقْتُ جِسْمُهَا بِجِسْمِي وَسَارَ أَلْبَدُنُ الْبَدَنِ،
وَهَمَسَ أَلْدَمُ لِلْدَمِ، لَكَانَ هُوَ هَذَا الْغِنَاءُ الَّذِي تُغَنِّيهِ.

وَأَصْبَحْتُ كُلَّمَا اسْتَقَمْتُ لِحَبِّهَا تَلَوْتُ عَلَيَّ؛ إِذْ لَسْتُ عِنْدَهَا إِلَّا الْأَمَلَ فِي الْمَغْفَرَةِ
وَالْثَوَابِ، وَكَأَنَّمَا سُخِّتُ حَبْلًا طَوَّلُهُ مِنْ هُنَا إِلَى الْجَنَّةِ لِتَتَعَلَّقَ بِهِ. وَعَادَ امْتِنَاعُهَا مِنِّي
جَنُونًا دِينِيًّا مَا يُفَارِقُهَا، فَأَبْتَلَانِي هَذَا بِمَثَلِ الْجَنُونِ فِي حُبِّهَا مِنْ كَلْفٍ^(٣) وَشَقَفٍ.

(١) من جميل أساطير العرب، أنه إذا قتل اثنان معاً في وقت واحد وجرى دميهما والتقيا أنهما متحابان، فإذا جرى دميهما باتجاهين متعاكسين أنهما متشاحنان.

(٢) متزايلة: منحازة.

(٣) كلف: شغف: شديد الحب.

وأنحصرت نفسي فيها، فرجعت معها أشدَّ عباوةً من الجاهل ينظر إلى مدَّ بصره من الأفق فيحكم أن ههنا نهاية العالم، وما ههنا إلا آخر بصره وأول جهله. وأنفكت مني زمام روعي، وأنكسر ميزان إرادتي، وأختل استواء فكري، فأصبحت إنساناً من النقائص المتعادية أجمع أليقين وألشك فيه، والحب والبغض له، والأمل والأخية منه، والرغبة والمزوف عنها، وفي أقل من هذا يخطف العقل، ويتدلّه من يتدلّه.

ثم أبليت مع هذا اللمم^(١) بجنون الغيظ من ابتذالها لأصحابها وعفتها معي، فكنت أظاير قطعاً بين السماء والأرض، وأجد عليها وأتنكر لها، وهي في كل ذلك لا تزديني على حالة واحدة من الرهبانية؛ فكان يطير بعقلي أن أرى جسمها ناراً مشتعلة، ثم إذا أنا رُمته أستحال ثلجاً، وقزحت ألغيرة قلبي وفشتت كيدي من عابدة الشيطان مع الجميع، الراهبة مع رجل واحد فقط!

ورجعت خواطري فيها مما يُعقل وما لا يُعقل؛ فكنت أرى بعضها كأنه راجع من سفر طويل عن حبيب في آخر الدنيا، وبعضها كأنه خارج من دار حبيب في جوارى، وبعضها كأنه ذاهب إلى المارستان...^(٢)

ورأيتنا كأننا في عالمين لا صلة بينهما، ونحن معاً قلباً إلى قلب، فذهب هذا بالبقية التي بقيت من عقلي، ولم أر لي منجاة إلا في قتل نفسي لأزهد هذا الوحش الذي فيها.

وذهبت فأبتغت شعيرات من السم الوجي الذي يُعجل بالقتل، وأخذتها في كفي وهممت أن أقحمها وأبتلعها، فذكرت أمي، فظهرت لخيالي مشدوخة الرأس في هيئة موتها، وإلى جانبها هذه المرأة في هيئة جمالها، وثبتت على عيني هذه الرؤيا، وأدمنت النظر فيها طويلاً فإذا أنا رجل آخر غير الأول، وإذا المرأة غير تلك، وطعت عبرة الموت على شهوة الحياة فمحتها، وصح عندي من يومئذ أن لا علاج من هذا الحب إلا أن تفرن في النفس صورة امرأة ميتة إلى صورة المرأة الحية، وكلما ذكرت هذه جيء لها بتلك، فإذا استمر ذلك فإن الميتة تميئها في النفس وتُميت الشهوة إليها، ما من ذلك بُد، فليجربته من شك فيه.

وأنفتح لي رأي عجيب، فجعلت أنامل كيف آمن شيطاني ثم كفر بَعْد، على

(٢) المارستان: مستشفى المجازيب.

(١) اللمم، محرقة بالفتح: الجنون.

أَنْ شَيْطَانَهَا هِيَ كَفَرَتْ فِي الْأَوَّلِ ثُمَّ آمَنَ فِي الْآخِرِ؟ فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ إِلَّا غَبِيًّا خَامِدًا
الْفِطْنَةُ^(١)، إِذْ لَمْ يَسْتَحْ لِي الصَّوَابُ حَتَّى كَذَبْتُ أَرْهَقُ نَفْسِي وَأَخْصِرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ؛
فَإِنَّ الشَّيْطَانَ - لَعْنَةُ اللَّهِ - إِنَّمَا رَدَّنِي عَنِ الْفَاحِشَةِ وَهِيَ ذَنْبٌ وَاحِدٌ، لِيَرْمِيَنِي بَعْدَهَا
فِي الذُّنُوبِ كُلِّهَا بِالمَوْتِ عَلَى الكُفْرِ!

وَرَدَّ إِلَيَّ هَذَا الْخَاطِرُ مَا عَزَبَ^(٢) مِنْ عَقْلِي . وَمَنْ أَبْثُلِي بِبِلَاءٍ شَدِيدٍ يُزَلِّزُ
يَقِينَهُ ثُمَّ أَبْصَرَ الْيَقِينَ، جَاءَ مِنْهُ شَخْصٌ كَأَنَّمَا خُلِقَ لِسَاعَتِهِ؛ فَلَعَنْتُ شَيْطَانِي
وَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ مِنْ مَكْرِهِ، وَأَلْقَيْتُ أَلْسَمَ فِي التَّرَابِ وَغَيَّيْتُ فِيهِ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي:
وَيْحَكَ يَا نَفْسُ! إِنَّ الْحَيَاةَ تَعْمَلُ عَمَلًا بِالْحَيِّ، أَفَتَرْضَيْنَ أَنْ تَعْمَلَ الْحَيَاةَ بِأَبْطَالِهَا
وَرِجَالِهَا مَا عَرَفْتَ وَمَا عَلِمْتَ، ثُمَّ يَكُونُ عَمَلُهَا بِكَ أَنْتِ أَلْفَعُودَ نَاحِيَةٍ وَالبِكَاءَ عَلَى
أَمْرَاءَ؟

أَيُّهَا النَّفْسُ، مَا الْفَرْقُ بَيْنَ سَرَقَةِ لَحْمٍ مِنْ دُكَّانِ قِصَّابٍ، وَبَيْنَ سَرَقَةِ لَحْمٍ
أَمْرَأَةٍ مِنْ دَارِ أَبِيهَا، أَوْ زَوْجِهَا، أَوْ مَوْلَاهَا...؟
أَيُّهَا النَّفْسُ، إِنَّ إِيْمَانَنَا أَسْلَافُنَا مَعْنَا؛ إِنَّ الْإِسْلَامَ فِي الْمُسْلِمِ .

قَالَ الْمَسِيبُ: وَهَذَا طَاشَ مُجَاهِدٌ وَأَسْتَخْفَهُ الطَّرِبُ، فَصَاحَ صِيحَةً النَّصْرِ:
اللَّهُ أَكْبَرُ! وَجَاوِبُهُ أَهْلُ الْمَسْجِدِ فِي صِيحَةٍ وَاحِدَةٍ: اللَّهُ أَكْبَرُ! وَلَمْ يَكْذِبْ يَهْتَفُ بِهَا
النَّاسُ حَتَّى أَرْتَفَعَتْ صِيحَةُ الْمُؤَذِّنِ لِصَلَاةِ الْمَغْرَبِ . اللَّهُ أَكْبَرُ .

(٢) عزب: ضاع وذهب.

(١) الفطنة: الذكاء.

الانتحار

٦

تتمة

قال المسيّب بن رافع: وأنفض^(١) مجلس الشيخ، ودَرَجت^(٢) بعده أعوام في عدّة الشهور من حمل المرأة، بلغت فيها أمور الناس مبلغها من خير الدنيا وشرّها، ممّا أعرف وما لا أعرف؛ ودخلت البصرة أنا ومُجاهد الأزدي، نسمعُ الحسنَ وناخذُ عنه؛ فإنّا لسائران يوماً في سِكة^(٣) بني سُمرة، إذ وافقنا الفتى صاحب النصرانيّة مُقبلاً علينا، وكُنّا فقدناه تلك المدة، فأسرّع إليه مُجاهد فالتزمه وقال: مرحباً بذي نسبٍ إلى القلب. وسلّمْتُ بعده وعانقته، ثمّ أقبلنا نسأله، فقلْتُ له: ما كان آخِرُ أولئك؟ قال مُجاهد: بل ما كان آخرُ أوليها هي؟

فضحك الرجل وقال: النصرانيّة تعني؟ قال: آخرُها من أوليها كهذا مني؛ وأومأ إلى ظلّه في الأرض ممدوداً مشبوحاً مختلطاً غير متميز؛ كأنّه ثوب منشور ليس فيه لابسُه، وكُنّا في الساعة التي يصيرُ فيها ظلُّ كلِّ شيءٍ مثليهِ فهو مَزْجُ المَسْخِ بالمَسْخِ...

قال مُجاهد: ما أفضّ جوابك وأثقله يا رجل! كأنك - واللّه - تاجر لا صلةَ لهُ بالأشياء إلّا من أثمانِها؛ فنظره إلى قِراءةِ الأدبِ مِنَ الدّوابِّ وإلى فِراهِةِ الجاريةِ مِنَ الرّقِيقِ سواء.

قال الرجل: فأنا - واللّه - تاجر، وأنا الساعة على طريقِ الإيوان^(٤) الذي يلتقي فيه تُجارُ العراقِ والشّامِ وخُراسان؛ وقد ضربتُ في هذه التّجاراتِ وحسُنَتْ بها حالِي وتألّلتُ منها؛ غير أنّ قلبَ التاجرِ غيرُ التاجر، فليس يزُن ولا يقبِض، ولا

(١) انفضّ: تفرّق.

(٢) درجت: طريق.

(٢) درجت: مضت.

(٤) هذه المفردة تناسب ما يسمونه اليوم (البورصة).

يبيعُ ولا يشتري . أمّا «تلك» فأصبحت نسياناً ذهبَ لِسبيلِهِ في الزمانِ !

قالَ مُجاهدٌ : فكيف كنتَ تراها وكيف عذتَ تنظرُ إليها؟

قالَ : كنتُ أنظرُ إليها بعينيّ وأفكاري وشهواتي ؛ فكأنتَ بذلك أكثرَ من نفسها ومن النساءِ ، وكأنتَ ألواناً ألواناً ما تنقضي ، فلمّا دخلَ بيني وبينها ألزمتُ وألعقتُ ، أبعدُها هذا عن قلبي وأبعدُها ذاكَ عن خيالي ؛ فنظرتُ إليها بعينيّ وحدّهما ، فرجعتُ امرأةً ككلِّ امرأةٍ ؛ وبنزولها من نفسي هذه المنزلةَ ، رجعتُ أقلَّ من نفسها ومن النساءِ ، وهذه القلّةُ فيما عرفتُ لا تُصيبُ امرأةً عندَ مُحبتها إلّا فَعَلتْ بِجمالِها مثلَ ما تفعلُهُ الشَّيخوخَةُ بِجسمِها ، فأدبرتْ به ثُمَّ أدبرتْ وأستمرتْ تُذبرُ !

وانتَ فإذا أبصرتَ امرأةً شَيْخَةً قد ذهبتَ التي كانتَ فيها . . . وأخطرتَ في ذَهْنِكَ نِيَّةً مِمَّا بَيْنَ أَلرجالِ والنساءِ ، فهل تُراكَ واجداً للشهوةِ والميلِ إلّا الثُّفْرَةَ والمَغْصِيَّةَ ؟ إنّ هذا الذي كانَ الحُبُّ والهوى والعشقُ ، هو بعينه الذي صارَ الإثمُ والذنبُ والضلالةُ !

قالَ مُجاهدٌ : كأنّكَ لما ذهبتَ تقتلُ نفسَكَ من حُبِّها قتلْتها هي في نفسك؟

قالَ : يا رَحمةُ قد رَحمتُ بها نفسي يومئذٍ ! أمّا - واللّه - إنّ الذي يقتلُ نفسه من حُبِّ امرأةٍ لِنَفْسِي . وَيَحَهُ ! فليَتَخَلَّصْ من هذا الجزءِ مِنَ الحَيَاةِ لا مِنَ الحَيَاةِ نفسها . وقد جعلَ اللَّهُ لِلحُبِّ طَرَفَيْنِ : أحدهما في اللذةِ ، والآخرُ في ألحماقةٍ ؛ ما منهما بُدٌّ . فهذا ألحِبُّ يَلْقِي صاحِبَهُ في ألأحلامِ وَيُعْشِي بها على بصره ، ثُمَّ إنّ هو أَتَجَهَ بِطَرَفِهِ السَّعِيدِ إلى حَظِّهِ الْمُقْبِلِ وَأَتَفَقَتِ اللَّذَةُ لِلْمُحِبِّ ، أيقظتُهُ اللذةُ من أحلامِهِ ؛ وإنْ أَتَجَهَ ألحِبُّ بِطَرَفِهِ الشَّقِيِّ إلى حَظِّهِ الْمُذْبِرِ ، وَقَعَتِ ألحماقاتُ فنوناً شَتَّى بَيْنَ ألحبيبينِ ، وفَعَلتْ آخِراً فَعَلَ اللَّذَةُ ، فأيقظتِ العاشقَ من أحلامِهِ أيضاً . وهذا تدبيرٌ مِنَ الرّحمةِ في تلكَ القُوَّةِ المدمِرةِ ألمسماةِ ألحُبِّ . أفلا يدلُّ ذلكَ على أنّ اللَّذَةَ وهَمٌّ مِنَ ألأوهامِ ما دامَ تحقُّقُها هو فناءُها؟

خذْ عني يا مُجاهدُ هذه الكلمةَ : «ليسَ ألكمالُ مِنَ الدُّنيا ولا في طبيعتها ، ولا هو شيءٌ يُذَرَكُ ، ولكن من عَظَمَةِ ألكمالِ أنّ أستمرازَ ألعملِ لَهُ هو إدراكُهُ» .

قالَ مُجاهدٌ : لقد علِمْتُ بعدنا علِماً ، فَمِنْ أينَ لك هذا وعَمَّنْ أَخَذْتَ؟

قالَ : عن السماءِ !

قالَ : وبلِكَ ! أينَ عقلُكَ ، فهل نزلَ عليك ألوحى؟

قال الرجل : لا ، ولكن تَعَالَيْا معي إلى الدارِ فأحدثكما .

قال المَسِيَّب : وذهبتا معه ؛ فأتيتا بطعام نظيف فأكلنا ، وأشعرتنا الدارُ أن ربها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلت عليه النعمة ؛ فلما غسلنا أيدينا قال مجاهد : هيه يا أبا . يا أبا من ؟ قال : أبو عبيد . قال : هيه يا أبا عبيد . . .

فافكر الرجل ساعة ثم قال : عهد كما بي منذ تسع في مجلس الإمام الشعبي بالكوفة ؛ وقد كنت في بقية من النعمة أنجمل بها ، وكأنت تمسكني على موضعي في أعين الناس ؛ فما زالت تلك البقية تدق وتنفض حتى نكد عيشي ووقعت في الأيام المقعدة التي لا تمشي بصاحبها ، وأنقلب الزمن كالعدو المغير جاء ليضطلم^(١) ويخرب ويفسد ، فأثر في أبيض آثاره ، فبعث ما بقي لي وتحملت عن الكوفة إلى البصرة ، وقلت : إن لم تتغير حالي تغيرت نفسي ، ولا أكون في البصرة قد انتهيت إلى الفقر ، بل أكون قد بدأت من الفقر كما يبدأ غيري ، وأدع الماضي في مكانيه وأمضي إلى ما يستقبلي .

فألتمسْتُ رُقَّةً فالتأمتا^(٢) عشرين رجلاً ، فلما كنا في الطريق ، سلبنا اللصوص حازوا ألقافلة وما تحويه ، ونجوت أنا ركباً فرسي وعُمري ، وادركت حينئذ أن الحياة وحدها ملك عظيم ، وأنها هي الأداة الإلهية ، والباقي كله هو من أنفسنا لأنفسنا والأمر فيه هين والخطب يسير .

وقلت : لو أن اللصوص قد مروا بنا كما يمر الناس بالناس لما نكبونا ، ولكنهم عرضوا لنا عروض اللص للمال والمتاع لا للناس ، فوضعوا فينا الأيدي الناهية ؛ ومن هذا ادركت أن ليس أكثر إلا حالة يتلبس بها من يستطيع أن يتخلص منها . فإذا كان ذلك فاصل السعادة في الإنسان ألا يعبا^(٣) بهذه الحالات متى عرضت^(٤) له ؛ وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا ، تمثل الشر كما يراه واقعاً في غيره ؛ فالمرأة العفيفة إذا عرضت لها حالة من الفجور ، ونظرت إلى نفسها وحط نفسها ، فقد تعمى وتزل ؛ ولكنها إذا نظرت إلى ذلك في غيرها وإلى أثره على الفاجرة ، كانت كأتما زادت على نفسها نفساً أخرى تُربها الأشياء مجردة كما هي في حقائقها .

(٣) يعبا : يهتم .

(٤) عرضت : حصلت .

(١) يضطلم : يتأصل .

(٢) التأمتا : اجتمعنا .

قال: ومضيتُ على وجهي تتقاذفني البقاعُ والأمكنة: وأنا أعاني الأرضَ
والسما، وأخشى الليلَ والنهار، وأكابذُ الألمَ والجوع، حتى دخلتُ البصرةَ دخولَ
البعيرِ الرزاح، قَطَعَ الصَّحراءُ تَأْكُلُ منه ولا يأكلُ منها، فأنضاهُ^(١) السفْرَ وحسره
الكلالُ^(٢) ونَحْتَهُ الثُّقْلُ الَّذِي يَحْمِلُهُ، فجاءَ بَيْتِيَّةٌ غَيْرُ الَّتِي كَانَ قد خَرَجَ بها. وكانتُ
أَيَّامِي هذه عمراً كاملاً مِنَ الشَّقَاءِ، جعلتُني أَوْقِنُ أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّاسَ فِي الْحَيَاةِ إِنْ هُمْ
إِلَّا كَالذُّوَابِ تَحْتَ أَحْمَالِهَا: لَا تَخْتَارُ الدَّابَّةُ مَا تَحْمِلُ وَلَا مَنْ تَحْمِلُ، وَلَا يُتْرَكُ لَهَا
مَعَ هَذَا أَنْ تَخْتَارَ الطَّرِيقَ وَلَا مَدَّةَ السَّيْرِ؛ وَلَيْسَ لِلدَّابَّةِ إِلَّا شَيْتَانُ: صَبْرُهَا وَقُوَّتُهَا؛
إِنْ فَقَدْتُهُمَا هَلَكَتْ، وَإِنْ وَهَنَتْ فِيهَا كَانَ ضَعْفُهَا بِحَسَبِ ذَلِكَ.

إِنَّ هُنَاكَ أَوْقَاتاً مِنَ الشَّقَاءِ وَالْبُؤْسِ تَقْذَفُ بِالْإِنْسَانِ وَرَاءَ إِنْسَانِيَّتِهِ وَإِنْسَانِيَّةِ الْبَشَرِ
جَمِيعاً، لَا تُبَالِي كَيْفَ وَقَعَ وَفِي أَيِّ وَادٍ هَلَكَ، فَلَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ حِينَئِذٍ إِلَّا أَنْ
يَعْتَصِمَ^(٣) بِأَخْلَاقِ الْحَيَوَانِ، فِي مِثْلِ رِضَاةِ الَّذِي هُوَ أَحْكَمُ الْحِكْمَةِ فِي تِلْكَ الْحَالِ،
وَصَبْرِهِ الَّذِي هُوَ أَقْوَى الْقُوَّةِ، وَقَنَاعَتِهِ الَّتِي هِيَ أَغْنَى الْغِنَى، وَجَهْلِهِ الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ
الْعِلْمِ، وَتَوَكُّلِهِ الَّذِي هُوَ إِيمَانٌ فَطَرْتَهُ بِفِطْرَتِهِ. لَا يُبَالِي الْحَيَوَانُ مَا لَمْ يَلَمْ وَلَا نَعِماً، وَلَا
مَتَاعاً وَلَا مَنْزِلَةً، وَلَا حَظّاً وَلَا جَاهاً، وَلَنْ تَجِدَ حِمَارَ الْمَلِكِ يَعْرِفُ مِنَ الْمَلِكِ أَكْثَرَ
مِمَّا يَعْرِفُ جِمَارُ السَّقَاءِ مِنَ السَّقَاءِ؛ وَلَعَلَّكَ لَوْ سَأَلْتُهُمَا وَأَطَاقَا الْجَوَابَ لَقَالَ لَكَ
الْأَوَّلُ: إِنَّ الَّذِي فَوْقَ ظَهْرِي ثَقِيلٌ مَقِيَّتٌ بَغِيضٌ؛ وَلَقَالَ لَكَ الثَّانِي: إِنَّ الَّذِي يَرْكَبُهُ
خَفِيفٌ سَهْلٌ سَنَحُ!

وَلَكِنْ بَلَاءُ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ حِينَ يُطَوِّحُهُ الْبُؤْسُ^(٤) وَالشَّقَاءُ وَرَاءَ الْإِنْسَانِيَّةِ، لَا يَنْظُرُ
لِغَيْرِ النَّاسِ، فَيَزِيدُهُ ذَلِكَ بُؤْساً وَحَسْرَةً، وَيَمَحُقُ^(٥) فِي نَفْسِهِ مَا بَقِيَ مِنَ الصَّبْرِ،
وَيَقْلِبُ رِضَاةَ غِبْطاً، وَقَنَاعَتَهُ سَخَطاً، وَيَبْتَلِيهِ كُلُّ ذَلِكَ بِالْفِكْرَةِ الْمَهْلِكَةِ أَعْجَزَهَا أَنْ
تُهْلِكَ أَحَدًا فَلَا تَجِدَ مَنْ تُدْمِرُهُ غَيْرَ صَاحِبِهَا؛ فَإِذَا هِيَ وَجَدَتْ مَسَاعاً^(٦) إِلَى النَّاسِ
فَاهْلَكَتْ وَعَاثَتْ وَأَفْسَدَتْ، فَجَعَلْتُ صَاحِبَهَا إِمَّا لِيَصَّا أَوْ قَاتِلًا أَوْ مُجْرَماً، أَيْ ذَلِكَ
تَيْسَرُ!

(٤) يطوّحه البؤس: أخذه كل مأخذ.

(٥) يمحّو: يمحو.

(٦) مساعاً: سبياً.

(١) أنضاه: أتعبه.

(٢) الكلال: التعب الشديد.

(٣) يعتصم: يلبأ ويقوى.

قال: وكنتُ أعرفُ في البصرةَ فلاناً التاجرَ من سَراتِها^(١) ووجوهَ أهلِها، فاستطرفتهُ^(٢)؛ فإذا هو قد تحوّل^(٣) إلى خُراسان، وليسَ يعرفُنِي أحدٌ في البصرةَ ولا أعرفُ أحداً غيرهَ؛ فكأنّما تُكَبِّتُ مرّةً ثانيةً بغارةٍ شرٍّ من تلك، غيرَ أنّها قطعتُ عليّ في هذه المَرّةِ طريقَ أيّامي، وسلبتني آخرَ ما بقيَ لِنفسي، وهو الأملُ!

ورأيتُ أنّهُ ما مِنَ نزولي إلى الأرضِ بُدّ، فأكونُ فيها إنساناً كالدابةِ أو الحَشْرَةِ: حياتُها ما اتَّفَقَ لا ما تُريدُ أنْ يَتَّفِقَ؛ وأنّهُ لا رأيي إلّا أنْ أسخَرَ مِنَ الشَّهواتِ فأزهدَ فيها وأنا القويُّ الكَريم، قَبْلَ أنْ تسخَرَ مِنِّي إذا جثثُها وأنا الطامعُ العاجزُ!

وفي الأرضِ كِفايَةُ كُلِّ ما عليها وَمَنَ عليها، ولكن بطريقتِها هي لا بطريقةِ الناسِ؛ وما دامتْ هذه الدنيا قائِمةً على التغييرِ والتبديلِ وتحوّلِ شيءٍ إلى شيءٍ، فهذا الطَّبِيُّ الذي يأكلُهُ الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنّه قد أَجَلَ ولا أنّه أَقْتَرَسَ ومُزَق، بل هو عندها قد تحوّلَ قوّةً في شيءٍ آخرَ ومضى؛ أمّا عندَ الناسِ فذلك خُطْبُ^(٤) طويلٌ في جِكايةِ أوهامٍ مِنَ الخوفِ والرَّجُلِ^(٥)، كما لو اخترَعْتَ قصّةً خرافيةً تحكيها عن أسدٍ قد زَرَعَ لحماً... فتعهّدُهُ فأنبتَهُ فحصدَهُ فأكلَهُ، فذهبَ الزَّرْعُ يحتجُّ على أَكْلِهِ، وجعلَ يشكو ويقول: ليسَ لِهَذَا زرعْتَنِي أنتَ، وليسَ لِهَذَا خرجْتُ أنا تحتَ الشمسِ، وليسَ من أجلِ هذا طلعتِ الشمسُ عليّ وعليك!

والإنسانُ يرى بعينيه هذا التغييرَ واقعاً في الإنسانِيةَ عامَّتِها وفي الأشياءِ جميعِها؛ فإذا وقعَ فيه هو ضجٌّ وسَخَطٌ، كأنَّ لَهُ حقّاً ليسَ لأحدٍ غيرهَ، وهذا هو العَجيبُ في قصّةِ بني آدم، فلا يزالُ فيها على الأرضِ كلماتٌ مِنَ الجَنَةِ لا تُقالُ هنا ولا تُفهمُ هنا؛ بل محلُّ الاعتراضِ بها حينَ يكونُ الإنسانُ خالداً لا يقعُ فيه التغييرُ والتبديلُ. ومن هذا كانَ خيالُ اللذّةِ في الأرضِ هو دائماً باعثُ الحماقةِ الإنسانِيةِ.

قال أبو عُبيد: وذهبتُ أعتَمِلُ بيديّ وجسمي على الآمِ مِنَ الفاقةِ والضَّرِّ، وَمِنَ الخيبةِ والإخفاقِ، وَمِنَ إلْجاءِ المِسْكَةِ، وإِحْواحِ الخِصَاصَةِ^(٦)؛ فلقد رأيتُني وإنْ يدي كيدُ العبدِ، وظهري كظهرِ الدّابةِ، ورجلي كرجلِ الأسيرِ، وعُنْقِي كعُنْقِ

(٤) خُطْبُ: يسكون الطاء: المصيبة.

(٥) الرَّجُلُ: الخوف.

(٦) الخِصَاصَةُ: الفقر المدقع وشدته.

(١) سَراتِها: أغنيائها.

(٢) استطرفته: جتته ليلاً.

(٣) تحوّل: انتقل.

المفلول، ويطلع قرص الشمس على الدنيا ويغيب عنها وما أعتَمِلُ إلا بقرص من الخبز، ولقد رأيتني أبذل في صيانة كل قطرة من ماء وجهي سحابة من العرق حتى لا أسأل الناس، ويا بؤساً لي إن سألت وإن لم أسأل!

وما كان يُمكنني على هذه الحياة المُرْمَقَّة^(١)، تأتي رَمَقاً بعد رَمَقٍ في يوم يوم - إلا كلام الشعبي - الذي سمعته في مسجد الكوفة، وقوله فيمن قتل نفسه؛ فكان كلامه نوراً في صدري يُشرق منه كل يوم مع الصبح صبح لإيماني. ولكن بقيت أيام نعمتي الأولى ولها في نفسي ضربان من الوجع كالذي يجده المجروح في جرحه إذا ضرب عليه، فكان الشيطان لا يجد منفذاً إلي إلا منها. وفقدت الصديق وعونه، فما كان يُقبل علي صديق إلا في أحلامي من وراء الزمن الأول!

قال مُجاهد: والحبيب؟

فتبسّم الرجل وقال: إذا فرغت^(٢) الحياة من الذي هو أقل من الممكن، فكيف يكون فيها الذي هو أكثر من الممكن؟ إن جوع يوم واحد يجعل هذه الحياة حقيقة جافة لا شعر فيها، ويترك الزمن وما فيه ساعة واحدة مُعطرة. والبؤس يَنقُظ مؤلمة في القلب الإنساني تُحرّم عليه الأحلام؛ وما الحب من أوله إلى آخره إلا أحلام القلوب بعضها ببعض!

قال أبو عبيد: وتَضَعُضْتُ^(٣) لهذه الحياة المخزية وأبْرَمْتَنِي^(٤) أيامها، وحملت في الميت والحي، ورأيت الشيطان - لعنه الله - كأنما أتخذني وعاء مُطرحاً على طريقه يلقي فيه القمامة^(٥)...، وظهر لي قلبي في وساوسه كالمدينة الحربة ضربها الوباء، فأعمر ما فيها مقبرتها؛ وعاد البؤس وقاح الوجه لا يستحي، فلا أراه إلا في أردل أشكاله وأبردها؛ ولقد يكون البؤس لبعض الناس على شيء من الحياة فيأتي في أسلوب معتذر كالمراة الدمية^(٦) في نقابها^(٧)

وقلت لنفسي: ما هو - والله - إلا القتل، فهذا عمر أراه كالأسير أُقِيم على النطح^(٨) وسُل عليه السيف، فما ينتقم منه المنتقم بأفطع من تأخير الضربة، وما يرحمه الأرحم بأحسن من تعجيلها!

(٥) القمامة: الزبالة.

(٦) الدمية: البشعة.

(٧) نقابها: ما تغطي به وجهها.

(٨) النطح: الآتية ينزل فيها دم من قطع رأسه.

(١) المرمقة: الباقي من الحياة.

(٢) فرغت الحياة: انتهت.

(٣) تضعضعت: تخلصت.

(٤) أبرمتني: أضجرتني.

وَبِئْسَ أَوَامِرُ هَذِهِ النَّفْسِ فِي قَتْلِهَا وَأَحْذَثُهَا حَدِيثَ الْمَوْتِ، فَسَدَدْتُ رَأْيِي فِيهِ وَقَالَتْ: مَا تَصْنَعُ بِجِسْمٍ كَالْمَتَعَفَّنِ أَصْبَحَ كَالْمَقْبُورِ لَا أَيَّامَ لَهُ إِلَّا أَيَّامُ أَنْقِرَاضِهِ وَتَفْتِيْتُهُ؟ يَبْدَأُنِي ذِكْرُتُ كَلَامِ (الشَّعْبِيِّ) فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَأَنَا أَحْفَظُهُ كُلَّهُ، فَجَعَلْتُ أَهْذُهُ ^(١) مَا أَتْرَكَ مِنْه حَزْفاً، وَأَتَّخِذْتُهُ مَتَكَلِّماً مَعَ نَفْسِي لَا كَلَاماً، كُنْتُ كُلَّمَا غَلَبَنِي الضَّعْفُ رَفَعْتُ بِهِ صَوْتِي وَأَصْغَيْتُ كَمَا أَصْغِي إِلَى إِنْسَانٍ يُكَلِّمُنِي فَرَأَيْتُ الشَّيْطَانَ بَعْدَ ذَلِكَ كَاللِّصِّ إِذَا طَمِعَ فِي رَجُلٍ ضَعِيفٍ مُنْفَرِدٍ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَهُ وَجَدَ مَعَهُ رَجُلًا ثَانِيًا قَوِيًّا فَهَرَبَ!

قال أبو عبيد: ونالني رَوْحٌ مِنْ الْأَطْمَتَانِ وَجَدْتُ لَهُ السَّكِينَةَ فِي قَلْبِي فَنِمْتُ، فَإِذَا الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ الَّذِي لَا يَنْسَاهُ مَنْ سَمِعَ بِهِ، فَكَيْفَ الَّذِي رَأَى بِعَيْنَيْهِ؟

رَأَيْتُنِي مَيِّتًا فِي يَدِ غَاسِلِهِ يَغْلِيهِ وَيَغْسِلُهُ كَأَنَّهُ خِرْقَةٌ؛ ثُمَّ حُمِلْتُ عَلَى النَّعْشِ كَأَنَّ الْحَامِلِينَ قَدْ رَفَعُونِي يَقُولُونَ: أَنْظِرُوا أَيُّهَا النَّاسُ كَيْفَ يَصِيرُ النَّاسُ؛ ثُمَّ صَلَّى عَلَيَّ الْإِمَامُ الشَّعْبِيُّ فِي مَسْجِدِ الْكَوْفَةِ، ثُمَّ ذَلِيتُ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ وَهَيْلِ التُّرَابِ عَلَيَّ، وَتَرَكْتُ وَحِيدًا وَأَنْصَرَفُوا!

وما أدري كم بقيتُ على ذلك ثُمَّ رَأَيْتُ كَأَنَّمَا تُفَخَّ فِي الصُّورِ ^(٢) وَبُغِثِرَتْ الْأَمَوَاتُ جَمِيعًا، فَطَرْنَا فِي الْفُضَاءِ، وَكَانَتْ النُّجُومُ غُبَارًا حَوْلَنَا كَثْرَابِ الْعَاصِفَةِ فِي الْعَاصِفَةِ؛ وَإِذَا نَحْنُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَفِي هَوْلِ الْمَوْقِفِ!

وَتَوَجَّهْتُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ فِي جِسْمِي إِلَى الرَّجَاءِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ؛ وَرَأَيْتُ أَعْمَالِي رُؤْيَا أَحْزَنْتَنِي، فَهِيَ كَمَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ كُلُّ أَهْلِهَا صَعَالِيكُ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمُسْتَوْرِينَ، أَرَى مِنْهُمْ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي السَّاعَةِ بَعْدَ السَّاعَةِ نَذَرُوا وَتَبَعَثُوا وَضَاعُوا كَأَعْمَالِي الصَّالِحَةِ!

وَذَكَرْتُ أَنِّي كِدْتُ أَقْتُلُ نَفْسِي فِرَارًا بِهَا مِنَ الْعُمُرِ الْمُؤَلَّمِ؛ فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا الزَّمَنُ قَدْ ظَهَرَ فِي أَبْدِيَّتِهِ، وَرَجَعَ الْماضِي حَاضِرًا بِكُلِّ مَا حَوَى كَأَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْ، وَإِذَا عَمْرِي كُلُّهُ لَا يَكَادُ يَبْلُغُ طُرْفَةَ عَيْنٍ مِنْ دَهْرٍ طَوِيلٍ، فَحَمَدْتُ اللَّهَ أَنِّي لَمْ أَتَدَبَّرْ أَلَمَ اللَّحْظَةِ الْقَصِيرَةِ الْقَصِيرَةِ، بِعَذَابِ الْأَبَدِ الْخَالِدِ الْخَالِدِ الْخَالِدِ.

وَجِيءَ عَلَى أَعْيُنِ الْخَلْقِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَأَكْثَرِهِمْ لَذَاتٍ فِي تَارِيخِ الدُّنْيَا كُلِّهَا، فَصَاحَ صَائِحٌ: هَذَا أَنْعَمُ مَنْ كَانَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْذُ خَلَقَهَا اللَّهُ إِلَى أَنْ طَوَّاهَا. ثُمَّ غُمِسَ هَذَا الْمُنْعَمُ فِي النَّارِ غَمْسَةً خَفِيفَةً كَنَبْضَةِ الْبَرْقِ، وَأُخْرِجَ إِلَى الْمَحْشَرِ،

(٢) الصُّور: البوق.

(١) أهذه: أسرع في قراءته.

وقِيلَ لَهُ والنَّاسُ جَمِيعاً يَسْمَعُونَ: هَلْ دُفَّتْ نَعِيماً قَطُّ؟ قَالَ: لَا - وَاللَّهِ - .

ثُمَّ جِيءَ بِأَتَعَسِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَشَدَّهُمْ بُؤْساً مِنْذُ خُلِقَتِ الْأَرْضُ، فَعُمَسَ فِي
الْجَنَّةِ عُمَسَةً أَسْرَعَ مِنَ النِّسِيمِ تَحْرُكٌ وَمَرٌّ، ثُمَّ أُخْرِجَ إِلَى الْمَحْشَرِ وَقِيلَ لَهُ: هَلْ
دُفَّتْ بُؤْساً قَطُّ؟ قَالَ: لَا - وَاللَّهِ - .

وَسَمِعْنَا شَهيقَ جَهَنَّمَ وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ؛ فَأَيَقُنْتُ أَنَّ لَهَا نَفْساً
خُلِقَتْ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ. وَخَرَجَ مِنْهَا عُنُقٌ عَظِيمٌ هَائِلٌ، لَوْ تَضَرَّعَتْ^(١) السَّمَاءُ كُلُّهَا
نَاراً لِأَشْبَهَتْهُ، فَجَعَلَ يَلْتَقِطُ صِنْفاً صِنْفاً مِنَ الْخَلْقِ، وَيَدُأُ بِالْمُلُوكِ الْجَبَّارَةِ فَالْتَقِطَهُمْ
مَرَّةً وَاحِدَةً كَالْمَغْنَاطِيسِ لِثَرَابِ الْحَدِيدِ؛ وَقَذَفَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ؛ ثُمَّ أُنْبِئَتْ فَالْتَقِطَتْ
الْأَغْنِيَاءَ الْمُفْسِدِينَ فَأَطَارَهُمْ إِلَيْهَا؛ ثُمَّ جَعَلَ يَأْخُذُ قَوْمًا قَوْمًا، وَقَدْ أَلْجَمَنِي الْعَرَقُ مِنْ
الْفَزَعِ؛ ثُمَّ طَرَتْ أَنَا فِيهِ، وَنَظَرْتُ، فَإِذَا أَنَا مُخْتَبِيسٌ فِي مُظْلَمَةٍ نَارِيَةٍ كَالْهَآوَةِ، لَيْسَ
حَوْلِي فِيهَا إِلَّا قَاتِلُو أَنْفُسِهِمْ. وَلَوْ أَنَّ بَحَارَ الْأَرْضِ جُعِلَ فِيهَا الْبَحْرُ فَوْقَ الْبَحْرِ فَوْقَ
الْبَحْرِ، إِلَى أَنْ تَجْتَمَعَ كُلُّهَا فَيَكُونَ الْعَمَقُ كَبَعْدِ مَا بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، ثُمَّ
تُسَجَّرُ^(٢) نَاراً تَلْطَئِي، لَكَانَتْ هِيَ الْهَآوَةَ الَّتِي نَحْنُ فِي أَعْمَاقِهَا؛ وَكُنْتُ سَمِعْتُ مِنْ
إِمَامِنَا الشَّعْبِيِّ: أَنَّ عَصَاةَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤَحِّدِينَ إِذَا مَاتُوا عَلَى إِيْمَانِهِمْ كَانُوا فِي النَّارِ
أَحْيَاءَ وَجَوَارِحُهُمْ مَوْتَى؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْجَوَارِحَ قَدْ أَطَاعَتِ اللَّهَ وَسَبَّحَتْهُ فَكُرِّمَتْ بِذَلِكَ
حَتَّى عَلَى جَهَنَّمَ، ثُمَّ يَعَذَّبُونَ عَذَاباً فِيهِ الرَّحْمَةُ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ وَيَنْتَظِرُهُمْ إِيْمَانُهُمْ
عَلَى بَابِ النَّارِ، فَكَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ قَتَلَ نَفْسَهُ، فَسَمِعَ قَائِلاً مِنْ بَعِيدٍ يَقُولُ
لِمُؤْمِنٍ: أَخْرِجْ فَإِنَّ إِيْمَانَكَ يَنْتَظِرُكَ. فَصَاحَ الَّذِي إِلَى جَانِبِي: وَأَنَا، أَفَلَا يَنْتَظِرُنِي
إِيْمَانِي؟ فَقِيلَ لَهُ: وَهَلْ جِئْتَ بِهِ؟

وَرَأَيْتُ رَجُلًا ذَبَحَ نَفْسَهُ يُرِيدُ أَنْ يَصْرَخَ يَسْأَلُ اللَّهَ الرَّحْمَةَ، فَلَا يَخْرُجُ الصَّوْتُ
مِنْ خَلْقِهِ، إِذْ كَانَ قَدْ قَرَأَهُ وَبَقِيَ مَقْرَبًا! وَأَبْصَرْتُ آخَرَ قَدْ طَعَنَ فِي قَلْبِهِ بِمِدْيَةٍ، فَهُوَ
هَنَّاكَ تَسْلُخُ الزَّبَانِيَةَ قَلْبُهُ تَبَحُّثٌ هَلْ فِيهِ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ، فَلَا تَزَالُ تَسْلُخُ وَلَا تَزَالُ تَبْحَثُ!
وَرَأَيْتُ آخَرَ كَانَ تَحْسَى^(٣) مِنَ السَّمِّ فَمَاتَ ظِمَانًا يَتَلَطَّى^(٤) جَوْفَهُ، فَلَا تَزَالُ
تَنْشَأُ لَهُ فِي النَّارِ سَحَابَةٌ رَوِيَّةٌ تَبْرُقُ بِالمَاءِ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْهُ وَرَجَاها، أَنْفَجَرَتْ عَلَيْهِ
بِالصَّوَاعِقِ ثُمَّ عَادَتْ تَنْشَأُ وَتَنْفَجِرُ!

(١) تَضَرَّعَتْ: اشْتَدَّ اشْتَعَالُهَا.

(٢) تَسَجَّرُ: تَشْتَعَلُ.

(٣) تَحْسَى: شَرِبَ.

(٤) يَتَلَطَّى: يَشْتَعَلُ.

وقال رجل: إنما كنتُ مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقتُ نفسي. فنودي: أو ما علمتَ أنَّ اللهَ يُحاسبُك على أنَّك عاقلٌ لا مجنونٌ، وقويٌّ لا ضعيفٌ، وقادرٌ لا عاجزٌ؟ كنتَ تعقلُ بالأقلِّ أنَّك ستموتُ، وكنتَ تقوى على أن تصيرَ، وكنتَ تقدرُ أن تتركَ الشرَّ.

وقال رجلٌ عالمٌ قد حَزَّ في يديه بسكينٍ فمات: «لم يكنِ الكمالُ مِنَ الدُّنيا ولا في طبيعتها ولا هو شيءٌ يُدركُ». فصرخَ فيه صوتٌ رهيبٌ: «ولكن من عَظَمَةِ الكمالِ أنَّ أَسْمَرَ العملِ لَهُ هو إدراكُهُ!».

* * *

قال أبو عبيد: ثُمَّ أَنتَصَبَ بِإِزَائِي شَيْطَانٌ مَارِدٌ أَحْمَرٌ، يَلْتَمِعُ اَلْتَمَاعَ اَلزَّجَاجِ فِيهِ اَلْخَمْرُ، فَقَامَ فِي وَجْهِي وَقَالَ: بِمَاذَا جِئْتَ إِلَى هُنَا يَا عَدُوَّ اَلْخَمْرِ؟ فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ اَلدَّاءَ: شَفَعَتْ فِيكَ اَلْخَمْرُ الَّتِي لَمْ تَشْرِبْهَا، أَخْرَجَ، إِنَّ إِيْمَانَكَ يَنْتَظِرُكَ. فَصِخْتُ: اَلْحَمْدُ لِلَّهِ! وَتَحَرَّكَ بِهَا لِسَانِي، فَأَنْتَبَهْتُ.

لقد علمتُ أنَّ اَلصَّبْرَ على المصائبِ نعمةٌ كبرى لا يُنْعِمُ اللهُ بِهَا إِلَّا فِي اَلْمَصَائِبِ.

وحي القبور

ذهبتُ في صُبح يوم عيدِ الفطرِ أحملُ نفسي بنفسي إلى المقبرة، وقد مات
لي مِنَ الْخَوَاطِرِ مَوْتَى لَا مَيِّتَ واحدٌ، فكُنْتُ أمشي وفي جَنَازَةٍ بِمُشِيعِهَا^(١)؛ من
فَكَرٍ يَحْمِلُ فِكْرًا، وخاطرٍ يَنْبُعُ خاطراً، ومعنى يَبْكِي، ومعنى يُكَيِّ عليه.

وكذلك دأبِي^(٢) كلما أُنحِذْتُ في هذه الطريقِ إلى ذلك المكانِ الذي تأتيهِ
العيونُ بدموعِها، وتمشي إليه النفوسُ بأحزانِها، وتجيءُ فيه أَلْقُلُوبٌ إلى بقايا. تلك
المقابرُ التي لَا يَتَأَدَّى أهلُها مِنْ أهْلِيهِمْ بِالْأَسْمَاءِ وَلَا بِالْأَلْقَابِ، ولكنْ بهذا النداء: يَا
أَحِبَّائَا، يَا أَحْزَانَا!

ذهبتُ أزورُ أمواتي الأعزاءَ وأتصلُ منهم بأطرافِ نفسي، لأحيا معهم في
الموتِ ساعةً أَعْرَضَ فيها أَمْرُ الدُّنْيَا على أَمْرِ الْآخِرَةِ، فأنسى وأذكر، ثُمَّ أَنْظِرُ
وَأَعْتَبِرُ، ثُمَّ أُنَعِّفُ وَأَتَوَسَّمُ^(٣)، ثُمَّ أَسْتَبْطِنُ مِمَّا فِي بَطْنِ الْأَرْضِ، وَأَسْتَظْهِرُ مِمَّا
على ظَهْرِهَا.

وجلسْتُ هناك أَشْرِفُ مِنْ دَهْرٍ على دهرٍ، وَمِنْ دُنْيَا على دُنْيَا، وَأَخْرَجْتُ
الذَّاكِرَةَ أَفْرَاحَهَا الْقَدِيمَةَ لِتَجْعَلَهَا مَادَّةً جَدِيدَةً لِأَحْزَانِهَا؛ وَأَنْفَتَحَ لِي الزَّمَنُ الْمَاضِي
فَرَأَيْتُ رَجْعَةَ الْأَمْسِ، وَكَأَنُّ دَهْرًا كَامِلًا خُلِقَ بِحَوَادِثِهِ وَأَيَّامِهِ، وَرَفَعَ لِعَيْنِي كَمَا تُرْفَعُ
الصُّورَةُ الْمُعْلَقَةُ فِي إِطَارِهَا.

أَعْرِفُ أَنَّهُمْ مَاتُوا، وَلَكِنِّي لَمْ أَشْعُرْ قَطُّ إِلَّا أَنَّهُمْ غَابُوا؛ وَالْحَبِيبُ الْغَائِبُ لَا
يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَلَا الْمَكَانُ فِي الْقَلْبِ الَّذِي يُحِبُّهُ مِمَّا تَرَاخَتْ بِهِ الْأَيَّامُ^(٤)؛ وَهَذِهِ
هِيَ بَقِيَّةُ الْوُجُوحِ إِذَا أَمْتَزَجَتْ بِالْحُبِّ فِي رُوحٍ أُخْرَى: تَتَرَكُّ فِيهَا مَا لَا يُمْحَى لِأَنَّهَا
هِيَ خَالِدَةٌ لَا تُمَحَى.

ذهبتُ أَلَامُوتَ دَهَابِهِمْ وَلَمْ يُقِيمُوا فِي الدُّنْيَا؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ مَرُّوا بِالدُّنْيَا

(٣) تَوَسَّمُ: اسْتَطْلَعُ.

(٤) تَرَاخَتْ بِهِ الْأَيَّامُ: امْتَدَّتْ.

(١) مُشِيعُهَا: مَرَاتِقُهَا.

(٢) دَأْبِي: بِسُكُونِ الْهَمْزَةِ: عَادَتِي.

ليس غير، فهذه هي الحياة حين تُعبّر عنها النفس بلسانها لا بلسان حاجتها وحرصها.

الحياة مدة عمل، وكأن هذه الدنيا بكل ما فيها من المتناقضات، إن هي إلا مضع يُسوّغ كل إنسان جانباً منه، ثم يُقال له: هذه الأداة فأصنع ما شئت، فضيلتك أو رذيلتك.

*** (١)

جلست في المقبرة، وأطرقْتُ أفكر في هذا الموت. يا عجباً للناس! كيف لا يستشعرونه وهو يهدم من كل حي أجزاء تُحيط به قبل أن يهدمه هو بجمليته؛ وما زال كل بُنيان من الناس به كالحائط المُسلط عليه خرابه، يتآكل من هنا ويتناثر من هناك؟!

يا عجباً للناس عجباً لا ينتهي! كيف يجعلون الحياة مدة نزاع وهي مدة عمل، وكيف لا تبرح تنزرو التوازي بهم في الخلاف والباطل، وهم كلما تدافعوا بينهم قضية من النزاع فضربوا خصماً بخصم وردوا كينداً بكيد، جاء حكم الموت تكذيباً قاطعاً لكل من يقول لشيء: هذا لي؟

أنا - واللّه - إنه ليس أعجب في السخرية بهذه الدنيا من أن يُعطى الناس ما يملكونه فيها لإثبات أن أحداً منهم لا يملك منها شيئاً، إذ يأتي الآتي إليها لحماً وعظماً، ولا يرجع عنها الراجع إلا لحماً وعظماً، وبينهما سفاهة العظم واللحم حتى على السكين القاطعة....

تأتي الأيام وهي في الحقيقة تفرّ فرازاها؛ فمن جاء من عمره عشرون سنة فإنما مضت هذه العشرون من عمره. ولقد كان ينبغي أن تُصحح أعمال الحياة في الناس على هذا الأصل البين، لولا أطباع المدخولة والنفوس الغافلة، والعقول الضعيفة، والشهوات العارمة؛ فإنه ما دام العمر مُقبلاً مُذبراً في اعتبار واحد، فليس للإنسان أن يتناول من الدنيا إلا ما يرضيه محسباً له ومحسباً عليه في وقت معاً؛ وتكون الحياة في حقيقتها ليست شيئاً إلا أن يكون الضمير الإنساني هو الحي في الحي.

وما هي هذه القبور؟ لقد رجعت عند أكثر الناس مع المَوْتى أبنية ميتة؛ فما

(١) يقصد إنسانية الحياة.

قط رأوها موجودة إلا لينسوا أنها موجودة؛ ولولا ذلك من أمرهم لكان للقبر معناه الحي المتغلغل في الحياة إلى بعيد؛ فما القبر إلا بناء قائم لفكرة النهاية والانتقطاع؛ وهو في الطرف الآخر رد على البيت الذي هو بناء قائم لفكرة البدء والاستمرار؛ وبين الطرفين المعبّد وهو بناء لفكرة الضمير الذي يحيا في البيت وفي القبر، فهو على الحياة والموت كالقاضي بين خصمين يضلح بينهما صلحاً أو يقضي.

القبر كلمة أصدق مبنية متجسمة، فكل ما حولها يتكذب ويتأول، وليس فيها هي إلا معناها لا يدخله كذب ولا يعتريه تأويل. وإذا ماتت في الأحياء كلمة الموت من غرور أو باطل أو غفلة أو أثر، بقي القبر مذكراً بالكلمة شارحاً لها بأظهر معانيها، داعياً إلى الاعتبار بمدلولها، مبيّناً بما ينطوي عليه أن الأمر كله للنهاية.

القبر كلمة الأرض لمن يندفع فيرى العمر الماضي كأنه غير ماض، فيعمل في إفراغ حياته من الحياة بما يملؤها من رذائله وخسائيه؛ فلا يزال دائماً في معاني الأرض وأستجماعها. وألاستمتاع بها، يتلو في ذلك تلو الحيوان ويقتاس به، فشرعته جوفه وأعضاؤه؛ وترجع بذلك حيوانيته مع نفسه الروحانية، كالجمار مع الذي يملكه ويعلفه، ولو سئل الحمار عن صاحبه من هو؟ لقال: هو حماري.

القبر على الأرض كلمة مكتوبة في الأرض إلى آخر الدنيا، معناها أن الإنسان حي في قانون نهايته، فلينظر كيف ينتهي.



إذا كان الأمر كله للنهاية، وكان الاعتبار بها والجزاء عليها، فالحياة هي الحياة على طريقة أسلامة لا غيرها؛ طريقة إكراه الحيوان الإنساني على ممارسة الأخلاقية الاجتماعية، وجعلها أصلاً في طباعه، ووزن أعماله بنتائجها التي تنتهي بها، إذ كانت روحانيته في النهايات لا في بداياتها.

في الحياة الدنيا يكون الإنسان ذاتاً تعمل أعمالها؛ فإذا انتهت الحياة انقلبت أعمال الإنسان ذاتاً يخلد هو فيها؛ فهو من أخير خالد في الخير، ومن الشر هو خالد في الشر؛ فكان الموت إن هو إلا ميلاد للروح من أعمالها؛ تولد مرتين: آتية وراجعة.

وإذا كان الأمر للنهاية فقد وجب أن تبطل من الحياة نهايات كثيرة، فلا يترك

الشرُّ يمضي إلى نهايته بل يُخَسِّم في بذئه ويُقْتَل في أولِ أنفاسه، وكذلك الشأن في كلِّ ما لا يَحْسُن أن يُبْدَأ، فإنَّه لا يجوزُ أن يمتدَّ: كالعداوة والبغضاء، والبخل والأثرة، والكبرياء والغرور، والخداع والكذب؛ وما شابهَ هذه أو شابهَها، فإنَّها كلّها أنبعاثٌ من أُلُوجِدِ الحيواني وأنفجارٌ من طبيعته؛ ويجبُ أن يكونَ لكلِّ منها في الإرادةِ قبرٌ كي تَسْلَمَ للنفسِ الطيبةِ إنسانيتها إلى النهاية.



يا مَنْ لهم في القبورِ أموات!

إنَّ رؤيةَ القبرِ زيادةٌ في الشعورِ بقيمةِ الحياة، فيجبُ أن يكونَ معنى القبرِ من معاني السَّلامِ العَقْلِيّ في هذه الدنيا.

القبرُ فَمَ يُنادي: أسرعوا أسرعوا، فهي مدَّةٌ لو صُرِّفَتْ كلّها في الخيرِ ما رَفَتْ به؛ فكيف يضيّعُ منها ضياعٌ في الشرِّ أو الإثمِ؟ لو وُلِدَ الإنسانُ ومشى وأيقَعَ وشبَّ وأكْتَهَلَ وهَرِمَ في يومٍ واحدٍ، فما عساهُ كانَ يُضَيِّعُ من هذا اليوم الواحد؟ إنَّ أطولَ الأعمارِ لا يراهُ صاحبُه في ساعةٍ موتهِ إلَّا أقصرَ من يومٍ.

يُنادي القبرُ: أصلحوا عيوبكم، وعليكم وقتٌ لإصلاحها؛ فإنَّها إن جاءت إلى هنا كما هي، بقيتْ كما هي إلى الأبد، وتركها الوقتُ وهرب.

هنا قبر، وهناك قبر، وهنالك القبرُ أيضاً؛ فليس ينظرُ في هذا عاقلٌ إلَّا كانَ نظرهُ كأنَّه حكمٌ محكمةٌ على هذه الحياةِ كيفَ تنبغي وكيف تكون.

في القبرِ معنى إلغاءِ الزمان، فمن يفهمُ هذا أستطاعَ أن يتتصَّرَ على أيَّامه، وأن يُسَقِّطَ منها أوقاتَ الشرِّ والإثم، وأن يُمَيِّتَ في نفسهِ خواطرَ السَّوء؛ فمن معاني القبرِ ينشأُ للإرادةِ عقلُها القويُّ الثابت؛ وكلُّ الأيامِ المكروهةِ لا تجدُ لها مكاناً في زمنِ هذا العقل، كما لا يجدُ الليلُ محلاً في ساعاتِ الشَّمْسِ.

ثلاثةُ أرواحٍ لا تَصْلُحُ رُوحُ الإنسانِ في الأرضِ إلَّا بها:

روحُ الطبيعةِ في جمالِها، وروحُ المعبدِ في طهارته، وروحُ القبرِ في موعظته.

عروسٌ تُزَفُّ إلى قبرِها

١

كَانَ عَمْرُهَا طَاقَةً أَزْهَارٍ تُسَمَّى أَيَّامًا.

كَانَ عَمْرُهَا طَاقَةً أَزْهَارٍ يَنْتَسِقُ فِيهِ الْيَوْمُ بَعْدَ الْيَوْمِ كَمَا تَنْبُثُ الْوَرَقَةُ النَّاعِمَةَ فِي الزَّهْرَةِ إِلَى وَرَقَةٍ نَاعِمَةٍ مِثْلِهَا.

أَيَّامُ الصَّبَا الْمَرِخَةُ حَتَّى فِي أَحْزَانِهَا وَهَمُومِهَا؛ إِذْ كَانَ مَجِيئُهَا مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي خُصَّ بِشَبَابِ الْقَلْبِ، تَبْدُو الْأَشْيَاءُ فِي مَجَارِي أَحْكَامِهَا كَالْمَسْحُورَةِ؛ فَإِنْ كَانَتْ مُفْرِخَةً جَاءَتْ حَامِلَةً فَرَحَيْنِ، وَإِنْ كَانَتْ مُخْزِنَةً جَاءَتْ بِنَصْفِ الْحُزْنِ.

تِلْكَ الْأَيَّامُ الَّتِي تَعْمَلُ فِيهَا الطَّبِيعَةُ لِشَبَابِ الْجِسْمِ بِقُوَى مُخْتَلِفَةٍ: مِنْهَا الشَّمْسُ وَالْهَوَاءُ وَالْحَرَكَةُ، وَمِنْهَا الْفَرَحُ وَالْأَحْلَامُ!

وَشَبَّتِ الْعَذْرَاءُ وَأَفْرِغَتْ فِي قَالِبِ الْأَنْوَةِ الشَّمْسِيِّ الْقَمْرِي، وَاكْتَسَى وَجْهُهَا دِيبَاجَةً^(١) مِنَ الزَّهْرِ الْغَضِّ^(٢)، وَأَوْدَعَتْهَا الطَّبِيعَةُ سِرَّهَا النَّسَائِي الَّذِي يَجْعَلُ الْعَذْرَاءَ فَنًّا جَمَالٍ لِأَنَّهَا فَنُّ حَيَاةٍ، وَجَعَلَتْهَا تِمَثَالًا لِلظُّرْفِ: وَمَا أَعْجَبَ سِحْرَ الطَّبِيعَةِ عِنْدَ مَا تُجَمِّلُ الْعَذْرَاءَ بِظُرْفِ كُظُرْفِ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ سَتَلِدُهُمْ مِنْ بَعْدِ! وَأَسْبَغَتْ^(٣) عَلَيْهَا مَعَانِي الرِّقَّةِ وَالْحَتَّانِ وَجَمَالِ الْنَفْسِ؛ وَمَا أَكْرَمَ يَدَ الطَّبِيعَةِ عِنْدَ مَا تَمَهَّرَ الْعَذْرَاءُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْفَاتِ مَهَرَهَا الْإِنْسَانِي!

وَحُطِبَتِ الْعَذْرَاءُ لِزَوْجِهَا، وَعُقِدَ لَهُ عَلَيْهَا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنْ شَهْرِ مَارَسَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ بَعْدَ الظَّهْرِ.

(١) ديباجة: بشرة.

(٢) الغض: الطريء.

(٣) أسبغت: أعطت وشملت.

ومائت عذراء بعد ثلاث سنين، وأنزلت إلى قبرها في اليوم الثالث من شهر
مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر!

وكانت السنوات الثلاث عمر قلب يقطعهُ المرض، ينتظرون به العرس،
وينتظر بنفسه الرُمس!

يا عجائب القدر! أذاك لحنٌ موسيقيٌّ لأنينٍ استمرَّ ثلاث سنوات، فجاء آخره
موزوناً بأوله في ضبط ودقة؟

أكانت تلك العذراء تحملُ سرّاً عظيماً سيُغيّرُ الدنيا، فردّت الدنيا عليها يوم
التهنئة والابتسام والزيّنة، فإذا هو يومُ الولولة^(١) والدموع والكفن؟

٢

وها لك أيها الزمن! من الذي يفهمك وأنت مُدّة أقدار؟
واليوم الواحد على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعددِ أهلِ الدنيا جميعاً، وبهذا يعود
لكلِّ مخلوقٍ سرُّ يومه، كما أنّ لكلِّ مخلوقٍ سرٌّ روجه، وليس إليه لا هذا ولا
هذا.

وفي اليوم الزمني الواحد أربعمئة مليون يوم إنساني على الأرض! ومع ذلك
يُحصيه عقل الإنسان أربعاً وعشرين ساعة؛ يا للغباوة...!
وكل إنسان لا يتعلّق من الحياة إلا بالشعاع الذي يضيء المكان المظلم في
قلبه، والشمس بما طلعت عليه لا تستطيع أن تُنير القلب الذي لا يضيئه إلا وجه
محبوب.

وفي الحياة أشياء مكدوبة تُكبرُ الدنيا وتُصغرُ النفس، وفي الحياة أشياء
حقيقية تُعظمُ بالنفس وتُصغرُ بالدنيا؛ وذَهَبُ الأرض كلّهُ فقرٌ مُدقع حين تكونُ
المعاملة مع القلب.

أيُّها الدنيا؛ هذا تحقيرك الإلهي إذا أكبرك الإنسان!

* * *

(١) الولولة: العويل والبكاء.

ويا عَجَباً لِأَهْلِ السَّوءِ الْمَغْتَرِبِينَ بِحَيَاةٍ لَا بَدْءَ أَنْ تَنْتَهِيَ! فماذا يَرْتَقِبُونَ إِلَّا أَنْ
تَنْتَهِيَ؟ حَيَاةٌ عَجِيبَةٌ غَامِضَةٌ؛ وَهَلْ أَعْجَبَ وَأَغْمَضَ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَنْتَهَاءُ الْإِنْسَانِ إِلَى
آخِرِهَا هُوَ أَوَّلُ فِكْرِهِ فِي حَقِيقَتِهَا؟

فَعِنْدَمَا تَحِينُ الدَّقَائِقُ الْمَعْدُودَةُ الَّتِي لَا تَرُقُّمُهَا السَّاعَةُ وَلَكِنْ يَرُقُّمُهَا صَدْرُ
الْمُخْتَضِرِ^(١) عِنْدَ مَا يَكُونُ مُلْكُ الْمَلُوكِ جَمِيعاً كَالْتِرَابِ لَا يَشْتَرِي شَيْئاً
الْبَتَّةَ . . .

مَاذَا يَكُونُ أَيُّهَا الْمَجْرِمُ بَعْدَهَا تَقْتَرِفُ الْجِنَايَةَ، وَيَقُومُ عَلَيْكَ الدَّلِيلُ،
وَتَرَى حَوْلَكَ الْجُنْدَ وَالْقَضَاةَ، وَتَقِفُ أَمَامَكَ الشَّرِيعَةُ وَالْعَدْلُ؟

* * *

أَعْمَالُنَا فِي الْحَيَاةِ هِيَ وَحْدَهَا الْحَيَاةُ، لَا أَعْمَارُنَا، وَلَا حُظُوظُنَا. وَلَا فِيمَا
لِلْمَالِ، أَوْ الْجَاهِ، أَوْ الْعَافِيَةِ، أَوْ هِيَ مَعاً - إِذَا سَلِبَ صَاحِبُهَا الْأَمْنُ وَالْقَرَارُ وَالْأَمْنُ
فِي الدُّنْيَا مَنْ لَمْ تَكُنْ وَرَاءَهُ جَرِيمَةٌ لَا تَزَالُ تَجْرِي وَرَاءَهُ. وَالسَّعِيدُ فِي الْآخِرَةِ مَنْ لَمْ
تَكُنْ لَهُ جَرِيمَةٌ تُطَارِدُهُ وَهُوَ فِي السَّمَاوَاتِ.

كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَخْدَعَ أَلَاةُ صَاحِبِهَا وَفِيهَا (الْعَدَّادُ): مَا تَتَحَرَّكُ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَّا
أَشْعَرْتَهُ فَعَدَّاهَا؟ وَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكْذِبَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ وَفِيهِ الْقَلْبُ: مَا يَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ
إِلَّا أَشْعَرَهُ فَعَدَّهُ؟

٣

رَأَيْتُ الْعُرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ.

أَفَرَأَيْتَ أَنْتَ الْغَيَّ عِنْدَ مَا يُذْبِرُ عَنْ إِنْسَانٍ لِيَتْرَكَ لَهُ الْحَسْرَةَ وَالذِّكْرَى الْأَلِيمَةَ؟
أَفَرَأَيْتَ الْحَقَائِقَ الْجَمِيلَةَ تَذْهَبُ عَنْ أَهْلِهَا فَلَا تَتْرَكَ لَهُمْ إِلَّا الْأَحْلَامَ بِهَا؟ مَا أَنْعَبَ
الْإِنْسَانَ حِينَ تَتَحَوَّلُ الْحَيَاةُ عَنْ جَسَمِهِ إِلَى الْإِقَامَةِ فِي فِكْرِهِ!

وَمَا هِيَ الْهَمُومُ وَالْأَمْرَاضُ؟ هِيَ الْقَبْرِ يُسْتَبْطِئُ صَاحِبَهُ أحياناً فَيَنْفَضُ فِي
بَعْضِ أَيَّامِهِ شَيْئاً مِنْ تَرَابِهِ

رَأَيْتُ الْعُرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ، فَيَالِلَهُ مِنْ أَسْرَارِ الْمَوْتِ وَرَهْبَتِهَا! فَرَّغْ

(١) المختضر: المنازع سكرات الموت.

جسمها كما فرغت عندها الأشياء من معانيها! وتخلّى هذا الجسم عن مكانه للروح
تظهر لأهلها وتقف بينهم وقفة الوداع!

وتحوّل الزمن إلى فكر المريضة؛ فلم تغد تعيش في نهارٍ وليل، بل في فكرٍ
مُضيءٍ أو فكرٍ مظلم!

يا إلهي! ما هذا الجسم المتهذّم المُقبل على الآخرة؛ أهو تمثال بطلٍ تعبّره،
أم تمثال بدأ تعبّره؟

لقد وثقت أنّه الموت، فكان فكرها الإلهي هو الذي يتكلّم؛ وكان وجهها كوجه
العابد: عليه طيف الصلاة ونورها. والروح الإنسانية متى عبّرت لا تُعبّر إلّا بالوجه.

ولها ابتسامة غريبة الجمال؛ إذ هي ابتسامة آلام أيقنت أنّها مُوشِكة أن تنتهي!
ابتسامة روح لها مثل فرح السجين قد رأى سجنائه واقفاً في يديه الساعة يرقّب
الدقيقة والثانية ليقول له: انطلق!

ودخلت أعودها فرأت كأنني آت من الدنيا...! وتَسَمّت مني هواء الحياة،
كأنني حقيقة لا شخص!

ومن غير المريض المُدَنَّف^(١)، يعرف أنّ الدنيا كلمة ليس لها معنى أبداً إلّا العافية:
من غير المريض المُدَنَّف على الموت، يعيش بقلوب الناس الذين حولَه لا بقلبه؟
تلك حالة لا تنفع فيها الشمس ولا الهواء ولا الطبيعة الجميلة، ويقوم مقام
جميعها للمريض أهله وأحبّاءه!

وكان ذوّها من رهبة القدر الداني كأنهم أسرى حربٍ أجلسوا تحت جدارٍ
يريد أن ينقض! وكانت قلوبهم من فرعها تَبْضُ نبضاً مثل ضربات المَعَاوِل.

وباقتراب الحبيب المحتَضِر من المجهول، يُصْبِح من يحبّه في مجهولٍ آخر،
فتختلط عليه الحياة بالموت، ويعود في مثل حيرة المجنون حين يُمسك بيده الظلُّ
المتحرّك ليمنّعه أن يذهب وتُغروه في ساعة واحدة كابّة عمرٍ كامل، تُهَيِّئ له جلال
الجس الذي يشهد به جلال الموت!

(١) المدنف: الشديد المرض.

وحانث ساعة ما لا يفهم، ساعة كل شيء، وهي ساعة ألاشيء في العقل
الإنساني! فالتفتت العروس لأبيها تقول: «لا تحزن يا أبي...» ولأمها تقول: «لا
تحزني يا أمي...»!

وتبسمت للدموع كأنما تحاول أن تكلّمها هي أيضاً؛ تقول لها: «لا
تبكي...!» وأشفقت على أحيائها وهي تموت، فاستجمعت روحها ليبقى وجهها
حيّاً من أجلهم بضع دقائق! وقالت: «سأغادركم مبتسمة فيعيشوا مبسمين، ساترك
تذكاري بينكم تذكّار عروس!...».

ثم ذكرت الله وذكرتهم به، وقالت: «أشهد أن لا إله إلا الله». وكررتها
عشراً! وتملأت روحها بالكلمة التي فيها نور السماوات والأرض، ونطقت من
حقيقة قلبها بالاسم الأعظم الذي يجعل النفس منيرة تتلألأ حتى وهي في أحزانها.
ثم استقبلت خالق الرحمة في الآباء والأمهات وفي مثل إشارة وداع من
مسافر أبعد به القطار، ألقت إليهم تحية من أبسامتها وأسلمت الروح!

٤

يا لعجائب القدر! مشيناً في جنازة العروس التي تُزف إلى قبرها طاهرة
كالطفلة ولم يبارك لها أحد! فما جاوزنا ألدّار إلا قليلاً حتى أبصرْتُ على حائط في
الطريق إعلاناً قديماً بالخط الكبير الذي يصيح للأعين؛ إعلاناً قديماً عن (رواية)
هذا هو اسمها: «مبروك...!».

وأخترقنا المدينة وأنا أنظر وأنقصي^(١)، فلم أر هذا الإعلان مرة أخرى!
وأخترقنا المدينة كلّها، فلما انقطع العمران وأشرقنا على المقبرة، إذا آخر حائط
عليه الإعلان: «مبروك...!»

(١) أنقصي: أبحت.

موت أم

رجعتُ مِنَ الْجَنَازَةِ بَعْدَ أَنْ غَبَرَتْ قَدَمَيَّ سَاعَةً فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تَرَابُهَا تَرَابٌ وَأَشْعَى، وَكَانَتْ فِي النَّعْشِ لَوْلُؤَةٌ أَدْمِيَّةٌ مُحَطَّمَةٌ، هِيَ زَوْجَةُ صَدِيقِ طَخَطَحْتَهَا^(١) الأمراضُ ففَرَّقَتْهَا بَيْنَ عِلَلِ الْمَوْتِ، وَكَانَ قَلْبُهَا يُحْيِيهَا فَأَخَذَ يَهْلِكُهَا، حَتَّى إِذَا دَنَا أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهَا رَحْمَتُ اللَّهِ فَقَضَى فِيهَا قَضَاءَهُ. وَمَنْ ذَا الَّذِي مَاتَ لَهُ مَرِيضٌ بِالْقَلْبِ وَلَمْ يَزُدهُ مِنْ قَلْبِهِ فِي عِلِّيَّهِ كَالْعَصْفُورَةِ الَّتِي تَهْتَلِكُ تَحْتَ عَيْنِي ثَعْبَانٍ سَلَطَ عَلَيْهَا سَمُومَ عَيْنِهِ!

كَانَتْ الْمَسْكِينَةُ فِي الْخَامِسَةِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ سِنِهَا، أَمَّا قَلْبُهَا فَفِي الثَّمَانِينَ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ؛ هِيَ فِي سِنِّ الشَّبَابِ وَهُوَ مَتَهَدِّمٌ فِي سِنِّ الْمَوْتِ.

وَكَانَتْ فَاضِلَةً تَقِيَّةً صَالِحَةً، لَمْ تَتَعَلَّمْ وَلَكِنْ عَلِمَهَا التَّقْوَى وَالْفَضِيلَةُ. وَأَكْمَلُ النِّسَاءِ عِنْدِي لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي مَلَأَتْ عَيْنَيْهَا مِنْ الْكِتَابِ فَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى الْحَيَاةِ نَظَرَاتٍ تَحِلُّ مَشَاكِلَ وَتَخْلُقُ مَشَاكِلَ وَلَكِنَّهَا تِلْكَ الَّتِي تَنْظُرُ إِلَى الدُّنْيَا بَعَيْنَيْنِ مِثْلًا لثَلَاثَةِ بَنُورِ الْإِيمَانِ تُقَرِّئُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ السَّمَاوِيِّ، فَتُؤْمِنُ بِأَحْزَانِهَا وَأَفْرَاجِهَا مَعًا، وَتَأْخُذُ مَا تُعْطَى مِنْ يَدِ خَالِقِهَا رَحْمَةً مَعْرُوفَةً أَوْ رَحْمَةً مَجْهُولَةً. هَذِهِ عِنْدِي تُسَمَّى أَمْرَأَةً، وَمَعْنَاهَا الْمَعْبُدُ الْقُدْسِيُّ؛ وَتَكُونُ الزَّوْجَةَ، وَمَعْنَاهَا الْقُوَّةُ الْمُسْعِدَةُ؛ وَتَصِيرُ الْأُمَّ، وَمَعْنَاهَا التَّكْمِيلَةُ الْإِلَهِيَّةُ لِصُغَارِهَا وَزَوْجِهَا وَنَفْسِهَا.

وَمَهْمَا تَبْلُغِ الْمَرْأَةُ مِنَ الْعِلْمِ فَالْرَجُلُ أَعْظَمُ مِنْهَا بِأَنَّهُ رَجُلٌ، وَلَكِنْ الْمَرْأَةُ حَقٌّ الْمَرْأَةُ هِيَ تِلْكَ الَّتِي خُلِقَتْ لِتَكُونَ لِلرَّجُلِ مَادَّةَ الْفَضِيلَةِ وَالصَّبْرِ وَالْإِيمَانِ، فَتَكُونُ لَهُ وَحْيًا وَإِلْهَامًا وَعِزًّا وَقُوَّةً، أَيْ زِيَادَةً فِي سُرُورِهِ وَنَقْصًا مِنْ آلَامِهِ.

وَلَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ فِي الْحَيَاةِ أَعْظَمَ مِنَ الرَّجُلِ إِلَّا بِشَيْءٍ وَاحِدٍ، هُوَ صِفَاتُهَا الَّتِي تَجْعَلُ رَجُلَهَا أَعْظَمَ مِنْهَا.

* * *

(١) طَخَطَحْتَهَا: أَتَهَكَّأَهَا.

ومشيئتُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي الْبَسْتَهُ الْمَيِّتَةُ معنى القبرِ، إلى القبرِ الَّذِي الْبَسَ الْمَيِّتَةُ معنى الْبَيْتِ وَأَنَا مِنْذُ مَشَيْتُ فِي جَنَازَةِ أُمِّي (رَحِمَهَا اللَّهُ) لَا أَسِيرُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ مَعَ الْأَحْيَاءِ، وَلَكِنْ مَعَ الْمَوْتَى، فَاتَّبِعْ مِنَ الْمَيِّتِ صَدِيقاً لَيْسَ رَجُلًا وَلَا أَمْرَأَةً، لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ وَأَمَشِي فِي سَاعَةٍ لَيْسَتْ سَتَيْنَ دَقِيقَةً، لِأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنَ الزَّمَنِ؛ وَلَا أَرَى الطَّرِيقَ مِنْ طَرَقِ الْحَيَاةِ، لِأَنِّي فِي صُحْبَةِ مَيِّتٍ؛ وَتُصْبِحُ لِلْأَرْضِ فِي رَأْيِي جُغْرَافِيَّةً أُخْرَى عَمِيَ النَّاسُ عَنْهَا لِشِدَّةِ وَضُوحِهَا، كَالْأَلُوْهِيَّةِ خَفِيَتْ مِنْ شِدَّةِ مَا ظَهَرَتْ.

يقولون: إِنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ يَغْمُرُهَا الْبَحْرُ. أَمَا أَنَا فَأَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ لَا يَغْمُرُهَا الْبَحْرُ الَّذِي وَصَفُوا، وَلَكِنْ خِضْمٌ آخَرُ زَخَارٌ^(١) مُتَضَرَّبٌ، هُوَ ذَلِكَ الْبَحْرُ التَّرَابِيُّ الْعَظِيمُ الْمَسْمُومُ «الْمَقْبَرَةُ».

يقولون: إِنَّ الْحَيَاةَ هِيَ... هِيَ مَاذَا - وَيَحْكُمُ - أَيُّهَا الْمَغْرُورُونَ؛ أَفَلَا تَرَوْنَ هَذِهِ الصَّلَاةَ الدَّائِمَةَ بَيْنَ بَطْنِ الْأُمِّ وَبَطْنِ الْأَرْضِ؟

لَعَمْرِي كَيْفَ تَجْعَلُ هَذِهِ الْحَيَاةَ لِلنَّاسِ قُلُوبًا مَعَ قُلُوبِهِمْ، فَيُحْسُ الْمَرْءُ بِقَلْبِ، وَيَعْمَلُ بِقَلْبِ آخَرَ: يَعْتَقِدُ ضَرَرَ الْكَذِبِ وَيَكْذِبُ، وَيَعْرِفُ مَعْرَةَ الْإِثْمِ وَيَأْتُمُ، وَيُوقِنُ بِعَاقِبَةِ الْخِيَانَةِ ثُمَّ يَخُونُ؛ وَيَمْضِي فِي الْعَمْرِ مُنْتَهِيًا إِلَى رَبِّهِ، مَا فِي ذَلِكَ شَكٍّ، وَلَكِنَّهُ فِي الطَّرِيقِ لَا يَعْمَلُ إِلَّا عَمَلًا مِنْ قَدَرٍ مِنْ رَبِّهِ...؟

هَبَّتِ الرِّيحُ فِي السَّحَرِ عَلَى رَوْضَةٍ غَنَاءَ فَطَابَتْ لَهَا، فَعَقَدَتْ عُقْدَتَهَا أَنْ تَتَّخِذَ لَهَا بَيْتًا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الطَّيِّبِ لِتَقِيمَ فِيهِ... يَا لَهَا حِكْمَةً مِنَ التَّدْبِيرِ! تَزْعُمُ الرِّيحُ الْإِقَامَةَ عَلَى حِينِ كُلِّ وَجُودِهَا هُوَ لِحِظَةٌ مَرُورِهَا، وَتَحْلُمُ بِالْقَرَارِ فِي الْبَيْتِ وَهِيَ لَا تَمْلِكُ بِطَبِيعَتِهَا أَنْ تَقِفَ.

يَا لَهَا حِكْمَةً سَامِيَةً، لَا يَسْكُنُهَا مِنَ الْعَمَى إِلَّا أَسْخَفٌ مَا فِي الْحَقْمِ!

هَمَدَ الْحَيُّ وَأَنْطَفَأَتْ عَيْنَاهُ، وَلَكِنَّهُ تَحَرَّكَ فِي تَارِيخِهِ مِمَّا ضَيَّقَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَسَّعَ، وَأَصْبَحَ يَنْظُرُ بَعِينَ مِنْ عَمَلِهِ إِمَّا مُبْصِرَةً أَوْ كَالْعَمِيَاءِ؛ فَلَوْ تَكَلَّمَ يَصِفُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ النُّجُومَ عَلَى الْأَرْضِ مَصَابِيحُ مُأْتَمٍ أَقِيمَ بَلِيلٍ. وَمَا أَعْجَبَ أَنْ يَجْلِسَ أَهْلُ الْمَأْتَمِ فِي الْمَأْتَمِ لِيُضَحَّكُوا وَيَلْعَبُوا!

(١) زَخَار: ملىء بالحركة والضجة.

ولو نطقَ أَلَمْوتى لَقالوا: أيُّها الأحياء، إِنَّ هذا الحاضرَ الَّذي يمرُّ فيكونُ ماضِيَكُم في الدُّنيا، هو بعينه الَّذي يكونُ مستقبلَكُم في الآخرة، لا تزيدون فيه ولا تُنقصون. وإنَّ الدُّنيا تبدأ عندَكُم مِنَ الأعلى إلى الأدنى: مِنَ الْعِظَماءِ إلى الْفُقراءِ؛ وَلَكِنَّها تنقلبُ في الآخرة فتبدأ مِنَ الْفُقراءِ إلى الْعِظَماءِ؛ وأنتم ترسمونها بخطوطِ الْمَطامعِ وَالْحُظوظِ، ويرسمُها اللَّهُ بخطوطِ الْحِزَمِ وَالْمُجاهِدةِ؛ إِنَّ التَّامَّ على الأرضِ مَنْ تَمَّ بمَتاعِها وَلَذائِها، وَلَكِنَّ التَّامَّ في السَّماءِ مَنْ تَمَّ بنفسِهِ وَحَدِّها.

يا أسفاً! لَنْ يَقولَ أَلَمْيْتُ لِحَيِّ شَيْئاً، وَمَنْ يَدري؟ لعلَّنا ونحن نُلحِدُ لِلْموتى ونُزِلُهم في قبورِهِم، يَروُنَّ بأرواحِهِم الْخالِدةَ أَننا نحن موتاهمُ الْمساكينِ، وأننا مدفونون في القبرِ الَّذي يسمونه «الكرة الأرضية»! وهل الْكرةُ الْأرضِيَّةُ مِنَ اللانهايةِ إِلَّا حفرةٌ برَجُلٍ نَمَلَةٍ لِيَذْفَرَ فيها نَملةٌ...

الحياة... أتريدُ أَنْ تعرفَها على حقيقتها؟ هي الْمُبْهَماتُ الْكثيرةُ الَّتِي ليسَ لها في الآخرِ إِلَّا تفسِيرٌ واحدٌ: حلالٌ أو حرامٌ.

ورجعنا معَ الصديقِ إلى بيتِهِ، وَلَهُ خمسةُ أَطفالٍ صِغارٍ لو أَنَّهُم همُ الَّذِينَ أَنتَرَعُوا مِنْ أَهْمِهِمْ لَتَرَكَ كُلُّ واحدٍ على قلبِها مِثْلَ الْمِكْواةِ الْمُحتمى عليها في النارِ إلى أَنْ تحمرَّ؛ وَلَكِنَّ أَهْمَهُم هي الَّتِي تُزَعِّتُ منهم، فكانَ بقاؤُهُم في الْحياةِ تخفيفاً لِسَكْرَةِ الْموتِ عليها. وَعَشِيَّتُها الْعَشِيَّةُ فماتَتْ وهي تضحك، إِذْ تَراهم نائمينَ تحتَ جَنَاحِ الرَّحمةِ الْإلهِيَّةِ الْمَمْدودِ، وَقالتْ: إِنَّها تسمعُ أحلامَهُم. وكانوا همَ عَقْلُها في ساعَةِ الْموتِ!

تبارك الَّذي جعلَ في قلبِ أَلَمْ دُنْيا من خَلْقِهِ هو، ودُنْيا من خَلْقِ أولادِها!
تبارك الَّذي أُنابَ أَلَمْ ثوابَ ما تُعاني، فجعلَ فرحَها صورةً كبيرةً من فرحِ صغارِها!

وجاءَ أَكْبَرُ الأَطفالِ الْخمسةِ، وكأَنَّهُ ثمانيةُ أُرطالٍ مِنَ الْحياةِ لا ثمانيةُ أَعوامٍ مِنَ الْعمرِ؛ جاءَ إلينا كما يَجيءُ الْفَرْعُ لِقُلوبٍ مَطْمَئِنَّةٍ، إِذْ كانَ في عَينِيهِ الْباكِيتِينَ معنى فَقَدِ الْأَمِّ!

وطعَتْ عليه الدُموعُ فتناولَ مَندِيلَهُ ومسَحَها بِيَدِهِ الصَّغيرةِ، وَلَكِنَّ رُوحَهُ

البيّمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معاني يَتِمُّها!
 وظهرَ الانكسارُ في وجهه يعبرُ بِبَلاغةٍ أَنَّهُ قد أَحسَّ حَقِيقَةَ ضَعْفِهِ وطفولتِهِ بِإِزاءِ
 المصيبةِ الَّتِي نزلَتْ بِهِ، وجلسَ مستسلماً تُتَرَجِّمُ هَيْئَتُهُ معانيَ هذه الكلمة: «رِفْقاً
 بي!».

ثُمَّ تطيرُ من عينيه نظراتُ في الهواء، كأنَّما يُحسُّ أَنَّ أمَّهُ حوَلَهُ في الجَوِّ
 ولكنَّهُ لا يراها!

ثُمَّ يُرْجِي عينيه في إغماضٍ خفيفةٍ، كأنَّما يرجو أن يرى أمَّهُ في طَوَيْتِهِ! ^(١)
 ولا يَصْدُقُ أَنَّها ماتت، فَإِنَّ صَوْتَهَا حيٌّ في أذنيه لا يزالُ يسمَعُهُ من أَمْسٍ!
 ثُمَّ يعودُ إلى وجهه الانكسارُ والاسْتِسْلامُ، ويتملّلُ في مجلسِهِ، فينطقُ
 جسمُهُ كُلُّهُ بهذه الكلمة: «يا أُمِّي!».

أَحْسَ - ولا ريبَ - أَنَّهُ قد ضاعَ في الوجود، لأنَّ الوجودَ كانَ أمَّهُ .
 ولمسَ خشونةَ الدنيا منذُ الساعة، بعدَ أن فقدَ الصِّدَرَ الَّذِي فِيهِ وَحدَهُ لِيُنْ
 الحِياةَ لِأَنَّ فِيهِ قَلْبَ أمِّهِ وروحَهَا.
 وشعرَ بالذلِّ ينسابُ إلى قَلْبِهِ الصَّغِيرِ، لأنَّ تلكَ التي كانَ يملكُ فيها حقَّ
 الرَّحْمَةِ قد أَخَذَتْ مِنْهُ وتركتَهُ بِلا حقٍّ في أحدٍ؛ وليسَ لِأَحَدٍ أَمَانٌ!
 ولبستُهُ المِسْكَنَةُ، لأنَّ لَهُ شيئاً عَزيزاً أَصْبَحَ وراءَ الزَّمانِ فَلَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ!
 ولبستُهُ المِسْكَنَةُ، لأنَّهُ صارَ وَحدَهُ في المَكانِ كما هو وَحدَهُ في الزَّمانِ!
 وأرْتسمَ على وجهِهِ التَّعْجُبُ، كأنَّهُ يَسأَلُ نَفْسَهُ: «إِذا لم تُكنِ أُمِّي هُنا، فلماذا
 أنا هُنا؟!».

ثُمَّ تَغْرَغَرَتْ ^(٢) عِناهُ فيُخْرِجُ منديلَهُ ويمسحُ دَمْعَهُ بيَدِهِ الصَّغِيرَةِ، ولكنَ رُوحَهُ
 البيّمةَ تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهه معاني يَتِمُّها!

ونَهَضَ الصَّغِيرُ ولم ينطقْ بِذاتِ شَفَةِ؛ نَهَضَ يحملُ رَجولَتَهُ التي بدأتْ منذُ
 الساعة!

(٢) تغرغرت: دمعت.

(١) طويته: سريره داخله.

انتهت - أيها الطفل المسكين - أيامك من الأم؛ هذه الأيام السعيدة التي كنت
تعرف الغد فيها قبل أن يأتي معرفتك أمس الذي مضى؛ إذ يأتي الغد ومعك أمك!
وبدأت - أيها الطفل المسكين - أيامك من الزمن، وسيأتي كل غد محجّياً
مرهوباً؛ إذ يأتي لك وحدك، ويأتي وأنت وحدك!
الأم...؟ يا إلهي، أي صغير على الأرض يجد كفايته من الروح إلا في
الأم؟

قصة أب

حدَّثني المسكينُ فيما حدَّث وهو يصفُ ما نزلَ به قال :

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا آبَاءَ قَتْسًا^(١) بِالْوَلَدِ فِي آثَارِهِمْ ،
وَمَدًّا بِالنَّسْلِ فِي وَجُودِهِمْ ، وَزَادَ مِنْهُ فِي أَرْوَاحِهِمْ أَرْوَاحًا ، وَضَمَّ بِهِ إِلَى قُلُوبِهِمْ
قُلُوبًا ، وَمَلَأَ أَعْيُنَهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِمَا تَقَرُّ بِهِ قُرَّةَ عَيْنٍ كَأَنْتَ لَمْ تَجِدْ ثُمَّ وَجَدْتَ ؛ فَهُمْ
بِهَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ يَمْلِكُونَ الْقُوَّةَ الَّتِي تُرْجِعُهُمْ أَطْفَالًا مِثْلَهُمْ فِي كُلِّ مَا يَسْرُهُمْ ، فَيَكْبُرُ
الْفَرْخُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ كَانَ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ ضَيْلًا صَغِيرًا ، مَا يَسْرُهُمْ ، فَيَكْبُرُ الْفَرْخُ
فِي أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ كَانَ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ ضَيْلًا صَغِيرًا ، وَيَعْظُمُ الْأَمَلُ فِي أَشْيَائِهِمْ وَإِنْ
كَانَ هُوَ عَنْ شَيْءٍ حَقِيرٍ لَا يُؤْبَهُ^(٢) لَهُ .

وتلك حقيقة من حقائق السعادة لا أسمى ولا أعظم منها إلا الحقيقة
الأخرى : وهي القوة التي يتحوّل بها الكوّن في قلب الأوالدين إلى كنزٍ مِنَ الْحُبِّ
وَالرَّحْمَةِ وَجَمَالِ الْعَاطِفَةِ ، بِسُخْرِ مِنْ ابْتِسَامَةِ طِفْلِ أَوْ طِفْلةً ، أَوْ بِكَلِمَةٍ مِنْهُمَا أَوْ
حَرَكَةٍ ، عَلَى حِينٍ لَا يَتَحَوَّلُ مِثْلُ ذَلِكَ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ بِمَالِ الدُّنْيَا ، وَلَا بِمُلْكِ الدُّنْيَا .

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا آبَاءً ، وَلَكِنَّهُ أَبْتَلَانِي بِأَنْ أَكُونَ أَبًا ،
وَأَخْرَجَ لِي مِنْ أَفْرَاحِ قَلْبِي أَحْزَانًا قَلْبِي ! وَلَقَدْ كُنْتُ كَرَجُلٍ مَلَكَ دَارًا يَسْتَمْتِعُ بِهَا ،
فَتَمَنَّى أَنْ يُشْرِعَ^(٣) فِي جَانِبٍ مِنْهَا غُرْفَةً يَزَخِرُفُهَا ، فَلَمَّا تَمَّ لَهُ ذَلِكَ وَبَلَغَ الْفَقْرُ ،
أَنهَدَمَتِ الدَّارُ وَبَقِيَتِ الْغُرْفَةُ قَائِمَةً !

عَمَرَكِ اللَّهُ ، أَشْعُرُ هَذَا الرَّجُلُ فِي نَكْبَتِهِ بِالْغُرْفَةِ أَمْ بِالْدارِ ؟ وَهَلْ تَرَاهُ زَادَ أَوْ
نَقَصَ ؟ وَيَا لِبَيْتِهِمَا بَيْتٌ وَغُرْفَةٌ مِنْ بَيْتٍ ؛ فَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَحْيَا بِالْبِنَاءِ إِذَا مَاتَتْ بِالْهَدْمِ ،
وَلَكِنْ مَنْ ذَا يُحْيِي الزَّوْجَةَ مَاتَتْ بَعْدَ أَنْ وَضَعَتْ بِكَرْهَا الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ !
إِنَّهَا طِفْلةٌ وُلِدَتْ وَكَأَنَّمَا أَخْرَجَتْ مِنْ تَحْتِ الرُّدَمِ ، إِذْ وُلِدَتْ تَحْتَ مَاضٍ مِنْ

(١) نسا : زاد .

(٢) يؤبه : يهتم ، يلتفت إليه .

(٣) أي أن يفتح غرفة تؤدّي إلى الشارع .

أَلْحَيَاةَ مِنْهُمْ، وَهَلْ فَرْقٌ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ أُمُّهَا قَدْ وَلَدَتْهَا فِي الْأَصْحَرَاءِ ثُمَّ أَكْرَهْتَ أَنْ تَدْعَهَا وَحْدَهَا فِي ذَلِكَ الْقَفْرِ تَصْرُخُ وَتَبْكِي! فَالْمَسْكِينَةُ عَلَى الْحَالِينِ مَقْطَعَةٌ أَوَّلَ مَا أَنْقَطَعَتْ مِنْ حَنَانِ الْأُمِّ وَرَحْمَتِهَا.

طِفْلَةٌ وَلَدَتْ صَارِخَةً، لَا صَرْخَةَ أَلْحَيَاةِ، وَلَكِنْ صَرْخَةَ النُّوحِ وَالنَّذْبِ عَلَى أُمِّهَا.

صَرْخَةُ حَزِينَةٍ مَعْنَاهَا: ضَعُونِي مَعَ أُمِّي وَلَوْ فِي الْقَبْرِ!
صَرْخَةُ تَرْتِيدٍ، كَأَنَّ الْمَسْكِينَةَ شَعَرَتْ أَنَّ الدُّنْيَا خَالِيَةٌ مِنَ الصَّدْرِ الَّذِي يُدْفِنُهَا!
صَرْخَةُ تَتَرَدَّدُ فِي ضَرَاةٍ^(١)، كَأَنَّهَا جُمْلَةٌ مَرْكَبَةٌ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ: «يَا رَبِّ أَرْحَمْنِي مِنْ حَيَاةٍ بِلَا أُمٍّ!».

قَالَ الْمَسْكِينُ وَهُوَ يَبْكِي أُمْرَأَتَهُ:

وَلَمَّا ضَرَبَهَا الْخَاضُ، ضَاعَقَتْ قُوَّتُهَا مِنْ شَعُورِهَا أَنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدَ قَلِيلٍ مَضَاعَقَةً بِمَوْلُودِهَا، وَسَتَكُونُ رُوحِينَ لَا رُوحًا وَاحِدَةً، وَتَلِدُ لِي أَلْحَيَاةَ وَالْحُبَّ الْإِلَهِيَّ مَعًا، وَتَأْتِي لِقَلْبِي بِمَثَلِ طُفُولَتِهِ الْأُولَى الَّتِي يَسْتَحِيلُ أَنْ تَأْتِيَ الرَّجُلَ إِلَّا مِنْ زَوْجِهِ. كُلُّ ذَلِكَ ضَاعَقَ قُوَاهَا سَاعَةً وَشَدَّ مِنْهَا؛ وَلَكِنْ مَا أَسْرَعَ مَا تَبَيَّنَتْ أَنَّهُ الْمَوْتُ، إِذْ عَصَلَتْ وَعَسَرَ خُرُوجَ مَوْلُودِهَا.

وَجَاءَهَا الْجِرَاجِيُّ بِمَبْضِعِهِ، وَكَأَنَّهَا رَأَتْهُ ذَابِحًا لَا طَبِيبًا، فَجَعَلَتْ تَعْبُرُ بَعَيْنَيْهَا، إِذْ لَمْ تَمْلِكْ فِي آلَامِهَا الْقَاتِلَةِ غَيْرَ لُغَةٍ هَاتِنِ الْعَيْنِينَ.

كَانَتْ بِنَظَرَةٍ تَبْكِي عَلَى بُؤْسِي، وَبِأُخْرَى تَبْكِي عَلَى بُؤْسِ مَوْلُودِهَا وَشِقَاتِهِ؛ وَبِنَظَرَةٍ تُودَعُنِي، وَبِأُخْرَى تَدْعُو أَلَلَّةً لِي جِزَاءَ مَا أَحْسَنْتُ إِلَيْهَا؛ وَبِنَظَرَةٍ تَتَوَجَّعُ لِنَفْسِهَا، وَبِأُخْرَى تَتَأَلَّمُ مِنْ أَنَّهَا تَرَانِي أَكَادُ أَجَنَ.

نَظَرَاتُ نَظَرَاتٍ...

يَا إِلَهِي! لَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ وَاقِفٌ بَيْنَ عَشْرِينَ مَرَّةً تُحِيطُ بِهِ، فَإِنَا أَرَاهُ مَوْتًا مُتَعَدِّدًا لَا مَوْتًا وَاحِدًا، وَكُلُّ نَظَرَةٍ مِنْ عَيْنِي زَوْجَتِي إِلَيَّ كَأَنَّهَا هِيَ نَظَرَةٌ، وَكَأَنَّ عِنْدِي أَنَا مَرَّةً أَلُوحٍ لِلرُّوحِ.

(١) ضَرَاةٌ: تَوَسَّلَ.

ولكنّها لم تنسَ أنّها تموت لِوَضْعِ مولودها، وأنّ هذه الآلامَ الدُمويّة الذابحة هي الوسيلةُ لأنْ تتركَ لي بقيّةَ حيّةٍ منها؛ فيا للرحمةِ والحنانِ والحُبِّ! لقدِ أبَسَتْ لي وهي تموت؛ وهي تُلِد؛ وهي تُدَبِّح!

ليستَ رحمَةُ المرأةِ المُحبّةِ خيالاً إلّا إذا كانتَ حرارةُ الشمسِ التي تُحيي الدُّنيا خيالاً أيضاً؛ إنّ هذا القلبَ النَّسويَّ المُستقرَّ فوقَ أحشاءِ تحملُ الجنينَ صابرةً راضيةً فرحةً بالآلامِ، وتغذوه وتُقاسِمُه حياةَ نفسها - هذا القلبُ يحملُ الحُبَّ أيضاً صابراً راضياً فرحاً بالآلامِ، ويغذوه ويُقاسِمُه حياةَ نفسه.

وللرحمةِ الإلهيّةِ أدلّةٌ كثيرةٌ تدلُّ الإنسانَ عليها دلالاتٍ مختلفة؛ فالشمسُ تدلُّ عليها بالضوءُ الَّذي تُطعّمُه الحياة، والهواءُ يدلُّ عليها بالضوءُ الَّذي تتنفّسهُ الحياة، والماءُ يدلُّ عليها بالضوءُ الَّذي تُشربُه الحياة، وهكذا إلى أنْ يأتي في الآخرِ قلبُ المرأةِ فيدلُّ على رحمَةِ اللهِ بالحُبِّ الَّذي تقومُ بِهِ الحياة.

إتسامَةُ الحُبِّ غالبتْ زفرياتِ الموتِ الّتي تَعْتَلِجُ من تحتها حتى غلبتها، وأعادَتِ الحياةَ لحظةً إلى وجهِ زوجتي لإراها آخرَ ما أراها في صورةِ المُحبّةِ لي، فكانَ كُلُّ جمالِ نفسها منتشراً على ذلك الوجه، وظهرتْ فيه روحها وعواطفها تودّعني وداعاً حزيناً متبمسماً يتكلّم؛ يتكلّمُ بعجزِهِ عن الكلامِ.

إتسامَةُ لا ريبَ أنّ فيها أشياءَ ليستَ من جمالِ هذه الدنيا ولا من حقائقها؛ فكأنّما التَمَعْتَ بأشعةٍ مِنَ الخُلْدِ تَرِفُ ريفها على وجهِ الحبيبِ ليُظهِرَ ساعةَ الموتِ أنّ حُبّه أقوى مِنَ الموتِ.

قالَ المُسكينُ: ونثرَ الطَّيِّبُ ذا بطنها فكانتَ طفلةً، وما كانتَ زوجتي تقترحُ أنْ يكونَ الجنينُ غيرَها، بل كانتَ مستيقنةً أنّها تضمُّها أنثى، وصنعتَ لها ثيابها، وشئها بزينَةِ الأنوثة، وعرضتَ أسماءَ البناتِ فأختارَتِ اسمَها أيضاً، وكنتُ أكرهُ ذلكَ منها وأريدُ ولدًا لا بنتًا، فكانتَ تُغايظُني بعملها وإصرارها غيظَ دُعابةٍ لا غيظَ جفاءٍ.

ومَضَتْ لا تذكرُ إلّا بنتها مدّةَ الحَمَلِ، ولا تتكلّمُ إلّا عن بنتها، وقد كنتُ أعجبُ لذلك؛ فلمّا قضى اللهُ فيها قضاءه، علمتُ أنّ ذلكَ أمرٌ من أمرِ الروحِ، فكانَ إلهامٌ فيها أنّها على بابِ قبرِها، وأنّها لن ترى طفلتها، ولن تعيشَ لها،

فَعَاشَتْ أَبَامَ الْحَمَلِ مَعَ ذَكَرَاهَا: تَضُمُّ ثِيَابَهَا إِلَى صَدْرِهَا وَتَحْمِلُهَا عَلَى يَدِهَا،
وَتُنَاغِيهَا وَتُقْبِلُهَا، وَتَأْخُذُهَا مِنَ الْوَهْمِ وَتَرُدُّهَا إِلَيْهِ؛ وَكَذَلِكَ تَعِمَّتِ الْمَسْكِينَةُ
بِالْمَسْكِينَةِ!

لَكَ اللَّهُ يَا مُعْجِزَةَ الرَّحْمَةِ، يَا نَفْسَ الْأُمِّ!

وَلَمَّا قِيلَ: مَاتَتْ. جَعَلَ يَكْلُمُنِي الْمَتَكَلِّمُ وَلَا أَعْقِلُ؛ فَإِنَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَأْتِي
بِالْمَصِيبَةِ الْمُتَوَقَّعَةِ طَالَ أَرْتِقَابُهَا، لَا تَأْتِي بِمَعَانٍ لَغْوِيَّةٍ كَغَيْرِهَا مِنَ الْكَلَامِ، بَلْ
بِأَسْلِحَةٍ تَضْرِبُ فِي النَّفْسِ وَفِي الْعَقْلِ، وَتُخْجِنُهَا جِرَاحاً وَفَتْكاً.

وَجَعَلَنِي مَوْتُهَا كَأَنِّي مَيِّتٌ يَحْمِلُ نَفْسَهُ، مَا حَوْلَهُ إِلَّا الْمَشِيعُونَ؛ وَأَحْسَنْتُ
كَأَنَّ قُوَّةَ أَخَذْتُ بِأَحَدِي رَجُلِي فَوَضَعْتُهَا فِي الْآخِرَةِ وَتَرَكْتُ الثَّانِيَةَ فِي الدُّنْيَا،
وَلَجَعَلَنِي مِنَ الْجَزَعِ مَا اللَّهُ عَالِمٌ بِهِ، وَوَجِدْتُ أُخْرَقَ الْوَجْدَ، وَبَكَيْتُ أَحْرَ الْبَكَاءِ؛
وَجَعَلْتُ أَفْكَارِي تَنْحَدِرُ مِنْ رَأْسِي إِلَى حَلْقِي فَأَخْتَنُقُ بِهَا ثُمَّ لَا يُنْفَسُ عَنِّي إِلَّا
الدَّمْعُ، كَأَنَّ أَعْضَائِي أَخْتَلَّتْ مِنِّي ضَغَطْنِي مِنَ الْحُزَنِ، فَأَنَا أَتُنَفَّسُ بِرِثْتِي وَعَيْنِي.

بِمَوْتِهَا شَعَرْتُ بِهَا؛ وَلَعَلُّهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِلَذَّةِ الْحُبِّ كَامِلَةً إِلَّا
فِي آلامِ الْحُبِّ وَحْدَهَا، وَكَانَتْ فِي حَيَاتِهَا تَضَعُ مِنْ رَوْحِهَا فِي سُرُورِي، وَهَذَا هُوَ سُرُّ
الْمَرْأَةِ الْمَحْبُوبَةِ: يَجِدُ مُحِبُّهَا فِي كُلِّ سُرُورٍ لِمَحَابِّ رُوحَانِيَّةٍ؛ وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ بَعْدَ
مَوْتِهَا، فَجَعَلْتُ رَوْحَهَا فِي أَحْزَانِي؛ وَلَوْلَا أَنَّ رَوْحَهَا فِي أَحْزَانِي لَقَتَلْتَنِي الْمَصِيبَةُ.

وَكُنْتُ أَذْلِفُ^(١) وَرَاءَ النَّعْشِ وَقَدْ بَطَلَ فِي نَفْسِي الشُّعُورُ بِالدُّنْيَا، وَكَانَ النَّاسُ
يَمْشُونَ حَوْلِي بِمَا فِيهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ، وَكَانُوا ذَاهِبِينَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ عَلَى أَنَّهُمْ سَائِرُونَ
كَمَا يَذْهَبُونَ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ؛ أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَمْشِي بِمَا فِيَّ مِنَ الْحُبِّ مِنْكَسِراً مُتَخَذِلاً
مَنْضَغِضِعاً، لِأَنِّي وَحْدِي سَائِرٌ وَرَاءَ مَا لَا يُلْحَقُ.

وَتَقُلُّ النَّاسُ عَلَى قَلْبِي، وَرَجَعَ كُلُّ أَمْرِهِمْ عِنْدِي إِلَى الْعَيْبِ وَالنَّقِيصَةِ، إِذْ
كَانَ لِي عَقْلٌ طَارِئٌ مِنَ الْحَالَةِ الَّتِي أَنَا فِيهَا لَيْسَ مِثْلُهُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، وَكُنْتُ وَحْدِي
أَلْمَصَابَ بَيْنَهُمْ، فَكُنْتُ وَحْدِي بَيْنَهُمْ أَلْعَاقِلُ.

أَنَا أَمْشِي لِأَنْتَهِي إِلَى آخِرِ مُصِيبَتِي، وَهُمْ يَمْشُونَ لِيَنْتَهَوْا إِلَى آخِرِ الطَّرِيقِ؛
وَسَتَّانُ^(٢) مَا نَحْنُ وَسَتَّانُ!

(٢) سَتَّانُ: اسم فعل ماضٍ بمعنى يَبْغِدُ.

(١) ذَلَفَ: مَشَى.

ولمَّا رَأَيْتُ قَبْرَهَا أَبْتَدَرْتُ عَيْنَايَ تَنْظُرَانِ بِالدُمُوعِ لَا بِالنَّظَرِ، وَرَأَيْتُ التُّرَابَ كَأَنَّهُ
غَيُومٌ مَلُونَةٌ بِالْوَانِ السَّحْبِ الدَّاكِنَةِ تَتَهَيَّأُ فِي سَمَايْهَا تَحْتَ الظَّلَامِ لِتُخْفِي كَوَكْباً مِنَ
الْكَوَاكِبِ؛ وَظَهَرَ لِي الْقَبْرُ كَأَنَّهُ قَمٌّ أَلْأَرْضِ يُخَاطَبُ الْإِنْسَانَ بِحَزْمٍ صَارِمٍ، يُخَاطَبُ الْفَقِيرَ
وَالْغَنِيَّ، وَالضَّعِيفَ وَالْقَوِيَّ، وَالْمَلُوكَ وَالصَّعَالِيكَ: «أَنْ كُلَّ قُوَّةٍ تَنْزَعُ هُنَا».

* * *

قال المسكين: وكما يجد الإنسان في أيامِ المطرِ رائحةَ النسيمِ المبْتَلِ بالماءِ،
كُنْتُ أَسْتَرْوِجُ^(١) فِي رَجْعَتِي إِلَى الدَّارِ رَائِحَةَ نَسِيمِ مَبْتَلٍ بِالدُمُوعِ؛ وَحَضَرْتُ الْمَائِمَ
وَعَزَانِي النَّاسِ، فَكُنْتُ فِيهِمْ كَالْمَأْسُورِ بَيْنَهُمْ: لَا أَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ يَدْعُونِي فَأَنْجُوَ عَلَى
وَجْهِي، وَلَا أَرَى إِلَّا أَنَّهُمْ يَجْرُعُونِي الْوَجُودَ غُصَّصاً كَمَا تَجْرَعُثُ الْفَقْدَ غُصَّةً
غُصَّةً؛ إِلَى أَنْ تَفْرُقُوا مَعَ سَوَادِ اللَّيْلِ فَأَنْكَفَأْتُ إِلَى الدَّارِ، فَإِذَا كُلُّ شَيْءٍ قَدْ تَغَيَّرَ
وَلِمَسَهُ الْمَوْتُ لَمَسَةً، وَإِذَا أَلْدَارُ نَفْسِهَا كَالْعَيْنِ الْمَقْرُوحَةِ مِنْ آثَارِ الْبَكَاءِ: مَا تَمَّ
شَيْءٌ إِلَّا لِيَطَالِعَنِي بِأَنْ مَسَرَانِي قَدْ مَاتَتْ!

ولاحَ الصُّبْحُ لِعَيْنِي الْكَاهِنَتَيْنِ صُبْحاً فَاتِراً تَبَيَّنَتْ فِيهِ الْخَجَلُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: «لَمْ
أَطْلُعْ لَكَ»، فَانْسَلَّتْ مِنْ أَلْبَيْتٍ، وَذَهَبَتْ أَمْشِي فِي دُنْيَا هِيَ الْكَأَبَةُ الْمَضِيئَةُ سَخَرَتْ
أَلْفَادَارَ مِنْهَا بِإِظْهَارِهَا فِي هَذَا الضَّوِّ مَظْهَرَ وَجْهِ الْعَجُوزِ الْمُتَصَابِيَةِ فِي زِينَةِ لَا
تَزِيدُهَا إِلَّا قُبْحاً!

ومضيتُ عَلَى وَجْهِي لَا غَايَةَ لِي، أَضْرَبُ فِي كُلِّ جِهَةٍ كَأَنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أَهْرَبَ
مِنْ نَفْسِي! وَمَا خَطَرَ لِي قَطُّ أَنِّي فِي يَوْمٍ جَدِيدٍ، بَلْ كُنْتُ عِنْدَ نَفْسِي لَا أَزَالُ.
أَمْسَ، وَتَغَيَّرَ عِنْدِي الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ: فَأَحْذَهُمَا سَاعَةً مَوْتٍ لَا تَتْرُكُ مَا فِيهَا، وَالْآخِرُ
قَبْرٌ مَيِّتٌ لَا يَرُدُّ مَا فِيهِ.

أَوْ مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي يَنْتَهِي فِيهِ الْمَوْجُودُ لِيَعْدَبُنَا بِالتَّذَكُّرِ أَنَّهُ كَانَ مَوْجُوداً!

* * *

قالَ الْمَسْكِينُ ثُمَّ أَعَادَتْنِي قَدَمَايَ إِلَى الْبَيْتِ لِأَرَى طِفْلَتِي - وَمَا كُنْتُ رَأَيْتُهَا - وَلَقَدْ
كَانَتْ وَلادَتْهَا أَوَّلَ الْحَيَاةِ لَهَا، وَأَوَّلَ الْحَيَاةِ لِي أَيْضاً؛ إِذْ لَوْلَاهَا لَأَتَحَرْتُ غَيْرَ شَيْءٍ.
يَا وَيْلَتَا! لَمْ تَلْتَقِي عَيْنِي بِعَيْنِ الطِّفْلِ حَتَّى أَنْفَجَرْتُ تَبْكِي. أَتَبْكِينَ لِي يَا ابْنَتِي
أَمْ عَلَيَّ؟

(١) استروح: أشم.

أهَذَا بِكَأُوكِ أَيْتُهَا الْمَسْكِينَةُ ، أَمْ هُوَ صَوْتُ قَلْبِكَ الْيَتِيمِ ؟
 أَصَوْتُكَ أَنْتِ ، أَمْ هِيَ رَوْحُ أُمِّكَ تَصْرُخُ تَرْثِي لِي ، وَتَتَوَجَّعُ لِفِرْطِ مَا قَاسَيْتِ !
 يَا أَبْنَتِي ، إِنَّمَا أَنْتِ الْحَقِيقَةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي خَرَجْتَ لِي مِنْ كُلِّ تِلْكَ الْخَيَالَاتِ
 الشَّعْرِيَّةِ الْجَمِيلَةِ ، خَيَالَاتِ الْأَيَّامِ السَّعِيدَةِ الَّتِي مَرَّتْ !
 يُخَلِّقُ الْمَوَالِيدُ مِنَ اللَّحْمِ وَالْدَمِ ! وَأَرَاكِ أَنْتِ يَا مَسْكِينَةَ ، خُلِقْتَ مِنَ اللَّحْمِ
 وَالْدَمِ وَالْدُمُوعِ !

بَقِيَّةُ حَيَاةٍ مَاتَتْ ! فَهَلْ مَعْنَى ذَلِكَ إِلَّا أَنَّكَ بَقِيَّةُ مَوْتٍ يَحْيَا ؟
 مَسْكِينَةُ ، مَسْكِينَةُ ؛ لَوْ أَنَّ نَوَامِيسَ الْعَالَمِ مَتَغَيِّرَةٌ لِشَيْءٍ لَتَغَيَّرَتْ مِنْ أَجْلِ بَوْسِكَ
 فَرَدَّتْ لَكَ الْأُمُّ ؛ وَلَكِنَّهَا لَنْ تَتَغَيَّرَ ، وَمَا بِكَأُونا وَلَا أَمْنًا وَتَعَاسُنَا إِلَّا تَرَاثَ^(١) الْحَيَاةِ
 فِي أَجْسَامِنَا الْأَرْضِيَّةِ ، كُلُّ ذَلِكَ طَبِيعَةٌ وَلَكِنْ بَقَعَةٌ أَنْظِفُ مِنْ بَقَعَةٍ ، وَأَرَاكِ يَا أَبْنَتِي
 كَالْبَيْتِ الَّذِي هُدِمَ أَوَّلَ مَا بُنِيَ يَمْلُؤُهُ تَرَابُهُ !
 لَنْ تَتَغَيَّرَ النَوَامِيسُ ، فَلَنْ تَجْدِي عَطْفَ الْأُمِّ ، وَلَكِنْ لَنْ يَتَغَيَّرَ قَلْبِي أَيْضًا ، فَلَنْ
 تُحْرَمِي عَطْفَ الْأَبِ .

وَإِذَا صَبَرَ النَّاسُ عَلَى الْحَيَاةِ فَمِنْ أَجْلِكَ يَا مَسْكِينَةَ ! مِنْ أَجْلِ ضَعْفِكَ
 وَأَنْقِطَاعِكَ سَاعَانِي الصَّبْرَ لَكَ ، وَأَعَانِي الصَّبْرَ لِي ، وَأَعَانِي الصَّبْرَ عَنْ أُمِّكَ ، سَأَصْبِرُ
 عَلَى الصَّبْرِ نَفْسِي !

يَا أَبْنَتِي ، يَا أَبْنَتِي ، لِمَاذَا وَضَعْتِكَ الْأَقْدَارُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ فِي النَّاحِيَةِ الَّتِي لَيْسَ
 فِيهَا إِلَّا قَبْرٌ مَظْلُمٌ مَقْفَلٌ عَلَى أُمِّكَ ، وَأَبٌ مَسْكِينٌ مَقْفَلٌ عَلَى آلَامِهِ ؟

قَالَ الْمَسْكِينُ : وَهَكَذَا كُنَيْتُ مِنْ أَهْلِ الْبُؤْسِ وَالْهَمِّ ، فَلَمْ أَتَزَوَّجْ إِلَّا لِتَصْنَعْ لِي
 حَبِيبِي دُمُوعِي ، ثُمَّ لَمْ تَمُتْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَرَكْتِ لِي حَبِيبَةً أُخْرَى سَتَظُلُّ زَمَنًا طَوِيلًا
 تَصْنَعُ لِي دُمُوعِي !

(١) تراث : وراثة .

السَّمَكَة

حَدَّثَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ الْبَغْدَادِيُّ قَالَ: حَصَلْتُ فِي مَدِينَةِ (بَلْخ) سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَمِائَتِينَ، وَعَالِمُهَا يَوْمَئِذٍ شَيْخُ خُرَاسَانَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الزَّاهِدُ صَاحِبُ الْمَوَاعِظِ وَالْجُحَمِ؛ وَهُوَ رَجُلٌ قَلْبُهُ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ، وَنَفْسُهُ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَالْقَلْبُكَ الْأَعْلَى مِنْ وَرَاءِ نَفْسِهِ، كَأَنَّهُ يُلْقَى عَلَيْهِ فِيمَا زَعَمُوا.

وَكَانَ يُقَالُ لَهُ عِنْدَهُمْ: (لَقَمَانُ هَذِهِ الْأُمَّةِ)؛ لِمَا يُعْجِبُهُمْ مِنْ جُحَمِهِ فِي الزَّهْدِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَقَدْ حَضَرْتُ مَجَالِسَهُ وَحَفِظْتُ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئاً كَثِيراً، كَقَوْلِهِ: مَنْ دَخَلَ مَذْهَبَنَا هَذَا (يَعْنِي الطَّرِيقَ) فَلْيَجْعَلْ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ خِصَالٍ مِنَ الْمَوْتِ: مَوْتُ أَبْيَضٍ، وَمَوْتُ أَسْوَدٍ، وَمَوْتُ أَحْمَرٍ، وَمَوْتُ أَخْضَرٍ؛ فَالْمَوْتُ الْأَبْيَضُ الْجُوعُ، وَالْمَوْتُ الْأَسْوَدُ أَحْتِمَالُ الْأَذَى، وَالْمَوْتُ الْأَحْمَرُ مُخَالَفَةُ النَّفْسِ، وَالْمَوْتُ الْأَخْضَرُ طَرُحُ الرِّقَاعِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ (يَعْنِي لِبْسَ الْمَرْقَعَةِ وَالْخَلْقِ مِنَ الثِّيَابِ).

وَقُلْتُ يَوْمَ إِصْحَابِهِ وَتَلْمِيزِهِ (أَبِي ثَرَابٍ) وَجَارِيَّتُهُ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْكَلَامِ: قَدْ فَهَمْنَا وَجْهَ التَّسْمِيَةِ فِي الْمَوْتِ الْأَخْضَرِ مَا دَامَتِ الْمَرْقَعَةُ خَضِرَاءَ؛ فَمَا الْوَجْهُ فِي الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ؟ فَجَاءَ بِقَوْلٍ لَمْ أَرْضَهُ، وَلَيْسَ مَعَهُ دَلِيلٌ، ثُمَّ قَالَ: فَمَا عِنْدَكَ أَنْتَ؟ قُلْتُ: أَمَّا الْجُوعُ فَيُمِيتُ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا وَيَتْرَكُهَا بَيَاضاً نَقِيَّةً، فَذَلِكَ الْمَوْتُ الْأَبْيَضُ؛ وَأَمَّا أَحْتِمَالُ الْأَذَى فَهُوَ أَحْتِمَالُ سَوَادِ الْوَجْهِ عِنْدَ النَّاسِ، فَهُوَ الْمَوْتُ الْأَسْوَدُ؛ وَأَمَّا مُخَالَفَةُ النَّفْسِ فَهِيَ كِلَا ضَرَامِ النَّارِ فِيهَا، فَذَلِكَ الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ.

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ: وَكُنْتُ ذَاتَ نَهَارٍ فِي مَسْجِدِ (بَلْخ) وَالنَّاسُ مُتَوَافِرُونَ^(١) يَتَنَظَّرُونَ (لَقَمَانَ الْأُمَّةِ) لِيَسْمَعُوهُ، وَشَغَلَهُ بَعْضُ الْأَمْرِ فَرَأَتْ^(٢) عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مَنْ يَعْظُنَا إِلَى أَنْ يَجِيءَ الشَّيْخُ؟ فَالْتَفَتَ إِلَيَّ أَبُو ثَرَابٍ وَقَالَ: أَنْتَ رَأَيْتَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، وَرَأَيْتَ بِشْراً الْكَهَافِيَّ وَفَلَاناً وَفَلَاناً، فَقُمْ فَحَدِّثِ النَّاسَ عَنْهُمْ، فَإِنَّمَا هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالُهُمْ هُمْ بَقَايَا النَّبُوَّةِ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي إِلَى الْأَسْطُوَانَةِ الَّتِي

(٢) رات: تأخر.

(١) متوافرون: كثير.

يجلس إليها إمام خراسان فأجلسني ثمة^(١) وقعد بين يدي.

وتطاوَلت الأعناق^(٢)، ورماني الناس بأبصارهم^(٣)، وقالوا: البغدادِي! البغدادِي! وكأنما ضُوعِفَتْ عندهم بمجلسي مرةً وبنسبتي مرةً أخرى، فقلْتُ في نفسي: - واللَّهِ - ما في الموتِ الأحمرِ ولا الأخضرِ ولا الأسودِ موعظة، ولو لِسِ عزرائيلَ قَوْسٌ قُرْخٌ لَأَفْسَدَ شعْرُ هذه الألوانِ معناه، وإنَّما يجبُ أن يكونَ كما يجبُ أن يكونَ؛ ولا موعظةٌ في كلامٍ لم يمتلئ من نفسٍ قاتلةٍ، ليكونَ عملاً فيتحوَّلَ في النفوسِ الأخرى عملاً ولا يبقى كلاماً؛ وإنَّه ليسَ ألَوْعُظُ تأليفَ القولِ للسامعِ يسمعه، لكنَّه تأليفُ النفسِ لِنَفْسٍ أخرى تراها في كلامها، فيكونُ هذا الكلامُ كأنَّه قرابةٌ بينَ النفسين، حتى لَكَأَنَّ الدَّمَّ المتجاذِبَ يجري فيه ويدورُ في ألفاظه.

وكنْتُ رأيتُ رؤيا (بيلخ) تتصلُّ بقصةٍ قائمةٍ في بغداد، فقصصْتُها عليهم، فكانتِ القصةُ كما حكيتها: أني أمشجتُ بالفقرِ في سنةٍ تسعِ عشرةً ومائتين؛ وأنحسَمْتُ مادتي^(٤) وقحطُ منزلي قحطاً شديداً جمعَ عليَّ الحاجةُ والضُرُّ والمسكنةُ؛ فلو أنكسَمَتِ الصحراءُ المُجْدِبَةُ فصُعُرَتْ ثُمَّ صُعُرَتْ حتى ترجعَ أذرعاً في أذرع، لكانتِ هي دارِي يومئذٍ في محلَّةِ بابِ البصرةِ من بغداد.

وجاءَ يومٌ صَخراويُّ كأنما طلعتْ شمسُهُ من بينِ الرملِ لا من بينِ السُّحُبِ، ومُرَّتِ الشَّمْسُ على دارِي في بغدادَ مروَّرها على الورقةِ الجافَّةِ المعلقةِ في الشجرةِ الخضراءِ؛ فلم يكنْ عندنا شيءٌ يُسِغُهُ خَلْقُ آدميٍّ، إذ لم يكنْ في الدارِ إلا ترابُها وجِجارتُها وأجداعُها؛ وليَ امرأةٌ ولي منها طفلٌ صغير، وقد طَوَّيْنَا على جوعٍ يَخْيفُ^(٥) بالجوفِ خَسفاً كما تَهْبِطُ الأرضُ؛ فَلَتَمَثَّيْتُ حينئذٍ لو كُنَّا جُرْذَاناً فَتَقَرَّضَ الخشبُ! وكانَ جوعُ الصبيِّ يزيدُ المرأةَ ألماً إلى جوعِها، وكنْتُ بهما كالجانحِ بثلاثةِ بطونٍ خاوية.

فقلْتُ في نفسي: إذا لم تأكلِ الخشبَ والحجارةَ فلنأكلَ بشمئها. وجمعتُ نيتي على بيعِ الدارِ والتحوُّلِ عنها، وإنَّ كانَ خروجي منها كالخروجِ من جُلدي: لا

(١) ثمة: ظرف زمان بمعنى هناك.

(٢) تطاولت الأعناق: اشرأبت.

(٣) رماني الناس بأبصارهم: ينهار.

(٤) انحسمت مادتي: افتقرت.

يَسْمَى إِلَّا سَلَخًا وَمَوْتًا؛ وَبِئْسَ لَيْلَتِي وَأَنَا كَالْمُتَخَنِّ حُمْلٍ مِنْ مَعْرَكَةٍ: فَمَا يَتَقَلَّبُ إِلَّا عَلَى جِرَاحٍ تَعْمَلُ فِيهِ عَمَلُ السِّبْوَفِ وَالْأَسْنَةِ الَّتِي عَمَلَتْ فِيهَا.

ثُمَّ خَرَجْتُ بَغْلَسٍ^(١) لِصَلَاةِ الصُّبْحِ؛ وَالْمَسْجِدُ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ السَّمَاءُ تَكُونُ فِيهِ، فَرَأَيْتُنِي عِنْدَ نَفْسِي كَأَنِّي خَرَجْتُ مِنَ الْأَرْضِ سَاعَةً. وَلَمَّا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ رَفَعَ النَّاسُ أَكْفَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ (تَعَالَى)، وَجَرَى لِسَانِي بِهَذَا الدَّعَاءِ: «اللَّهُمَّ بِكَ أَعُوذُ أَنْ يَكُونَ فَقْرِي فِي دِينِي، أَسْأَلُكَ النِّفْعَ الَّذِي يُصْلِحُنِي بِطَاعَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ بَرَكَةَ الْأَرْضِ بِقَضَائِكَ، وَأَسْأَلُكَ الْقُوَّةَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالرِّضَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

ثُمَّ جَلَسْتُ أَتَأَمَّلُ شَأْنِي، وَأَطْلُتُ الْجُلُوسَ فِي الْمَسْجِدِ كَأَنِّي لَمْ أَغْذُ مِنْ أَهْلِ الزَّمَنِ فَلَا تَجْرِي عَلَيَّ أَحْكَامُهُ، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الضُّحَى وَأَبْيَضَتِ الشَّمْسُ جَاءَتْ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ، فَخَرَجْتُ أَنْتَسِبُ لِبَيْعِ الدَّارِ، وَأَنْبَعَثُ وَمَا أَدْرِي أَبْنَ أَذْهَبَ، فَمَا سِرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى لَقِينِي (أَبُو نَصْرٍ الصَّيَادُ) وَكُنْتُ أَعْرِفُهُ قَدِيمًا، فَقُلْتُ: يَا أَبَا نَصْرٍ! أَنَا عَلَى بَيْعِ الدَّارِ؛ فَقَدْ سَاءَتِ الْحَالُ وَأَخَوَجَتِ الْخِصَاصَةُ، فَأَقْرِضْنِي^(٢) شَيْئًا يُمَسِّكُنِي عَلَى يَوْمِي هَذَا بِالْقِيَامِ مِنَ الْعَيْشِ حَتَّى أَبِيعَ الدَّارَ وَأَوْفِكَ.

فَقَالَ: يَا سَيِّدِي! خُذْ هَذَا الْمَنْدِيلَ إِلَى عِيَالِكَ، وَأَنَا عَلَى أَثَرِكَ لِأَجِزْ بِكَ إِلَى الْمَنْزِلِ. ثُمَّ نَاوَلَنِي مَنَدِيلًا فِيهِ رُقَاقَتَانِ بَيْنَهُمَا حُلُوى، وَقَالَ: إِنَّهُمَا وَاللَّهِ بَرَكَةٌ الشَّيْخِ.

قُلْتُ: مَنْ الشَّيْخُ وَمَا الْقِصَّةُ؟

قَالَ: وَقَفْتُ أَمْسٍ عَلَى بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ وَقَدْ أَنْصَرَفَ النَّاسُ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَمَرَّ بِي أَبُو نَصْرٍ بِشَرِّ الْحَافِي فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ فِي هَذَا الْوَقْتِ؟ قُلْتُ: مَا فِي الْبَيْتِ دَقِيقٌ وَلَا خَبْزٌ وَلَا دَرَهْمٌ وَلَا شَيْءٌ يُبَاعُ. فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ؛ إِحْمِلْ شَبَكَتَكَ وَتَعَالَ إِلَى الْخُنْدُقِ؛ فَحَمَلْتُهَا وَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا أَنْتَهَيْتُنَا إِلَى الْخُنْدُقِ قَالَ لِي: تَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ. فَفَعَلْتُ، فَقَالَ: سَمِّ اللَّهَ - تَعَالَى - وَالْقِيَامَةَ الشَّبَكَةَ. فَسَمَّيْتُهَا وَالْقِيَامَةَ، فَوَقَعَ فِيهَا شَيْءٌ ثَقِيلٌ، فَجَعَلْتُ أَجْرُهُ فَشَقُّ عَلَيَّ؛ فَقُلْتُ لَهُ: سَاعِدْنِي فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَنْقَطَعَ الشَّبَكَةُ، فَجَاءَ وَجَرَّهَا مَعِي، فَخَرَجْتُ سَمَكَةً عَظِيمَةً لَمْ أَرِ مِثْلَهَا سَمَنًا وَعِظْمًا وَقَرَاهَةً. فَقَالَ: خُذْهَا وَبِعْهَا وَأَشْتَرِ بِشَمَنِهَا مَا يُصْلِحُ

(١) غُلَسَ: الْهَزِيعُ الْآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ الْعَتَمَةِ قَبْلَ الْفَجْرِ.

(٢) أَقْرِضْ: دِينَ.

عِيَالَكَ . فحملتها فاستقبلني رجلٌ اشتراها، فابتعت لأهلي ما يحتاجون إليه، فلما أكلت وأكلوا ذكرْتُ الشيخَ فقُلْتُ أهدي له شيئاً، فأخذتَ هاتين الرقاقتين وجعلتَ بينهما هذه الحلوى، وأتيتُ إليه فطرقتُ الباب، فقال: من؟ قُلْتُ: أبو نصر! قال: افتح وضع ما معك في الدهلِيز وأدخل. فدخلتُ وحدتهُ بما صنعتُ فقال: الحمد لله على ذلك. فقُلْتُ: إني هياتُ للبيتِ شيئاً وقد أكلوا وأكلتُ ومعِي رقاقتانِ فيهما حلوى.

قال: يا أبا نصر! لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجتِ السمكة! اذهب كُلْهُ أنت وعيالك.

قال أحمدُ بنُ مسكين: وكنتُ مِنَ الجوعِ بحيثُ لو أصبتُ رغيفاً لحسبتهُ مائةُ أنزلتُ مِنَ السماء، ولكنَّ كلمةَ الشيخِ عَنِ السَّمَكَةِ أشبعتني بمعانيها شبعاً ليس من هذه الدنيا، كأنما طعمتُ منها ثمرةً من ثمارِ الجنة؛ وطفقتُ^(١) أردُّها لِنَفْسِي وأتأملُ ما تفتقُ الشهواتُ على الناس، فأيقنتُ أنَّ البلاءَ إنما يُصيبنا من أننا نُفسرُ الدنيا على طولها وعرضها بكلماتٍ معدودة، فإذا استقرَّ في أنفسنا لفظٌ من ألفاظِ هذه الشهوات، استقرَّتْ به في النفسِ كُلُّ معانيهِ مِنَ المعاصي والذنوب، وأخذتُ شياطينُ هذه المعاني تحومُ على قلوبنا، فنصبحُ مهَيَّئينَ لهذه الشياطين، عاملينَ لها، ثُمَّ عاملين معها، فتدخلُنا مداخلُ السوءِ في هذه الحياة، وتُفجِّمُنا في الورطة^(٢) بعدَ الورطة، وفي أهْلَكَة بعدَ الهلْكة.

وما هذه الشياطينُ إلَّا كالذبابِ والبعوضِ والهوامِ^(٣)، لا تحومُ إلَّا على رائحةٍ تجذبها، فإنَّ لم تجذ في النفسِ ما تجتمعُ عليه، تفرقتُ ولم تجتمع، وإذا ألمتِ الواحدةُ منها بعدَ الواحدةٍ لم تثبت. فلو أننا طردنا من أنفسنا الكلماتِ التي أفسدت علينا رؤيةَ الدنيا كما خُلِقت. لَكَانَ لِلدُّنْيَا في أنفسنا شكلٌ آخرُ أحسنُ وأجملُ من شكلها، ولكانتْ لنا أعمالٌ أخرى أحسنُ وأظهرُ من أعمالنا.

فالشيخُ لم يكن في نفسه معنىً لكلمةِ (التلذذ)، ويطرده من نفسه هذا اللفظُ الواحد، طَرَدَ معانيَ أشرِّ كُلِّها، وصَلَحَ له دينه، وخَلَصَتْ نَفْسُهُ لِلْخَيْرِ ومعاني

(١) طفق: شرع، بدأ.

(٢) الورطة: المصيبة.

(٣) الهوام: الحشرات.

الخير . ولو أن رجلاً وضع في نفسه امرأة يعشقها، لصارت الدنيا كلها في نفسه كالمخدع^(١) : ما فيه إلا المرأة وحدها بأسبابها إليه وأسبابه إليها .

وقد كنت سمعت في درس شيخنا أحمد بن حنبل هذا الحديث : «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ» . فما فهمت - والله - معناه إلا من كلمة الشيخ في السمكة، وقد علمتها هذا الصياد العامي؛ فالشياطين تنجذب إلى المعاني، والمعاني يوجدها اللفظ المستقر في القلب استقرا - غرض أو شهوة أو طمع؛ فإذا خلا القلب من هذه المعاني، فقد أمن منازعتها له وشغلها إياه، فيصبح فوقها لا بينها؛ ومتى صار القلب فوق الشهوات ولم يجد من الفاظها ما يغويه ويعترض نظره إلى الحقائق، انكشفت له هذه الحقائق فأنكشف له المَلَكُوت؛ فإذا وقع بعد في واحدة من اللذات ولو (كالرفاقتين والحلوى)، استغلت الأشياء عليه فحجبته^(٢)، وعاد بينها أو تحتها، وعمي عمى اللذة؛ والحجاب على البصر كائنه تعلق العَمَى على البصر .

وكنت لا أزال أعجب من صبر شيخنا أحمد بن حنبل وقد ضرب بين يدي المعتصم بالسياط حتى غشي عليه فلم يتحول عن رآيه؛ فعلمت الآن من كلمة السمكة أنه لم يجعل في نفسه للضرب معنى الضرب، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدمي؛ ولو هو صبر على هذا صبر الإنسان لَجَزَع^(٣) وتحول، ولو ضرب ضرب الإنسان لتألم وتغير؛ ولكنه وضع في نفسه معنى ثبات الشئ وبقاء الدين، وأنه هو الأمتة كلها لا أحمد بن حنبل، فلو تحول لتحول الناس، ولو ابتدع لابتدعوا؛ فكان صبره صبر أمة كاملة لا صبر رجل فرد، وكان يضرب بالسياط ونفسه فوق معنى الضرب، فلو قرضوه بالمقاريض^(٤) ونشروه بالمشايير لما نالوا منه شيئاً؛ إذ لم يكن جسمه إلا ثوباً عليه، وكان الرجل هو الفكر ليس غير .

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل، ولكنهم يرونها أمانات قد أثمروا عليها من الله ليبقى بهم معانيها في هذه الدنيا؛ فهم يزرعون في الأمم زرعاً بيد الله، ولا يملك الزرع غير طبيعته، وما كان المعتصم وهو يريد شيخنا على غير رآيه، وعقيدته إلا كالأحمق يقول لشجرة التفاح: أثمري غير التفاح .

(٣) جزع : خاف .

(٤) قرض : قض .

(١) المخدع : مكان النوم .

(٢) حجبته : منعت .

قال أحمدُ بنُ مسكين: وأخذتُ الرُّقَاقَتَيْنِ وأنا أقولُ في نفسي: لعنَ اللهُ هذه الدنيا! إنَّ من هوانِها على اللهِ أنَّ الإنسانَ فيها يلبَسُ وجهَهُ كما يلبَسُ نعلَهُ. فلو أنَّ إنساناً كانَتْ لَهُ نظرةٌ ملائكيَّةٌ ثُمَّ اعترضَ الخلقُ ينظُرُ في وجوههم، لرأى عليها وحولاً وأقداراً كالتي في بَعَالِهِمْ أو أَقْدَرُ أو أَقْبَحَ، ولعلَّه كان لا يرى أجملَ الوجوه التي تَسْتَهِيهُمُ النَّاسُ^(١) وتَتَصَبَّأُهَا^(٢) مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ، إلَّا كالأحذية العتيقة . . .

ولكنِّي أحسستُ أنَّ في هاتين الرُّقَاقَتَيْنِ سرَّ الشيخ، ورأيتُهما في يدي كالوثيقتين بخيرٍ كثير؛ فقلتُ: على بركةِ اللهِ. ومضيتُ إلى داري؛ فلما كُنتُ في الطريق لقيتُني امرأةٌ معها صبيٌّ، فنظرتُ إلى المنديل وقالت: يا سيدي، هذا طفلاً يتيمٌ جائعٌ ولا صبرَ لَهُ على الجوع، فأطعمهُ شيئاً - يرحمك اللهُ - ونظرَ إليَّ الطفلُ نظرةً لا أنساها؛ حَسِبْتُ فيها خُشوعَ ألفِ عابِدٍ يعبدونَ اللهَ (تعالى) مُنْقَطِعِينَ عَنِ الدُّنْيَا؛ بل ما أَظُنُّ أَلْفَ عابِدٍ يستطيعون أن يُزُوا النَّاسَ نظرةً واحدةً كالتي تكونُ في عَيْنِ صَبِيٍّ يتيمٍ جائعٍ يسألُ الرِّحمةَ. إنَّ شِدَّةَ أَلْهَمٍ لتَجْعَلَ وجوهَ الأطفالِ كوجوهِ أَلْقَدِيسِينَ، في عَيْنِ مَنْ يراها مِنَ الآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، لِعَجْزِ هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ عَنِ الشَّرِّ الأَدَمِيِّ وَأَنْقِطَاعِهِمْ إِلَّا مِنَ اللهِ والقلبِ الإنسانيِّ، فيظهرُ وجهُ أَحَدِهِمْ وكأنَّهُ يَصْرُخُ بمعانيهِ يقول: يا ربَّاهُ يا ربَّاهُ!

قال أحمدُ بنُ مسكين: وَخَيَّلَ إِلَيَّ حِينَئِذٍ أَنَّ الْجَنَّةَ نَزَلَتْ إِلَى الْأَرْضِ تَغْرِضُ نَفْسَهَا عَلَى مَنْ يُشْبِعُ هَذَا الطِّفْلَ وَأُمَّهُ، وَالنَّاسَ عَمِّي لَا يُبْصِرُونَهَا، وَكَأَنَّهُمْ يَمْرُونَ بِهَا فِي هَذَا الْموْطَنِ مَرورَ الْحَمِيرِ بِقَصْرِ الْمَلِكِ: لو سِئِلْتُ فَضَّلْتُ عَلَيْهِ الْإِضْطِبَالَ الذي هِيَ فِيهِ.

وذكرتُ أمراتي وأبنتها وهما جائعانِ مَذْأَمَسَ، غيرَ أنَّي لم أَجِدْ لهما في قلبي معنى الزَّوْجَةِ والوَلَدِ: بل معنى هذه المرأةِ الْمُحْتَاجَةِ وطفليها، فَأَسْقَطْتُهما عَنِ قلبي ودَفَعْتُ ما في يدي لِلْمَرْأَةِ وَقُلْتُ لَهَا: خذي وَأطعمي أَبْنَتَكَ، و - وَاللَّهِ - ما أملكُ بِيضَاءَ ولا صَفْراءَ، وإنَّ في داري لَمَنْ هُوَ أَحوجُ إِلَى هذا الطَّعامِ؛ وَلولا هذه الْخَلَّةُ بي لَتَقَدَّمْتُ فيما يَصْلُحُكَ. فَدَمَعَتْ عَيْنَاهَا، وَأَشْرَقَ وَجْهُ الصَّبِيِّ، وَلَكِنْ طَمَّ^(٣) عَلَى قلبي ما أَنَا فِيهِ فلم أَجِدْ لِلدَّمْعَةِ معنى الدَّمْعَةِ، وَلَا لِلْبَسْمَةِ معنى الْبَسْمَةِ.

(١) تستهيهم الناس: تستهويهم.

(٢) تصبأها: تتعفها.

(٣) طم: ختم.

وقلت في نفسي: أما أنا فأطوي إن لم أصب طعاماً، فقد كان أبو بكر الصديق يطوي^(١) ستة أيام، وكان ابن عمر يطوي، وكان فلان وفلان بمن حفظنا أسماءهم وروينا أخبارهم؛ ولكن من للمرأة وأبناها بمثل عقلي ونيتي؟ وكيف لي بهما؟

ومشيت وأنا منكسِرٌ منقبِضٌ، وكأني كنتُ نسيتُ كلمةَ الشيخ: «لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجتِ السمكة». فذكرتها وصرفتُ خاطري إليها وشغلتُ نفسي بتدبرها وقلتُ: لو أنني أشبعْتُ ثلاثةَ بجوعٍ اثنينَ لحُرمتُ خمسَ فضائلَ وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة، وهذه الفضيلةُ محتاجةٌ إلى مثلِ هذا العمل، وهذا العملُ محتاجٌ إلى أن يكونَ هكذا، فما يستقيمُ الأمرُ إلا كما صنعتُ.

وكانتِ الشمسُ قد أنبسطت في السماءِ وذلك وقتُ الضُّحى الأعلى، فملتُ ناحيةً وجلسْتُ إلى حائطٍ أفكرُ في بيعِ الدارِ ومن يتاعها، فأنا كذلك إذ مرَّ أبو نصرٍ الصيادُ وكأنَّه مُستَطارٌ فرحاً، فقال: يا أبا محمد، ما يجلسُك ههنا وفي دارك الخيرُ والغنى، قلتُ: سبحانَ الله! من أين خرجتِ السمكةُ يا أبا نصر؟

قال: إني لفي الطريقِ إلى منزلك، ومعِي ضرورةٌ من القُوتِ أخذتها لِعِيالك، ودراهمٍ استَدَثْتُها لك، إذا رجلٌ يستدِلُّ الناسَ على أبيك أو أحدٍ من أهله، ومعه أثقالٌ وأحمال، فقلتُ له: أنا أدلك. ومشيتُ معه أسأله عن خبره وشأنيه عند أبيك. فقال: إنَّه تاجرٌ من البصرة، وقد كان أبوك أودعه مالا من ثلاثين سنة، فأفلسَ وأنكسرَ المالُ ثم تركَ البصرةَ إلى خُراسانَ، فصلَّحَ أمره على التجارة هناك، وأيسرَ بعدَ البُخنة، وأسَظَهرَ بعدَ الجَذلان، وأقبلَ جدُّه بالثَّراءِ والغنى؛ فعادَ إلى البصرة، وأرادَ أن يتحلَّلَ، فجاءك بالمالِ وعليه ما كانَ يربحه في هذه الثلاثين سنة، وإلى ذلك طرائفُ وهدايا.

* * *

قال أحمدُ بنُ مسكين: وأنقلبُ إلى داري فإذا مالٌ جَمٌّ وحالٌ جميلة! فقلتُ: صدقَ الشيخ: «لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجتِ السمكة!» فلو أنَّ هذا الرجلَ لم يلقَ في وجهه أبا نصر، في هذه الطريق، في هذا اليوم، في هذه الساعة، لما أهدى إليَّ؛ فقد كانَ أبي مغموراً لا يعرفه أحدٌ وهو حيٌّ؛ فكيفَ به ميتاً من وراءِ عشرين سنة؟

والَيْتُ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ شكري هذه النعمة؛ فلم تكن لي هِمةٌ إلا البحثُ عن

(١) يطوي: ينام بلا عشاء.

المرأة المحتاجة وأبنها، فكفيتهما وأجريت عليهما رزقاً، ثُمَّ اتَّجَرْتُ فِي الْمَالِ، وَجَعَلْتُ أَرْبُهُ^(١) بِالْمَعْرُوفِ وَالصَّنِيعَةِ وَالْإِحْسَانِ وَهُوَ مُقْبِلٌ يَزْدَادُ وَلَا يَنْقُصُ، حَتَّى تَمَوَّلْتُ وَتَأَثَّلْتُ^(٢)

وَكأَنِّي قَدْ أَعْجَبْتَنِي نَفْسِي، وَسَرَّنِي أَنِّي قَدْ مَلَأْتُ سِجِلَاتِ الْمَلَائِكَةِ بِحَسَنَاتِي، وَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ كُتِبْتُ عِنْدَ اللَّهِ فِي الصَّالِحِينَ، فَفُتْتُ لَيْلَةَ فَرَاثِنِي فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْخَلْقُ يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَالْهَوَلُ هَوَلُ الْكَوْنِ الْأَعْظَمِ عَلَى الْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ، يُسْأَلُ عَنْ كُلِّ مَا مَسَّهُ مِنْ هَذَا الْكَوْنِ. وَسَمِعْتُ الصَّائِحَ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ بَنِي آدَمَ! سَجَدَتْ أَلْبَهَاتُكُمْ شُكْرًا لِلَّهِ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْهَا مِنْ آدَمَ. وَرَأَيْتُ النَّاسَ وَقَدْ وَسَّعَتْ أَبْدَانُهُمْ فَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ مَخْلُوقَةً مَجْسُومَةً، حَتَّى لَكَانَ الْفَاسِقُ عَلَى ظَهْرِهِ مَدِينَةً كُلُّهَا مُخْرِيَاتٍ!

وقيل: وَضَعْتُ الْمَوَازِينَ. وَجِيءَ بِي لِوَزْنِ أَعْمَالِي، فَجُعِلْتُ سِتَاتِي فِي كِفَّةٍ وَأُلْقِيَتْ سِجِلَاتُ حَسَنَاتِي فِي الْأُخْرَى، فَطَاشَتْ^(٣) أَلْسِنَاتُ وَرَجَحَتْ أَلْسِنَاتُ، كَأَنَّمَا وَزَنُوا الْجَبَلَ الصَّخْرِيَّ الْعَظِيمَ الضَّخْمَ بِلِفَافَةٍ مِنَ الْقُطْنِ...

ثُمَّ جَعَلُوا يُلْقُونَ الْحَسَنَةَ بَعْدَ الْحَسَنَةِ مِمَّا كُنْتُ أَصْنَعُهُ فَإِذَا تَحْتَ كُلِّ حَسَنَةٍ شَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ: كَالزَّيَاءِ وَالْعُرُورِ وَحُبِّ الْمُخَمَّدَةِ عِنْدَ النَّاسِ وَغَيْرِهَا، فَلَمْ يَسْلَمْ لِي شَيْءٌ، وَهَلَكْتُ عَنِّي حُجَّتِي، إِذِ الْحِجَّةُ مَا يَبْيُنُهُ الْمِيزَانُ، وَالْمِيزَانُ لَمْ يَدُلَّ إِلَّا عَلَى أَنِّي فَارِغٌ.

وسمعتُ أَلْصَوْتَ: أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ؟ فَقِيلَ: بَقِيَ هَذَا.

وَأَنْظَرُ لِأَرَى مَا هَذَا الَّذِي بَقِيَ، فَإِذَا الرُّقَاقَتَانِ اللَّتَانِ أَحْسَنْتُ بِهِمَا عَلَى الْمَرْأَةِ وَأَبْنَاهَا! فَأَيْقَنْتُ أَنِّي هَالِكٌ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أَحْسِنُ بِمِائَةِ دِينَارٍ ضَرْبَةً وَاحِدَةً فَمَا أَغْنَتْ عَنِّي، وَرَأَيْتُهَا فِي الْمِيزَانِ مَعَ غَيْرِهَا شَيْئاً مَعْلَقاً، كَالْعِمَامِ^(٤) حِينَ يَكُونُ سَاقِطاً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ: لَا هُوَ فِي هَذِهِ وَلَا هُوَ فِي تِلْكَ.

وَوُضِعَتْ الرُّقَاقَتَانِ، وَسَمِعْتُ أَلْقَائِلَ: لَقَدْ طَارَ نَصْفُ ثَوَابِيهِمَا فِي مِيزَانِ أَبِي نَصْرِ الصَّيَادِ. فَانْخَذَلْتُ^(٥) أَنْخَذَالاً شَدِيداً، حَتَّى لَوْ كُسِرْتُ يَصْفِيَنِ لَكَانَ أَخْفَ عَلَيَّ

(١) أَرَبُهُ: أَزِيدُهُ.

(٢) تَأَثَّلْتُ: اغْتَنَيْتُ.

(٣) طَاشَتْ: خَفَّتْ وَانْحَرَفَتْ.

(٤) الْعِمَامُ: الْغِيَمُ.

(٥) انْخَذَلْتُ: شَعَرْتُ بِالْخُسْرَانِ وَالْهَزِيمَةِ.

وأهون . بَيَدَ أَنِّي نَظَرْتُ فَرَأَيْتُ كِفَّةَ الْحَسَنَاتِ قَدْ نَزَلَتْ مِنْزَلَةً وَرَجَحَتْ بَعْضَ الْرُجْحَانِ .

وَسَمِعْتُ الصَّوْتَ : أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ بَقِيَ هَذَا .

وَانْظُرْ مَا هَذَا الَّذِي بَقِيَ ، فَإِذَا جَوْعُ أَمْرَاتِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ! وَإِذَا هُوَ شَيْءٌ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ ، وَإِذَا هُوَ يَنْزِلُ بِكَفَّةٍ وَيَرْتَفِعُ بِالْآخَرَى حَتَّى أَعْتَدَلْنَا بِالسَّوِيَّةِ . وَثَبَّتَ الْمِيزَانُ عَلَى ذَلِكَ فَكُنْتُ بَيْنَ الْهَلَاكِ وَالنَّجَاةِ .

وَأَسْمَعُ الصَّوْتَ : أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ بَقِيَ هَذَا .

وَنَظَرْتُ فَإِذَا دَمَوْعُ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْمَسْكِينَةِ حِينَ بَكَتْ مِنْ أَثَرِ الْمَعْرُوفِ فِي نَفْسِهَا ، وَمِنْ إِثَارِي ^(١) إِيَّاهَا وَأَبْتَهَا عَلَى أَهْلِي . وَوُضِعَتْ غَرْغَرَةٌ ^(٢) عَيْنَيْهَا فِي الْمِيزَانِ فَفَارَتْ ، فَطُمْتُ ^(٣) كَأَنَّهَا لُجَّةٌ ، مِنْ تَحْتِ أَلْجَةِ بَحْرٍ ؛ وَإِذَا سَمَكَةٌ هَائِلَةٌ قَدْ خَرَجَتْ مِنَ أَلْجَةِ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا رُوحُ تِلْكَ الدَّمْعِ ، فَجَعَلْتُ تَعْظُمُ وَلَا تَزَالُ تَعْظُمُ ، وَالْكَفَّةُ تَرَجُّحُ وَلَا تَزَالُ تَرَجُّحُ ، حَتَّى سَمِعْتُ الصَّوْتَ يَقُولُ : قَدْ نَجَا ! وَصَحْتُ صَبِيحَةً أَتَنَبَّهُتُ لَهَا ، فَإِذَا أَنَا أَقُولُ : « لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ أَلْسَمَكَةُ ! » .

(١) إِيثَارِي : تَفْضِيلِي .

(٢) غَرْغَرَةٌ : دَمْعٌ .

(٣) طُمْتُ : فَاضَتْ .

الزاهدان

٢

قال أحمد بن مسكين: انتشر حديث السمكة في أهل بلخ). واستفاض^(١) بينهم، وكنت قصصته عليهم يوم السبت، فلما دار السبت من أسبوعه لقيني شيخهم حاتم بن يوسف (لقمان الأمة) ومعه صاحبه أبو تراب، فقال: يا أحمد! لكأنك في هذه المدينة قمر طلع بليل فلا يعط الناس في يوم السبت غيرك؛ ومن سمع فكأنه عاين^(٢)، وليس على السنة أهل بلخ منذ تحدثت إلا بشر وأبن حنبل، ولا على بال أحد منهم إلا موعظتك وحديثك.

والكلام عن الصالحين في مثل ما وصفت وحكيت قرب من حقائقهم، وسمو إلى معانيهم، وليس في القول باب له موقع كموقع القصة عن هؤلاء الذين يخلقهم الله في البشرية خلق النور: يضيء ما حوله من حيث يرى، ويعمل فيما حوله من حيث لا يرى، وفي ظاهره الجمال والمنفعة، وفي باطنه القوة والحياة. ولست أقول لك أذهب فحدث الناس، ونكني أقول أذهب فأعطي الناس عقلاً من الحديث.

قال ابن مسكين: فلما صلينا العصر، قدمني أبو تراب فجلست في مجلسي ذاك، وهتف بي الناس يريدون الحديث عن بشر الحافي وما سقط لي من أخباره، على الطريقة التي حدثتهم بها من قبل، فابتدأت بذكر عوته (رحمه الله) وأن يومه كأنما أجمع له أهل خمس وسبعين سنة، إذ خرجت جنازته بعد صلاة الصبح، فلم يحصل في قبره إلا في الليل بما احتشد^(٣) في طريقه من الخلق، حتى لكان في نعشه سراً من أسرار الجنة يطالعهم به الموت فخرجوا ينظرون إليه، وكانوا يصيحون في جنازته: هذا - والله - شرف الدنيا قبل شرف الآخرة.

(١) استفاض: انتشر.

(٢) عاين رأى.

(٣) احتشد: تجمهر، اجتمع.

ثُمَّ قُلْتُ: حَدَّثَنِي حَسِينُ الْمَغَازِلِيِّ: أَنَّ بَشْرًا (رَحِمَهُ اللَّهُ) كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا الْخَبِزَ تَوَرُّعًا عَنِ الشُّبُهَاتِ وَكَتِفَاءَ لِمُضْرُورَةِ الْحَيَاةِ بِالْأَقْلُ الْأَيْسَرِ، وَكَانَ يَقُولُ فِي ذَلِكَ: يَدٌ أَقْصَرُ مِنْ يَدٍ، وَلُقْمَةٌ أَصْغَرُ مِنْ لُقْمَةٍ. وَسُئِلَ مَرَّةً: بِأَيِّ شَيْءٍ تَأْكُلُ الْخَبِزَ؟ فَقَالَ: أَذْكَرُ الْعَافِيَةِ فَأَجْعَلُهَا إِدَامًا. وَقَدْ أَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ، وَكَانَ يَرَى هَذَا نَقْصًا فِي نَفْسِهِ حَتَّى فَضَّلَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ بِأَشْيَاءَ: مِنْهَا أَنَّ لَهُ أَهْلًا؛ غَيْرَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ: لَوْ تَزَوَّجْتَ تَمَّ تُسْكُكَ. فَقَالَ: أَخَافُ أَنْ تَقُومَ الزَّوْجَةُ بِحَقِّي وَلَا أَقُومَ بِحَقِّهَا. فَكَانَتْ هَذِهِ النِّيَّةُ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلَ مِنْ زَوَاجِهِ.

وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يُؤَاكِلُ أَحَدًا، وَلَا يَسْعَى إِلَى لِقَاءِ أَحَدٍ، حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا رَغِبَ فِي مُوَاحَاةِ الزَّاهِدِ الْعَظِيمِ (مَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ)، أَرْسَلَ إِلَيْهِ (الْأَسْوَدُ بْنُ سَالِمٍ) وَكَانَ صَدِيقًا لَهُمَا، فَقَالَ لِمَعْرُوفٍ: إِنَّ بَشْرَ بْنَ الْحَارِثِ يُرِيدُ مُوَاحَاةَكَ وَهُوَ يَسْتَحِي أَنْ يُشَافِهَكَ^(١) بِذَلِكَ، وَقَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلُكَ أَنْ تَعْقِدَ لَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ أَخُوَّةً يَحْتَسِبُهَا وَيَعْتَدُ بِهَا؛ إِلَّا أَنَّهُ يَشْتَرِطُ فِيهَا شُرُوطًا: أَوَّلُهَا أَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَشْتَهَرَ ذَلِكَ، وَثَانِيهَا أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مُزَاوَرَةٌ وَلَا مُلَاقَاةٌ. فَقَالَ مَعْرُوفٌ: أَمَّا أَنَا فَلِذَا أَحْبَبْتُ أَحَدًا لَمْ أَحِبَّ أَنْ أَفَارِقَهُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا، وَأَزُورُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَأُوَوِّدُهُ عَلَى نَفْسِي فِي كُلِّ حَالٍ؛ وَأَنَا أَعْقِدُ لِبَشْرِ أَخُوَّةَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَكِنِّي أَزُورُهُ مَتَى أَحْبَبْتُ، وَأَمْرُهُ بَلَقَائِي فِي مَوَاضِعَ نَلْتَقِي فِيهَا إِذَا هُوَ كَرَّةَ زِيَارَتِي.

قَالَ حَسِينُ الْمَغَازِلِيِّ: وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ أَمْرِ بَشْرِ مَعْرُوفًا فِي بَغْدَادَ، لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِبَغْدَادَ إِمَامٌ غَيْرُهُ وَغَيْرُ أَبِي حَنْبَلٍ؛ فَمَا كَانَ أَكْثَرَ عَجَبِي حِينَ كُنْتُ عِنْدَهُ يَوْمًا وَقَدْ زَارَهُ (فَتَحُّ الْمُؤَصِّلِي)، فَقَامَ فَجَاءَ بِدَارِهِمْ مَلَأَ كَفَّهُ وَدَفَعَهَا إِلَيَّ وَقَالَ: أَشْتَرِ لَنَا أَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الطَّعَامِ، وَأَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الْحَلْوَى، وَأَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الطَّيِّبِ، وَمَا قَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ قَطُّ، وَهُوَ الَّذِي رَأَى أَلْفَاكُهُ يَوْمًا فَقَالَ: تَزَكُّ هَذِهِ عِبَادَةٌ! وَهُوَ الْقَائِلُ لِأَبِي نَصْرِ الصَّيَادِ: لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ أَلْسِمَكَةُ.

فَذَهَبْتُ فَأَشْتَرَيْتُ وَأَتَقَنَيْتُ وَتَخَيَّرْتُ، ثُمَّ وَضَعْتُ الطَّعَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، فَرَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مَعَهُ وَمَا رَأَيْتُهُ أَكَلَ مَعَ غَيْرِهِ، وَرَأَيْتُهُ مُنْبَسِطًا إِلَيْهِ وَمَا لِي عَهْدٌ كَانَ بِأَنْبَسَاطِهِ إِلَى أَحَدٍ. وَقَدْ كُنْتُ أَخْبِرْتُهُ فِي ذَلِكَ النَّهَارِ بِخَبْرِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، عَلِمْتُهُ مِنْ أَدْرِيسَ

(١) يَشَافِهَكَ: يَحَدِّثُكَ.

الحداد: فإنه لما زالت ألمحنة بعد أن ضرب بين يدي المعتصم وصُرف إلى بيته، حُمِلَ إليه مالٌ كثيرٌ من سَرَوَاتِ^(١) بغداد وأهل الخير فيها، فردَّ جميع ذلك ولم يقبل منه قليلاً ولا كثيراً، وهو محتاجٌ إلى أسرِه، وإلى الأقل من أسرِه، وإلى الشيء من أقله، فجعل عمه إسحاق يخسب ما ورد ذلك اليوم، فكان خمسين ألف دينار، فقال له الإمام: يا عم، أراك مشغولاً بحساب ما لا يُفيدك. قال: قد ردذت اليوم كذا وكذا ألفاً وأنت محتاجٌ إلى حبة من داتق. فقال الإمام: يا عم، لو طلبناه لم يأتنا، وإنما آتانا لما تركناه.

* * *

قال المغازلي: فَنِمْتُ تلك الليلة وأنا أفكرُ في صنيع الشيخ، وقد تعلَّق خاطري به: كيف أنقلبَت الحال معه، وأي شيء هذه الحال؟ وجعلتُ أكيدُ ذهني لأعرف الحقيقة العقلية التي سلطت عليه هذه الضرورة فتسلط النعيم على نفسه، وأنا أعلم أن للقوم علوماً روحانية ليست في الكتب، فمنها لا يتعلمونه إلا من الفقر، ومنها ما لا يتعلمونه إلا من البلاء، ومنها، ومنها؛ ولكن ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات؛ وذهب قلبي إلى أوهام كثيرة ليس في جميعها طائل ولا بها معرفة، حتى غلبتني عياني، وأنا من وهج الفكرِ نائمٌ كالمريض، وقد ثقل رأسي واختلط فيه ما يُعقل بما لا يُعقل.

فرايتُ أولَ ما رايتُ ملكاً جباراً يحكمُ مدينةً عظيمة، وقد أطلقَ المنادي في جمع كل أطفالِ مدينته، فجيء بهم من كل دار، ثم رايتُهُ قد جلسَ على سريرِهِ وفي يده مِقْرَاضٌ عظيم، قد أخذَهُ على هيئة نصلين^(٢) عريضين لو وُضِعَتْ بينهما رقبة لفصلاها عن جسمها؛ فكانَ هذا الجبارُ يتناولُ الطفلَ من أولئك فيضعُ أصابعَ إحدى قدميه في شِقْيِ المِقْرَاضِ فيقرضُها، فإذا هي تتناثرُ أسرعَ ممَّا يقرضُ المِقْصُ الخيط، ثم يرمي بالطفل مغشياً عليه، ويتناولُ غيره فيبتُر^(٣) أصابعه، والأطفالُ يصرخون؛ وأنا أرى كل ذلك ولا أملكُ إلا غيظي على هذا الجبارِ من حيث لا أستطيع أن أنضِي فيه هذا الغيظَ فأقرضَ عنه بمقراضه.

ثم رايتُهُ يأخذُ طفلاً صغيراً، فلما جاءت قدمُ الطفلِ بين شِقْيِ المِقْرَاضِ صاح: يا

(١) السروات: الأغنياء.

(٢) نصل السيف: المكان القاطع منه.

(٣) بتر: قطع.

رَبِّ، يَا رَبِّ. فَإِذَا الْمِقْرَاضُ يَلْتَوِي فَلَا يَصْنَعُ شَيْئاً، وَكَأَنَّ فِيهِ حَجَراً صَلْدًا لَا قَدَمًا رَخْصَةً^(١). فَتَمَيَّزَ الْجَبَّارُ مِنَ الْغَيْظِ وَقَالَ: مَنْ هَذَا الطِّفْلُ؟ فَسَمِعْتُ هَاتِفًا يَهْتِفُ: هَذَا بَشَرُ الْخَافِي! لَا يَبْلُغُ تَأْجُ مَلِكٍ فِي الْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لِقَدَمِهِ الْخَافِيَةُ نَعْلًا عِنْدَ اللَّهِ!

وَكَانَ إِلَى يَمِينِي رَجُلٌ يَتَوَضَّأُ وَجْهَهُ صَلَاحًا وَتَقْوَى، فَقُلْتُ لَهُ: مَنْ هَذَا الْطَاعِيَةُ^(٢)؟ وَلَمْ أَتَّخِذْ الْمِقْرَاضَ لِأَقْدَامِ الْأَطْفَالِ خَاصَّةً؟

فَقَالَ: يَا حُسَيْنُ! إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ هُوَ ذُلُّ الْعَيْشِ، وَهَذَا وَسَمُهُ لِأَهْلِ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ، يُحَقِّقُ بِهِ فِي الْإِنْسَانِ مَعْنَى الْبَهِيمَةِ أَوَّلَ مَا يَدْبُ^(٣) عَلَى الْأَرْضِ، حَتَّى كَأَنَّهُ ذُو حَافِرٍ لَا ذُو قَدَمٍ.

قُلْتُ: فَمَا بَالُ هَذَا الطِّفْلِ لِمَ يَعْمَلُ فِيهِ الْمِقْرَاضُ؟

قَالَ: إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا اسْتَخْصَهُمْ^(٤) لِنَفْسِهِ، أَوَّلَ عَلَامَتِهِ بِهِمْ أَنَّ الذَّنَّ نَحْتُ أَقْدَامِهِمْ، وَهَمَّ يَجِثُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لِإِثْبَاتِ الْقُدْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى حُكْمِ ضَبْعَةِ الشَّهَوَاتِ الَّتِي هِيَ نَفْسُهَا طَبِيعَةُ الذَّلِّ؛ فَإِذَا أَطْرَحَ أَحَدُهُمْ لِلشَّهَوَاتِ وَزَهَّدَ فِيهَا، وَاسْتَقَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي عَقْدِ نِيَّةٍ وَقُوَّةِ إِرَادَةٍ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِالزَّاهِدِ كَمَا يَصِفُهُ النَّاسُ، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ قَوِيٌّ اخْتَارَتْهُ الْقُدْرَةُ لِيَحْمِلَ أَسْلِحَةَ النَّفْسِ فِي مَعَارِكِهَا أَنْطَاحَةً، كَمَا يَحْمِلُ الْبَطْلُ الْأَرَوْعُ أَسْلِحَةَ الْجِسْمِ فِي مَعَارِكِهِ الدَّامِيَةِ: هَذَا يُتَغَنَّمُ مِنْهُ فَنٌّ، وَذَاكَ يُتَعَلَّمُ مِنْهُ فَنٌّ آخَرٌ، وَكِلَاهُمَا يُرْمَى بِهِ عَلَى الْمَوْتِ لِإِيجَادِ أَنْوَعِ اسْتِمْرَارٍ مِنَ الْحَيَاةِ فَأُولُو فُضَائِلِهِ الشَّعُورُ بِالْقُوَّةِ، وَآخَرُ فُضَائِلِهِ إِيجَادُ الْقُوَّةِ

قَالَ الْمَغَازِلِيُّ: وَضَرَبَ النَّوْمُ عَلَى رَأْسِي ضَرْبَةً آخَرَ. فَإِذَا أَنَا فِي أَرْضٍ حَبِيبَةٍ دَاخِلَةٍ، قَدْ ارْتَفَعَ لَهَا دُخَانٌ كَثِيفٌ أَسْوَدُ يَتَضَرَّبُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ رَحِمَتْ أَرَى سَعْدًا حُمْرًا تَذْهَبُ وَتَجِيءُ كَأَنَّهَا أَجْسَامٌ حَيَّةٌ، فَوَقَعَ فِي وَهْمِي أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الشَّيَاطِينُ الْإِلْسِيْنَ وَجَنُودُهُ، وَسَمِعْتُ صَارِخًا يَقُولُ: يَا بُشْرَى! قَلْبُكَ الْبَسَاءُ عَلَى الْأَرْضِ. لَقَدْ أَكَلْتُ لُحْمًا الْخَافِي مِنْ أَطْيَبِ الطَّعَامِ وَأَطْيَبِ الْحُلُوى بَعْدَ أَنْ اسْتَرَى عِندَ حَرَمِ دِمْشَقِهَا وَذَهَبُهَا وَفَضْلُهَا! فَعَارِضَةٌ صَائِحٌ أَسْمَعُ صَوْتَهُ وَلَا أَرَى شَخْصَهُ. وَيَسُرُّ^(٥) أَنَّ هَذَا شَرٌّ عَلَيْنَا مِنْ عَامَّةِ نُسُكِهِ وَعِبَادَتِهِ؛ فَهَذَا - وَيَحْكُ - هُوَ أَلْهَذَا الْأَعْيَى الَّذِي كَانَ لَا

(٤) اسْتَخْصَهُمْ اسْتَخْصَهُمْ

(٥) مَدْرَاهَا مَدْنَهَا وَحَسْبُهَا

(٦) زَلْتَبُور - هُوَ اسْمُ بَعْضِ رُلْدِ بَيْتِيسَ

(١) رَخْصَةٌ: طَرِيقَةٌ لِلْبَيْتَةِ.

(٢) الطَّاعِيَةُ: اللَّطَالِمُ.

(٣) يَدْبُ: يَمْشِي.

يُطِيقَةُ بَشَرٍ؛ إِنَّهُ إِعْنَاتٌ^(١) سَلَطَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنِّي دَفَعْتُ هَذَا (الْمَغَازِلِي) الْأَعْمَى الْقَلْبَ
يُزَيِّنُ لَهُ مَا فَعَلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ مِنْ رَدِّهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ عَلَى حَاجَتِهِ، زَهْدًا وَوَرَعًا،
وَقُوَّةَ عِزْمٍ، وَنَفَادَ إِزَادَةٍ؛ وَقُلْتُ: عَسَى أَنْ تَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ شَهْوَةُ الزَّهْدِ فَيَحْسُدَ أَوْ
يَغَارَ، أَوْ تَعْجِبَهُ نَفْسُهُ فَيَكُونُ لِي مِنْ ذَلِكَ لَمَّةٌ^(٢) بَقَلْبِهِ فَاسْرَسَ بِهِ. فَإِنَّا نَأْتِي هَؤُلَاءِ مِنْ
أَبْوَابِ الشُّرُوبِ كَمَا نَأْتِي مِنْ أَبْوَابِ الْمَعَاصِي، وَتَتَوَرَّعُ مَعَ أَحَدِ التَّوَرَّعِ كَمَا
تَتَحَدَّثُ مَعَ أَهْلِ التَّخُفِّ؛ وَتَكُنُّ أَلْرَجْلُ رَجُلٍ وَتَبْهُ حَقِيقَةُ الْإِرَاهِدِ، فَقَدْ أَعْطَى الثَّقَلَةَ
عَنِّي جَمْعَ شَهْرَاتٍ نَفْسِهِ أَشْخَاصًا صَاحِبَةً يُعَادِيهَا وَيَقَاتِبُهَا، فَإِذَا أَنَا جَمَعْتُ شَهْوَتَهُ فِي
النَّدْوِ قَتَلَ اللَّذَّةَ، وَإِذَا جَمَعْتُهَا فِي الْكَأْبَةِ قَتَلَ الْكَأْبَةَ، وَبِئْسَ الْإِرَاهِدُ الْعَابِدُ هُوَ الَّذِي
بِتَقَشُّفٍ وَيَسْعُفٍ، وَبِحُفِّفٍ وَتَلَفُفٍ، بِأَنْ كَثِيرًا مَا تَتَوَرَّعُ هَذِهِ هِيَ أَوْصَافُ الدُّلِّ
وَالْحَمَى، وَتَكُونُ لَهَا عَمَلُ الْعِبَادَةِ وَفِيهِ إِثْمُ الْمَعْصِيَةِ. وَلَكِنْ الْإِرَاهِدُ حَتَّى الْإِرَاهِدِ مِنْ أَدَارِ
فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَيْنًا قَدْ نَعَلْتُ أَنْظُرَ بِحَقٍّ وَالْإِعْصَاءَ^(٣) بِحَمْدِهِ. فَهَذَا لَا يُحْطَى، مَعَى
النَّشْرِ إِنْ لَبَسَاهُ^(٤) عَلَيْهِ فِي صُورَةِ الْخَيْرِ، وَلَا مَعَى النَّجْوَى إِنْ رَرَّاهُ فِي صُورَةِ الشَّرِّ،
وَبِذَلِكَ يَضَعُ نَفْسًا فِي حَيْثُ شَاءَ مِنَ الْمُنْتَوَنَةِ. سَيَ حَيْثُ شَاءَ أَبْشَى أَنْ تَعْلَمَهُ مِنْ
مَنَازِلِهَا أَسِيَّةً

وَمَا أَتَى بَشَرَ هَذِهِ الطَّيِّبَاتِ إِلَّا لِيُبَايِرَ بِهَا وَسُوسِي وَيُرَدِّي عَنْ نَفْسِهِ وَحَسَى
الْأَلَمُ بِقَلْبِهِ، هَلْوَ أَنَّهُ أَعْجَبَهُ هَذَا ابْنُ حَنْبَلٍ وَنَظَرَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى زَمْدٍ نَفْسِهِ لِحَبِّهِ
أَجْرُهُ؛ فَبِئْسَ الطَّيِّبَاتِ عَالِجٌ نَفْسَهُ عِلَاجَ مَرِيضٍ، رَقْدَ خَيْرٍ عَلَى حَرِّهِ طَعَامًا يَطْعَاهُ،
— يَسْتَلِي جِلْدَهُ ثِيَابَ شَرِّ؛ وَلَا شَهْوَةَ لِيُجِلِدَ فِي أَحْبَبِّهِ



فَارَ الْمَغَازِلِي. وَثَقُلَ التَّوَرُّعُ عَنِّي ثِقَلًا أُخْرَى، فَرَأَيْتُنِي فِي رَأْيٍ عَظِيمٍ، وَفِي
مِطْوَةٍ مِثْلِ الطُّوْدِ^(٥) مِنَ الْحَجَرَةِ قَدْ رُكِمَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَرَأَيْتُنِي مَعَ بَشَرٍ أَقْصَى
عَلَيْهِ خَيْرٌ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ؛ فَقَالَ: أَنْظُرْ - رِيحَكَ - إِنَّ النَّاسَ يَسْمُونَهُ خَمْسِينَ
أَلْفَ دِينَارٍ، وَهِيَ حَتَا فِي وَادِي الْحَقَائِقِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَجَرٍ نَرَا أَصَابَتْ أَحْمَدَ لَقَاتَلَتْهُ
لَكَاتٌ قَبْرُهُ آخِرُ النَّهْرِ

إِنَّ الْآمَالَ بَا بَنِي هُوَ مَا يَعْمَلُهُ الْآمَالُ لَا جَوْهَرُهُ مِنَ الْذَهَبِ وَالْفِئَسَةِ، فَإِذَا كُنْتُ

(١) إِعْنَاتٌ: إِتْعَابٌ

(٢) لَمَّةٌ: تَلَسُّعٌ مَرَهَاتٌ

(٣) الْإِعْصَاءُ: مِنَ الْجَوْنِ

(٤) رَرَّاهُ: بَسْتَرَدَّ الْوَرْدَ الْخَبِيثَ

(٥) الطُّوْدُ: بَحْفَةُ الزَّرَايَةِ وَهِيَ تَقْدِيرٌ

بِمَقَازَةٍ^(١) لَيْسَ فِيهَا مِنْ يَبْعُكَ شَيْئاً بِذَهَبِكَ، فَالْتِرَابُ وَالذَّهَبُ هُنَاكَ سَوَاءٌ؛ وَالْفَضَائِلُ هِيَ ذَهَبُ الْآخِرَةِ؛ فَهَذَا تُجَدُّ بِالْمَالِ دِنْيَاكَ الَّتِي لَا تَبْقَى أَكْثَرُ مِنْ بَقَائِكَ، وَهَذَا تُجَدُّ بِالْفَضَائِلِ نَفْسَكَ الَّتِي تَخْلُدُ بِخُلُودِهَا.

وَمَعْنَى الْغِنَى مَعْنَى مُلْتَبِسٍ عَلَى الْعُقُولِ الْآدَمِيَّةِ لِاجْتِمَاعِ الشَّهَوَاتِ فِيهِ، فَحِينَ يَرِدُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ خَمْسِينَ أَلْفًا، يَكُونُ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ صَحَّحَ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْعَمَلِ وَجْهًا مِنَ النَّصِيحِ.

قَالَ حُسَيْنُ الْمَغَازَلِيِّ: وَغَطْنِي^(٢) الْنَوْمُ فِي أَعْمَاقِهِ غَطَّةٌ أُخْرَى؛ فَإِذَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ فِي دَرَسِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَهُوَ يُحَدِّثُ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا عَظَّمْتَ أَمْتِي الدِّينَارَ وَالْدِّرْهَمَ، نَزَعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ؛ وَإِذَا تَرَكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، حُرِمُوا بِرُكَّةِ الْوَحْيِ» وَهَمَّ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي تَفْسِيرِهِ وَلَكِنِّي رَأَيْتُ فَأَمْسَكَ^(٣) عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: يَا حُسَيْنُ! إِذَا أَجْتَزَأَ شَيْخُكَ بِالرَّغِيفِ فَهَذَا عِنْدَهُ هُوَ قَدْرُ الْضَّرُورَةِ؛ فَإِنْ أَكَلَ الطَّيِّبَاتِ فَقَدْ عَرَضَتْ حَالٌ جَعَلَتْ هَذِهِ الطَّيِّبَاتِ عِنْدَهُ هِيَ قَدْرُ الْضَّرُورَةِ؛ وَفِي هَذِهِ النُّفُوسِ السَّمَاوِيَّةِ لَا يَكُونُ الْجُزْءُ الْأَرْضِي إِلَّا مَحْدُودًا، فَلَا يَكُونُ مَحْصُولُهُ إِلَّا مَا تَرَى مِنْ قَدْرِ الْضَّرُورَةِ.

وَلَمَّا صَغُرَ الْجُزْءُ الْأَرْضِيُّ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ مَلَكَوا الْأَرْضَ كُلَّهَا بِقُوَّةِ الْجُزْءِ السَّمَاوِيِّ فِيهَا، إِذْ كَانَتْ إِرَادَتُهُمْ فَوْقَ الْأَطْمَاعِ وَالشَّهَوَاتِ، وَكَانَتْ بِذَلِكَ لَا تَذُلُّ وَلَا تَضَعُفُ وَلَا تَنْكَسِرُ؛ فَالْآدَمِيَّةُ كُلُّهَا تَنْتَهِي إِلَى بَعْضِ صُورٍ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ مَحَلُّهُمْ فِي أَعْلَاهَا

يَا حُسَيْنُ! أَلَا وَإِنْ رَدَّ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ هُوَ كَذَلِكَ قَدْرُ الْضَّرُورَةِ.

قَالَ حُسَيْنٌ: وَذَهَبْتُ أَعْتَرِضُ عَلَى الْإِمَامِ بِمَا كَانَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنَّ هَذَا الْمَالُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كُنْهِهِ، فَقَدْ كَانَ يَتَحَوَّلُ فِي يَدِهِ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ؛ وَأُثْبِتُ أَنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ وَأَقْدَارُ نَفُوسِهِمْ، فَلَمْ أَكُذْ أَفْتَحْ فَمَيَّ حَتَّى رَأَيْتُ الْكَلَامَ يَتَحَوَّلُ طِينًا فِي فَمِي لِيَذْكُرَنِي بِهَذَا الْمَعْنَى؛ وَكَذَلِكَ أَهْتَنَّقُ فَانْتَفَضَتْ أَنْتَفَسَ، فَطَارَ الْنَوْمُ وَالْجَلْمُ.

(١) المفازة: الطريق الضيق.

(٢) غطني النوم: توقفت وانقطع.

(٣) أمسك: توقفت وانقطع.

إِبْلِيسُ يُعَلِّمُ

٣

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ: وَدَارَ أَلَسِيبُ الثَّالِثُ، وَجَلَسْتُ مَجْلِسِي لِلنَّاسِ وَقَدْ أَنْتَضَمَتْ خَلَقَتَهُمْ؛ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ عَرْضِ^(١) الْمَجْلِسِ فَقَالَ: إِنَّ الْحَسَنَ بْنَ شُجَاعَ الْبَلْخِي تَلْمِيزُ أَلَامَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، كَانَ مِنْذُ قَرِيبٍ يُحَدِّثُنَا بِأَحَادِيثَ عَنِ الشَّيْطَانِ، حَفَظْنَا مِنْهَا قَوْلَهُ ﷺ: «إِنَّ أَلْمُؤْمِنَ يُنْضِي^(٢) شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي سَفَرِهِ». وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ فِي تَأْوِيلِهِ: إِنَّ شَيْطَانَ أَلْكَافِرِ ذَهَبَ سَمِينُ كَاسٍ، وَشَيْطَانُ أَلْمُؤْمِنِ مَهْزُولٌ أَشْعَثُ أَغْبُرٍ عَارٍ. فَهَلْ يَأْكُلُ الشَّيْطَانُ وَيَذْهَبُ وَيَلْبَسُ لِيَكُونَ لَهُ أَنْ يَجُوعَ مَعَ أَلْمُؤْمِنِ وَيَعْرَى وَيَتَشَعَّثُ وَيَغْبَرُ؟

قَالَ أَبُو مَسْكِينٍ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ! مَا أَرَى أَلَسَائِلَ إِلَّا شَيْطَانًا هَذَا السَّائِلُ؛ فَإِنَّ إِبْلِيسَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْخَرَ مِنَ أَلْعَالَمِ وَيُسْمِعَهُ طَنَزَهُ وَتَهَكَّمَهُ^(٣)، حَرْكٌ مَنْ يَسْأَلُهُ عَنْهُ مَا هُوَ وَكَيْفَ هُوَ؛ كَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ: تَنَبَّهْ - وَيَحْكُ - عَلَى مَعْنَايَ، فَأَنْتَ تَتَكَلَّمُ وَأَنَا أَعْمَلُ، وَأَنْتَ صَوْرَةٌ مِنَ أَلرَّدِ عَلَيَّ، وَلَكِنِّي حَقِيقَةٌ مِنَ أَلرَّدِ عَلَيْكَ، وَمَا أَنْتَ فِي مُحَارَبَتِكَ لِي بِأَلْوَعِظِ إِلَّا كَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَضْرِبَ عُتُقَ عَدُوِّهِ بِمَانَةِ أَسْمٍ وَضِعَتْ لِلْسَيْفِ...

قَالَ: وَكُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ خَبْرًا عَجِيبًا عَنْ أَبِي عَامِرٍ قَبِيصَةَ بْنِ عُقْبَةَ أَلْكَوْفِيِّ أَلْمُحَدِّثِ أَلْحَافِظِ أَلثَّقَةِ أَحَدِ شُيُوخِ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ؛ وَهُوَ أَلرَّجُلُ أَلصَّالِحُ أَلْعَابِدُ أَلَّذِي كَانَ يُقَالُ لَهُ: (رَاهِبُ أَلْكَوْفَةِ)؛ مِنْ زَهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ وَأَحْتِسَابِ نَفْسِهِ فِي دَاخِلِهِ كَأَنَّمَا جَسَدُهُ جِدَارٌ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ أَلدُّنْيَا، فَقُلْتُ - وَاللهِ - لَأَغِيظَنَّ أَلشَّيْطَانُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَإِنَّ أَسْمَاءَ أَلزُّهَادِ أَلْعِبَادِ أَلصَّالِحِينَ هِيَ فِي تَارِيخِ أَلشَّيَاطِينِ كَأَسْمَاءِ أَلْمَوَاقِعِ أَلَّتِي

(١) عرض، يتسكين الراء: جهة.

(٢) ينضي: يتعب ويهزل.

(٣) الطنز: السخرية والتهكم.

تنهزم فيها الجيوش، وما الرجل العابد إلا صاحب الغمرات^(١) مع الشيطان، وكأنه يحتمل المكاره عن أمة كاملة بل عن البشرية كلها حيث كانت من الأرض، فالناس يحسبونه قد تخلص من الدنيا ويظنون أترك أيسر شيء، وما علموا أن الزهد لا يستقيم للزاهد حتى يجعل جسمه كأنه نوع نظام آخر غير نظام أعضائه؛ ولا أشق من ذلك على النفس. ومعجزة الزاهد أنه مكلف أن يخرج للناس أقوى القوى من المعاني التي هي عند الناس أضعف الضعف؛ ولو أن ملكاً عظيماً تعب في جمع الدنيا وفتح الممالك حتى جيزت^(٢) له جوانب الأرض، لكان عمله هذا هو الوجه الآخر لتعب الزاهد في مجاهدة هذه الدنيا وتركها.



قال أحمد بن مسكين: وقصصت عليهم القصة فقلت: كان أبو عامر قبيصة بن عقبة كثير الفكر في الشيطان، يؤد لو رآه وناقله الكلام؛ وكان يتدبر الأحاديث التي صبح ورودها فيه، ويفسر معنى الشيطان بأنه الروح الحي للخطأ على الأرض؛ والخطأ يكون صواباً محولاً عن طريقته وجهته، ولهذا كان إبليس في الأصل ملكاً من الملائكة وتحول عن طبيعته حين خلق آدم (عليه السلام)، أي وجد في الكون روح الخطأ حين وجد فيه الروح الذي سيخطئ.

فلما هبط آدم من الجنة وحرمها هو وزوجه وذريته، كان إبليس (لعنه الله) هو معنى بقاء هذا الجرماني واستمراره على الدهر، فكان هذه الآدمية أخرجت من الجنة، وأخرجت معها قوة لا تزال نصدّها عنها، ليضطربا في الكفاح ملياً من زمن هو عمر كل إنسان، وهذا هو العبد الإلهي. لم يعرف آدم حق الجنة، فعوقب ألا يأخذها إلا بحققها، وأن يتأمل في سبيل الخير قوة الشيطان.

وبات أبو عامر ذات ليلة يفكر في هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته. ثم هو^(٣) فكان بين البقطة والنوم، وذلك حين تكون العين نائمة والعقل لا يزال متنبهاً، فكان العين مترجعة تبصر من تحت أحفائها بصراً يُشاركها فيه العقل.

فرأى شيخنا أبو عامر صورة إبليس جاءت في ربي رجس زاهد، حسن السميت^(٤) طيب الريح، نظيف الهيئة، وكاذب عليه، ولا تتركه من عين.

(١) الغمرات الحروب.

(٢) جيزت: تحضنت.

(٣) هو: تحير.

(٤) السميت: الهيئة المظلمة.

فَإِنَّ عَيْنِي الْكَاذِبِ تَضُدُّقَانِ عَنْهُ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْكَاذِبَ آدَمِيٌّ قَفَرٌ^(١) كَالْمَتَاهَةِ مِنَ
الْأَرْضِ، فَجَعَلَ عَيْنِيهِ كَالْعَلَامَاتِ لِمَنْ خَاضَ الْفَلَاةَ.

وظَهَرَ الشَّيْطَانُ زَاهِدًا عَابِدًا تَقِيًّا نَفِيًّا كَأَنَّهُ دِينٌ صَحِيحٌ خُلِقَ بَشَرًا، فَصَرَخَ فِيهِ
أَبُو عَامِرٍ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ! أَمْعَصِيَّةٌ فِي ثَوْبِ اطَّاعَةٍ؟

قَالَ إِبْلِيسُ: يَا أَبَا عَامِرٍ! لَوْ لَمْ تَقُلْ: أَلْمَعْصِيَّةُ إِنَّهَا طَاعَةٌ لَمْ يَقَارِفْهَا^(٢) أَحَدٌ.
وَهَلْ خُلِقَتِ الشَّهَوَاتُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَغَرِيزَتِهِ إِلَّا لِتَقْرِبَ هَذِهِ الْمَعَاصِي مِنَ
النَّفْسِ، وَجَعَلَ كُلَّ مِنْهَا طَاعَةً لِشَيْءٍ مَا؛ فَتَقَعُ الْمَعْصِيَّةُ بِأَنَّهَا طَاعَةٌ لَا بِأَنَّهَا مَعْصِيَّةٌ؟
أَوْ لَا تَرَى يَا أَبَا عَامِرٍ أَنَّ الْجِيلَةَ مُحْكَمَةٌ فِي الْإِدَاخِ مِنَ الْجِسْمِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ مُحْكَمَةٌ
فِي الْخَارِجِ عَنْهُ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَذَا الْبَاطِنَ بِهَذَا الْمَعْنَى وَهَذَا الْعَمَلِ لَمَّا كَانَ يُظَاهِرُ
الْوُجُودَ كُلَّهُ فِي الْإِنْسَانِ مَعْنَى وَلَا عَمَلٌ؟

قَالَ الشَّيْخُ عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ! فَمَا أَرَى الْمَوْتَ قَدْ خُلِقَ إِلَّا رَدًّا عَلَيْكَ أَنْتَ،
لِيَتَبَيَّنَ النَّاسُ أَنَّكَ الْمَمْتَلِيُّ الْمَمْتَلِيُّ، وَلَكِنَّكَ الْفَارِغُ الْفَارِغُ؛ بَلْ كُلُّ شَهَوَاتِكَ
سُخْرِيَّةٌ مِنْكَ وَرَدُّ عَلَيْكَ، فَلَا طَعْمَ لِلذَّةِ مِنْ لَذَاتِكَ إِلَّا وَهْيَ تَمُوتُ، وَإِنَّمَا تَمَامُ
وُجُودِهَا سَاعَةٌ تَنْقُضِي؛ وَمَتَى قَالَتِ اللَّذَّةُ: قَدْ أَتَمَّهْتُ. فَقَدْ وَصَفَتْ نَفْسَهَا أَبْلَغَ
الْوَصْفِ.

قَالَ إِبْلِيسُ. يَا أَبَا عَامِرٍ، وَلَكِنْ اللَّذَّةُ لَا تَمُوتُ حَتَّى تَلِدَ مَا يُقِيهَا حَيَّةً، فَهِيَ
تَلِدُ الْحَتِينَ إِلَيْهَا، وَهُوَ لَا يَسْكُنُ حَتَّى يَعُودَ لِلذَّةِ تَنْقُضِي وَتَلِدُ.

قَالَ الشَّيْخُ: مَعَانِي الْتَرَابِ، مَعَانِي الْتَرَابِ؛ كُلُّ نَبْتَةٍ فِيهَا بِذُرَّتِهَا، وَلَكِنْ
(عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ) لِمَاذَا جِئْتَنِي فِي هَذِهِ الصُّورَةِ؟

قَالَ إِبْلِيسُ: لِأَنِّي لَا أَلْبَسُ إِلَّا مُحِبَّةَ الْقَلْبِ الْآدَمِيِّ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَنَظَرْتُنِي
أَلْقُلُوبَ كُلِّهَا وَبَطَّلَ عَمَلِي فِيهَا، وَهَلْ عَمَلِي إِلَّا التَّلْبِيسُ وَالتَّزْوِيرُ؛ أَفْتَدْرِي يَا أَبَا
عَامِرٍ أَنِّي لَا أَعْتَرِي الْحَيَوَانَ قَطُّ.

قَالَ الشَّيْخُ: لِأَنَّ الْحَيَوَانَ لَا يَنْظُرُ إِلَى الشَّيْءِ إِلَّا نَظْرَةً وَاحِدَةً. هِيَ نَظَرُهُ
وَفَهْمُهُ مَعًا، فَلَا مَحَلَّ لِلتَّزْوِيرِ مَعَ هَذِهِ النَّظْرَةِ الْوَاحِدَةِ؛ وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: ﴿هَلْ
أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾. فَأَنْتَ أَيُّهَا الشَّيْطَانُ التَّزْوِيرُ، وَالتَّزْوِيرُ

(١) قفر: صحراء.

(٢) يقارفها: يقع فيها.

موضعه الكذب؛ فمن لم يكذب في الفكر ولا في النظر ولا في الفهم ولا في الرجاء، فليس لك عنده عمل.

قال إبليس: يا أبا عامر! وهل ترى (رحمك الله) أعجب وأغرب وأدعى إلى الهزء والسخرية من أن أعظم العقلاء الزهاد العبّاد، هو في جملة معانيه حيوان ليس له إلا نظرة واحدة في كل شيء؟

قال الشيخ: عليك وعليك...؛ إن الحيوان شيء واحد، فهو طبيعة مسخرة بنظامها، ولكن الإنسان أشياء متناقضة بطبيعتها، فالوحيته أن يقر النظام بين هذه المتناقضات، كأنما أمثجن فأعطى من جسمه كونا فيه عناصر الاضطراب، وحولته عناصر الاضطراب، ثم قيل له دبره.

فضحك إبليس. قال الشيخ: مم ضحكت لعنك الله؟

قال: ضحكت من أنك أعلمتني حقيقة الإبلية، فالزهاد هم الصالحون لأن يكونوا أعظم الأبالسة...

قال الشيخ: عليك لعنة الله، فما هي تلك الحقيقة التي زعمت؟

قال إبليس: - واللّه - يا أبا عامر، ما غلا إنسان في زعم التقوى والفضيلة إلا كانت هذه هي الإبلية؛ وسأعلمك يا أبا عامر حقيقة الزهد والعبادة. فلا تقل إنها الوهيّة تُقر النظام بين متناقضات الإنسان ومتناقضات الطبيعة.

قال الشيخ: وتسخر مني لعنك الله؟ فمتى كنت تعلم الحقيقة والفضيلة؟

قال إبليس: أو لم أكن شيخ الملائكة؟ فمن أجدر من شيخ الملائكة أن يكون عالمها ومعلمها؟

قال: عليك لعنة الله؛ فما هي حقيقة الزهد والعبادة؟

قال إبليس: حقيقتها يا أبا عامر، هي التي أعجزتني في نبيكم.

قال الشيخ: ﷺ؛ فما هي؟

قال إبليس: هي ثلاث بها نظام النفس، ونظام العالم، ونظام اللذات والشهوات: أن تكون لك تقوى، ثم يكون لك فكر من هذه التقوى، ثم يكون لك نظر إلى العالم من هذا الفكر. ما اجتمعت هذه الثلاث في إنسان إلا قهر الدنيا وقهر إبليس.

فإن كانتِ اتَّقوى وحدها - كتنقوى أكثر الزهاد والرهبان - فما أيسر أن أجعل
النظر منها نظر الغفلة والجبن والبلادة والفضائل الكاذبة، وإن كان الفكر وحده -
كفكر العلماء والشعراء - فما أهو أن أجعل النظر به نظر الزين والالحاد والبهيمة
والردائل الصريحة .

قال الشيخ : صدق الله العظيم : ﴿إِنَّكَ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ .

قال إبليس : يا أبا عامر ! ما يضرني - والله - أن أفسر لك ، فإن قارورة من
الصنغ لا تصبغ البحر ، وأنا أعد الزهاد والعلماء المصلحين فأضع في الناس بجانب
كل واحد منهم مائة ألف امرأة مفتونة ، ومائة ألف رجل فاسق ، ومائة ألف مخلوق
ظالم ، فلو أنك صبغت البحر بماء قارورة حمراء لما صبغت البحر الإنساني
بالزاهد والمصلح ، ما دام المصلح شيئاً غير السيف ، وما دام الزاهد شيئاً غير
الحاكم .

قال الشيخ : لعنك الله من شيطان عارم ، فإذا وضعت المصلح بين مائة ألف
فاسد ، فهل هذه إلا طريقة شيطانية لإفساده ؟

قال إبليس : ومائة ألف امرأة فتانة مفتونة يا أبا عامر ، كل واحدة تحسب
جسمها . . .

فصرخ الشيخ : أغرب عني عليك لعنة الله !

قال إبليس : ولكن الآية الآية يا أبا عمر . لقد لقيت المسيح وجربته وهو كان
تفسيرها .

قال الشيخ : عليه السلام ! عليك أنت لعنة الله ! فكيف قال ؟ وكيف صنع ؟
قال إبليس : ألقيت به جائعاً في الصحراء لا يجد ما يطعمه ، ولا يظن أنه
يجد ، ولا يرجو أن يظن ؛ ثم قلت له : إن كنت روح الله وكلمته كما تزعم فمز
هذا الحبز بنقلب خبزاً . فكان تقياً ، فتذكر فإذا هو مبصر ، فقال : ليس بالخبز
وحده يحيا الإنسان ، فمثل هذا لو مات جوعاً لم يتحول ، لأن الموت إتمام حقيقته
السامية فوق هذه الدنيا ، ولو ملئت له الدنيا خبزاً وهو جائع لم يتحول ، لأن له
بصراً من فوق الخبز إلى حقيقته السماوية ؛ فليس بالخبز وحده يحيا ؛ بل بمعان
أخرى هي إشباع حقيقته السماوية التي لا شهوة لها .

ثُمَّ ارْتَقَيْتُ^(١) بِوَ إِلَى ذُرْوَةِ جَبَلٍ وَأَرِثْتُهُ مَمَالِكَ الْخَافِقِينَ^(٢)، كَشَفْتُهَا كُلَّهَا لِعَيْنَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: هَذَا كُلُّهُ لَكَ إِذَا أَنْتَ سَجَدْتَ لِي. فَكَانَ مُتَقِيًّا، فَتَذَكَّرَ فَإِذَا هُوَ مُبْصِرٌ: أَبْصَرَ حَقِيقَةَ الْخَيَالِ الَّذِي جَسَمَتْهُ لَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُعْطِي مِثْلَ مَعَانِي هَذِهِ الْمَمَالِكِ فِي جَرَعَةِ خَمْرٍ، كَمَا يُعْطِيهَا فِي سَاعَةِ لَذَّةٍ، كَمَا يُعْطِيهَا فِي شِفَاءٍ غِظٍ بِالْقَتْلِ وَالْأَذَى؛ ثُمَّ لَا يَبْقَى مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بَاقٍ غَيْرُ الْإِثْمِ، وَلَا يَصُحُّ مِنْهُ صَحِيحٌ إِلَّا الْحَرَامُ. وَمَنْ مَلَكَ أَلَدُنْيَا نَفْسَهَا لَمْ يَبْقَ لَهَا إِذَا بَقِيََتْ فِيهِ خَيَالٌ فِي حَرَعَةِ الْحَيَاةِ، كَمَا هِيَ خَيَالٌ فِي جَرَعَةِ الْخَمْرِ.

يَا أَبَا عَامِرٍ؛ إِنَّ هَذَا الْنَظَرَ، الَّذِي وَرَاءَهُ التَّذَكُّرُ، الَّذِي وَرَاءَهُ التَّقْوَى، الَّتِي وَرَاءَهَا اللَّهُ - هَذَا وَحْدَهُ هُوَ الْقُوَّةُ الَّتِي تَتَنَاوَلُ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فَتُصَفِّيْهَا أَرْبَعَ مَرَاتٍ حَتَّى تَعُودَ بِهَا إِلَى حَقَائِقِهَا التَّرَابِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي آخَرُهَا الْقَبْرُ، وَآخِرُ وَجُودِهَا التَّلَاشِي.

فَالْبَصَرُ الْكَاشِفُ الَّذِي يُجَرِّدُ الْأَشْيَاءَ مِنْ سِحْرِهَا الْوَهْمِيِّ، هَذَا هُوَ كُلُّ السَّرِّ

قَالَ الشَّيْخُ: لَعَنَكَ اللَّهُ؛ فَكَيْفَ مَعَ هَذَا تَفْتَنُ الْمُؤْمِنَ؟

قَالَ إِبْلِيسُ: يَا أَبَا عَامِرٍ، هَذَا سَوَالُ شَيْطَانِي... تَرِيدُ - وَيَحْكُ - أَنْ تَحْتَالَ عَلَى الشَّيْطَانِ؟ وَلَكِنْ مَا يَضُرُّنِي أَنْ أَفْسَرَهَا لَكَ.

لَيْسَ الْإِيمَانُ هُوَ الْأَعْتِقَادُ وَلَا الْعَمَلُ، وَلَوْ كَانَ مِنْ هَذَيْنِ لَمَّا شَقَّ عَلَى أَحَدٍ وَلَصَلَحَتْ أَلَدُنْيَا وَأَهْلُهَا؛ إِنَّمَا الْإِيمَانُ وَضْعُ يَقِينٍ خَفِيِّ يَكُونُ مَعَ الْغَرِيزَةِ فِي مَقَرِّهَا، وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ فِي مَقَرِّهَا لِتَضَدَّرَ عَنْهُ أَعْمَالُ الْغَرِيزَةِ؛ وَهَذَا الْيَقِينُ لَا يَصْلُحُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ يَقِينًا ثَابِتًا بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا، فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فَيَتَذَكَّرُ فَيُبْصِرُ. هُنَاكَ مِيرَاثٌ مِنَ الْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِ، فَالْيَقِينُ بِهَذَا الْمِيرَاثِ هُوَ سِرُّ الْإِيمَانِ.

وَالْعَمَلُ الشَّيْطَانِيُّ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي إِفْسَادِ هَذَا الْيَقِينِ وَمُعَارَضَةِ الْخَيَالِ الْعَظِيمِ الَّذِي فِيهِ بِالْحَقَائِقِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَظْهَرُ لِلْمَغْفَلِ عَظِيمَةً، كَمَا تُشَبُّ نَارٌ أَكْبَرُ مِنْ قُرْصِ الشَّمْسِ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَبْلَهَةِ: أَنْظِرْ بَعَيْنَيْكَ، فَيُصَدَّقُ أَنَّهَا أَكْبَرُ مِنَ الشَّمْسِ.

وَمَتَى صَغُرَ هَذَا الْيَقِينُ وَكَانَتِ الْحَقَائِقُ الدُّنْيَوِيَّةُ أَكْبَرَ مِنْهُ فِي النَّفْسِ؛ فَأَيَسَّرُ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ حِينَئِذٍ يُفْسِدُ الْمَعْتَقَدَ وَيُسْقِطُ الْفَضِيلَةَ؛ وَيُدْرِهِمْ وَاحِدٌ يُوجَدُ أَلَلُّصُ حِينَئِذٍ.

(٢) الْخَافِقِينَ. الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ.

(١) ارْتَقَيْتُ: صَعَدْتُ.

أما إذا ثَبَتَ اليَقِينُ فَالشَّيْطَانُ مَعَ الْإِنْسَانِ يَصْغُرُ ثُمَّ يَصْغُرُ، وَيَعْجِزُ ثُمَّ يَعْجِزُ.
حتى ليرجعُ مثلَ أدرهم إذا طَمِعَ الطامعُ أَنْ يجعلَ الرجلَ الغنيَّ الكَثِيرَ المالِ لَصًا
مِنَ اللصوصِ بهذا الدرهم.

قالَ الشيخُ: لَعَنَكَ اللهُ! فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ إفسادَ هذا اليَقينِ فكيفَ تصنعُ في فتنَةِ
المؤمن؟

قالَ إبليسُ: يا أبا عامر، إِنْ لَمْ أُسْتَطِعْ إفسادَ اليَقينِ زُدَّتْهُ يَقِيناً فيفسدُ،
وَأَسْتَحْسَنُ الرجلِ لأعمالِهِ السَّامِيَةِ قد يَكُونُ هو أَوْلَى أَعْمَالِهِ الْكَافِلَةِ؛ وبأيِّ عَجيبٍ
يَكُونُ الشَّيْطَانُ شَيْطَاناً إِلَّا بِمِثْلِ هَذَا؟

قالَ أحمدُ بْنُ مَسْكِينٍ: وَغَضِبَ الشَّيْخُ، فَمَدَّ يَدَهُ فَأَخَذَ فِيهَا عُقَى إِبْلِيسَ وَقَدْ
رَأَهُ دَقِيقاً، ثُمَّ عَصَرَهُ عَصْرًا شَدِيداً يُرِيدُ خَنْقَهُ؛ فَفَهَّقَهُ الشَّيْطَانُ سَاحِراً مِنْهُ. وَتَنَبَّهَ
الشَّيْخُ، فَإِذَا هُوَ يَشُدُّ بِيَدِهِ الْيَمْنَى عَلَى يَدِهِ الْيُسْرَى

الدنيا والدرهم

٤

قال أحمدُ بنُ مسكينٍ: وأزِفَ^(١) ترُحلي عن (بلخ)، وتهبُأتُ للخروج، ولم يبقَ من مدّةٍ مَقِيلِي بها إلا أيامٌ يجيء فيها السبتُ الرابع، وكانَ قد وقعَتْ مُماراةٌ بيني وبينَ مفتي (بلخ) أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف الباهلي تلميذ أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة، ويزعمون أنه شحيحٌ على المال، وأنه يَتَغَلَّلُهُ من مُسْتَقْلَاتٍ كثيرة^(٢)، فكأنما غَشِيَتْهُ^(٣) غمامتي، فهو لا يرى أن أتكلّم في الزهد، ويحبُّ هذا الزهدَ تَمَاوَتْ العُباد، ونَفَضَ الأيدي مِنَ الدنيا، وسوءَ المصاحبة لِمَا يُنِعِمُ اللَّهُ بِهِ على العبد، وخَذَلَانِ القُوّة في البدن، وما جرى هذا المجرى من تزوير الحياةِ بالأباطيل التي زَعَمَ أنها أباطيلُ الطاعاتِ وما أَقْرَبَهَا مِنْ أباطيلِ المعصية. ولم يكنْ هذا المفتي قد سمعني ولا حضَرَ مجلسي، ولولا الذي لم يعرفهُ من ذلك لقد كانَ عرف.

وجادلته^(٤) فرأيتُهُ واهنَ^(٥) الدليل، ضعيفَ الحُجّة، يُخَمِّنُ تخمينَ فقيه، وينظرُ إلى الخفايا من حقائقِ النفوسِ نظرَ صاحبِ النَصِّ إلى الظاهر، كأنَّ الحقيقةَ إذا أُلْقِيَتْ على الناسِ مضَتْ نافذةً كفتوى المفتي... ويزعمُ أن الوعظَ وعظُ أَلَفَها، يقولون: هذا حرام. فيكونُ حراماً لا يُقَارَفُهُ^(٦) أحد، وهذا حلال. فيكونُ حلالاً لا يتركُهُ أحد، وهو كانَ بعيداً عن حقيقةِ الوعظِ ومَدَاخِلِهِ إلى النفسِ وسياسَتِهِ فيها، ولا يعرفُ أنَّ الحقيقةَ كالأنثى: إن لم تُزَيَّنْ بزِينَتِها لم تُسْتَهْرَ أحدًا؛ وأنَّ الموعظةَ إن لم تُتَأَدَّ في أسلوبِها الحيِّ كانتْ بالباطلِ أشبه، وأنه لا يَغَيِّرُ النَّفْسَ إِلَّا النفسُ التي فيها قوّةُ التَّحْوِيلِ والتَّغْيِيرِ، كنفوسِ الأنبياءِ ومَنْ كانَ في طريقةِ رُوحِهِمْ،

(٤) جادلته: ناقشته.

(٥) واهن: ضعيف.

(٦) يقارفه: يقع فيه.

(١) أزِف: حان.

(٢) المستقلات: أصول الأموال.

(٣) غشيت: غطته.

وَأَنَّ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ إِنَّمَا هِيَ وَضْعُ نُورِ الْبَصِيرَةِ فِي الْكَلَامِ، لَا وَضْعُ الْقِيَاسِ وَالْحُجَّةِ، وَأَنَّ الرَّجُلَ الزَّاهِدَ الصَّحِيحَ الزَّهْدِ، إِنَّمَا هُوَ حَيَاةٌ تَلْبَسُهَا الْحَقِيقَةُ لِتَكُونَ بِهِ شَيْئاً فِي الْحَيَاةِ وَالْعَمَلِ. لَا شَيْئاً غَيْرَ الْقَوْلِ وَالتَّوَهُّمِ، فَيَكُونُ إِلَهَامُهَا فِيهِ كَحَرَارَةِ النَّارِ فِي النَّارِ: مَنْ وَاتَّاهَا أَحْسَاهَا.

وَلَعَنَرِي، كَمْ مِنْ فَقِيهٍ يَقُولُ لِلنَّاسِ: هَذَا حَرَامٌ. فَلَا يَزِيدُ هَذَا الْحَرَامَ إِلَّا ظَهُوراً وَأَنْكِشَافاً مَا دَامَ لَا يَنْطِقُ إِلَّا نَطَقَ الْكِتَابِ، وَلَا يُحَسِّنُ أَنْ يَصِلَ بَيْنَ الْنَفْسِ وَالشَّرْعِ، وَقَدْ خَلَا مِنَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَجْعَلُهُ رَوْحاً تَعْلُقُ الْأَرْوَاحَ بِهَا وَتَضَعُهُ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَوْضِعٍ يَكُونُ بِهِ فِي أَعْتَابِهِمْ كَأَنَّهُ آتٍ مِنَ الْجَنَّةِ مِنْذُ قَرِيبٍ، رَاجِعٌ إِلَيْهَا بَعْدَ قَرِيبٍ.

وَأَلْفَقِيهِ الَّذِي يَتَعْلَقُ بِالمَالِ وَشَهَوَاتِ النَفْسِ، وَلَا يَجْعَلُ هَمَّهُ إِلَّا زِيَادَةَ الرِّزْقِ وَحِظَ الدُّنْيَا - هُوَ الْفَقِيهُ الْفَاسِدُ الصُّورَةُ فِي خِيَالِ النَّاسِ، يُفْهِمُهُمْ أَوَّلَ شَيْءٍ إِلَّا يَفْهَمُوا عَنْهُ؛ إِذْ حِرْصُهُ فَوْقَ بَصِيرَتِهِ، وَلَهُ فِي الْنَفُوسِ رَائِحَةُ الْخَبَرِ، وَلَهُ مَعْنَى: خَمْسٌ وَخَمْسٌ عَشْرَةَ... ^(١) وَكَأَنَّ دُنْيَاهُ وَضَعَتْ فِيهِ شَيْئاً فَاسِداً غَرِيباً يُفْسِدُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا؛ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ هَذَا الشَّيْءُ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ فَقْهَاءَ يَعِظُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ عَلَى النَّاسِ فِي الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ وَفِي نَصِّ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، ثُمَّ لَمْ أَجِدْ لِكَلَامِهِمْ نَفْعاً وَلَا رَدّاً، إِذْ يُلْهِمُونَ النَّاسَ بِأَرْوَاحِهِمْ غَيْرَ الْمَعْنَى الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ؛ وَتَسَخَّرُ الْحَقِيقَةُ مِنْهُمْ - عَلَى خَطَرِهِمْ ^(٢) وَجَلَالِ شَأْنِهِمْ - بِذَاتِ الْأُسْلُوبِ الَّذِي تَسَخَّرُ بِهِ مِنْ لِصٍّ يَعِظُ لِصّاً آخَرَ فَيَقُولُ لَهُ: لَا تَسْرِقْ...



قَالَ أَبْنُ مَسْكِينٍ: فَلَمَّا دَارَ يَوْمُ أَلْسَبَتِ أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الْمَسْجِدِ أَفْوَاجاً، وَكَانُوا قَدْ تَعَالَمُوا إِزْمَاعِي الرَّحِيلَ عَنْ بَلَدِهِمْ - وَجَاءَ (لِقَمَانِ الْأُمَّةِ) فِي أَشْبَاعِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَجَاءَ أَبُو إِسْحَاقَ الْمُفْتِي فِي جَمَاعَتِهِ؛ وَأَسْتَقَرَّ بِي الْمَجْلِسُ فَتَفَذَّتْ النَّاسَ بِنَظَرِي، فَكَانَتْهُمْ مِنْ كَثَرَتِهِمْ نَبَاتٌ غَطَّى الْأَرْضَ، فَأَذْكُرُنِي هَذَا شَيْخَنَا السَّرِيِّ بَنْ مُغْلَسِ السَّقَطِيِّ ^(٣)، وَكَأَنَّ قَدْ لَزِمَ دَاوَةَ فِي بَغْدَادَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَلَا يَرَاهُ إِلَّا مَنْ قَصَّدَ إِلَيْهِ، وَهَمْنْتُ أَنْ أَجْعَلَ الْمَوْعِظَةَ فِي شَرْحِ كَلِمَتِهِ الْمَشْهُورَةِ: «لَا تَصِحُّ الْمَحَبَّةُ بَيْنَ

(١) يقصد من ذلك أن الحياة عملية حسائية.

(٢) خطَرُهُمْ: أَمْنُهُمْ. (٣) السقط: رديء المتاع، وباتعه يسمى السقطي.

أثنين حتى يقول أحدهما للآخر: يا أنا. وما نقلوا عنه من أنه قال مرة لبعض أصحابه: منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي: (الحمد لله). فقال صاحبه: وكيف ذلك؟ قال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجل فقال: نجا حانوتك. فقلت: الحمد لله فانا نادم من ذلك الوقت على ما قلت؛ إذ أردت لنفسي خيراً من الناس!

قال ابن مسكين: ولكني أحييت أن أكلّم المفتي ومال المفتي؛ فحدثهم حديث معرفتي بالسري: أتني سمعت يوماً (غيلان الخياط) يقول: إن السري كان اشترى كراً^(١) لوز بستين ديناراً، وأثبتته في رزنامجه^(٢) وكتب أمانته: ربحه ثلاثة دنانير؛ فلم يلبث أن غلا السعر فبلغ تسعين ديناراً؛ فاتاه الدلال الذي كان اشترى له فقال: أريد ذلك اللوز. قال الشيخ: خذه. قال: بكم؟ فقال: بثلاثة وستين ديناراً. وكان الدلال رجلاً صالحاً، فقال للشيخ: إن اللوز قد صار أكثر بتسعين. قال السري. ولكني عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله، فلست أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً. فقال الدلال: وأنا قد عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله، ألا أغش مسلماً، فلست أشتري منك إلا بتسعين؛ فلا الدلال اشترى منه، ولا السري باعه...!

قال أحمد بن مسكين: فلما سمعت ذلك لم تكن لي همّة إلا أن ألقى الشيخ وأصحابه وأخذ عنه، فلم أعرج^(٣) على شيء حتى كنت في المسجد الذي يصلي فيه، فأجدته في خلقتيه وعنده ممن كنت أعرفهم: عبد الله بن أحمد بن حنبل، وإدريس الحداد، وعلي بن سعيد الكرازي، وحوله خلق كثير وهو فيهم كالشجرة الخضراء بين الهشيم تعلوه نضرة وجهه، وكأنما يمدّه بالنور عرق من السماء، فهو يتلألأ للعين؛ ولا يملك الناظر إليه إلا أن يجسّ في ذات نفسه أنه الأدي، من رؤيته في ذات نفسه أن هذا هو الإنسان الأعلى.

ورأيت على وجهه آلاماً تمسحه مسحاً لأشواق لا مسحاً آلاماً، آثار ما يجده في روحه القويّة، لا كالآلام الناس التي هي آثار الجرماني في أرواحهم الكواهنة الضعيفة فلا تمسح وجوههم إلا مسح الغم والكآبة.

(١) الكر، يضم الكاف هو مكياك عظيم يقدرّون فيه الحساب، يساوي أربعين إرباً مصرياً.

(٢) رزنامجه: دفتر حساباته.

(٣) أعرج: أمل، الو.

وما يُخطئ النظر في تمييز آلام السماء على هذه الوجوه السعيدة من آلام الأرض في الوجوه الأخرى، فإنَّ الأولى تَنَدَّى على رُوح الناظرِ بمثل الطَّلِّ إذا قَطَرَهُ الفجر، والأخرى تَتَوَّرُّ في روجِهِ كما تَهيجُ الغَبَرَةُ إذا ضَرَبَتْ أَرِيحُ الأرض.

كَانَ الشَّيْخُ فِي وَجُودٍ فَوْقَ وَجُودِنَا؛ فَلَا تَتَلَوَّنَ لَهُ الْأَشْيَاءُ وَلَا تَعْدُو عِنْدَهُ مَا هِيَ فِي نَفْسِهَا، وَلَا يَحْمِلُ الشَّيْءُ لَهُ إِلَّا مَعْنَاهُ مِنْ حَيْثُ يَصْلُحُ أَوْ لَا يَصْلُحُ، وَمِنْ حَيْثُ يَنْبَغِي أَوْ لَا يَنْبَغِي. فَإِنَّمَا تَتَلَوَّنُ الْأَشْيَاءُ عِنْدَ مَا يَضَعُ الشَّيْطَانُ عَيْنَهُ فِي عَيْنِ النَّاطِرِ إِلَيْهَا؛ وَإِنَّمَا تَزِيدُ وَتَنْقُصُ فِي الْقَلْبِ عِنْدَمَا يَكُونُ رُوحُ الشَّيْطَانِ فِي الْقَلْبِ؛ وَإِنَّمَا يَشْتَبِهُ مَا يَنْبَغِي وَمَا لَا يَنْبَغِي عِنْدَ مَا يَأْتِي الشَّيْءُ مِنْ جِهَتَيْنِ: جِهَتِهِ مِنْ طَبِيعَتِهِ هُوَ، وَجِهَتِهِ مِنْ طَبِيعَتِنَا نَحْنُ. وَبِهَذَا قَدْ يَجْمَعُ الْإِنْسَانُ أَمَالَ ثُمَّ لَا يَجِدُ فِي أَمَالٍ مَعْنَى الْغِنَى. وَقَدْ تَتَفَقَّحُ سَبَابُ النِّعَمِ وَلَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَّا الدَّلَلُ. وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَجِدُ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ إِلَّا عَكْسَ مَا كَانَ يَبْغِي، وَآخَرُ لَمْ يَجِدْ شَيْئاً وَوَجَدَ بِذَلِكَ رَاحَتَهُ.

قَالَ أَبُو مُسْكِينٍ. وَمَا كَانَ أَشَدَّ عَجَبِي حِينَ تَكَلَّمَ الشَّيْخُ، فَقَدْ أَخَذَ يُجِيبُ عَمَّا فِي نَفْسِي وَلَمْ أَسْأَلْهُ، كَأَنَّ الَّذِي فِي فِكْرِي قَدْ أُنْقَلَّ إِلَيْهِ؛ فَرَوَى الْحَدِيثَ. «إِذَا عَظُمَتْ أُمْتِي الدِّينَارُ وَالْدِرْهَمُ، نُزِعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ؛ وَإِذَا تَرَكَوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، حَرَمُوا بَرَكَةَ الْوَحْيِ». ثُمَّ قَالَ فِي تَأْوِيلِهِ:

إِنَّ مَلَكَ الْوَحْيِ يَنْزِلُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لِيُخَضَعَ صَوْلَةُ^(١) الْأَرْضِ بِصَوْلَةِ السَّمَاءِ، فَإِذَا بَقِيَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، بَقِيَ عَمَلُ الْوَحْيِ إِلَّا أَنَّهُ فِي صُورَةِ الْعَقْلِ، وَبَقِيَتْ رُوحَانِيَّةُ الدُّنْيَا إِلَّا أَنَّهُمَا فِي صُورَةِ النِّظَامِ، وَكَانَ مَعَ كُلِّ خَطَأٍ تَصْحِيحُهُ؛ فَيُصْبِحُ الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ تَنْفِيزاً لِلشَّرِيعَةِ بَيْنَ أَمْرِ مُطَاعٍ وَمَأْمُورٍ مُطَاعٍ، فَيَتَعَامَلُ النَّاسُ عَلَى حَالَةٍ تَجْعَلُ بَعْضَهُمْ أَسْتَاذاً لِبَعْضٍ، وَشَيْئاً مِنْهُمْ تَعْدِيلاً لِّشَيْءٍ، وَقُوَّةً سَدّاً لِقُوَّةٍ؛ فَيَقُومُ الْعَزْمُ فِي وَجْهِ التَّعَاوُنِ، وَالشَّدَّةُ فِي وَجْهِ التَّنَازُلِ، وَالْقُدْرَةُ فِي وَجْهِ الْعَجْزِ؛ وَبِهَذَا يَكُونُونَ شُرَكَاءَ مُتَعَاوِنِينَ، وَتَعَوَّدُ صِفَاتُهُمُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَكَأَنَّهَا جَيْشٌ عَامِلٌ يُنَاصِرُ بَعْضُهُ بَعْضاً، فَتَكُونُ الْحَيَاةُ مَفْسَرَةً مَا دَامَتْ مَعَانِيهَا السَّامِيَةُ تَأْمُرُ أَمْرَهَا وَتُلْهِمُ إِلَهَامَهَا، وَمَا دَامَتْ مُمَثِّلَةً فِي الْأَوَاجِبِ النَّافِذَةِ عَلَى الْكُلِّ.

وَالنَّاسُ أَحْرَازُ مَتَى حَكَمْتَهُمْ هَذِهِ الْمَعَانِي، فَلَيْسَتْ حَقِيقَةُ الْحَرِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا

(١) صَوْلَةٌ: جَوْلَةٌ.

الْخُضُوعَ لِلْوَاجِبِ الَّذِي يَحْكُمُ، وبذلك لا بغيره وَيَتَّصِلُ مَا بَيْنَ الْمَلِكِ وَالسُّوقَةِ^(١)، وما بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ، اتَّصَالَ الرَّحْمَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَاتَّصَالَ الْقَسْوَةُ فِي التَّأْدِيبِ وَحَدَهُ. فَبِرْكَةُ الْوَحْيِ إِنَّمَا هِيَ جَعْلُ الْقُوَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَمَلًا شَرْعِيًّا لَا غَيْرَ.

أَمَّا تَعْظِيمُ الْأَمَةِ لِلدُّنْيَا وَالْدَّرْهِمِ، فَهُوَ اسْتِعْبَادُ الْمَعَانِي الْحَيَوَانِيَّةِ فِي النَّاسِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ، وَتَقَطُّعُ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّشَابُكِ فِي لُحْمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَجَعْلُ الْكَبِيرِ فِيهِمْ كَبِيرًا وَإِنْ صَغُرَتْ مَعَانِيهِ، وَالصَّغِيرِ فِيهِمْ صَغِيرًا وَإِنْ كَبُرَ فِي الْمَعَانِي؛ وَبِهَذَا تَمُوجُ الْحَيَاةُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَلَا يَسْتَقِيمُ النَّاسُ عَلَى رَأْيٍ صَحِيحٍ؛ إِذْ يَكُونُ الصَّحِيحُ وَالْفَاسِدُ فِي مِلْكِ الْإِنْسَانِ لَا فِي عَمَلِ الْإِنْسَانِ، فَيَكْتَنِزُ الْغَنِيُّ مَالًا وَيَكْتَنِزُ الْفَقِيرُ عَدَاوَةً، كَأَنَّ هَذَا قَتَلَ مَالَ هَذَا، وَكَأَنَّ أَعْمَالَ قَتَلَتْ أَعْمَالَ، وَتَرْجِعُ الْأَصْفَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ مُتَعَادِيَةً، وَتُبَاغِ الْأَفْضَالُ وَتُشْتَرَى، وَيَزِيدُ مَنْ يَزِيدُ وَلَكِنْ فِي الْقَسْوَةِ، وَيَنْقُصُ مَنْ يَنْقُصُ وَلَكِنْ فِي الْحَرِيَّةِ، وَتَكُونُ الْمَنْفَعَةُ الذَّائِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَأْمُرُ فِي الْجَمِيعِ وَتَنْهَى، وَيَدْخُلُ الْكَذِبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي النَّظَرِ إِلَى الْمَالِ، فَيَرَى كُلُّ إِنْسَانٍ كَأَنَّمَا دِرْهُمُهُ وَدِينَارُهُ أَكْبَرُ قِيَمَةً مِنْ دِينَارٍ الْآخَرِ وَدِرْهُمِهِ، فَإِذَا أُعْطِيَ نَقْصٌ فَعُشْتُ، وَإِذَا أَخَذَ زَادٌ نَسَرَقْتُ؛ وَتُصْبِحُ النَّفُوسُ نَفُوسًا تَجَارِيَةً تُسَاوِمُ قَبْلَ أَنْ تَنْبَعَثَ لِفَضِيلَةٍ، وَتُمَاكِسُ^(٢) إِذَا دُعِيَتْ لِإِدَاءِ حَقٍّ، وَيَتَعَامَلُ النَّاسُ فِي الشَّرَفِ عَلَى أَصُولٍ مِنَ الْمَعْدُودَةِ لَا مِنَ الرُّوحِ، فَلَا يُقَالُ حَيْثُذُ، إِنَّ رَغِيفَيْنِ أَكْثَرُ مِنْ رَغِيفٍ وَاحِدٍ. كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْعَدَدِ، بَلْ يُقَالُ: إِنَّ رَغِيفَيْنِ أَشْرَفُ مِنْ رَغِيفٍ. كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْتَفَاقِ.

أَمَّا التَّجَارَةُ - وَهِيَ التَّفْسِيرُ الظَّاهِرُ لِمَعَانِي النَّفُوسِ - فَتُصْبِحُ بَيْنَ الْغَشِّ وَالضَّرْرِ وَالْمَمَاكَرَةِ، وَتَكُونُ يَقْظَةً التَّجَارِ مِنْ غَفْلَةِ الْشَارِي، وَتَفْسُدُ الْإِرَادَةُ فَلَا تُحَدِّثُ إِلَّا آثَارَهَا الزَّائِغَةَ^(٣). وَمَا التَّجَارُ فِي الْأَمَةِ الْقَوِيَّةِ إِلَّا أَسْتَاذٌ لِتَعْلِيمِ الصَّدَقِ وَالْخُلُقِ فِي الْمَوْضِعِ الْمُتَقَلَّبِ، فَكَلِمَتُهُ كَالرُّقْمِ مِنَ الْعَدَدِ لَا يَحْتَمِلُ أَزِيدَ وَلَا أَنْقَصَ مِمَّا فِيهِ، وَيُمْتَحَنُ بِالْأَمْرِ وَالْأَمْرِ أَشَدَّ مِمَّا يُمْتَحَنُ الْعَابِدُ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ. وَقَدْ شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ فِي قَضِيَّةٍ، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ: إِنِّي بَمَنْ يَعْرِفُكَ. فَأَتَاهُ بِرَجُلٍ أَثْنَى عَلَيْهِ خَيْرًا، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ: أَنْتَ جَارُهُ الْأَدْنَى الَّذِي يَعْرِفُ مَذْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ؟ قَالَ:

(١) السُّوقَةُ: الْعَامَّةُ مِنَ النَّاسِ.

(٢) تُمَاكِسُ: تَشَاخَى فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ.

(٣) الزَّائِغَةُ: الْمُنْحَرِفَةُ.

لا قال: فكنت رفيقاً في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا.
قال: فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستين به ورع الرجل؟ قال: لا
قال عمر: أظنك رأيت قائماً في المسجد يهملهم بالقرآن، يخفض رأسه طوراً
ويرفعه أخرى؟ قال: نعم.

قال: فأذهب فلست تعرفه!

وإنما التاجر صورة من ثقة الناس بعضهم ببعض، وإرادة الخير واعتقاد
الصدق، وهو في كل ذلك مظهر توضع أيدٍ عليه كما تجس^(١) أيد مرض المريض
وصحته.

فإذا عظمت الأمة الدينار والدرهم، فإنما عظمت النفاق والطمع والكذب
والعداوة والقسوة والاستعباد؛ وبهذا تُقيم الدنانير والدراهم حدوداً فاصلة بين
أهلها، حتى لتكون المسافة بين غني وفقير كالمسافة بين بلدين قد تباعد ما بينهما.
وإنما هيبة الإسلام في العزة بالنفس لا بالمال، وفي بذل الحياة لا في الحرص
عليها، وفي أخلاق الروح لا في أخلاق اليد، وفي وضع حدود الفضائل بين الناس
لا في وضع حدود الدراهم، وفي إزالة النقائص من الطباع لا في إقامتها، وفي
تعاون صفات المؤمنين لا في تعاديها، وفي اعتبار الغنى ما يعمل بالمال لا ما
يجمع من المال، وفي جعل أول الثروة العقل والإرادة، لا الذهب والفضة...
هذا هو الإسلام الذي غلب الأمم، لأنه قبل ذلك غلب النفس والطبيعة.

(١) تجس: تدس.

دُعَابَةُ إِبْلِيسَ (١)

أَمَّا إِنِّي سَأَقْصُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ كَمَا اتَّفَقَتْ، لَا أَزِيئُهَا بِخِيَالٍ، وَلَا أَتَزِيدُ فِيهَا بِخَبَرٍ، وَلَا أَوْلِدُ لَهَا مَعْنَى؛ فَإِنَّمَا هِيَ حِكَايَةُ حُبِّبِ الْخَبِيثِ: فَتُهَا جَذْفُهُ^(٢) وَدَهَاوُهُ، وَرَفَّتُهَا غِلْظَتُهُ وَشَرُّهُ، وَمَعَانِيهَا بِلَاؤُهُ وَمُخْتَنَتُهُ؛ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

لَمَّا فَكَّرْتُ فِي وَضْعِ مَقَالَةِ (إِبْلِيسَ) مِنْ أَحَادِيثِ (ابْنِ مَسْكِينٍ)، وَأَدْرْتُ رَأْيِي فِي نَهْجِهَا وَحُدُودِهَا وَمَعَانِيهَا، جَعَلَ فِكْرِي يَتَقَطَّعُ فِي ذَلِكَ، يَذْهَبُ وَيَجِيءُ كَأَنِّي بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَنَازَعَةٌ، أَوْ كَأَنِّي فِي نَفْسِي شَيْئًا يَثْنِيَنِي وَيَقْطَعُنِي عَنِ الْغَزْمِ؛ وَخُيِّلَ إِلَيَّ حِينَئِذٍ أَنَّ (إِبْلِيسَ) هَذَا مُنْفَعَةٌ مِنَ الْمَنَافِعِ وَأَنَّهُ هُوَ قَانُونُ الطَّبِيعَةِ الَّذِي نَصَّ مَادَّتِهِ الْأُولَى مَا أَعْجَبَكَ فَهُوَ لَكَ. وَنَصَّ مَادَّتِهِ الْأَخِيرَةَ: مَا أَحْتَجَّتْ إِلَيْهِ فَمَثَلُهُ أَنْ تَقْدَرَ عَلَى اخْذِهِ

وَهَجَسَ فِي نَفْسِي هَاجَسٌ: أَنَّ (إِبْلِيسَ) قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْحَرِيَّةِ كَمَا هُوَ قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْإِثْمِ، وَأَنَّهُ إِنْ يَكُنْ فِي قُلُوبِ الْفُسَّاقِ فَهُوَ أَيْضًا فِي أَدْمَعَةِ الْفَلَّاسِفَةِ وَإِنْ كَانَ فِي سَقُوطِ أَهْلِ الرَّذِيلَةِ إِلَى الرَّذِيلَةِ، فَهُوَ كَذَلِكَ فِي سَمَوِّ أَهْلِ الْفِرِّ إِلَى الْفِرِّ. قَالَ الْهَاجِسُ^(٣) وَإِنَّ (إِبْلِيسَ) أَيْضًا هُوَ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الْعَمَلِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَادِيِّ، فَهُوَ مِنْ تَمِّ حَقِيقَةٍ أَنْ يَلْقَبُوهُ «صَاحِبَ الْفَضِيلَةِ»

وَلَكِنِّي لَمْ أَحْفَلْ^(٤) بِهِذِهِ الْكُوسَاوِسِ وَلَمْ أُعْجِ^(٥) عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا، وَأَسْتَعْنُثُ الْكُلَّ وَأَمْضِي نَيْتِي عَلَى الْكِتَابَةِ، وَأَخْذُ أَقْلَبَ الْمَوْضُوعِ، وَأَنْبِيءُ فِكْرِي لَهُ، وَأَسْتَشْرِفُ^(٦) لِمَا يُوْدِّي إِلَيْهِ الْنَظَرُ، وَأَتَطَّلَعُ لِمَا يَجِيءُ بِهِ الْخَاطِرُ، وَأَلْتَمِسُ مَا أَبْنِي عَلَيْهِ الْكَلَامَ كَمَا هِيَ عَادَتِي؛ فَلَمْ يَقَعْ لِي شَيْءٌ أَلْتَبَهُ، كَأَنَّمَا ذَهَبَ أَوَّلُ ابْتِدَاءِ

(٤) أَحْفَلُ أَهْتَمُّ.

(٥) أَعْجَى: أَمَلُ، أَعْجَجَ.

(٦) اسْتَشْرِفُ: اسْتَطْلَعُ.

(١) الدُّعَابَةُ: الْمَزَاحُ وَاللَّعِبُ.

(٢) جَذْفُهُ: اتَّقَانُهُ.

(٣) الْهَاجِسُ: الْهَاتِفُ.

الموضوع فلا أولَ له ولا سبيلَ إلى اقتحامه، وكأنَّه من وراء العلم فلا يبلغُ إليه، وكأنَّه من أتعذرِ كمحاولةِ تصويرِ حماقةِ الحياةِ كُلِّها في كلمة. وإيليس كلمةٌ فيها حماقةُ الحياةِ كُلِّها.

ومن عاداتي في كتابة هذه الفصولِ التي تنشرُها (الرسالة)، أن أدعَ الفصلَ منها ثقليةَ الخواطرِ في ذهني أيامَ الثلاثاءِ والأربعاءِ والخميسِ، وأتركُ أمره للقوةِ التي في نفسي، فتتولدُ المعاني من كلِّ ما أرى وما أقرأ، وتتأَلُّ^(١) من ههنا وههنا، ويكونُ الكلامُ كأنَّه شيءٌ حيٌّ أريدُ له الوجودَ فوجد.

ثم أكتبُ نهارَ الجمعة، ومن ورائه ليلُ السبتِ وليلُ الأحدِ كالمددِ من وراء الجيشِ إذا نالته فتيةٌ أو كُنْتُ على سفَرٍ أو قطعني عن الكتابةِ شيءٌ مما يعرض.

وفي أسبوعِ إيليس (لَعَنَهُ اللهُ)، مرَّتْ الأيامُ الثلاثةُ وفيها ثلاثةُ ألوان: ضجرٌ لا رَوْحَ فيه، وكسلٌ لا نشاطَ معه، وأضطرابٌ لا مساكَ له. وأطلتُ التفكيرَ يومَ الخميسِ، فكأنْتُ تعتريني خواطرٌ مضحكة: فيعرضُ لي مرةً أن أصوِّرَ إيليسَ امرأةً ليكونَ إيليسَ الجميل. وتارةً أتوهَّمُ أن إيليسَ يريدُ أن يكونَ شيخاً كبعضِ رجالِ أكدين الذين لا تزالُ تَطْلُعُ على خائنةٍ منهم، يُقالُ إيليسُ التقى المصلي. وحيناً أظنُّ أنه يريدُ أن يكونَ كاتباً مؤلفاً شهيراً يُقالُ إيليسُ المفكرُ المصلح... وخطرَ لي أخيراً أنه يريدُ أن يكونَ حاكماً مُلجداً فاجراً، ليكونَ إيليسَ التامَ لا إيليسَ الناقص..

ولمَّا ذهبَتِ الأيامُ الثلاثةُ باطلاً، حُيِّلَ إليَّ أن إيليسَ (أخزاه اللهُ) يسألني عن المقالة: إلى أي شيءٍ انقلبَتِ...؟ فشقُّ^(٢) ذلكَ عَلَيَّ وأغتممتُ به، غيرَ أنني أطمأننتُ إلى يومِ الجمعةِ وأن وراءَهُ ليلتين. وكأنْتُ قد غرِيتُ شمسَ الخميسِ، فقلْتُ: فلاخرجَ لِاتفرَّجَ مما بي، وعسى أن أجمعَ نفسي لِلتفكيرِ إذا جلستُ في النادي، ولعلَّه يقعُ ما أستوحيه أو يفتحُ لي بابٌ في القراءة.

وخرجتُ، فلم أجاوزِ الدارَ حتى أبدرنِي مَنْ قَبِطَ عَلَيْهِ الخَبْرُ مِنَ القاهرةِ أن نسيأَ لنا مِنَ العظماءِ توفي أخوه اليوم. فقلْتُ: لا حولَ ولا قوةَ إِلَّا بالله؛ ضاعَ يومُ الجمعة. إذ لا بدَّ مِنَ السفرِ لِشيعِ الجنازةِ وحضورِ المأتمِّ ثم قُلْتُ: لعلَّ في هذا

(٢) شقٌّ: صعب.

(١) تتأَلُّ: تنهمرُ وتتوالى.

السفر استجماماً^(١) ونشاطاً فاستدركَ الأسبوعَ كله في يومين، وإنما الاستكثارُ بالقوة لا بالزمن، ولا يدُ لإبليس في الموت والحياة، فليس إلا أطراحه وقله المبالاة به، وإنما هي خطرات من وساويه.

وأصبختُ في القاهرة، ومثيتُ في الجنازة قبل الظهر مَسيَرةً ساعة كاملة؛ وكانت الشمسُ ساطعةً تلاماً، وأنا مُثقلٌ بثيابِ الشتاءِ وكنتُ أتوقّع أن يكونَ اليومُ من أيامِ الريحِ المجنونة، فلما أتتْنا إلى الصحراء، هبَّتْ الريحُ هبوباً ليئناً، ثُمَّ رَفَّتْ فكانتُ إلى الشدةِ ما هي: ولكنها ماضيةٌ تنسفي^(٢) الرملَ في الأعينِ فيأخذُ في أجفاني أكال^(٣) وتَهَيِّجُ، وليسَ معي شيءٌ أتقيها به؛ غيرَ أنني شغلْتُ، فكري برويةِ المقابر، وجعلتها في نفسي كالمقالة المكتوبة سطرأ وراء سطر؛ وقلتُ: ههنا الحقيقةُ في أولِ تفسيرِها، وغيرُ المفهومِ في الحياة يفهمُ هنا.

ثُمَّ رجعتُ مُتدِّيةً الجسمَ بالعرقِ وَعَلَيَّ نَضَجُ منه، وكانَ القميصُ مِنَ الصوفِ، ويصدرني أثرٌ مِنَ التَّلَزُّعِ الشَّعْبِيَّةِ^(٤)، وإذا تَنَدَّى الصوفُ وجبَ نزَعُهُ وإِلَّا فِيهِ الْعِلَّةُ ما منها بُدُّ.

ثُمَّ لم تكنْ إِلَّا ساعةً حتى أَنَحَرَقْتُ الريحُ وجعلتُ تَعْصِفُ وَبَرَدَ الجَوُّ، فأيقنْتُ أَنَّهُ الزَّكَامُ، وقلتُ في نفسي: هذا بابٌ على حِدة، والمقالة ذاهبةٌ لا محالة، فستُخَلَّفُ الذَّهْنُ ويتلَدُّ؛ والشيطانُ كَرِيمٌ في الشرِّ يُعْطِي من غيرِ أنْ يُسألَ . . .

وَنُقِلَ ذلكَ عَلَيَّ فكانَ الغَمُّ بِه عِلَّةٌ جديدة، بيدَ أنني لم أزلُ أرجو الفُرصةَ في أحدِ اليَومين: السبت والأحد. وقلتُ: إِنَّ مِنَ ألبلاءِ الفكرِ في ألبلاء، ولعلَّ مِنَ السَّلامَةِ الثَّقةُ بِالسَّلامَةِ؛ فإذا نَبَّهْتُ العزيمةَ رجوتُ أنْ يتغلَّغلَ أثرُها في ألبَدَنِ كُلِّهِ فيكونَ علاجاً في أَلَدَمٍ يَحْدُثُ بِهِ النِّشَاطُ وَيُرَهِّفُ^(٥) مِنْهُ الطَّبِيعُ وتجمُّ عليه النفسُ. وفي قوَّةِ العَصَبِ كهربائيةٌ لها عملُها في الجسمِ إذا أَحَسَّنَ المرءُ بعَثَها في نَفْسِهِ وأَحْكَمَ إفاضَتَها وتصريفَها على طريقةٍ رياضيةٍ؛ وَلِهِيَ الدَّواءُ حينَ يَعجزُ الدَّواءُ، وَهِيَ الْقُوَّةُ حينَ تُخَدِّلُ الْقُوَّةَ.

فاعترَمتُ وصمَّمتُ، وأَحْتَلْتُ على الإرادة، وتكثَّرتُ من أسبابِ الثَّقةِ

(١) استجماماً: راحة لتجدد النشاط.

(٢) تنسفي الرمل: تنشره.

(٣) الأكال: الحكاك.

(٤) التلزع الشعبية: الرشح والزكام.

(٥) يرهف: يرقق ويلطف.

وترصدت لها السوانح العقلية التي تسنح في النفس، وقلت لإيليس: إجهذ جهذك، فما تذهب مذهباً إلا كان لي مذهب. ولكن اللعين أخطر في ذهني قول القائل يسخر فيه من ذلك الكاتب البغدادي.

لو قيل: كم خمس وخمس؟ لاغتدى يوماً وليلتة يعد ونحسب ويقول: مغضلة عجيب أمرها ولئن فهمت لها، لأمرى أعجب خمس وخمس ستة، أو سبعة فولان قالهما الخليل وتعلب

ثم أجمعت الرجوع من يومي إلى (طنطا)، لإتقي البرد بعلاجه إن نالني أثره، وكان علي وقت إلى أن يقوم القطار، فذهبت فقضيت واجباً من زيارة بعض الأتارب في ضاحية (الجيزة)، ثم ركبت الترام الذي أعلم أنه ذاهب إلى محطة سكة الحديد.

وجلست أفكر في إيليس ومقاتله، وأترام ينبعث في طريقه نحو تلك الساعة، حتى بلغ، الموضوع الذي ينعرج^(١) منه إلى المحطة، وهو بحيال (جمعية الإسعاف)، حيث تشعب^(٢) طرق أخرى؛ وكثت منصرفاً إلى التفكير مستغرقاً فيه، طائف النظرات على الأجور، فما راعني إلا اختلاف منظر الطريق؛ وأنتبه، فإذا أترام يفرق مروق السهم في تلك السبيل الصاعدة إلى (الجيزة) ... من حيث جئت.

فلعنت الشيطان وتلبثت^(٣) حتى وقف هذا الترام، فغادرته ورجعت مهزولاً إلى ذلك المنشعب، فصاذقت تراماً آخر، فوثبت إليه كأني أحمّل إليه حملاً، ودفعت الأجرة، وأطلق، فإذا هو منصّب في تلك الطريق عينها الذاهبة إلى الجيزة من حيث جئت ... ولا أستطيع الانحدار منه وهو منطلق، فتسخطت^(٤) ولعنت الشيطان مرة أخرى، ورأيت أن عبته قد ترادف؛ فلما سكن الترام رجعت مهزولاً إلى ذلك المنشعب ولم يبق من الوقت غير قليل.

وأنظر ثم، فإذا ترام وراء ترام، وإذا قد وقعت حادثة لأحدى السيارات وأجتمع الناس وسدت الطريق ... فجعلت أغلي من الغيط، ولعنت هذا الدعابة الخبيث. وأذكرني اللعين نادرة الأعرابي الذي عضه ثعلب، فأتى راقياً، فقال له

(١) ينعرج: يتحول، يحط.

(٢) تشعب: تفرق.

(٣) تلبثت: انتظرت.

(٤) تسخط: غضب.

الراقي: ما عضك؟ فاستحي أن يقول ثعلب، وقال: كلب. فلما ابتدأ الرجل برُقيّة الكلب، قال له الأعرابي: وأخلط بها شيئاً من رُقيّة الثعالب...



ثم إني لم أَرُ بُدْأً من بلوغ المحطة على قدمي لِأَتَمَّ على عزيمة في مُراغمة اللعين، فأسرعت أطوي الأرض وكأُنا أخوص في أحشائه^(١) وكان بصدري ألتهاب فهاج بي، غير أنني تجلذت وأتسعت لاحتماله وبلغت حيث اردت. ثم ذهبت ألتبس في أقطار عربة حاصّة أعرفها، كانت من عربات الدرجة الأولى فجعلوها في الثانية يرفهون بها بعض الترفيه على طائفة من المسافرين: وأصت فيها مكاناً خاليّاً كأنما كان مهياً لي بخاصة. فأنحططت فيه إلى جانب رجل أوربي أحسبه ألمانيا لتفاوت خلقه وعنجهيته؛ وجلست أنفُس عن صدري، ثم أقبلت أسخر من إيسر ونكايته، وجعلت أتعجب مما اتفق من هذا التدبير.

وتحرك القطار وأنبعث، وكان الأوربي إلى جانبي ممّا يلي النافذة وقد تركها مفتوحة، فأحسنت الهواء ينصب منها كالماء البارد وأنا مُتَنَدُّ بالعرق؛ وترقنت أن يغلفها الرجل فلم يفعل، فصابرتُه قليلاً فإذا هو ساكن مطمئن يتزوّج بالهواء وكأُنا يشربه، وتاملتُه فإذا شيخ في حدود الستين أو فوقها، غير أنّه على بقية من قوة مصارع في أكتاز عضله واجتماع قوّته وثاقفه تركيه، فأيقنت أن الهواء من حاجته، وهممت أن أنبهه أو أقوم أنا فأغلِق النافذة، ولو شئت أن أفعل ذلك فعلت، غير أن الشيطان (أخزاه الله) وسّس لي. أن هذا رجل أجني غربي، وأنت مصري شرقي، فلا يحسن بك أن تعلّمه وتعلّم الحاضرين أمامكما أنك أنت الأضعف على حين أنّه هو الأسن، وكيف لا تقوم لما يقوم له وقد كنت تُباكرُ الماء البارد في صميم أشتاء، وكنت لا تلبس في أشد أيام البرد غير ثياب الصيف، وكنت تحمل كذا وكذا ثقلاً للرياضة، وتُعاني كذا وكذا من ضروب القوة، وكنت تلوي بيدك عود الحديد، وكنت وكنت.

فتذممت - والله - ممّا خطر لي؛ وأيفت أن أنبه الرجل، ورأيت عملي هذا ضعفاً ومسولة^(٢)، ولم أعبأ بالهواء ولا بالعرق ولا بالنزلة الشعبية ولا بالزكام، وتركت الأوربي وشأنه، وأقبلت على كتاب كان في يدي، وتناسيت أن هذه النافذة

(٢) فسولة: نذالة لامروءة فيها

(١) أحشائه: جوفه.

جهةً من تدبيرِ إبليس؛ وكانَ القِطارُ مزدجماً بالراجعينَ مِنَ المعرضِ الزراعيِّ الصَّناعيِّ، وبعضُ الناسِ وقوفٌ فلا مطمَع في مكانٍ آخر... .

ولَبِثْتُ ساعةً ونصفَ ساعةٍ في تيارٍ من هواءِ (فبراير) ينصبُّ أنصباباً، ويَعْصِفُ عَصْفاً، وكأنِّي أسبحُ منه في نهرٍ تحتَ ظلمةِ الليلِ الماطرِ، والناسُ معجبُونَ بي وبالأوربيِّ، وهذا الأوربيُّ معجبٌ بي أكثرَ منهم، وقد رأى مكاني وعرفَ موضعي؛ وكانَ إلى يميني مجلسٌ بقيَ خالياً ولم يقدِّم أحدٌ عليَّ أن يجلسَ فيه خوفاً مِنَ الرجلِ الأوربيِّ... .

ثمَّ تراءيتُ أنوارَ محطةٍ (طنطا)، ولم يبقَ من هذه المحنةِ غيرُ دقيقتين؛ فواللهُ أَلَّذِي لَا يُخْلَفُ بغيرِ أسمٍ - عزَّ وجلَّ -، لقد كانَ إبليسُ رقيقاً جِلْفاً^(١) بارداً ثَقِيلاً المَزاح؛ إذ لم أكُذْ أنهيّاً للقيام، حتى رأيتُ الرجلَ الأوربيِّ قد مدَّ يده فأغلقَ النافذة... .

ورجعتُ إلى داري وأنا أقول: ثُمَّ ماذا يا إبليس؛ ثُمَّ ماذا أيُّها الدُّعْبُ^(٢) وحاولتُ جهدي أن أكتبَ أو أقرأ فلم أتحركَ بشيءٍ من ذلك، وكانتِ الساعةُ العاشرةُ ليلاً، فصلَّيتُ وأوتيتُ إلى مضجعي.

ثمَّ أصبحتُ يومَ السبتِ، فإذا كتابٌ مِنَ الأستاذِ صاحبِ (الرَّسالة): أَنَّهُ سيطِعَ عددَينِ معا فريدَ لهما مقالَتين، بِذِ ثَغْرِ المطبعةِ في أيامِ عيدِ الأضحى. وكانَ أُملي عي المقالةِ الواحدةِ مخدولاً ممَّا قاسيت، فكيف لي شائتين؟

وَأَخْتَلَطُ في نفسي همٌّ. بهنَّ، وما يُفسدُ عليَّ أمري شيءٌ مثلاً الصَّبَق، فإذا تضابقتُ كنتُ غيرَ من كنتُ؛ ونكتي تيقظتُ ونهيتُ وأملتُ العافيةَ ممَّا آجده من ثِقَةِ الردِّ وَضَعْفِهِ، وأحدثتُ طمعاً في النشاطِ إذا حلستُ للكتابةِ في الليلِ، فإنِّي بالنهارِ أعملُ للحكومةِ.

فلما كانَ الليلُ لم أجدْ أمري عسى ما أحب، وجلسْتُ متفكراً مُعْتِلاً، وثَقُرَ راسي من ضربةِ النافذةِ، ونسَلطَ عليَّ غِنِ المَرَضِ والعجزِ عن الكتابةِ، وانتَقَضَ الأمرُ كُلُّهُ وأُثْبِتِي أَشْيَ على نفسي فلا طائلَ فكانَ من صوابِ التدبيرِ عندي أنْ

حفظاً - غائباً فقط

(٢) الدُّعْبُ والمداعب والأدعية: بالتشبيد. كلها بمعنى أحد

أَسْتَجِمُّ بالنوم ثُمَّ أَنهَضَ فِي السَّحَرِ لِلْكِتَابَةِ ؛ فَأَوْصَيْتُ مِنْ يُوقِظُنِي ؛ وَحَرُّنَا أَلْسَاعَةَ الْمُنْبَهَةِ عَلَى تَمَامِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ .

وَأَحْسَنْتُ أَنِّي جَائِعٌ ، وَأَنْ مَعْدَتِي مَشْحُودَةٌ^(١) ، وَنَسِيتُ كُلَّ مَا أَعْرِفُ مِنَ الطَّبِّ ؛ وَجَاءَ وَنِي بِشِوَاءٍ وَحَلَوَى وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَحَطَّطْتُ فِيهِ وَلَقَفْتُ الْآخِرَ بِالْأَوَّلِ ، ثُمَّ قَمْتُ أُرِيدُ النَّوْمَ ، فَإِذَا الطَّعَامُ كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نَافِذَةِ الْقِطَارِ ، وَكَانَ الَّذِي فِي الْفَكْرِ مِنَ الْمَقَالَةِ أَثْقَلَ مِنَ الَّذِي فِي الْمَعْدَةِ مِنَ الطَّعَامِ ، وَسَاءَ الْهَضْمُ فِي الدِّمَاغِ وَالْبَطْنِ جَمِيعاً !

وَجَعَلْتُ أَتَنَاوَمُ وَأُرْخِي أَعْضَائِي وَأَتَوَهَّمُ الْكُرَى^(٢) وَأَسْتَذْنِيهِ بِكُلِّ مَا أَعْرِفُ مِنْ وَسِيلَةٍ ، ثُمَّ لَا أَزْدَادُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَرْقَاً ، وَتَمَرَّدَ الْفَكْرُ ، وَأَحْسَنْتُ رَأْسِي يَكَادُ يَنْفَجِرُ ، وَصِرْتُ أَتَمَلَّلُ وَلَا أَتَقَارُّ ، وَتَوَهَّمْتُ أَنْ لَوْ كَانَ لِي عَقْلَانِ مَا أَسْتَطَعْتُ كِتَابَةَ الْمَقَالَةِ عَنْ إِبْلِيسَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - ؛ وَأَذْكُرُنِي الْخَبِيثَ نَادِرَةً مُضْحَكَةً : أَنْ رَجُلًا كَانَ يَرْكَبُ حِمَارًا ضَعِيفًا ، وَكَانَ يَبِيعُهُ فَلَا يَنْبِيعُ ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَرْفُقْ بِهِ . فَقَالَ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ يَمْشِي فَلَيْمَ صَارَ حِمَارًا ؟

* * *

وَقَدْ لُتُ بِنَفْسِي مِنَ الْفَرَاشِ وَنَظَرْتُ فِي أَلْسَاعَةِ ، فَإِذَا هِيَ مُوشَكَّةٌ أَنْ تَبْلُغَ الثَّانِيَةَ وَلَمْ أَحْسَ أَلْزَقَادَ بَعْدَ ، فَأَسْرَعْتُ إِلَى الْمُنْبَهَةِ وَحَزَرْتُهَا عَلَى تَمَامِ أَلْسَاعَةِ الرَّابِعَةِ صَبَاحًا ، وَأَيَقَنْتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُرْهِقُنِي طُغْيَانًا وَكَيْدًا ، فَطَفِقْتُ أَلْعَنُهُ ، وَمَا أَحْسَبُهُ إِلَّا قَدْ رَأَى أَلَلْعَنَ مَذْحًا فَهُوَ يَسْتَزِيدُنِي . . .

ثُمَّ رَجَعْتُ أَحَاوِلُ النَّوْمَ ، فَمَا كَانَ هَذَا اللَّيْلُ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا أَوَّلُهُ آخِرُهُ إِلَى أَنْ طَلَعَ الْفَجْرُ .

وَجَاءَ يَوْمُ الْأَحَدِ وَهُوَ يَوْمُ غُطْلَةِ الْأُورُبِّيْنِ ، فَمَا أَشَدَّ عَجْبِي إِذْ تَرَكْنِي فِيهِ إِبْلِيسُ كَأَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ لَهُ وَقْتُ فِي هَذَا الْيَوْمِ . .

وَالآنَ يُزَيِّنُ لِي الْخَبِيثُ أَنْ أَخْتِمَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ بِـ بِـ وَلَكِنْ لَا .

(٢) الكرى: النعاس والنوم.

(١) مشحودة: خاوية.

الشیطان . . .

قال الشیخ أبو الحسن بن الدَّقَاقِ: كَانَ شَيْخِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الْأَزْهَرِيُّ الْعَجْمِيُّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَجُلًا صَاحِبَ آيَاتٍ وَخَوَارِقَ مِمَّا فَوْقَ الْعَقْلِ، كَأَنَّمَا هُوَ سِرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ الْجَارِيَةِ فِي هَذَا الْكَوْنِ، قَدْ بَلَغَ بِنَفْسِهِ رَتَبَةَ النُّجْمِ فِي أَفْقِهِ وَلَا إِلَهَ مِنْ إِشْرَاقِ رُوحِهِ وَصَفَائِهَا؛ وَقَدْ أَرْتَفَعَ بِأَدَمِيَّتِهِ فَوْقَ نَفْسِهَا؛ فَأَصْبَحَ فِي النَّاسِ وَمَعَهُ سَمَاوُهُ، يَجْعَلُهَا بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ الدُّنْيَا.

وَالرَّجُلُ إِذَا بَلَغَ هَذَا الْمَبْلَغَ كَانَ حَيًّا كَالْمَيِّتِ سَاعَةً أَحْتَضَارِهِ: يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ مَا فِي الْحَيَاةِ نَظْرَةً مَنْ يَتْرُكُ لَا مِنْ يَأْخُذُ، وَمَنْ يَعْتَبِرُ لَا مَنْ يَغْتَرُّ، وَمَنْ يُلْفِظُ لَا مَنْ يَتَذَوَّقُ، وَمَنْ يَدْرُكُ الْأَسْرَ لَا مَنْ يَتَعَلَّقُ بِالظَّاهِرِ؛ وَيَرَى الشَّهَوَاتِ كَأَنَّهَا مِنْ لُغَةٍ لَا يَعْرِفُهَا، فَهِيَ الْفَاطَظُ فِيهَا مَعَانِي أَهْلِهَا لَا مَعَانِيهِ، وَإِنَّمَا تَلْبَسُ كَلِمَاتُنَا مَعَانِيهَا مِنْ أَنْفُسِنَا. وَفِي الْأَنْفُوسِ مِثْلُ الْهَشِيمِ^(١): إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ الْمَعَانِي الْمَشْتَعِلَةُ اسْتَطَارَ حَرِيقًا وَتَضَرَّمْ، وَفِيهَا عَلَى الْمَجَاهِدَةِ مِثْلُ الْمَاءِ؛ فَإِذَا خَالَطَتْهُ تِلْكَ الْمَعَانِي انْطَفَأَتْ بِهِ وَخَمَدَتْ.

وَقَدْ سَأَلْتُ الشَّيْخَ مَرَّةً: كَيْفَ تَحْدُثُ الْكِرَامَاتُ وَالْحَوَارِقُ لِلْإِنْسَانِ؟ فَقَالَ: يَا وَلَدِي إِنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ النَّاسِ الْمَحْجُوبِينَ يَتَصَرَّفُ فِي جَسَدِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لِرُوحَانِيَّتِهِ شَيْئًا، فَإِذَا أَبْلَى فِي الْمَجَاهِدَةِ وَوَقَعَ فِي قَلْبِهِ النُّورُ، تَصَرَّفَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لِيَجْسَمِهِ شَيْئًا، فَمَنْ أَطَاقَ أَنْ يَنْسَلِخَ مِنْ بَشَرِيَّتِهِ، وَأَتَسَعَتْ ذَاتُهُ فِي مَعَانِي السَّمَاءِ بِمَقْدَارِ مَا ضَاقَتْ مِنْ مَعَانِي الْأَرْضِ، وَكَانَ مُعَدًّا لِأَنْ يَتَحَقَّقَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ، مُعَانًا عَلَى ذَلِكَ بِطَبِيعَةٍ فَوْقَ الْأَعْتِدَالِ - فَقَدْ شَاعَ فِي الْكَوْنِ، وَأَصَابَ لَهُ وَجْهًا وَمَذْهَبًا إِلَى تِلْكَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَهْدِمُ فِي الْعَالَمِ وَتَبْنِي، وَتَفَرِّقُ وَتَجْمَعُ، وَتَنْقُلُ الصُّورَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ؛ فَإِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ جَوْهَرٌ وَاحِدٌ هُوَ النُّورُ، حَتَّى الْجَبَلُ هُوَ نُورٌ صَخْرِيٌّ، وَحَتَّى الْبَحْرُ هُوَ نُورٌ مَائِيٌّ، وَحَتَّى الْحَدِيدُ وَالذَّهَبُ وَالْتُّرَابُ، كُلُّ

(١) الهشيم: الحشيش الجاف.

ذلك نور صرْفَتُهُ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ تصرِّفُهَا أَلْمَعَجَرُ، فكانَ، على ما نرى: ضاهراً
مخياً بلائِمٍ نقصاً وعجزاً، وحقيقة قارّة على غير ما نرى. ومن ذا يعقل أن
أنصر نور متحمّد إذا لم يكن له إلا عقل عينه وحواسه؟ ومن - يطيق أن يهيم
بحواسه وعينه قول الله - تعالى - : ﴿وَرَى الْجِبَالُ تَحْسَبُ جَانِدَةً لَّيْلَى تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ شَخَّ اللَّهُ
الْبَرِّ أَفَنَ كَرَّمْنِي﴾ ؟ فالجبال جامدة ثابتة، غير أنّها تمر بأرضها وتموج في نفسها
ومتى تأذن الله أن ينكشف نور كلامه لبُعْثِ الإنسانى، ستكون هذه الآية عينا
جديداً في الأرض، يثبت أن انسحاب والجبل مادة واحدة وضغ واحد.

ويا لها سخرية بالإنسان وجهله! فإنه إذا كانت الحقيقة غير ما نرى، فكُلُّ
شيء في الدنيا هو ردّ على أنظر الإنسانى، ويكاد الجبل العظيم يكون كلمة عظيمة
تقول بالإنسان: «كذبت!»

فالشأ في الخوازيق والكرامات راجع إلى القدرة أن يسلط الإنسان أرواحاني
ما فيه من سرّ النور على ما في بعض الأتبيد من هذا السرّ، وتلك هي صاعقة
بعض الكوّن ليس يتصرف من أمانة وتعمل بمخاليقه.

فإذا بقي في أرحل الروحاني شيء من امر جسمه يفوق، «أنا» * لم يكن
في أرحل من تلك أقدرة درة؛ فإن هو حاول أن يحرف أمانة، أبى أنكون أو
يعرفه إلا كما يعرف حجر تلقى بحاول أن يتصرف بالجبل الذي هو منه مبنية أو
يرحله أو يربطه

ولا خير على الأرض مطلق إلا وهو إخ من حقوق هذه الـ «أنا» في
إنسانيه ولا شر على الأرض مطلقاً إلا وهو إضافة حقوق إليها حين لا يفي لها
حق في شيء ضد نفسها. يجب لها الحق فستش على كل شيء - زهد في
الكرامه شكره الخبيث من أكرمه الخالق.

من أراد أن تتصل نفسه بالله: فلا يكن في مصيد شيء من حظ نفسه، ولا
يؤمن إيمان هؤلاء ألعانة يكون إيمانهم بالله فكرة تذكر وتُنسى. أما عملهم فهو
إيمانهم أراسخ بالجسم وشهواته يُذكر ولا ينسى

وأنت ترى رجالاً أرواح يأكلون ويشربون ويلبسون، ولكن هذا كله ليس فيه
درة من أرواحهم: على خلاف غيرهم من أناس: هؤلاء كل أرواحهم في
مطاعهم. ومن ثم لا يجري أنبياء من الأولين إلا في مجاز صيقه وقد أنصق لا

يكاد ينفذ منها إلى فكر أو شهوة أو حلم من أحلام الدنيا، أما الآخرون فالشيطان فيهم هو تيار الدم، يعب عبابه في الأسفل والأعلى.

قال أبو الحسن: وكنا يومئذ في دمشق، فنبهني كلام الشيخ عن الشيطان إلى ما قرأته عن كثيرين ممن رأوا الشيطان أو حاوروه أو صارغوه؛ ففكرت للشيخ إن من حقك علي أن أسألك حقي عليك، وما في نفسي أحب إلي ولا أعجب من أن أرى الشيطان وأكلمه وأسمعه؛ وأنت قادر أن تقبلي إلي كما تقبلي إلى ما دخلت بي عليه من عوائم الغيب

قال الشيخ: وماذا يرز عليك أن ترى الشيطان وتكلمه؟

قلت: سبحان الله! لا يجدي علي شيئا إلا أن أسخر منه

قال الشيخ: فإني أخشى بولدي، أن يكون الشيطان هو الذي يريد أن تراه وتسمعه.

قلت: فأريد أن أسأله عن سره. فيكون عينا لا سحرية

قال: لو كنت لك عن سره لما كان شيطاناً، فإنما هو شيطان سره لا يعبره.

قلت: فأريد أن أرى الشيطان لأكون قد رأيت الشيطان!

قال الشيخ: حرم لا قوة إلا بالله! لو كنت يا ابن الحسن بأربع أرجل جهوت بين أشياع ثلاث سب وتركتك يجرؤك من واحد.

قلت: يا سيدي، قد كنت حمار بطي عن الشيطان في أرجلي الأربع كلها، إذ لا حاجة به إلى إعواء حمار!

فضم الشيخ رقار. ولا بد أن ترى الشيطان وتكلمه

قلت: لا بد

قال: إني هو سرها. فقم

قال أبو الحسن: وكان الشيخ يدس إلي أمر حارفي حيث سعة غاب عن الحسن غائبة بين من به أمر. وأصبح ظنا آدمياً معلماً به. تقع أحوار في لا لمن وجد القوة المكمللة لوجه. وهذه القوة تستمد من الشيخ الخواص. فلا بد

من إمام، كأنها سلسلة نفسية متميزة في الأرض، فتتغير الواحدة منها بالواحدة، إذ تقع في جزها فتورق وتثمر؛ كالشجرة: جو يكسوها، وجو يذبلها، وجو يسلبها سلباً؛ وكذلك تفعل النفس إذا كان لها جو.

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالمحمول، فرأيتنا وقد أشرقتا على بناء عظيم، ورأيت أقواماً يتلقون الشيخ ويسلمون عليه ويتبركون بمقدمه؟ فأنكرتهم نفسي ووجدت منهم وخشة، فالتفت إلي الشيخ وقال: هؤلاء من الجن، وما إليهم قصدنا، فلا تشتغل بما ترى وأشتغل بي.

ثم انتهي إلى ألباء العظيم، فتستقبلنا طائفة أخرى، ويدخلون الشيخ وأنا خلفه، ويمرون بنا على دنيا مخبوءة تُعجز الوصف، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت؛ فيقولون: هذه كنوز سليمان وذخائره، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً فرأينا ثم^(١) نعيماً وملكاً كبيراً، ثم أنهينا آخراً إلى مغارة خسيفة كأنها عرق من عروق جسم الأرض، يتفجر منها دوي كالرعد القاصف، إلا أنه في السمع كخوار الثور، إلا أنه نور خيل إلي أن رأسه في قدر جبل عظيم، يتعلق به غبغب^(٢) في قدر جبل آخر، على جسم يسد الخافقين، فخواره كأنه صراخ الأرض، وإذا أنا بأبج مكان منظرأ، وأنتيه ريحاً، كأنه سجن بناؤه من الجيف.

فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا سجن إبليس، وهو هنا في هذه المغارة منذ زمن سليمان - عليه السلام -.

قلت: أفسسجون هو؟

قالوا: وإنه مع ذلك موقرٌ بأمثال الجبال حديداً يريض به في مخبئه، فلا يتزحزح ولا يتحلحل.

قلت: وإنه مع ذلك قد ملأ الدنيا فساداً، فكيف به لو كان طليقاً؟

قالوا: فلو أنه كان طليقاً لاستحوذ^(٣) على الناس كافة؛ فيجتمع أهل الأرض على شهوة واحدة لا شيء غيرها، فيبطل مع هذه الشهوة الواحدة كل تدبير بينهم، فلا تقوم لهم سياسة، ولا يكون بينهم وازع^(٤)؛ فيرجعون كالكلاب أصابها الكلب

(١) ثم يفتح الثاء ظرف مكان بمعنى هناك.

(٢) غبغب الثور وغيبه هو ما تنثى من لحم ذفته من أسفل.

(٣) استحوذ: استمال.

(٤) وازع: رادع.

وهاجَ بها، فأنابُها في لحِمِها، لا يزالُ يَعْصُ بعضها بعضاً، فليسَ لَجميعِها إلاَّ عملٌ واحدٌ يُسَلِّمُها إلى أهلك، ويُصبحُ ظهْرُ الأَرْضِ أغْرَى من سَراةِ أديم.

وإنما يَصْلُحُ النَّاسُ بِأَخْتِلَافِ شَهَوَاتِهِمْ وَتَنَافُرِهَا وَتَنَازُعِهَا: فبعضُها يحكُمُ بعضاً، وشيءٌ منها يَرْعُ شيئاً، ومن تَخَلَّصَ من نَزْوَةٍ قَمَعَ بها نَزْوَةً أُخْرَى؛ كَالْمُتَزَوِّجِ الْمُخَصَّنِ: يَحْكُمُ بِالْجِلْدِ وَالرَّجَمِ عَلَى مَنْ لَيْسَتْ لَهُ أَمْرَاءُ فَرْزَا؛ وَكَالْغَنِيِّ الْوَاجِدِ: يَحْكُمُ عَلَى الْكَلْبِ الَّذِي لَمْ يَجِدْ فَسْرَقَ، وَهَلُمَّ جِراً.

وما يَنْشَأُ النَّاسُ فِي ثَلَاثَةِ أَعْمَارٍ، فَيَشْبُونَ وَيَكْتَهِلُونَ وَيَهْرَمُونَ، إِلَّا لِيَتَخْتَلَفَ شَهَوَاتُهُمْ وَتَخْتَلَفَ مَقَادِيرُ الرِّغْبَةِ فِيهَا، فَتَتَحَقَّقَ مِنْ ثَمَّ تِلْكَ الْحَكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي التَّنْذِيرِ وَيَجْدُ الشَّرْعُ مُحَلَّةً بَيْنَهُمْ، كَمَا يَجْدُ الْعِصْيَانُ بَيْنَهُمْ مُحَلَّةً.

ولو أَنَّ أُمَّةً كُلُّهَا أَطْفَالٌ أَوْ كُهُولٌ أَوْ شَبَّوْحٌ، لَبَادَتْ^(١) فِي جِيلٍ وَاحِدٍ؛ وَإِنَّهُ لَيْسَ أَسْمَحَ مِنَ الرَّذِيلَةِ تَكُونُ وَحْدَهَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا الْفَضِيلَةُ تَكُونُ وَحْدَهَا، فَلَا بَدْءَ مِنْ شَيْءٍ يَظْهَرُ بِهِ شَيْءٌ غَيْرُهُ كَالضَّدِّ وَالضَّدِّ؛ وَالْمَعْرَكَةُ إِذَا انْتَصَرَ كُلٌّ مِنْ فِيهَا كَانَتْ هَزْلاً وَكَانَتْ شَيْئاً غَيْرَ الْمَعْرَكَةِ.

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ: وَقُلْتُ لَهُمْ: فَإِذَا كَانَ الشَّيْطَانُ سَجِيناً قَدْ رَبَضَتْ بِهِ أُنْفَالُهُ، حَتَّى لَهِوَ فِي سَجْنٍ مِنْ سَجْنٍ مَبَالَعَةً فِي كَفِّهِ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ - فَكَيْفَ يَفْتِنُ النَّاسَ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَيُؤَسِّسُ فِي قُلُوبِهِمْ، حَتَّى لَهِوَ يَدَّ بَيْنَ كُلِّ يَدَيْنِ، وَحَتَّى لَهِوَ الْعَيْنُ الثَّلَاثَةُ لِعَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ؟

قَالُوا: إِنَّ فِي رُوحِهِ النَّارِيَّةِ قُوَّةَ تَفْصِيلٍ مِنْهَا وَتَنْتَشِيرٍ فِي الْأَرْضِ، كَشُعَاعِ الشَّمْسِ مِنَ الشَّمْسِ: هَذِهِ كُرَّةٌ نَارِيَّةٌ مِثْلَةُ مَعْلُقَةٍ عَلَى الْأَجْسَامِ مُرْصَدَةٌ لَهَا، وَتِلْكَ كُرَّةٌ نَارِيَّةٌ حَيَّةٌ مَعْلُقَةٌ عَلَى الْأَنْفُسِ مُرْصَدَةٌ لَهَا، وَبِهَذِهِ وَتِلْكَ عَمَارُ الدُّنْيَا وَأَهْلُ الدُّنْيَا.

قُلْتُ: لَعَلَّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقُولُوا: خَرَابُ الدُّنْيَا وَأَهْلُ الدُّنْيَا. فَغَلِطْتُمْ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَجِيءَ بَدَلُ الْغَلْطِ . . .

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، خَزَقَ الثَّوْبُ الْمَسْمَارَ. جَاَزَ هُنَا لِأَمْنِ اللَّبَسِ أَنْ يَكُونَ الْمَفْعُولُ بِهِ - وَهُوَ الثَّوْبُ - مَرْفُوعاً وَفَاعِلُهُ - وَهُوَ الْمَسْمَارُ - مَنْصُوباً، هَلْ جِثَّتْ - وَيَحْكُ - تَطْلُبُ النَّحْوُ أَوْ تَطْلُبُ الشَّيْطَانُ . . . ؟

(١) بادت: فئت.

قال أبو الحسن: ففقطعتني الجنى - والله - وأخجلتني، ونظرت خلسة إلى الشيخ أراه كيف يسخر مني، فإذا الشيخ وقد أملى فلا أراه، وإذا أنا وحدي بين الجن وبإزاء هذا الساهر وضعت عينه في جبهته وشق فمه في قفاه..! فسرتني عني وزال ما أجده، وقلت في نفسي: الآن أبلغ أربي^(١) من الشيطان ويكون الأمر على ما أريد، فلا أجد من أحتشم ولا تقطعتني هية الشيخ..!

ووقع هذا الخاطر في نفسي، فاستعدت بالله ولعنت الشيطان وقلت: هذا أول عيبي بي وجعلته إياي من أهل البراء، كأن لي شأنًا في حضور الشيخ وشأنًا في غيابه، وكأني منافق أعلن غير ما أيسر، وقلت: إنا لله! كذت يا أبا الحسن تشيطن! ثم همنت أن أنكص^(٢) على عقبي، فقد أيقنت أن الشيخ إنما تخلصني عني لأكون هنا بنفسي لابه، وما أنا هنا إلا به لا بنفسي، فبوشك إذا بقيت في موضعي أن أهلك! بيد أن المغارة أنكشفت لي فجأة فما ملكت أن أنظر؛ ونظرت فما ملكت أن أفف، ووقفت أرى، فإذا دخان قد هاج فارتفع يثور ثورانه حتى تملأ المكان به، ثم رق ولطف.

وأسنضرت^(٣) منه نار عظيمة لها وهجان شديد يتضرم بعضها في بعض، ويسمع من صوتها معمة^(٤) قوية، ثم حمدت.

وأنفجر في موضعها كالسد المنبثق من ماء كثيف أبيض أصفر أحمر، كأنه صديد^(٥) يتفج في دم، ثم غاص.

وتنبعث في مكانه حمأة متينة جعلت ثلج وتغطته حتى خفت أن تبلعني وأذهب فيها، فسميت الله - تعالى - فغارت في الأرض.

ثم نظرت فإذا كلب أسود محمر الخماليق، هائل الجلقه مستأيد وقف على جيمة دبيرة غاب فيها خطمه يعب يمًا يسيرًا به.

فقلت: أيها الكلب، أنت الشيطان؟

وأنظر فإذا هو مسخ شابه كأنه إنسان في بهيمة قد أمتزجا وطمع منهما شيء على شيء، وأما وجهه فأقبح شيء منظرًا، تحسبه قد بس صورة أعماله

معمة معرفة

^(٤) صديد. قبح الجرح

بستان: بتخني أحلاق الأسود.

(١) أربي غايي

(٢) أنكص: أترامع

(٣) استنضرت: اشتغلت

ونطقَ فقال : أنا الشيطان !

قلت : فما تلك الجيفة ؟

قال : تلك دنياكم في شهواتها ، وأنا ألتقم قلب الفاسق أو الآثم منكم ، كما ألتقم دودة من هذه الجيفة .

قلت : عليك لعنة الله وعلى الفاسقين والآثمين ، فكيف كنت دخاناً ، ثم أنقلبت ناراً ، ثم رجعت قيحاً ، ثم صرّحت حمأة^(١) ، ثم كنت كلباً على جيفة ؟

قال : لا تلعن الفاسقين والآثمين ؛ فإنهم العباد الصالحون بأحد المعنيين ، وأنت وأمثالك عباد صالحون بالمعنى الآخر ، اليس في الدنيا حياة ووقاحة ؟ فأولئك يا أبا الحسن هم وقاحتي أنا على الله ! أنا منكم في زهدكم جرماً الحرمان ، وفقركم الفقر ، ولقد أهلكتموني بؤساً ؛ غير أنني معهم لذّة اللذة ، وشهوة الشهوة ، وغنى الغنى ، لآتم لذّة في الأرض ، ولا تحلو لذائقها وإن كانت حلالاً ، إلا إذا وضعت أنا فيها معنى من معاني أو وقاحة من وقاحتي ! حتى لأجعل الزوجة لزوجها مثل الشعر البليغ إذا استعار لها معنى مني ، وكل ما فسدت به المرأة فهو مجازي وأستعاري لها أجعلها به بليغة . . .

وأنتم يا أبا الحسن تقطعون حياتكم كلها تجاهدون إنم ساعة واحدة من حياة عبادي ، فانظروا - رحمك الله - لئن كانت ساعة من حياتهم هي جهنمكم أنتم ، فكيف تكون جهنم هؤلاء المساكين ؟

إنك رأيتني دخاناً لأنني كذلك أنبعث في القلب الإنساني ، فمتى تحرّكت فيه حركة الشر كنت كالأحتيال لإضرار النار بالنفخ عليها ؛ فمن ثم أكون دخاناً ، فإذا غفل عني صاحب القلب تصرّمت في قلبه ناراً تطلب ما يطفئها ؛ ثم يواقع الآثم والمعصية ويقضي نهمته^(٢) فأبرز عن قلبه ، فيكون في قلبه مثل الحرق الذي برّد فتأكّل موضعه فتقيح ، ثم يختلط قيح أعماله بمادته الترابية الأرضية ، فينقلب هذا المسكين حمأة إنسانية لا تزال تربو وتنفخ كما رأيت .

قلت : أعود بالله منك ! أفلا تعرف شيئاً يردك عن القلب وأنت دخان بعد ؟
فقهة العليين وقال : ما أشد غفلتك يا أبا الحسن ، إذ تسأل الشيطان أن يخترع

(٢) نهمته : جوعته .

(١) حمأة : ناراً .

التوبة! أما لو أن شيئاً يَخْتَرُ التوبةَ في الأرض لَخْتَرَعَهَا الْقَبْرُ الذي يَذْفَنُ فيه بعضكم بعضاً كُلَّ طرفَةٍ عَيْنٍ مِنَ الزَّمَنِ، فَتَنْزِلُونَ فِيهِ أَلَمِيَّتَ الْمَسْكِينِ قَدْ أُنْقَطَعَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَتَتْرَكُونَهُ لِأَنَامِهِ، وَحِسَابِ آثَامِهِ، وَالْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ فِي آثَامِهِ؛ ثُمَّ تَعُودُونَ أَنْتُمْ لِإِقْتِرَافِ هَذِهِ الْأَثَامِ بِعَيْنِهَا!

قُلْتُ: عليك وعليك أيُّها اللعين؛ ولكن ألا يتبدّد هذا الدخان إذا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ أو انطفأ ما تحته!

قال: أَوَه! لقد أوجعتني كأثما ضَرَبْتَنِي بِجَبَلٍ مِنْ نَارٍ، إِنْ نَبِّئْكُمْ عَرَفَهَا وَلَكُنْكُمْ أَغْيَاءٌ؛ تَأْخُذُونَ كَلَامَ نَبِيِّكُمْ كَأَثْمَا هُوَ كَلَامٌ لَا عَمَلَ، وَكَأَنَّهُ كَلَامُ إِنْسَانٍ فِي وَقْتِهِ لَا كَلَامَ النُّبُوَّةِ لِلدَّهْرِ كُلِّهِ وَلِلْحَيَاةِ كُلِّهَا؛ وَلِهَذَا غَلَبْتُ أَنَا الْأَنْبِيَاءَ عَلَى النَّاسِ، فَإِنِّي أَضْعُ أَلْمَعَانِي التي تعمل، لَا الْحِكْمَةَ المَتْرُوكَةَ لِمَنْ يَعْمَلُ بِهَا وَمَنْ لَا يَعْمَلُ.

أُتَدْرِي يَا أَبَا الْحَسَنِ، لِمَاذَا أَعْجَزَنِي أَسْلَافُكُمْ الْأَوَّلُونَ مِثْلَ: عُمَرُ وَأَبِي بَكْرٍ؟ حَتَّى كَانَ إِسْلَامُهُمْ مِنْ أَكْبَرِ مَصَائِبِي، فَتَرَكُونِي زَمناً - وَأَنَا الشَّيْطَانُ - أُرْتَابُ فِي أَنِّي أَنَا الشَّيْطَانُ...؟

قُلْتُ: لِمَاذَا؟

قال: أَرَاكَ الْآنَ لَمْ تَلْعَنْ، فَلَسْتُ قَائِلَهَا إِلَّا إِذَا تَرَخَّمْتُ عَلَيَّ.

قُلْتُ: عليك وعليك مِنْ لَعَنَاتِ اللَّهِ! قُلْ لِمَاذَا؟

قال: أَسَائِلُ وَيَأْمُرُ وَطَفِيلِي وَيَقْتَرِحُ؟ لَا بَدَأَ أَنْ تَتَرَخَّم!

قُلْتُ: يَرْحَمُنَا اللَّهُ مِنْكَ! قُلْ لِمَاذَا؟

قال: وهذه لعنةٌ في لَفْظَةٍ رَحْمَةٍ؛ لَا، إِلَّا تَتَرَخَّم عَلَيَّ أَنَا إِبْلِيسَ الرَّجِيمِ^(١)!

قُلْتُ: فَيُعْزِي اللَّهُ عَنْ عِلْمِكَ؛ لَقَدْ أَلْهَمْتِهَا رُوحَ النَّبِيِّ ﷺ: إِنْ النُّبُوَّةُ كَانَتْ هِيَ بِأَعْمَالِهَا وَصِفَاتِهَا تَفْسِيراً لِلْأَلْفَاظِ عَلَى أَسْمَى الْوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا، فَكَانَ رُوحُ النَّبِيِّ ﷺ لِتِلْكَ الْأَرْوَاحِ كَالْأَمِّ لِأَبْنَائِهَا؛ وَقَدْ رَأَوُهَا لَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلَا حَظَّ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِالْقَضْدِ فِي أَمْرِ النَّفْسِ، وَجَعَلَ نَاحِيَةَ الْإِسْرَافِ فِيهَا إِسْرَافاً فِي الْعَمَلِ لِسَعَادَةِ النَّاسِ. وَكَلَّمَا أَرْتَدَّ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ وَحَظَّوْظَهَا أَرْتَدَّ إِلَيْكَ - أَيُّهَا اللعين - وَأَقْبَلَ عَلَى شَقَاءِ نَفْسِهِ، وَكَلَّمَا عَمِلَ لِسَعَادَةِ غَيْرِهِ أَبْتَعَدَ عَنْكَ - أَيُّهَا الرَّجِيم - وَأَقْبَلَ

على سعادة نفسه، وترك الغضب وحفظ النفس هو الصبر؛ وصبر الأنبياء والصدّيقين ليس صبراً على شيء بعينه في الحياة، بل هو الصبر على حوادث العمر كله، كصبر المسافرين إن كان عزيمة مدة الطريق كلها، وإلا كان فساداً في القوة ووقع به الخذلان.

فهذا الصبر المغتزم المصمم، الذي يوطن به الرجل نفسه أن يكون رجلاً إلى الآخر - هو تعب الدنيا، ولكنه هو روح الجنة مع الإنسان في الدنيا. والمؤمن الصابر رجل مفضل عليه بأفعال الملائكة التي لا يفتحمها الشيطان ولا تفتحها مصائب الدنيا؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «إنَّ المؤمن يُنْضِي شيطانه كما يُنْضِي» (١) أحدكم بعيره في سفره». كأنه يقول: لو لم يصبر المسافر دائماً معتزماً مدة سفره كلها لما أنضى شيطانه.

فصاح الشيطان: أوّه، أوّه! ولكن قل لي يا أبا الحسن: ما صبر رجل مؤمن قوي الإيمان، قد استطاع بقوة إيمانه أن يفيق من سُكر الغنى، فتخلص من نزوات الشاطين الذهبية الصغيرة التي تسمونها الدنانير؛ وقد أرذته على أن يكذب، فرأى الإيمان أن يصدق؛ وجهذت به بغضب، فرأى الحكمة أن يهدأ؛ وحاولت منه أن يطمع، فرأى الراحة أن يرضى؛ وسئلت له أن يחסد، فرأى الفضيلة ألا يبالي؛ وأخذ لنفسه من كل شيء في الحياة بما يثق أنه الإيمان والصبر والهدوء والرضا والفتاة؛ وأحاط نفسه من هذه الأخلاق بالسعادة القلبية وأجتزأ بها؛ وقصر نظره على الحقيقة؛ ووجد الجمال في نفسه الطيبة الصافية؛ وأجرى ما يؤلمه وما يسره مجرى واحداً؛ ونظر إلى العمر كله كأنه يوم واحد يزف مغرب شمس؛ وأخذ من إرادته قوة أنسته ما لم تعطه الدنيا، فلم يخفل بما أعطت الدنيا وما منعت؛ وعاش على فقره بكل ذلك كما يعيش المؤمن في الجنة: هذا في قصر من لؤلؤة أو باقوتة أو زبرجدة، وذاك في قصر من الحكمة أو من الإيمان أو من العقل.

قال الشيطان: فلما أعجزني صلاحاً ورضى صبراً وقناعة وإيماناً واحتساباً، وكان رجلاً عالماً فقيهاً - سئلت (٢) له أن يخرج إلى المسجد ليعط الناس فينتفعوا به، ويصبرهم بدينهم - ويتكلم في نص كلام الله؛ فعمد المجلس وعظ، وأنصرفوا وبقي وحده.

(١) ينضي: يهزل، يضعف.

(٢) سئلت: وسوست له.

فجاءت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء في الدين من أمر طبيعتهن؛ وكانت امرأة جزلة غضة رابية، يهتز أعلاها وأسفلها، وتمشي قصيرة الخطو مثاقلة كالمضايقة من حمل أسرار جمالها وأسرار بدنها الجميل؛ فبعض مشيتها يقطعه وبعضها نوم فاتر تخالطه اليقظة؛ ولا يراها الرجل الفحل التام الفحولة إلا رأى الهوى نفسه قد أصبح من حولها أنثى، مما تعصف به ريحها العطرة عطر زيتها وجسمها.

وكان الواعظ قد ترمّل من أشهر، وكانت المرأة قد تأيّمّت^(١) من سنوات؛ فلما رآها غص طرفه^(٢) عنها؛ ولكنها سألته بألفاظها العذبة عن أمور هي من أسرار طبيعتها، وسألته عن طبيعتها بألفاظها؛ فسمع منها مثل صوت البلور، يتكسر بعضه على بعض.

وتحدّثت له وكأنها تتحدّث فيه: فسمع بأذنيه ودمه، ثم كان غص عينه أقوى لرؤية قلبه وجمع خواطره.

ورأى صوتها يشتهي؛ وعانقته رائحتها العطرية النفاذة؛ وأحاطته بجو كجو الفراش؛ وعادت أنفاسها كأنها وسوسة قبل؛ وصارت زفرائها كالقدر إذا استجمعت غلياناً؛ وطلعت في خياله غريانة كما تطلع للسكران من كأس الخمر حورية غريانة، لها جسم يبدو من اللين والبضاضة والتعمة كأنه من زبد البحر؟

قال أبو الحسن: وكنت كالنائم، فما شعرت إلا بصوت كصك الحجر بالحجر، لا كتكسر البلور بعضه على بعض، وسمعت شيخي يقول:
أفسقت...

(٢) غص طرفه عنها: مال بنظره عنها.

(١) تأيّمّت: مات عنها زوجها.

تاريخُ بتكلم...

أيعرفُ القراءُ أنَّ في الأحلام أحلاماً هي قِصَصٌ عقليةٌ كاملةٌ الأجزاء محكَّمةٌ الوضعُ مُتَّسقةٌ التركيبُ بديعةٌ التَّأليفُ، تجعلُ المرأةَ حينَ ينامُ كأنَّه أسلمَ نفسه إلى (شركةٍ مِنَ الملائكة)، تَسِيحُ بِهِ في عالمٍ عَجِيبٍ كأنَّما سَجَرَ فتحوَّلَ إلى قصة؟

إنَّ يَكُنْ في القراءِ مَنْ لا يَعْلَمُ هذا فَلْيَعْلَمْ مِنِّي؛ فَإِنِّي كَثِيراً ما أَكْتُبُ وأَقْرَأُ في النومِ؛ وكَثِيراً ما يُلْقِي عَلَيَّ من بَارِعِ الكلامِ، وكَثِيراً ما أرى ما لو دَوَّنْتُهُ لَعُدَّ مِنَ الخوارقِ والمعجزاتِ.

وهذه القِصةُ التي أروها اليَوْمَ، كَانَتْ المعجزةُ فيها أَنِّي مَشَيْتُ في التاريخِ كما أَمْشِي في طَرِيقٍ ممتدَّةٍ؛ فتقدَّمتُ إلى أَهْلِ سَنَةِ ٣٩٥ للهجرة وما يليها، فَعِشْتُ مَعَهُمْ وَتَخَبَّرْتُ من أَخبارِهِمْ، ثُمَّ رَجَعْتُ إلى زَمَنِي لِأَقْصَ ما رَأَيْتُهُ على أَهْلِ سَنَةِ ١٣٥٣...

أَمْسَيْتُ أَلْبَارِحَةَ كالمغمومِ في أحوالٍ ثَقِيلَةٍ على النَّفْسِ ما تَنْطَلِقُ النَّفْسُ لَهَا، أَوَّلُهَا سَوْءُ الْهَضَمِ؛ ومَتَى كَانَ أَلْبَدُ من هُنَا لم تَكُنِ الحَرَكَةُ في النَّفْسِ إِلَّا دائِرَةً: تَذْهَبُ ما تَذْهَبُ ثُمَّ لا تَنْتَهِي إِلَّا في سَوْءِ الْهَضَمِ عَيْنِهِ. فجلُستُ في أَلْتَدِي الَّذِي أَسْمُرُ^(١) فِيهِ أحياناً، فَكَانَ لِجَوِّهِ وَزَنَ أَحْسَنُهُ كَمَا يُحَسُّ الغائِصُ في المَاءِ يُقَلُّ المَاءِ عليه؛ وَدَخُنْتُ أَلْكَزَكْرَةَ^(٢) فلم تَكُنْ هَوَاءً وَدُخَاناً يَتَرَوَّحُ، بَلْ كَانَتْ من يُقْلِيها كَالطَّعامِ يَدْخُلُ على الطَّعامِ؛ وَنَظَرْتُ نَاحِيَةً فَأَخَذَتْ عَيْنِي رَجُلًا فِيلِي الخُلُقَةِ^(٣)، مُنْطَاذَ الْبَطْنِ^(٤) كأنَّما يُفَيِّحُ بَطْنُهُ بِالْأَلَاتِ، يَحْوِلُ مِنْهُ مَقْدَارُ أَرْبَعَةٍ من بَطُونِ الْبَدِينَاتِ أَلْحَوامِلِ كُلِّ مِنْهُنَّ في الشَّهْرِ التَّاسِعِ مِنْ حَمْلِها... وَكَانَ مَعِي إلى كُلِّ هذا أَلْبَلَاءُ خَمْسُ صُخُفٍ يَوْمِيَّةٍ أريدُ قراءَتِها...

ثُمَّ جِئْتُ إلى الدَّارِ وَالْمَعْرَكَةِ حَامِيَةً في أعصابي؛ وما كَانَ سَوْءُ الْهَضَمِ مَنزَمَةً يَدْعُو إلى النومِ، فَدَخَلْتُ بَيْتَ كُتُبِي وَأَرَدْتُ كِتَاباً أَيَّ كِتَابٍ تَنَالُهُ يَدِي، فَخَرَجَ لِي كِتَابُ

(١) أَسْمُرُ فِيهِ: أَقْضِي لَيْالِي السَّمرِ فِيهِ.

(٢) الكَزَكْرَةُ: النَّارِجِيلَةُ.

(٣) فِيلِي الخُلُقَةِ: ضَحْخَا كَالْفِيلِ.

(٤) مُنْطَاذَ الْبَطْنِ: مُفْتَحِ الْبَطْنِ.

في خرافاتِ الأولينِ وأساطيرهم وهذيانهم وسوءِ هضمهم العقلي... كالكلام عن أذونيسَ وأرطاميسَ ودبونيسَ وسميراميسَ وإيسيسَ وأتوبيسَ وأثرغيسَ... فاستعذتُ باللهُ وقلتُ: حتى أكتبُ لها في هذه الليلةِ أعصابٌ قد نالها الثقلُ والآلمُ؟

وباتَ الليلُ يقظانَ معي، وبقيتُ مُتمَلِّلاً أَثْقَلُ حتى أخذَ الصداغُ في رأسي، فأنقلبَ أتعَبُ نوماً، وجاءَ منَ النومِ تعبٌ آخر، وقذِفْتُ إلى عالمِ الأحلامِ في قُبلةٍ تستقرُّ بي حيثُ تُريدُ لا حيثُ أريدُ:

ورأيتُني في قومٍ لا أعرفُ منهم أحداً قد اجتمعوا جماهير، وسمعتُ قائلاً منهم يقول: «الساعةُ يَمُرُ مولانا العالي». فقلتُ لِمَن يليني: «مَن يكونُ مولانا العالي؟» قال: «أَوَ أنتَ منهم؟» قلتُ: «مِمَّن؟» فآلهاءُ عن جوابي تشوُّفُ الناسِ وأنصرافُهُم إلى رجلٍ أقبلَ راكباً حماراً أشهبَ؟ فصاحوا: «القمر القمر^(١)» ورَفَعَ الرجلُ الذي يُناكِني صوتهُ يقول: «البركاتُ والعظَماُتُ لك يا مولانا العالي!».

قلتُ: إنا لله! لقد وقعْتُ في قومٍ مِنَ الزنادقةِ، يُعارضون «التحياتِ والصلواتِ والطَّيباتِ لله؟» ثُمَّ مرَّ صاحبُ الحمارِ بحذائي، وغمزهُ الرجلُ عَلَيَّ، فقال: ما بالكَ لا تقولُ مثله؟ قلتُ: أعودُ باللهِ من كُفرٍ بعدَ إيمان. فكأنما أرادَ أنْ يَلْطَمَني فرقعَ يدهُ، فصيحْتُ فيه: كما أنتَ - ويلكَ - وإلا قبضْتُ عليك، وأسلمْتُكَ للبوليسِ، وشكوتُكَ إلى أليابَةِ، ورفعتُكَ إلى محكمةِ الجَنَحِ^(٢)!

قال: ماذا أسمعُ؟ الرجلُ مجنونٌ فخذوه! وأحاطَ بي جماعةٌ منهم، ولكئهِ تَزَجُلُ عن حمارةِ وأخذَ بيدي ومشيئنا، فقلتُ: مَن أنتَ يا هذا؟ قال: أراك من غيرِ هذا البلدِ؛ أما تَعْرِفُ الحاكمَ بأمرِ الله؟ فانا هو. قلتُ: أنظُرْ - ويحكُ - ما تقول. فما أظنُّكَ إلا مَمْرُوراً؛ لقد كُتِبَ أَمْسِ كتاباً إلى مجلة (الرسالة) أرخته ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٥٣ و ١٨ من مارس سنة ١٩٣٥، وأرسلْتُ بِهِ مقالةَ «الخروفين»..

قال: ماذا أسمعُ؟ نحن الآن في سنة ٣٩٥؛ فالرجلُ مجنون، أولاً فأنت أيُّها الرجلُ من معجزاتي. لقد جئتُ بك مِن التَّاريخ، فسترى وتكتب، ثُمَّ تعودُ إلى التاريخِ فنكونُ من معجزاتي، وتقصُّ عني وتشهدُ لي...

قلتُ: فإني أعرفُ أعمالَكَ إلى أن قُتِلْتَ في سنة ٤١١...!

(٢) الجنح، مفردة جُنحة وهي الجريمة.

(١) القمر اسم لذلك الحمار.

قال: أو إله أنت فتخلق ست عشرة سنة بحوادِثها؟ لقد كذت من أفنك
وعباوتك تُفسد علي دعوى المعجزة!

وهاج الصداع في رأسي، وبلغ سوء الهضم حدّه، واشتبكت سينات إيسيس
وأثوبيس إلخ بسين إبليس، ومرّت بين كلّ هذا حوادث الطاغية المعتوه^(١) المتجبر،
فرايته يتدع في كلّ وقت بدعا، ويخترع أحكاماً يُكره الناس على أن يعملوا بها،
ويعاقبهم على الخروج منها، ثمّ يعود فينقض أمره، ويعاقب على الأخذ به، كأنّ
الذي نقض غير الذي أبرم، وكأنّه حين يتبلّد فيعجزه أن يخترع جديداً - يجعل
أختراعه إبطالاً لأختراعه.

ورأيت أنّه كأنما يعتد نفسه مخّ هذه الأمة، فلا بُدّ أن يكون عقلاً لعقولها، ثمّ
لا بُدّ أن يستغلي الناس ويستبدّ بهم استبداد الشريعة في أمرها ونهيها، فكانت
أعماله في جمليتها هي نقض أعمال الشريعة الإسلامية، وظنّ أنّه مستطيع محو
ذلك العصر من أذهان الناس وقتل التاريخ الإسلامي بتاريخ قاتل سفك.

وسوّ^(٢) له جنونه أنّه خلق تكذيباً للنبوّة؛ ثمّ أفرط عليه الجنون فحصل
في نفسه أنّه خلق تكذيباً للآلوهيّة؛ وفي تكذيبه للنبوّة والآلوهيّة يحمل الأمة
بالقهر والغلبة على الاتصاف بالإله هو؛ وفي سبيل إثباته لنفسه صَنَعَ ما صَنَعَ،
فجاء تاريخه لا ينفي آلوهيّة ولا نبوّة، بل ينفي العقل عن صاحبه؛ وجاء هذا
التاريخ في الإسلام ليتكلّم يوماً في تاريخ الإسلام...

* * *

رأيتني أصبحت كاتباً لهذا الحاكم، فجعلتُ أشهد أعماله وأدوّن تاريخه،
وأقبلتُ على ما أفرّدتني به وقلّت في نفسي: لقد وضعتني الدنيا مَوْضِعاً عزيزاً لم
يرتفع إليه أحد من كتابها وأدبائها، فسأكتب عن هذا الدهر بعقل بينه وبين هذا
الدهر ٩٦٨ سنة صاعدة في العلم.

ودوّنت عشرة مجلّدات ضخمة أتبهنّ وأنا أحفظها كلّها، فإذا هي
جملٌ صغيرة، جعل الخُلُم كلّ نبذة منها سيفراً ضخماً كما يُخيّل للنائم أنّه
عاش عمراً طويلاً وأحدث أحداثاً ممتدة، على حين لا تكون الرؤيا إلا
لحظة.

(٢) سؤل: سوغ وأوحى له وسمح.

(١) المعتوه: المخبول.

وهذه هي المجلدات التي قلت: إن التاريخ يتكلم بها في التاريخ . . .

المجلد الأول

ابتلي هذا الطاغية بنقيصتين: إحداهما من نفسه، والأخرى من غيره؛ فأما التي من نفسه فإنني أراه قد خلق وفي مخه لفافة عصبية من يهودية جدّه رأس هذه الدعوة؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم المهدي عبيد الله، ويقولون: إن عبيد الله هذا كان ابن امرأة يهودية من حداد يهودي، فاتفق أن جرى ذكر النساء في مجلس الحسين بن محمد القدّاح، فوصفوا له تلك المرأة اليهودية، وأنها آية في الحسن؛ وكان لها من الحداد ولد، فتزوجها الرجل وأدب أبنتها وعلمه، ثم عرفه أسرار الدعوة العلوية وعهد إليه بها.

ومن بعض اللفائف العصبية في المخ ما ينحدر بالوارثة مطبوعاً على خيره أو شره، لا يد للمز فيه ولا حيلة له في دفعه أو الانتفاء منه، فيكون قدراً يتسلّل في الخلقي ليحدث غاياته المقدورة، فمتى وقع في مخ إنسان فالدنيا به كالحبلى ولا بد أن تتمخض^(١) عنه.

هذه اللفافة اليهودية في مخ هذا الطاغية ستحقّق به قول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ فهو لن يكون العدو للإسلام دون أن يكون الأشد في هذه العداوة، ولن يكون فيها الأشد حتى يفعل بها الأفاعيل المنكرة. وما أرى هذه المآذن القائمة في الجو إلا تحرق بمنظرها عينه من بغضه للإسلام وأنطوائه على عدوانه؛ فويل لها منه!

وأما النقيصة الثانية فقد ابتلي بقوم فتنوه بأرائهم ومذهبهم، وهم حمزة بن علي، والآخرم، وفلان، وفلان. . . وقد لفقوا للدنيا مذهباً هو صورة عقولهم الكطائشة، لا يجيء إلا للهدم، ثم لا يضع أول معاويله إلا في قبة السماء ليهدمها. . . ! ولو أنا جمعت هذا المذهب في كلمة واحدة لقلت: هو حماقة حقاً تريد إخراج الله من الوجود لإدخال الله في بعض الطغاة!

ويتلّفون في مذهبهم بهذه الألقاب: العقل، الإرادة، الإمام، قائم الزمان، علة العلل . . . !

(١) تتمخض عنه: تتج عنه.

المجلد الثاني

أظهر الطاغية أن الله يؤيد به الإسلام، ليتألف الجند والشعب ويستميلهم إليه، وكان في ذلك لثيم الكيد، دنيء الحيلة، يهودي المكر؛ فأمر بعمارة المدارس للفقه والتفسير والحديث والفن، وبذل فيها الأموال، وجعل فيها ألقهاء (والمشايخ)، وبالغ في إكرامهم، والتوسعة عليهم، وألتخص لهم، ودخل في ظلال العمام. . وأحضر لنفسه فقيهين مالكيين (اثنين لا واحد) يعلمانه ويفقهانه، وكان أشبه بمريد مع شيخ الطريقة يتسعد^(١) به ويتبعن^(٢)؛ أشرف ألقابه أنه خادم الإمامة الحضرية، وأسعد أوقاته اليوم الذي يقول له فيه الشيخ: رأيتك في الرؤيا ورأيت لك . . . !

وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة من هذا الطاغية، هي بعينها ربا ألفافه اليهودية في مخه؛ تضح باقراض مائة، وفيها نية الخراب بالستين في المائة . . . ! فإنه ما كاذ يتمكن من الناس ويعرف إقبالهم عليه ويقتهم به، حتى طلب ألفافه اليهودية رأس المال والزبا؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخوابها، وأبطل العبدین وصلاة الجمعة، وقتل ألقهاء وقتل معهم فقيهي وأستاذيه، وعاد كالمرید المنافق مع شيخ الطريقة، يقول في نفسه: إن هناك ثلاثة تعمل عملاً واحداً في الصيد: الفخ، والإمامة، والذبة . . . !

إن هذا الطاغية ملك حاكم، يستطيع أن يجعل حماقة شيئاً واقعاً، فيقتل علماء الدين بإهلاكهم، ويقتل مدارس الدين بإخوابها، ولو شاء لأستطاع أن يشق من المسلمين كل ذي عمامة في عمامته. ويبلغ من كفره أن يتججج^(٣) ويرى هذا قوة، ولا يعلم أنه ليهوانه على الله قد جعله ألكه كالذبابة التي تُصيب الناس بالمرض، والبعوضة التي تقتل بالحمى، والقملة التي تضرب بالطاعون، فلو فخرت ذبابة، أو تجججت قملة، أو أستطالت بعوضة، لجاز له أن يطن طينه في العالم. وهل فعل أكثر مما تفعل؟

لقد أودى بأناس يقوم إيمانهم على أن الموت في سبيل الحق هو الذي يخلد لهم في الحق، وأن أنتراعهم بالسيف من الذي يضعهم في حقيقتها، وأن هذه الروح الإسلامية لا يطمسها الطغيان إلا ليجلوها.

(١) يتسعد: يجعله سبب سعاده.

(٢) يتبعن: أعلن فرحه وجاهر به مفتخراً.

(٣) تججج: يتفاهل.

إِنَّهُ - واللَّهُ - ما قَتَلَ ولا شَتَقَ ولا عَذَّبَ، ولكنَّ الإسلامَ أحتاجَ في عصرِهِ هذا إلى قوم يموتون في سبيلِهِ، وأعوذُهُ ذلك النُّوعُ السَّامِي مِنَ المَوْتِ الأوَّلِ الَّذِي كانَ حياةَ الفِكرِ ومادَّةَ التاريخِ، فجاءتِ القملةُ تحملُ طاعونها...!

لقد أحياهم في التَّاريخِ، أمَّا هم فقتلوه في التَّاريخِ، وجاءهم بالرحمةِ من جميعِ المسلمين، أمَّا هم فجاءوهُ بِاللَّعْنَةِ مِنَ المسلمين جميعاً!

المجلدُ الثالثُ

يرى هذا الطاغيةُ أنَّ الدينَ الإسلاميَّ خُرَافَةٌ وسُغُودَةٌ عَنِ النِّفْسِ، وأنَّ محوَ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ العَظيمةِ هو نفسُهُ إيجادُ أخلاقٍ، وأنَّ الإسلامَ كانَ جريئاً حينَ جاءَ فَاحتَلَّ هذه الدُّنيا؛ فلا يطردُهُ مِنَ الدُّنيا إِلَّا جَراءُ شيطانٍ كالَّذي تَوَقَّعَ على اللَّهِ حينَ قالَ: ﴿فَيَعِزُّكَ لِأَعْيُنِهِمْ أَتَمَعِينَ﴾. ولهذا أمرَ النَّاسَ بِسَبِّ الصُّحابةِ، وأنَّ يُكْتَبَ ذلك على حِيطانِ المساجِدِ والمقابرِ والشُّوارعِ!

أخزاهُ اللَّهُ! أهي روايةٌ تمثيليةٌ يُلصِقُ الإعلانُ عنها في كلِّ مكانٍ؟ لو سَمِعَ لسمعَ المساجِدَ والمقابرَ والشُّوارعَ تقولُ: أخزاهُ اللَّهُ...!

المجلدُ الرابعُ

هذا الفاسقُ لا يركبُ إِلَّا حماراً أَشهبَ يُسمِّيهِ: (القمر)، وقد جعلَ نفسَهُ مُحْتَسِباً لِغايةِ خبيثةٍ؛ فهو يدورُ على حِمَارِهِ هذا في الأسواقِ ومَعَهُ عبدٌ أسودٌ، فَمَنْ وَجَدَهُ قد عَثَرَ؛ أمرَ الأسودَ ف...! ووقفَ هو ينظرُ ويقولُ لِلنَّاسِ: انظروا...!

ومن غَلَبَةِ الفُسُوقِ على نَفْسِهِ وعلى شيعتِهِ أنَّ داعيتَهُ (حُمزَةَ بَنَ عَلِيٍّ) نَوَّهَ^(١) بِالْحِمَارِ في كتابِهِ وأوماً إِلَيْهِ بالثناءِ، لِإِخْصالٍ: منها أن...! وكتبَ حمزَةُ هذا في بعضِ رسائلِهِ: أنَّ ما يركبُهُ أَهْلُ الفِسادِ بجوارِ البَساتينِ الَّتِي يمرُّ بها (الفاسقُ) مِنَ المنكَرِ والفَحشاءِ - إنما يَركَبُ في طاعَتِهِ...!

هذه طَبيعَةُ كلِّ حاكمٍ فاسقٍ مُلحدٍ، يرى في نَفْسِهِ رذائلَهُ غُرِبانَةً، فلا يكونُ كلامُهُ وعملُهُ وفكرُهُ إِلَّا فُحْشاً يَتَعَرَّى؛ وإنَّ في هذا الرجلِ غريزةَ فسقٍ بهيميةً متصلةً بطَوْرٍ^(٢) الحَيوانِ الْإِنْسَانِي الْأوَّلِ؛ فما من رَيِّبٍ أنَّ في جَسَمِهِ خَلِيَّةٌ عَصِيَّةٌ مُهْتَاجَةٌ،

(٢) طَوَّرَ بِتَسْكِينِ الرَّاوِ: المَرَحَلَةُ.

(١) نَوَّهَ: ذَكَرَ فُضائلَهُ.

ما زالتْ تَسْبُحُ بالوَارِثَةِ في دماءِ الأَحْيَاءِ، متلفَةً على خصائصِها، حتى أَسْتَقَرَّتْ في أعصابِ هذا الفاسقِ، فَأَنْفَجَرَتْ بِكُلِّ تلكِ الْخصائصِ.

ولسْتُ أرى أَكْثَرَ أَعْمَالِهِ تَرْجِعُ في مَرَدِّها إِلَّا إلى طغْيَانِ هذه الغريزةِ فيه؛ فهو يُحاولُ هدمَ الإسلامِ، لِأَنَّهُ دينُ الْعِيقَةِ ودينُ صَوْنِ المرأةِ، يُلزِمُها حِجابَ عِفَّتِها وإِبائِها، ويمنعُها الْابتِذَالَ وَالْخِلاعةَ، وَيُعَيِّنُها أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْ يَشْتِهِيها، ولو كانَ الحاكمُ . . . إِنَّهُ يَمَقِّتُ هذا الدينَ الْقويَّ، كما يَمَقِّتُ اللُّصَّ الْقانونَ؛ فهو دينٌ يَنْقُلُ على غريزَتِهِ الْفاسقةَ، وَلِكُلِّ غريزةٍ في الْإنسانِ شعورٌ لامَهْنَأُ لها إِلَّا أَنْ يَكُونَ حُرّاً حتى في أَكْثَرِهِمْ؛ وهل يُعْجِبُ السَّكْبَرُ شَيْءٌ أو يُرْضِيهِ أو يَلْذُّه، كما يُعْجِبُهُ أَنْ يَرى الناسَ كُلَّهُمْ سُكارى؛ فَيَشْتِشِي هو بِالْخمرِ، وتسكرُ غريزَتُهُ بِرؤيةِ الْسكرِ؟

وما زالَ رأيُ الْفَسَّاقِ في كُلِّ زمنٍ أَنَّ الْحريَّةَ هي حريَّةُ الْاستِمتاعِ، وأنَّ تقييدَ اللَّذَّةِ إفسادٌ لِلذَّةِ.

المجلد الخامس

يزعمُ الطاغيةُ أَنَّهُ يُعزِّزُ قومَه، وما أراه يُعزِّمُهم، لكنَّهُ يمتحنُ ذُلَّهُم وضعفَهُم وهوانَهُم على الأُممِ؛ يتجرأُ شَيْئاً فشيئاً، مُتَنَظِّراً ما يَسْهَلُ، مترقباً ما يُمكن؛ وهو يرى أَنَّ أخلاقنا الْإِسْلامِيَّةَ هي أمواتنا دَفَنُوا أَنْفُسَهُم فينا؛ فمن ذلك يَهْدُمُ الْأَخلاقَ ويظُنُّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَهْدُمُ قُبوراً لا أخلاقاً.

ولقد سَخِرَ مِنْهُ الْمَصْرِيُّونَ بِنَكْتَةٍ مِنْ ظَرْفِهِمُ الْبَدِيعِ، وجاءوه من غريزته، فصنعوا امرأةً مِنَ الْورقِ الَّذِي يُشَبِّهُ الْجِلْدَ، وَأَلْبَسُوهَا حُفَّها وإِزارها، حتى لا يَشْكُ مَنْ رآها أَنَّها آدميَّةٌ، ثُمَّ وضعوا في يدها قِصَّةً وأقاموها في طريقه؛ فلَمَّا رآها عَدَلَ إِلَيْها^(١) وأَخَذَ مِنْ يدها الْقِصَّةَ وقرأها، فإذا فيها سَبُّ لَهْ وَلِإِبائِهِ؛ وسخريَّةٌ مِنْ جنونهِ ورُعوْنَتِهِ الْمُضحِكةُ؛ فغَضِبَ وأمرَ بِقَتْلِ المرأةِ؛ فكانَتْ هذه سَخريَّةٌ أُخرى حينَ تحقُّقِ أَنَّها مِنَ الْورقِ، وأَخَذَتْهُ الْنَكْتَةُ الظَّرِيفَةُ بِمِثْلِ الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ؛ فَاسْتَشَاطَ^(٢) وأمرَ عبيدَهُ مِنَ السُّودَانِ بِتَحْرِيقِ الدُّورِ ونهبِ ما فيها وسَبْيِ النِّساءِ وَالْفُجُورِ بهنَّ؛ حتى جاءَ الْأَزْوَاجُ يشْترونَ زَوجَاتِهِمْ مِنَ الْعبيدِ، بعدَ أَنْ طَارَتْ الْزَوبَعَةُ السُّودَاءُ في بياضِ الْأَعْراضِ.

إندلَعَتْ ثُورَةُ الْفُجُورِ في الْمَدِينَةِ، لا مِنْ الْعبيدِ، ولكنْ مِنَ الْحَيَوانِ الْعَتِيقِ الْمُسْتَقَرِّ في هذا الطاغيةِ.

(٢) استشاط: اشتعل غضباً.

(١) عدل إليها: مال وعرج عليها.

المجلد السادس

وهذه رُعوثة من أفبح رُعوناته، كأن هذا الحيوان لا يحسبُ نساء الأُمّة كلها إلا نساءه، فيأمرهنّ بأمر أمراته، وكأنّ النساء في رأيه إنّ هنّ إلا استجاباتٌ عصبيةٌ تُطلَق وتُرَدّ.

إنّ لموجة الفسق في الغريزة الطاغية جزراً ومداً يقعان في تاريخ الفساق؛ فهذا الطاغية قد جَزَرَتْ فيه الموجة، فأمر أن يُمنع النساء من الخروج ليلاً ونهاراً، لا تطأ أرض المدينة قَدَمُ امرأة، وأمر الأخفافين ألا يصنعوا لهنّ الأخفاف والأحذية؛ ولما عَلِمَ أن بعض النساء خرجن إلى الحمامات هَدَمَ الحمامات عليهنّ! ولو مدّت الموجة في تفسقِ ألفاسقٍ لَفَرَضَ على النساء الخروج والاتصال بالرجال والتعرض للإباحة.

إنّ الإصلاح والفساد كلاهما فسادٌ ما لم يكن الإصلاح نظافة في الروح وسمواً في القلب.

المجلد السابع

يزعم الطاغية أنّه سيهدم كل قديم؛ وإنّي لأخشى - والله - أن يأمر الناس في بعض سَطَوَات جنونه: أن كل مَنْ كان له أب أو أم بلغ الستين فليقتله، ليتخلص الأُمّة من قديمها الإنساني...!

كأنّه لا يعرف أنّه إنّما يتسلط على أيّام معاصريه لا على التاريخ؛ ويحكم على طاعة قوميهِ وعِصيانِهِم لا على قلوبِهِم وطِباعِهِم وميراثِهِم من الأسلاف؛ فما هو إلا أن يهلك حتى ينبعث في الدنيا شيثان: ثثن رُمَيَّهِ^(١) في بطن الأرض، ونثن أعماله على ظهر الأرض. إنّ هذا الرجل المسلط، كالأغبار المُستطار لا يُكْسُ إلا بعد أن يقع.

ولقد رأى المأفون أنّ أكل الناس الملوخيا الخضراء والأفّعاع، والثمرس والجرجير، والزبيب والعنب - هو قديم في طباع الناس، فنهى عن كل ذلك، لا يُباع ولا يُؤكل، وظهر على أنّ جماعة باعوا أشياء منها فضرَبَهُم بالسِّياط، وأمرَ فطيفَ بهم في الأسواق، ثمّ ضرب أعناقهم؛ كأنّ الذي يحمل الملوخيا الخضراء على رأسه لبيعها يلبسُ عِمامة خضراء...

(١) رُمَيَّته: جيفته.

أهذا - ونحوه - تجديد في الأمة، أم تجديد في المعدة...؟

المجلد الثامن

لا يرضى الطاغية إلا أن يَمَحَقَ^(١) روحانيّة الأُمّة كلّها، فلا يترك شيئاً روحانيّاً له في أعصابِ الناسِ أثرٌ مِنَ الوقار، وبِمَنْ يَسْتَظْهِرُ - ونحوه - إذا مُحِقَّت روحانيّة الأُمّة وأشرقت نزعُتها الدينيّة على الانحلال؟ كأنّه لا يعلم أن حقيقة الوجود لِأُمّةٍ مِنَ الأُممِ إنّما تُستمدُّ من إيمانها بالمثل الأعلى الذي يدفعها في سُلُمها إلى الحياة بِقوّة، كما يدفعها في حربها إلى الموت بِقوّة؛ وكأنّه لا يعلم أن التاريخ كلّهُ تُقرّره في الأرض بِضعة مبادئ دينيّة.

هذا الحاكمُ الآخرُ هو عندي كالذي يقولُ لِنَفْسِهِ: لم أستطع أن أفتح دولة، فلأفتح دولةً في مملكتي... لقد أمرُ بهدمِ الكنائسِ والبُيع، حتى بلغ ما هدم منها ثلاثين ألفاً وثلاثاً.

أي مجنونٍ أسخفُ جنوناً من هذا الذي يحسبُ النفوسَ الإنسانيّة كالأخشاب؛ تَقْبَلُ كلّها بغيرِ استثناء أن تُدَقَّ فيها المسمامير...؟
سيعلم إذا نشبت حربٌ بينهُ وبينَ دولةٍ أخرى، أنّه كسرَ أشدَّ سيوفِهِ مضاعفٍ حينَ كسرَ الدين!

المجلد التاسع

هذه هي الطائفةُ الكُبرى؛ فلا أدري كيف أكتبُ عنها: لقد تطاولَ المجنونُ إلى الألوهيّة فأدّعاها، وصارَ يكتبُ عن نفسه: بأسمِ الحاكمِ الرحمن! لو كان أغنى الأغبياءِ في موضعي لَأَتَقَى شيئاً، لا أقولُ تقوى الدين والضمير، ولكن تقوى التَّفَاقِ السياسي؛ فكانَ يحملُ الناسَ على أن يقولوا عنه: «أبانا الذي في الأرضين...!».

ولأفائي جهلٍ وخَبْطٍ، وأي حُمقٍ وتَهُوُّرٍ، أن يكونَ إلهٌ على حمَارٍ، وإن كانَ أَسْمُ حمَارِهِ القمر!

المجلد العاشر

سياخذهُ اللهُ بامرأة؛ ولكلِّ شيءٍ آفةٌ من جنسه؛ لقد بلغَ من وقاحةِ غريزته أن

(١) يمحَق: يسحق، يمحور.

أَتَتَفَكَ^(١) أَخْتَهُ الْأَمِيرَةَ (سَتَ الْمُلْكُ)، ورمأها بِالْفاحِشَةِ، وهي من أَزكى النِّسَاءِ وَأَفْضَلِهِنَّ، وَأَتَتْهُمَا بِالْأَمِيرِ (سيف الدين بن الدَّوَّاسِ) وقد عَلِمْتُ أَنَّهَا تُدَبِّرُ قَتْلَهُ، وَأَنَّهَا أَجْتَمَعْتُ لَذَلِكَ بِسَيْفِ الدِّينِ. فَسَأَمَسَكَ عَنْ الْكِتَابَةِ فِي هَذَا الْمَجْلَدِ، وَأَدْعُ سَائِرَهُ بِيَاضاً حَتَّى أَذْهَبَ إِلَيْهِمَا فَأُعَيِّنَهُمَا بِمَا عِنْدِي مِنَ الرَّأْيِ، ثُمَّ أَعُوذُ لِتَدْوِينِ مَا يَقَعُ مِنْ بَعْدِ... .

وَرَأَيْتُ أَنِّي أَجْتَمَعْتُ بِهِمَا وَأَطْمَأَنَّا إِلَيَّ، فَأَخَذْنَا نُدِيرُ الرَّأْيَ:
قَالَتِ الْأَمِيرَةُ لِسَيْفِ الدِّينِ فِيمَا قَالَتْهُ: «وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تُثْبِتَهُ غِلْمَانًا يَقْتُلُونَهُ إِذَا خَرَجَ فِي غَدٍ إِلَى جَبَلِ الْمَقْطَعِ، فَإِنَّهُ يَنْفِرُ بِنَفْسِهِ هُنَا!». فَقُلْتُ أَنَا: «لَيْسَ هَذَا بِالرَّأْيِ وَلَا بِالتَّدْبِيرِ». قَالَتْ: «فَمَا الرَّأْيُ وَالتَّدْبِيرُ عِنْدَكَ؟».

قُلْتُ: «إِنَّ لَنَا عِلْماً يَسْمُوهُ (علم النفس)، لَمْ يَقَعْ لِعِلْمَائِكُمْ، وَقَدْ صَحَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا الْعِلْمِ أَنَّ الرَّجُلَ طَائِشُ الْغَرِيزَةِ مَجْنُونُهَا، وَأَنَّ الْأَشْعَةَ الْلَطِيفَةَ السَّاحِرَةَ الَّتِي تَنْبَعُ مِنْ جِسْمِ الْمَرْأَةِ هِيَ الَّتِي تَنْفَجِرُ فِي مُحُوٍّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ؛ فَإِذَا خَبَتْ^(٢) هَذِهِ الْأَشْعَةُ، وَبَطَلَتِ الْغَرِيزَةُ، بَطَلَتْ دَوَاعِي أَعْمَالِهِ الْخَبِيثَةِ كُلِّهَا، وَكَفَّ^(٣) عَنْ مُحَاوَلَتِهِ أَنْ يَجْعَلَ الْأُمَّةَ مَمْلُوءَةً مِنْ غَرَائِزِ جِسْمِهِ وَشَهَوَاتِهِ، لَا مِنْ فُضَائِلِهَا وَدِينِهَا. فَلَوْ أَخَذْتُمْ بِرَأْيِي وَأَمْضَيْتُمُوهُ فَإِنَّهُ سَيُنَكِّرُ أَعْمَالَهُ إِذَا عَرَضَهَا عَلَى نَفْسِهِ الْجَدِيدَةِ، وَبِهَذَا يُصْلِحُ مَا أَفْسَدَ، وَتَكُونُ حَيَاتُهُ قَدْ نَطَقَتْ بِكَلِمَتِهَا الصَّحِيحَةِ كَمَا نَطَقَتْ بِكَلِمَتِهَا الْفَاسِدَةِ؛ فَإِذَا... .».

قَالَ الْأَمِيرُ: «فَإِذَا مَاذَا؟».

قُلْتُ: «فَإِذَا خُصْمِي... .».

فَضَحَكْتُ سِتَّ الْمَلِكِ ضَحْكَةً رَثَتْ رَيْنًا.

قُلْتُ: «نَعَمْ إِذَا خُصْمِي هَذَا الْحَاكِمُ».

فَغَلَبَهَا الضَّحْكُ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ، وَرَمَتْنِي بِمَنْدِيلٍ لَطِيفٍ كَانَ فِي يَدِهَا أَصَابَ وَجْهِي، فَاتَّهَبْتُ وَأَنَا أَقُولُ:

«نَعَمْ إِذَا خُصْمِي هَذَا الْحَاكِمُ... .».

(٣) كَفَّ: تَوَقَّفَ.

(٢) خَبَتْ: سَكَنَتْ.

(١) أَتَفَكَ: أَتَاهُمْ بِالْفَجْورِ.

كُفْرُ الذُّبَابَةِ...

قَالَ كَلِيلَةُ وَهُوَ يَعِظُ دِمْنَةَ وَيُحَذِّرُهُ وَيَقْضِي حَقَّ اللَّهِ فِيهِ؛ وَكَانَ دِمْنَةُ قَدْ دَاخَلَهُ الْغُرُورُ وَزَهَاهُ النَّصْرُ، وَظَهَرَ مِنْهُ الْجَفَاءُ وَالْغِلْظَةُ، وَلَقِيَ الشَّعَالِبُ مِنْ زَيْغِهِ^(١) وَالْحَادِثِ عَثْنًا شَدِيدًا:

وَأَعْلَمُ يَا دِمْنَةُ أَنَّ مَا زَعَمْتَهُ مِنْ رَأْيِكَ تَأْمُّ لَا يَعْتَرِيهِ النِّقْصُ، هُوَ بِعَيْنِهِ النَّاَقِصُ الَّذِي لَمْ يَتَمَّ؛ وَالْغُرُورُ الَّذِي تُثَبِّتُ بِهِ أَنَّ رَأْيَكَ صَحِيحٌ دُونَ الْآرَاءِ، لَعَلَّهُ هُوَ الَّذِي يُثَبِّتُ أَنَّ غَيْرَ رَأْيِكَ فِي الْآرَاءِ هُوَ الصَّحِيحُ.

وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَتَخَيَّلُ كُلُّ ذِي خِيَالٍ، لَصَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ، وَلَوْ صَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ، لَكَذَّبَ كُلُّ إِنْسَانٍ؛ وَإِنَّمَا يَدْفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لِيَجِيءَ حَقُّ الْجَمِيعِ مِنَ الْجَمِيعِ، وَيَبْقَى الصَّغِيرُ مِنَ الْخَطَا صَغِيرًا فَلَا يَكْبُرُ، وَيُثَبِّتُ الْكَبِيرُ مِنَ الصَّوَابِ عَلَى مَوْضِعِهِ فَلَا يُنْتَقِصُ، وَيَصْخُ الصَّحِيحُ مَا دَامَتْ الشَّهَادَةُ لَهُ، وَيَفْسُدُ الْفَاسِدُ مَا دَامَتْ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِ، وَمَا مَثَلُ هَذَا إِلَّا مَثَلُ الْأَرْنَبِ وَالْعُلَمَاءِ.

قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ: زَعَمُوا أَنَّ أَرْنَبًا سَمِعَتْ الْعُلَمَاءَ يَتَكَلَّمُونَ فِي مَصِيرِ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَمَتَى يَتَأَذَّنُ^(٢) اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا، وَكَيْفَ تَكُونُ الْقَارِعَةُ^(٣)؛ فَقَالُوا: إِنَّ فِي النُّجُومِ نَجُومًا مُدْتَبِّئَةً، لَوْ أَلْتَفَتْ ذَنْبٌ أَحَدُهَا عَلَى جِزْمِ أَرْضِنَا هَذِهِ لَطَارَتْ هَوَاءً كَأَنَّهَا نَفْخَةُ الْنَافِخِ، بَلْ أَضَعُفُ مِنْهَا كَأَنَّهَا زَفْرَةُ صَدْرِ مَرِيضٍ، بَلْ أَوْهَى كَأَنَّهَا نَفْثَةُ مَنْ شَفَتَيْنِ. فَقَالَتْ الْأَرْنَبُ: مَا أَجْهَلَكُمْ أَيُّهَا الْعُلَمَاءُ! قَدْ وَاللَّهِ خَرَفْتُمْ وَتَكَذَّبْتُمْ وَأَسْتَحْمَقْتُمْ؛ وَلَا تَزَالُ الْأَرْضُ بِخَيْرٍ مَعَ ذَوَاتِ الْأَذْنَابِ؛ وَالِدَلِيلُ عَلَى جَهْلِكُمْ هُوَ هَذَا - قَالُوا: وَأَرْزَتْهُمْ ذَنْبُهَا...!

قَالَ كَلِيلَةُ: وَكَمْ مِنْ مَغْرُورٍ يُنْزِلُ نَفْسَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْزِلَةً هَذِهِ الْأَرْنَبِ مِنْ

(١) القارعة: القيامة.

(٢) يتأذن: يسمح.

(٣) زَيْغُهُ: رُوغَانُهُ.

أولئك العلماء؛ فيقول: كَذَبُوا وَصَدَقْتُ أَنَا، وَأَخْطَأُوا جَمِيعاً وَأَصَبْتُ، وَالتَّسَّ عَلَيْهِمْ وَأَنْكَشَفَ لِي، وَهُمْ زَعَمُوا وَأَنَا الْمُسْتَقِينُ. ثُمَّ لَا دَلِيلَ لَهُ إِلَّا مِثْلُ دَلِيلِ الْأَرْنَبِ الْخِرْقَاءِ مِنْ هَتَّةٍ تَحْرُكُ فِي ذَنْبِهَا.

وَكَانَ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا يُجَاهِرُ^(١) بِالْكَفْرِ فِي قَوْمٍ إِلَّا رَجُلٌ هَانَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَعْبُوا بِهِ، فَهُوَ الْأَذَلُّ الْمُسْتَضَفُ؛ أَوْ رَجُلٌ هَانُوا عَلَيْهِ فَلَمْ يَعْأَ بِهِمْ، فَهُوَ الْأَعَزُّ الْأَطَاغِيَّةُ؛ ذَاكَ لَا يَخْشَوْنَهُ فَيَدْعُونَهُ لِنَفْسِهِ وَعَلَيْهِ شَهَادَةُ حُكْمِهِ، وَهَذَا يَخْشَوْنَهُ فَيَتْرَكُونَ مُعَارَضَتَهُ وَعَلَيْهِ شَهَادَةُ ظُلْمِهِ؛ وَمَا شَرٌّ مِنْ هَذَا إِلَّا هَذَا.

وَقَالَتِ الْعُلَمَاءُ: إِنْ كُنْتُ حَاكِماً تَشْتَقُّ مَنْ يُخَالِفُكَ فِي الرَّأْيِ، فَلَيْسَ فِي رَأْسِكَ إِلَّا عَقْلٌ أَسْمُهُ الْخَبْلُ؛ وَإِنْ كُنْتُ تَقْتُلُ مَنْ يُنْكَرُ عَلَيْكَ الْخَطَأَ، فَلَيْسَ لَكَ إِلَّا عَقْلٌ أَسْمُهُ الْحَدِيدُ؛ وَإِنْ كُنْتُ تَخْبِسُ مَنْ يُعَارِضُكَ بِالنَّظَرِ، فَفِيكَ عَقْلٌ أَسْمُهُ الْجِدَارُ؛ أَمَّا إِنْ كُنْتَ تُنَاطِرُ^(٢) وَتُجَادِلُ، وَتَقْنَعُ وَتَقْتَنَعُ، وَتَدْعُو النَّاسَ عَلَى بَصِيرَةٍ وَلَا تَأْخُذْهُمْ بِالْعَمَى - فَفِيكَ الْعَقْلُ الَّذِي أَسْمُهُ الْعَقْلُ.

قَالَ كَلِيلَةُ: وَأَنَا يَا دِمْنَةَ، فَلَوْ كُنْتُ قَائِداً مُطَاعاً، وَأَمِيراً مُتَّبِعاً، لَا يُعْصَى لِي أَمْرٌ، وَلَا يُرَدُّ عَلَيَّ رَأْيٌ، وَلَا يُنْكَرُ مِنِّي مَا يُنْكَرُ مِنَ الْمَخْلُوقِ إِذَا أَخْطَأَ، وَلَا يُقَالُ لِي دَائِماً إِلَّا إِحْدَى الْكَلِمَتَيْنِ: أَصَبْتُ، ثُمَّ هِيَ دَائِماً أَصَبْتُ؛ وَلَا يُلْقَانِي أَحَدٌ مِنْ قَوْمِي بِالْكَلِمَةِ الْآخَرَى، زُهْبَةً مِنْ سَخَطِي^(٣)، زُهْبَةً الْجُبْنَاءِ، أَوْ رَغْبَةً فِي رِضَائِي رَغْبَةً الْمُنَافِقِينَ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ قَدْ صَحَّحَتْ بَيِّنَاتُهُمْ وَخَلَصَ لِي بِاطْنُهُمْ جَمِيعاً - فَلَوْ كُنْتُ وَكَانُوا عَلَى هَذَا، لَأَحَالَنِي نَقْصُهُمْ إِلَى نَقْصِ الْعَقْلِ بَعْدَ كَمَالِهِ، وَرَدَّئَنِي فُسُولَتُهُمْ إِلَى فُسُولَةِ الرَّأْيِ بَعْدَ جَوْدِيَّةِ، فَأَخْلِقُ^(٤) بِي أَنْ أُعْتَبَرَ وَضَعَهُمْ إِيَّايَ فِي مَوْضِعِ الْأَلْهَةِ، هُوَ إِنْزَالُهُمْ إِيَّايَ فِي مَنَزَلَةِ الْأَشْيَاطِينِ؛ وَإِلَّا كُنْتُ حَقِيقاً أَنْ يُقْصِبَنِي مَا أَصَابَ الْغَنَرُ أَكْتَى زَعَمُوا لَهَا أَنَّهَا أَثْنَى الْفِيلِ...

قَالَ دِمْنَةَ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي إِحْدَى خَرَائِبِ آلِ هِنْدٍ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعِظَاءِ^(٥)، وَكَانَ

(١) يجاهر: يعلن على الملأ من الناس.

(٢) تناظر: تجادل وتجادل.

(٣) سخطي: غضيبي.

(٤) أخلق بي: أجدر بي.

(٥) العظاء، مفردة عطاءة وعطاءية، وهي السحلية.

فيها عَضْرُ فُوطٌ كبير^(١)، فمَلَكْتُهُ الْجَمَاعَةُ وَذَهَبَتْ تَأْتِمِرُ^(٢) عَلَى أَمْرِهِ وَتَنْتَهِي. فَمَرَّ
 بِهِذِهِ الْخِرْبَةُ فِيلٌ جَسِيمٌ مِنَ الْفَيْلَةِ الْهِنْدِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، لَمْ يُحِشْ بِالْعِظَاءِ، وَلَمْ يُمَيِّزْ فَرْقاً
 بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَةِ مِنَ الْحَشَرَاتِ وَبَيْنَ الْحَصَى مَنْثُوراً يَلْتَمِعُ فِي الْأَرْضِ هُنَا وَهُنَا؛ قَالُوا
 فَغَضِبَ الْعَضْرُفُوطُ، وَكَانَ قَائِداً عَظِيماً، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الْفَيْلِ يَنْظُرُ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي
 مُدَافَعَتِهِ^(٣)، وَكَيْفَ يَحْتَالُ فِي هَلَاكِهِ، فَرَأَهُ لَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا بِأَقْدَامِهِ يَنْقُلُهَا وَاحِدَةً
 وَاحِدَةً؛ فَقَدَّرَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ أَزَالَ قَدَمَ الْفَيْلِ عَنِ الْأَرْضِ زَالَ الْفَيْلُ نَفْسُهُ؛ فَجَاءَ
 فَأَعْتَرَضَ الطَّرِيقَ، وَدَبَّ دَبِّيهِ؛ فَلَمَّا رَفَعَ الْفَيْلُ قَدَمَهُ أَهْتَبَلَ^(٤) هَذِهِ الْعَقْلَةَ مِنْهُ.
 وَأَنْدَسَ^(٥) تَحْتَهَا، فَأَنْدَسَ مَقْبُوراً فِي التُّرَابِ!

ثُمَّ إِنَّ الْعِظَاءَ أَفْتَقَدَتْ أَمِيرَهَا. فَلَمَّا مَضَى الْفَيْلُ لِسَبِيلِهِ وَرَأَتْ مَا نَزَلَ بِهَا،
 نَفَرَتْ إِلَى أَجْحَارِهَا^(٦)، وَأَسْتَكْنَتْ^(٧) فِيهَا تَرْتَقِبُ وَتَتَرَبَّصُ^(٨)، فَدَخَلَتْ إِلَى الْخِرْبَةِ
 غَضْرُ جَعَلَتْ تَتَغَمَّمُ مِنْهَا وَتَرْتَعُ فِيهَا، وَرَأَتْهَا الْعِظَاءُ فَاجْتَمَعْنَ يَأْتِمِرْنَ^(٩)
 فَقَالَ مِنْهَا قَائِلٌ: هَذِهِ أَتْنَى الْفَيْلِ. فَسَأَلَتْ عِظَايَةَ مِنْهِنَّ: وَأَيْنَ الْكُنَابَانِ
 الْعَظِيمَانِ؟

قَالَتْ الْأُولَى: إِنَّ الْإِنَاثَ دُونَ الذَّكَوْرَةِ فِي خَلْقِهَا، وَالْأُنْثَى هِيَ الذَّكَوْرُ مَقْلُوباً
 أَوْ مَخْتَصِراً أَوْ مَشْوْهاً، وَلِذَلِكَ هُنَّ يَقْلِبْنَ الْحَيَاةَ أَوْ يَخْتَصِرْنَهَا أَوْ يَشَوِّهْنَهَا، أَفَلَا
 تَرَيْنَ الْكُنَابَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ الْبَارِزَيْنِ فِي ذَلِكَ الْفَيْلِ الْجَسِيمِ، كَيْفَ نَبَتَا صَغِيرَيْنِ مُنْقَلِبَيْنِ
 فَوْقَ رَأْسِ أَثْنَاءِ...؟

فَقَالَتْ وَاحِدَةٌ: إِنَّ جَارَ قَوْلِكَ فِي الرَّأْيِ فَأَيْنَ الْخُرْطُومُ؟
 قَالَتْ الْأُخْرَى: هُوَ هَذِهِ الزُّنْمَةُ الْمُتَدَلِّيَةُ مِنْ حَلْقِهَا، وَذَلِكَ خُرْطُومٌ عَلَى قَدَرِ
 أَنْوَةِ الْأُنْثَى. !

قَالُوا: ثُمَّ اجْتَمَعَ رَأْيُهُنَّ عَلَى أَنَّ يُمَلَكْنَ أَتْنَى الْفَيْلِ هَذِهِ؛ وَأَنَّ يَهْبَنَ لَهَا الْخِرْبَةُ
 وَأُمَّتَهَا. وَسَمِعَتِ الْمَاعِزَةُ كَلَامَهُنَّ فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا: لَا جَرَمَ أَنَّ تَكُونُ الْعَنْزُ فَيْلَةً فِي
 أُمَةٍ مِنَ الْعِظَاءِ، فَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ لَا كَبِيرَ إِلَّا بِصَغِيرٍ، وَلَا قَوِيَّ إِلَّا بِضَعِيفٍ،

(١) العَضْرُفُوطُ هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْعِظَاءِ يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهَا.

(٢) تَأْتِمِرُ: تَنْصَاعُ لِأَمْرِهِ.

(٣) مُدَافَعَتُهُ إِبْعَادُهُ بِالْحِيلَةِ.

(٤) أَهْتَبَلَ: انْتَهَزَ.

(٥) أَنْدَسَ: دَخَلَ خِلْسَةً.

(٦) أَجْحَارُهَا: أَوْكَارُهَا.

(٧) اسْتَكْنَتْ: كَمَنْتِ.

(٨) تَتَرَبَّصُ: تَنْتَظِرُ غَفْلَةً.

(٩) يَأْتِمِرْنَ: يَتَنَاقَشْنَ.

ولا طاغية إلا بذليل؛ وإنَّ العظمة إنَّ هي إلا شهادة الحقارة على نفسها، وإنَّه ربُّ عظيم طاغية متجبرٍ ما قام في الناس إلا كما تقوم الجيلة، ولا عاش إلا كما يعيش الكذب، ولا حكم إلا كما يحكم الخداع. وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحده، فمتى جاءت إليه فقد جاءت، ولو أنها أدبرت^(١) عنه من ناحية لرجعت من ناحية أخرى، ليثبت الحظُّ أنه الحظُّ.

وتقدّم العطاء إلى العثر، فقلن لها: أيُّها الفيلة العظيمة، إنَّ قريتك العظيم قد مسَّ أميرنا العُضْرُفوطُ بقدميه فغيَّبه تحت سنبِ أرضين، وأنت أنشأه وسيِّدته، فقد اخترناكِ ملكة علينا، وهبنا لك الخبرة وما فيها.

قالت العثر: فإنِّي أنهب منكنَّ هذه الهبة، ويجمعنا صنتعنن؛ غير أنَّ بينكن وبيننا ما بين العظاية والفيل. وما بين الحصاة والجبل، فإذا أنا قلت، فإنا قلت؛ وإذا أنا أمرت، فإنا أمرت؛ وإذا أنا فعلت، فإنا فعلت. هنا في هذه الأمة كلها (أنا) واحدة ليس معها غيرها؛ لأنَّ ههنا في هذا الرأس دماغ فيلة، وفي هذا الجسم قوة فيلة، وفي الخبرة كلها فيلة واحدة؛ فلا أغرفن منكنَّ على الصواب والخطأ إلا الطاعة طاعة الأعمى للبصير. ألا وإنَّ أول الحقائق أنِّي فيلة وأنكنَّ عطاء؛ ومتى بدأ اليقين من هنا سقط الخلاف من بيننا وبطل الاعتراض منكنَّ، وقوتي حقُّ لأنها قوة، وباطلي كذلك حقُّ لأنه من قوتي؛ وقد قال أسلافنا^(٢) حكماء الفيلة: إنَّ القوي بين الضعفاء مشيئة مطلقة، فهو مُضِلُّح حتى بالافساد، حكيم حتى بالحماقة، إمام حتى بالحرافة، عالم حتى بالجهالة نبي حتى بالشعوذة...!

قالوا: وتُنكِرُ عليها عظاية صالحة عالمة كانت ذات رأي ودين في قومها، وكُنَّ يُسميَّنها: (الإمامة)، لبياضها وصلاحتها وطهارتها، فقالت: ولا كلُّ هذا أيُّها الفيلة؛ لقد تحرَّضتِ^(٣) غير الحق؛ فإنك تحكيمننا من أجلنا لا من أجلك، وما قولك إلا كلمات تحقُّقها أعمالنا نحن؛ فللك الطاعة فيما يضلِّحنا، وما كان من غيره فهو ردُّ عليك، ورأيك شيء ينبغي أن تكون معه آراؤنا، لتتبيَّن الأسباب أسباب الموافقة والمخالفة، فناخذ عن بيِّنة وترك عن بيِّنة؛ وقد كان يقال في قديم الحكمة: إنَّه يجب على من يقدِّم رأياً للأمة الحازمة كي تأخذ به، أو يضغ لها شرعاً ليحملها عليه، أو يسن لها سنة لتتبعها - إنَّه يجب على هذا المتقدم لتحويل

(٣) تحرَّضت: تقولت.

(٢) أسلافنا: أجدادنا.

(١) أدبرت: رحلت.

الْأُمَّةُ أَوْ تَحْرِيرِهَا يَتَقَدَّمُ لِأَهْلِ الثُّورَى فِي رَأْسِهِ الرَّأْيُ، وَفِي عَتَقِهِ حَبْلٌ؛ ثُمَّ يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ وَيَسْطُطُهُ وَيَذْفَعُ عَنْهُ، وَيُجَادِلُهُمْ وَيُجَادِلُونَهُ؛ فَإِنْ كَانَ الرَّأْيُ حَقًّا أَخَذُوا الرَّأْيَ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا أَخَذُوا الْحَبْلَ فَشَنَقُوا فِيهِ هَذَا الْمَتَهَوْرَ.

وَفِي دِينِنَا أَنْ الطَّاعَةَ فِي الْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ أُخْرَى؛ وَلَقَدْ كَانَ لَنَا عَضْرُفُوطٌ بِحَاشَةِ فِي الْأَدْيَانِ دَرَّاسَةٌ لِكِتَابِهَا عَلَامَةٌ نَقَّابٌ؛ فَكَانَ مِمَّا عَلَّمْنَا: أَنَّ الْمَخْلُوقَ مَبْنِيٌّ عَلَى النِّقْصِ إِذْ هُوَ مَاضٍ إِلَى الْفَنَاءِ، فَيَجِبُ أَلَّا يَتَمَّ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا بِمَقْدَارٍ، وَأَلَّا تَكُونَ الْقُوَّةُ فِيهِ إِلَّا بِمَقْدَارٍ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْعَقْلُ أَلْتَامٌ فِي الْأَرْضِ هُوَ مَجْمُوعُ الْعُقُولِ الْعَظِيمَةِ كُلِّهَا، وَكَانَ أَتَمُّ الْأَرَاءِ وَأَصَحُّهَا مَا أُثْبِتَ الْأَرَاءُ نَفْسُهَا أَنَّهُ أَصَحُّهَا وَأَتَمُّهَا. فَلَا أَلْدِينَ أَتَبَغْتِ أَتَيْهَا أَلْفِيلَةً، وَلَا أَتَبَغْتِ أَلْعَقْلَ، وَلَيْسَ إِلَّا هَذَا (التَّفْصِيلُ) أَلْكَاذِبُ.

فَلَمَّا سَمِعَتْ أَلْعَنْزُ ذَلِكَ تَنْقَشَتْ وَغَضِبَتْ، وَقَالَتْ: إِيَّاكُمْ وَهَذِهِ التَّرَهَاتُ مِنْ أَلْسَنَتِكُمْ، وَهَذِهِ الْأَبَاطِيلُ فِي عَقُولِكُمْ؛ لَا أَسْمَعَنَّ مِنْكُمْ كَلِمَةً أَلْدِينَ وَلَا كَلِمَةً الْأَنْبِيَاءِ وَلَا الْعَضَافِيطِ... فَذَلِكَ وَحْيِي غَيْرُ وَحْيِي أَنَا؛ وَإِذَا كَانَ غَيْرُ وَحْيِي أَنَا فَأَنَا لَسْتُ فِيهِ، وَإِذَا لَمْ أَكُنْ أَنَا فِيهِ فَهُوَ لَا يَضْلُحُ لِلْحُكْمِ الَّذِي شَرَطُهُ أَنَّ الدَّوْلَةَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا أَنَا وَاحِدَةً. وَذَلِكَ إِنْ لَمْ يَجْعَلْكُمْ غُرَبَاءَ عَنِّي جَعَلَنِي غُرَبِيَّةً عَنْكُمْ، مَا بُدَّ مِنْ إِحْدَى الْغُرَبَتَيْنِ، فَهُوَ أَوَّلُ أَلْقَطِيعَةٍ، وَالْقَطِيعَةُ أَوَّلُ أَلْفَسَادٍ. وَمَا دَامَ فِي أَلْدِينَ أَمْرٌ غَيْرُ أَمْرِي، وَنَهْيٌ غَيْرُ نَهْيِي، وَتَحْلِيلٌ وَتَحْرِيمٌ لَا يَتَغَيَّرَانِ عَلَى مَشِيتِي - فَأَنَا مَجْنُونَةٌ إِنْ رَضِيتُ لَكُمْ هَذَا...!

فَضَحِكَتِ (الْعِمَامَةُ) وَقَالَتْ لِلْمَاعِزَةِ: بَلْ قُولِي: أَنَا مَجْنُونَةٌ بِـ (أَنَا)؛ أَفَلَا يَجُوزُ وَأَنْتِ خَلَقْتَ مِنْ أَلْخَلْقِ أَنْ يَغْتَرِيَّ عَقْلَكَ شَيْءٌ مِمَّا يَعْتَرِي الْعُقُولَ؟ وَلَسْنَا نُنْكِرُ أَنَّكَ قُوَّةُ الرَّأْيِ فِي نَاحِيَةِ الْقُوَّةِ، حَسَنَةُ التَّدْبِيرِ فِي نَاحِيَةِ الشَّجَاعَةِ، مُتَجَاوِزَةُ الْمِقْدَارِ فِي نَاحِيَةِ الْحَزْمِ وَالْجِرْصِ عَلَى مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ؛ وَلَكِنْ أَلَمْ يَقُلِ الْحُكَمَاءُ: إِنَّ الزِّيَادَةَ أَلْمُسْرِفَةَ فِي جِهَةٍ مِنَ الْعَقْلِ، تَأْتِي مِنَ النِّقْصِ أَلْمَتَحَيِّفِ^(١) لِيَجْهَةً أُخْرَى؛ وَإِنَّهُ رُبُّ عَقْلٍ كَانَ تَامًا غَبَقْرِيًّا فِي أُمُورٍ، لِكِنَّهُ ضَعِيفٌ أَيْلَهُ فِي غَيْرِهَا؛ يُحَسِّنُ فِي تِلْكَ مَا لَا يُحَسِّنُهُ أَحَدٌ، وَيُحَكِّمُ مِنْهَا مَا لَا يُحَكِّمُهُ أَحَدٌ، ثُمَّ يَغْلُطُ فِي الْأُخْرَى مَا لَا يَغْلُطُ أَحَدٌ فِيهِ؟

قَالُوا: فَجَاشَتْ^(٢) أَلْعَنْزُ وَفَارَتْ مِنَ أَلْغَضَبِ قُوَّةِ الْجَبَّارِ، وَخُيِّلَ إِلَيْهَا مِنْ

(٢) جَاشَتْ: اسْتَشَاطَتْ غَضَبًا.

(١) أَلْمَتَحَيِّفُ: أَلْجَائِرُ، أَلْظَالِمُ.

عَمَى الْغَيْظِ أَنَّهَا ذَهَبَتْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَأَنْ زَنَمَتْهَا أَمْتَدَّ مِنْهَا خُرطومُ طَوِيلٍ،
وَأَنْ قَرْنِيهَا أَتْبَعَ مِنْهُمَا نَابَانِ عَظِيمَانِ؛ وَقَالَتْ: وَيَحْكُمُ! خذوا هذه (الْعِمَامَةَ)
فَأَسْتَقْرِوها، فَإِنَّهَا كَمَا قَالَتْ؛ تَقْدَمْتُ إِلَيْنَا بِالرَّأْيِ وَالْحُلِّ...!

وَكَانَ فِي الْعِظَاءِ ضِعَافٌ وَمَهَازِيلُ وَجُيْنَاءُ، وَمَأْكُولُونَ لِكُلِّ أَكَلٍ؛ فَتَشَبَّحَ^(١)
لَهُمْ أَنْ أَنْشَى الْفِيلُ هَذِهِ. سَتَخَلَّفُهُمْ فَيْلَةٌ إِنْ هُمْ أَطَاعَوْهَا؛ إِذَا مَرَدُّوا^(٢) عَلَيْهَا
فَإِنَّهَا مِنْ صِرَامَةِ الْبَاسِ بِحَيْثُ تَجْعَلُ كُلَّ ظِلْفٍ مِنْ أَظْلَافِهَا جِبَلًا فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ
فَتَسْوِجُ بِهِمُ الْأَرْضَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ انْخَزَلُوا وَتَرَاجَعُوا، وَأَخَذَتِ (الْعِمَامَةُ) الصَّالِحَةَ
فَشَنِقَتْ، وَحَمَدَ الرَّأْيِ مِنْ بَعْدِهَا، وَانْقَطَعَ الْخِلَافُ وَالذِّينُ وَالْعَقْلُ الْحَزْ...؛
وَأَقْبَلَتْ دَوْلَةُ الْعِظَاءِ عَلَى الْعِزِّ تُجَزُّ أَذْيَالُهَا.

قَالُوا: وَاعْتَرَّتِ الْمَاعِزَةُ وَأَحْسَتْ لَهَا وَجُودًا لَمْ يَكُنْ، وَعَرَفَتْ لِنَفْسِهَا وَهِيَ
مَاعِزَةٌ نَبَاةٌ شَأْنِ الْفِيلِ الْقَوِيِّ، فَلَجَّتْ^(٣) فِي عِمَائِيتِهَا وَكَفَرَتْ بِجَنَسِهَا، وَقَالَتْ: لَمْ
يَخْلُقْنِي اللَّهُ فَيْلَةً وَخَلَقْتُ نَفْسِي؛ فَأَنَا لَا هُوَ.

وَبَيَّتْ عِنْدَهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ بِعِزٍّ وَإِنْ أَشْبَهَتْهَا كُلُّ عِزٍّ فِي الدُّنْيَا؛ وَذَهَبَتْ تُقَلِّدُ
وَتَعِيشُ عَلَى مَذَاهِبِ الْفَيْلَةِ بَيْنَ الْعِظَاءِ؛ إِذَا مَشَتْ أَرْتَجَّتْ وَتَخَطَّرَتْ كَأَنَّهَا بِنَاءُ
يَتَقَلَّقُ، وَإِذَا اضْطَجَعَتْ أَنْدَرَتْ الْأَرْضُ أَنْ تَتَمَسَّكَ لَا تَذْكُهَا بِجَنَسِهَا...!

وَمَرَّ ذَلِكَ الْفِيلُ بِهَذَا الْخَرَابِ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَاذَتْ الْعِظَاءُ كُلُّهُنَّ بِالْفَيْلَةِ...
وَتَاهَبَتْ هَذِهِ لِلْمِقَاتِ، وَتَحَصَّصَتْ فِي الْمُبَارَزَةِ وَالْمَنَاجِزَةِ... (وَالْمَعَانِزَةِ) فَتَضَبَّتْ
قَرْنِيهَا، وَحَرَكَتْ زَنَمَتَهَا، وَطَاطَأَتْ، وَشَدَّتْ أَظْلَافَهَا فِي الْأَرْضِ، وَثَبَّتْ قَوَائِمَهَا،
وَصَلَبَتْ عِظَامَهَا، وَنَفَسَتْ شَعْرَهَا، وَتَشَوَّكَتْ^(٤) كَالْقَنْفِذِ، وَأَصْرَتْ بِكُلِّ ذَلِكَ
إِصْرَارَهَا، وَكَانَتْ عِزًّا نَاطِيحَةً مِنْذُ كَانَتْ تُتَّبَعُ أَهْمُهَا وَتَتْلُوهَا، فَكَيْفَ بِهَا وَقَدْ
تَفَلَّتْ...؟

ثُمَّ إِنَّهَا ثَبَّتَتْ فِي طَرِيقِ الْفِيلِ لِيَرَى بَعِينِيهِ هَذَا الْهَوْلَ الْهَائِلَ. فَأَقْبَلَ فَمَدَّ
خُرطومَهُ، فَنَالَهَا بِهِ، فَلَفَّهَا فِيهِ، فَقَبَضَهُ، فَرَفَعَهُ، فَطَوَّحَهَا^(٥)، فَكَأَنَّمَا ذَهَبَتْ فِي
السَّمَاءِ...!

(١) تشبَّح: خيل إليهم أنه شبح.

(٢) مردوا: تمردوا.

(٣) لجَّت: تبادت.

(٤) تشوَّكت: أظهرت في جلدها ما يشبه الشوك.

(٥) طَوَّح: تحرك ذات اليمين وذات اليسار.

وتَهَارَبَتِ الْعِظَاءُ وَلِذَنْ^(١) بِأُجْحَارِهِنَّ، ثُمَّ عَدَوْنَ عَلَى رِقَبِهِنَّ؛ فَإِذَا جِيفَةُ الْعَنْزِ
غَيْرَ، بَعِيدَ، فَذَبَبْنَ عَلَيْهَا وَأَرْتَعَيْنَ فِيهَا، وَعَلِمْنَ أَنَّهَا كَانَتْ مَاعِزَةً فَيَلَّهَا جُنُوثُهَا،
وَأَدْرَكْنَ أَنَّ الْكَذِبَ عَلَى الْحَقَّائِقِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ حَقَائِقَ أُخْرَى تَقْتُلُهُ، وَأَنَّ مَنْ غَلَبَ
أَمَّةَ الْعِظَاءِ عَلَى أَمْرِهَا فَلَيْسَتْ أَلْيَامٌ وَاللَّيَالِي عِظَاءٌ فَيَغْلِبُهَا؛ وَأَنَّ تَغْيِيرَ الْمَخْلُوقَاتِ،
إِنَّمَا يَكُونُ بِتَحْوِيلِ بَاطِنِهَا لَا بِتَحْوِيلِ ظَاهِرِهَا، وَأَنَّ الْإِنَاءَ الْأَحْمَرَ يُرِيكَ الْمَاءَ مُحْمَرًا
وَالْمَاءَ فِي نَفْسِهِ لَا خُمْرَةً فِيهِ، حَتَّى إِذَا انْكَسَرَ الْإِنَاءُ ظَهَرَ كَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ؛ وَكُلُّ مَا
يُخْفِي الْحَقُّ هُوَ كَهَذَا الْإِنَاءِ: لَوْ عَلَى الْحَقِّ لَا فِيهِ؛ ثُمَّ أَيْقَنَ أَنَّ مُحَاوَلَةَ إِخْرَاجِ أَمَّةٍ
كَامِلَةٍ مِنْ نَزْعَاتِ مَاعِزَةٍ مَأْفُونَةٍ^(٢)، هِيَ كَمُحَاوَلَةِ اسْتِيلَادِ أَقْيَلٍ مِنَ الْمَاعِزَةِ...!



قَالَ كَلِيلَةُ: وَأَعْلَمَ يَا دِمْنَةُ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْعَنْزَ الْحَمَقَاءَ قَدْ كَفَرَتْ كُفْرَ
الذَّبَابَةِ، لَمَا أَخَذَهَا اللَّهُ أَخْذَ الذَّبَابَةِ.

قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ: زَعَمُوا أَنَّ ذِبَابَةَ سُودَاءَ كَانَتْ مِنْ حَقَمَى الذَّبَّانِ، فَدَرَّتِ الْحَمَاقَةُ عَلَيْهَا
أَبَدِيَّةً، فَلَوْ أَنْقَلَبَتْ نَقْطَةً حَبْرٍ فِي دَوَاةٍ لَمَا كُتِبَتْ بِهَا إِلَّا كَلِمَةُ سُخْفٍ.

وَوَقَعَتْ هَذِهِ الذَّبَابَةُ عَلَى وَجْهِ أَمْرَأَةٍ رَنْجِيَّةٍ ضَخْمَةٍ، فَجَعَلَتْ تُقَابِلُ بَيْنَ نَفْسِهَا
وَبَيْنَ الْمَرَأَةِ؛ وَقَالَتْ: إِنَّ هَذَا لَمِنْ أَدْلُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ فَوْضَى لَا نِظَامَ فِيهِ، وَأَنَّهُ
مُرْسَلٌ كَيْفَ يَتَّقَى عَلَى مَا يَتَّقَى، عَبَثًا^(٣) فِي عَيْثٍ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدْ كَذَّبُوا النَّاسَ،
إِذْ كَيْفَ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ خَلْقِي (أَنَا) وَخَلَقْتُ هَذِهِ الذَّبَابَةَ الضَّخْمَةَ الَّتِي أَنَا فَوْقَهَا...؟

ثُمَّ نَظَرَتْ لَيْلَةً فِي السَّمَاءِ، فَأَبْصَرَتْ نَجُومَهَا يَتَلَأَلُ وَبَيْنَهَا الْقَمَرَ؛ فَقَالَتْ:
وَهَذَا دَلِيلٌ آخَرُ عَلَى مَا تَحَقَّقَ عِنْدِي مِنْ فَوْضَى الْعَالَمِ، وَكَذِبِ الْأَدْيَانِ، وَعَبَثِ
الْمُصَادَفَاتِ؛ فَمَا الْإِيمَانُ بَعِيْنِهِ إِلَّا الْإِلْهَادُ بِعَيْنِهِ، وَوَضْعُ الْعَقْلِ فِي شَيْءٍ هُوَ إِيجَادُ
الْأُلُوهِيَّةِ فِيهِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ وَضْعِي (أَنَا فِي الْأَرْضِ وَرَفَعُ هَذَا
الذَّبَّانِ الْأَبْيَضِ وَغُسُوبِهِ^(٤) الْكَبِيرِ إِلَى السَّمَاءِ...؟

(١) لَذَنْ: لَجَان.

(٢) مَأْفُونَةٌ، الْمَتَمَذَّحَةُ بِمَا لَيْسَ عِنْدَهَا، ذَاتُ الرَّأْيِ الضَّعِيفِ.

(٣) عَبَثًا: لَعْبًا.

(٤) الْيَعْسُوبُ: أَمِيرُ الذَّبَابِ وَالتَّحْلِ وَنَحْوِهَا.

ثُمَّ إِنَّهَا وَقَعَتْ فِي دَارِ فَلَاحٍ، فَجَعَلَتْ تَمُورٌ^(١) فِيهَا ذَهَابًا وَجِئَةً، حَتَّى رَجَعَتْ بِقَرَّةِ الْفَلَاحِ مِنْ مَرَعَاهَا، فَبُهَّتَ^(٢) الذَّبَابُ وَجَمَدَتْ عَلَى غُرَّتِهَا^(٣) مِنْ أَوَّلِ الْبَهَارِ إِلَى آخِرِهِ، كَأَنَّهَا تَزَاوِلُ عَمَلًا؛ فَلَمَّا أَمْسَتْ قَالَتْ: وَهَذَا دَلِيلٌ أَكْبَرُ الدَّلِيلِ عَلَى فَوْضَى الْأَرْزَاقِ فِي الدُّنْيَا، فَهَاتَانِ ذَابَتَانِ قَدْ ثَقَبَتَا ثُقُبَيْنِ فِي وَجْهِ هَذِهِ الْبَقْرِ... وَأَكْتَنَّا فِيهِمَا تَاكِلَانِ مِنْ شَحْمِهَا فَتَعْظَمَانِ سِمْنًا؛ وَالنَّاسُ مِنْ جَهْلِهِمْ بِالْعِلْمِ الذَّبَابِيِّ يَسْمُونَهَا عَيْنِينَ. وَأَنَا قَضَيْتُ أَلْيَوْمَ كُلَّهُ أَخْمِشُ وَأَعْضُ وَالسَّعْ لِأَثْقَبَ لِي ثَقْبًا مِثْلَهُمَا فَمَا أَنْتَزَعْتُ شَعْرَةً؛ فَهَلْ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ رَزْقِي (أَنَا) وَرَزْقُ هَاتَيْنِ الذَّبَابَتَيْنِ فِي وَجْهِ الْبَقْرَةِ...؟

ثُمَّ إِنَّهَا رَأَتْ خُنْفَسَاءَ تَدِبُ دِيبِيهَا فِي الْأُرَاثِ^(٤) وَالْأَقْدَارِ؛ فَظَنَرَتْ إِلَيْهَا وَقَالَتْ: هَذِهِ لَا تَصْلُحُ دَلِيلًا عَلَى الْكُفْرِ؛ فَإِنِّي (أَنَا) خَيْرٌ مِنْهَا؛ (أَنَا) لِي أَجْنَحَةٌ وَلَيْسَ لَهَا، (وَأَنَا) خَفِيفَةٌ وَهِيَ ثَقِيلَةٌ؛ وَمَا كَأَنَّهَا إِلَّا ذَبَابَةٌ قَدِيمَةٌ مِنْ ذُبَابِ الْقُرُونِ الْأُولَى، ذَلِكَ الَّذِي كَانَ بَلِيدًا لَا يَتَحَرَّكُ فَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ الْحَرَكَةَ جَنَاحًا. ثُمَّ إِنَّهَا أَضْعَتْ فَسَمِعَتْ الْخُنْفَسَاءَ تَقُولُ لِأُخْرَى وَهِيَ تُحَاوِرُهَا: إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَخْلُوقُ أَنَّهُ كَمَا يَشْتَهِي فَلْيَكْفُرْ كَمَا يَشْتَهِي؛ يَا وَيْحَنَا! لِمَ لَمْ نَكُنْ جَاموسًا كَهَذَا الْجَامُوسِ الْعَظِيمِ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فَرْقٌ إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَتَفَحَّهُ وَلَمْ نَجِدْ...؟

فَقَالَتْ الذَّبَابَةُ: إِنَّ هَذَا دَلِيلُ الْعَقْلِ فِي هَذِهِ الْعَاقِلَةِ، وَلَعَمْرِي إِنَّهَا لَا تَمْشِي مُتَأَقِّلَةً مِنْ أَنَّهَا بَطِيشَةٌ مُرَفَّقَةٌ بِعَجْزِهَا، وَلَكِنْ مِنْ أَنَّهَا وَقُورٌ مُثْقَلَةٌ بِأَفْكَارِهَا، وَهِيَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنِّي (أَنَا) الْأَسَابِقَةُ إِلَى كَشْفِ الْحَقِيقَةِ...!

وَجَعَلَتْ الذَّبَابَةُ لَا يُسْمَعُ مِنْ دُنْدَنْيَهِهَا إِلَّا، أَنَا، أَنَا، أَنَا... مِنْ كُفْرِ إِلَى كُفْرٍ غَيْرِهِ، إِلَى كُفْرٍ غَيْرِهِمَا؛ حَتَّى كَأَنَّ السَّمَاوَاتِ كُلَّهَا أَصْبَحَتْ فِي مَعْرَكَةٍ مَعَ ذَبَابَةٍ...

ثُمَّ جَاءَتْ الْحَقِيقَةُ إِلَى هَذَا الْإِلْحَادِ الْأَحْمَقِ تَسْعَى سَعْيَهَا؛ فَبَيْنَا الذَّبَابَةُ عَلَى وَجْهِ حَائِطٍ، وَقَدْ أَكَلَتْ بِعَوْضَةً أَوْ بِعَوْضَتَيْنِ، وَأَعْجَبَتْهَا نَفْسُهَا، فَوَقَفَتْ تَحَكُّ ذِرَاعَهَا بِذِرَاعِهَا - دَنَتْ بَطَّةً صَغِيرَةً قَدْ أَنْفَلَقَتْ عَنْهَا الْبَيْضَةُ أَمْسَ، فَمَدَّتْ مِنْقَارَهَا، فَالْتَقَطَتْهَا.

وَلَمَّا أَنْطَبَقَ الْمِنْقَارُ عَلَيْهَا قَالَتْ: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَ الْبَطَّةَ...!

(١) تمور: تتحرك في كل اتجاه.

(٣) غرَّتْهَا: مفاجأتها.

(٢) بهتت: دهشت.

(٤) الأرواث: السواد والسماد.

يا شباب العرب!

يقولون: إن في شباب العرب شيخوخة ألهمهم والعزائم؛ فالشبان يمتدّون في حياة الأمم وهم ينكمشون.

وإنّ اللهو قد خفّ بهم حتى ثقلت عليهم حياة الجِدِّ، فأهملوا الممكنات فرجعت لهم كالمستحيلات.

وإنّ الهزل^(١) قد هوّن عليهم كلّ صعبة فآخضروها؛ فإذا هزءوا بالعدو في كلمة فكأنما هزموه في معركة...

وإنّ الشاب منهم يكون رجلاً تاماً، ورجولة جسمه تحتجّ على طفولة أعماله. ويقولون: إنّ الأمر العظيم عند شباب العرب ألا يحملوا أبداً تبعه^(٢) أمر عظيم.



ويزعون أنّ هذا الشباب قد تمّت آلافه بينه وبين أغلاله، فحياته حياة هذه الأغلال فيه.

وأنته أبرغ مقلد للغرب في الرذائل خاصّة؛ وبهذا جعله الغرب كالحيوان محصوراً في طعامه وشرابه، ولذاته.

ويزعمون أنّ الزجاجة من الخمر تعمل في هذا الشرق المسكين عمل جندي أجنبي فاتح...

ويتواصون بأنّ أول السياسة في استعباد أمم الشرق، أن يُترك لهم لاستقلال التأم في حرية الرذيلة...

ويقولون: إنّه لا بدّ في الشرق من آلتين للتخريب: قوة أوربا، ورذائل أوربا.



(٢) تبعه: مسؤولية.

(١) الهزل: اللب والمزاح.

يا شباب العرب! من غيركم يُكذَّب ما يقولونَ ويزعمونَ على هذا الشرقِ
المسكين؟

مَنْ غيرَ الشبابِ يضعُ القوَّةَ يازاءِ هذا الضعيفِ الذي وصفوه لتكونَ جواباً عليه؟
من غيركم يجعلُ النفوسَ قوانينَ صارمةً^(١)، تكونُ المادةُ الأولى فيها: قَدَرنا
لأننا أردنا؟

ألا إِنَّ المعركةَ بيننا وبينَ الاستعمارِ معركةٌ نفسيةٌ، إِنَّ لم يُقتَل فيها الهزلُ قُتِلَ
فيها الواجب!

وَالْحَقائِقُ الَّتِي بيننا وبينَ هذا الاستعمارِ إِنما يكونُ فيكم أنتم بحثُها التحليلي،
تُكذِّبُ أو تُصَدِّقُ.

الشبابُ هوَ القوَّةُ؛ فالشمسُ لا تملأُ النهارَ في آخرِهِ كما تملؤه في أولِهِ.
وفي الشبابِ نوعٌ مِنَ الحياةِ تَظهرُ كلمةُ الموتِ عندهُ كأنها أختُ كلمةِ النومِ.
ولِلشبابِ طبيعةٌ أولُ إدراكها الثقةُ بالبقاء، فأولُ صفاتها الإصرارُ على العزمِ.
وفي الشبابِ تُصنعُ كُلُّ شجرةٍ من أشجارِ الحياةِ أثمارها؛ وبعدَ ذلك لا تصنعُ
الأشجارُ كُلها إِلَّا خَشَباً...

يا شباب العرب! اجعلوا رسالتكم: إِما أَنْ يحيا الشرقُ عزيزاً، وإما أَنْ
تموتوا.

أُنقِذوا فضائلنا من ردائلِ هذه المدنيةِ الأوروبية، تُنقِذوا أَسْتِقْلالنا بعدَ ذلك،
وتنقِذوه بذلك.

إِنَّ هذا الشرقَ حينَ يدعو إليه الغربُ؛ «يدعو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ من نفعِهِ»
لِبَشَرِ المولى ولِبَشَرِ العَشيرِ.

لِبَشَرِ المولى إذا جاءَ بقوِّتهِ وقوانينِهِ، ولِبَشَرِ العَشيرِ إذا جاءَ بردائِلُهُ وأطعامِهِ.
أَيُّها الشرقيُّ! إِنَّ الدِّينارَ الأجنبيَّ فيه رِصاصةٌ مخبوءةٌ، وحقوقنا مقتولةٌ بهذه
الدنانيرِ.

(١) صارمة: حازمة.

أَيُّهَا الشَّرْقِيُّ! لَا يَقُولُ لَكَ الْأَجْنَبِيُّ إِلَّا مَا قَالَ الشَّيْطَانُ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ! لَمْ يَكُنِ الْعَسِيرُ يَغْسُرُ عَلَى أَسْلَافِكُمْ الْأَوَّلِينَ، كَأَنَّ فِي يَدِهِمْ مِفْتَاحَ مِنَ الْعُنَاصِرِ يَفْتَحُونَ بِهَا.

أَتُرِيدُونَ مَعْرِفَةَ السَّرِّ؟ السَّرُّ أَنَّهُمْ أَرْتَفَعُوا فَوْقَ ضَعْفِ الْمَخْلُوقِ، فَصَارُوا عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَالِقِ.

غَلَبُوا عَلَى الدُّنْيَا لَمَّا غَلَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَعْنَى الْفَقْرِ، وَمَعْنَى الْخَوْفِ، وَالْمَعْنَى الْأَرْضِي.

وَعَلَّمَهُمُ الْاِدِّينُ كَيْفَ يَعِيشُونَ بِاللَّذَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي وَضَعَتْ فِي كُلِّ قَلْبٍ عَظَمَتَهُ وَكِبْرِيَاءَهُ.

وَأَخْتَرَعَهُمُ الْإِيمَانُ أَخْتِرَاعًا نَفْسِيًّا، عَلَامَتُهُ الْمُسَجَّلَةُ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ: لَا يَذِلُّ.

حِينَ يَكُونُ الْفَقْرُ قِلَّةَ الْمَالِ، يَفْتَقِرُ أَكْثَرُ النَّاسِ، وَتَنْخِذِلُ^(١) الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةَ، وَتَهْلِكُ أَلْمَوَاهِبُ.

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ فَقْرُ الْعَمَلِ الطَّيِّبِ، يَسْتَطِيعُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَغْتَنِّي، وَتَنْبَعُثُ الْقُوَّةُ وَتَعْمَلُ كُلَّ مُوَهِّبَةٍ.

وَحِينَ يَكُونُ الْخَوْفُ مِنْ نَقْصِ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَالْآمِهَا، تَفْسُرُ كَلِمَةَ الْخَوْفِ مَائَةً رَذِيلَةٍ غَيْرِ الْخَوْفِ.

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ مِنْ نَقْصِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ وَعَذَابِهَا، تُصْبِحُ الْكَلِمَةُ قَانُونُ الْفَضَائِلِ أَجْمَعِ.

هَكَذَا أَخْتَرَعَ الْاِدِّينُ إِنْسَانَهُ الْكَبِيرَ النَّفْسِ الَّذِي لَا يُقَالُ فِيهِ: انْهَزَمَتْ نَفْسُهُ.

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ! كَانَتْ حِكْمَةُ الْعَرَبِ الَّتِي يَعْمَلُونَ عَلَيْهَا: أُطْلِبِ الْمَوْتَ تَوْهَبْ لَكَ الْحَيَاةَ.

(١) تَنْخِذِلُ: تَنْهَزِمُ.

وَأَنْفَسُ إِذَا لَمْ تَخْشَ الْمَوْتَ كَانَتْ غَرِيزَةُ الْكِفَاحِ أَوَّلَ غَرَائِزِهَا تَعْمَلُ .
وَلِلْكِفَاحِ غَرِيزَةٌ تَجْعَلُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا نَصْرًا ، إِذْ لَا تَكُونُ الْفِكْرَةُ مَعَهَا إِلَّا فِكْرَةٌ مُقَابِلَةٌ .

غَرِيزَةُ الْكِفَاحِ يَا شَبَابَ ، هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ الْأَسَدَ لَا يُسَمَّنُ كَمَا تَسَمَّنُ الْأَشَاءُ لِلذَّبْحِ .

وَإِذَا أَنْكَسَرَتْ يَوْمًا ، فَالْحَجَرُ الصُّلْدُ^(١) إِذَا تَرَضَّرَصَتْ^(٢) مِنْهُ قِطْعَةٌ كَانَتْ دَلِيلًا يَكْشِفُ لِلْعَيْنِ أَنَّ جَمِيعَهُ حَجَرٌ صَلْدٌ .

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! إِنَّ كَلِمَةَ (حَقِّي) لَا تَحْيَا فِي السِّيَاسَةِ إِلَّا إِذَا وَضَعَ قَائِلُهَا حَيَاتُهُ فِيهَا .

فَالْقُوَّةُ الْقُوَّةُ يَا شَبَابَ ! الْقُوَّةُ الَّتِي تَقْتُلُ أَوَّلَ مَا تَقْتُلُ فِكْرَةٌ أَلْتَرَفِ وَالتَّخَنُّثُ .

الْقُوَّةُ الْفَاضِلَةُ الْمَتَسَامِيَةُ الَّتِي تَضَعُ لِلْأَنْصَارِ فِي كَلِمَةٍ (نَعَمْ) مَعْنَى نَعَمْ .

الْقُوَّةُ الصَّارِمَةُ الْفَنَازَةُ الَّتِي تَضَعُ لِلْأَعْدَاءِ فِي كَلِمَةٍ (لَا) مَعْنَى لَا .

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ إَجْعَلُوا رِسَالَتَكُمْ : إِمَّا أَنْ يَحْيَا الشَّرْقُ عَزِيزًا ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتُوا .

(٢) تَرَضَّرَصَتْ : تَكَسَّرَتْ .

(١) الصلْد: الصلب، القاسي .

لؤ...!

رأيتني جالساً في مسرح هزلي بمدينة اسكندرية، كما يجلس القاضي في جريمة يحمل أهلها بين يديه أثامهم وأعمالهم، ويحمل هو عقله وحكمه. وقد ذهبت لأرى كيف يتساحف^(١) أهل هذه الصناعة؛ فكان حُكمي أن السخافة عندنا سخيفة جداً...

رأيتهم هناك ينقدون العيوب بما يُنشئ عيوباً جديدة، وينسبون بأيديهم سباحة ماهرة؛ ولكن على الأرض لا في البحر، وتكاد نظرتهم إلى الحقيقة الهزلية تكون عَمَى ظاهراً عَمَاهِي بِهِ حَقِيقَةُ هَزَلِيَّةٍ؛ ولا غاية لهم من هذا التمثيل إلا الرقاعة^(٢) والإسفاف والخَلْطُ والهديان، إذ كان هذا هو الأشبه بجمهورهم الذي يحضرهم، وكان هو الأقرب إلى تلك الطباع العامة البليدة التي اعتادت من تكلف الهزل ما جعلها هي في ذات نفسها هزلاً يُسخرُ منه. ولا أسخف من تكلف النكتة الباردة قد خلت من المعنى، إلا تكلف الضحك المصنوع يأتي في عقيبها كالبرهان على أن في هذه النكتة معنى.

فالفنُّ المضحك عند هؤلاء، إنما هو السخف الذي يُوافقون به الروح العامة الضئيلة الكاذبة المكذوب عليها، التي يبلغ من بلايتها أحياناً أن تضحك للنكتة قبل إلقائها، لفرط خفتها ورعونتها^(٣)، وطول ما تكلفت وأعتادت. فما ذلك الفنُّ إلا ما ترى من التخليط في الألفاظ، والتضريب^(٤) بين المعاني، وإيقاع الخلط في المعقولات؛ ثم لا ثم بعد هذا. فلا دقة في التأليف، ولا عمق في الفكرة، ولا سياسة في جمع النقائص، ولا نقاذ في أسرار النفس، ولا جد يُؤخذ من هزلية الحياة، ولا عظمة تُستخرج من صغائرها، ولا فلسفة تُعرف من حماقاتها.

(٣) الرعونة: التصرف بحماقة.

(٤) التضريب: التخليط.

(١) يتساحف: يدي ما به من حماقة.

(٢) الرقاعة: الحماقة.

والفرق بعيد بين ضحك هو صناعة ذهن لتحريك النفس، وشخذ الطبع،
وتصوير الحقيقة صورة أخرى، وبين ضحك هو صناعة ألباهة للهُو والعبث،
والمجانة لا غير.

وكان معي قريب من اذكاء الطلبة المتخصصين للآداب الإنجليزية، فلم نلبث
إلا يسيراً حتى جاء ثلاثة من ضباط الأسطول الإنجليزي، فجلسوا بحذائنا صفًا
تلوح عليهم مخايل الظفر، ولهم وقار البطولة، وفيهم أرواح الحرب؛ وهم يبدون
في ثيابهم البيض المطرأة^(١) كأنهم ثلاثة تُسور هبطت من الغمام إلى الأرض،
فلأعينها نظرات تدور هنا وهناك تُنكر وتُعرف.

وأعجني أن أراهم في هذا المكان الهزلي الممتلئ بالضعفاء، كأنهم ثلاث
حقائق بين الأغلاط، أو ثلاث أغلاط كبيرة... وكان أبداع ما أراه على هيئة
وجوههم وأسرته، تواضع هذا الاستعداد الحربي وتحوُّله إلى استعداد للسخرية..
ثم تأملتهم طويلاً؛ فإذا صرامة وشهامة، وسكينة ووداعة، وحسن سميت
وحلاوة هيئة في جلسة رزينة متوقفة، لا يُشبهها في حسن النفس التي تعرف معاني
القوة إلا وضع ثلاثة مدافع مضوية.

وجعلت أقلب عيني في الناس الموجودين وملامحهم وهيئاتهم، ثم أرجع
البصر إلى هؤلاء الثلاثة، فأرى المصري كالمقتنع بأنه محدود بمدينة أو قرية لا
يعرف لنفسه مكاناً في غيرهما، فهو من ثم لا يرحل ولا يغامر، ولا تتقاذفه الدنيا؛
وأرى الإنجليزي كالمقتنع بأن كل مكان في العالم ينتظره الإنجليزي..

وخيل إليّ - واللّه - أن رجلاً من هؤلاء الإنجليز الأقوياء المعتقدين
بأنفسهم^(٢) لا يهاجر من بلاده إلا ومعته نفسه وأستقلاله، وتاريخه وروح دولته،
وطبيعة أرضه؛ فهو مستيقن أن الله لا يرزقه رزقاً أي الرزق كان على ما يتفق، بل
رزقاً إنجليزياً: أي فيه كفايته.

ورأيت شيئاً عجيباً من الفرق بين طابع السلم على وجوه، وبين طابع الحرب
على وجوه أخرى؛ ففي تلك معاني السهولة والملاية والجرص على مادة الحياة،

(١) المطرأة: المكواة.

(٢) المعتقدين بأنفسهم: المعتزين، الواقفين من أنفسهم.

وفي هذه معاني العزم والمقاومة والحزص على مجد الحياة لا على ماديتها.

وتبينت أسلوبيين من الأساليب الاجتماعية: أحدهما في فرد قد بنى أمره على أن أمة تحمله، فهو يعيش بأضعف ما فيه: والآخر في فرد قد وضع الأمر على أنه هو يحمل أمة فلا يدع في نفسه قوة إلا ضاعفها.

وعرفت وجهين من وجوه التربية السياسية: أحدهما بالطنطنة، والتهويل والصراخ، واستعارة ألفاظ غير أواقع للواقع، وتحميل الألفاظ غير ما تحمل؛ والآخر بالهدوء الذي يفهم الحوادث، والكسر الذي يغلب الزمن، والعقيدة التي تفرض أعمالها العظيمة على صاحبها وتجعل أعظم أجره عليها أن يقوم بها.

وميزت بين أثرين من آثار الأرض في أهلها: أحدهما في المصري السمج الوادي الألوف الحي الذي هو كرم الطبيعة، والآخر في الإنجليزي العسير المغامر الثور الملح على الدنيا كأنه تफल الطبيعة...



والقى ابن العم الذي كان معي سمعة إلى هؤلاء الضباط، وهم من فلاسفة الرأي على ما يظهر من حديثهم، ثم نقل إلي عنهم، فقال كبيرهم: لقد فرغت من بحثي الذي وضعته في فلسفة خمول الشرقيين، وأفضيت منه إلى حقائق عجيبة، أظهرها وأخفاها معاً أن أمة من هذه الأمم لا يمكن لاجنبي فيها، ولا تثقل وطائته^(١) عليهم، ولا يطول نواؤه^(٢) في أرضهم، ولا يحتلها من يطمع فيها، ما لم يكن سادتها وأمرؤها وكبرائها كأنهم فيها دولة محتلة.

وهؤلاء الكبراء هم آفة الشرق؛ فمن أعظم واجباتنا أن نزيد في تعظيمهم، وأن نمد لهم في المال والجاه، ونبسط لهم الأيمن والشمال، ونوهمهم أن عظمته هكذا ولدت فيهم وهكذا ولدوا بها من أمهاتهم كما ولدوا بأيديهم وأرجلهم... وخاصة عظماء رجال الأديان المفتونين بالدنيا؛ فإننا نصنع بغرور الجميع وسخافاتهم وجزصهم وطمعهم أشياء اجتماعية ذات خطر لا يصنع لنا مثلها إلا الشياطين ومن لنا بالحكم على الشياطين؟ وهذا ما تنبأ له (غاندي) ذلك المهرول الهندي الذي تقوم دنياه بأربعة شلنات، ولا يزن أكثر من بضعة أرطال من الجلد والعظم، ولا بطش عنده ولا قوة فيه، وهو مع ذلك جبار

(٢) نواؤه: بقاؤه.

(١) طائته: سطوته.

سماريّ في يده البرق والرعد يرى ويسمع في أرجاء الدنيا .

قال ضابط اليمين: وبصناعة الكبرياء هذه الصناعة يكون رجل الشعب من هؤلاء الشرقيين رجل تقليد الطبيعة، ورجل ذلّ بالحالة، ورجل خضوع بالجملة؛ فليس في نفسه أنه سيد نفسه ولا سيد غيره، بل أكبر معانيه أن غيره سيد عليه فيكون معه دائماً خيال أستعباده .

وتكلّم ضابط اليسار: ولكن المترجم لم يميز أقواله، لأن ثلاث عشرة امرأة كنّ يصرخن في الرواية الهزلية بلحن طويل يقلن في أوله: «عاوزين رجالة تدلّعنا...» وكانت الموسيقى تصرخ معهن وتولول كأنها هي أيضاً امرأة محرومة .



ثم أرهف^(١) المترجم أذنه فقال كبيرهم: إن هؤلاء الشرقيين ست حواس: الخمس المعروفة، وحاسة الخمول الذي خدعتهم عنه الطبيعة البليدة فسّموه ألترف والهزل واللهو؛ والأمة الأوربيّة التي تحتلّ بلاداً شرقية تجد فيها لصغائر الحياة جيشاً أقوى من جيشها؛ فعشرة آلاف جنديّ بعتادهم وآلاتهم، لا يصنعون شيئاً إلاّ للاستفزاز^(٢) والتحديّ وإثبات أنهم غاصبون؛ ولكن ما أنت قائل في عشرة آلاف مكان كهذا المسرح براقصاته وموسيقاه وخموره ورواياته، وبهؤلاء الرجال المخنثين الهزليين الكرفعاء الذين هم وحدهم معاهدة سياسية ناجحة بيننا وبين شباب الأمة...؟

قال ضابط اليمين: نعم إن فنّ الاحتلال فنّ عسكري في الأول، ولكنه فنّ أخلاقي في الآخر؛ ولهذا يجب تعيين نقطة أتجاه للشباب تكون مضيئة لامعة جذابة مغرية؛ ولكنها في ذات الوقت مُحْرِقة أيضاً، وهذه هي صناعة إهلاك الشباب بالضوء الجميل، وما على السياسي الحاذق في الشرق إلا أن يحمي الرذيلة، فإن الرذيلة ستعرف له صنيعه وتحميه .

فتكلّم ضابط اليسار، ولكن صوته ذهب في عشرين صوتاً من رجال المسرح ونسائه يصيحون جميعاً: «يا حلوة يا خفافي، يا مجنّته الشبان...» .



(٢) الاستفزاز: إثارة الغضب .

(١) أرهف السمع: دقّق .

وَلَمَّا أَلْمَمْتُ^(١) بحوارِ الضباطِ الثلاثةِ قُلْتُ لِصاحبي: إَسْتَأْذِنُ لِي عَلَيْهِمُ أَكْلُهُمْ. ففَعَلَ وَعَرَّفَنِي إِلَيْهِمْ، وَتَرْجَمَ لَهُمْ مَقَالََةَ (يَا شَبَابَ الْعَرَبِ) وَكَانَ يَحْمِلُهَا. فَكَأَنَّمَا رَمَاهُمْ مِنْهَا بِالْجِيْشِ وَالْأَسْطُولِ.

ثُمَّ قُلْتُ لِكَبِيرِهِمْ: لَسْتُ أَتُكْرَهُ أَنْ الْإِنْجِلِيزِيُّ لَوْ دَخَلَ جِهْتَهُمْ لَدَخَلَهَا إِنْجِلِيزِيًّا. وَلَا أَجْحَدُ أَنْ لَهُ فِي الْحَيَاةِ مِثْلُ هِدَايَةِ الْحَيَوَانَ، لِأَنَّهُ رَجُلٌ عَمَلِيٌّ: دَلِيلُ مَنْفَعَتِهِ أَنَّهَا مَنْفَعَتُهُ وَحَسَبُ، ثُمَّ لَا دَلِيلَ غَيْرُ هَذَا وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا هَذَا. فَإِذَا قَالَ الشَّرْقِيُّ: حَقِّي، وَقَالَ الْإِنْجِلِيزِيُّ: مَنْفَعَتِي، بَطَلَتْ الْأَدَلَّةُ كُلُّهَا، وَرَأَى الشَّرْقِيُّ أَنَّهُ مَعَ الْإِنْجِلِيزِيِّ كَالَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يَقْنَعَ الذَّنْبَ بِقَانُونِ الْفَضِيلَةِ وَالرَّحْمَةِ.

وَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّ فِي السِّيَاسَةِ عَجَائِبَ، مِنْهَا مَا يُشَبَّهُ أَنْ يَلْقَى إِنْسَانٌ إِنْسَانًا فَيَقُولُ لَهُ: يَا سَيِّدِي الْغَزِيرُ، بِكُلِّ أَحْتِرَامٍ أَرْجُو أَنْ تَتَلَقَّيَ مِنِّي هَذِهِ الصَّفْعَةَ . . .

وَفِي السِّيَاسَةِ مَوَاعِيدُ عَجِيبَةٍ، مِنْهَا مَا يُشَبَّهُ غَرْسَ شَجَرَةٍ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَالتَّوَكُّيدَ لَهُمْ بِالْإِيمَانِ أَنَّهَا سَتُثْمِرُ رُغْفَانًا مَخْبُوزَةً . . . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُطْعَمُ فَتُثْمِرُ أَلْرُغْفَانُ الْمَخْبُوزَةُ حَشْوُهَا أَلْلَحْمُ وَالْإِدَامُ . . .

وَفِي السِّيَاسَةِ مُحَارَبَةُ الْمَسَاجِدِ بِالْمِرَاقِصِ، وَمُحَارَبَةُ الزَّوْجَاتِ بِالْمَوْمَسَاتِ، وَمُحَارَبَةُ الْعُقَائِدِ بِأَسَانِدَةِ حُرِّيَةِ الْفِكْرِ، وَمُحَارَبَةُ فَنُونِ الْقُوَّةِ بِفَنُونِ اللَّذَّةِ. وَلَكِنْ لَوْ فَهِمَ الشَّبَابُ أَنَّ أَمَاكِنَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَعَانِيهَا لَيْسَتْ إِلَّا غَدْرًا بِالْوَطَنِ فِي كُلِّ مَعَانِيهِ!

وَلَوْ عَرَفَ الشَّبَابُ أَنَّ مُحَارَبَةَ اللَّهِ هِيَ أَوَّلُ الْمَعْرَكَةِ السِّيَاسِيَةِ الْفَاصِلَةِ! وَلَوْ أَدْرَكَ الشَّبَابُ أَنَّ أَوَّلَ حَقِّ الْوَطَنِ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمِلَ فِي نَفْسِهِ مَعْنَى الشَّعْبِ لَا مَعْنَى نَفْسِهِ!

وَلَوْ رَجَعَ الْدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ كَمَا هُوَ فِي طَبِيعَتِهِ أَلَهُ حَرْبِيَّةً تَصْنَعُ مِنَ الشَّبَابِ رِجَالَ الْقُوَّةِ!

وَلَوْ عَلِمَ الشَّبَابُ أَنَّ رُوحَ هَذَا الدِّينِ لَيْسَتْ: اعْتَقَدَ وَلَا تَعْتَقِدْ. وَلَكِنْ أَفْعَلْ وَلَا تَفْعَلْ!

وَلَوْ أَيْقَنَ الشَّبَابُ أَنَّ فَرَائِضَ هَذَا الدِّينِ لَيْسَتْ إِلَّا وَسَائِلَ عَمَلِيَّةٍ لِامْتِلَاءِ النَّفْسِ بِمَعَانِي الْقُدُسِ!

(١) أَلْمَمْتُ: أَطْلَعْتُ.

ولو فَهَمَ الشَّبَابُ أَنْ لَيْسَ فِي الْكَوْنِ إِلَّا هَذِهِ الْمَعَانِي تَجْعَلُ النَّفْسَ فَوْقَ الْمَادَةِ
وَفَوْقَ الْخَوْفِ وَفَوْقَ الْأَذَلِّ وَفَوْقَ الْمَوْتِ نَفْسِهِ!
ولو بَحَثَ الشَّبَابُ النَّفْسَ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ الْقَوِيَّةَ لَيَعْرِفَ بِالْبُرْهَانِ أَنَّهَا نَصْفُ مُسْلِمَةٍ
فَكَيْفَ بِهَا لَوْ كَانَتْ مُسْلِمَةً؟ . . .

وَكَانَ الْمُتَرْجِمُ يَنْقَلُ إِلَيْهِمْ كَلَامِي، فَمَا بَلَغْتُ إِلَى حَيْثُ بَلَغْتُ، حَتَّى شَدَّ
الضَّابِطُ عَلَى يَدَيَّ وَهَزَّهَا؛ فَنَظَرْتُ، فَإِذَا أَنَا قَدْ كُنْتُ نَائِمًا بَعْدَ سَهْرَةٍ طَوِيلَةٍ فِي ذَلِكَ
الْمَسْرَحِ، وَإِذَا يَدُ الْمُتَرْجِمِ نَفْسِهِ هِيَ الَّتِي تَهْزُنِي لِأَنْتَبَهَ . . .

أيها المسلمون!

نهضت فلسطينُ تجلُّ العقدة التي عُقدت لها بينَ السيفِ، والمكرِ، والذهب .
عقدةً سياسيةً خبيثةً، فيها لذلك الشعبُ الحرُّ قتلٌ وتخريبٌ، وفقر .
عقدةُ الحكمِ الذي يحكمُ بثلاثةِ أساليب: الرعدِ الكذب، وألفناء البطية،
ومطامع اليهود المتوحشة .

أيها المسلمون! ليست هذه محنة فلسطين، ولكنها محنة الإسلام؛ يريدون
ألا يُثبت شخصيته العزيزة الحرة .

كل قرش يُدفع الآن لفلسطين، يذهبُ إلى هناك ليجاهد هو أيضاً .

أولئك إخواننا المجاهدون؛ ومعنى ذلك أنَّ أخلاقنا هي خُلُفاؤهم في هذا
الجهاد .

أولئك إخواننا المنكوبون؛ ومعنى ذلك أنهم في نكبتهم أمتحانٌ لضمائِرنا
نحن المسلمين جميعاً .

أولئك إخواننا المضطَّهدون؛ ومعنى ذلك أنَّ السياسة التي أدلتهم تسألنا
نحن: هل عندنا إقرارٌ لذلك؟

ماذا تكونُ نكبةُ الأخ إلا أن تكونَ أسماً آخرَ لمروءةٍ سائرٍ إخوته أو مدلتهم؟
أيها المسلمون! كلُّ قرشٍ يُدفعُ لفلسطين، يذهبُ إلى هناك ليفرضَ على
السياسة احترامَ الشعور الإسلامي .

يتلَّوهمُ باليهود يحملونَ في دمايهم حقيقتين ثابتتين: من ذلِّ الماضي وتشريد
الحاضر .

ويحملونَ في قلوبهم ثقتين طاغيتين: إحداهما من ذهبهم، والأخرى من
ردائِلهم .

وَيُخَبِّتُونَ فِي أَدْمَغَتِهِمْ فِكْرَتَيْنِ خَبِيثَتَيْنِ: أَنْ يَكُونَ الْعَرَبُ أَقْلِيَّةً، ثُمَّ أَنْ يَكُونُوا
بعد ذلك خَدَمَ الْيَهُودِ.

فِي أَنْفُسِهِمْ الْحَقْدُ، وَفِي خَيَالِهِمْ الْجَنُونُ، وَفِي عَقُولِهِمْ الْمَكْرُ، وَفِي أَيْدِيهِمْ
الذَّهَبُ الَّذِي أَصْبَحَ لَيْثِمًا لَأَنَّهُ فِي أَيْدِيهِمْ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُلُّ قَرَشٍ يُدْفَعُ لِفِلَسْطِينِ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيَتَكَلَّمَ كَلِمَةً تَرُدُّ
إِلَى هَؤُلَاءِ الْعَقْلِ.

يَتَلَوُّهُمْ بِالْيَهُودِ يَمْرُوءٌ مَرُورَ الدَّنَائِيرِ بِالرِّبَا الْفَاحِشِ فِي أَيْدِي الْفُقَرَاءِ.
كُلُّ مَائَةِ يَهُودِيٍّ عَلَى مَذْهَبِ الْقَوْمِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مَائَةٌ
وَسَعِينَ.

حَسَابُ خَبِيثٍ يَبْدَأُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَا يَنْتَهِي أَبَدًا وَفِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَقْلِ.
وَالسِّيَاسَةُ وَرَاءَ الْيَهُودِ، وَالْيَهُودُ وَرَاءَ خَيَالِهِمُ الدِّينِيَّ، وَخَيَالُهُمُ الدِّينِيُّ هُوَ طَرْدُ
الْحَقِيقَةِ الْمُسْلِمَةِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُلُّ قَرَشٍ يُدْفَعُ لِفِلَسْطِينِ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيُثَبَّتَ الْحَقِيقَةُ
الَّتِي يُرِيدُونَ طَرْدَهَا.

يَقُولُ الْيَهُودُ: إِنَّهُمْ شَعْبٌ مُضْطَهَّدٌ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْعَالَمِ.
وَيَزْعُمُونَ: أَنَّ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَعِيشُوا أَحْرَارًا فِي فِلَسْطِينِ، كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ
جَمِيعِ بِلَادِ الْعَالَمِ...

وَقَدْ صَنَعُوا لِلْإِنْجِلِيزِ أُسْطُوْلًا عَظِيمًا لَا يَسْبُحُ فِي الْبَحَارِ، وَلَكِنْ فِي
الْخَزَائِنِ...

وَأَرَادَ الْإِنْجِلِيزُ أَنْ يَطْمِئِنُّوا فِي فِلَسْطِينِ إِلَى شَعْبٍ لَمْ يَتَعَوَّدَ قَطُّ أَنْ يَقُولَ: أَنَا.
وَلَكِنْ لِمَاذَا كَسَسْتُمْ كُلَّ أُمَّةٍ مِنْ أَرْضِهَا بِمَكْنَسَةِ أَيُّهَا الْيَهُودُ؟

أَجْهَلْتُمْ الْإِسْلَامَ؟ الْإِسْلَامُ قُوَّةٌ كَتَلَكِ الْكَلْبِ الَّتِي تُوجَدُ الْأَنْيَابَ وَالْمُخَالَبَ فِي كُلِّ
أَسَدٍ.

قوة تُخرجُ سلاحها بنفسِها، لِأَنَّ مخلوقها عزيزٌ لم يُوجد لِئُؤْكَلَ، ولم يُخلَق لِئَذَلَ.

قوة تجعلُ الصوتَ نفسه حينَ يُزْمَجِر، كأنَّه يُعلنُ الأَسديةَ العزيزةَ إلى الجهاتِ الأربعِ.

قوة وراءَها قلبٌ مشتعلٌ كالبركانِ، تتحوَّلُ فيه كلُّ قطرةٍ دمٍ إلى شرارةٍ دمٍ وَلِئِنْ كَانَتْ الحوافِرُ تُهَيِّئُ مخلوقاتِها لِيركبَها الراكبُ، إِنَّ المَخالبَ والأَنيابَ تُهَيِّئُ مخلوقاتِها لِمعنى آخر.

لو سئَلْتُ ما الإسلامُ في معناه الاجتماعي؟ لَسَأَلْتُ: كم عددُ المسلمين؟ فإن قيل: ثلثمائة مليون. قُلْتُ: فالإسلامُ هو الفكرةُ التي يجبُ أَنْ يكونَ لها ثلثمائة مليون قوة.

أيجوزُ إخوانكم أيُّها المسلمونَ وتشبعون؟ إِنَّ هذا الشَّبَعَ ذنبٌ يُعاقِبُ اللهَ عليه.

وَالغنى اليومَ في الأغنياءِ المُنْصِكينَ عن إخوانهم، هو وصفُ الأغنياءِ باللُومِ لا بالغنى.

كلُّ ما يبذلُّه المسلمونَ لِفِلَسطينَ، يدُلُّ دَلالاتٍ كثيرة، أَقلُّها سياسةُ المقاومة.

كَانَ أسلافُكم أيُّها المسلمونَ يفتحونَ الممالكَ، فَأَفْتَحُوا أَنْتُمْ أَيْدِيَكُمْ. . . كانوا يرمونَ بأنفسِهِم في سبيلِ اللهِ غَيْرَ مُكْتَرِثِينَ^(١)، فَأَرْمُوا أَنْتُمْ في سبيلِ الحقِّ بالدنانيرِ والدراهمِ.

لِمَاذَا كَانَتْ الْقِبْلَةُ في الإسلامِ إِلَّا لِيَعْتَادَ الْوُجُوهُ كُلُّهَا أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى الْجِهَةِ الْوَاحِدَةِ؟

لِمَاذَا أَرْتَفَعَتِ أَلْمَادُنُ إِلَّا لِيَعْتَادَ الْمُسْلِمُونَ رَفَعَ الصَّوْتِ في الحقِّ؟
أيُّها المسلمون! كونوا هناك. كونوا هناك مع إخوانكم بمعنى مِنَ المعاني.

(١) مكترئين: مهتمين.

لو صَامَ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ كُلُّهُ يَوْمًا وَاحِدًا وَبَذَلَ نَفَقَاتِ هَذَا الْيَوْمِ الْوَاحِدِ
لِفِلَسْطِينَ، لَأَغْنَاهَا.

لو صَامَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ يَوْمًا وَاحِدًا لِإِعَانَةِ فِلَسْطِينَ، لَقَالَ النَّبِيُّ مُفَاحِرًا
الْأَنْبِيَاءَ: هَذِهِ أُمَّتِي!

لو صَامَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا يَوْمًا وَاحِدًا لِفِلَسْطِينَ، لَقَالَ الْيَهُودُ الْيَوْمَ مَا قَالَهُ
أَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ: إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! هَذَا مَوْطَنُ يَزِيدَ فِيهِ مَعْنَى الْمَالِ الْمَبْذُولِ فَيَكُونُ شَيْئًا
سَمَاوِيًّا.

كُلُّ قِرْشٍ يَبْذُلُهُ الْمُسْلِمُ لِفِلَسْطِينَ، يَتَكَلَّمُ يَوْمَ الْحِسَابِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا
إِيمَانُ فُلَانٍ!

قصة الأبدى المتوضئة...

قال راوي الخبر: ذهبت إلى المسجد لصلاة الجمعة؛ والمسجد يجمع الناس بقلوبهم ليُخرج كل إنسان من دنياه، فلا يفكر أحد أنه أسمى من أحد؛ ولقد يكون إلى جانبك الصانع أو الأجير أو الفقير أو الجاهل، وأنت الرئيس أو العظيم أو الغني أو العالم، فتتنظر إليه وإلى نفسك فتحس كأن خواطرك متوضئة متطهرة، وترى كلمة الكبرياء قد فقدت روحها، وكلمة التواضع قد وجدت روحها؛ وتشعر بالنفس المجتمعة قد نصبت الحرب للنفس المنفردة؛ ولو خطر لك شيء بخلاف ذلك رأيت الفقير إلى جانبك توبخاً لك، ونظرت إليه ساكناً وهو يتكلم في قلبك، وشعرت بالله من فوقكما، وأستعنت لك روح المسجد كأنها تهتم بطردك منه، وخيل إليك أن الأرض ستلطم وجهك إذا سجدت عليها، وأيقنت من ذات نفسك أن لست هناك في دنياك وليس صاحبك في دنياه، وإنما أنتما هناك في إنسانية ميزانها بيد الله وحده؛ فلا تدري أيكما الذي يخف وأيكما الذي يثقل.

قال: والعجيب أن هذا الذي لا يجهله أحد من أهل الدين، يعرفه بعض علماء الدين على وجه آخر، فتراه في المسجد يمشي مختالاً، قد تحلى بحليته، وتكلف لزهوه، فليس الحبة تسع اثنين، لا وتطاول كأنه الجذنة، وتصدّر كأنه القبلة، وأنتمخ كأنه مملىء بالفروق بينه وبين الناس؛ وهو بعد كل هذا لو كشف الله تمويهه لأنكشف عن تاجر علم بعض شروطه على الفضيلة أن يأكل بها، فلا يجد دنياه إلا في المسجد، فهو نوع من كذب العالم الديني على دينه.



قال الراوي: وضعت الخطيب المنبر وفي يده سيفه الخشبي يتوكأ عليه؛ فما استقر في الذروة حتى خيل لي أن الرجل قد دخل في سر هذه الخشبة، فهو يبدو كالمريض ثقيله عصاه، وكالهرم يمسكه ما يتوكأ عليه؛ ونظرت فإذا هو كذب صريح على الإسلام والمسلمين، كهية سيفه الخشبي في كذبها على السيوف ومعديها وأعمالها.

وتأله ما أدري كيف يستحلّ عالم من علماء الدين الإسلامي في هذا العصر، أن يخطب المسلمين خطبة جمعتهم وفي يده هذا السيف علامة الأذل والضعف والتراجع والانقلاب والإدبار والهزل والسخرية والفضيحة والإضحاك؛ ومتى كان الإسلام يأمر بنجر السيوف من الخشب ونحتها وتسويتها وإرهاق حدها الذي لا يقطع شيئاً، ثم وضعها في أيدي العلماء يفتلون بها ذؤابة^(١) كل منبر، لتتعلق بها ألعيون، وتشهد فيها الرمز والعلامة، وتستوجي منها المعنوية في الدينونة التي يجب أن تتجسم لثرى؟

أفي سيف من الخشب معنوية غير معنى الهزل والسخافة، وبلاهة العقل وذلة الحياة، ومسح التاريخ الفاتح المنتصر، والرمز لخضوع الكلمة وصبيانية الإرادة؟ قال: وكان تمام الهزة بهذا السيف الخشبي الذي صنعته وزارة أوقاف المسلمين، أنه في طول صنّامة^(٢) عمرو بن مغديكرب الزبيدي فارس الجاهلية والإسلام، فكان إلى صدر الخطيب، ولولا أنه في يده لظهر مقبضه في صدر الرجل كأنه وسام من الخشب...

قال: وكان الخطيب إذا تكلف وتصنع وظهر منه أنه قد حبي وثار ثائرته، أرتج وغفل عن يده، فتضطرب فيها قبضة السيف فتلكزه في صدره كأنما تذكره أن في يده خشبة لا تصلح لهذه الحماسة...^(٣)

قال: وخطب العالم على الناس، وكان سيفه الخشبي يخطب خطبة أخرى: فأما الأولى فهي محفوظة معروفة ولا تنتهي حتى ينتهي أثرها، إذ هي كالقراءة لإقامة الصلاة؛ وكانت في عهدها الأول كالدرس لإقامة شأن من شؤون الاجتماع والسياسة، فبين حقيقتها الإسلامية مثل ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى. وأما الخطبة الثانية فقد عقلتها أنا عن تلك الخشية وكتبتها، وهذه هي عبارتها:

ويحكم أيها المسلمون! لو كنث بقية من خشب سفينة نوح التي أنقذ فيها

(١) ذؤابة: رأس.

(٢) صنّامة: اسم للسيف.

(٣) كانت القاعدة الشرعية تبيح للخطيب المسلم، إذا ما افتتح بلداً غضباً بالسيف أن يخطب ويده سيفه.

الجنسَ البشري، لَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَضْعُونِي هَذَا الْمَوْضِعَ؛ وما جعلَكُمْ اللَّهُ حيثَ أنتم إِلَّا بعدَ أَنْ جعلْتُمُونِي حيثَ أنا، تكادُ شرارةُ تذهبُ بي وبكم معاً، لِأَنَّ فِيْ فَيْكُمْ أَلَمَادَةَ الْخَشْيَةِ وَالْمَادَّةَ الْمَتَخَشِّبَةَ.

ويحكم! لو أَنَّهُ كَانَ لِيخْطِيَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْكَلَامِ الْتَارِي الْمَضْطَرَم، لَمَا بَقِيَتْ الْخَشْيَةُ فِي يَدِيْ خَشْبَةً. وكيفَ يَمْتَلِئُ الرَّجُلُ إِيْمَاناً بِإِيْمَانِهِ، وكيفَ يَصْعَدُ الْمَنْبِرَ لِيَقُولَ كَلِمَةَ الدِّينِ مِنَ الْحَقِّ الْغَالِبِ، وكَلِمَةَ الْحَيَاةِ مِنَ الْحَقِّ الْوَاجِبِ - وهو كما تَرَوْنَهُ قَدْ أَنْتَهَى مِنَ الذَّلَلِ إِلَى أَنْ فَقَدَ أَلْسِيفَ رَوْحِهِ فِي يَدِهِ؟

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! لَنْ تُفْلَحُوا^(١) وَهَذَا خَطِيئَتُكُمْ الْمَتَكَلَّمُ فِيكُمْ، إِلَّا إِذَا أَفْلَحْتُمْ وَأَنَا سَيْفُكُمْ الْمَدَافِعُ عَنْكُمْ. أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، غَيِّرُوهُ وَغَيِّرُونِي.

قَالَ رَاوِي الْخَبَرِ: وَلَمَّا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ مَا^(٢) النَّاسُ إِذْ أَنْبَعَثَ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الشَّبَانِ يَصِيحُونَ بِهِمْ يَسْتَوْقِفُونَهُمْ لِيَخْطُبُوهُمْ؛ ثُمَّ قَامَ أَحَدُهُمْ فَخَطَبَ، فَذَكَرَ فَلَاسْطِينَ وَمَا نَزَلَ بِهَا، وَتَغَيَّرَ أَحْوَالُ أَهْلِهَا، وَنَكِبَتْهُمْ وَجِهَاتُهُمْ وَأَخْتَلَالَ أَمْرُهُمْ، ثُمَّ اسْتَنْجَدَ وَأَسْتَعَانَ، وَدَعَا الْمَوْسِرَ^(٣) وَالْمُخَفَّ^(٤) إِلَى الْبَذْلِ وَالتَّبَرُّعِ وَإِقْرَاضِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَتَقَدَّمَ أَصْحَابُهُ بِصَنَادِيْقٍ مَخْتُومَةٍ، فَطَافُوا بِهَا عَلَى النَّاسِ يَجْمَعُونَ فِيهَا الْقَلِيلَ وَالْأَقْلَ مِنْ دَارِهِمْ هِيَ فِي هَذِهِ الْحَالِ دَارُهُمْ أَصْحَابُهَا وَضَمَائِرُهُمْ.

قَالَ: وَكَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ قَرَوِيٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ أَفْلَاحِيْنَ الَّذِينَ تَعْرِفُ الْخَيْرَ فِي وَجُوهِهِمْ، وَالصَّبْرَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَالْفَنَاعَةَ فِي نَفْسِهِمْ، وَالْفَضْلَ فِي سَجَايَاهُمْ؛ إِذْ أَمْتَرَجَتْ بِهِمْ رُوحُ الطَّبِيعَةِ الْخَصْبَةِ فَتَخْرُجُ مِنْ أَرْضِهِمْ زُرْعاً وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ زُرْعاً أُخْرَى - فَقَالَ لِرَجُلٍ كَانَ مَعَهُ: إِنَّ هَذَا الْخَطِيبَ خَطِيبُ الْمَسْجِدِ قَدْ غَشَّنَا وَهَؤُلَاءِ الشَّبَانُ قَدْ فَضَحُوهُ؛ فَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ خُطْبَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا فِي أَحْصَ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ: وَنَبَّهَنِي هَذَا الرَّجُلُ السَّادُّجُ إِلَى مَعْنَى دَقِيقٍ فِي حِكْمَةِ هَذِهِ الْمَنَابِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَمَا يُرِيدُ الْإِسْلَامُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ كَمَحَطَاتِ الْإِذَاعَةِ، يَلْتَقِطُ كُلُّ مَنْبَرٍ أَخْبَارَ الْأَجْهَاتِ الْأُخْرَى وَيُذَيِّعُهَا فِي صِيغَةِ الْخُطَابِ إِلَى الرُّوحِ وَالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، فَتَكُونَ

(٣) الموسر: الغني.

(٤) المخف: الفقير.

(١) تفلحوا: تنجحوا.

(٢) ما: ما.

خطبة الجمعة هي الكلمة الأسبوعية في سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع؛ وبهذا لا يجيء الكلام على المنابر إلا حيا بحياة الوقت، فيصبح الخطيب ينتظره الناس في كل جمعة أنتظار الشيء الجديد؛ ومن ثم يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل.

قال: وخيل إلي بعد هذا المعنى أن كل خطيب في هذه المساجد ناقص إلى النصف، لأن السياسة تكرهه أن يخلع إسلاميته الواسعة قبل صعوده المنبر، وألا يصعد إلا في إسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوغظ هو مع ذلك نصف وعظ... فالخطبة في الحقيقة نصف خطبة، أو كأنها أثر خطبة معها أثر سيف... قال: وأخرج القروي كيسة فعزل منه دراهم وقال: هذه لطعام أتبلغ به ولأوتيتي^(١) إلى البلد، ثم أفرغ الباقي في صناديق الجماعة؛ وأقديت أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعت في صناديقهم كل ما معي؛ ولقد حسبت أنه لو بقي لي درهم واحد لمضى يسبني ما دام معي إلى أن يخرج عني.

قال الراوي: ثم دخلت إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن، فإذا هناك رجال من علماء المسلمين، إثنان أو ثلاثة: (الشك في نالهم لأنه حليف للحية). ثم توافي^(٢) إليهم آخرون فتموا سبعة؛ ورأيتهم قد خلطوا بأنفسهم صاحب (اللا لحية)، فعلمت أنه منهم على المذهب الشائع في بعض العصرين من العلماء والقضاة الشرعيين، أحسبهم يحتجون بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ وكل أمرىء فلئما تبصره مرآته كيف يظهر في أحسن تقويم، أبلحية أم بلا لحية...؟

وأدزت عيني في وجوههم، فإذا وقار وسمت ونور لم أر منها شيئا في وجه صاحب (اللا لحية)؛ وأنا فما أبصرت قط لحية رجل عالم أو عابد أو فيلسوف أو شاعر أو كاتب أو ذي فن عظيم، إلا ذكرت هذا المعنى الشعري البديع الذي ورد في بعض الأخبار، من أن لله (تعالى) ملائكة يقسمون: والذي زين بني آدم باللحي.

وكان من السبعة رجل ترك لحيته عافية على طبيعتها؛ فامتدت وعظمت حتى

(٢) توافي: جاء.

(١) أوتيتي: عودتي.

نُسِرَتْ حَوْلَهَا جَوْا رُوحَانِيًّا مِنْ أَلْهِيَّةٍ تَشْعُرُ الرِّقِيقَةَ بِتَيَّارِهِ عَلَى بُعْدٍ، فَكَانَ هَذَا أَبْلَغَ رَدٍّ عَلَى ذَلِكَ.

قال؛ وَأَنْصَبْتُ الشُّيُوخَ جَمِيعاً إِلَى خُطْبِ الشُّبَّانِ، وَكَانَتْ أَصَوَاتُ هَؤُلَاءِ جَافِيَةً^(١) صُلْبَةً حَتَّى كَأَنَّهَا صَخَبٌ^(٢) مَعْرَكَةٌ لَا فَنٌّ خُطَابَةٌ، وَعَلَى قَدَرٍ ضَعِيفٍ الْمَعْنَى فِي كَلَامِهِمْ قَوِيَّ الصَّوْتِ؛ فَهَمَّ يَصْرُخُونَ كَمَا يَصْرُخُ الْمُسْتَغِيثُ فِي صَبْحَاتٍ هَارِبَةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

فَقَالَ أَحَدُ الشُّيُوخِ الْفُضْلَاءِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ! جَاءَ فِي الْخَبَرِ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ». وَوَاللَّهِ مَا تَعَسَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا مِنْذُ تَعَبَّدُوا بِإِهْدِينَ حِرْصاً وَشُحاً؛ ﴿وَمَنْ يُوَفَّ شُحَّ نَفْسِهِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣)، وَلَوْ تَعَارَفَتْ أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَوَادِثِ لَمَا أَنْكَرْتَهُمْ الْحَوَادِثُ.

فَقَالَ آخَرُ: وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ»، وَلَكِنْ مَا بَالُ هَؤُلَاءِ الشُّبَّانِ لَا يُورِدُونَ فِي خُطْبِهِمْ أَحَادِيثَ مَعَ أَنَّهَا هِيَ كَلِمَاتُ الْقُلُوبِ؟ فَلَوْ أَنَّهُمْ شَرَحُوا لِلْعَامَةِ هَذَا الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ» لَأَسْرَعَ الْعَامَّةُ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ.

قَالَ الْثَالِثُ: وَلَكِنْ جَاءَنَا الْأَثَرُ فِي وَصْفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: «إِنَّهَا فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ يَتَعَلَّمُ صِغَارُهَا مِنْ كِبَارِهَا، فَإِذَا كَانَ آخِرُ الزَّمَانِ تَعَلَّمَ كِبَارُهُمْ مِنْ صِغَارِهِمْ». فَنَحْنُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَقَدْ سَلَّطَ الصِّغَارُ عَلَى الْكِبَارِ يُرِيدُونَ أَنْ يَنْفُلُوهُمْ عَنْ طِبَاعِهِمْ إِلَى صِبْيَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ.

قَالَ الرَّاوي: فَقُلْتُ لِصَدِيقِي مَعِيَ: قُلْ لِهَذَا الشَّيْخِ: لَيْسَ مَعْنَى الْأَثَرِ مَا فَهَمْتُ، بَلْ تَأْوِيلُهُ أَنَّ آخِرَ الزَّمَانِ سَيَكُونُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ زَمَنُ جِهَادٍ وَأَقْتِحَامٍ، وَعَزِيمَةٍ وَمُغَالِبَةٍ عَلَى أَسْتِقْلَالِ الْحَيَاةِ؛ فَلَا يَصْلُحُ لِرِقَايَةِ الْأُمَّةِ إِلَّا شِبَابُهَا الْمُتَعَلِّمُ الْقَوِيُّ الْجَرِيءُ، كَمَا نَرَى فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ، فَيَنْزِلُونَ مِنَ الْكِبَارِ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ؛ إِذْ تَكُونُ الْحِمَاسَةُ مُتَمَمَّةً لِقُوَّةِ الْعِلْمِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «أُمِّي كَالْمَطَرِ: لَا يَدْرِي أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ».

قَالَ الرَّاوي: وَلَمْ يَكِدِ الصَّدِيقُ يَحْفَظُ عَنِّي هَذَا الْكَلَامَ وَيَهْمُ بِتَبْلِيغِهِ، حَتَّى

(١) جافية: قاسية صلبة.

(٢) صخب: ضجيج.

(٣) شح: بخل.

وَقَعَتِ الصَّبِيحَةُ فِي الْمَكَانِ؛ فَجَاءَ أَحَدُ الْخُطَبَاءِ وَوَقَفَ يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ أَلَرَّعْدُ: لَا يَكْرُرُ إِلَّا زَمْجَرَةً وَاحِدَةً؛ وَكَانَ الشَّيْخُ الْأَجْلَاءُ قَدْ سَمِعُوا كُلَّ مَا قَبِلَ، فَأَطْرَقُوا يَسْمَعُونَهُ مَرَّةً رَابِعَةً أَوْ خَامِسَةً؛ وَفَرَّغَ الشَّبَابُ مِنْ هَدِيرِهِ فَتَحَوَّلَ إِلَيْهِمْ وَجَلَسَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَتَذَبِّبًا مَتَخَشِّعًا وَوَضَعَ الصَّنَدُوقَ الْمُخْتَمُومَ.

فَقَالَ أَحَدُ الشَّيْخِ: لَمْ يَخَفْ عَلَيْنَا مَكَانُكَ، وَقَدْ بَذَلْتُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ؛ فَبَارَكَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ.

وَسَكَتَ الشَّبَابُ، وَسَكَتَ الشَّيْخُ، وَسَكَتَ الصَّنَدُوقُ أَيْضًا...

ثُمَّ تَحَرَّكَتِ الْنَفْسُ بُوخِي الْحَالَةِ؛ فَمَدَّ أَوَّلُهُمْ يَدَهُ إِلَى جَبِيهِ، ثُمَّ دَسَّهَا فِيهِ، ثُمَّ عَيْثُ^(١) فِيهِ قَلِيلًا؛ ثُمَّ... أَخْرَجَ السَّاعَةَ يَنْظُرُ فِيهَا.

وَأَنْتَقَلَتِ الْعُدَى إِلَى الْبَاقِيْنَ، فَأَخْرَجَ أَحَدُهُمْ مَبْدِلَهُ يَتَمَخَّطُ فِيهِ، وَظَهَرَتْ فِي يَدِ الْثَالِثِ سُبْحَةٌ طَوِيلَةٌ، وَأَخْرَجَ الرَّابِعُ سِوَاكَأَ فَمَرَّ بِهِ عَلَى أَسْنَانِهِ، وَجَرَّ الْخَامِسُ كُرَاسَةً كَانَتْ فِي قَبَائِهِ، وَمَدَّ صَاحِبُ اللَّحْيَةِ الْعَرِيضَةِ أَصَابِعَهُ إِلَى لِحْيَتِهِ يُخَلِّلُهَا؛ أَمَّا السَّابِعُ صَاحِبُ (الِلَاحِيَةِ)، فَتَبَيَّنَتْ يَدُهُ فِي جَبِيهِ وَلَمْ تَخْرُجْ، كَأَنَّهُ فِيهَا شَيْئًا يَسْتَحْيِي إِذَا هُوَ أَظْهَرَهُ، أَوْ يَخْشَى إِذَا هُوَ أَظْهَرَهُ مِنْ تَخْجِيلِ الْجَمَاعَةِ.

وَسَكَتَ الشَّبَابُ، وَسَكَتَ الشَّيْخُ، وَسَكَتَ الصَّنَدُوقُ أَيْضًا...

قَالَ الرَّاوِي: وَنَظَرْتُ فَإِذَا وَجُوهُهُمْ قَدْ لَبَسَتْ لِلشَّبَابِ هَيْئَةُ الْمَدْرَسِ الَّذِي يُقَرَّرُ لِتَلْمِيذِهِ قَاعِدَةٌ قَرَّرَهَا مِنْ قَبْلِ أَلْفِ مَرَّةٍ لِأَلْفِ تَلْمِيذٍ؛ فَخَجَلَ الشَّبَابُ وَحَمَلَ صَنَدُوقَهُ وَمَضَى...

أَقُولُ أَنَا: فَلَمَّا أَنْتَهَى الرَّاوِي مِنْ (قِصَّةِ الْأَيْدِي الْمَتَوَضِّعَةِ)، قُلْتُ لَهُ: لَعَلَّكَ أَيُّهَا الرَّاوِي اسْتَيْقَظْتَ مِنَ الْحُلُمِ قَبْلَ أَنْ يَمْلَأَ الشَّيْخُ الْأَجْلَاءُ هَذَا الصَّنَدُوقَ، وَمَا خَتَمَ عَقْلُكَ هَذِهِ الرَّوَايَةَ بِهَذَا الْفَصْلِ إِلَّا بِمَا كَدَّدْتَ^(٢) فِيهِ ذَهَنَكَ مِنْ فِلَسْفَةِ تَحَوُّلِ السَّيْفِ إِلَى خَشْبَةٍ؛ وَلَوْ قَدْ أَمْتَدَّ بِكَ النَّوْمُ لَسَمِعْتَ أَحَدَهُمْ يَقُولُ لِسَائِرِهِمْ: بِمَنْ يَنْهَضُ إِخْوَانُنَا الْمَجَاهِدُونَ وَبِمَنْ يَصُولُونَ؟ لِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «جَاهِلٌ سَخِي»^(٣) أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَالِمٍ بِخَيْلٍ. ثُمَّ يَمْلِثُونَ الصَّنَدُوقَ....

(١) عَيْثُ فِيهِ قَلِيلًا: أَيِ بَحْثٍ بِأَصْبَعِهِ.

(٢) كَدَّدْتَ: أَنْعَبْتَ.

(٣) سَخِي: كَرِيمٌ.

نجوى التمثال

أيُّها المفترسُ الصخرةُ يشدُّ ذراعيه أقوى الشدِّ كأنَّما يُريدُ أن يَقتلَعَ الصخرةَ
فيهما،

مُتَنَاهِضاً بِصدرِهِ^(١) لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ وَإِنْ رِبَضَ فَإِنَّ الْوُثْبَةَ فِي يَدَيْهِ، مُتَمَطِّباً^(٢)
بِضُلْبِهِ لِيشِيرَ مِنْ جِسْمِهِ الْهَادِيءِ إِلَى معَانِيهِ الْمَفْتَرِسَةِ، مُقْعِياً عَلَى ذَنْبِهِ^(٣) وَمَتَحَفِّزاً
بِسَائِرِهِ كَأَنَّهُ قُوَّةٌ أُنْدِفَاعٍ تَهُمُّ أَنْ تَنْفِلْتَ مِنْ جاذِبِيَةِ الْأَرْضِ .

وَأَنْتِ أَيُّهَا الْهَيْهَاءُ^(٤) تَمَثَّلُ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمُتَمَدَّنَةَ فِي نَحَافَتِهَا وَهِيَ كَهَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ
ضَارِبَةٌ بِذِرَاعَيْ أَسَدٍ فِي غِلْظٍ مِذْفَعِينَ

حَكِيمَةً فِي الْنَظَرِ كَأَنَّمَا تَمُدُّ فِي سُرَائِرِ الْأُمَمِ نَظْرَةَ الْمُتأملِ، وَلَكِنْ يَدَهَا كَيِّدٍ
الْحِكْمَةِ السِّيَاسِيَّةِ عَلَى تَرْكِيبِ عَقْلِيٍّ تَحْتَهُ الْمَخَالِبُ . . .

سَاكِنَةً كَأَنَّهَا تَمَثَّلُ السَّلَامَ عَلَى أَنَّهَا فِي جَوَارِ الْأَسَدِ كَالسَّلَامِ بَيْنَ الشُّعُوبِ :
تَلْمَحُ فِيهِ إِنْسَانُ الْعَالَمِ وَوَحْشُ الْعَالَمِ . . .
يَا أَبَا الْهَوْلِ .

أَنْتِ جَوَابٌ عَنْ ذَلِكَ اللَّغْزِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ كَلَامٌ لَا يَتَكَلَّمُ وَسُكُوتٌ لَا
يَسْكُتُ .

وَالَّذِي أَشَارَ بِرَأْسِ الْإِنْسَانِ عَلَى جِسْمِ الْلَيْثِ^(٥) أَنَّهُ قُوَّةٌ عَمِيَاءُ كَالضَّرُورَةِ
وَلَكِنَّهَا مُبْصِرَةٌ كَالْإِخْتِيَارِ .

وَالَّذِي أَخْرَجَ مِنْ فَتْيِ الْغَرِيْزَةِ وَالْعَقْلِ فَنَّا ثَالِثًا لَا يَزَالُ فِي الْأَرْضِ يَنْتَظَرُ الْمَرْأَةَ
الَّتِي تَبْدُو إِنْسَانًا عِظَامُهُ مِنَ الْحَجَرِ؟

(١) مُتَنَاهِضاً بِصدرِهِ : مُرْتَفِعاً .

(٢) مُتَمَطِّباً : مُتَمَدِّدًا، وَذَلِكَ بَعْدَ التَّوَمُّ .

(٤) الْهَيْهَاءُ : الْفَتَاةُ الْمَمْتَشِقَةُ الطَّوْلَ .

(٥) الْلَيْثُ : الْأَسَدُ .

(٣) مُقْعِياً عَلَى ذَنْبِهِ : جَالِسًا .

وأنت يا مصر:

أواقفة ثَمَّةٌ لِلشرح والتفسير، تقولين لِلمصري: إِنَّ أجدادَكَ يسألونكَ مِنْ
آلافِ ألسنينَ بهذا الرَّمز: أَلَا معجزةٌ مِنْ أَلْقُوَّةِ تَمَطُّ عَضَلَاتِ الْحَجَرِ؟

أَلَا بَسْطَةُ^(١) مِنْ أَلَعَلَّمْ تَجْعَلُكَ أَيُّهَا الْمَصْرِيُّ وَكَأَنَّكَ رَأْسَ لَجَسْمِ الطَّبِيعَةِ؟ أَلَا فَنَ
جَدِيدٍ تَرْفَعُ بِهِ أَبَا أَلْهَوِلِ فِي أَلْجَوِّ فِتْزِيدُهُ عَلَى قُوَّةِ أَلْوَحْشِ وَذَكَاءِ أَلْإِنْسَانِ خِفَّةُ أَلْطَيْرِ؟

أَمْ تقولينَ لِلْمَصْرِيِّ: إِنَّ أجدادَكَ يُوصونَكَ بهذا الرَّمزِ أَنْ تَكُونَ كَالظَّهْرِ
أَلْأَسَدِيِّ لَا يُرْكَبُ مَطَاهُ، وَكَأَلرَأْسِ أَلْإِنْسَانِي لَا تُقَيَّدُ حَرِيَّتُهُ، وَكَأَلرَنْصَةِ أَلْجَبَلِيَّةِ لَا
تُسَهَّلُ إِزَاحَتُهَا، وَكَأَلْإِبْهَامِ أَلْمُرْكَبِ مِنْ غَامِضِينَ لَا يَتَيَسَّرُ بِهِ عَبَثُ أَلْعَابِثِ،
وَكَأَلْصِرَاحَةِ أَلْمَجْتَمَعَةِ مِنْ عُنْصَرٍ وَاحِدٍ لَا يَغْلُطُ فِي حَقِيقَتِهَا أَحَدٌ؟

أَمْ تقولينَ يا مصر: إِنَّ تَفْسِيرَ أَبِي أَلْهَوِلِ أَلْأَوَّلِ أَنَّ أَلْنَهْضَةَ أَلْمَصْرِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ
يَوْمَ تُخْرِجُ أَلْبَلَادَ مَنْ يَصْنَعُ أَبَا أَلْهَوِلِ الثَّانِي؟

تَمَثَّالُ أَلْنَهْضَةِ أَمْ صَفْحَةُ مِنْ أَلْحَجَرِ قَدْ صَوَّرَ أَلشَّعْبُ عَلَيْهَا، وَدَوَّنَ فِيهَا
إِحْسَاسَهُ بِتَارِيخِهِ، وَوَصَفَ بِهَا إِدْرَاكُهُ حَيَاةَ أَلْمَعَانِي أَلْسَامِيَّةٍ؟

أَمْ هُوَ كِتَابَةُ فَصْلِ مِنْ أَلتَّارِيخِ بِقَلَمِ أَلْحَيَاةِ وَعَلَى طَرِيقَةٍ مِنْ بِلَاغَتِهَا، خَشِيتُ
عَلَيْهِ أَلْفَنَاءُ فِدْوَتَتِهِ فِي أَسْلُوبٍ مِنْ أَسَالِيبِ أَلْبَقَاةِ أَلْحَجَرِيِّ أَلْصَّلْدِ؟

أَمْ ذَاكَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ أَلْأَلَمَةِ أَحَالَهُ أَلْفَنٌ مِنْ زَمَنِ إِلَى مَادَةٍ؛ وَمِنْ مَعْنَى إِلَى
حَسٍّ، وَمِنْ خَبَرٍ إِلَى مَنَظَرٍ، وَكَانُوا يَتَكَلَّمُونَ عَنْهُ فَجَعَلَهُ أَلْفَنٌ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ؟

أَمْ هُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ تِلْكَ أَلْمَعَانِي أَلَّتِي خَلَقَتْهَا نَفُوسُ هَذَا أَلْجِيلِ تُخَاطَبُ بِهِ
أَلنَفُوسُ أَلْآتِيَّةُ لِتَتَمَّعَ عَلَيْهَا، وَتُضَيَّفَ فِيهِ إِلَى أَلْمَعْنَى سِرُّ أَلْمَعْنَى، وَتَضَعُ أَلْكَلِمَةَ
أَلْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى لِسَانِ أَلطَّبِيعَةِ تَتَكَلَّمُ بِأَلتَمَثَّالِ كَمَا تَتَكَلَّمُ بِأَلْجِيلِ؟

أَمْ تَرْكِيبٌ سِيَاسِيٌّ إِذَا فُسِّرَتْهُ أَللُّغَةُ كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ أَلْكَثَابَ إِذَا أَحْتَاجَ إِلَى مَنْ
يُثَبِّتُهُ... فَلَنْ يَمَحُوهُ مَنْ يُنْكِرُهُ، وَأَنَّ أَلظَّاهِرَ إِنْ أَحْتَاجَ إِلَى مَنْ يَدُلُّ عَلَيْهِ... فَلَنْ
يُخْفِيَهُ مَنْ لَا يَرَاهُ؟

(١) بسطة: سعة.

بَلْ أَرَاكَ لَا هَوْلَ^(١) فَيْكَ يَا أَبَا الْهَوْلِ الْجَدِيدِ.

أَفْذَاكَ مِنْ رِقَّةٍ دَاخَلَتْكَ وَرَحْمَةٌ جَاءَتْكَ مِنْ مَسِّ يَدِ الْمَرْأَةِ...؟

أُمُّ الْهَوْلِ الْيَوْمَ قَدْ أَصْبَحَ فِي الْعَقْلِ وَالْعَاطِفَةِ وَمَذَّ الْعَيْنِ النَّسَائِيَّةِ إِلَى

بَعِيد...؟

أَمْ لَا يَتَمُّ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ رَأْسُ رَجُلٍ وَجَسْمُ سَبْعٍ إِلَّا... إِلَّا بِأَنَاْمِلِ أَمْرَأَةٍ؟

أَلَا مَنْ يُعْلِمُنِي أَهَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنْكَ هِيَ تَهْذِيبٌ لِلْإِنْسَانِ وَالْوَحْشِ أَمْ تَكْمَلَةٌ

عَلَيْهِمَا؟

أَلَا مَنْ يَأْتِينِي بِالْحِكْمَةِ فَيْكَ مِنْ وَضْعِ الرَّجُلِ الْقَوِيِّ رَأْسًا وَلَا جِسْمًا، وَالْأَسَدِ

الْمَفْتَرَسِ جِسْمًا وَلَا رَأْسًا، ثُمَّ لَا يَكْمَلُ دُونَهُمَا إِلَّا الْمَرْأَةُ وَحْدَهَا.

إِنَّمَا كُنْتُ يَا أَبَا الْهَوْلِ لُغْزُ الصِّفَتِ، فَلَمَّا أُصِيفَتِ الْمَرْأَةُ إِلَيْكَ أَصْبَحْتَ لُغْزَ

النُّطْقِ... فَيَا لِلْهَوْلِ!

(١) هَوْلٌ: قُوَّةٌ.

فَاتَحُ الْجَوِّ الْمَصْرِيِّ

يا طَيْرُ الْمَثَلِ الْأَعْلَى!

لَقَدْ أَثَقَلْتُ^(١) مِنْ رَذِيلَةِ الْخَوْفِ وَتَرَكْتُهَا فِي التَّرَابِ مَوْطِئًا الْقَدَمِ، وَقُلْتُ لَهَا: وَيْحَكَ، لَقَدْ آنَ لِلشَّبَابِ الْمَصْرِيِّ؛ فَهُوَ مُغَامِسٌ^(٢) فِي مَاءِ الصَّوَاعِقِ^(٣)، مُتَطَوِّحٌ^(٤) فِي اللَّجْجَةِ الْأَزَلِيَّةِ^(٥) الَّتِي تَغْوِصُ فِيهَا الْكَوَكِبُ^(٦)، يَطِيرُ بِرُوحِ الشَّرَارَةِ، وَيَهْبِطُ بِرُوحِ الْغَيْثِ^(٧)، وَيُلْجِمُ^(٨) الْجَوَّ وَيُسْرِجُهُ^(٩)، وَيَتَعَلَّمُ كَيْفَ يَشْوِي عِدُوَّهُ فِي عَيْنِ الشَّمْسِ.

وَكُنْتُ بَطْلًا مُغَامِرًا فَخَطَوْتُ فِي طَرِيقِ الْمَلَانِكَةِ بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ وَحَمَلْتُ الْجَوَّ؛ وَلَوْ أَنَّكَ خِفْتَ وَكُنْتَ عَلَى جَنَاحِي جَبْرِيلَ لَا عَلَى طَيَّارَةٍ، لَخَافَ جَبْرِيلُ عَلَى جَنَاحِيهِ مِنْ حَطْمَةِ هَذَا الْمَعْنَى التَّرَابِيِّ الطَّاعِيَةِ الَّذِي يَحْكُمُ عَلَى الْأَحْيَاءِ بِالْمَوْتِ بَلَا مَوْتٍ، لِأَنَّهُ أَلْذَلُّ وَالْخَضُوعُ وَالرَّذِيلَةُ.

وَحَمَلْتُ الْجَوَّ إِلَى قُبَّةِ السَّمَاءِ، وَهَنَالِكَ نَظَرْتُ أَعَالِمَ فَرَأَى لِمِصْرَ أَنْهَاضَهُ عَلَّمَهَا الْإِنْسَانِيَّ يَتَنَفَّسُ تَحْتَ الْكَوَكِبِ.

وَحَمَلْتُ الْجَوَّ إِلَيْنَا، فَلَمَّا رَفَعْنَا رُؤُوسَنَا لِتَرَاكِ، رَفَعْنَاهَا فِي الْوَقْتِ بَيْنَ شُعُوبِ الْأَرْضِ.

وَضَرَبْتُ يَا جَنَاحَ مِصْرَ فِي الْهَوَاءِ، وَأَغْنَانُ السَّمَاءِ^(١٠) مَمْلُوءَةٌ بِالزُّعْزَعِ^(١١) وَالْهَوَجِ وَأَعَاصِفٍ، وَالسَّمَاءُ فِي فَصْلِهَا الْمَكْفُوهِ الَّذِي تَخْلُعُ فِيهِ كُلُّ سَاعَةٍ وَتَلْبَسُ

(١) اثْقَلْتُ: تَخَلَّصْتُ.

(٢) مُغَامِسٌ: مِمْلٌ.

(٧) الْغَيْثُ: الْمَطَرُ.

(٣) تِلْكَ كِتَابَةُ عَنِ السَّحَابِ.

(٨) يُلْجِمُ: يَضَعُ اللَّجَامَ لِلْحِمَاةِ.

(٤) مُتَطَوِّحٌ: مُتَمَاتِلٌ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ.

(٩) يُسْرِجُهُ: يَقْعُ السَّرْجَ لِلْحِمَاةِ.

(٥) اللَّجْجَةُ الْأَزَلِيَّةُ: السَّمَاءُ.

(١٠) أَعْنَانٌ، مَفْرَدَةُ عَنَانٍ، بِالْفَتْحِ: نَوَاحِيهَا.

(٦) تِلْكَ كِتَابَةُ عَنِ أَجَوَازِ الْفَضَاءِ.

(١١) الزُّعْزَعُ: تَرَدُّدُ الصَّوْتِ كَالْجَلْجَلَةِ.

وَتَمَزَّقُ^(١) وَتَطْوِي، فِرِذْتَ بِجُرْأَتِكَ فِي بَرَاهِينِ الْقَضِيَّةِ الْمَصْرِئَةِ بِرَهَانِ قُوَّةِ
الْمُخَاطَرَةِ، وَأَضَفْتَ إِلَى مَطْعَمِهَا وَضْعاً جَدِيداً مُفْجِئاً مِنْ رُوحِ التَّضْحِيَةِ.

وَطُرِزَتْ بَيْنَ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ فَجَعَلْتَهُمَا يَسْتَوِيَانِ فِي اعْتِقَادِكَ؛ إِذْ وَصَلْتَ فِكْرَةَ
الْمَوْتِ بِسَرِّ الْإِيمَانِ، وَالْحَيَاةِ بِسَرِّ الْعَزِيمَةِ.

وَكُنْتَ رَجُلٌ أَثْبَتَكَ بِإِنْكَارِ ذَاتِ نَفْسِكَ مِنْ أَجْلِهَا.

وَأَتَسَعْتَ لِلتَّارِيخِ بِوَضْعِكَ عُمْرَكَ الْمَحْدُودَ عَلَى الطَّيَّارَةِ، وَقَذَفْتَ بِهَا وَبِهِ فِي
مَسَبِّحِ الْأَجَلِ.

وَتَجَرَّؤْتَ لِلْأَبَدِيَّةِ لِتُعْطِيَ بِلَاذِكْ: إِمَّا شَهِيدَ مَجْدٍ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا شَهَادَةَ فَخْرِ
فِي الدُّنْيَا.

وَكُنْتَ عَلَى طَيَّارَتِكَ الصَّغِيرَةِ الْمُنْتَطَارِدَةِ تَحْتَ الرِّيحِ، وَحَوْلَكَ رُوحُ الْهَرَمِ
الْأَكْبَرِ الْقَائِمِ بِإِرَادَةِ مِصْرَ وَكَأَنَّهُ يَسْمَارٌ مَدْقُوقٌ فِي كُرَةِ الْأَرْضِ بَيْنَ الْقُطْبِ وَالْقُطْبِ.

وَأَنْتِ يَا «فَائِزَةً» يَا هَذِهِ الصَّغِيرَةَ الْخَارِجَةَ مِنْ مَالِ صَاحِبِهَا وَجُهِدِهِ وَعَزِيمَتِهِ
كَمَا تَخْرُجُ الْقُوَّةُ مِنْ ضَعْفٍ، أَعْلَمْتِ إِذْ أَنْتِ تَرْتَفِعِينَ وَتَهْبِطِينَ بَيْنَ السُّحُبِ كَمَا
تَتَوَاقَبُ الْفَرَاشَةُ عَلَى الْنَوَارِ فِي رَوْضَةِ مُزْهَرَةٍ، وَإِذْ أَنْتِ تَفْتَقِنِينَ وَتُحَوِّكِينَ فِي مَلَأَةِ
السَّحَابِ كَأَنَّكَ بِمُحَرِّكِ الدَّوَّارِ تُنْسِجِينَ فِي السَّمَاءِ بِمَغْزَلٍ، وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ صَفْقِ
الرِّيحِ الْهَوِجِ^(٢)، تَحْتَ السَّمَاءِ الْمُدْجَّجَةِ^(٣)، فِي كُبَّةِ الشِّتَاءِ^(٤)، كَأَنَّكَ مَنَاطِرَةَ
تَجْرِي بَيْنَ الْعَزِيمَةِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْعَزِيمَةِ فِي الطَّبِيعَةِ، وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ ذُنَابِ الْأَعَاصِيرِ،
وَتُؤَمِّرُ السَّحَابَ^(٥) وَسِبَاعَ الْغَيْمِ ذَوَاتِ اللَّبَدَةِ الْكَثِيفَةِ الْمُتَشَعِّعَةِ، كَأَنَّكَ بِصَوْتِكَ
وَأَزْيِزِكَ تُطَلِّقِينَ عَلَى وَحْشِ الْجَوِّ مِدْفَعاً رَشَاشاً يَتْرَكُهَا صَرَغِي،

وَإِذْ تَرَاكِ الرِّيحَ فَتَقُولُ عَنْكَ: رِيحٌ صَنَعَهَا الْإِنْسَانُ. وَيَرَاكِ الْنَجْمُ فيقول: نَجْمٌ
أَفْلَتَ مِنَ النُّظَامِ الْأَرْضِيِّ. وَتَرَاكِ أَمْلَانَكُ فَتَقُولُ: وَيَحْكُ يَا أَبْنَى آدَمَ، كَأَنَّكَ بِمَا

(١) كناية عن المطر وطبيعة الشتاء.

(٢) الهرج، مفردة هوجاء أي المجنونة التي لا تستقر ولا تهدأ.

(٣) المدججة: المفعممة.

(٤) كبة الشتاء: عنفه وغازاته.

(٥) السحاب: الغيم.

خَلَقَهُ الْعَقْلُ تَطْمَعُ مِنَّا فِي سَجْدَةٍ أُخْرَى كَالَّتِي سَجَدْنَاهَا لِأَدَمَ يَوْمَ خَلَقَهُ اللَّهُ .
أَعْلَمْتَ إِذْ أَنْتِ كَذَلِكَ يَا «فائزَة» ، أَنَّ التَّارِيخَ الْمَصْرِيَّ سَيَحْوِلُكَ مِنْ
طَيَّارَةٍ إِلَى آيَةٍ كَأَيَّةِ بَذْءِ الْخَلْقِ ، لِأَنَّ فِيكَ بَذْءَ الطَّيْرَانِ فِي مِصْرَ ؟

سَلاماً بِأَفَاتِحِ الْجَوِّ الْمَصْرِيِّ . لَقَدْ أَجَالَتْ أَلْيَامُ قِدَاحِهَا^(١) فَخَرَجَتْ أَلْقُرْعَةُ
عَلَيْكَ ، وَأَوْحَى إِلَيْكَ الْوَاجِبُ آيَةً : بِسْمِ اللَّهِ مَضَعُهَا وَمَجَرَاهَا .
وَطِرَتْ فَإِذَا أَنْتِ بِهَا عَابِرٌ فَوْقَ الْحَاضِرِ لِتَجِيئَنَا مِنْ جَانِبِ الْمُسْتَقْبَلِ .
وَهَبَطَتْ عَلَيْنَا كَأَنَّكَ فِي بَرِيدِ السَّمَاءِ كِتَابٌ مُجِدِّ حَيٍّ لِلْوَطَنِيَّةِ الظَّافِرَةِ .
بَلْ كِتَابُ قِصَّةٍ رَائِعَةٍ أَلْفَتْهَا الْعَوَاصِفُ مِنْ فَتَيْنِ : ثَوْرَةُ الْجَوِّ وَثَوْرَةُ نَفْسِكَ
الْمَصْرِيَّةِ . وَحَكَّتْهَا فِي صَوْتَيْنِ : زَفِيرِ الطَّيَّارَةِ وَصُرْخَةِ ضَمِيرِكَ الْوَطَنِيِّ . وَجَعَلَتْهَا
فَصْلَيْنِ : أَنْتَ وَالْمَجْهُولُ . أَلَا حَسْبُكَ مَجْدًا أَنْ يَحْيَا الشَّعْبُ كُلُّهُ بَضْعَةَ أَيَّامٍ فِي قِصَّتِكَ !

فَعَلَى مَهْدِ الْجَوِّ ، وَفِي خَرِيرِ الشَّعَاعِ ، وَتَحْتَ كِلَّةِ الْأَسْحَابِ - وَلَدَ لِمِصْرَ يَوْمَ
تَارِيخِي .
وَخَرَجْتَ أَلْتَهَانِيَّةً أَلَّتِي طَالَ أَحْتِبَاسُهَا^(٢) فِي الْقُلُوبِ الْمَصْرِيَّةِ لَا يُفْرَجُ عَنْهَا
لِأَنَّ سَجَانَهَا ظَلَمَ السِّيَاسَةَ .
وَأَتَجَهَّتْ أَفْرَاحُ شَعْبٍ كَامِلٍ إِلَى الْفَتَى الْجَرِيءِ الَّذِي رَمَتْ بِهِ هِمَّتُهُ فَوْقَ هَاوِيَةِ
الْمَوْتِ فَتَخَطَّاهَا .
وَتَلَقَّى شَعُورَ الْأُمَّةِ رَسُولَهُ الْمَقْدَامَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ مَلْجَأٌ فِي خِطَابِهِ إِلَّا
شَعُورُهُ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ .

وَأَرْتَجُّ أَلرَّادِي كُلَّهُ كَأَنَّهُ غَمْدٌ يَتَقَلَّبُ حِينَ يُسَلُّ مِنْهُ السَّيْفُ .
ثُمَّ أَهْدَيْتُ كَلِمَةً مِصْرَ لِابْنِهَا الَّذِي كَتَبَ فِي جَوْهَا أَلْكَلِمَةَ السَّمَاوِيَّةَ الْأُولَى .
وَكَانَتْ سَاعَةً تَلَاشَى عِنْدَهَا أَلزَّمَنُ فَأَرْتَفَعَتْ مِنْهُ أَرْبَعَةُ أَلْآفِ سَنَةٍ وَهَتَفَ مَعَهَا
أَلْفِرَاعَةُ : بَوْرَكْتَ يَا «صَدِيقِي» !

(١) قِدَاحُهَا : كَاسُهَا لَتَقْرَعَ فِيهَا عَلَى طَرِيقَةِ الْجَاهِلِيَّةِ . (٢) أَحْتِبَاسُهَا : سَجْنُهَا .

لِلَّهِ دَرْكُ أَيُّمًا أَبْنِ عَزِيمَةٍ! كَأَنَّمَا كَشَفْتَ أَهَؤُولَ الْوُخْيِ وَهَبَطْتَ فِي سَحَابَةٍ
مُجَلِّجَةٍ إِنْ لَمْ تَحْمَلْ كِتَابًا مُنْزَلًا فَكَأَنَّمَا حَمَلْتَ شَخْصًا مُنْزَلًا
وَلَعَلَّكَ رَسُولُ الْغَيْمِ الْعَاسِ لِهَذَا الْجَوِّ الْمَصْرِئِ الَّذِي يَضْحَكُ دَائِمًا ضَحْكَةً
الْفَيْلَسُوفِ السَّاحِرِ فِي حِينٍ أَصْبَحَتْ الْحَيَاةُ قُوَّةً لَا فِلْسَفَةً...
وَلَعَلَّكَ مَبْعُوثُ الْبَرَقِ وَالرَّعْدِ لِهَذَا السَّكُونِ النَّائِمِ الَّذِي يَطْوِي كُلَّ يَوْمٍ فِي طَيِّ
النَّسْيَانِ مَا حَدَثَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي قَبْلَهُ...
وَلَعَلَّكَ نَبِيُّ الْجِدْيَةِ وَالْمَرَارَةِ لِهَذِهِ الْحَلَاوَةِ النَّيْلِيَّةِ الْمُفْرِطَةِ الَّتِي كَادَ مِنْهَا
الشَّعْبُ أَنْ يَكُونَ سُكَّرُ أَخْلَاقٍ يُذَابُ وَيُشْرَبُ.
وَلَعَلَّكَ تَفْسِيرُ مَصْحُوحٍ لِعَقِيدَتِنَا الْمَغْلُوطَةِ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، أَنَّ الْقَضَاءُ أَنْ
تُقَدِّمَ بِلَا خَوْفٍ، وَأَنَّ الْقَدَرَ أَنْ تَتَّقَ بِلَا مُبَالَاهِ.
أَمَّا - وَاللَّهِ - لَقَدْ غَمَرَتْ الشَّعْبَ بِمَرْجَةٍ هَوَاءٍ جَدِيدَةٍ جِئْتَ بِهَا فِي جَنَاحَيْكَ،
وَنَفَخْتَ رَوْحَ طَيَّارَتِكَ الْمَجِيدَةِ فِي الْقُلُوبِ فَجَعَلْتَهَا كُلُّهَا تَرْفِرُ كَأَنَّ لَكَ فِي ضُلُوعِ
كُلِّ مِصْرِيٍّ طَيَّارَةً.

أجنحة المدافع المصرية

إِسْتَجْنَحِي^(١) يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي، إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرْقِي. لَقَدْ مَدَّتْ لُغَةُ الْقُوَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَدَّهَا حَتَّى أَصْبَحَ الطَّيْرَانُ بَعْضُ مَعَانِي الْمَشْيِ، وَلَمْ يَعِدِ الْعَالَمُ يَدْرِي كَيْفَ تَكُونُ الْأَصُورَةُ الْأَخِيرَةُ الَّتِي يَسْتَقِرُّ فِيهَا مَعْنَى إِنْسَانِهِ.

فَلْتَتَمَجَّدْ مِصْرُ بِإِنْسَانِهَا الْبَرْقِي الَّذِي تَخْرُجُ النَّارُ بِيَدِهِ مِنْ أَغْرَاضِ السَّحَابِ، وَتُفْرِقُ فِي أَصَابِعِهِ هَزَاتُ الرُّعْدِ، وَيَجْعَلُ فِي قُبَّةِ السَّمَاءِ صَلَاصَةً وَجَلْجَلَةً، وَيَحْمِلُ الْأَسْمَ الْمِصْرِيَّ إِلَى مُعَلَّقِ النِّجْمِ، فَيَضَعُ لَهُ هُنَاكَ التَّعْرِيفَ النَّارِيَّ الَّذِي وَضَعَتْهُ الدُّوَلُ الْعَظُمَى لِأَسْمَائِهَا.

وَلْتَتَمَجَّدْ مِصْرُ بِإِنْسَانِهَا الْبَرْقِي الَّذِي يُشْعِرُهَا حَقِيقَةَ الْعُلُوِّ الْعَالِي، وَالْعُمُقِ الْعَمِيقِ، وَالسَّعَةِ الَّتِي لَا تُحْدُ؛ وَيَزِيدُ فِي مَعَانِي أَحْيَائِنَا مَعْنَى جَدِيداً لِأَحْيَاءِ السُّحُبِ، وَفِي مَعَانِي أُمُوتِنَا مَعْنَى جَدِيداً لِمُوتَى الْكَوَاكِبِ.

إِنْسَانُ بَرْقِي يُتِمُّ بِشَجَاعَتِهِ فِي السَّمَاءِ بَطُولَةً فَلَا جُنَا الْإِنْسَانِ الشَّمْسِيِّ فِي الْأَرْضِ، وَيَعْلُو بِكِبْرِيَاءِ مِصْرَ فِي ذُرُورِ الْعَالَمِ، فَتُظْهِرُ طَيَّارَاتُهَا الْعَظِيمَةَ قُدْرَةً فِي الْجَوِّ كَمَا ظَهَرَتْ آثَارُهَا الْعَظِيمَةُ قُدْرَةً فِي الْبَرِّ.

إِنَّهَا مِصْرُ، مِصْرُ الْقَادِرَةِ الَّتِي سَحَرَتْ الْقَدَمَ بِقُوَّتِهَا وَفَنَّهَا، فَبَقِيَ فِيهَا عَلَى حَالِهِ وَجَلَالَتِهِ، وَأَنْهَزَمَ الْدَّهْرُ عَنْهُ كَأَنَّهُ قُوَّةٌ عَلَى قُوَّةِ الزَّمَنِ نَفْسِهَا.

فَاسْتَجْنَحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي. إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرْقِي.

وَلَمَّا فُتِحَ السَّجَلُ ذَاتَ صَبَاحٍ لِنَكْتَبَ مِصْرُ أَسْمَاءَ الْفُوجِ الْأَوَّلِ مِنْ نُسُورِهَا الْحَرِيِّينَ، صَاحَ مَجْدُهَا الْخَالِدُ مِنْ أَعْمَاقِ التَّارِيخِ:

«أَضْرَمِي الشَّلْعَةَ الْأَدَمِيَّةَ الْأُولَى يَا مِصْرُ، وَافْتَحِي الْقَبْرَ الْجَوِّيَّ الْأَوَّلَ، وَالْجَدِي

(١) استجني: اجعلي لنفسك جناحين.

فيه من عنصريك المسلمين والأقباط، وضّعي الحياة في أساس الحياة، وأستقبلي عصركِ الجديد بأذان المسجد ودق أنافوس ليباركه الله، ولتلقِ الشعب أول طياريه بقلوب فيها روح المعركة، وأكباد عرفت مس النار؛ ولا ينظرن إلى طيارته الأول إلا بعد أن ينظر التعشين فيرى مجد الموت في سبيل الوطن، فتسطع نظرائه ببريق الكبرياء، ولعمة العزيمة، وشعاع الإيمان؛ ويأتلق فيها النور السماوي الذي يجعل الناس في بعض ساعاتهم كواكب، نور صلاة الشعب على موتاه الشهداء.

وأستجاب القدر لصوت المجد، فالتج^(١) الظلام في وضح الصبح، وأنطفأ سراج في النهار قبة ألفلك، وأطبقت نواحي الجو إطباق ليلة تساقطت أركانها وأقبل الضباب يعترض أعتراض جبل عائم يتذبذب^(٢) في بحر، وأستأرض^(٣) السحاب فتخلّى عن طبيعته السماوية الرقيقة، وتذامرت^(٤) العناصر على القتال يحض^(٥) بعضها بعضاً، وتغشّت^(٦) السماء بوجه الموت: كلح فازبد^(٧) وأنتفخ، وتكسرت فيه الغصون كل غصن كسفة ظلام، وعاد أوسع شيء أضيق شيء، فكان الفضاء كصدر المحتضر: ليس معه إلا عمر ساعة وأنفاسها.

وإبتدرت إلى مجد الموت الطيارة المصرية الأولى؛ وكان فيها إنكليزيان يقودانها فأباهما الموت، فذهبت فأنتحرت أسفاً وتردّت متحطمة، وأنسل الرجلان من مخالب الردي^(٨)، وكانا في الطيارة كورقتين من الثبت في قم جرادة همت تقضمها...

وتستبق الثانية فإذا فيها وديعة الكرم من عنصري مصر: «حجاج ودوس» وكان سرا من أسرار مصر اجتماعهما في مداخض العمام ومزالقه، ليكونا هدية مصر الأولى إلى مجدها العربي، ثم ليكونا هدية المجد إلى إحساس هذا الشعب يحس منهما العالم المنطوي له في مستقبل النصر.

واعتسفت^(٩) طيارة الشهيدين طريق ألفناء ومناهة^(١٠) الحياة، فذهبت عنها

(١) التج: أصبح لجة.

(٢) يتذبذب: يتردد لوجوده في الهواء، ويتحرك. (٧) ارتد: تلبّد.

(٣) استأرض: تحول إلى أرض. (٨) الردي: الموت.

(٤) تذامرت: تداعت للاجتماع. (٩) اعتسفت: مالت وخطت على غير هداية.

(١٠) مناهة: صعوبة الحياة ومتطلباتها.

مَعَارِقِ الْأَرْضِ، وَغَمِيَتْ عَلَيْهَا مَعَالِمُ السَّمَاءِ، وَخَرَجَتْ مِنْ تَصْرِيفِ أَيْدِي
الْبَطْلِينَ إِلَى تَصْرِيفِ أَجْلِهِمَا، وَأَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا تَطِيرُ فِي الْأَنْفَاسِ الْبَاقِيَةِ لَهُمَا؛
فَمَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ؛ وَلَمْ تَكُنْ طَيَّارَةً تَحْمِلُهُمَا، بَلْ جَنَاحًا مَمْدُودًا لَهُمَا مِنْ
رَحْمَةِ اللَّهِ.

ثُمَّ أَجْتَرَّهَا الْمَوْتُ إِلَى غَوْرٍ، فَانْحَطَّتْ مِنَ الْهَوَاءِ جَانِحَةً كَالطَّائِرِ يَطْلُبُ مَلْجَأً
فِي الْعَاصِفَةِ، ثُمَّ أَنْتَهَضَتْ وَائِبَةً، وَتَمَطَّرَتْ مَنَقِبِيَّةً، فَاشْتَعَلَتْ فَاسْتَعَرَتْ فَانْضَجَتْ
رَاكِتِيهَا، رَحِمَهُمَا اللَّهُ!

وكثيراً ما يكونُ منظرُ الحزنِ في الْحَيَاةِ هُوَ أَنَّهُمَا كَالْحَيَاةِ فِي عَمَلٍ جَدِيدٍ تُبْدَعُ
مِنْهُ السُّرُورُ وَالْقُوَّةُ. أَحْتَرَقَ الْبَطْلَانُ لِتَسَلَّمَ مَصْرُ فِي نَعَشِيهِمَا رَمَادًا لَنْ يُبْنَى تَارِيخُ
الْعِزَّةِ الْوُطَنِيَّةِ إِلَّا بِهِ.

فَاسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مَصْرَ وَطِيرِي. إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مَثَا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِي.



صَنَعَتْ أَلِنَارُ الْأَدَمِيَّةُ الْحَقِيقَةَ، وَوَضَعَتْ لَنَا أَلِاسْمَ الْبَدِيعِ الَّذِي تُطْلُقُهُ عَلَى
طَيَّارِنَا الْأَبْطَالِ، فَلَا تُسَمُّوهُمْ سُورَ الْجَوِّ، وَلَكِنْ سَمُّوهُمْ «جَمَرَاتِ الْجَوِّ».

صَنَعَتْ نَارُنَا الْحَقِيقَةَ، وَأَوَحَّتْ لِنَا أَنْ نَسْتَبْدِلَ مِنْ أَنْفُسِنَا حَالَةً بِحَالَةٍ، وَأَنْ
نُفَاجِيءَ شُعُورُنَا الْحَالَمَ فَنَصْدَمَهُ بِأَلَامِ الْبِقَظَةِ الْمَرَّةِ، وَأَنْ نَغَيِّرَ قَاعِدَةَ الْحَيَاةِ فِي التَّرْبِيَةِ
الْمَصْرِيَّةِ فَلَا تَكُنْ: الْعَيْشُ الْعَيْشُ، وَلَكِنْ الْقُوَّةُ الْقُوَّةُ.

صَنَعَتْ أَلِنَارُ الْحَقِيقَةَ، وَأَثْبَتَتْ لَنَا أَنَّ الْحَيَاةَ إِنْ هِيَ إِلَّا أَدَاةٌ لِلْحَيِّ، وَلَيْسَ
الْحَيُّ أَدَاةً لِلْحَيَاةِ، فَلْيَتَصَرَّفْ بِهَا عَلَى قَوَانِينِ الرُّوحِ وَآمَالِهَا فَيَسْمُوَ وَتَسْمُو، وَلَا
يَدْعُهَا تَتَصَرَّفْ عَلَى مَذَاهِبِ أَقْدَارِ الْمَادَّةِ وَتَصَارِيفِهَا فَيَذَلُّهَا وَتَذَلُّهُ. وَفِي قَانُونِ
الرُّوحِ: لَا قِيَمَةَ لِعَالَمِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا كَمَا تَصْلُحُ لَنَا؛ وَفِي قَانُونِ الْمَادَّةِ وَضْعُطَةُ الْحَيَاةِ:
كَمَا تَصْلُحُ لَنَا وَكَمَا نَصْلُحُ لَهَا.

بَلَى، قَدْ صَنَعَتْ أَلِنَارُ الْأَدَمِيَّةُ الْحَقِيقَةَ، وَأَعْطَتْنَا قِصَّةَ الْحَرِّيَّةِ كَامِلَةً فِي مَعْنَى
وَاحِدٍ: وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ الْحَرِّيَّةَ لِعَاشِقِيهَا كَأَجْمَلِ الْجَمِيلَاتِ لِلْمَتَنَافِسِينَ عَلَيْهَا: جَمَالُهَا
مَتَوَحُّشٌ، وَخَلَاعَتُهَا مُفْتَرِسَةٌ، وَظَرْفُهَا سَفَاكٌ لِلْدَمِ.

فَاسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مَصْرَ وَطِيرِي. إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مَثَا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِي.

والى السماء يا «جَمَرَاتِ الجَوْ»، فإذا أَسْتَوَيْتُمْ^(١) على السحاب، فليست
الطَّيَّارَةُ ثُمَّ طَيَّارَةٌ، بل حَقِيقَةٌ حَيَّةٌ عامِلَةٌ للمجد، فلتَحْمِلْ معناها الْمَصْرِيُّ من بَطْلِهَا
الْمَصْرِيِّ.

وإذا سَبَحْتُمْ في مَهِيطِ الْقَدَرِ، فليسَ الطَّيَّارُ ثُمَّ طَيَّاراً، بل حَيَاةٌ عَبْقَرِيَّةٌ أَرْسَلَتْهَا
مِصْرُ تَسْتَنْزِلُ لِلْحَيَاةِ أَقْدَاراً سَعِيدَةً.

وإذا خُضْنْتُمْ في الْمَعْرَكِ الضَّنْكِ^(٢) تتبَعَرُ فِيهِ أَلْجَالُ على الرِّيحِ، فليسَ
الْجِسْمُ الْمَصْرِيُّ هناك من لحم ودم، بلْ نَامُوساً طَبِيعِيّاً مَاضِياً إلى غَايَةٍ.

وإذا تَفَادَفْتُمْ في بحرِ الشَّمْسِ، فأنتم هناك على شِبَاكِ طَرَحْتُمُوهَا لِصَيْدِ أَيَّامٍ
مُضِيَّةٍ تَلْتَمِيعُ في تَارِيخِ مِصْرٍ.

وإذا نَفَذْتُمْ من أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ، فأنظروها بِأَعْيُنِكُمْ مَعَالِي مِصْرٍ، وَأَفْهَمُوهَا
بِقُلُوبِكُمْ ذَاتِيَّةً أَلُوطِنِ الْمِصْرِيُّ تَعْلُو وتَعْلُو ولا تَزَالُ أَبَداً تَعْلُو.

إنَّما الطَّيَّارَةُ وَسَلاخُهَا وَطَيَّارُهَا تَأَلِيفٌ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْعُنَاصِرِ، مَعْنَاهُ في
الْعَزِيمَةِ «لا بَدْ». وَمتى هَدَرَتِ الطَّيَّارَةُ هَدِيرَهَا فَإِنَّمَا تَقُولُ لِلْبَطْلِ مِنْكُمْ: هَلُمَّ مِنْ
عَالٍ إِلَى أَعْلَى، إِلَى أَكْثَرِ عُلُوءٍ، إِلَى أَقْصَى حُدُودِ الْوَاجِبِ عَلَى النَّفْسِ حِينَ يَأْخُذُ
الْوَاجِبُ الْكُلَّ وَحِينَ تُعْطِي النَّفْسُ الْكُلَّ.

فَأَسْتَجْنِحي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطَيَّرِي. إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِيَّ.

(٢) الضَّنْكَ: ضيق العيش.

(١) استويت: وكنيت.

الطماطمُ السياسي...

كَانَ (م: باشا رَحْمَهُ أَلَلَهُ - دَاهِيَةٌ مِنْ ذُهَابِ السِّيَاسَةِ الْمَصْرِيَّةِ، يَلْتَوِي مَرَّةً فِي يَدِهَا أَلْتَوَاءُ الْحَبْلِ، وَيَسْتَوِي فِي يَدِهَا مَرَّةً أَسْتَوَاءُ السَّيْفِ، وَلَا يُرَى أُبْدَأُ إِلَّا مِنْكَشِشاً مُتَحَرِّزاً^(١)) كَأَنَّ لَهُ عَدُوًّا لَا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ وَلَا مَتَى يَقْتَجِمُ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ كَغَيْرِهِ مِنْ أَلرُّؤَسَاءِ أَلَّذِينَ كَانُوا أَلَاتِ لِّلْكَذِبِ بَيْنَ طَالِبِ الْحَقِّ وَغَاصِبِ الْحَقِّ - يَعْرِفُ أَنَّ عَدُوَّهُ كَامِنٌ فِي أَعْمَالِهِ.

وَكَانَ ذَكِيًّا أَرَبِيًّا^(٢)، غَيْرَ أَنَّ مَلَابَسَتَهُ لِّلْسِيَاسَةِ أَلَدَائِرَةِ عَلَى مِحْوَرِهَا، جَعَلَتْ نِصْفَ ذِكَايِهِ مِنْ أَلذِّكَاءِ وَنِصْفَهُ مِنْ أَلْمَكْرِ؛ فَكَانَ فِي مَرَاوِعِهِ كَأَنَّ لَهُ ثَلَاثَةَ عَقُولٍ: أَحَدُهَا مِصْرِيٌّ، وَأَلْآخَرُ إِنْجِلِيزِيٌّ، وَأَلثَّلَاثُ خَارِجٌ مِنْ أَلْحَالِينَ.

وَبِهَذَا تَقَدَّمَ وَعَاشَ أَثِيرًا عِنْدَ أَلرُّؤَسَاءِ مِنْ أَلْإِنْجِلِيزِ، وَأَسْتَمَرَّتْ مِجَارِيهِ مُطَرِدَةً^(٣) لَدَيْهِمْ حَتَّى بَلَّغُوا بِهِ إِلَى أَلزَّوَارَةِ، إِذْ كَانَ حَسَنَ أَلْفَهْمِ عَنْهُمْ، سَرِيعَ أَلِاسْتِجَابَةِ إِلَيْهِمْ؛ يَفْهَمُ مَعْنَى أَلْفَاطِهِمْ، وَمَعْنَى أَلنِّيَّةِ أَلَّتِي تَكُونُ وَرَاءَ أَلْفَاطِهِمْ، وَمَعْنَى آخَرَ يَتَبَرَّعُ هُوَ بِهِ لِأَلْفَاطِهِمْ... فَكَانَ هُوَ وَأَمثَالُهُ فِي رَأْيِ تِلْكَ أَلْسِيَاسَةِ أَلْقَدِيمَةِ، رِجَالًا كَالْأَفْكَارِ: يَوْضَعُ أَحَدُهُمْ فِي مَكَانِهِ مِنْ أَلْحُكْمِ كَمَا تَوْضَعُ صِبْغَةُ أَلشُّكِّ لِإِفْسَادِ أَلْيَقِينِ، أَوْ صِبْغَةُ أَلْوَهْمِ لِتَوَلِيدِ أَلْخِيَالِ، أَوْ صِبْغَةُ أَلهَوَى لِإِيجَادِ أَلْفِتْنَةٍ.

وَكَانَ صَدِيقِي (فَلَانٌ) - رَحْمَهُ أَلَلَهُ - صَاحِبَ سِرِّهِ (السَّكْرَتِيرِ)، وَقَدْ وَثَّقَ بِهِ أَلْبَاشَا حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُعَالِيهِ^(٤) بِمَا فِي نَفْسِهِ، وَبِئْسَ^(٥) هُمُومُهُ وَأَحْزَانُهُ، وَبَرَى فِيهِ دُنْيَا حَرَّةٌ يَخْرُجُ إِلَيْهَا كُلَّمَا ضَاقَتْ بِهِ دُنْيَا وَظِيفَتُهُ، وَيَسْتَعِيرُ مِنْهُ أَلْيَقِينُ أَلْحِينَا بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ مِصْرِيًّا لَمْ يَتَّمْ بَعْدُ تَحْوِيلُهُ فِي أَلْكَرْسِيِّ...

(١) متحززا: محتزسا.

(٢) أريباً: ذكياً.

(٣) مطردة: متدافعة متوالية.

(٤) يعالته: يطلعه على ما في نفسه.

(٥) يئس: يشكو له ما يعانیه.

فحدثني الصديق بعد موت هذا الباشا قال: إِنَّهُ دعاه يوماً لِيُنَاقِشَهُ الرَّأْيَ فِي
أَمْرِ مِنْ أُمُورِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنَّ الرَّئِيسَ الْإِنْجِلِيزِيَّ غَيْرُ مُطْمَئِنٍّ إِلَيْكَ لِأَنَّ حَقِيقَةَ مِنْ
الْحَقَائِقِ الصَّرِيحَةِ ظَاهِرَةٌ عَلَى وَجْهِكَ، فَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّكَ تَقُولُ لَهُ بَعِينُكَ إِنَّكَ
مَصْرِيٌّ مُسْتَقِلٌّ.

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: لَيْتَنِي كَانَ ذَلِكَ مَا يُغْضِبُهُ إِنَّ الْخُطْبَ لَهَيْنَ، فَلَسْتُ أَنْظُرُ
إِلَيْهِ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ نَظَارَةِ سُودَاءَ...

فَضَحَكَ الْبَاشَا وَقَالَ: يَا بُنَيَّ، هَذَا الْإِنْجِلِيزِيُّ عِنْدَنَا كَالشَّيْطَانِ: ﴿إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ
وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ إِنِّي لِأَشَدُّ أُنْفَةً مِنْكَ، وَإِنَّ صَدْرِي لَشَجِيٌّ^(١)
مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنْ هَذَا الْكَرْبِ^(٢)، وَلَكُنَّا - نَحْنُ الشَّرْقِيِّينَ - قَدْ ضَعُنَا مِنْذُ فَقَدْنَا
الشَّخْصِيَّةَ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ.

أَثْرَاكَ تَفْهَمُ شَيْئاً لَوْ قُلْتُ لَكَ: رَجُلٌ، أَسَدٌ، جَبَلٌ، مَدِينَةٌ، أَسْطُولٌ؟ إِنَّ
تَرْكِيبَنَا الْأَجْتِمَاعِيَّ شَيْءٌ كَهَذَا الْكَلَامِ: فِيهِ مِنْ ضَخَامَةِ الَّلَفْظِ بِقَدَرٍ مَا فِيهِ مِنْ أَنْحِلَالٍ
الْمَعْنَى وَأَضْمَحِلَالِهِ. وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ إِذَا أَفْرَدَتْ مَعْنَى صَحِيحَ يَقُومُ بِهَا وَتَقُومُ بِهِ، غَيْرَ
أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى مَعْنَى كَلَّا مَعْنَى.

أَصْبَحَ الشَّرْقِيُّ يَعِيشُ فِي أُمْتِهِ عَلَى قَاعِدَةٍ أَنَّهُ مُنْفَرِدٌ لَا صِلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَطْرَافِ
لَا فِي الزَّمَانِ وَلَا فِي الْمَكَانِ، وَنَسِيَ مَعْنَى الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ
تَعِيشُ أَبَدًا». فَمَاذَا كَانَ يُرِيدُ أَعْظَمُ الْمُصْلِحِينَ الْأَجْتِمَاعِيِّينَ مِنْ قَوْلِهِ: «كَأَنَّكَ تَعِيشُ
أَبَدًا»؟ إِلَّا أَنْ يَقَرَّرَ لِأُمْتِهِ أَنَّ الْفَرْدَ يَنْبُوعُ الْأَجْيَالِ الْمُقْبِلَةِ كُلِّهَا، فَلْيَعْمَلْ لَهَا وَلِنَفْسِهِ
كَأَنَّهَا مُوقِفَةٌ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ مُسْتَمِرٌّ فِيهَا.

هَذِهِ حِكْمَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ دَقِيقَةٌ، عِنْدَنَا نَحْنُ لَفْظُهَا وَلَسْنَا نَعْرِفُ مَعْنَاهَا، وَعِنْدَ
الْإِنْجِلِيزِ مَعْنَاهَا وَلَا يَعْرِفُونَ لَفْظُهَا. أَهْمُ الْمُسْلِمُونَ أَمْ نَحْنُ؟

وَعَلَى قَاعِدَةٍ الْإِنْفِرَادِ أَنْفَرَدَ كُلُّ شَيْءٍ؛ فَآثَرُ الشَّرْقِيِّ حَيَاتُهُ عَلَى وَطَنِهِ، وَقَدَّمَ
لَذَّتَهُ عَلَى وَاجِبِهِ، وَتَعَامَلَ بِالْمَالِ فِي مَوَاضِعِ الْمُعَامَلَةِ بِالْأَخْلَاقِ؛ وَكَانَ طَبِيعِيًّا مَعَ
هَذَا أَنْ يَخْتَصِرَ الْدِّينَ اخْتِصَارًا يَجْعَلُهُ مِقْدَارًا بَيْنَ مِقْدَارَيْنِ، فَلَا هُوَ دِينٌ وَلَا هُوَ غَيْرُ
دِينٍ؛ وَبِذَلِكَ يُنَاسِبُ فَرْدِيَّتَهُ وَيَقْعُدُ تَحْتَ حُكْمِهِ وَهُوَ خَارِجٌ عَلَيْهِ؛ فَتَرَى الرَّجُلَ مِنْ

(٢) الكرب: الضيق.

(١) شجي: حزين.

هذه الملايين يؤمن بالله وهو يحلف به كذباً على درهم، ويصلي ويفجر في يوم واحد، ويتعبّد في نفسه ويخون سواه في وقتٍ معاً.

ومتى كانت الحالة النفسية للأمة هي هذه الفردية ومصالحها ودواعيها، كان الكذب أظهر خلال هذه الأمة، إذ هو أنفراد الكاذب بحظه ومصالحه وداعيته؛ ولا يكذب عليك إلا مَنْ يرجو أن تكون مغفلاً، أو من قدّر في نفسه أن المعاملة العامة في الأمة هي على قاعدة المغفلين. . . ويكذبون في هذا أيضاً فيسمونه جذاً وبراعة (وشطارة).

وإذا عمّ الكذب فشا منه الهزل؛ فكل كاذب هازل، وهل يجد الكاذب وهو يكذب إلا إذا كان مجنوناً؟ ومن الهزل ضرب هو المباشطة بالكذب، ومنه ضرب من كذب الحقائق، ومنه من كذب الخيال، وكيفما دارت الحال لا تجده إلا كذباً.

ومتى صار الكذب أصلاً يعمل عليه، تقرر عند الناس أن الكلام إنما يقال ليُقَالَ فقط. أفلسنت ترى الرجلين إذا أخبر أحدهما صاحبه بالخبر فيه شيء من الغرابة أو البعد، لا يكلمه الآخر أول ما يتكلّم إلا أن يسأله: صحيح؟ صدق؟

ولا أضّر على الأمة من هذه العقيدة - عقيدة أن الكلام يقال ليُقَالَ فقط - فإنها هي طابع الهزل على أخلاق الأمة، وعلى كل أحوالها، وعلى حكوماتها أيضاً.

ومن الهزل والكذب ترانا مبالغين في كل شيء، حتى ليكون لنا الواحد كالأحاد في غيرنا فنجعل مائة بصفرين، نجيء بأحدهما من اعتياد الكذب على الحقيقة، ونجيء بالآخر من حقيقة إفلاسنا.

هذه مبالغة خطيرة، وأخطر ما فيها أننا نريد المبالغة في الدلالة على الأشياء، فنقلب المبالغة في الدلالة علينا نحن، وعلى كذب طباعتنا، وعلى قوضى العقل فينا. نعم وحتى ثبت أننا لا عزم لنا، من كونها مبالغة لا تدقيق في معناها؛ وأن لا صبر لنا، من أنها لا ثبات لحقيقتها المهزومة؛ وأن لا شدة لنا في طلب الحق، لأننا بها من أهل الغفلة في وصف الحق؛ وأننا لا نتمثل العواقب إذ نرسل الكلام إرسالاً ولا نخشى ما يكون من عاقبته.

وأيسر ما يفهم من هذه المبالغات التي أصبحت طريقة من طرق الشعب في التعبير، أن هذا الشعب لا يصلح في شيء إلا بالحكومة، فهو نفسه كالمبالغة، والحكومة له كالتصحيح؛ وهذه هي العلّة في أن الشعب الكذوب يلجأ إلى حكومته

في كل كبيرة وصغيرة في العمل، كما أنها هي العلة في أن حكومته تُكذّب عليه بكل صغيرة وكبيرة في السياسة.

ومن أثر الكذب الشعبي والمبالغة الشعبية، ما نراه من اهتمام كل فرد بما يقول الناس عن أعماله، فيبديروها على ذلك وإن قلت منفعتها، وإن فسدت حقيقتها، وإن جلبت عليه من الضرر في ماله ونفسه ما هي جالبة؛ فقاعدتهم هي هذه: ليس الشأن في الحياة للعمل في نفسه، ولكن فيما يقال عنه؛ فإن لم يقل شيء فلا تعمل شيئاً...

هذه يا بني أمة لا يكون حكامها إلا مبالغات أيضاً...

قال صاحب السر: وأرتفع من الطريق صوت بائع يُنادي على سلعته: أحسن من التفاح يا طماطم...

فضحك الباشا وقال: هكذا يقولون لنا عن الطماطم السياسي العفن: إنه ليس تفاحاً وحسب، بل هو أحسن من التفاح...

إن الأمة لن تكون في موضعها إلا إذا وضعت الكلمة في موضعها، وإن أول ما يدل على صحة الأخلاق في أمة كلمة الصدق فيها، والأمة التي لا يحكمها الصدق لا تكون معها كل مظاهر الحكم إلا كذباً وهزلاً ومبالغة.

البك والباشا

وحدثني صاحب سرّ (م) باشا قال: جاء يوماً إلى زيارة ألباشا رجل دخل عليّ متهللاً مشرق الوجه كأنّه مُضَاءٌ من داخله بشمعة... وبتريّح عطفاه كأنما تهزّه أسرار عظمته؛ ويمشي متخلعاً كالمرأة الجميلة التي أثقلها لحمها وأثقلتها المعاني الكثيرة من أعين الناظرين إليها، وعلى شفتيه خيال من فكرة هؤلاء الكُبراء المغرورين الذين لا يأمر أحدهم رجلاً صغيراً إلّا ليُعلمه أنّه هو كبير، فيكون في الأمر شيثان: الأمر واللؤم؛ وأقبل عليّ في هيئة شامخة لو نطقت لقلت: سُبْحَ اسم ربك الأعلى. سُبْحَ الله الذي خلق في الأسد شعرة جبارة خرج منها الأسد كله.

سُبْحَانَ اللَّهِ ولا إله إلّا الله. هذا (فلان باشا) الذي قرأت في الصحف أمس أنهم أنعموا عليه برتبة ألباشوية؛ خلقه الله من ترابٍ وحولّت الرتبة هذا التراب الذي فيه إلى ذهب خالص... ينظر إليّ وبرغمه أن تقف عيناه عليّ وعلى الحائط؛ ولا تجد نفسه المزهوة سبيلاً إلى التعبير عن الرتبة إلّا هذا الأزدراء المنبعث من شخصه العظيم لمن لم يكن كشخصه. ما بين أمس واليوم زاد هذه الزيادة الآدمية، أو كأنما كانت صورته خطوطاً فقط فوضعت فيها الألوان...

(باشا!) هذه ألباء وهذه ألألف وهذه الشين الممدودة ليست حروفاً خارجة من الأبجدية العامة؛ فإنّ الأبجدية قد تجعل ألباء في بليد مثلاً، وألألف في أبله، وألشين الممدودة في شاهد زور مثلاً... بل تلك حروف من حروف الدولة، منتزعة من قوة قادرة على أن تجعل حياة صاحبها من الشكل ما يُسبّغ ألفه على الحجر من شكل يمثّل ينصبّ للتعظيم.

قال: وكنت أعرف هذا الرجل، وهو رجل أمي لا يحسن إلّا كتابة اسمه كما تكتب الدجاجة في الأرض... فكانت الرتبة عليه كإطلاق لفظ الحديقة على صخرة من الصخور الصلدة؛ وهذا ممّا يحتمله المجاز بعلاقة ما؛ ولكن الذي لا يسوغ في المجاز، ولا في مبالغات الاستعارة، ولا في خرافات المستحيل، أن

تزعَمُ الصَّخْرَةُ لِلنَّاسِ أَنَّ لَفْظَ الْحَدِيقَةِ الَّذِي أُطْلِقَ عَلَيْهَا قَدْ أُنْبِتَ فِيهَا أَشْجَارُ
الْحَدِيقَةِ . . .

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَاسْتَأْذَنْتُ لَهُ عَلَى أَلْبَاشَا فَسَهَّلَ لَهُ الْإِذْنَ وَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ
أَصْبَحَ كَالْوَرَقَةِ الْمَبْصُومَةِ بِخَاتَمِ الدَّوْلَةِ، فَلَتَكُنْ مَا هِيَ كَائِنَةٌ فَإِنَّ لَهَا أَعْتَابَهَا. ثُمَّ
تَلَقَّاهُ تَلَفِّيَ الْهَازِلِ أَلْمَتَهُمْ وَقَالَ لَهُ: أَهْنُكَ بِالتَّخْوِي . . . مُبَارَكُونَ يَا بَاشَا. وَأَقْبَلَ
عَلَيْهِ وَبَسَطَ لَهُ وَجْهَهُ.

وَكَانَ فِي أَلْبَاشَا دُعَابَةٌ ظَرِيفَةٌ يُعْرَفُ بِهَا، وَهُوَ كَثِيرُ النُّوَادِرِ وَالْمُلُحِّ، وَلَهُ
خَصِيصَةٌ عَجِيبَةٌ، فَيَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُذْسٌ مِنَ الْأَوْرَاقِ الَّتِي تُعْرَضُ عَلَيْهِ يَنْظُرُ فِيهَا
وَيَقْرُؤُهَا وَيَتَذَكَّرُهَا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَسْتَمِعُ إِلَى مُحَدِّثِهِ وَيُرَاجِعُهُ وَيَرُدُّ عَلَيْهِ، فَيُصَرِّفُ
النَّاسَ وَالْأَوْرَاقَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَيَسْتَعْمَلُ نَاحِيَتَيْنِ مِنْ فِكْرِهِ اسْتِعْمَالاً وَاحِداً لَا
يُخِلُّ بِالْإِصَابَةِ^(١) فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ وَلَا مِنْ تِلْكَ.

ثُمَّ قَالَ لِلْبَاشَا الْحَدِيثَ وَعَيْنُهُ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ: هَذِهِ أَوْرَاقُ سَرَقَةِ ثَوَرٍ عَظِيمٍ،
فَكَمْ يُسَاوِي الثَّوْرُ الْعَظِيمُ الْآنَ . . . ؟

قَالَ صَاحِبُنَا الذَّكِيُّ الْفَطِينُ: إِذَا كَانَ مِنَ الثَّيْرَانِ الَّتِي تُعْرَضُ فِي الْمَعَارِضِ
وَتَنَالُ الْمَدَالِيَتِ الذَّهَبِيَّةَ فَقَدْ يَبْعُدُ سَعْرُهُ وَيُعَالِي بِهِ.

قَالَ الْبَاشَا: نَعَمْ نَعَمْ، إِنَّ مِنَ الثَّيْرَانِ ثَيْرَاناً يُنْعَمُ عَلَيْهَا بِالْأَوْسَمَةِ، وَلَكِنْ هَذَا
الثَّوْرُ الَّذِي سَأَلْتُكَ عَنْهُ يَا بَاشَا هُوَ ثَوْرٌ مُحْرَاثٌ لَا ثَوْرٌ مُعْرَضٌ . . .

قَالَ الْآخَرُ: إِذَا كَانَ ثَوْرٌ مُحْرَاثٌ فَمِثْلُهُ كَثِيرٌ فَلَا يَكُونُ ثَوْرًا عَظِيمًا كَمَا قُلْتَ
وَلَيْسَتْ لَهُ إِلَّا قِيَمَةٌ مِثْلِهِ.

قَالَ الْبَاشَا: أَرَانِي أَخْطَأْتُ، وَلَعَنَ أَلَّهُ الْعَجَلَةَ، فَهَذِهِ أَوْرَاقُ سَرَقَةِ حِمَارٍ!

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَأَنْصَرَفْتُ عَنْهُمَا بِأَوْرَاقِي، وَقَدْ رَأَيْتُ يَدَ أَلْبَاشَا مَمْلُوءَةً
لِصَاحِبِنَا بِتَحِيَّاتٍ كُلِّهَا صَفْعَاتٍ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا يَسِيرُ حَتَّى خَرَجَ مَبْتَهَجاً يَمِيدُ السَّرُورُ
بِعَظْفِهِ. ثُمَّ دَعَانِي أَلْبَاشَا وَدَفَعَ إِلَيَّ بِطَاقَةً بِالْحَاجَةِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا الرَّجُلُ، ثُمَّ قَالَ:

(١) لَا يَخِلُّ بِالْإِصَابَةِ: لَا يَخْطِئُ.

يا ليت لنا في ألقاب الدولة لقب (رحمه الله) . . . يُنعم به على مثل هذا .
أتدري يا بني أن هذه الألقاب وهذه الألقاب لم تكن في القديم إلا كوضع علامة
أشتر على أهل أشتر ليهاهم^(١) الناس، حتى كأنما يُكتب على أحدهم من لقب بك
أو باشا: مُلحق بالدولة . . .

وكان الشعب أميًا جاهلاً لا يستطيع الإدراك ولا يحسن التمييز، فكانت
الألقاب كالقوانين الشخصية الموضوعة في صيغة موجزة مفهومة متعينة الدلالة،
وكان كل من يحمل لقباً من الحكومة يستطيع أن يقول للناس: لقد وضعت
الحكومة كلمة الأمر في شفتي . . .

وكان ألقاب إعلان من الحكومة المستيدة لشعبها الجاهل: إن هذا البك
والباشا من يحق له أن يحترم .

من الهزل أن يشتري اسم النصر الحربي أو يوهب أو يُعار؛ وأقبح منه في
باب الهزل أن يُنعم على مثل هذا الأمي بلقب باشا. وأنا أعرف أنه قد بذل في
سبيله ما بذل، وأضاع ما أضاع، فكان الذين منحوه إياه لم يفعلوا شيئاً إلا وضع
توقيعهم على أخذ الثمن .

ولقد أصبح الرجل تحت تأثير الكلمة العظيمة مخبولاً بسخرها الوهمي،
فحبس ذلك إدخالاً له في وظيفة كل حاكم، وإشراكاً له في الحكم متى اقتضته
مجاري أمورهِ وأحواله، أو حاجات أسبابه وأتباعه؛ وها هو ذا قد جاء يطلب حقه،
فإن مثله لا يفهم من لقب (باشا) إلا أن الحكومة قد سوغت سلطته الظهور
والعمل، فمدت باعه وقوت أمره ونوّهت^(٢) باسمه لمصالحها وعمالها؛ فهو عند
نفسه قد ألتحم منذ اليوم بالنسب الحكومي، وفي كلمة واحدة، هو قد وُلد من
بطن الحكومة . . .

ألا ترى أن الشعب لو استرد سلطته الكاملة، وأن الناس لو أيقنوا أن الألقاب
الفاطر فارغة من الأمر والنهي والوسيلة والشفاعة، لَمَا بقي من يعبأ بها، ولكان
حاملها هو أول من يسخر منها؟

فهي إذن شعبة^(٣) من الحكومة وتضليل في مثل هذا الرجل الأمي، وهي

(١) يهاب: يخاف .

(٢) الشبهة: الشفاعة والدجل .

(٣) نوه: دل على فضله .

ضربَ مِنْ التَّهْوِيلِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي سِوَاهُ مِنَ الْكِبَرَاءِ وَالْعُظَمَاءِ ، كَأَنَّ الْوَزِيرَ الَّذِي يُلقَّبُ
بالباشا، يجعلُ فِيهِ لقبَهُ وزيرين، وكأنَّ مثلَ هذا الْأَمِيِّ الْمَغْفَلِ، يجعلُ فِيهِ لقبَهُ
شخصاً، آخرَ غيرَ الْأَمِيِّ الْمَغْفَلِ . .

أنا قلُّما رأيتُ رجلاً يحتاجُ إلى ألقابٍ يتعظَّمُ بها إلا وهو لا يحتاجُ إليها؛
فأينَ يكونُ موضعُ هذه الرتبِ والألقابِ؟

ساكنو الثّباب . .

قالَ صاحبُ سرٍّ (م) باشا: وجاءني يوماً اثنانِ من شيوخِ الدينِ من دُوي هيناثيم وأصحابِ المنزلةِ فيهم، كلاهما هامةٌ وقامةٌ، وجبةٌ وعمامةٌ، ودرجةٌ مِن الإمامةِ؛ ولهما نسيَمٌ ينفُخُ عِطراً حَسْبُهُ من ترويحِ أجنحةِ الملائكةِ؛ وعليهما مِن الوقارِ كظلِّ الشجرةِ الخضراءِ في لَهَبِ الشمسِ تغيُّ بهِ يَمْنَةٌ ويسرَّةٌ. فتوجَّهتُ إليهما بنظري، وأقبلتُ عليهما بنفسي، ووضعتُ حواسي كُلَّها في خدمتهما؛ وقلتُ: هؤلاء هم رجالُ القانونِ الَّذي مادَّتهُ الأولى القلبُ.

ما أسخَفَ الحَيَاةَ لولا أنَّها تدلُّ على شرفِها وقَدْرِها ببعضِ الأحياءِ الَّذين نراهم في عالمِ الترابِ كأنَّ مادَّتهم مِن السُّحُبِ، فيها لِغيرِهِم الظُّلُّ والماءُ والنَّسيمُ، وفيها لأنفُسِهِم الطَّهارةُ والعلوُّ والجمالُ؛ يُنبِتُونَ لِلضَّعْفاءِ أنَّ غيرَ المُمكنِ ممكِنٌ بالفعلِ، إذ لا يرى النَّاسُ في تركيبِ طِباعِهِم إلَّا الإخلاصَ وإنَّ كانَ جِرماتاً، وإلَّا المروءةَ وإنَّ كانتَ مَشَقَّةً، وإلَّا محبةَ الإنسانِيَّةِ وإنَّ كانتَ المأى، وإلَّا العِجْدَ وإنَّ كانَ عتاءً، وإلَّا القناعةَ وإنَّ كانتَ فقراً.

هؤلاء قومٌ يؤلَّفونَ بيدَ القُدرةِ، فهم كالكتبِ قد أنطوَتْ على حقائقِها وخُتِمَتْ كما وُضِعَتْ، لا تستطيعُ أن تُخرِجَ لِلناسِ من حقيقةٍ نصفَ حقيقةٍ ولا شِبهَ حقيقةٍ ولا تزويراً على حقيقةٍ.

وما أعجبَ أمرَ هذهِ الحَيَاةِ الإنسانِيَّةِ القائمةِ على النِّواميسِ^(١) ألاقتصاديَّةِ! فالسماءُ نفسُها تحتاجُ فيها إلى سِماصرةٍ لِعِرضِ الجَنَّةِ على النَّاسِ بالثمنِ الَّذي يملكُهُ كُلُّ إنسانٍ وهو العملُ الطَّيِّبُ.

قال: ونظرْتُ إلى الشيخينِ على اعتبارِ أنَّها من بقيةِ النُّبوةِ العاملةِ فيها شريعةٌ نفيها. تلكَ الشريعةُ الَّتِي لا تغيَّرُ ولا تتبدَّلُ كيلا يتغيَّرَ النَّاسُ ولا يتبدَّلُوا. ثُمَّ سألتُهما عن حاجتِهما، فإذا أحَدُهما قد عملَ أحياناً مِن الشَّعرِ جاءَ يمدُّ بها ألباشا

(١) النواميس، مفردة ناموس وهو القانون.

ليزدلف إليه ؛ فقلتُ في نفسي : « ما أشبهَ حَجَلَ الجبالِ بِالوَانِ صخرِها ! » هذا عالمُ دنيا يحدها مِنَ الشَّرْقِ الرِّغيفُ ، وَمِنَ الْغَرْبِ الدِّينارُ ، وَمِنَ الشَّمالِ الْجَاهُ ، وَمِنَ الْجَنُوبِ الشَّيْطَانُ . .

ثُمَّ نَشَرَ ورقةً في يَدِهِ وأَخَذَ يَسْرُدُ^(١) عَلَيَّ الْقَصِيدَةَ ، وهي على رَوْيِ أَلْهَاءَ ، تنتهي أبياتها : ها . ها . ها . فكانَ يقرؤها شعراً - أو كما يُسميه هو شعراً - وكنتُ أسمعُها أنا قهقهةً مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي رَكِبَ أَكْتَافَ هذا العالمِ الدِّينِي : ها . ها . ها .

* * *

قالَ صاحبُ السُّرِّ : وأدخلتهما على ألباشا ، فوقَفَ المَدَّاحُ يمدحُ بقصيدتهِ ، وأخذتُ لحيتهُ الوافرةُ تهتزُّ في إنشادهِ كأنها مِنقَضَةٌ ينفُضُ بها المَلَلُ عن عواطفِ ألباشا . . وكانَ لِأَخَرِ صمْتٌ عامِلٌ في نفسهِ كصمْتِ الطَّبِيعَةِ حينَ تَنْفَطِرُ^(٢) البذرةُ في داخلِها ، إذ كانتِ الحاجةُ حاجتهُ هو ، وإنما جاءَ بِصاحبهِ رافداً وظهيراً يحملُ الشَّمْسَ والقَمَرَ والألْيَثَ والغَيْثَ ، لِيَتَقَلَّبَ الأشياءَ حَوْلَ الممدوحِ فيأخذهُ السُّخَرُ ، فيكونَ جوابُ الشَّمْسِ على هذه اللَّغَةِ أنْ تُضيءَ يومَ الشَّيْخِ ، وجوابُ القَمَرِ أنْ يملأَ ظلامه ، وجوابُ الأَلْيَثِ أنْ يفتَرِسَ عدوه ، وجوابُ الغَيْثِ أنْ يَهْطِلَ على أرضه .

وألباشا لا يدعُ^(٣) ظَرْفهَ وذعابته ، وكانَ قد لَمَحَ في أشدِّاقِ ألعالمِ المَتَشاعِرِ أسناناً صناعية ، فلَمَّا فرَغَ من نظمهِ الرِّكيكِ قالَ لهُ : يا أستاذ ، أحسبني لا أكونُ إِلَّا كاذباً إذا قلتُ لك : لا قُضُ فوقك .

ثُمَّ ذَكَرَ آخَرَ حاجتهُ : وهي رجاؤه أن يكونَ عمدةُ القريةِ من ذوي قَرَائِبِهِ لا من ذوي عداوتِهِ . فقالَ لهُ الباشا : ولقريتكُم أيضاً أبو جَهْلٍ . . ؟

* * *

ولَمَّا أنصرفا قالَ لي ألباشا : لِأمرٍ ما جعلُ هؤلاءِ القومُ لأنفسِهِم زِيّاً خاصاً يُمَيِّزون بهِ في النَّاسِ ، كأنَّ الدِّينَ بابٌ مِنَ التَّحَرُّفِ والتَّصَرُّفِ ، بعضُ الكِيتِ في ثِيابهِ ؛ فهؤلاءِ يسكنونَ الجُجَبَ والقُفاطِينِ وكأنَّها دواوينُهُم لا ثِيابُهُم . . .

قد أفهمُ لهذا معنى صحيحاً إذا كانَ كُلُّ رجلٍ منهم محصوراً في واجباتِ

(١) يسرد : هنا بمعنى ينشد .

(٣) يدع : يترك .

(٢) تنفطر : تشقق .

عمله كالجندى في معاني سلاحه، فيكون العظيم والتوفير لثوب العالم الديني كداء التحية للثوب العسكري: معناه أن في هذا الثوب عملاً سامياً أوله بيع الروح وبذل النفس وترك الدنيا في سبيل المجتمع؛ هذا ثوب الموت يُفرض على الحياة أن تعظمه وتجله، وثوب الدفاع تجب له الطاعة والانقياد، وثوب القوة ليس له إلا المهابة والإعزاز في الوطن.

ولكن ماذا تصنع الجبة اليوم؟ إنها تطعم صاحبها...

أثر الجيش معروف في دفاع الأمم العدو عن البلاد، فأين أثر جيش العلماء في دفاع المعاني العدو عن أهل البلاد، وقد احتلت هذه المعاني وضربت وتملكت وترك هذا العالم الديني في ثوبه كالجندى المنهزم: يحمل من هزيمته فضيحة ومن ثوبه فضيحة أخرى؟

انت يا بني قد رأيت (الشيخ محمد عبده) وعرفته؛ فرحم الله هذا الرجل، ما كان أعجب شأنه! لكأنه - والله - سحابة مطوية على صاعقة. ولو قلت إنه قد كان بين قلبه ورأسه طريق لبعض الملائكة. لأشبه أن يكون هذا قولاً.

كان يزورني أحياناً فأراني مرعماً على أن أقدم له مجلسين أحدهما قلبي. وكان له وجه يأمر أمراً، إذ لا تراه إلا شعرت به يرفعك إلى حقيقة سامية.

رجل نبهت على أعراق^(١) فيها إبداع المبدع العظيم الذي هيأه لرسالته، فعواصفه كالعطر في شجرة العطر الشذية، وشمائله كجمال السماء في زرقة السماء الصافية، وعظمته كروعة البحر في منظر البحر الصاحب. وكثيراً ما كان يتعجب من هذا أستاذه (السيد جمال الدين الأفغاني) فيسأله مندهشاً: بالله قل لي: أبني أي ملك أنت؟

لم يكن أبني ملك ولا أبني أمير، ولكنه ابن القواف الروحانية العاملة في هذا الكون؛ فهي أعدته، وهي ألهمته، وهي أنطقته، وهي أخرجته في قومه إعلاناً غير كتمان، ومصارحة غير مخادعة، وهي جعلت فيه أسدياً الأسد، وهي ألقت في كلامه تلك الشهوة الروحانية التي تذاق وتحب، كالحلاوة في الحلوى.

هذا هو العالم الديني: لا بد أن يكون أبني القواف الروحانية، لا أبني الكُنْب

(١) أعراق: أصول.

وحذها، ولا بد أن يخرج بعمله إلى الدنيا، لا أن يدخل الدنيا تحت سقف الجامع ...

وأنا فما ينتضي عجبني من هؤلاء العلماء الذين هم بقايا تنضاء بجانب الأصل؛ يبحثون في سنن النبي ﷺ: كيف كان يأكل ويشرب ويلبس ويمشي ويتحدث؛ كأنهم من الدنيا في قانون المائدة، وآداب الولائم، ورُسوم المجتمعات؛ أما تلك الحقيقة الكبرى، وهي كيف كان النبي ﷺ يُقاتل ويُحارب لهداية الخلق، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتها؟ وكيف كان يطاعه القوية الصريحة تعديلاً فعلاً في هذه الإنسانية للنواميس الجائرة؟ وكيف كان يحمل الفقر ليكسر به شرة^(١) النواميس الاقتصادية التي تقضي بجعل الأخلاق أثراً من آثار السعة والضيق، فتخرج من الغنى متعقفاً ومن الفقر لصاً؟ وكيف استطاع ﷺ بفقره السامي أن يحول معنى الغنى في نفوس أصحابه، فيجعله ما أستغنى عنه الإنسان من شهوات الدنيا وترك، ما نال منها وجمع؟ أما هذا ونحوه من حقائق النبوة العاملة في تنظيم الحياة، فقد أهملوه، إذ هو لا يوجد في الكتب وشروحها وحواشيها^(٢)، ولكن في الحياة وأفعالها وأكدارها؛ وبذلك أصبح شيوخنا من الأمة في مواضع لم يضغهم فيها الدين ولكن وضعتهم فيها الوظيفة.

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة: سئل بعض العرب: بم ساد فلان فيكم؟ قالوا: أحتجنا إلى علمه وأستغنى عن دنيانا ...

(١) شرة: شدة وقسوة.

(٢) حواشيها، مفردة حاشية، وهي مكان يوجد في ذيل الصفحة، تكتب شروحات على ما غمض من المعاني في الصفحة.

الأخلاقُ المحاربة

وحدثني صاحبُ سرِّ (م) باشا بهذا الحديث قال: كُتِّبَ في ثورة سنة ١٩١٩ سنة الهزاهز^(١) والفتن، وقد تفاقمت^(٢) الثورة، وأخذ الشبابُ يعملُ ويُفكرُ فيما يستطيعُ أنْ يعملَ، وما يجبُ أنْ يعملَ؛ وكان السُّخْطُ العامُّ هو ميراثُ الوقتِ، فكأنَّ قلوبَ الشعبِ ثلَّهم واجباتها إلهاماً، إذ لم يكن في هذه القلوبِ كلها إلا لدعةُ الدَّمِ تُعينُ اتجاهَ أعمالها وتُحدِّده.

كانتِ الثورةُ زلزلةً وقعتْ في التاريخ، فجاءت تحتَ زمنٍ راكِدٍ لا يتغيَّرُ إلا بأنْ يُنسَفَ، ولا ينسِفُهُ إلا مادةُ الهمةِ كالحركةِ الكونيةِ التي تُخرجُ اليومَ الجديدَ مِنَ اليومِ القديمِ؛ فكانَ القَدَرُ يعملُ بأيدي الإنجليزِ عملاً مصرياً، ويعملُ بأيدي المصريينِ عملاً آخرَ.

وتعلَّم الشعبُ من دفنِ شهدائه كيفَ يَسْتَنْبِتُ الدَّمُ فيُنْبِتُ بِهِ الحريَّةَ، وكيف يزرعُ الدَّمعَ فيُخرجُ منه العزمَ، وكيف يستثيرُ الحزنَ فيُثمرَ لَهُ المجدَ.

وكانَ رصاصُ الإنجليزِ يُصيبُ هدفينِ معاً: فيصرعُ شهداءنا، ويقتلُ الموتَ السياسيَّ الَّذي احتلَّ معهم هذه البلادَ. وقد أنعموا على الشعبِ بالصدمةِ الأولى، فنشبتِ المعركةُ التي تُقاتلُ فيها الأخلاقُ القوميةُ لِتنتصرَ؛ وشعرَتِ مصرُ في جهادها بأنَّها مصرُ، فالتمسَ روحها التاريخيُّ رمزهَ العظيمَ في الأُمَّةِ ليظهرَ فيه عاتياً جبَّاراً؛ فكانَ هذا الرمزُ الجليلُ العظيمُ هو سعد زغلول.

قالَ صاحبُ السرِّ: وكانَ الطلبةُ قد غَدَوْا من أولِ النهارِ يتظاهرونَ، وقد جعلتْهُمُ الثورةُ كألأرواحٍ تخلصتْ مِنَ الموتِ بِالموتِ فلا تخشاهُ ولا تُبالِيه، واستقلَّتْ عَنِ العَقْلِ بتحوُّلها إلى شعورٍ مَخْضٍ، وخرجتْ عَنِ القوانينِ كُلِّها إلا القانونَ الخفيَّ الَّذي لا يُعلَمُ ما هو.

(١) الهزاهز: الثورات وعدم الاستقرار السياسي. (٢) تفاقمت: امتدت وعظمت.

كانوا في معاني قلوبهم لا في غيرها، فلنستَ تَراهم إِلَّا عظماءَ في عظمة المبدأ الذي ينتصرون له، أقوىاء في قوّة الإيمان الذي يعملون به، أجلاء في جلال الكوطن الذي يحيون ويموتون في سبيله.

وكانوا في الشعب هم خيال الأُمّة العامل المَدرك، وشعورها الحي المتوثّب، وقواها البارزة من أعماقها، وأملها الزاحف ليقهر الصّعوبة.

يُفادون بأنفسهم الغالية ويؤثرون عليها، وليس في أحدٍ منهم ذاته ولا أغراض شخصيه. فما أجلّ وما أعظم! وما أروع وما أسمى! أيُّها الأحياء! هل فيك أشرف من هذه الحقيقة إِلَّا حقيقة النبوة؟

* * *

قال: وكان أخي هو زعيم هؤلاء الطلبة في مدينتنا؛ قويّ على الرُعامَة وفي بها؛ يحمل قلباً كالجمرة الملتهبة، وله صوتٌ بعيدٌ تحسبُ الرعدَ يُقعقعُ^(١) به. إذا مشى في جهاده كان كلُّ ما على الأرض تراباً تحت قدميه، فلا يمشی إِلَّا مُحْتَقِراً هذه الدنيا وما فيها، غيرَ مقدّسٍ منها إِلَّا دينه ووطنه؛ وسلاحه أن كلَّ شيءٍ فيه هو سلاحٌ على الظلم وضدّ الظلم.

وكان في ذلك اليوم يقود «المُظاهرة»، وحوله جماعةٌ من خالصتيه وصَفوة إخوانه، يمشون في الطليعة تحت جوٍّ متّقدٍ كأن فيه غضبَ الشباب، عنيفٌ كأنما أمتزج به السخط الذي يفورون به، رهيبٌ كأنه مُهيئٌ لينفجر؛ فلما بلغوا موضعاً من الطريق ينعطفون عنده أنصبّ عليهم المدفعُ الرشاش...

قال: فإني لجالسٌ بعد ذلك في الديوان إذ دخل عليّ أخي هذا ينتفض غضباً كأنّ المعاني تنبعث من جسده ليقاتل، ورأيتُ له عينيّن ينظرُ الناظرُ فيهما إلى النار التي في قلبه؛ فخشيتُ أن يكون القومُ أطلقوا عليهم الجنون والرصاص معاً.

وأستنبأته^(٢) خبر أصحابه فقال: إن الذين كانوا حوله وقعوا يتشخّطون^(٣) في دمايهم، فوقف هو شاخصاً إليهم كأنه ميتٌ معهم، وقد أحسّ كأنما خلّع عن جسمه نوايس الطليعة، فلا يعرف ما هي الحياة ولا ما هو الموت؛ وكان الرصاص يتطاير من حوله كأنّ أرواح الشهداء تلقّاه وتبعثره لا يناله بسوء. قال: وما أنسى لا

(١) يقعق: يصدر أصواتاً عنيفة راعدة.

(٢) استنبأته: سأله عن أصحابه.

(٣) يتشخطون: يتخبّطون بدمائهم.

أنسى ما رأيته في تلك الساعة بين الدنيا والآخرة؛ فلقد رأيته بعيني رأسي أدم
المصريي يسلم على أدم المصريي، ويسعى إليه فيعانقه عناق الأحاب.

ثم قال: أين هذا الباشا؟ وما باله لم يصنع شيئاً في الاحتياط لهذه الفورة؟
يكاد الخزي - والله - يكون في هذه الوظائف على مقدار المرتب . . .

قال صاحب السر: ولم يتم كلمته حتى خرج علينا الباشا متكسراً الوجه من
الحزن قد تغرغرت عيناه، فأخذ بيد أخي إلى غرفتي وتبعتهما، ثم قال: هوناً ما يا
بني، إن العيلة فيكم أنتم يا شباب الأمة، فكل ما أبطلنا أو نبطل به هو مما يستدعيه
خمولكم وتستوجبهُ أخلاقكم المتخاذلة؛ إننا من غيركم كالمدافع الفارغة من
ذخيرتها: لا تصلح إلا شكلاً، وبهذه العيلة كان عندنا شكل الحكومة لا الحكومة.

أندري يا فتى ما هي الحكومة الصحيحة في مثل حالتنا؟ هي أن تحكموا أنتم
في الشعب حكومة أخلاقية نافذة القانون، فتضبطوا أخلاق النساء والرجال،
وتردوها كلها أخلاقاً محاربة لا تعرف إلا الجِدَّ والكرامة وصرامة الحق؛ وإلا فكما
تكونون يولى عليكم . . .

هذا وحده هو الذي يُعيد الأجنب إلى رُشدِهِم وإلى الحقيقة، فما أراهم
يعاملوننا إلا كأننا ثياب معلقة ليس فيها لابسوها . . .

كيف يتصعلك^(١) المصريي للأجنبي لو أن في المصري حقيقة القوة النفسية؟
أترى بارجة حربية تتصعلك لزورقي صيد جاء يرتق؟

إن في بلادنا المسيكية الأجانب، وأموال الأجانب، وغطرسة^(٢) الأجانب؛ لا
لأن فيها الاحتلال، كلا، بل لأن فيها ضعف أهلها، وغفلة أهلها، وكرم أهلها . . .
بعض هذا يا بني شبيه ببعض، وإلا فما هو كرم أنشاة الضعيفة إلا لذة لحبها . . . ؟

نريد لهذا الشعب طبيعة جدية صارمة، ينظر من خلالها إلى الحياة فيستشعر
ذاته التاريخية المجيدة فيعمل في الحياة بقوانينها؛ وهذا شعور لا تحدته إلا طبيعة
الأخلاقي الاجتماعية القوية التي لا تتساهل من ضعف، ولا تتسبح من كذب، ولا
ترخص من غفلة. والحقيقة في الحياة كالحقيقة في المنطق: إذا لم يصدق البرهان

(٢) غطرسة: تكبر وتجبر.

(١) يتصعلك: يتضاغر.

على كلِّ حالاتها، لم يَصْدُقْ على حالةٍ من حالاتها؛ فإذا كنَّا ضعفاءَ كُرماءَ، أعزَّاءَ، سادةً على التَّاريخِ القديمِ، فنحن ضعفاءٌ فقط . . .

إنَّ الكبراءَ في الشرقِ كلِّه لا يصلحونَ إلَّا للرأي، فلا تُسوموهم غيرَ هذا، فهم قد تلقَّوا الدرسَ من أغلاطهم الكثيرة، وبهذا لَنْ تُفلحَ حُكومةٌ سياسيَّةٌ في الشرقِ الناهضِ ما لم يكنْ شبابُها حُكومةً أخلاقيَّةً يُمِدُّها من نفسه ومن الشعبِ في كلِّ حادثةٍ بالأخلاقِ المحاربةِ.

يا بُنَيَّ، إنَّ القويَّ لو اتَّفَقَ معَ الضعيفِ على كلمةٍ واحدةٍ لا تتغيَّرُ، لكانَ معناها لِلقويِّ أكثرَ ممَّا هو لِالضعفِ؛ فإنَّ هذا القويَّ الَّذي يعملُ معَ الضعيفِ يكونُ فيه دائماً شخصٌ آخرٌ مختلفٌ، هو القويُّ الَّذي يعملُ معَ نفسه .

هكذا هي السياسةُ؛ أمَّا في الإنسانيَّةِ فلا، إذ يكونُ الحقُّ دائماً بينَ اثنينِ أقوى مِن الاثنينِ .

خضع بخضع...

وقال صاحب سر (م) باشا فيما حدثني به : جاء ذات يوم فنصل (الدولة الفلائية) من هذه الدول الصغيرة ؛ التي لو علم الذباب في بلادها أن في مصر امتيازات أجنبية ، لطمعت كل ذبابة أن يكون لها في بلادنا أسم الطيارة الحربية . .

ورأيت أنه قد دخل علي شامخاً بإذخاً متجبراً ، كأنه قبل أن يجيء إلى هذا الديوان لمقابلة الحاكم المصري - قد تكلم في (التلفون) مع إسرافيل بأمره أن يكون مستعداً للتفخ في الصور . . .

جنى ضلعوك من رعايا دولته على مصري ، فأخذ كما يؤخذ أمثاله ، وقضى ساعة أو ساعتين بين أيدي المحققين يسألونه الأسئلة الهينة اللينة التي تحيط بتعريفه من ظاهره ، ولا يشبهها في سخافة المعنى إلا أن يسألوه عن ثيابه من أي مصنع هي في أوروبا . . . فزعم القنصل أنه كان يجب أن يكون حاضراً يشهد التحقيق ، لأن جناية أجنبي على مصري تقع أجنبية . . . فلها شأن ورعاية وامتياز ، وأدعى أن المحققين ضايقوا المجرم وعاسروه وتجهّموه بالكلام ، ولهذا جاء يحتج .

ورأيت أنه جلس متوقفاً كأنما يشعر في نفسه أنه أثقل من مدفع ضخّم ، لأن في نفسه وهم القوة ؛ وخيل إلي أنه يرى موضعه بين السقف والأرض ؛ إذ يحمل في رأسه فكرة أنه الأعلى ، وكانت له هيئة صريحة في أن الأجنبي المقيم هنا ليس هو كل الأجنبي ، بل لا تزال منه بقية تثمّمها دولته ، وفي الجملة كان الرجل كلمة واضحة مفسرة تنطق بأن للقانون المصري قانوناً يحكمه في بلاده !

وأنا قد درست القانون الدولي ، وعرفت ما هي الامتيازات وما أصلها ، وهي لا تعدو كرم الأرنب التي زعموا أنها كانت تملك حماماً وترتق به ، فسألتها أرنب أخرى أن تزودها خلقها ، فلمّا أندفع بهما الحمام استوطأته ، فقالت لصاحبتها : يا اختي ، ما أفرّة جمارك ! ثم سكنت مدة وأعجبها الحمام فقالت : يا اختي ، ما أفرّة حمامنا ! . . .

وكنّا - نحن الشرقيين - من الضعيف والغفلة؛ بحيث لم نبلغ مبلغ الأرنب في حكميتها وتدبيرها وحذرها، فإنّها أسرع ودفعت صاحبها وقالت لها: إنزلي - يملك - قبل أن تقولي: ما أقرّة جماري.

قال: غير أنّي في تلك الساعة نسيت القانون الدولي وكنت في إلهام مصريتي وحدها، فظهر لي ظهوراً بيناً أن لا شيء أسمه القانون الحق في هذه الدنيا؛ ولكن هناك اتفاقاً بين كل خضوع وكل تسلط، هو قانون هاتين الحالتين بخصوصيهما. وأسرع إلى ألباشا فأنبأته، وأسرع ألباشا فغيّر وجهه، وتبسّط، وتهلّل، وتهيأ بهذا لاستقبال القادم العزيز، كأنه أخضّ محبيه يتطلّع إلى مؤانسته، وقد جاء يزوره في داره. ثمّ دخل القنصل، ولم أسمع ممّا دار بينهما إلا الكلمة الأولى، وهي قول ألباشا: لنبدأ يا سيدي من الآخر...

* * *

وكانت في ألباشا موهبة عجيبة في اختلاب^(١) الأجانب خاصّة، يُديرهم بلقافة كالخاتم في إصبعه؛ حتى قال لي أحدهم: إنّ لهذا الباشا حاسة زائدة، لو سميت حاسة الإرضاء لكان هذا اسمها الطبيعي، وإنه يعمل بها كما يعمل المفكر بتفكيره؛ فهو يتكرّر الأساليب الغريبة التي يصعد ويهبط بها ميزان الحرارة النفسية، وإن جلس يكاذ يشعر من مهارته في التمثيل أن في جو المكان ستاراً يرفع وستاراً يسدّل بين الفصول.

فما لبث القنصل أن خرج بغير الوجه الذي دخل به، ولكنه عبس في وجهي أنا وتكرّره لي كأنه أضغّر شأنني؛ فأزدرتني عينه، فوثبت إلى رأسه فكرة الامتيازات. وهذه القوة الظالمة (الامتيازات)؛ لو أنّها كانت قوة قاهرة نافذة، وأعين بها طفيلي ليقترح دور الناس آمناً مطمئناً - لاستحى هذا الطفيلي أن يأكل بها؛ إذ تجمع عليه الأنطفال والمقت^(٢) معاً، ولو قيل لحسام بتار: إنّ لك امتيازاً على بعض السيوف ألا تقارعك^(٣)، وإنك محمي أن تنالك سطوتها إذا قارعتها^(٤) - لأيف أن يسمى سيفاً بهذا أو بمثل هذا، فإنّ القوة الظالمة التي يُعيرونه إياها، ليست إلا مهانة لشرف القوة العادلة التي هي فيه.

(١) اختلاب: خداع.

(٢) المقت: الكراهة.

(٣) تقارعك: تقاتلك.

(٤) قارعتها: غالبتها.

قال صاحب السُر: ووصفتُ لالباشا هيئةَ القنصلِ التي أنصرفَ بها، وتقطيعُ
في وجهي، وقلتُ لَهُ: إِنَّ الذبابةَ وقعتْ في صَحْفَتِي أنا من هذه الوليمة...
فضحك بملء فيه، ثُمَّ قال:

ستبطلُ هذهَ الامتيازات، وليسَ بيننا وبينَ نهايتها إلا أن ينتهيَ الشعبُ إلى
حقيقتهِ القوميةِ، فما تركها في مكانها إلا نزولُ الشعبِ عن مكانتهِ، وتألُّهُ لكَانَ
هؤلاءِ الأجانبِ يسألوننا بهذه الامتيازات: أين مكانكم في بلادكم...؟

أندري ما قاله هذا القنصلُ حينَ تجاذبنا الحديثَ^(١) فيها، بعد أن وضعتُ
نفسِي منه في موضع المحامي الذي يخذله^(٢) الدليلُ، فيحاول أن يستنزلَ كرمَ
القضاةِ بعرضِ بؤسِ المتهَم على شفقتهم، ليستعطفَ القانونُ الذي في أيديهم
بالقانونِ الذي في أنفسهم؟

إنه قال: لا يلومَنَّ الشرقيونَ إلا أنفسهم، فهم علموا الأجانبَ أن نتفَ ريشِ
الطيرِ أولَ أكله. وهذه الامتيازاتُ إن هي إلا مُعاملةٌ بيننا وبينَ طبيعةِ الخضوعِ في
الشعب. نعم إنها مَصْرَةٌ وَمَعْرَةٌ، وظلمٌ وقسوةٌ؛ ولكنها على ذلك طبيعيةٌ في
الطبيعة؛ فما دامَ هذا الشعبُ لِينًا المأخذِ، فإنَ هذا يوجِدُ لَهُ من يأخذه؛ وما دامتِ
الكلمةُ الأولى في مُعْجَم لُغَتِهِ السَّيَاسِيَّةِ هي مادة (خَضَعَ يَخْضَعُ)، فهذه الكلمةُ
تحمِلُ في معناها الواحدِ ألفَ معنى، منها: ظَلَمَ يَظْلِمُ، وَرَكِبَ يَرَكِبُ، وَمَلَكَ
يَمْلِكُ، وَأَسْتَبَدَّ يَسْتَبِدُّ، وَدَجَلَ يُدْجَلُ، وَخَدَعَ يَخْدَعُ؛ فهل يكثرُ أن يكونَ منها
للأجانبِ أَمْتَارٌ يمتاز؟

قال صاحب السُر: ثم زَمَّ ألباشا فَمَهُ وسكت: ففهمتُ الكلماتِ التي أنطبقَ
فَمُهُ عليها وإن لم يتكلَّم بها، ثُمَّ غلبَهُ الضحكُ فقال: - واللَّهِ - يا بني لو أن بُرْغوثًا
طَمَرَ من ثوبِ صُعلوكِ أجنبيٍّ، فوقعَ في ثوبِ صُعلوكِ وطني، فتقاتلاً فُقِبَضَ
عليهما، فأخذَا - لَمَّا رَضِيَ بُرْغوثُ الأجنبيِّ أن يُحاكَمَ إلا في المحاكمِ
المختلطة... .

ثُمَّ سَكَتَ ألباشا مرةً أخرى كأنه يقولُ كلاماً آخرَ لا يجوزُ نشره، ثُمَّ قال: يا
بُني، إنَ الأجانبَ لا يضعونَ الجِملَ إلا على مَنْ يحمل؛ فإذا نحن توخَّينا مُرادهم

(٢) يخذله: يعوزه.

(١) تجاذبنا الحديث: تداولناه.

أرادوا لأنفسهم لا لنا؛ وإذا وافقنا لهم غرضاً جعلوه كالدینارِ فيه مائه قرش، وأبوا إلا أن تُصارَ فُهم عليه بمائة. هم - ويحك - يمتازون في معاملتنا لا في سطور القوانين والمعاهدات، فلنُبطل هذه المعاملة يُبطل هذا الامتياز.

إنَّ الحقَّ يا بُنيَّ استحقاقٌ لا دعوى؛ وهذا التنازُعُ على الحياة يجعلُ وسائله الطبیعیةَ الانتزاعَ والمطالبةَ والتجَرَّدَ لَهُ والدُّبَّ فيه والإصرارَ عليه. وكلُّ الأقوياء يعلمون أنَّ موضعَ الاعتدالِ بينَ غَضَبِ الحقِّ وبينَ استردادِهِ موضعٌ لا مكانَ لَهُ في الطبيعة: والأجنبيُّ يعتمدُ علينا نحن في جعلِهِ أكبرَ مِنَّا وأوفرَ حُرمةً؛ فإذا أسقطَ الشعبُ هذه الامتيازاتِ من فكرِهِ، وروجِهِ وأعصابِهِ، وثارتَ فيه كبرياءُ الوطنيَّةِ فاستنكفَ مِنَ الاستخذاءِ، ونفَرَ مِنَ الاختضاعِ، وأبى إلا أن يُعلنَ كرامته، وصرفَ اهتمامَهُ إلى حقوقِ هذه الكرامة، وأصرَّ ألا يُعاملَ أجنبيًّا يرى لنفسِهِ امتيازاً على وطني، وقرَّرَ ذلك في نفسه، ومكَّنَهُ في رُوعِهِ، وأجمَعَ عليه إجماعُهُ على الدين - إذا جاءَتْ (إذا) هذه بشرطِها مِنَ الشعبِ، جاءَ جوابُ الشرطِ مِنَ الأجانبِ بنزولِهِم عنِ الامتيازاتِ وأنحَلَّتْ المشكلة. إنَّنا يا بُنيَّ لا نملكُ ضغطَ السياسة، ولكنَّا نملكُ ما هو أقوى؛ نملكُ ضغطَ الحياة.

لَهُم الامتيازُ بأنَّهم أجنبٌ عنا، فليكنْ لنا الامتيازُ الآخرُ بأنَّنا أجنبٌ عنهم في المعاملة، مثلاً بمثل، وما يَقلُّ الحديدُ إلا الحديدُ.

يقولون: النظامُ الاقتصاديُّ وأعمالُ الأجنبي. ولكنْ أرايتَ المالَ في يدِ الأجنبيِّ إلا مالاً وتديراً وسلطةً وسيادةً، من أَنَّهُ في يدِ الوطنيِّ دينٌ وإسرافٌ ورقٌ وذلٌّ؟

لم يَظهَرْ لي إلا الساعةُ أنَّ من حِكْمَةِ نَحْرِيمِ الرِّبا في شريعتِنَا الإسلاميَّةِ، وقايةُ الأُمَّةِ كُلِّها في ثروتِها وضياعِها ومُستغلاتِها، وحمايةُ الشعبِ وملوكِهِ مِنَ الإسرافِ والتَّخَرُّقِ والكُرمِ الكاذبِ، وردُّ الاستعمارِ الاقتصاديِّ، وشلُّ النفوذِ الأجنبيِّ.

أما لو أنَّا كَتَبْنَا مِنَ الأولِ على أبوابِ «البنكِ العقاريِّ» وأبوابِ ذَرَبَتِهِ: ﴿يَمَحُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ فهلْ كَانَتْ تُقرأُ هذهُ الكلماتُ الثلاثُ على أبوابِ تلكِ البنوكِ الأجنبيةِّ إلا هكذا: «محالٌ خاليةٌ للإيجار»...؟

فلتتعصب...!

وقال صاحب سر (م) باشا: جاءني يوماً صحفي إنجليزي من هؤلاء الكتّاب المتعصبين الذين تطلقهم إنجلترا كما تطلق مدافعها؛ غير أن هذه البارود والرصاص والقنابل وأولئك للكذب والتهم والمغالطات.

هو أدن وعين^(١) ولسان وقلم لجريدة إنجليزية كبيرة، معروفة بثقل وطاها على الشرق والإسلام؛ تضيع بإفساد، وتداوي الحُمى بالطاعون، وتعمل في نهضة الشرقيين وأستقلالهم ما يشبه قطع نذي الأم وهو في شفتي رضيعها المسكين.

ودخل علي هذا الكتّاب في الساعة التي خرج فيها من غرفتي صاحب جريدة أسبوعية في مدينتنا؛ كان قد نفخ الضفدع لجعلها ثوراً، فحول صحيفته إلى جريدة يومية، وهو لا يجد مادتها ولا يستطيع أسباها، إلا أنه كدأب^(٢) الناس عندنا كان يحسب الكذب في العمل سهلاً مَهلاً^(٣) كالكذب في القول، فلم يتعاضمه الأمر العظيم، وأقرض لعملي كل ألفاظ النجاح من اللغة.

وظن عند نفسه أنه سيخوف بجريدته الكبراء والأعيان والعماسير حتى يغلب على جميعهم، ويشارك أصابعه مع أصابعهم في استخراج ما يحتاج إليه من جيوبهم؛ فلم تعيش جريدته إلا أياماً وأتلف ما جمع، وهرن فيها داره التي لا يملك غيرها؛ وعلم أخراً أن الذي يكذب فيسمى الخروف جملاً، لا يقبل منه أن يكذب على الكذب نفسه، فيزعم أن الناقة هي التي نتجت هذا الخروف.

ولما أنفلبت هذه الجريدة يومية كان الباشا هو ملجأ الرجل ووزره، وكان لكل يوم في الجريدة أخبار عن الباشا لا تقع في الدنيا ولا تجمع من الأحداث، ولكن تقع في ذهن الكتّاب، وتجمع من صناديق الحروف؛ حتى قال لي الباشا مرة: إن أسمى قد أصبح موظفاً في هذه الجريدة لجمع الاشتراك...

(١) يقصد بذلك أنه جاسوس.

(٢) دأب، بسكون الهمزة: العادة.

(٣) هذا من الاتباع بلغة العرب.

وتحرى هذا الصحفي أن يستأذن يوماً على ألباشا وفي مجلسه خُذَ عظيم من السراة والأعيان والعُمد، وكانَ جَمَعَهُم لِأمر، فما هو إلا أن دخلَ الصَّحفي حتى أبتدَرَهُ ألباشا بهذا السؤال: يا أستاذ، ما هي تلغرافاتُ أوربا عنِ الحوادثِ التي ستقعُ غداً...؟

فضجَ المجلسُ بالضحك، وفقدَ المسكينُ بهذه النكتةَ أربعينَ ديناراً كانَ يؤمِّلُ أن يخرجَ بها، وأعلنَ ألباشا في أطرفِ إعلانٍ وأبلغه كذبَ الرجلِ ونفاقه وإسفافه، وأنه من رجالِ الصحافةِ المدوَّرةِ تدويرَ الرغيف... .

قال: ونظرْتُ إلى الصحفيِ الإنجليزيِ نظرةً أكشِفُهُ بها، فإذا أولُ ألفرقِ بينه وبين أمثاله عندنا - شعوره أن بلادَهُ قد ربَّتهُ (للخارج)، فهو عندَ نفسه كأنَّهُ إنجليزي مرتين؛ ويأتي من ذلك إحساسُهُ بعزَّةِ المالِكِ وقوَّةِ المستعمرِ، فلا يكونُ حيثُ يكونُ إلا في صراحةِ الأمرِ النافذِ، أو غموضِ الحيلةِ المبهمةِ؛ ويستحكمُ بهذا وذاك طبعُهُ العمليُّ، فهو بغريزتهِ مُقاتِلٌ من مقاتلةِ ألفكر، يلتمسُ ميدانَهُ بينَ القوى المتضاربةِ لا يبالِي أن يكونَ فيه الموتُ ما دامَ فيه العملُ؛ وبهذا كلُّهُ تراه نافذَ البصيرةِ قائماً على سِواءِ الطريقِ، لأنَّ الإنجليزيَّ الباطنَ فيه يوجُّهُ الإنجليزيَّ الظاهرَ منه ويُسَانِدُهُ؛ وفي أعماقِ الآنتينِ تجدُ إنجلترا، وليسَ غيرَ إنجلترا.

ثمَ نفُرسْتُ في الرجلِ أريدُ كُنْهَهُ^(١) وحقيقتهُ، فإذا لَهُ نفسٌ مفتوحةٌ مقلَّعةٌ معاً، كغُرفِ الدار: ألواحِدَةُ يَفْتَحُ بعضها لِمَا فيه كيما يرى، ويُقفلُ بعضها على ما فيه كيلا يُرى.

ولَهُ وجهٌ عمليٌّ يكادُ يُحاسبُكَ على نظراتِكَ إليه؛ تدورُ في هذا ألوجهِ عينانِ قد أعتادتَا وزنَ الأشياءِ والمعاني؛ يتلألُ في هاتينِ العينينِ شعاعُ النفسِ القويَّةِ الممزَّنة، قد نَفَتِ الثقةُ بها نصفَ همومِ الحياةِ عن صاحبها، تُمَدُّ هذه النفسُ طبيعةً مؤمنةً بأنَّ أكبرَ سرورها في أعمالِها، فواجبُها في الحياةِ أن تعملَ كُلَّ ما يحسُنُ بها وكلَّ ما يحسُنُ منها.

لقد خُيِّلَ إليّ، وأنا أنظرُ إلى نفسيَّةِ هذا الإنجليزيِّ أن كلمةَ الأخيَّةِ عندَ هؤلاءِ الإنجليزِ غيرُ كلمةِ الأخيَّةِ عندنا - نحن الشرقيين -، فإنَّ خيَّةَ النفسِ لا تَتِمُّ معانيها

(١) كنهه: سره وكونه.

أبدأ في النفس العاملة الدائبة، التي يشعرها الواجب أنه شيء إلهي لا يخيب، وأن ما يُرفض على هذه الأرض من العمل الطيب لا يرفض في السماء.

وكان الرجل قد أدرك غرضي بملكته الصحافية الدقيقة، فأجابني عن السؤال الذي لم أسأله، وقال لي مبتدئاً: إن أساستنا الشخصية وحاسة الواجب؛ وإن فيكم أنتم كل شيء إلا هذين؛ فأخلاقنا تظهر دائماً في العمل، وأخلاقكم تظهر دائماً في الكلام الفارغ؛ ونحن نطلب الحقيقة، وأنتم تطلبون الألفاظ، حتى إنه لو خسر المبرر ألف دينار، ثم أعلن أنها مائة فقط، وصدق الناس أنها مائة؛ لكان عند نفسه كأنه ربح تسعمائة...

قال صاحب الكرسي: وأستاذت له على الباشا فسهل ورغب؛ ثم همت بالانصراف عنهما، ولكن الإنجليزي قال: يا باشا! إنه قد تمكن في روعي أن صاحب سرّك هذا متعصب ديني، وقد علمت أنه ابن فلان القاضي الشرعي، فطربوشه ابن الإمامة؛ ولقد كان ينظر إلي، وكأنه يتأمل من أين يذبخني...

فضحك الباشا وقال لي: يا فلان إن هذا الكاتب من تلاميذ برناردشو، فهو كأستاذي يجعل لكل حقيقة ذنباً كليل ألهر، ثم يمسكها منه فإذا هي تعض وتلتوى...

والتفت بعد ذلك إلى الإنجليزي ثم قال له: جاءني كتابك فإذا كنت تريد رأيي فيما تسميه التعصب الديني عند المسلمين، فعجيب أن تضعوا أنتم الغلطة ثم تسألونا نحن فيها! إنك لتعلم أن هذا التعصب الكذب الذي أكثرتم الكلام فيه، إنما هو لفظ من ألفاظ السياسة الأوربية، أرسلتموه إلينا ليقاتل لفظ التعصب الحقيقي؛ ومن قبل هذا اخترعتم لفظه (الأفليات)، وأجريتوها في لغتكم السياسية، لتجعلوا بها لتعصبنا الوطني شكلاً آخر غير شكله فتفسدوه علينا بهذه المادة المفسدة؛ وبذلك تضربون أليد الأيمنى من غير أن تلمسوها، إذ تضربونها بشل أليد اليسرى.

إن الإسلام في نفسه عدو شديد على التعصب الذي تفهمونه، فهو يقول لإلهيه في كتابه العزيز: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

فإذا كان العدل في هذا الدين عدلاً صارماً، وحقاً مخضاً لا يُعير بشيء البتة،

لا ذات النفس التي فيها اشتهاؤ آدم، ولا أصلها من الأبوبين اللذين جاءث منها وراثته آدم، ولا أطرافها من الأقربين الذين يلتقون حول نسب آدم - إذا كان هذا، فإين في هذا العدل محل الظلم؟

لعلك تشير إلى هذه الرعونة التي تعرفها في الأغمار والأغفال من العامة، فهذه ليست من أثر الدين، بل هي أثر الجهل بالدين؛ إن هذا ليس تعصباً، بل هو معنى من معاني الحمية النفسية الخرقاء لم تجدوا أنتم له لفظاً، وكان أقرب الألفاظ إليه عندكم هو التعصب، فأطلقتموه عليه للمعنى الذي في نفسه والمعنى الذي في أنفسكم. ألا فاعلم أن إسلام العامة اليوم هو كالدعوى المقبولة شكلاً والمرفوضة بعد ذلك.

قال الإنجليزى: ولكن ليهؤلاء العامة علماء دينين يدبرونهم من ورائهم. وهم عندكم ورثة النبي ﷺ أي منج الفكرة وقوتها.

قال ألباشا: غير أن هؤلاء قد أصبحوا كلهم أو أكثرهم لا يندس^(١) فيهم عزق من تلك الوراثة، وذلك هو الذي بلغ بنا ما ترى؛ فالقوم إلا قليلاً منهم كالأسلاك الكهربائية المعطلة: لا فيها سلب ولا إيجاب؛ ولو أن هؤلاء العلماء كانت فيهم كهرباء الكيوة، لكهربوا الأمم الإسلامية في أقطارها المختلفة. إذن لقام في وجه الاستعمار الأوربي أربعائة مليون مسلم جلد^(٢) صارم شديد، متظاهرين متعاونين، قد أعدوا كل ما استطاعوا من قوة العلم، وقوة النفس، وهم لو قذف كل منهم بحجرين لردمو البحر.

أتريد معنى التعصب في الإسلام؟ إنه بعينه كتعصب كل إنجليزى للأسطول؛ فهو تشابك المسلمين في أرجاء الأرض قاطبة، وأخذهم بأسباب القوة إلى آخر الاستطاعة، لدفع ظلم القوة بأخر ما في الاستطاعة.

وهو بذلك يعمل عملين: استكمال الوجود الإسلامى، والدفاع عن كماله.

وإذا أنت ترجمت هذا إلى معناه السياسى، كان معناه إصرار جميع المسلمين على نوع الحياة وكرامتها، لا على استمرار الحياة ووجودها فقط. وذلك هو مبدؤكم أنتم أيها الإنجليز: لا تقبلون إلا حياة السيادة والحكم والحرية، فأنتم مسلمون في هذا المبدأ لو عدلتم.

(٢) جلد، يسكون اللام: صبور في القتال.

(١) يندس: يدخل في السر.

أليس من البلاء أن المسلمين اليوم لا يدرسون بعضهم بلاد بعض إلا على الخريطة . . . مع أن الحج لم يُشرع في دينهم إلا ليتعوديهم دراسة الأرض في الأرض نفسها لا في ألورق، ثم ليكون من مبادئهم العملية أن العالم مفتوح لا مقفل؟

إنّ التعصب في حقيقته هو إعلان الأمة أنّها في طاعة الشريعة الكاملة، وأنّ لها الروح الحادة لا البليدة، وأنّ أساسها في السياسة احترام الذات لا تقبل غيره، وأنّ أفكارها الاجتماعية حقائق ثابتة لا أشكال نظرية، وأنّ مبدأها هو الحق ولا شيء غير الحق، وأنّ قاعدتها «لا يضرّكم من ضلّ إذا أمتديتم». فالهداية أولاً والهداية آخراً: الهداية في القوة، والهداية في السياسة، والهداية في الاجتماع. فقل لي بحياتك وحياة إنجلترا: أيعاب ذلك على المسلمين إلا بالالفاظ التي يعيب اللص بها أهل الدار لأنهم يحكمون في وجهه إقبال الباب . . . ؟

قال: فوجم الإنجليزي حتى ذهل عن نفسه وصاح:

إذا كان هذا فلتتعصب، فلتتعصب.

وزن الماضي

وقال صاحبُ سرِّ (م) باشا: إني لجالسٌ ذاتَ يومٍ وفي يدي كتابٌ لبعضِ المتفلسفةِ من مَلاحِدَةِ أوربا الذين يُريدون أن يفهموا ما لا يفهم؛ وكانَ ألباشا قد رآني مرةً أنظرُ فيه وأتدبِّرُ مسائلَهُ الغامضةَ، فقالَ لي: يا بُني، إنَّ أحدَ الكلابِ كانَ شاعراً فيلسوفاً، فنظرَ ليلةً في النجومِ فراعتهُ وحيرتهُ؛ فآلى أن يفهمها بعقلِهِ وتفرَّغَ لدرسيها مدةً طويلةً، ثُمَّ وَضَعَ فيها كتاباً نفيساً ضخماً، كانَ أعظمَ كتبِ الفلسفةِ وأشدَّها غموضاً عندَ الكلابِ، وكانَ أسمُهُ: العظامُ المبعثرةُ فوقنا.

قال: فأنا جالسٌ أقرأُ هذا الكلامَ الَّذي لا صحيحٌ فيه إلا أَنَّهُ غيرُ صحيحٍ. إذْ دخلَ عليَّ كاتبٌ متفلسفٌ مُلحِدٌ من هؤلاءِ المدخولينِ في عقولِهِم، المفتونينِ بأوربا ومذاهبِها وعلويَّاتها وسُفليَّاتها... وهو يكتبُ في الصحفِ، ويؤلفُ الرسائلِ، وقد جاءَ يَسْتَضِرُّ ألباشا على فلاحٍ شاركه في زراعةِ أرضِهِ، فزرعهُ الفلاحُ فيها وحَصَدَهُ، ودَهاهُ بكيدِهِ، وأبتلاه بغِلظَتِهِ، وتهدَّدهُ بالنِّقمةِ.

وكانَ هذا الفلاحُ السَّادِجُ الغريرُ قد سبقَهُ إليَّ وعرفَهُ لي تعريفاً قاموسياً محيطاً من مادةٍ كَفَرٍ يَكْفُرُ... ثُمَّ قالَ بعد ذلك: إِنَّهُ (بياعُ كلامٍ) يُضدِّقُ ويَكْذِبُ حسبَ الطلبِ.. وألذِّمَهُ نفسُها لیسَتْ عندهُ إلا (عمليةٌ حسابيةٌ)؛ وهو في أقوى جهاتِهِ لا ينفعُ الدُّنيا بما تنفعُها بِهِ البَهيْمَةُ من أضعفِ جهاتِها.

أما الكاتبُ فيقولُ عن هذا الفلاحِ: إِنَّهُ لا يدري أهو يُتَمُّ بهائمه أم بهائمه هي التي تُتَمُّ، وإنَّ الَّذي يرفعُ ألقضيةَ على مثلِ هذا المخلوقِ إلى محكمةٍ لا يكونُ إلا كَالَّذِي يَقْعِيقُ بالعِصا على جُحْرِ فيه الحَيَّةُ السَّامةُ.

ورأى المتفلسفُ الكتابَ على يدي، فتهلَّلَ وأستبشَرَ وقالَ لي: هذا نَسَبٌ بيتنا... فأدرَكْتُ من كلمتِهِ هذه جملتَهُ وتفصيلَهُ، وحِيلَ إليَّ أَنِّي أرى فيه نفسَهُ الشرقيَّةَ كَالْمِراةِ المَطْلُقةِ... فقلْتُ لَهُ: أنا أَشتريتُ هذا الكتابَ من أوربا، ولكنِّي لم أَشترِ منها دِماغِي.

وكلَّمْنُهُ أَسْتَخْرِجُ ما عنده؛ فإذا هو في قَوْمِهِ وتاريخِ قَوْمِهِ كَالسَّائِحِ في بلادِ
أَجْنَبِيَّةٍ: يَفْتَحُ لها عَيْنَهُ ولا يَفْتَحُ لها قَلْبَهُ.

وكانَ جريئاً في كلامِهِ مَعَ ألباشا: يَطْرُدُ الْقَوْلَ حيثُ شاءَ حقّاً وباطلاً، ثُمَّ
لا سِنادَ لِرأْيِهِ ولا تَشْبِيهَ لِحُجَّتِهِ إِلَّا قَوْلَ فُلانٍ ورأْيِ فُلانٍ، كأنَّ في رأسِهِ عقلاً
شَحاذاً... ثُمَّ ذَكَرَ آخَرَ الْأَمْرِ ما جاءَ لَهُ، فَخَجَلَهُ ألباشا وقالَ: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ كَكُلِّ
مَسائِلِكَ: تَحْتَاجُ إلى رَأْيِ فِيلَسُوفٍ أَوْ رِبِّي... وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَدْخُلْ في شَيْءٍ
مِنْ أَمْرِهِ.

وَلَمَّا أَنْصَرَفَ قالَ ألباشا: يَحْسَبُ هَذَا نَفْسُهُ عالِماً، وَهُوَ صُغْلُوكُ عِلْمِي...
وإنَّما يَكُونُ دِماغُهُ وأدمغَةُ أَمثالِهِ عِنْدَ الْفَلَسَفَةِ وَالْعُلَماءِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَهُمْ كَمَا تَكُونُ
سَلَةُ الْمَهْمَلاتِ عِنْدَ الْأَصْحابِ.

إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ يُتِمُّ ضَعْفَ عَقْلِهِ في الرَأْيِ بِقُوَّةٍ عِنادٍ فِيهِ، لِيَجْعَلَ لَهُ ثَباتَ
الْحَقِيقَةِ فيظُنُّ حَقِيقَةً، كأنَّ خَضَخَضَةَ أَلْماءٍ بِالْيَدِ في وعاءٍ صَغِيرٍ يَنْقُلُ إلى هَذَا
الْوَعاءِ طَبِيعَةَ الْمَوْجِ؛ وَعِنْدَ أَمثالِ هَذَا الْمُفْتَوِّ مِنَ الصُّعَالِيكَ الْعَلَمِيِّينَ، أَنْتَ إِذَا
تَنَاولْتَ مَسْأَلَةً فَأَخْطَأْتَ فِيها خَطأً جَرِيئاً، فَقَدْ جَعَلْتَهَا بِخَطِيئِكَ الْجَرِيِّ مَسْأَلَةً مِنَ
الْعِلْمِ. وَأَنْتَ إِذَا عَانَدْتَ فَتَبَّتْ أَلْخَطَأُ في وَجهِ النَّاقدِينَ سَنَةً، كانَ حَقِيقَةً مَدَّةُ
سَنَةٍ

هَمُّ مُفْتَوْنٍ زائِفُونَ، وَمَنْ فِتْنَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْبَعْدَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْفَضائلِ
الْشَرْقِيَّةِ، كَالْبَعْدِ بَيْنَ الْعَالِمِ وَالْجَاهِلِ؛ وَلَوْ حَقَّقُوا لَرَأَوْهُ بُغْداً في الْغُرَائِزِ لا في
الْعَقْلِ، أَيَّ كَالْبَعْدِ بَيْنَ الْفُجُورِ وَما أَشَبَهُ الْفُجُورَ، وَبَيْنَ الْتَقْوَى وَما أَشَبَهُ الْتَقْوَى.

زَعَمَ الْأَحْمَقُ أَنَّ خِصَمَهُ أَفْلاَحَ رَجُلٍ راسِخٍ في الْأَماضِيِّ، كَأَنَّهُ باقٍ في أَمْسٍ
لَمْ يَنْتَقِلْ مِنْهُ، مَعَ أَنَّ أَمْسَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ إلى أَنَّ الْأَمَّةَ
يَجِبُ أَنْ تَنْبَذَ ماضِيَهَا، ثُمَّ ادَّعى أَنَّ الْإِسْلَامَ يَتَعَصَّبُ لِلْمَاضِيِّ. هَذِهِ ثَلَاثُ كَلِماتٍ
تَخْرُجُ مِنْها الرُّبْعَةُ الَّتِي سَكَتَ عَنْها...

وَأَنَا لَوْ شِئْتُ أَنْ أَسْخَرَ مِنْ مِثْلِ هَذَا الصُّغْلُوكِ الْعِلْمِيِّ، لَمَّا وَجَدْتُ في
أَساليبِ السَّخَرَةِ أَبْلَغَ مِنْ أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْهِ بِقارورةِ فارغةٍ وأَقولَ لَهُ: املأْها لي مِنْ آراءِ
الْفَلَسَفَةِ...

يَغْفُلُ هذا وأمثاله عن أن الدينَ الإسلامي لا يعرفُ الماضيَ بمعنى ما مضى على إطلاقه؛ بل هو يشترطُ فيه ألا يخالفَ العقلَ ولا العلمَ، وألا يناقضَ الهداية؛ ﴿قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَفْتَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَّلُو كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْمَلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَّلُو كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْمَلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ؟ وفي الثالثة: ﴿قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَّلُو كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ؟ وفي الرابعة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَانْتِهِمْ مُقْتَدُونَ قُلْ أَوَّلُو حَتَّى يُؤْذَنَ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ؟﴾

فانظر كيف صَوَّرَ ما نُسِمَ به اليوم بالجمود في قوله: (حسبنا)، وكيف صَوَّرَ ما نُسِمَ بالرجعية في قوله (ننبغ)، وتامل كيف رفضَ الجمودَ والرجعيةَ معاً في العلم والعقل والهداية، أي في آثارها من العلوم والمخترعات والفضائل الإنسانية، وكيف أبطل في تلك الثلاث الاحتجاجَ بالماضي بهذا الأسلوبِ الدقيقِ العالي، وهو قوله في كل آية أولو، أولو. لم يغيرها؛ بل كررها بلفظها أربع مرات.

فالمعجزُ هنا مجيءُ آياتٍ بهذه الصورة المنطقية لإسقاطِ حُجَّتِهِمْ، ونفي معنى التقدّيسِ عن الماضي فيهنَّ؛ إذ كانَ العلمُ دائمَ التغيُّرِ، وكانَ العقلُ دائمَ التجديدِ والإبداعِ، وكانتِ الهدايةُ شديدةَ على الطبيعة الحيوانية التي هي ماضي النفس؛ فكأنَّها جديدةٌ على النفسِ عندَ كلِّ شهوةٍ.

إنَّ الإنسانَ بماضيه وحاضره كأنَّه مقسومٌ قسمين، يقول أحدهما: أريدُ أن أكونَ. ويقول الآخر: أنا قد كنتُ. فالإسلامُ بهذه الآياتِ قد أوجبَ وزنَ الكلمتين في كلِّ زمنٍ بما هوَ الأصحُّ، وبما هوَ الأنفعُ، وبما هوَ الأهدى؛ وبأشراطِهِ الهدايةَ في جميعها أشارَ إلى أنَّ الكمالَ النفسيَ للفردِ يجبُ أن يكونَ مرتبطاً بالكمالِ الإنسانيِّ للجنسِ.

وهذا معنى عجيب، وأعجبُ منه ما ترى من أنَّ الإسلامَ قد أصلحَ فكرةَ الماضي؛ فنقلها من معنى الآباءِ والأجدادِ للناسِ، إلى المعاني التي هي كآلآباءِ والأجدادِ لإنسانيةِ الناسِ. والأخذُ (بالأهدى) في اجتماعِ أُمَّةٍ مِنَ الأممِ، إنما هو بعينه ناموسُ الترقِّي والتطوُّرِ.

ومن أدقِّ الأسرارِ قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ فكلمة (أُمَّة) هذه لم يعرفها أحدٌ على حقيقتها، ولم تُفسَّرْها إلَّا علومُ هذا الزمن، فهي المشاعرُ النفسيةُ

التي يتكوّن منها مزاج الشعب، وفيها يستقرّ الماضي؛ كأنّ الآية قد عبّرت بآخر ما
أنتهى إليه علماء النفس: من أنّ الإنسان ابن أبويه وابن شعبه أيضاً.
فالتعصب في الإسلام هو للعلم النافع، وللمجد الصحيح، وللهداية الباعثة
على الكمال؛ وتعصب الجيل لمثل هذا في ماضيه، هو في اسمه تعصب، غير أنّه
في معناه إنّما هو العمل لتسليم مجد الأُمّة إلى الجيل التالي.

المعجمُ السياسي

وحدثني صاحبُ سرٍّ (م) باشا قال: كنّا في سنة ١٩٢٠، وهي بنتُ سنة ١٩١٩؛ وقد اجتمعَت الأُمَّةُ على مقاطعةِ لجنة (ملنر) لا تُكَلِّمُها، فجعلتِ السكوتُ ثورةً، وأعلنَ الشعبُ أنَّ كلمتهُ في لسانِ ألفِدِ ينطقُ ألفِدُ بها نطقَ النبيِّ بِمَا يُوحَى إليه، فما يكونُ لِأحدٍ غيرِه أن يقولَها، ولا أن يقولَ أُوحيَ إليَّ. وأبى اللورد ملنر أن يصدقَ أنَّ للمصريينِ إجماعاً يُعْتَدُ به، وأنهم دخلوا في السياسةِ دخولاً ثابتاً فَرَسَخُوا^(١) فيها، وأنهم أصبحوا معَ الإنجليزِ كالإنجليزِ الذين يقولون عن أنفسهم في مثلهم السائر: ينبغي أن نكونَ أحراراً مثلَ أعمالنا.

وزعمَ اللورد لينفسيه، أنَّ هذه الأحزابُ المصريةُ لا يَتَقَنَّ منها أثنانِ أبداً إلاَّ كانَ بينهما ثالثٌ يختلفانِ عليه، وهو الطمعُ في مناصبِ الحكم؛ وأستخرجُ من ذلك أنَّ المصريَّ والمصريَّ كشقي المقرض^(٢): لا يتحركانِ في عملٍ إلاَّ على تمزيقِ شيءٍ بينهما؛ فإنَّ لم يكنِ بينهما (الشيء) لم يكنِ منهما شيءٌ.

وذهب الرجلُ يَنْطَلِي وَيَخْدِسُ على ما يُخَيِّلُ لَهُ الظَّنُّ، وقد حَسِبَ أن إنجلترا يحقُّ لها أن تقولَ في المصريينِ ما يقولُ اللهُ في خَلْقِهِ كما وردَ في الأثر: «إنما يتَقَلَّبُونَ في قبضتي». وكما تقولُ اليومُ لِأهلِ فلسطينِ مِنَ العرب: «إِنْ يَشَأْ يَذْهَبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ»... وكانَ اللوردُ هذا رجلاً مُمارِساً لِمَشاكِلِ السياسةِ، دَخالاً فيها، ذاهباً من دُهاةِ القومِ، لَهُ في قلبِهِ عِنانٌ وأذنانٌ غيرَ ما في وجهِهِ كحَذَاقِ السياسيين؛ وهو يعرفُ أنَّ سياسةَ قومه لا تدخلُ في شيءٍ إلاَّ دخولَ الأبرةِ بِخيطِها في الثوبِ، إنَّ خرجتْ هي تركتِ الخيطُ وقد جَمَعَ وشَدَّ... فأرادَ أن يمتحنَ مذهبَ المصريينِ في إجماعِهِم على الاستقلالِ، وقدَّرَ أَنَّهُ واجِدٌ مِنَ الأفلاحينَ عوناً لَهُ ومادةً لِمَكْرِهِ السياسيِّ، وحسِبَ ألفِدَ صورةَ جديدةٍ من طبقةِ (الباشوات) الأقدمية، ينزلونَ مِنَ الشعبِ منزلةَ أليدٍ التي تُمَسِّكُ ألقيدَ، مِنَ الرَّجُلِ التي فيها

(٢) المقرض: المقص.

(١) رسخوا: استقروا.

ألقيد، ويضعون معنى كلمة الحاجة في كلمة السياسة، ويقولون: الوطن وهم يريدون الجاه، ويُقيمون الشعب كالثلم ينتصب قائماً بأيديهم ليحمل أرجلهم الصاعدة عليه.

فجاء اللورد إلى مصر، فوجد الأمة كلها قد حذرت منه وتيقظت له، حتى نصحه رشدي باشا بأنه لن يجد في مصر هرة تفاوضه؛ ولكنه كان مستيقناً أن أذن السياسة الإنجليزية (كالرديو) لصوتين: صوت الدنانير وصوت الجماهير، فمر في البلاد يرسم على الهواء علامات استفهام، وأنصفق^(١) عنه الناس وأهملوه، وكان يسير في دائرة الصمت التي مركزها أبو الهول، فبدأ وظل يبدأ حتى انتهى وما زال يبدأ... وساح في البلاد سياحة طويلة، وكأنه لم يسافر إلا من شقة أبي الهول السفلى إلى شفته العليا.

قال صاحب السر: وجاء اللورد لمقابلة الباشا، فمر علي مرور كتاب مقفل: لا أعرف منه إلا العنوان؛ غير أنه رجل بمقدار الرجل الذي يخالف أمة كاملة تكاد تحسبه مطوياً على زويدة، وترى له قوتين تجس من أثرهما الرهبة والإعجاب، وإذا تأملته قلت إن اللطف والظرف أضعف شمائله، وإن الدهاء والحيلة أقوى مواهبه. فلما لقيت الباشا من الغد، سألتني: كيف رأيت اللورد ملنر؟ فقلت: وألله يا باشا إنه كالضرورة: ما يتمناها أحد ولكنها تجيء...

فضحك الباشا وقال: يا ليت لنا - نحن الشرقيين - كل يوم ضرورة تصنع ما صنع اللورد؛ إنه كشف لنا في ذات أنفسنا عن حقيقة من أسمى الحقائق السياسية: وهي أن الشعب الذي يُصِر ولا يزال يُصِر يجعل الإغراء لا يُغري والخوف لا يُخيف.

ويا ليت الأمم الشرقية تتعلم هذا الصمت السياسي عن مجاوبة الكلمة الاستعمارية أحياناً؛ فإن صمت الأمة المصرية عن جواب (ملنر) كان معناه أن قدرة الأمة هي المتكلمة كلامها بذا الصمت، تعلن للعالم أن الواجب الشعبي قد وضع فقله على كل فم.

وقد فسر اللورد هذا السكوت بتفسيره السياسي، فأدرك منه أن في الشعب

(١) انصفق عنه الناس: تفرقوا.

أَنفَقَ وَحَمِيَّةَ وَقُوَّةَ، وَأَنَّ حِسَابَ الْضَمِيرِ الْوَطْنِي أَصْبَحَ لِهَذِهِ الْأَفْتَدَى كَالْحِسَابِ الْإِلَهِيِّ لِلنَّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ: كِلَاهُمَا مُسْتَعِلٌّ يُخَافُ وَيَتَّقَى، وَكِلاهُمَا كَلِمَةٌ مُحَرَّمَةٌ.

أَيُّهُ مُعْجَزَةٌ هَذِهِ الَّتِي جَعَلْتَ كَلِمَةَ الْأَجْنَبِيِّ تَتَّخِذُ فِي أَذْهَانِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ شَكْلَ قَائِلِهَا، فَاجْتَمَعَتْ لَهَا الْبِلَادُ عَلَى مَعْنَى الْإِرْفَاضِ، وَأَصْبَحَ كُلُّ فَرْدٍ يَعْرِفُ مَحَلَّهُ مِنْ الْأَكْلِ، وَخَضَعَتْ الطَّبَائِعُ بِجَمَلَتِهَا لِقَانُونِ الْعِزَّةِ الْقَوْمِيَّةِ، الَّذِي يُلْزِمُهَا إِلَّا تَخَضَعَ لِلْأَجْنَبِيِّ؟

إِنَّ الْأُمَمَ بَعْضُ مَسَائِلَ نَفْسِيَّةٍ كَهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ فَلَوْ أَنَّ لَنَا خَمْسَةَ دُرُوسٍ سِيَاسِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ كَدُرُوسِ (مِلنر)، لَكَانَتْ لَنَا فِي الْإِيمَانِ الْوَطْنِيِّ كَالْصَلَوَاتِ الْخَمْسِ.

وَالآنَ تَعَلَّمْتَ الْأُمَّةُ أَنَّ الشَّعْبَ الْعَزِيزَ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ فِي فَضِّ مَشَاكِلِهِ^(١) إِلَى الْحَلِّ، وَإِلَى طَرِيقَةِ الْحَلِّ أَيْضاً، وَقَدْ كَانَ (مِلنر) هُوَ أَوَّلُ أَسَاتِذَتِنَا فِي تَعْلِيمِنَا الطَّرِيقَةِ.

وَهَذَا الدَّرْسُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ دَرْساً لِلشَّرْقِ كُلِّهِ، فَإِنَّ السِّيَاسَةَ الْأَسْتِعْمَارِيَّةَ قَائِمَةٌ فِيهِ عَلَى خِدَاعِ الطَّرِيقَةِ فِي حَلِّ مَشَاكِلِهِ، فَيَحْلُونَهَا وَيُعَقِّدُونَهَا فِي نَصِّ وَاحِدٍ؛ وَيُثَبِّتُ الْكَلَامَ الَّذِي يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ أَنَّ الْأَمْرَ مِنْهُ زَوَالُ الْخِلَافِ، وَيُثَبِّتُ الْعَمَلَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ زَوَالُ الْمَقَاوِمِ.

وَفِي السِّيَاسَةِ الْأُورُوبِيَّةِ مُوَافَقَاتٌ دَمِيمَةٌ^(٢) كَالنِّسَاءِ الْمَشْهُوَّاتِ، فَإِذَا عَرَضُوا وَاحِدَةً مِنْهَا عَلَى مَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَزَوِّجُوهُ. فَأَبَاهَا وَفَتَحَ لَهَا عَيْنَيْهِ بِكُلِّ مَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ الْإِبْصَارِ، أَعْفَوَهُ مِنْهَا وَقَالُوا لَهُ: سَنَاتِيكَ بِالْجَمِيلَةِ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ بِهَا إِلَى مَعْهَدِ التَّجْمِيلِ الْغُلُوبِيِّ، فَيَصْقِلُونَهَا وَيَصْبِغُونَهَا، وَيَضَعُونَ لَهَا أَحْمَرَ السِّيَاسَةِ وَأَبْيَضَهَا، ثُمَّ يَعْرِضُونَهَا جَدِيدَةً عَلَى صَاحِبِهَا ذَاكَ، وَمَا صَنَعُوا مَا بِهِ صَارَتْ الدَّمِيمَةُ غَيْرَ دَمِيمَةٍ، وَلَكِنْ مَا بِهِ رَجَعَ غَيْرُ الْأَعْمَى كَالْأَعْمَى.

وَلَهُمْ عَقُولٌ عَجِيبَةٌ فِي اخْتِرَاعِ الْأَلْفَاظِ، حَتَّى لَتَكُونَ شِدَّةُ الْوُضُوحِ فِي عِبَارَةٍ، هِيَ بَعِينُهَا الطَّرِيقَةُ لِإِخْفَاءِ الْعَمُوضِ فِي عِبَارَةٍ أُخْرَى. وَكَثِيراً مَا يَأْتُونَ بِالْأَلْفَاظِ مُتَفَخِّةٍ تُحَسَّبُ جَزْلاً بَادِئَةً قَدْ مَلَأَهَا مَعْنَاهَا، وَهِيَ فِي السِّيَاسَةِ الْفَاطَ حُبَالَى، تَسْتَكْمِلُ حَمَلَهَا مَدَّةً ثُمَّ تَلِدُ.

(٢) دَمِيمَةٌ: بَشْعَةٌ.

(١) فَضِّ مَشَاكِلِهِ: حَلُّهَا.

ولهم من بعض الكلمات السياسية، كما لهم من بعض الرجال السياسيين؛
فيكون الرجل من ذهاتهم رجلاً كالناس، وهو عندهم مسمارٌ دقوة في أرض كذا أو
مملكة كذا، ويكون اللفظ لفظاً كاللغة، وهو مسمارٌ دقوة في وثيقة أو معاهدة.

ثم ضحك ألباشا وقال: إن أرضنا تُخرج القطن، وسياستنا تُخرج الفاظاً
كالقطن: لا توضع في المغزل إلا مدّت وتحوّلّت. وإذا ذهبنا نخالفهم في التأويل
والتفسير، لم نجد عندنا المعجم السياسي الذي يملئ النص. أتدري يا بُني ما هو
المعجم السياسي؟

أما إنه لو كان كتاباً يتألف من مليون كلمة، لذهبت كلها عبثاً وباطلاً وهراء،
ولكنه ذلك المعجم الحي، ذلك المعجم الذي يتألف من مليون جندي...

اللسانُ المُرَقَّع

وقالَ صاحبُ سرٍّ (م) باشا: جاءَ «حضرَةُ صاحبِ السَّعادة» فلانٌ لزيارةِ ألباشا؛ وهو رجلٌ مصريٌّ وُلِدَ في بعضِ القُرى، ما نَعْلَمُ أنَّ أَللهُ (تعالى) ميَّزَهُ بجوهرٍ غيرِ الجوهر، ولا طَبِيعٍ غيرِ الطَّبِيع، ولا تركيبٍ غيرِ التركيب، ولا زادَ في دميهِ نقطةَ زهٍ، ولا وضعَهُ موضعَ الوَسْطِ بَيْنَ فَتَيْنِ مِنَ الخَلِيقَةِ. غيرَ أَنَّهُ زارَ فرنسا، وطافَ بإنجلترا، وساحَ في إيطاليا، وعاجَ على ألمانيا، ولوَّنَ نفسَهُ ألواناً، فهو مصريٌّ ملوَّن. ومن ثَمَّ كانَ لا يرى في بلادِهِ وقومِهِ إِلَّا الفُروقَ بَيْنَ ما هنا وبين ما هناك. فما يَظْهَرُ له دينُ قومِهِ إِلَّا مُقابِلًا لِشَهواتِ أَحبِّها وِغامِرٍ فيها، ولا لُغَةَ قومِهِ إِلَّا مَقرونةً بِلُغَةٍ أُخرى ودُّ لو كانَ من أَهلِها، ولا تاريخُ قومِهِ إِلَّا مغمى عليه.. كالَمِيتٍ بَيْنَ تَواَرِخِ الأُمَمِ.

هو كغيرِهِ من هؤلاءِ المُتَرفِفينَ المُنعمينَ: مصريُّ الأمالِ فقط، إِذْ كانَتْ أسبابُهُم ومُستَغلائُهُم في مِصر؛ عَرَبِيٌّ الأَسمِ لا غير، إِذْ كانَتْ أَسماؤُهُم من جِنايَةِ أَهلِيهِم بِالطَّبِيعَةِ؛ مُسلمٌ ما مَضى دُونَ ما هو حاضِر، إِذْ كانَ لا جِيلةَ في أَنسابِهِم أَتَني أَنحدروا منها.

هو كغيرِهِ من هؤلاءِ المُتَرفِفينَ المُنعمينَ المُفتونينَ بالمَدِنيَّةِ: لِكُلِّ مِنْهُم جِنسُهُ المِصريُّ وَلِفِكرِهِ جِنسٌ أُخر.

قال: وكانَ حَضْرَةُ صاحِبِ السَّعادةِ يُكَلِّمُ ألباشا بِالعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَلْعُنُها العَرَبِيَّةُ، مُرتَفِعاً بِها عَن لُغَةِ أَلفَصيحِ أَرْتِفاعاً. مُنحطاً... نازِلاً بِها عَن لُغَةِ السُّوقَةِ نَزولاً عالِياً... فكانَ يَرْتَضِخُ لُكْنَةً أَعْجَمِيَّةً^(١)، بَيناً هِيَ في بعضِ الألفاظِ جَرَسٌ عالٍ يَطنُّ، إِذا هِيَ في لَفْظٍ أُخرٍ صَوْتُ مَرِيضٍ يَنثُنُّ، إِذا هِيَ في كَلِمَةٍ ثالِثَةٍ نَغَمٌ مُوسِيقِيٌّ يَرِنُ. ورأيتُهُ يَتَكَلَّفُ نِسيانَ بعضِ الجَمَلِ العَرَبِيِّ ليلوِي لِسانَهُ بِغيرِها مِنَ الفَرَنسيَّةِ، لا تَظَرُفاً ولا تَمْلُحاً ولا إِظهاراً لِقدَرَةِ أو عِلْمِ، وَلَكِنِ اسْتِجابَةً لِلشَّعورِ الأَجنَبِيِّ الخَفِيِّ

(١) يَرتَضِخُ لُكْنَةً أَعْجَمِيَّةً: يَلهجُ لهجَةً أورُوبِيَّةً.

المتكفي في نفسه . فكأنَّ وطنيَّة عقلي تآبى إلّا أن تُكذَّب وطنيَّة لسانه ، وهو بإحداهما زائفٌ على قومه ، وبالأخرى زائفٌ على غير قومه .

فلما أنصرفَ الرجلُ قالَ الباشا : أفٌ لِهَذَا وأمثالِ هذا ! أفٌ لِهَمْ وَلِمَا يصنعون ! إنَّ هذا الكبيرَ يلقَّبونه «حُضرة صاحب السعادة» ، ولأشرفُ منه - واللَّهِ - رجلٌ قرويٌّ ساذجٌ يكونُ لقبُهُ «حُضرة صاحب الجاموسة» . . . نعم إنَّ الفلاحَ عندنا جاهلٌ عَلمٌ ، ولكنَّ هذا أقبحُ منه جهلاً ، فإنَّه جاهلٌ وطنيَّة .

ثمَّ إنَّ الجاموسَةَ وصاحبَها عاملانِ ذائبانِ مخلصانِ لِلوطنِ ؛ فما هو عملُ حُضرة (صاحب اللسانِ المرقَّع) هذا؟ إنَّ عمله أنْ يعلنَ بِرطانيته^(١) الأجنبيةَّ أنَّ لغةَ وطنه ذليلةٌ مهينةٌ ، وأنَّه مُتجرَّدٌ مِنَ الروحِ السياسيِّ لِلغةِ قومه ؛ إذ لا يظهرُ الروحُ السياسيُّ لِلغةٍ ما ، إلّا في الجزرِصِ عليها وتقدِيمها على سواها .

كانَ الواجبُ على مثلِ هذا ألا يتكلَّم في بلادِهِ إلّا بِلُغته ، وكانَ الَّذي هو أوجبُ أن يتعصَّبَ لها على كلِّ لغةٍ تُزاحمُها في أرضِها ، فتركَ هذا وهذا وكانَ هو المزاحمَ بنفسِهِ ؛ فهو على أنَّه «حُضرة صاحب سعادة» ، لا يُنزِلُ نفسه مِنَ اللُّغةِ القوميةِ إلّا مُنزلةَ خادمٍ أجنبيٍّ في حانة .

أتدري ما هو سيِّرُ هؤلاءِ الكُبراءِ وهؤلاءِ السُّرَّاءِ الَّذين يُطمطمون^(٢) إذا تكلموا فيما بينهم ؟ إنَّهم عندنا طبقات :

أما واحدةٌ ، فإنَّهم يصنعونَ هذا الصنيعَ منجذبينَ إلى أصلٍ راسخٍ في طباعِهِمْ ، ممَّا تركَهُ الظلمُ والاستبدادُ والحمقُ في زمنِ الحكمِ التركيِّ ؛ فهم يُبدونَ جوهرَ نفوسِهِمْ لِأعينِهِمْ وأعينِ الناسِ ، كأنَّ اللُّغةَ الأجنبيةَّ فيما بينهم علامةُ الحكمِ والسُّلطةِ واحترافِ الشعبِ واستمرارِ ذلكِ الحمقِ في الدَّم . وهم بها يتنبَّلون^(٣)

وأما طبقةٌ ، فإنَّهم يتكلَّفونَ هذا ممَّا في نفوسِهِمْ من طباعِ أحدثها التُّفأقُ والخضوعُ والذلُّ السياسيُّ في عهدِ احتلالِ الإنجليزِ ؛ فاللُّغةُ الأجنبيةَّ بينهم تشرِفُ واعتبارٌ ، كأنَّهم بها من غيرِ الشعبِ المحكومِ الَّذي فقدَ السُّلطةَ ، وهم بها يتمجَّدون .

(١) رطانة : لهجة .

(٢) يطمطمون : يجعلون في ألسنتهم عجمة وكلمات منكرة .

(٣) يتنبَّلون : يرتفعون .

وأما جماعة، فإنهم يتعمدون هذا يريدون به عيب اللغة العربية وتهجينها^(١)، إذ اتخذوا من عداوة هذه اللغة طريقةً اتحلوها^(٢) ومذهباً انتسبوا إليه، وفيهم العالمُ بعلم أوربا، والأديبُ بأدب أوربا؛ وذلك من عداوتهم للدين الإسلامي، إذ جعل هذه اللغة حكومةً باقيةً في بلادهم مع كل حكومةٍ فوق كل حكومة؛ وهم يزدرون هذا الدين وسقطون عن أنفسهم كل واجباته. وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، إذ يغلون في مصريتهم غلواً قبيحاً ينتهي بهم إلى سفه الآراء، وخفة الأحلام، وطيش النزعات، فيما يتصل بالدين الإسلامي وآدابه ولغته. وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى وصفه من حيث هو رقيق، على وصفه من حيث هو عالم أو أديب أو ما شاء. إن هذا لمقت ﴿كَبُرَ مَقَاتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ومن أثر تلك اللفئات الثلاث نشأت فئة رابعة، تحول فيهم ذلك الخلط من الكلام إلى طريقةٍ نفسيةٍ في النفس؛ فهم يُفجمون^(٣) في كتاباتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية، ويحسبون عملهم هذا تظرفاً ومُعابشةً ومُجوناً، على أنه هو الذي يُظهر لعين البصير مواضع القطع التاريخي في نفوسهم، وأماكن الفساد القومي في طبيعتهم، وجهات التحلل الديني في اعتقادهم. هؤلاء يكتب أحدهم: (الرفزة) وهو قادر أن يقول الغضب، (والفلير) وهو مستطيع أن يجعل في مكانها المغازلة، (وسكالنس) وهو يعرف لفظة أنواع واللوان، وهكذا؛ ولا - والله - أن تكون المسافة بين اللفظين إلا المسافة بعينها بين قلوبهم ورؤس قلوبهم.

وما برح التقليد السخيف لا يعرف له باباً يلج منه إلى السخفاء إلا باب التهاون والتسامح؛ ونحن قومٌ أبليتنا بتزوير الغيوب على أنفسنا وعدّها في المحاسن والفضائل، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن. وبهذه الطبيعة المعكوسة نحاول أن نقتبس من مزايا الأوروبيين، فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبهم، إذ كانت هي الأسهل علينا، وهي الأشكل بطبعنا الضعيف المتسامح المتهاون.

(١) تهجينها: تقييحها.

(٢) اتحلوها: اتحلوها بحلة وعملاً.

(٣) يفجمون: يدخلون بالقوة.

ومن هذا تجد مشاكلنا الاجتماعية - على أنها أهون وأيسر من مشاكل
الأوربيين، وعلى أن في ديننا وأدبنا لكل مشكلة حلها - تجدها هي علينا أصعب
وأشد، لأننا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون، وكل ذلك من شيء واحد:
وهو أن أكثر كبرائنا هم أكبر بلائنا.

قال صاحب السر: ثم ضحك الباشا ضحكته الساخرة وقال: كيف تصنع أمة
يكون أكثر العاملين هم أكبر العاطلين، إذ يعملون ولكن بروح غير عاملة..

سرُّ القُبَّة

وحدثني صاحبُ سرِّ (م) باشا، قال: نَجَمَتْ^(١) في مصرَ حركةٌ بِعَقِبِ أَيَّامِ
الْبِدْعَةِ التُّرْكِيَّةِ، حِينَ لَمْ تَبْقَ لِشَيْءٍ هُنَاكَ قَاعِدَةٌ إِلَّا الْقَاعِدَةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي تُقَرَّرُهَا
الْمُشَانِقُ... فَمَنْ أَبَى أَنْ يَخْلَعَ الْعِمَامَةَ عَنْ رَأْسِهِ خَلَعُوا رَأْسَهُ؛ وَمَنْ قَالَ (لَا)
أَنْقَلَبْتُ (لَا) هَذِهِ مُشَنَّفَةٌ فَعُلْتُ فِيهَا.

وكانتِ فكرةُ اتِّخَاذِ الْقُبَّةِ فِي تَرْكِيا غِطَاءَ لِلرَّأْسِ، قَدْ جَاءَتْ بَعْدَ نَزْعَاتٍ مِنْ
مِثْلِهَا كَمَا يَجِيءُ الْجِذَاءُ فِي آخِرِ مَا يَلْبَسُ الْأَلْبَاسَ، فَلَمْ يَشْكُ أَحَدٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ قُبَّةً
عَلَى الرَّأْسِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ طَرِيقَةٌ لِتَرْبِيَةِ الرَّأْسِ الْمُسْلِمِ تَرْبِيَةً جَدِيدَةً، لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ
وَلَا سَجْدَةٌ؛ وَلَا فَتْحُنْ نَرَى هَذِهِ الْقُبَّةَ عَلَى رَأْسِ الزَّنَجِيِّ وَالْهَمَجِيِّ، وَعَلَى رَأْسِ
الْأَبْلَةِ وَالْمَجْنُونِ، فَمَا رَأَيْنَاهَا جَعَلَتْ الْأَسْوَدَ أَيْضَ، وَلَا عَرَفْنَاهَا نَقَلَتْ هَمَجِيًّا عَنْ
طَبِيعِهِ، وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ أَنَّهَا أَكْمَلَتْ الْعَقْلَ الْفَاقِصَ أَوْ رَدَّتِ الْعَقْلَ الْذَاهِبَ، أَوْ أَنْقَلَبَتْ
آلَةً لِحُلِّ مُشْكَلاتِ الرَّأْسِ الْبَلِيدِ، أَوْ غَضَبَتْ الطَّبِيعَةَ شَيْئاً وَقَالَتْ: هَذَا لِحَامِلِي دُونَ
حَامِلِ الطَّرْبُوشِ وَالْعِمَامَةِ.

وَقَدْ أَحْتَجُّوا يَوْمَئِذٍ لِصَاحِبِ تِلْكَ الْبِدْعَةِ أَنَّهُ لَا يَرَى الْوَجْهَ إِلَّا الْمَدْنِيَّةَ، وَلَا
يَعْرِفُ الْمَدْنِيَّةَ إِلَّا مَدْنِيَّةَ أَوْرُبَا، فَهُوَ يَمْتَثِلُهَا كَمَا هِيَ فِي حَسَنَاتِهَا وَسَيِّئَاتِهَا، وَمَا يَحِلُّ
وَمَا يَنْخَرُمُ وَمَا يَكُونُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ وَمَا يَكُونُ فِي غِنَى عَنْهُ؛ حَتَّى لَوْ أَنَّ الْأَوْرُبِيِّينَ
كَانُوا غُوراً بِالطَّبِيعَةِ، لَجَعَلَ هُوَ قَوْمَهُ غُوراً بِالصَّنَاعَةِ لِيُشَبِّهُوا الْأَوْرُبِيِّينَ. نَعَمْ إِنَّهَا
حُجَّةٌ تَامَّةٌ لَوْلَا نَقْصٌ قَلِيلٌ فِي الْبَرَهَانِ، يُمَكِّنُ تَلَاْفِيَهُ بِإِخْرَاجِ طَبِيعَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ كِتَابِ
الْفَتْوحِ الْعُثْمَانِيَّةِ، يَظْهَرُ فِيهَا الْخُلَفَاءُ الْعِظَامُ وَالْأَبْطَالُ الْمَعَاوِيرُ الَّذِينَ قَهَرُوا الْأَوْرُبِيِّينَ
لَا بِسِيَرِ قُبَّاتٍ، لِيُشَبِّهُوا الْأَوْرُبِيِّينَ...

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَتَهَوَّرَ فِي هَذِهِ الضَّلَالَةِ زَهْطُ مَنْ قَوْمِنَا، وَأَخَذُوا يَدْعُونَ
إِلَى التَّقْبِعِ فِي مِصْرَ احْتِذَاءً لِتَرْكِيا، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى سَعْدِ بَاشَا (رَحِمَهُ اللَّهُ) يَطْلُبُ

(١) نَجَمَتْ: ظَهَرَتْ.

رأيه، فكان رأيه (لا) بمدّ الألف... وعهد إليّ بعضهم أن أسأل الباشا، فقال:

ونحهم! ألا يخرجون أن نكون - نحن المصريين - مقلّدين للتقليد نفسه؟ إن هذه بذعة تنحط عندنا درجة عن الأصل، فكأنها بدعتان. ثم ضحك الباشا وقال: كان في القديم رجل سمع أن أبصل بالخل نافع للصفراء، فذهب إلى بستان يملكه وقال لوكيله: إزوغ لي بصلاً بخل... هكذا يريدون من القبعات: أن تُخرَجَ لهم تركاً بأوربيتين.

ليست هذه القبعة في تركيا هي القبعة، بل هي كلمة سب للعرب وردت على الإسلام. ضاقت بها كل الأساليب أن تظهرها واضحة بيّنة، فلم يف بها إلا هذا الأسلوب وحده. وهي إعلان سياسي بالمناوأة والمخالفة والانحراف عما واطراحنا. فإن الذي يخرج من أمته لا يخرج منها وهو في ثيابها وشعارها؛ فبهذا انتفح لهم باب الخروج في القبعة دون غيرها مما يجري فيه التقليد أو يُبدعهُ الابتكار؛ وإلا فأني سرّ في هذه القبعات، ومتى كانت الأمم تُقاس بمقاييس الخياطين...؟

لهنا سيف أراد أن يكون مقصاً فعمل أولاً ما يعمل الحسام البتار، فأجاد وأبدع وأكبره الناس وأعظموه؛ ثم صنع ما يصنع القمص، فماذا عساه يأتي به إلا ما يُنكره الأبطال والخياطون جميعاً؟

أكتب علينا أن نطل دهرنا نبحت في التقليد الأعمى، وألا يخيا الشرقي إلا مستعبداً ينتظر في كل أمره من يقول له: إشرع لي...؟ إن بحثنا فلنبحت في زي جديد نتميز به، فتكون أقوى الكامنة فينا وفي طبيعة أرضنا وجوئنا هي التي اخترعت لإظهارها ما يجعله ظاهرها. كما يُخرج زور الأسد ليُدَّ الأسد. غاية في المنفعة والجمال والملاءمة.

أنا البس ما شئت، ولكنني عند السعة أجد حداً تقف إليه ذاتي الفردية، فلا أرى ثمة موضع أنفراد ولكن موضع مشاكلة، ولا أعرف صفة منفعة لي بل صفة حقيقة مني، ويعترضني من هناك المعنى الذي يصير به النوع إلى الجنس. والواحد بل الجماعة وما دمت مسلماً أصلي وأركع وأسجد، فالقبعة نفسها تقول لي: دعني فليست لك.

وهؤلاء الرجال الذين لبسوها في مصر، إنما أشتقوها من المصدر نفس

المصدر الذي يخرج منه الهتك في النساء، وكلاهما منزع من المخالفة، وكلاهما ضد من صفة اجتماعية تقوم بها فضيلة شرعية عامة. وليس يعدم قائل وجهاً من القول في تزيين القبعة، ولا مذهباً من الرأي في الاحتجاج لها، غير أن المذاهب الفلسفية لا يعجزها أن تثبم لك البرهان جدلاً^(١) محضاً على أن حياة المرأة وعفتها إن هما إلا رذيلتان في ألفن... وإن هما إلا مرض وضعف، وإن هما إلا كيت وكيت، ثم تنتهي الفلسفة إلى عدهما من البلاهة والغفلة، وما الغفلة والبلاهة إلا أن تريد فلسفة من فلسفات الدنيا أن تثبم في كتاب الصلاة مثلاً فصلاً في.

في... في الدعارة.

لا يهولئك^(٢) ما أقررت لك: من أن القبعة الأوربية على رأس المسلم المصري، تهتك أخلاقي أو سياسي أو ديني أو من هذه كلها معاً، فإنك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب، بعد أن تهتك الأخلاق الشرقية الكريمة وتحلل أكثر عقدها، وبعد أن قاربت الحرية العصرية بين النقائص حتى كادت تخلط الحدود اللغوية؛ فحرية المنفعة مثلاً تجعل الصادق والكاذب بمعنى واحد، فلا يقال: إلا أنه وجد منفعة فصدق، ووجد منفعة فكذب؛ وعند الحرية العصرية أنه ما فرق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدوداً إلا جهل القدماء، وفضيلة القدماء، ودين القدماء. وهذه الثلاثة: الجهل والفضيلة والدين، هي أيضاً في المعجم اللغوي الفلسفي الجديد مترادفات لمعنى واحد، هو الاستعباد أو ألوههم أو الحرافة.

ومتى أزيلت الحدود بين المعاني، كان طبعياً أن يلتبس شيء بشيء وأن يحل معنى في موضع معنى غيره، وأصبح الباطل باطلاً بسبب وحقاً بسبب آخر، فلا يحكم الناس إلا مجموعة من الأخلاق المتنافرة، تجعل كل حقيقة في الأرض شبهة مزورة عند من لا تكون من أهوائه ونزعاته، فيحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فضلاً مسلحاً، فيكسبون القانون بمدنيتهم قوة همجية تضطره أن يعدد للوحشية الإنسانية، وتدفع هذه الوحشية أن تعدد له.

ومن اختلاط الحدود تجيء القبعة على رأس المسلم، وما هي إلا حد يطمس حداً، وفكرة تهزم فكرة، ورذيلة تقول لفضيلة: هاندي قد جئت فأذهبي.

(٢) لا يهولئك: لا يرعبك.

(١) جدلاً محضاً: نقاشاً خالصاً.

ما هو الأكبر من شيئين لا حد بينهما لتعيين الصغر؛ وما هو الأصغر من شيئين لا حد بينهما لتعيين الكبر؟ إنها الفوضى كما ترى ما دام الحد لا موضع له في التمييز ولا مقر له في العرف ولا فصل به في العادة؛ ومن هنا كان الدين عند أقوام أكبر كلمات الإنسانية في عامة لغاتها وأملأها بالمعنى، وكان عند آخرين أصغرها وأفرغها من المعنى؛ وما كثر عند أولئك إلا من أنه يسع الاجتماع الإنساني وهو محدود بغايته العليا، وما صغر عند هؤلاء إلا بأن الاجتماع لا يسعه فلا حد له، وكأنه معنى متوهم لا وجود له إلا في أحرف كلمته.

فجماعة القבע لا يرون لأنفسهم حدا يحدونها به من أخلاقنا أو ديننا أو شريقتنا، وقد مرقوا من كل ذلك وأصبحوا لا يرون في زينا الوطني ما فيه من قوة السر الخفي الذي يلهمنا ما أودعه التاريخ من قوميتنا ومعاني أسلافنا.

وأنا أعرف أن منا قوما يرى أحدهم في ظن نفسه أنه قانون من قوانين التطور؛ فهو فيما يلبس لا ينظر إلى أنه واحد من الناس، بل واحد من النواميس... ومن هنا الثقل والدعوى الفارغة، وما هو أكبر من الثقل وفراغ الدعوى. وإنه لحق أن يكون بعض الناس أنبياء، ولكن أقبح ما في الباطل أن يظن كل إنسان نفسه نبيا.

وأعلم أن كثيرا مما يزئونه للشرقي من ردائل المدنية الأوروبية، فترى كلاما تحته معان ومعان لا يعدها غير الجائع إلا حماقة ساعتها...

سعد زغلول

وقال صاحب سر (م) باشا: ألقى إليّ ألباشا ذات يوم أن (سعداً) مُصْبِحُنا زائراً، وكانت بين الرجلين خاصةً وأسباباً وطيدة^(١) وللباشا موقعٌ أعرفهُ من نفس سعدٍ كما أعرفُ أَلشُّعْلَةَ في بركانها؛ أمّا سعدٌ فكان قد أنتهى إلى أَلنْهَايةِ الَّتِي جعلتُهُ رجلاً في إحدى يديه أَلسُّحْرُ وفي الأخرى أَلْمَعْجِزَةُ، فهو من عُظَمَاءِ هذِهِ أَلْبِلَادِ كَقَامُوسِ أَللُّغَةِ من كَلِمَاتِ أَللُّغَةِ: يُرَدُّ كُلُّ مُفْرَدٍ إِلَيْهِ في تعريفه، ولا تصحُّ أَلْكَلِمَةُ عندَ أَحَدٍ إِلَّا إذا كانت فيه أَلشَّهَادَةُ على صحتها.

وجاءنا سعدٌ عُذْوَةً، فأسرعتُ إلى تقبيل يديه قبلة لا تُشَبِّهها أَلْقُبَلَاتُ، إذ مُلَّتْ لي من فرجها كأنها كانت منفيةً ورجعتُ إلى وطنها أَلْعَزِيزِ حينَ وُضِعَتْ على تلك أَلْيَدِ.

إنَّ أَلرَّجُلَ أَلْعَظِيمَ إذا كان باراً بأبيه عارفاً قدره مدركاً عظمتَه، يشعر حينَ يُقْبَلُ يدَ أبيه كأنه يسجدُ بروحه سجدةً لِلَّهِ على تلك أَلْيَدِ الَّتِي يُقْبَلُها، ويجدُ في نفسه اتِّصَالاً كهربائياً بين قلبه وبين سرِّ وجوده، ويَحْصُهُ أَلْعَالَمُ بلمسةٍ كأنَّ قُبْلَتَهُ نبضتُ في أَلْكُونِ: وكلُّ هذا قد أحسنتُهُ أنا في تقبيلي يدَ سعدٍ، وزدْتُ عليه شعوري بمثل أَلْمَعْنَى الَّذِي يَكُونُ في نفسِ أَلْبَطْلِ حينَ يُقْبَلُ سِيفَهُ أَلْمُنْتَصِرِ.

وضحك لي سعد باشا ضحكتهُ أَلْمَعْرُوفَةُ، الَّتِي يبدأها فمه، وتُتَمُّها عيناه، ويشرخها وجهه كُلُّهُ، فتجدُ جوابها في روحك كأنَّه في روحك أَلْقَاهَا.

وأَلرَّجُلُ مِنَ النَّاسِ إذا نظرَ إلى سعدٍ وهو يتسم، رأى لَهُ أَبْتِسَامَةً كأنها كمالٌ يتواضع، فيحسُّ كأنَّ شيئاً غيرَ طبعي يتصلُّ منه بشيءٍ طبعي، فينتعشُ ويَبُوبُ في وجوده أَلرُّوحِي وثبةً عاليةً تكونُ فرحاً أو طرباً أو إعجاباً أو خُشُوعاً أو كُلِّها معاً. غيرَ أنَّ أَلرَّجُلَ مِنَ أَلْحُكَمَاءِ إذا تأملَ وجهَ سعدٍ، وهو يضحكُ ضحكتهُ أَلْمَطْمَئِنَّةُ أَلْمَتَمَكِّنَةُ من معناها أَلْمَقْرُّ أو أَلْمَنْكِرِ أو أَلْسَاخِرِ أو أَيْ أَلْمَعَانِي - حسبَ نفسه يرى

(١) أسباب وطيدة: علائق ووشائج قوية.

شكلاً مِنَ الْقَوْلِ لَا مِنَ الضَّحْكِ، وَظَهَرَتْ لَهُ تِلْكَ الْإِبْتِسَامَةُ الْفَلَسْفِيَّةُ مُتَكَلِّمَةً، كَأَنَّهَا مَرَّةً تَقُولُ: هَذَا حَقِيقِي. وَمَرَّةً تَقُولُ: هَذَا غَيْرُ حَقِيقِي.

إِنَّ سَعْدًا الْعَظِيمَ كَانَ رَجُلًا مَا نَظَرَ إِلَيْهِ وَطَنِيٌّ بَعِينٌ فِيهَا دَلَائِلُ أَحْلَامِهَا، كَأَنَّمَا هُوَ شَخْصٌ فَكْرَةٌ لَا شَخْصٌ إِنْسَانٌ؛ فَإِذَا أَنْتَ رَأَيْتَهُ كَانَ فِي فِكْرِكَ قِيلَ أَنْ يَكُونَ فِي نَظْرِكَ؛ فَأَنْتَ تَشْهَدُهُ بِنَظَرَيْنِ: أَحَدُهُمَا الَّذِي تُبْصِرُ بِهِ، وَالْآخَرُ ذَاكَ الَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ.

عَبْقَرِيٌّ كَالْجَمْرَةِ الْمَلْتَهَبَةِ لَا تَحْسَبُهُ يَعِيشُ بَلْ يَحْتَرِقُ وَيُحْرَقُ؛ نَائِرٌ كَالزَّلْزَلَةِ فَهُوَ أَبَدًا يَرْتَجُ وَهُوَ أَبَدًا يَرْجُ مَا حَوْلَهُ؛ صَرِيحٌ كَصَرَاحَةِ الرُّسُلِ، تِلْكَ الَّتِي مَعْنَاهَا أَنَّ الْأَخْلَاقَ تَقُولُ كَلِمَتَهَا.

رَجُلُ الشَّعْبِ الَّذِي يُحْسِنُ كُلُّ مِصْرِيٍّ أَنَّهُ يَمْلِكُ فِيهِ مِلْكَاً مِنَ الْمَجْدِ. وَقَدْ بَلَغَ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ مَبْلَغَ الشَّرِيعَةِ، فَاسْتَطَاعَ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: ضَعُوا هَذَا الْمَعْنَى فِي الْحَيَاةِ، وَأَتَرِعُوا هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْحَيَاةِ.

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَأَنْقَضَتِ الزَّيَارَةُ وَخَرَجَ سَعْدٌ وَالْبَاشَا إِلَى يَسَارِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ وَدَاعِهِ قَالَ لِي: - وَاللَّهِ - يَا بُنَيَّ لَكَأَنَّمَا زَادَ هَذَا الرَّجُلُ فِي الْقَابِ الدَّوْلَةَ لِقَباً جَدِيداً، ثُمَّ ضَحَكَ وَقَالَ: أَتَدْرِي مَا هُوَ هَذَا الْقَلْبُ؟ قُلْتُ: فَمَا هُوَ يَا بَاشَا؟ قَالَ: - وَاللَّهِ - يَا بُنَيَّ مَا مِنْ (بَاشَا) فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ يَكُونُ إِلَى جَانِبِ سَعْدٍ، إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّ رَبَّتَهُ (نَصَفَ بَاشَا)...

هَذَا رَجُلٌ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعَظَمَةِ مَبْلَغاً تَصَاغَرَ مَعَهُ الْكَبِيرُ، وَتَضَاءَلَ الْعَظِيمُ، وَتَقَاصَرَ الشَّامِخُ؛ نَعَمْ وَحَتَّى تَرَكَ أَقْوَاماً مِنْ خُصُومِيهِ الْعَظَمَاءَ، كَفَلَانٍ وَفَلَانٍ، وَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَيَلُوحُ لِلشَّعْبِ مِنْ فِرَاقِهِ وَضَعْفِهِ وَتَطَرُّجِهِ، كَأَنَّهُ ظِلُّ رَجُلٍ لَا رَجُلٍ. وَقَدْ أَصْبَحَ قُوَّةً عَامِلَةً لَا بَدَّ مِنْ فَعْلِهَا فِي كُلِّ حَيٍّ تَحْتَ هَذَا الْأَفَقِ، حَتَّى كَانَ مَعَانِي نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ تَتَشَرُّ فِي أَلْهَوَاءِ عَلَى النَّاسِ، فَهُوَ قُوَّةٌ مَرْسَلَةٌ لَا تُمَسَّكَ، مَاضِيَةٌ لَا تُرَدُّ، مَقْدُورَةٌ لَا يُحْتَالُ لَهَا بِحِيلَةٍ.

هَذَا وَضَعَ إِلَهِيَّ خَاصٌّ لَا يُشَبِّهُهُ أَحَدٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمِيدَانِ الْحَرْبِ لَا تُشَبِّهُهُ الْأُمَكُنَةُ الْآخَرَى؛ فَقَدْ غَامَرَ سَعْدٌ فِي الثَّوْرَةِ الْعُرَابِيَّةِ وَخَرَجَ مِنْهَا، وَلَكِنَّهَا هِيَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ، بَلْ بَقِيَتْ فِيهِ؛ بَقِيَتْ فِيهِ تَعَلَّمَ الْقَانُونَ وَالسِّيَاسَةَ، وَتُصْلِحُ أَغْلَاطَهَا، ثُمَّ ظَهَرَتْ مِنْهُ فِي شَكْلِهَا الْقَانُونِي الدَّقِيقِ. وَبِهَذَا تَرَاهُ يَغْمُرُ الرِّجَالَ مَهْمَا كَانُوا أَذْكَاءَ؛

لأن فيه ماليس فيهم، وتراهم يظهرن إلى جانبهِ أشياء ثابتة في معانيها، أما هو فقرأه من جميع نواحيه يتلاطم كالأمواج العاتية .

وتلك الثورة هي التي تتكلم في فمهِ أحياناً فتجعل لبعض كلماتهِ قوة كقوة النصر، وشهرة كشهرة موقعة حربية مذكورة .

ولما كان هو المختار ليكون أباً للثورة - حرمة القدرة الإلهية النسل، وصرفت نزعة الأبوة فيه إلى أعمالهِ التاريخية، ففيها عنايته وقلبه وهمومه، وهي نسل حي من روحهِ العظيمة، ويكاد معها يكون أسداً يراز حول أشبالهِ . ولن يُذكر السياسيون المصريون مع سعد، ولن يُذكر سعد نفسه إذا أنقلب سياسياً، فإن المكان الخالي في الطبيعة الآن هو مكان رجل المقاومة لا رجل السياسة، وهذا هو السبب في أن سعداً يُشعر الأئمة بوجودهِ لذة كلذة الفوز والانتصار، وإن لم يغز بشيء ولم ينتصر على شيء؛ فأطمئنان الشعب إلى زعيم المقاومة، هو بطبيعته كأطمئنان حامل السلاح إلى سلاحهِ .

وسعد وحده هو الذي أفلح في أن يكون أستاذ المقاومة لهذه الأئمة؛ فنسخ قوانين، وأوجد قوانين، وحمل الشعب على الإعجاب بأعمالهِ العظيمة، فنبه فيه قوة الإحساس بالعظمة فجعله عظيماً، وصرقه بالمعاني الكبيرة عن الصغائر، فدفعه إلى طريق مستقبلهِ يُبدع إبداعه فيه .

إن هذا الشرق لا يحيا بالسياسة ولكن بالمقاومة وما دام ذلك الغرب بإزائه؛ والفريسة لا تتخلص من الحلق الوحشي إلا بأعراض عظامها الصلبة القوية في هذا الحلق .

وكم في الشرق من سياسي كبير يجعلونه وزيراً، فتكون الوظيفة هي الوزير لا نفس الوزير، حتى لو خلعوا ثيابه على خشبة ونصبوها في كرسيه، لكأن أكثر نفعاً منه للأئمة، بأنها أقل شراً منه . . .

يا بُني، كل الناس يرضون أن يتمتعوا بالمال والعجاء والسيادة والحكم، فليست هذه هي مسألة الشرق، ولكن المسألة: من هو النبي السياسي الذي يرضى أن يُضَلَب . . . ؟

حماسةُ الشعب

وحدّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: لَمَّا رَجَعَ سعد باشا من أوربا في سنة ١٩٢١، كَانَتْ الْأُمَّةُ فِي اسْتِقْبَالِهِ كَأَنَّهَا طَائِرٌ مَدَّ جَنَاحِيهٖ، لَا خِلَافَ لِشَيْءٍ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ، بَلْ كُلُّهُ هُوَ كُلُّهُ؛ وَكَانَتْ الْمَعَارِضَةُ فِي الْأَسْتِحَالَةِ يَوْمِئِذٍ كَأَسْتِحَالَةِ وَجُودِ رُقْعَةٍ فِي رِيشِ الطَّائِرِ.

عَلَى أَنَّ ثَوْبَ السِّيَاسَةِ الْمَصْرِیَّةَ كَثِيرُ الرُّقْعِ دَائِمًا بِالْجَدِيدِ وَالْخَلْقِ^(١)، فَرُقْعَةُ مِنَ الْمَعَارِضِينَ، وَآخَرَى مِنَ الْمُتَعَتِّينِ^(٢)، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْمُتَخَاذِلِينَ^(٣)، وَرَابِعَةٌ مِنَ الْمَعَادِينَ، وَخَامِسَةٌ وَسَادِسَةٌ وَسَابِعَةٌ مِنَ الْحَاسِدِينَ وَالْمَنَافِسِينَ وَالْمُخْتَلِفِينَ لِشَهْرَةِ الْخِلَافِ؛ وَرِقَاقٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِمَّا نَعْلَمُ وَمَا لَا نَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ هَذَا الْجَوْزَ الَّذِي لَا يَتَقَلَّبُ إِلَّا بِطِيئًا، يَتَقَلَّبُ أَهْلُهُ بِسُرْعَةٍ؛ وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ الَّتِي لَا تَكَادُ تَخْتَلِفُ، لَا يَكَادُ أَهْلُهَا يَتَّفِقُونَ.

وَلَكِنْ سَعِدَا (رَحِمَهُمُ اللَّهُ) رَجَعَ مِنْ أَوْرُبَا رَجْعَةً الْكَرَامَةِ لِأُمَّةٍ كَامِلَةٍ، فَفَازَ بِأَنَّهُ لَمْ يَخْشَرْ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ، وَأَنْتَصَرَ بِأَنَّهُ لَمْ يُهْزَمْ، وَدَلَّ عَلَى ثَبَاتِهِ بِأَنَّهُ لَمْ يَتَزَعَّزَعْ، وَذَهَبَ صَوْلَةٌ وَرَجَعَ صَوْلَةٌ وَعَزِيمَةٌ؛ فَكَانَ إِيْمَانُ الشَّعْبِ هُوَ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ، وَكَانَتْ الثَّوْرَةُ هِيَ الَّتِي تَحْتَفِلُ بِهِ، وَبَطَلَتْ أَلْعَلُّ كُلُّهَا فَلَمْ يَجِدْ أَلْعَرَاضُ شَيْئًا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ، وَأَتَّفَقَتْ الْأَسْبَابُ فَاجْتَمَعَتِ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَ سَعْدٌ كَأَنَّهُ رُوحُ الْأُمَّةِ مَتَمَثِّلًا فِي قُدْرَةٍ، حَاكِمًا بِقُوَّةٍ، مُتَسَلِّطًا بِبَقِيَّةٍ.

نَعَمْ لَمْ يَنْتَصِرِ الْبَطْلُ، وَلَكِنْ الْأُمَّةُ أَحْتَفَتْ بِهِ لِأَنَّهُ يَمَثِّلُ فِيهَا كِمَالًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ هُوَ سِرُّ الْأَنْتِصَارِ؛ فَكَانَتْ حِمَاسَةُ الشَّعْبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ حِمَاسَةً أَلْمَبْدِإِ أَلْمَتَمَكِّنِ؛ يُظْهِرُ شَجَاعَةَ الْحَيَاةِ، وَقُوَّةَ الْعَزَائِمِ، وَفَضِيلَةَ الْإِخْلَاصِ، وَشِدَّةَ الْأَصُولَةِ، وَعِنَادَ التَّصْمِيمِ؛ وَيُثَبِّتُ بِقُوَّةٍ ظَاهِرِهِ قُوَّةَ بَاطِنِهِ، وَكَانَ فَرْحُ الْأُمَّةِ عِنَادًا

(١) الْخَلْقُ، بِالْفَتْحِ: الْبَالِي.

(٢) الْمُتَعَتِّينَ: الْمُتَشَدِّدِينَ.

(٣) الْمُتَخَاذِلِينَ: الْمُنْهَزِمِينَ.

سياسيًا يفرح بأنه لا يزال قويًا لم يضعف، وكان أبتهاجها مجداً يشعر بأنه لا يزال وافرًا لم يُنتقص، وكان الاجتماع رداً على اليأس، وكانت الحماسة رداً على الضعف.

إنبعث صولة الحياة في الشعب كله، وأبتدأ المستقبل من يومئذ، فلو نزلت الملائكة من السماء في سحابة مجلجلة^(١) يسمع تسييحهم ليؤيدوا سعداً - لَمَّا زادوه شيئاً؛ فقد كان محلّه من القلوب كأنه العقيدة، وكان التصديق مبذولاً له كأنه الكلمة الأخيرة، وكانت الطاعة موقوفة عليه كأنه الباعث الطبيعي، وكان البطل في كل ذلك يشبه نبياً من قَبْل أن كلاً منهما صورة كاملة للسمو في أفكار أمة.

* * *

قال صاحب السر: ورجع أباشا من القاهرة وقد رأى ما رأى من مسامحة النفوس، وصحة العهد، واجتماع الكلمة، وإعداد الشعب للبراس والمُعانة، فقال:

تالله لقد أثبت (سعد) للعالم أنها أن مصر الجبارة متى شاءت بنت الرجال على طريقة الهرم الأكبر في العظمة والشهرة والمنزلة والقوة. ولقد صنع هذا الرجل العظيم ما تصنع حرب كبيرة، فجمع الأمة كلها على معنى واحد لا يتناقض، ودفعها بروح قومية واحدة لا تختلف، وجعل عزق السياسة يفور كما يفور العزق المجروح بالدم.

إن هذه الأمة بين شيئين لا ثالث بينهما: إما الحزم إلى الآخر وإما الإضاعة. ولا حزم إلا أن يبقى الشعب كما ظهر اليوم: طوفاناً حياً، مُستوي الطبيعة، مندفع الحركة، غامراً كل ما يعترضه، إلى أن يقضى الأمر ويقول أعداؤنا: يا سماء ألقني.

هكذا يعمل الوطن مع أهله كأنه شخص حي بينهم، حين يستوي الجميع في الثقة، ويتأزر الجميع في الأمل، ويشارك الجميع في العطف الروحي، ولا يبقى لجماعة منهم حظ في رغبة غير الرغبة الواحدة للجميع؛ وهكذا يعمل الوطن بأهله حين يعمل مع أهله.

كان أعداؤنا يحسبوننا ذباباً سياسياً لا شأن له إلا بفضلات السياسة، ولا عمل

(١) مجلجلة: مدوّية.

لَهُ فِي أَزْهَارِهَا وَأَثْمَارِهَا وَعِطْرِهَا وَخَلْوَاهَا؛ فَاسْمَعَهُمُ الشَّعْبُ الْيَوْمَ طِينِ النَّحْلِ، وَأَرَاهُمْ يَتَرَّ النَّحْلَ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْأَزْهَارَ وَالْأَثْمَارَ وَالْعِطْرَ وَالْحُلُوى هِيَ لَهُ بِالطَّبِيعَةِ.

وكانوا يتخَرَّصون^(١١) أَنَّ مذهبنا في الْحَيَاةِ لِمَصْلَحَةِ الْمَعَاشِ فَقَطْ، وَأَنَّ الْمِصْرِيَّ، حَاكِمًا أَوْ مُحْكومًا، لَا يَمُدُّ أَمَالَهُ الْوَطَنِيَّةَ إِلَى أْبَعَدَ مِنْ مَدَّةِ عَمَرِهِ سَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَطْلَقُوا أَيْدِيَنَا فِي حَاضِرِ الْأُمَّةِ أَطْلَقْنَا أَيْدِيَهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِهَا. وَمَنْ ثَمَّ طَمِعُوا أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ الْفَائِضُ فِي نَفْسِهِ حَقًّا تَامًا فِي أَنْفُسِنَا لِهَذِهِ الْعِلَّةِ؛ وَحَسِبُوا أَنَّ السِّيَاسِيَّ الْمِصْرِيَّ لَا يَنْجِرُ أَنْ يَقُولَ مَا يَقُولُهُ السِّيَاسِيُّ الْأَوْرَبِيُّ: مِنْ أَنَّهُ لَا يَخْشَى الْمَوْتَ وَلَكِنَّهُ يَخْشَى الْفَارَازَ. فَإِنَّهُ إِذَا مَاتَ وَحْدَهُ، وَإِذَا جَلَبَ الْفَارَازَ جَلَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ وَعَلَى تَارِيخِ أُمَّتِهِ، يَبْذُنُ أُنَّ سَعْدًا قَالَهَا؛ وَفِي مِثْلِ هَذَا يَكُونُ قَوْلُ (لَا) مَعْرَكَةً.

وَهَا هِيَ ذِي مَعْرَكَةِ الْيَوْمِ التَّارِيخِيَّةِ، فَإِنَّ الْأَذْرَابَ الْحَيَّةَ الَّتِي تُخَلِّقُ مِنْ دِمَائِنَا - نَحْنُ الْمِصْرِيِّينَ - قَدْ ثَارَتْ فِي هَذِهِ الْأَدْمَاءِ، فِي هَذَا الْكِنْهَارِ، تُعْلِنُ أَنَّهَا لَا تَرْضَى أَنْ تَوْلَدَ مُقَيَّدَةً بِقِيُودٍ.

أَتَدْرِي مَاذَا عَرَضُوا عَلَى سَعْدٍ؟ إِنَّهُمْ عَرَضُوا عَلَيْهِ مَا يُشْبِهُ فِي السَّخْرِيَّةِ طَاحُونَةً تَامَةً الْأَدَوَاتِ وَالْآلَاتِ مِنْ آخِرِ طَرَازٍ، ثُمَّ لَا تُقَدِّمُ لَهَا إِلَّا حَبَّةَ قَمْحٍ وَاحِدَةٍ لِنُطْحِنَهَا... نَتِيجَةُ تَسْخَرُ مِنْ أَسَابِهَا، وَأَسَابَاتُ تَهْزَأُ بِالنَّتِيجَةِ.

إِنَّ أَوْرِبَا لَا تَحْتَرَمُ إِلَّا مَنْ يَحْمِلُهَا عَلَى أَحْتِرَامِهِ، فَمَا أَرَى لِلْسِّيَاسِيِّينَ فِي هَذَا الْشَرْقِ عَمَلًا أَفْضَلَ وَلَا أَقْوَى وَلَا أَرْدُ بِالْفَائِدَةِ مِنْ إِحْيَاءِ الْحِمَاسَةِ الدَّائِمَةِ الْقُرْبَى الْبَصِيرَةِ، هِيَ قُوَّةُ الرِّفْضِ لِمَا يَجِبُ أَنْ يُرْفَضَ، وَقُوَّةُ التَّأْيِيدِ، لِمَا يَجِبُ أَنْ يُقْبَلَ، وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ وَسِيلَةُ جَمْعِ الْأَمْرِ، وَإِحْكَامِ الشَّأْنِ، وَإِقْرَارِ الْعَزِيمَةِ فِي الْأَخْلَاقِ، وَتَرْبِيَةِ الثَّقَةِ بِالنَّفْسِ، وَبِهَا يَكُونُ إِذْكَاءُ الْحَسَنِ وَتَعْوِيدُهُ إِدْرَاكَ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ، وَالْتِحَمُّسَ لَهَا، وَالْكَدَلَ فِيهَا.

وَمَا عِلَّةُ الْجَلَلِ فِينَا إِلَّا ضَعْفُ الْحِمَاسَةِ الشَّعْبِيَّةِ فِي الشَّرْقِ، وَسَوْءُ تَدْبِيرِهَا، وَقَبْحُ سِيَاسَتِهَا، وَإِنَّا لَنَأْخُذُ عَنِ الْأَوْرَبِيِّينَ مِنْ نِظَامِهِمْ وَأَسَالِيهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَفُنُونِهِمْ؛ فَنَأْخُذُ كُلَّ ذَلِكَ بِرُوحِنَا الْكَافِرَةِ فِي خُمُولٍ وَإِهْمَالٍ وَتَوَاضُعٍ وَتَفَرُّدٍ بِالْمَصْلَحَةِ وَاسْتِبْدَادٍ بِالرَّأْيِ، فَإِذَا دِينَارُهُمْ فِي أَيْدِينَا دَرَاهِمَ، وَإِذَا نَحْنُ وَإِيَّاهُمْ فِي الْأَشْيَاءِ الْوَاحِدِ كَالنَّحْلَةِ وَالْكَذَّابَةِ عَلَى زَهْرَةٍ...

(١١) يَتَخَرَّصُونَ: يَتَوَلَّوْنَ.

ليست لنا حماسة الحياة، وبهذا تختلف أعمالنا وأعمالهم، وذلك هو السر أيضاً في أن أكثر حماستنا كلامية مخضعة؛ إذ يكون الصراخ والصياح والتشدق^(١) ونحوها من هذه المظاهر الفارغة - تنقيحاً للطبيعة الساكنة فينا، وتنويعاً منها بغير أن نجهد في التنقيح والتنويع. ومن هذا كانت لنا أنواع من الكلام ينطلق اللسان فيها للخروج من الصمت لا غير... ومنه كثير من هذا الهراء السياسي الذي يدور في المجالس والأحزاب والصحف.

إن حماسة الشعب لا تكون على أعدائه فقط؛ بل على معاييه أيضاً، وعلى ضعفه بخاصة، والشعب ألفتأثر في حماسه لو نال حقين مغضوبين لعاد فخير أحدهما أو كليهما، أما الشعب المتحمس القوي في حماسه، فلو غصب حقين ونال أحدهما لعاد فأبتز^(٢) الآخر.

(١) التشدق: التصنع في الكلام والتعمر فيه. (٢) ابتز: استحوذ: وأخذ بقوة.

الجمهور

وقال صاحب سر (م) باشا: كان من بعض عملي في الحكومة سنة ١٩٢٢ أن أراقب الحركات والسكنات، وأبث العيون والأزصاد، وأعرف المضطرب والمنقلب في أيام الفتن ونوازل المخنة، محافظة على الأمن، ومبادرة لما يتوقع؛ فكثت كالمِرصد المهيأ بالآلة لتدوين حركات الزلازل.

وانتهى إلينا يوماً أن راجفة من هذه الزلازل سترجف بفلان من أهل الرأي الحر؛ الذي يستقل ولا يتابع، وينتقد ولا يحابي، ويصرخ ولا يجمع^(١)، وأن قوماً ثوروا عليه ألغبار الآدمي من العامة، وأنهم تحيئون الوقت لتوجيه المكيدة له في شكلها المفترس من هذا الجمهور الناقم.

أما فلان هذا فرجل سياسي عنيد أضاع الحق كله لأنه لا يرضى بنصف الحق... وكلمته في السياسة كأنما تلقى على لسانه من الغيب؛ فلا يتحول عنها ولا يملك أن يتكلم إلا بما يتكلم؛ وقد ذهب بصوته أنه في قوم لا يسمعون إلا ما أردوا، فهو بينهم كالحق المغلوب؛ لا يموت لأنه غير باطل، ثم لا يحيا لأنه لا ينتصر. وقد كان رجلاً كالمصباح الوهاج^(٢) فألقوا عليه الغطاء، فإذا هو في طبيعته ويبدو للناس بغير طبيعته، وتركه رأيه الحر الصريح كالنبي المكذب يزود صدقه؛ لا لأنه غير صدق، ولكن لأنه غير مستطاع، أو غير ملائم.

ومن آفاتنا - نحن الشرقيين - أننا نستمرى العداوة، وننقاد لأسبابها، ونطأوع لها تطاوع الصغار بأنفسهم لما في أنفسهم؛ كأن المستبدين الذين كانوا في تاريخنا قد أنتقلوا إلى طبائعنا؛ فرد الفكر على الفكر في مناقشة تجري بيننا - لا يكون من دفع الحقيقة للحقيقة، ولكن من رد الاستبداد على الاستبداد، ومن توثب الطغيان على الطغيان؛ فهو الثلب^(٣)؛ وأطعن والتجريح، وهو الجفوة والخصومة

(١) يجمع: يتكلم في داخله بما لا يفهم.

(٢) الوهاج: الوضاء.

(٣) الثلب: التجريح بـئى الكلام.

وَاللَّدَدَ، وَهُوَ الْمَنَازَعَةُ وَالْعُنْفُ وَالْتِحَامُ؛ وَهُوَ بِهِذِهِ وَتِلْكَ شَرٌّ وَفَسَادٌ وَسَقُوطٌ .
وَالْجِدَالُ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ يَبْعَثُ الْفِكَرَ فَيَنْتَهِي إِلَى الْحَقِّ، وَلَكِنَّهُ فِينَا نَحْنُ يَهِيْجُ الْخُلُقُ
فَيَنْتَهِي إِلَى الْاَشَرِّ، وَالرُّدُّ عَلَى عَظِيمٍ مِّثْلَ كَأَنَّهُ يَرُدُّ عَلَى مَنْزِلَتِهِ فِي الرَّأْيِ، وَكَشَفُ
الْخَطَا عِنْدَنَا تَعْيِيرٌ بِالْخَطَا لَا تَبْصِيرٌ بِالصَّوَابِ، وَاسْتِلابٌ^(١) الْحُجَّةِ مِنْ صَاحِبِهَا
وِإِفْسَادُهَا عَلَيْهِ كَاسْتِلابِ الْمَلِكِ مِنْ مَالِكِهِ وَطَرْدِهِ مِنْهُ . . . وَمَنْ تَمَّ كَانَ الدِّفَاعُ
بِالْمَكَابِرَةِ أَصْلًا مِنْ أَصُولِ الطَّبِيعَةِ فِينَا، وَكَانَ الْأَضْطِهَادُ حُجَّةً لِلْحُجَّةِ الْعَاجِزَةِ،
وَكَانَ الْإِعْنَاثُ^(٢) دَلِيلًا لِلدَّلِيلِ الَّذِي لَا يَنْهَضُ بِنَفْسِهِ، وَوَمَتَى أَعْتَبَرَ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ
إِمْبَرَاطُورًا عَلَى الْحَقِّ . . . فَلَا جَزَمَ لَا تَرُدُّ كَلِمَةً عَلَى كَلِمَةٍ إِلَّا بِحَرْبٍ .

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَكَبُرَ الْأَمْرُ عَلَى الْبَاشَا، فَجَمَعَ رُؤُوسَ الْمُؤْتَمِرِينَ بِذَلِكَ
الرَّجُلِ الْحَرِّ، وَأَخَذَ يَقْلِبُهُمْ تَقْلِيْبَهُ بَيْنَ الْتَوَدُّدِ وَالْمَلَاظِفَةِ، وَقَالَ لَهُمْ فِيمَا قَالَ: إِنَّ
فَضِيلَةَ الْجُمْهُورِ هِيَ الَّتِي تَضُمُّ تَرْبِيَةَ الْفَضِيلَةِ وَحِفْظَهَا وَعَلَبَتَهَا عَلَى الرَّدَائِلِ، وَإِنَّ
كُلَّ صَاحِبٍ يَكُونُ فَاسِدًا إِذَا لَمْ يَكُنِ الْجُمْهُورُ صَاحِبِهَا، وَإِنَّ غَيْرَ الْعُقَلَاءِ هُمُ الَّذِينَ
يَقْبَلُونَ الْحَقِيقَةَ فِي يَوْمٍ ثُمَّ يَرْفُضُونَهَا هِيَ ذَاتَهَا فِي يَوْمٍ آخَرَ، فَإِنَّ ذَهَبَتْ تَجَادُلُهُمْ
وَتَحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ قَبِلُوهَا - قَالُوا: هَذَا كَانَ أَمْسٍ . . . فَكَأَنَّمَا الْفَاصِلُ بَيْنَ زَمَنَيْنِ
يَجْعَلُ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ ضِدَّيْنِ .

ثُمَّ سَأَلَهُمْ: مَا هُوَ ذَنْبُ الرَّجُلِ؟ فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ: إِنَّهُ خَارِجٌ عَلَيْنَا فِي الرَّأْيِ .
فَقَالَ الْبَاشَا: إِنَّ الْمَعْنَى فِي أَنَّهُ يُخَالِفُكُمْ هُوَ أَنَّكُمْ أَنْتُمْ تُخَالِفُونَهُ؛ فَقَدْ تَكَافَأَتْ
الْناحِيتَانِ، وَخِلَافٌ بِخِلَافٍ؛ فَمَا الَّذِي جَعَلَ حَقَّ رَدِّهِ عَنِ الرَّأْيِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ
مِثْلُ هَذَا الْحَقِّ فِي رَدِّكُمْ أَنْتُمْ؟

قَالُوا: إِنَّا الْكَثَرَةُ. قَالَ الْبَاشَا: يَا أَصْدِقَائِي، إِنَّ خَوْفَ الْكَثَرَةِ مِنْ رَأْيِ فَزْدِ أَوْ
أَفْرَادٍ هُوَ أَسْوَأُ الْمَعْنِيَيْنِ فِي تَفْسِيرِ رَأْيِهَا هِيَ؛ وَعَشْرَةُ جَنِيَهَاتٍ لَا تَعْبَأُ بِالْجَنِيَةِ
الْوَاحِدِ، فَإِنَّهَا تَسْتَغْرِقُهُ؛ بَيْنَ أَنْ هَذِهِ لَيْسَتْ حَالُ عَشْرَةِ قُرُوشٍ يَا أَصْدِقَائِي . . .

نَعَمْ إِنَّ قَطْعَ الْخِلَافِ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِ الْوَطَنِيَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي
ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ كَالْخِلَافِ فِي أَيِّهِمَا أَطْوَلُ: الْعَصَا أَوْ الْمِثْدَنَةُ . . .؟ فَذَلِكَ جِدَالٌ
مَحْسُومٌ مِنْ نَفْسِهِ بِلا جِدَالٍ .

(٢) الإِعْنَاثُ: الْإِتْعَابُ .

(١) اسْتِلابٌ: سَرَقَةٌ .

إِنْ أَسَاسَ اتَّخَذَالِنَا^(١) - نحن الشرقيين - في قلوبنا، إذ لا نعتبرُ أَلْمَعَانِيَّ الْعَامَّةَ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُا قَائِمَةٌ بِالرَّجَالِ، ثُمَّ نَعْتَبِرُ الرِّجَالَ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةٍ مَا فِي أَنْفُسِنَا مِنْهُمْ، ثُمَّ لَا نَعْتَبِرُ أَنْفُسَنَا إِلَّا مِنْ جِهَةٍ مَا يُرْضِينَا أَوْ يُغْضِبُنَا، وَقَدْ لَا يُغْضِبُنَا إِلَّا الْحَقُّ وَالْجِدُّ، وَقَدْ لَا يُرْضِينَا إِلَّا الْبَاطِلُ وَالْتِهَافُونَ، وَلَكِنَّا لَا نُبَالِي إِلَّا مَا نَرْضَى وَمَا نَغْضِبُ.

لَسْتُمْ أَحْرَاراً فِي أَنْ تَجْعَلُوا غَيْرَكُمْ غَيْرَ حَرٍّ، فَإِنْ يَكُنِ الرَّأْيُ الَّذِي يُعَارِضُكُمْ رَأْيًا حَقًّا وَتَرْكُكُمْ مُنَابَذَةً^(٢) فَقَدْ نَصَرْتُمْ الْحَقَّ؛ وَإِنْ يَكُنْ بَاطِلًا فإِظْهَارُهُ بَاطِلًا هُوَ بُرْهَانُ الْحَقِّ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ؛ وَلَنْ تُجْرَدُوا^(٣) أَحَدًا مِنْ اخْتِيَارِ الرَّأْيِ إِلَّا إِذَا تَجَرَّدْتُمْ أَنْتُمْ مِنْ اخْتِيَارِ الْعَدْلِ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ فَهَذِهِ كِبْرِيَاءُ ظَالِمَةٍ، تَدَّعِي أَنَّهَا الْحَقُّ، ثُمَّ تَدَّعِي لِنَفْسِهَا حُكْمَهُ، فَقَدْ كَذَّبْتَ مَرَّتَيْنِ.

إِسْمَعُوا أَيُّهَا السَّادَةُ: قَامَتْ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ فَلَاسِفَةِ الرَّأْيِ مَنَازَعَةٌ فِي صَحِيفَةٍ مِنَ الْأَصْحَافِ، وَتَسَاجَلَا^(٤) فِي مَقَالَاتٍ عِدَّةٍ، فَلَمَّا عَجَزَ أَضْعَفُهُمَا حُجَّةً وَكَعَمَهُ^(٥) الْأَجْدَالُ، كَتَبَ مَقَالَتَهُ الْأَخِيرَةَ فَجَاءَتْ سَقِيمَةً، فَلَمْ تُرْضِهِ فَبَيَّنَّهَا وَنَافَ عَنْهَا عَلَى أَنْ يَرْسَلَهَا مِنَ الْغَدَاةِ بَعْدَ أَنْ يُرَدِّدَ نَظَرَهُ فِيهَا وَيُصَحِّحَ آرَاءَهُ بِالْحُجَجِ الَّتِي يُفْتَحُ بِهَا عَلَيْهِ. قَالُوا: فَلَمَّا نَامَ تَمَثَّلَتْ لَهُ الْمَقَالَةُ فِي أَحْلَامِهِ جِسْمًا حَيًّا مُوهِنًا مُتْرَضًّا^(٦)، مَخْلُوعًا مِنْ هُنَا مَكْسُورًا مِنْ هُنَاكَ، مُجْرُوحًا مِمَّا بَيْنَهُمَا؛ ثُمَّ كَلَّمَتْهُ فَقَالَتْ لَهُ: وَيْحَكَ أَيُّهَا الْأَبْلَه! إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَغْلِبَ صَاحِبَكَ وَتُسْكِنَهُ عِنكَ، فَأَجْمِلْ مَقَالَتَكَ إِلَى رَأْسِهِ فِي أَلْعَصَا لَا فِي الْجَرِيدَةِ...

قَالَ صَاحِبُ أَلْسَرٍّ: وَضَحَكَ الْقَوْمُ جَمِيعًا، وَأَذَعَنُوا^(٧) وَأَنْصَرَفُوا مُقْتَنِعِينَ، قَدْ خَلَصَتْ دِخْلَتُهُمْ لِذَلِكَ الرِّجْلِ الْحَرِّ وَتَنْصَلُّوا^(٨) مِنْ جَرِيمَةٍ كَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا

(١) اتَّخَذَالِنَا: انْهَزَامَنَا.

(٢) مُنَابَذَةٌ: مُخَالَفَةٌ وَمُجَادَلَةٌ.

(٣) تُجْرَدُوا: تَمْرُوا.

(٤) تَسَاجَلَا: تَحَاوَرُوا وَتَجَادَلُوا وَتَارَةً يَرِيحُ هَذَا وَتَارَةً أُخْرَى يَرِيحُ ذَاكَ.

(٥) كَعَمَ: شَذَّ فَاهُ لَثَلًا لِيَعْضَ أَوْ يَأْكُلَ وَهُوَ يَقْصِدُ أَسْكَنَهُ.

(٦) مُتْرَضًّا: مُصَابًا بِالرُّضُوفِ فِي جِسْمِهِ.

(٧) أَذَعَنُوا: خَضَعُوا.

(٨) تَنْصَلُّوا: تَبَرَّأُوا.

جاء ألباشا بمُعْجَزٍ مِنَ الْقَوْلِ، وَلَكِنْ تَصْوِيرُهُ لِلْمَسْأَلَةِ كَانَ حَلًّا لَهَا فِي نَفْسِهِمْ. فَلَمَّا أَدْبَرُوا^(١) تَنَفَّسَ أَلْبَاشَا كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنَ الْبَحْرِ وَكَانَ يَتَعَاطَى إِنْقَازَ غَرِيقٍ وَيُعَانِي فِيهِ حَتَّى نَجَا؛ ثُمَّ قَالَ لِي: إِنَّ هَذَا كَانَ جَوَابًا عَنْ شَيْءٍ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنَّهُ هُوَ سَوَالٌ عَنْ شَيْءٍ فِي أَنْفُسِنَا: مَا الَّذِي يَجْعَلُ النَّاسَ عِنْدَنَا يَخْشَوْنَ الْمُعَارَضَةَ فِي الرَّأْيِ الْوَطَنِيِّ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُجَازُونَ عَلَيْهَا بِهَذِهِ الْقُوَّةِ الشَّعْبِيَّةِ الْمُنْكَرَةِ؟ وَمَا بِالْهَمِّ لَا يُعْطُونَ الرَّأْيَ حُكْمَهُ وَحَقِيقَتَهُ، بَلْ يُعْطَوْنَهُ مِنْ حُكْمِ أَنْفُسِهِمْ وَحَقَائِقِهَا وَشَهَوَاتِهَا الْمَتَقَلِّبَةَ، حَتَّى لَتَرْجِعَ الْفُرُوقُ الْأَضْعِيفَةُ الْمَتَجَانِسَةُ فِي أَبْنَاءِ الْوَطَنِ الْوَاحِدِ وَكَأَنَّهَا مِنَ الْخِلَافِ وَالْمَبَايَنَةِ فُرُوقٌ جَنْسِيَّةٌ كَأَنِّي تَكُونُ بَيْنَ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّةٍ، وَإِنْسَانٍ مِنْ أُمَّةٍ أُخْرَى تُعَادِيهَا.

قُلْتُ: إِنَّ رَأْيَ الْكَثَرَةِ قَانُونٌ يَا بَاشَا.

قَالَ: هَذَا صَحِيحٌ، وَلَكِنْ بِشَرْطَيْنِ لَا بِشَرْطٍ وَاحِدٍ: الْأَوَّلُ أَلَّا يَخْرُجَ الرَّأْيُ عَلَى الْقَانُونِ، وَالثَّانِي أَلَّا تَكُونَ الْحَقِيقَةُ فِي الرَّأْيِ الَّذِي يُنَاقِضُهُ؛ وَمُحَاوَلَةٌ إِكْرَاهِ الْمُعَارَضَةِ نَقْصٌ لِلشَّرْطَيْنِ مَعًا؛ ثُمَّ إِنَّ أَسَاسَ الْوَطَنِيَّةِ سَلَامَةُ الْقُلُوبِ وَصَفَاءُ الْكَيْثَاتِ، وَأَسْتَوَاءُ الْمَوَافِقِ وَالْمُخَالَفِ فِي هَذَا الْحُكْمِ، وَمَتَى وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَكَانَتْ أَلْنِيَّةٌ صَادِقَةٌ مُخْلِصَةٌ، لَمْ يَكُنْ اخْتِلَافُهُمَا إِلَّا مِنْ تَنَوُّعِ الرَّأْيِ، وَأَنْتَهَبَا إِلَى الْإِتْفَاقِ بِغَلْبَةِ أَقْوَى الرَّأْيَيْنِ، وَمَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ.

الْحَقِيقَةُ يَا بُنَيَّ أَنَّ الْجَمَاهِيرَ الشَّرْقِيَّةَ لَيْسَتْ فِي تَرْبِيَّتِهَا مِنَ الْجَمَاهِيرِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي يُعْتَدُّ بِهَا، إِذْ لَا تَزَالُ فِي أَوَّلِ عَمْرِهَا السِّيَاسِيَّ، وَبِهَذَا السَّبَبِ وَحْدَهُ كَانَ اخْتِلَافُ الْكُبَرَاءِ فِي السِّيَاسَةِ لَا يُشَبَّهُهُ إِلَّا نِزَاعُ الْخَصْمَيْنِ بِغَيْرِ شُهُودٍ وَلَا قَاضٍ نَافِذٍ الْحُكْمِ، فَهُوَ نِزَاعٌ قُوَّةً تَفُورُ بوسَائِلِهَا، لَا نِزَاعٌ حَقٌّ يَسْتَعْلِي بِأَدْلَتِهِ.

وهذه المجالس النيابية الشرقية كلها صورٌ ممثلةٌ جافَّةٌ، منقطعةُ السَّمَاءِ مِنْ أَسْبَابِهَا، كَالْفَرْعِ الْمَقْطُوعِ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَإِنَّمَا يَتَنَضَّرُ الْفَرْعُ وَيُسْمِرُ أُنْمَارُهُ إِذَا قَامَ بِشَجَرَتِهِ لَا بِنَفْسِهِ، وَمَا شَجَرَةُ الْفَرْعِ السِّيَاسِيِّ إِلَّا الْجُمْهُورُ السِّيَاسِيُّ.

فَسَبِيلُ الْإِصْلَاحِ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ شَرْقِيَّةٍ أَنْ يَنْهَضَ أَهْلُ الرَّأْيِ مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ فِيهَا بَيْنَ عَالَمٍ وَأَدَبٍ وَمُحَامٍ وَسَرِيٍّ، وَمَنْ كَانَ بِسَبِيلٍ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَيَجْعَلُوا لِمَدِينَتِهِمْ دَارَ نَدْوَةٍ لِلْإِجْتِمَاعِ وَالْبَحْثِ وَالْمَشُورَةِ، وَقَوْلٍ (نَعَمْ) بِالْحُجَّةِ وَقَوْلٍ (لَا) بِالْحُجَّةِ. ثُمَّ

(١) أَدْبَرُوا: تَرَاوَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ.

يُعلنون ذلك في جمهورهم وينزلون منه منزلة الأستاذ والآب والصدیق في تعليمه وإِهاديته وإِرشاده؛ وتتصل هذه الدور في كل مملكة بعضها ببعض، وتنتهي بالمجالس النيابية. وبغير ذلك لا يُعَمَلُ الفِراغُ الذي نراه خاوياً^(١) بين الشعب والحكومة، وبين الكُبراء والجماهير، وإنَّما أكثرُ مصائبنا من هذا الفِراغ؛ فهو الذي يَضِيعُ فيه ما يَضِيعُ فيه، ويختفي ما يختفي.

مِنَ قومٍ موظفون في الحكومة؛ لكن أين القوم الذين تكون الحكومة نفسها موظفة عندهم؟

(اعتذار): بهذا المقالِ أنتهت أحاديثُ ألباشا؛ فقد أنبأنا صاحب السرِّ أنه سيكتُم السرَّ . . .

(١) خاوياً: فارغاً.

المجنون

١

جاء يمشي هادئاً يتخيلُ في مشيِّه، يَرْجُفُ بَيْنَ الْخُطْوَةِ وَالْخُطْوَةِ كَأَنَّهُ مِنْ كِبَرِهِ يُشْعِرُكَ أَنَّ الْأَرْضَ مُدْرِكَةٌ^(١) أَنَّهُ يَمْشِي فَوْقَهَا. . . ولا يتقلُّ قَدَمُهُ إِذَا خَطَا حَتَّى يَنْهَضَ بِرَأْسِهِ يُحَرِّكُهُ إِلَى أَعْلَى، فَمَا تَدْرِي أَهْوَى يُرِيدُ أَنْ يَطْمِشَنَّ إِلَى أَنَّ رَأْسَهُ مَعَهُ. . . أَمْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّ هَذَا الرَّأْسَ الْعَظِيمَ قَدْ وُضِعَ عَلَى جَسَمِهِ فِي مَوْضِعِ رَايَةِ الدَّوْلَةِ، فَهُوَ يَهْزُهُ هَزَّ الرَّايَةِ. . . .

وَأَخَذَتْهُ عَيْنِي وَلَبَسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا طَوَّلَ غُرْفَةٍ وَعَرَضُهَا - فإِذَا هُوَ زَائِعُ الْبَصَرِ كَأَنَّمَا وَقَعَ فِي صَحْرَاءَ يُقَلِّبُ عَيْنَهُ فِي جِهَاتِهَا مَتَحَبِّراً مَتَرَدِّداً، ثُمَّ كَأَنَّمَا رَفَعَ لَهُ فِي أَقْصَاهَا جَبَلٌ فَأَخَذَ إِلَى نَاحِيَّتِهِ. . .

وَرَحَّبْتُ بِهِ، وَأَجْلَسْتُهُ إِلَى جَانِبِي، فَأَخَذَ يَسْتَغْرِفُ إِلَيَّ^(٢) بِذِكْرِ أَسْمِهِ وَجَمَاعَتِهِ وَبَلَدِهِ، لَا يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئاً، كَأَنَّهُ عَتَرَةُ بَنِي عَبَسَ: لِأَرْضِهِ مِنْ طَبِيعَتِهَا جُغْرَافِيَا، وَمِنْ أَسْمِهِ جُغْرَافِيَا عَلَى حِدَةٍ. . . فَلَمَّا رَأَى لَا أَثْبَتُهُ مَعْرِفَةً قَالَ: إِنَّ بَكَ نِسِيَاناً.

قُلْتُ: وَكَثِيراً مَا أُنْسَى غَيْرَ أَنَّ أَسْمَكَ لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تُذَكِّرُ بِتَارِيخِ.

قَالَ: هَذِهِ غُلْطَةُ الْأَجْرَائِدِ. وَمَهْمَا تَنَسَّ مِنْ شَيْءٍ فَلَا تَنَسَ أَنَّكَ أَسْتَاذُ «نَابِغَةِ

القرن العشرين» . . .

فَسَرَّخْتُ فِيهِ نَظْرِي^(٣)، فإِذَا أَنَا بِمَجْنُونٍ ظَرِيفٍ أَمْرَدٍ أَهِيْفَ، يَكَادُ بِرَخَاوَتِهِ وَتَفَكُّكِهِ لَا يَكُونُ رَجُلًا، وَيَكَادُ يَبْدُو أَمْرَأَةً بِجَمَالِ عَيْنَيْهِ وَفَتُورِهِمَا.

وَتَوَسَّنْتُ فإِذَا وَجْهٌ سَاكِنٌ مُنْبَسِطٌ الْأَسَارِيرِ مَمْسُوحٌ الْمَعَانِي، يُنْبِئُ بِانْقِطَاعِ صَاحِبِهِ مِمَّا حَوْلَهُ، كَأَنَّ دُنْيَاهُ لَيْسَتْ دُنْيَا النَّاسِ، وَلَكِنَّهَا دُنْيَا رَأْسِهِ. . .

(١) مدركة: عارفة.

(٢) يستغرف إلي: يقدم نفسه.

(٣) أي نظرت إليه ملياً أنامله.

وتأملت فإذا طفولة متلبدة قد ثبتت في هذا الوجه لِتُخرج من بين الرجل
والطفل مجنوناً لا هو طفل ولا رجل .

وتفرست^(١) فإذا أثار معركة بادية في هذه الصّفحة، قتلاها أفكار المسكين
وعواطفه .

وتبينت فإذا رجل مُسترخ، مُتفتر البدن^(٢)، حائر النفس، كأنه قائم لِتَوْه من
النوم فلا تزال في عينه سِتّة، وكأنه يتكلّم من بقايا حُلُم كان يراه . . .

وحيل إليّ من هذا الحُمول في هذا الشاب، أنّ عليه جواً من تشاؤبه، وأنّ
المكان كلّ يشاءب، فتشاءبت . . .

فلما رأى ذلك متي ضحك وقال : إن «نابغة القرن العشرين» رجل مغناطيسي
عظيم؛ فيها هو ذا قد ألقى عليك النوم . . وحسبك فخراً أن تكون أستاذهُ وأخاه
ووقتَه، «فليس على ظهرها ألبوم أديب غيري وغيرك . . .» .

قلّت في نفسي : إنّا ليله، ما يعتقد الرجل أنّ على ظهرها مجنوناً غيره
وغيري، وكأنّما ألمّ بذلك فقال : لست مجنوناً؛ ولكنّي كنتُ في ألبمارستان .

قلت : أهو ألبمارستان الذي يسمّى مستشفى المجاذيب؟

قال : لا؛ إنّ هذا الذي تُسميه أنت، هو هو مستشفى المجاذيب؛ أمّا الذي
سميته أنا فهو مستشفى فقط . . .

وذكرتُ عندئذ أنّ من المجانين قوماً ظرفاء يَدْخُلُهُمُ الفسادُ في عقولِهِم من ناحية
فكرة ملازمة لا تَبْرَحُ، فلا يكونُ جنونُهُم جنوناً إلّا من هذا الوجه، وسائر أحوالِهِم
كأحوالِ العُقلاء، غير أنّهم بذلك طياشون^(٣) متقلبون، إذا أزدُهي لم يُطفئه الناسُ من زهوهِ
وكبريائِهِ وتطّبعه، كأنه واحد الدنيا في هذه الفكرة، وكأنّ بينَهُ وبين الله أسراراً؛ ويظنُّ
عند نفسه أنّه أعقلُ الناسِ في أرقى طبقاتِ عقله، وما جنونه إلّا في هذه الطبقة وحدها .

ومثل هذا لا بدّ له ممّن يستجيبُ لهذيانه كيما يُحرّك فيه خِفَتَهُ وطيشَهُ وزهوَهُ،
وليكونَ عنده الشاهد على هذا الوجود الخيالي المبدع الذي لا يُوجد إلّا في عقله
المختل . فإذا هو ظفّرَ بمنّ يُحاسِنُهُ، أو يُصانعُهُ، أو يُجارِيه، حسبَ مُدْعِنَا^(٤) مؤمناً

(٣) طياشون : لا يتصرفون بوعي .

(٤) مدعناً : خاضعاً، مستلماً .

(١) تفرّس : نظر بإمعان .

(٢) متفتر البدن : كسول .

مصدقاً، فلا يدعُ من بعدها ويتعلّق به أشدّ التعلّق، ويراه كأنه في ملكه . . . فيتخذُه صفيّاً وهو يعتقدُ أنّه رقيق، وقد يزعمُه أستاذُه ليفهمُه من ذلك بحسابِ عقله . . . أنّه تلميذه .

وخشيتُ أن يكونَ (نابعةُ القرنِ العشرين) لم يُسمني أستاذُها إلاّ بحسابٍ من هذا الحساب، فهو سيُعطي الأستاذيةَ حقّها، ولكن كما هو حقّها في لغةِ جنونه . . . فأصبح في رأيه تلميذه وصنيعته، ومحدثُ هديانه، وثقته وملجأه، والمحامي من ورائه .

قلْتُ في نفسي: إذا أنا تركتُه جالساً كانَ هذا المجلسُ مثابته^(١) من بعدُ، فلا يعرفُ له محلاً غيره، ويصبحُ كما يقالُ في تعبيرِ القانونِ «محلّه المختار»، فيتطرّأ إليّ لسببٍ ولغير سبب، ويقعُ في أوقاتي وقوعُ السهول لا حسابَ عليه، ويضيقُ فيه ما يضيّع . فأجمعتُ أن أصرفه راضياً باليأس؛ وقد انتهتْ نفسه من معرفتي، وانتهى عقله إلى الرأي أنّي لا أضلّحُ له أستاذاً، لا بحسابه هو ولا بحسابِ الناس .

فقلْتُ له: ظنّيتُ بك أنّك أستاذُ نفسك، ولا يحسنُ بنابعةُ القرنِ العشرين أن يكونَ له في القرنِ العشرين أستاذ؛ وأراك قد فرغتَ لِلادب، أمّا أنا فممشغولٌ بأعمالٍ وظيفتي، وقد جاءَ من العملِ ما تراه، وتكادُ لا تفي به الساعاتُ الباقية من الوقت . . .

فقطعَ عليّ وقال: إنّ الوقتَ ليسَ في الساعة؛ والدليلُ أنّي أعطّلُها فيتعطلُ الوقت، ولا يكونُ فيها يومٌ ولا ساعةٌ ولا ثانيةٌ ولا دقيقة .

فقلْتُ: ولكّلك إذا عطّلَها لم تتعطلِ الشمسُ التي تُعينُ منازلَ النهار، فسيمرُّ الظهْرُ ويحينُ العصر . . .

قال: ويأتي غد، وإنّما أنا معك اليومَ فقط . . . ويجبُ أن تغتبطَ^(٢) بأنّك أستاذُ (نابعةُ القرنِ العشرين)، فقد قرأتُ الكثيرَ في الأدبِ وقرأتُك، فما كانَ لي رأيٌ إلاّ رأيتهُ لك . . . ولا صحتُ عندي نظريّةٌ إلاّ رأيتهُك قد أبديتها، وأنا لا أعتقدُ أدباً في مصرَ إلاّ ما توافقتنا عليه معاً «ولا أسلمُ جدلاً، ولا جدلاً أسلمُ أن في مصرَ أدباءَ ينالون مَنّي شيئاً، فهو أنا وأنا هو»، ولئن لم يُدعِنوا (لنابعةُ القرنِ العشرين) فليعلمنَّ أنّهم «وقعوا مِنّي موقعَ نملةٍ على صخرة . هذا من جهة، ومن جهةٍ أُريدُ سجانزَ وليسَ معي ثمنُها» .

(١) مثابه: ملجأه .

(٢) تغتبط: تُسر .

فتَهَلَّلْتُ وَأَسْتَبَشَرْتُ، وَقُلْتُ لَهُ: هَذَا قَرَشٌ فَهَلَّمَ فَأَشْتَرِ بِهِ دَخَائِلَكَ، وَفِي رِعَايَةِ اللَّهِ، ثُمَّ أَسْتَوِيتُ لِلْقِيَامِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُمْ؛ بَلْ تَمَكَّنَ فِي مَجْلِسِهِ . . .



وَكَرِهْتُ أَنْ أَتَغَيَّرَ لَهُ وَمَا أَشْكُ أَنَّهُ فِي هَذَا صَحِيحُ التَّمْيِيزِ؛ فَمَا أَسْرَعَ مَا قَالَ: إِنَّ «نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ» فَتَى قَوِيٍّ الْإِرَادَةِ؛ فَإِذَا هُوَ لَمْ يَصْبِرْ عَنِ التَّدْخِينِ سَاعَاتٍ فَمَا هُوَ بِبَصُورٍ . . . وَإِذَا لَمْ يُثْبِتْ لَكَ هَذَا الْأَمْرَ عَنْ مُعَايَنَةٍ . . . فَمَا أُعْطِيَتْهُ حَقُّهُ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَقَدْ غَرَسْتُ الرَّجُلَ مِنْ حَيْثُ أَرَدْتُ أَقْتِلَاعَهُ، وَأَيَقُنْتُ أَنَّهُ مِنْ عُقْلَاءِ الْمَجَانِينِ الَّذِينَ تَتَغَيَّرُ فِيهِمُ الْعَاطِفَةُ أحياناً فُتْلُهُمُهم آيَاتِ مِنَ الذِّكَاوِ لَا يَتَّقُوْا مِثْلَهَا إِلَّا لِإِنْوَايِغِ الْمُنْطَقِ؛ وَذَكَرْتُ (بِهَلُولِ) الْمَجْنُونِ الَّذِي حَكَّوْا عَنْهُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ الْشَّيْبَانِيَّ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَأْكُلُ خَيْصًا^(١) فَقَالَ لَهُ: أَطْعَمْنِي. قَالَ: لَيْسَ هُوَ لِي، إِنَّمَا هُوَ لِعَابِكَةَ بَنَى الْخَلِيفَةُ بَعَثَهُ إِلَيَّ لِأَكَلِهِ لَهَا . . .

وَقَالُوا: إِنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ الْأَبْزَازِينَ فَرَأَى قَوْمًا مُجْتَمِعِينَ عَلَى بَابٍ وَكَانَ قَدْ نَقِبَ، فَنَظَرَ فِيهِ وَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ مَنْ عَمِلَ هَذَا؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَأَنَا أَعْلَمُ.

فَقَالُوا: هَذَا مَجْنُونٌ يَرَاهُم بِاللَّيْلِ وَلَا يَتَحَاشَوْنَهُ^(٢)، فَالْطَّفُوا^(٣) بِهِ لَعَلَّهُ يُخْبِرُكُمْ. ثُمَّ قَالُوا: أَخْبِرْنَا. قَالَ: أَنَا جَانِعٌ. فَجَاءَهُوَ بِطَعَامٍ سَنِيٍّ وَحُلْوَاءٍ؛ فَلَمَّا شَبِعَ قَامَ فَنَظَرَ فِي النَّقْبِ وَقَالَ: هَذَا عَمَلُ اللَّصُوصِ . . .

وَكَانَتْ مَجْلَدُ (الرِّسَالَةِ) فِي يَدِ (نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ)، فَوَصَلَ الْكَلَامَ بِهَا وَقَالَ: إِنَّهُ يَقْرَأُ كُلَّ مَقَالَتِي، وَإِنَّهُ وَإِنَّهُ، وَإِنَّهَا وَإِنَّهَا. قُلْتُ: فَمَا أَسْتَحْسِنْتُ مِنْهَا؟ قَالَ: (مَقَالَةُ السِّيمَا) . . .

فَقُلْتُ: مَتَى كَانَ آخِرُ عَهْدِكَ بِرُؤْيَا السِّيمَا؟ قَالَ: أَمْسَ. قُلْتُ: فَأَنَا لَمْ أَكْتُبْ مَقَالاً عَنِ السِّيمَا، وَلَكِنَّكَ أَعْجَبْتَ بِمَا رَأَيْتَ أَمْسَ فَتَحَوَّلَ مَا رَأَيْتَهُ حُلُمًا فِي مَقَالَةٍ.

فَأَعْجَبَهُ هَذَا التَّأْوِيلُ وَقَالَ: بِمِثْلِ هَذَا أَنَا (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ)، فَأَقْرَأُ مَقَالَاتِكَ فِي الْغَيْبِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكْتُبَهَا . . .

(١) الْخَيْصُ: ضَرْبٌ مِنَ الْأَطْعَمَةِ يَصْنَعُ مِنَ التَّمْرِ وَالسَّمَنِ.

(٢) يَتَحَاشَوْنَهُ: يَتَجَنَّبُونَهُ.

(٣) الطَّفُوا: تَلَطَّفُوا وَاحْشَوْا مَعَامَلَتَهُ.

قلت: إِنَّكَ تُكثِرُ أَنْ تَقُولَ عَنْ نَفْسِكَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ)، وَهَذَا يَحْصُرُ نَبِوَعَكَ فِي قَرْنٍ بَعَيْنِهِ؛ فَلَوْ قَطَعْتَ الْكَلِمَةَ وَقُلْتَ: (نَابِغَةُ الْقَرْنِ)، لَصَحَّ أَنْ تَكُونَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ أَلْتَاثَعِ عَشَرَ وَالْثَامِنَ عَشَرَ، وَمَا قَبْلَهُمَا وَمَا بَعْدَهُمَا.

فَرَأَيْتُ بِهِ شِدْهَةً^(١) كَأَنَّهُ يُفَكِّرُ فِي جَنُونِهِ، ثُمَّ أَفَاقَ وَقَالَ: لَا. لَا؛ وَإِنَّ هَاهُنَا مَوْضِعَ نَظَرٍ، فَلَوْ رَضِيتُ بِنَابِغَةِ الْقَرْنِ فَقَطْ، لَجَاءَ مَنْ يَقُولُ: إِنِّي نَابِغَةُ قَرْنٍ خُرُوفٌ...

* * *

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: حَمَاءَةٌ مَدَّتْ بِمَاءٍ، وَإِنَّ هَذِهِ أَلُوسَاوَسَ لَا تَنْفَكُ تَعْرِو^(٢) هَذَا الْمَسْكِينِ مَا وَجَدَ مِنْ يَكْلَمُهُ؛ وَالْأَفْكَارُ فِي ذَهْنِهِ مَجْتَمِعَةٌ مُخْتَلِطَةٌ مُسْتَرْسِلَةٌ كَأَنَّهَا ثَوْرَةٌ مِنَ الْكَلَامِ لَا نِظَامَ لَهَا، فَلَأَسْكُتُ عَنْهُ وَلَأَتَسَاغَلَ بِمَا بَيْنَ يَدَيَّ.

وَسَكُتٌ وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ؛ فَجَعَلَ طَائِفُهُ يَعْتَرِيهِ، وَكَأَنَّ السَّكُوتَ قَدْ سَلَطَ أَفْكَارَهُ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّهَا أَخَذَتْ تَصِيحُ بِهِ فِي رَأْسِهِ كَمَا يَصِيحُ غِلْمَانُ الطَّرِيقِ بِالْمَجْنُونِ، لَا يَزَالُونَ بِهِ حَتَّى يُحَرِّدُوهُ^(٣) وَيَقْدُوهُ الْبَقِيَّةَ مِنْ صَبْرِهِ وَعَقْلِهِ مَعًا. فَغَضِبَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) وَنَقَلَهُ الْغَضَبُ إِلَى حَالَةٍ زَمْهَرَتْ فِيهَا عَيْنَاهُ^(٤)، وَكَلَعَ وَجْهَهُ^(٥) حَتَّى خِفَتْ أَنْ يَثُورَ بِهِ أَلْجُونِ، فَاقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَتَعَلَّلْتُ بِسُؤَالِهِ: أَلَيْكَ إِخْوَةٌ؟ أَلَمْ يَنْبَغْ فِيهِمْ نَابِغَةٌ...؟

قال: إِنَّ لَهُ أَخًا يُعَذِّبُهُ، وَيُوقِعُ بِهِ ضَرْبًا، وَيُغْلِلُهُ بِالسَّلَاسِلِ، وَيَشْدُهُ «بَأْمَرَاكِ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلٍ»، وَأَنَّهُ أَنْزَلَ بِهِ الْعَذَابَ مَا لَوْ أَنْزَلَهُ بِحَجَرٍ لَتَأَلَّمَ.

قلت: فَأَنْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى رَاحَةٍ، وَيَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَأْوِيَ إِلَى مَكَانٍ تَتَمَدَّدُ فِيهِ. قال: إِنِّي مُنْصَرَفٌ وَسَاجِسٌ فِي نَدْيٍ^(٦) كَذَا «هَذَا مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِيَ ثَمَنُ الْقَهْوَةِ».

قلت: فَهَذَا قَرَشٌ تَدْفَعُهُ ثَمَنًا لَهَا، فَاهْذَبْ فَاسْتَمْتِعْ بِهَا وَبِالتَّدْخِينِ وَبِالرَّاحَةِ فِي ذَلِكَ النَّدْيِ، فَالْمَكَانُ هَاهُنَا كَثِيرُ الضَّجِيجِ وَالْحَرَكَةِ. وَأَسْتَوْفَزْتُ لِلْقِيَامِ^(٧)؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَلَّلْ مِنْ مَجْلِسِهِ.

(١) شدة: اندهاشاً واستغراباً.

(٢) تعرو: تصيب.

(٣) يحردوه: يشجعوه على فعل ما يستهجن.

(٦) ندِّي: مقهى.

(٧) استوفزت للقيام: تحفرت.

ثم قال: أراك الآن مستبصراً أي (نابعةً القرن العشرين) بعينه .

قلت: بل بعينه اليمنى وأيسرى معاً . . .

قال: لا . لا؛ إنك نسيت أن العرب تقول في التوكيد: عينه ونفسه وذاته .

«أي أنا نابعةً القرن العشرين بعينه ونفسه وذاته، فليس غيري نابعةً القرن العشرين» .

وكادت نفسي تخرج غيظاً، ولكني رأيتُ الحِلْمَ على مثل هذا يجري مجرى

الصدقة؛ وقلت: إن أدباء المجانين كثيراً ما يتفق لهم الإبداع الطريف^(١) إذا عللوا

شيئاً، كذلك ألقاص الذي كان يقص على العامة سيرة يوسف - عليه السلام -،

فقال لهم فيما قال: إن الذئب الذي أكل يوسف كان اسمه كذا، فردوا عليه: إن

يوسف لم يأكله الذئب. قال: فهذا هو اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف .

فقلتُ للمجنون: فما العيلة عندك في أن العرب لم يقولوا في التوكيد: عينه

وأذنه وأنفه وفمه ويده ورجله؟

فنظر نظرة في أفضاء ثم قال: ليسوا مجانين فيخلطوا هذا الخلط، وإلا

وجب أن يقولوا مع ذلك: وعِمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاته ودارهم. «هذا من

جهة، ومن جهة ليس معي أجره السيارة إلى بلدي وهي قرشان» .

قلت: هذه هي أجره السيارة وصحبتك السلامة، ونهضت واقفاً؛ ولكنه لم

يتحرك .

ثم قال: إنك لم تعرف بعد «أني أقول الشعر في الغزل والنسيب والمدح

والهجاء والفخر؛ وأني في الخطابة قس بن ساعدة أو أكنم بن صيفي، وأني صخر

لا ينفجر . . . يابس لا ينصر، لست كالحجاج بل كعمر» .

قلت: هذا شيء يطول بيننا ولا حاجة لك بهذه البراهين كلها، فقد آمنتُ

أنك نابعةً القرن العشرين في الأدب والشعر والخطابة والترسل .

قال: والفلسفة؟

قلت: والفلسفة وكل معقول ومنقول؛ وقد أنهيتنا على ذلك .

قال: ولكنك تحسبني مجنوناً أو مروراً «كما حسبتني الجرائد التي زعمت

(١) الطريف: الجديد .

أَنْ أَخْتَفَانِي فِي الْبِيمَارِسْتَانِ كَانَ لِجَنُونِي الْفَكْرِي أَوْ لِدَكَائِي الطَّبِيعِي وَهُوَ الْأَصَحُّ . . . فَبَيَّنَ لَهُذِهِ الْجَرَائِدُ أَنِّي خَرَجْتُ، وَأَنِّي سَاطِعُ الْأَدَبِ بِطَايِعٍ جَدِيدٍ .

قُلْتُ: وَلَكِنِّي لَسْتُ مَرَاوِسِلَ جَرَائِدٍ. وَقَالَ: «فَاجْعَلْنِي رِسَالَةً وَرَاسِلَهَا عَنِّي أَوْ أَكْتُبْ لَكَ أَنَا مَا تُرْسَلُهُ، وَمَا جِئْتُكَ إِلَّا لِهَذَا؛ وَيَجِبُ أَنْ تُلَحِقَنِي بِجَرِيدَةٍ كَبِيرَةٍ، وَهَذِهِ الْجَرَائِدُ تَعْرِفُنِي كُلَّهَا، وَقَدْ تَنَاوَلْتَنِي مِنْ جَمِيعِ النُّوَاحِي الْأَدَبِيَّةِ؛ فَضْلاً عَنْ أَنِّي كَاتِبٌ قَدْ، وَخَطِيبٌ قَدْ، وَشَاعِرٌ قَدْ، وَهَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ، فَهَلْ أَعُولُ عَلَيْكَ فِي صِلَتِي بِالْجَرَائِدِ أَوْ لَا؟» .

قُلْتُ: إِنَّكَ تَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَكَ، وَقَدْ بَلَّوْتَهُمْ^(١) وَبَلَّوْا مِنْكَ، فَلَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ عِنْدَهُمْ .

قَالَ: إِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ بِأَسِي، وَقَدْ حَسِبُونِي مَجْنُوناً أَسْتَهْوَتْهُ الْأَشْيَاطِينُ؛ وَمَا عَلِمُوا أَنَّ شَيْطَانَ الشَّعْرِ هُوَ الَّذِي أَسْتَهْوَانِي، كَمَا أَنَّ شَيْطَانَ الْحُبِّ هُوَ الَّذِي أَسْتَهْوَاكَ . هَذَا مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِيَ ثَمَنُ الْغَدَاءِ، وَلَا أَكْلُفُكَ شَيْئاً . . .

قُلْتُ: فَهَذَا قَرَشٌ لِلْغَدَاءِ فِي مَطْعَمِ الشَّعْبِ . وَهُمْ الْآنَ يَتَغَدَّوْنَ وَيُوشِكُ إِذَا أَبْطَأَتْ أَنْ تُوَافِقَهُمْ وَقَدْ اسْتَنْفَدُوا الطَّعَامَ، وَأَنْتَ لَا تَجْهَلُ أَنَّ الْقَرَشَ فِي مَطْعَمِ الشَّعْبِ هُوَ قَرَشَانِ فِي الْقِيَمَةِ .

قَالَ: صَدَقْتَ؛ يُوشِكُ أَنْ أُوَافِقَهُمْ وَقَدْ فَرَّغُوا مِنْ طَعَامِهِمْ وَغَسَلُوا آلَانِيَّةً . فَلَأَبْقِي هَذَا لِلْعِشَاءِ وَسَاطُوِي^(٢) إِلَى اللَّيْلِ . . .

قُلْتُ: فَمَعَكَ الْآنَ ثَمَنُ الدِّخَانِ، وَالْقَهْوَةِ، وَالْغَدَاءِ، وَأَجْرَةُ السَّيَارَةِ إِلَى بَلَدِكَ . وَقَدْ كَانَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْثَالِثِ لِلْهَجْرَةِ وَأَسْمَهُ (طَاقُ الْبَصْلِ)^(٣) يُعْنِي بِقِيَارِطٍ وَلَا يَسْكُتُ إِلَّا بِدَانِقٍ . هَذَا مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ جِهَةٍ فَخِذُ هَذَا الْقَرَشِ ثَمَنُ لِسْكُوتِكَ وَأَنْصَرِفَ .



فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَامَ مُغْضَباً وَتَنَفَّسَتْ بَعْدَهُ الصُّعْدَاءُ الطَّوِيلَةُ . . . وَفَتَحْتُ الْكَنَافَةَ وَأَسْتَقْبَلْتُ الْهَوَاءَ الْفَقِيَّ وَأَخَذْتُ فِي رِيَاضَةِ النَّفْسِ الْعَمِيقِ، ثُمَّ زَاغَتْ عَيْنِي إِلَى الْكِبَابِ؛ فَإِذَا (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) مُقْبِلٌ مَعَ نَابِغَةٍ قَرْنٍ آخَرٍ

(١) بَلَّوْتَهُمْ: اخْتَبَرْتَهُمْ .

(٢) أَطُوِي: أَنَامُ بِلَا عِشَاءٍ .

(٣) هَذَا أَحَدُ مَجَانِينِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ فِي الْكُوفَةِ .

المجنون

٢

رأيتُ المجنونين يدخلان معاً، فكأنما سداً البابَ وسوياً بالبناء وتركاً العُرْفَةَ حائطاً مُضْمَتاً لا بابَ فيه، ممّا أعتراني^(١) مِنَ الضيقِ والحرجِ؛ وقلْتُ في نفسي: إنَّه لا مذهبَ للعقلِ بينَ هذينِ إلّا أنْ يُعَيَّنَ كلاهما على صاحبه، فأرى أنْ أَدْعُهُمَا وأكونَ أنا أَصْرُفُهُمَا؛ ويا ربّما جاءَ مِنَ النوادرِ في اجتماعِ مجنونينِ ما لا يأتي مثلهُ من عقليْنِ يجتمعانِ على ابتكارِهِ؛ غيرَ أنّي خَشِيتُ أنْ أَكونَ أنا المَجْنُونُ بينهما، ثُمَّ لا أَمْنُ أنْ يَتَّبِعَ أحدهما بالآخرِ إذا خَطَرَتْ بِهِ الْخَطَرَةُ^(٢) من شيطانيه، فرأيتُ أنْ يكونَ لي ظهيرٌ عليهما، إنْ لم يحقِّ بِهِ الْعَوْنُ فلا أَقْلُ من أنْ يطولَ بِهِ الصبرُ... وكانَ إلى قَريبٍ مِنِّي الصديقُ (١. ش) فأرسلْتُ في طلبِهِ.

أمّا هذا المَجْنُونُ الثاني الذي جاءَ بِهِ (نابغةُ القرنِ العَشرينِ) فقدَ رأيْتُهُ من قبلَ، وهو كَالكِتَابِ الَّذِي خُلِطَتْ صُحُفُهُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ فَتَدَاخَلَتْ وَفَسَدَ تَرْتِيبُهَا، وَأَنْقَلَبَ بِذَلِكَ الْعِلْمُ الَّذِي كَانَ فِيهَا جَهْلًا وَتَخْلِيطًا، يَتَّبِعُ الْكَلَامَ بَعْدَ كُلِّ صَفْحَةٍ إِلَى صَفْحَةٍ غَرِيبَةٍ لَا صِلَةَ لَهَا بِمَا قَبْلُهَا وَلَا مَا بَعْدَهَا.

وهو طَالِبٌ أَزْهَرِيٌّ كَانَ أَكْبَرَ هُمِهِ أَنْ يَصِيرَ حَافِظًا كَالْحَفَاطِ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الرِّوَاةِ وَالْفُقَهَاءِ، فَجَعَلَ يَسْتَظْهِرُ كِتَابًا بَعْدَ كِتَابٍ وَمَثَلًا بَعْدَ مَثَلٍ؛ وَكَانَتْ لَهُ أَدُنُّ وَاعِيَةٌ، فَكُلُّ مَا أَفْرَغَ فِيهَا مِنْ دَرْسٍ أَوْ حَدِيثٍ أَوْ خَبَرٍ، نَزَلَ مِنْهَا كَالنَّفَرِ عَلَى آلَةٍ كَاتِبَةٍ، فَيَنْطَبِعُ فِي ذَهَبِهِ أَنْطَبَاعُ الْكِتَابَةِ: لَا تُمَحَى وَلَا تُنْسَى.

ثُمَّ أَلْتَأَتِ هَذِهِ الْوَلُوءَةُ وَهُوَ يَحْفَظُ مَتْنًا فِي فَقْهِ الشَّافِعِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، فَغَبَرَ سَنِينَ يَتَحَقَّقُهُ، كُلَّمَا أَنْتَهَى إِلَى آخِرِهِ نَسِيَهُ مِنْ أَوَّلِهِ؛ فَيَعُودُ فِي حَفْظِهِ وَرَبَّمَا هَذَا دَائِبُهُ

(٢) الخطرة: الفكرة.

(١) اعتراني: أصابني وداخلني.

لا يملُ ولا يجدُ لهذا العناء معنى، ولا يزال مقبلاً على الكتابِ يجمعه، ثم لا يزال
الكتابُ يتبدُّ في ذاكرته .

وترك المعهد الذي هو فيه وتخلَّى في داره^(١) للحفاظ، وأجمع ألا يدع هذا
المتن أو يحفظه، وكأنَّ فيه الموضع الذي فازته عقله عنده، وبذلك رجَّع المسكين
آلة حفظ ليس لها مساك^(٢)؛ وأصبح كالذي يرفع الماء من البحر، ثمَّ يُلقيه في
البحر، ليشرح البحر...

وجاء (ا. ش) فقلتُ له، وأومأتُ إلى المجنون الأول: هذا نابغة القرن
العشرين .

قال: وهل أنتهى القرنُ العشرونُ فيعرف من نابغة؟
فقلتُ للمجنون: أجبهُ أنت. فسأله: وهل بدأ القرنُ الواحد والعشرون؟ قال: لا .
قال: فإنَّ هذا الذي إلى جانبي نابغة القرنِ الواحد والعشرين... فكما
جاز أن يكون هو نابغة قرنٍ لم يبدأ، جاز أن أكون أنا نابغة قرنٍ لم ينته .
قلتُ: ولكنك زدت المشكلة تعقيداً من حيث توهمت حلها؛ فكيف يكون
معك في آنٍ وبيتك وبيتُه خمس وستون سنة؟

فنظر نظرة في الفضاء، وهو كلما أراد شيئاً عسيراً نظرَ إلى اللاشيء...
ثمَّ قال: هذه الأمور لا تشبه إلا على غير العاقل... وكيف لا يكون بيني وبيتُه
خمس وستون سنة وأنا أنقذه؛ النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة...؟
قلتُ للآخر: أؤكدك؟

قال: ممَّا حفظناه عن الحسن: أدركنا قوماً لو رأيتموهم لقلتم: مجانين. ولو
أدركوكم لقالوا: شياطين...

فضحك الأول وقال: إنَّه تلميذي .

قال الثاني: لقد صدقَ فهو أستاذي، ولكنه حين ينسى لا يذكره غيري...
قلتُ: لا غرور «فعما حفظناه» عن الزهري: إذا أنكرت عقلك فأقدحه بعقل...
فغضب نابغة القرن العشرين وقال: ويح لهذا الجاهل، ألأحمق، الجاحد للفضل،

(٢) مساك: بقية حفظ .

(١) تخلَّى في داره: انزوى وانعزل .

ومع جنونه وخَبَله . أَيْدُكُزْنِي وهو منذُ كذا وكذا سنة يحفظُ متناً واحداً لا يُمسِكُهُ عقلُهُ إلا كما يُمَسِّكُ أَلَمَاءُ الْغُرَابِيلِ؟ صدقَ - واللّه - مَنْ قال: عدوُّ عاقلٍ خيرٌ؛ خير . فقال الثاني: خيرٌ من صديقٍ جاهلٍ ، هأنذا قد ذُكِرْتُكَ من نسيانٍ ، وهأنت ذا رأيتَ .
فضحكُ النَّابِغَةُ وقال: ولكِنِّي لم أَرِدْ أَنْ أَقُولَ هذا، بَلْ أَرِيدُ أَنْ أُولَفَ كلاماً آخرَ عدوُّ عاقلٍ خيرٌ، خيرٌ من مجنونٍ جاهلٍ

ورأيتُ أَنَّ التَّقَاءَ مجنونين شيءٍ طريفٌ غيرُ جنونيهما، وصَحَّ عندي أَنَّ المَجْنُونِ الْوَاحِدَ هُوَ الْمَجْنُونُ؛ أَمَّا الْاِثْنَانِ فَقَدْ يَكُونُ مِنْ أَجْتِمَاعِهِمَا وتجاوزِهِمَا فنُّ طريفٌ مِنْ التَّمثِيلِ، إِذَا وَجَدَا مَنْ يُصَرِّفُهُمَا فِي الْحَدِيثِ، وَيَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَهُمَا، وَيَسْتَكْشِفُ مِنْهُمَا قِصَّتَهُمَا الْعَقْلِيَّةَ

ولم أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّ (نابغةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) مِنْ أَلْمَجَانِينِ الَّذِينَ لَهُمْ أَدُنٌّ فِي غَيْرِ الْأَدُنِّ، وَعَيْنٌ فِي غَيْرِ الْعَيْنِ، وَأَنْفٌ بِغَيْرِ الْأَنْفِ؛ إِذْ تَتَلَقَّى أَدْمُغَتُهُمْ أَصْوَاتاً وَأَشْبَاحاً وَرَوَائِحَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا لَا مِنْ الْوُجُودِ، وَتُدْرِكُهَا بِالتَّوَهُّمِ لَا بِالْحَاسَّةِ، فَتَتَخَلَّقُ^(١) هَوَاجِسُهُمْ خَلْقاً بَعْدَ خَلْقٍ، وَتَخْطُرُ الْكَلِمَةُ مِنْ الْكَلَامِ فِي ذَهْنِ أَحَدِهِمْ فَيَخْرُجُ مِنْهَا مَعْنَاهَا يَتَكَلَّمُ فِي دِمَاجِهِ أَوْ يَمْشِي أَوْ يُلَاطِفُهُ أَوْ يُؤْذِيهِ أَوْ يَفْعَلُ أَعْمَالاً أُخْرَى .

وبينا أَنَا أَذِيرُ الْأَرَائِيَّ فِي إِخْرَاجِ فَصْلِ مِنَ الْجَوَارِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَجْنُونِينَ، إِذْ قَالَ (نابغةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ): صَ، إِنَّ جَرَسَ «التلفون» يَدُقُّ .

قال (أ. ش.): لَا أَسْمَعُ صَوْتاً، وَلَيْسَ هُنَا «تلفون» .

فَاغْتَاظَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ وَقَالَ: إِنَّكَ تَتَفَحَّمُ^(٢) عَلَى النُّوَابِغِ وَلَسْتُ مِنْ قَدَرِهِمْ، وَمَا عَمَلُكَ إِلَّا أَنْ تُنْكِرَ؛ وَالْإِنْكَارُ، وَبِلكَ، أَيْسَرُ شَيْءٍ عَلَى الْمَجَانِينِ وَأَشْبَاهِ الْمَجَانِينِ، وَالْعَامَّةِ وَأَشْبَاهِ الْعَامَّةِ؛ وَقَدْ أَنْكَرْتَ نُبُوْعَهُ أَنْفَاً، وَأَرَاكَ الْآنَ تُنْكِرُ «تلفونه» .

قال (أ. ش.): وَأَيْنَ «التلفون» وهذه هي الْغُرْفَةُ بِأَعْيُنِنَا؟ فَضَحِكَ (نابغةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) وَقَالَ: صَ - وَنَحْكُ - لَقَدْ خَلَّطْتُ عَلَيَّ؛ إِنَّ الْجَرَسَ يَدُقُّ مَرَّةً أُخْرَى، وَأَنَا لَا أَرِيدُ أَنْ أَكْمَلِمَهَا حَتَّى يَطُولَ أَنْتَظَارُهَا، وَحَتَّى تَدُقُّ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، وَأَخْشَى أَنْ تَكُونَ قَدْ دَقَّتِ الثَّلَاثَةُ وَذَهَبَ رَنِيْهَا فِي صَوْتِكَ وَلَعَطِكَ .

(١) تَخَلَّفَ: تَشَكَّلَ . (٢) تَتَفَحَّمُ: تَحْشَرُ نَفْسَكَ، تَدَسُّهَا .

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخِرُ: هِيَ صَاحِبَتُهُ الَّتِي يَهْوَها وَتَهْوَها؛ وَقَدْ أَسْتَهَامَهَا^(١) وَتَيَّمَهَا وَحَيَّرَهَا وَخَبَلَهَا، حَتَّى لَا صَبْرَ لَهَا عَنْهُ، فَوَضَعَتْ لَهُ تَلْفُوناً فِي رَأْسِهِ

قَالَ «النَّابِغَةُ»: وَهَذَا التَّلْفُونُ لَا يُسْمَعُنِي صَوْتُهَا فَقَطْ، بَلْ هُوَ يُنْشِقُّنِي عِطْرُهَا أَيْضاً. وَقَدْ تُكَلِّمُنِي فِيهِ الْمَلَائِكَةُ أَحْيَاناً، وَأَنَا سَاخِطٌ عَلَى هَذِهِ الْحَبِيبَةِ فَإِنَّهَا غَيَّرَتْ خُشْيَ سَطَوَاتِهَا عَلَى أَلَّتَائِي تَغَارُ مِنْهُنَّ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَلِّمْتَنِي فِي هَذَا التَّلْفُونِ إِحْدَى الْحَوَرِ الْعَيْنِ
قُلْنَا: أَوْ تَغَارُ مِنَ الْحَوَرِ الْعَيْنِ؟

قَالَ الْمَجْنُونُ الْكُثَانِي: بَلِ الْأَمْرُ فَوْقَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْحَوَرِ الْعَيْنِ يَشْتُمُّهَا وَيَلْعَنُهَا؛ «فَمِمَّا حَفِظْنَاهُ» هَذَا الْحَدِيثُ: لَا تُؤْذِي أَمْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحَوَرِ الْعَيْنِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللَّهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يَفَارِقَكَ إِلَيْنَا.

قَالَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ): وَيَلِي عَلَى الْمَجْنُونِ إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخْلُوَ لَهُ مَوْضِعِي فَهُوَ يَتَمَنَّى هَلَاكِي وَأَنْتَقَالِي وَشَيْكاً مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا. وَهُوَ يَقُولُ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِأَنَّهُ أَحْمَقُ لَيْسَ لَهُ عَقْدَةٌ مِنَ الْعَقْلِ، فَيَزْعُمُ أَنَّهَا تُؤْذِنِي، وَلَوْ هِيَ آذَنِي لَغَضِبْتَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَوْ غَضِبْتَ لَرَفَعْتَ التَّلْفُونُ. صَهْ إِنَّ الْجَرَسَ يَدُقُّ.

قال ا. ش: إِنَّ لِلنَّوَابِغِ لَشَأْنًا عَجَبًا، فَفِي مَدِيرَةِ الشَّرْقِيَّةِ رَجُلٌ نَابِغَةٌ مَاتَتْ زَوْجَتُهُ وَتَرَكَتْ لَهُ غُلَامًا، فَتَزَوَّجَ أُخْرَى وَهُوَ يَعِيشُ فِي دَارِ أَبِيهِ. فَلَمَّا كَانَ عِيدُ الْأَضْحَى سَأَلَ أَبَاهُ مَا لَا يَتَنَاعُ بِهِ الْأَضْحِيَّةَ فَلَمْ يُعْطِهِ. وَهُوَ رَجُلٌ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، فَذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَرَوَّيَاهُ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُ أَبْنَاهُ، فَخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ هَذَا بَابٌ إِلَى النَّبِوَّةِ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِ، فَأَخَذَ الْغُلَامَ فِي صَبِيحَةِ الْعِيدِ وَهَمَّ بِذَبْحِهِ، وَلَوْلَا أَنْ صَرَخَ الْغُلَامُ فَأَدْرَكَهُ النَّاسُ فَاسْتَقْدَوْهُ . . .

قَالَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ): هَذَا مَجْنُونٌ وَلَيْسَ بِنَابِغَةٍ؛ بَلْ هَذَا مِنْ جُهَلَاءِ الْمَجَانِينِ؛ بَلْ هُوَ مَجْنُونٌ عَلَى حَدِّهِ. وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْبِيْمَارِسْتَانِ فِي حِينِ كُنْتُ أَنَا فِي الْمُسْتَشْفَى . . . فَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَتَمَّرَ فِي ذَبْحِ غُلَامِهِ بِإِرَادَةِ اللَّهِ. وَلَوْ كَانَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ لَنَفَذَتْ بِالدَّبْحِ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ وَحِيًّا لَنَزَلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ كَبِشٌ يَذْبَحُهُ . . . وَهَكَذَا أَنَا فِي الْمَنْطِقِ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ).

(١) استهامها: حملها على حبة.

ثُمَّ إِنَّهُ أَشَارَ إِلَى الْمَجْنُونِ الثَّانِي وَقَالَ : وَأَنَا أَتَقَدَّمُ هَذَا فِي النَّبُوغِ بِأَكْثَرِ مِنْ عِلْمِ الْعُلَمَاءِ فِي خَمْسِ وَسِتِينَ سَنَةً كَامِلَةً .

قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ ذَكَرْتَ هَذَا مِنْ قَبْلِ فَلِمَ عُدْتَ فِيهِ الْآنَ؟

قَالَ : إِنَّ السَّبَبَ قَدْ تَغَيَّرَ فَتَغَيَّرَ مَعْنَى الْكَلَامِ ؛ وَقَدْ بَدَّلَ أَنَّهُ يَتِمَّنِي هَلَاكِي لِيَكُونَ هُوَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ . فَمَعْنَى الْكَلَامِ الْآنَ : أَنَّهُ لَوْ عَاشَ خَمْسًا وَسِتِينَ سَنَةً «يَحْفَظُ الْكُتُبَ» لَمَّا بَلَغَ مِبلَغِي مِنَ الْعِلْمِ . هَذَا رَجُلٌ نِصْفُهُ مَيِّتٌ جَنُونًا مَوْتًا حَقِيقِيًّا ، وَنِصْفُهُ الْآخَرُ مَيِّتٌ جَهْلًا بِالْمَوْتِ الْمَعْنَوِيِّ .

قَالَ أ. ش. : حَسْبُهُ أَنْ يَقْلُدَكَ تَقْلِيدَ الْعَامِيِّ لِإِمَامِهِ فِي الصَّلَاةِ وَعَسَى أَلَّا تَسْتَكْثِرَ عَلَيْهِ هَذَا فَإِنَّهُ يَلْمِيزُكَ .

قَالَ الْمَجْنُونُ الثَّانِي «مِمَّا حَفِظْنَاهُ» : لَوْ صَوَّرَ الْعَقْلُ لِأَصْنَاءٍ مَعَهُ اللَّيْلِ ، وَلَوْ صَوَّرَ الْجَهْلُ لِأَظْلَمٍ مَعَهُ النَّهَارِ . وَنَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ هَذَا لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يُصَلِّي ، فَقَدْ وَقَفَ مِنْذُ أَيَّامٍ يُصَلِّي بِالشَّعْرِ . . . وَلَمَّا رَأَيْتُهُ نَاسِيًا فَذَكَرْتُهُ وَنَبِّهْتُهُ أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَجُوزُ بِالشَّعْرِ ، ائْتَمْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ رَاكِعٌ فَسَبَّيْتُ وَشْتَمْنِي وَصَرَخَ فِيَّ وَقَالَ : مَا شَأْنُكَ بِي؟ هَلْ أَنَا أَصْلِي لَكَ أَنْتَ . . . ؟

فَغَضِبَ «النَّابِغَةُ» وَقَالَ : - وَاللَّهِ - إِنْ تَحْسِبُونِي إِلَّا مَجْنُونًا فَتُرِيدُونَ أَنْ يَقْلِدَنِي هَذَا الْأَحْمَقُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ رَأْيٌ يُمْسِكُهُ . وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَّا أَعْتَقَدْتُمْ أَنَّ تَقْلِيدِي مِنَ السَّهْلِ الْمُمْكِنِ ، وَلَعَرَفْتُمْ أَنَّ نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَطِعْ تَقْلِيدَ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ .

قُلْنَا : هَذَا عَجِيبٌ ، وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

فَضَحِكَ وَقَالَ : لَا أَعِدُّكُمْ مِنْ الْأَذْكِيَاءِ إِلَّا إِذَا عَقَلْتُمْ كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ قَالَ أ. ش. : هَذَا لَمْ يُعْرَفْ مِثْلُهُ فَكَيْفَ نَعْرِفُهُ؟ وَلَمْ يَتَوَهَّمْ أَحَدٌ ، فَكَيْفَ نَتَوَهَّمُهُ؟

قَالَ : لَوْ لَمْ تَكُنْ أَسْتَاذُ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ لَمَّا عَرَفْتَهَا ؛ وَهَذَا نِصْفُ الْأَصْوَابِ ؛ وَمَادُمْتُ أَسْتَاذِي ، فَلَوْ أَنَّنَا اخْتَلَفْنَا فِي رَأْيٍ لَكَانَ خِلَافُكَ لِي صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنْكَ ، وَكَانَ خِلَافِي لَكَ صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنِّي ؛ فَأَنْتَ (غَيْرُ مَخْطِئَةٍ) وَأَنَا مُصِيبٌ ، وَإِذَا اسْقَطْنَا كَلِمَةً (غَيْرِ) أَظَلُّ أَنَا مُصِيبًا وَتَكُونُ أَنْتَ مَخْطِئًا . . .

أَنَا لَمْ أَرِ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) فِي الْأَرْوِيَاءِ ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ فِي الْمِرْآةِ عِنْدَ الْحُلَاقِ . . . وَرَأَيْتُهُ يَقْلُدُنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الْإِشَارَةِ وَالْقَوْمَةِ وَالْفَعْدَةِ وَلَكِنِّي صَرَخْتُ فِيهِ وَسَبَّيْتُهُ فَفَتَحَ فَمَهُ ، ثُمَّ خَافَنِي وَلَمْ يَتَكَلَّمْ . . .

وأوماً إلى المجنون الآخر وقال: وأنا أتقدم هذا في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة.

قال ا. ش: لقد قلّتها مرتين كلناهما بمعنى واحد، فما معنك في هذه الثالثة؟

قال: هذا الغرّ يزعم أنني لا أعرف كيف أصلي، ويستدلّ لذلك بأنني صليت بالشعر وأنني شتمته وأنا راعع؛ ولو كان عاقلاً لعلم أن شتمي إياه وأنا راعع ثواب له... ولو كان نابغة لعلم أن الشعر كان في مدح دولة النحاس باشا وأولي النهى.

قلنا: ولكن الشعر على كل حال لا تجوز به الصلاة ولو في مدح دولة النحاس باشا.

قال: لم أصِلْ به، ولكن خطر لي وأنا أصلي أنني نسيْتُ القصيدة فأردت أن اتحقّق أنني لم أنسها... فإذا أنا نابغة القرن العشرين في الحفظ، وهي ستة أبيات. لا كهذا الممتوه الذي صبر على المتن صبر الغريب على الغربة الطويلة، ومع ذلك لم يحفظه.

قال ا. ش: فأمل علينا هذا الشعر. فأملى عليه.

يا حليف الشهد قل لي	أين من في الدهر خال
إن تكن تهوى غزالا	أحل العينين مال
أنا أمواهها ولكن	لا سبيل إلى الوصال
منذ قلت مهلاً	منذ غابت في خيال
أنا مجنون بليلي	ليل ياليلي! تعال

قلنا: ولكن ليس هذا مدحاً، فضحك وقال: أردت أن تعرفوا أنني أقول في الغزل، أما المديح فهو:

شغف الوري^(١) بمناصب وأمانى وشغفت يانحاس بالأوطان
حسبوا الحياة تفاخراً وتنعماً وحسبتّها إليه والأوطان
ثم أرتج^(٢) عليه فسكت. قال المجنون الآخر: إنها ستة أبيات، وقد نسيْتُ أربعة، ولست أريد أن أذكرك:

(٢) أريج: أغلق.

(١) شغف الوري: اشتد حب الناس.

فقال (النابعة): أظنه قد حان وقت الصلاة وأريد أن أصلي... ونظر إلى
 اللاشيء في الفضاء، ثم قال. وألبت الأخير:
 لا أبتغي في المذبح غير أولى انتهى أو صادق أو شوقي أو مطران
 ثم أمر ا. ش. أن يقرأ عليه الشعر فقرأه، فقال: أحسنت، انظر إلى فوق.
 فنظر، ثم قال: انظر إلى تحت. فنظر ثم سكت.
 قال ا. ش.: وبعد؟ قال: وبعد فإن الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى
 تحت...

وكان الضجر قد نال مني، فرجوت ا. ش. أن يلبث معهما وأذنت لنابعة
 القرن العشرين أن يلقاني في الندى وأنصرفت.

قال ا. ش. وهو يُبشني: فما غبت عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع
 ويقول: لقد حاق بي الظلم، وإن (الرافعي) رجل عسوف ظالم، لأنني أكتب له كل
 مقالاته التي ينشرها في (الرسالة)... وأجمع نفسي لها، وأجهد في بيانها، وأذيب
 عقلي فيها، وهو مستريح وادع، وليس إلا أن ينتجها^(١) ويضع توقيعها عليها،
 ويبعث بها إلى المجلة، ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة، ولا يدفع لي عن
 كل مقالة إلا قرشين...

قال ا. ش.: فما بمنعك أن ترسل أنت هذه المقالات إلى المجلة فتقبض فيها
 الذهب؟ قال: إن هناك أسراراً أنا مُحصيتها وكاتمها، ولا ينبغي أن يعلمها أحد فإنها
 أسرار... قال له: فدع (الرافعي) وأكتب لي أنا هذه المقالات، وأنا أعطيك في
 كل مقالة ذهبن لا قرشين.

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتب إلا للرافعي، لأن (نابعة القرن العشرين)
 لا يجوز أن يدعى كلامه إلا أستاذ نابعة القرن العشرين، ولو ادعاه غيره لكان هذا
 خطأ من قدر نابعة القرن العشرين، وهذا بعض الأسرار لا كل الأسرار...
 قلت: ثم جاء المجنونان في العشيّة إلى الندى.

(١) ينتجها: ينسجها لنفسه.

المجنون

٣

وَكُنَّا فِي النَّدَى ثَلَاثَةً: أَنَا، وَآ. ش. وَس. ع؛ وَقَدْ هَيَّأتُ تَدْبِيرًا تَوَافَقْنَا عَلَيْهِ لِتَحْرِيكِ هَذَيْنِ الْمَجْنُونَيْنِ، وَتَدْوِينِ مَا يَجِيءُ مِنْهُمَا. فَلَمَّا أَقْبَلَا تَحَقُّقُنَا^(١) بِهِمَا وَالْطَّفَنَاتُهَا، وَقُمْنَا ثَلَاثَتُنَا بِنَسْطِهِمَا وَإِكْرَامِهِمَا، حَتَّى حَسِبْنَا أَنَّ فِي كَلِمَةِ «مَجْنُون» مَعْنَى كَلِمَةِ أَمِيرٍ أَوْ أَمِيرَةٍ. وَرَأَيْتُ فِي عَيْنِي «نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ» - وَهُوَ أَغْيَنُ أَنْجَلُ^(٢) - مَا لَوْ تَرَجَّمَتْهُ لَمَّا كَانَتْ الْعِبَارَةُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ نَفْسًا أَنْتَى أَعْشَقُهَا أَنَا. . . فَكَانَ مُسَدِّدًا^(٣) فَكَّةَ اللِّسَانِ، تُسْتَمْلَحُ لَهُ النَّادِرَةُ، وَتُسْتَظَرَفُ مِنْهُ الْحَرَكَةُ.

وَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهُ الْغُرُورُ، وَاحْتِاجَ الْجَنُونُ كَمَا يَحْتَاجُ الْجَمَالُ إِلَى كِبْرِيَائِهِ إِذَا حَاطَتْهُ الْأَعْيُنُ - أَدَارَ بَصَرَهُ فِي الْمَكَانِ، ثُمَّ قَالَ: أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَصْبِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا النَّدَى فِي ضَوْضَائِهِ وَرُعَاعِيهِ وَعَوْغَائِهِ. إِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا أَخْلَاطٌ وَأَوْشَابٌ وَخُثَالَةٌ. هَذَا الْجَالِسُ هُنَاكَ. هَذَا الْوَاقِفُ هُنَاكَ. هَذَا الْمُسْتَوْفِزُ. هَذَا الْمُتَقَابِلَانِ. هَؤُلَاءِ الْمَجْتَمِعُونَ. هَذَا كُلُّهُ خَيَالٌ حَقِيقَةٌ فِي رَأْسِي. مَا هِيَ؟ مَا هِيَ؟

هَذَا النَّصَائِيحُ الْمُنْكَرُ. هَذَا الْقَضْرُبُ بِحِجَارَةِ الْتُرْدِ. هَذِهِ الرَّحْمَةُ الَّتِي أَنْغَمَسْنَا فِيهَا. هَذَا الْمَكَانُ الْهَائِجُ مِنْ حَوْلِنَا. هَذَا كُلُّهُ خَيَالٌ حَقِيقَةٌ فِي رَأْسِي. هِيَ، هِيَ، هِيَ.

فَأَنْزَعَجَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ، وَوَقَعَ فِي تَهَاوِيلِ خَيَالِهِ، وَنَظَرَ إِلَيْنَا تَدْوَرُ عَيْنَاهُ، وَتَوَجَّسَ^(٤) شَرًّا، ثُمَّ زَاغَ بَصَرُهُ إِلَى أَلْبَابِ، وَأَسْتَوْفَزَ وَجَمَعَ نَفْسَهُ لِلْقِيَامِ؛ فَلَمَّا رَأَى صَاحِبَهُ مَا نَزَلَ بِهِ، فَهَقَّةً وَأَمْعَنَ فِي الضَّحْكِ وَقَالَ: إِنَّمَا خَوْفَتُهُ الصَّبِيَّانِ وَالضَّرْبَ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ أَنَّهُ مَجْنُونٌ. . .

(٣) مُسَدِّدًا: مَوْفَقًا.

(١) تَحَقُّقًا: رَحَبًا.

(٤) تَوَجَّسَ: احْتَسَبَ الشَّرَّ قَبْلَ وَقُوعِهِ.

(٢) أَغْيَنُ أَنْجَلُ: وَاسِعَ الْعَيْنِ أَنْجَلُهَا.

فَحَرِّدِ الْآخَرَ وَأَعْتَاطْ وَجْعَلْ يُتِمِّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ .

قَالَ «الْنابِغَةُ»: مَا كَلَامٌ تَطْلُبُ بِهِ طَنِينَ الذَّبَابَةِ أَيُّهَا الْخَبِيثُ؟

قال: «مِمَّا حَفَظْتَاهُ»: أَنَّ مِنْ عِلَامَاتِ الْأَحْمَقِ أَنَّهُ إِذَا اسْتَنْطَقَ تَجَلَّفَ، وَإِذَا بَكَى خَارَ، وَإِذَا ضَحِكَ نَهَقَ. كَمَا فَعَلْتَ أَنْتِ السَّاعَةُ، تَقُولُ: هَاءٌ، هُوَ، هِيَءٌ...
فَتَغَيَّرَ وَجْهُ «الْنابِغَةُ»، وَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةً مُنْكَرَةً، وَهَمَّ أَنْ يَقْتَحِمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ:
أَيُّهَا الْمَجْنُونُ، لِمَاذَا تُضْطَرُّنِي إِلَى أَنْ أُجِيبَكَ جَوَابَ مُجْنُونٍ... لَا نَجُوزُ أَنْ نَجُوزَ مَتَى!

فَاسْرِعِ أ. ش، وَأَمْسِكِي بِهِ؛ وَأَعْتَرِضِي مِنْ دُونِهِ س. ع، وَقَالَ لَهُ: أَنْتِ بَدَأْتَهُ
وَالْأَبَدِيءُ أَظْلَمُ.

قال: وَلَكِنْ - وَيَحَهُ - كَيْفَ قَالَ هَذَا؟ كَيْفَ لَمْ يَقُلْ إِلَّا هَذَا؟ كَيْفَ لَمْ يَجِدْ إِلَّا
هَذَا يَقُولُهُ؟ أُنَابَهُ الْقَرْنُ الْعَشْرِينَ أَحْمَقُ، وَقَدْ أَوْحَدَهُ الْكَلُّ فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ؟
لَهَمَنْتُ - وَاللَّهِ - أَنْ أَكْبِرَ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ؛ فَمَا يَقُولُ إِلَّا أَنِّي أَحْمَقُ الْقَرْنِ
الْعَشْرِينَ...

قُلْتُ: إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الَّذِي أَغْضَبَكَ مِنْهُ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «لَيْسَ مِنْ
أَحَدٍ إِلَّا وَفِيهِ حَمَقَةٌ، فِيهَا يَعِيشُ». وَالْحَيَاءُ نَفْسُهَا حِمَاةٌ مَنْظُمَةٌ تَنْظِيمًا عَاقِلًا؛ وَمَا
يَقْبَلُ الْإِنْسَانُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ لَذَائِهَا إِلَّا هُوَ مُقْبِلٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْ حِمَاةِهَا، وَأَمْتَعُ الْكَلَّةِ
مَا طَاشَ فِيهِ الْعَقْلُ وَخَرَجَ مِنْ قَانُونِهِ؛ وَلَوْلَا هَذَا الْأَحْمَقُ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ لَمَا
أَحْتَمَلَ طَبِيعَةُ الْحَيَاةِ، أَلَيْسَ يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّ أَكْثَرَكَ غَائِبٌ عَنِ الدُّنْيَا وَأَقْلَبُكَ حَاضِرٌ
فِيهَا، وَأَنْ يَقْطَعَكَ الْحَقِيقَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْحُلْمِ وَمَا يُشْبِهُ الْحُلْمِ، كَأَنَّكَ خُلِقْتَ فِي
كَوْكَبٍ وَهَبَطْتَ مِنْهُ إِلَى كَوْكَبِنَا هَذَا، فَمَا فِيكِ لِلْأَرْضِ وَلَا فِيهَا لَكَ إِلَّا الْقَلِيلُ بِلَتِيْمُ
بَعْضُهُ بَعْضُهُ، وَأَكْثَرُكُمْ مُتَنَافِرٌ أَوْ مُتَنَافِضٌ أَوْ مُتَرَاجِعٌ؟

قال: بَلَى.

قُلْتُ: فَهَذَا الْقَلِيلُ هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي بِهَا تَعِيشُ، وَهُوَ أَرْضِيَّةُ الْأَرْضِ فِيكِ؛ أَمَا
سَمَاوِيَّةُ السَّمَاءِ فَبَعِيدَةٌ لَا تَحْتَمِلُهَا طَبِيعَةُ الْأَرْضِ؛ وَلِهَذَا يَعِيشُ أَهْلُ الْحَقِيقَةِ عِيشَ
الْمَجَانِينِ فِي رَأْيِ الْمَغْرُورِينَ الَّذِينَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الْفَانِيَّةُ، أَوْ الْمَخْدُوعِينَ الَّذِينَ
خَدَعَتْهُمْ الظُّوَاهِرُ الْكَاذِبَةُ؛ فَكَلَّمَا اتَّوَا عَمَلًا مِنَ الْأَعْمَالِ السَّامِيَةِ أَنْتَهَى إِلَى الْحَقْمَى

معكوساً أو مُحَوَّلاً أو معدولاً به؛ ولعلَّ هذا أصحُّ تفسيرٍ للحديث الشريف: «أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلَه».

قالَ المَجْنُونُ الْآخِرُ: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ»: أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَه.

فَقَالَ (الْنايِغَةُ): الْمَصِيبَةُ فِيكَ أَتْلُكَ أَنْتَ هُوَ أَنْتَ؛ أَلَا فَلْتَعْلَمْ أَنَّكَ مِنْ بُلَهَاءِ الْبِمَارِسْتَانِ لَا مِنْ بُلَهِ الْجَنَّةِ . . .

قُلْتُ: ثُمَّ إِنَّ الْمَوْتَ لَا بَدْءَ آتٍ عَلَى النَّاسِ جَمِيعاً، فَيَسْلُبُهُمْ كُلَّ مَا نَالُوهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَيُلْحِقُ مَنْ نَالَ بِمَنْ لَمْ يَنْلَ؛ فَمَنْ ذَا الَّذِي يُسَرُّ بِأَنْ يَنَالَ مَا لَا يَبْقَى لَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ سُرُورُهُ مِنْ حِمَاقَتِهِ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَحْزَنُ عَلَى أَنْ يَفُوتَهُ مَا لَا يَبْقَى لَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ حُزْنُهُ حِمَاقَةً أُخْرَى؟ وَأَيُّ شَيْءٍ فِي الْحُبِّ بَعْدَ أَنْ يَنْقُضِيَ الْحُبُّ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ حِمَاقَةً ضَرَبَتْ فِي الْحَوَاسِّ كُلِّهَا مَلَأَتْ النَّفْسَ؛ ثُمَّ مَلَأَتْ النَّفْسَ حَتَّى فَاضَتْ عَلَى الزَّمَنِ؛ ثُمَّ فَاضَتْ عَلَى الزَّمَنِ حَتَّى خَبَلَتْ الْعَاشِقَ تَخْبِيلاً لِدَيْدَا تَصْغُرُ فِيهِ الْأَشْيَاءُ وَتَكْبُرُ، وَيَجْعَلُ الْوَاقِعَ فِي النَّفْسِ غَيْرَ الْوَاقِعِ فِي دُنْيَاهَا؟ يُشَبُّهُ كُلُّ عَاشِقٍ حَبِيبَتَهُ بِالْقَمَرِ: فَهَبِ الْقَمَرَ سَمِعَ هَذَا وَقَهْمَهُ وَعَنَاهُ أَنْ يُجِيبَ عَنْهُ، فَمَاذَا عَسَاءُ يَقُولُ إِلَّا أَنْ يُعْجَبَ مِنْ هَذَا الْحَمَقِ فِي هَذَا التَّشْبِيهِ؟

فَهَذَا (الْنايِغَةُ) وَسَكَنَ غَضْبُهُ وَقَالَ: صَدَقْتَ، وَلِهَذَا أَنَا لَا أَشَبُّهُ حَبِيبَتِي بِالْقَمَرِ.

قُلْتُ: فَمَاذَا تُشَبِّهُهَا؟

قَالَ: لَا أَقُولُ لَكَ حَتَّى أَعْلَمَ بِمَاذَا تُشَبُّهُ أَنْتَ حَبِيبَتِكَ. قُلْتُ: وَأَنَا كَذَلِكَ لَا أَشَبُّهَا بِالْقَمَرِ.

قَالَ: فَمَاذَا تُشَبِّهُهَا؟ قُلْتُ: حَتَّى أَعْلَمَ بِمَاذَا تُشَبُّهُ أَنْتَ . . .

قَالَ: هَذَا لَا يُرْضَى مِنْكَ وَأَنْتَ أَسْتَاذُ (نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ)، وَلَكَ حَبَائِبُ كَثِيرَاتٌ عَدَدَ كَتَبِكَ، وَقَدْ أَعْجَبْتَنِي مِنْهُنَّ تِلْكَ الَّتِي فِي (أَوْرَاقِ الْوَرْدِ)، وَأَظْلُكَ أَحَبِّتُهَا فِي شَهْرِ مَآيُو مِنْ سَنَةِ . . . مِنْ سَنَةِ . . .

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخِرُ: مِنْ سَنَةِ ١٩٣٥؛ هَآنُذَكَ قَدْ نَبَهْتُكَ.

قَالَ: يَا وَيْلَكَ! إِنَّ (أَوْرَاقَ الْوَرْدِ) ظَهَرَتْ مِنْ بَضْعِ سَنِينَ، إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ بُلَهَاءِ الْبِمَارِسْتَانِ لَا مِنْ بُلَهِ أَوْرَاقِ الْوَرْدِ . . . مَاذَا كُنْتُ أَقُولُ؟

قال ١. ش : كنت تقول : هذا لا يُرضى منك ولك حبايب كثيرات .

قال : نعم ، لأنك إذا شبّهت واحدةً منهنّ بالقمر ، انتهى القمرُ وفرغَ التشبيهُ فيظلُّ الأخرى بلا قمر . . ثم إن كلمة القمر لا تُعجبني ، فلونها أدكن^(١) مُغبرٌ يَضْرِبُ أحياناً إلى الأسود . . فإذا عَشِقتَ رَنجِيّةً فهنا محلُّ التشبيهِ بالقمر . . أمّا البيضُ الرُعائِبُ فتشبيههُنَّ بالقمر من فسادِ الذوق .

قال س . ع : ولِلألفاظِ ألوانٌ عندك ؟

قال : لو كنت نابعةً لأبصرتُ في داخلِك أخيلةً منَ الجُنة ؛ ألم يقلُ أستاذنا أنفاً عن (نابغةِ القرنِ العشرين) : إنّه هبطَ من كوكبٍ إلى كوكبٍ ؟ ففي كوكبنا الأولِ يكونُ لنا سَمْعٌ ملوّنٌ ؛ وجسٌ ملوّنٌ نسمعُ قرعَ الطبلِ أزرق ، ونفخَ البوقِ أحمر ، وزينَ النغمِ الحلوِ أخضر ، والوجودُ كلُّهُ صوَرٌ ملوّنٌ ، سواءً منه ما يَرى وما يَحسُّ ، وما هو مُستَخْفٍ وما هو ظاهر .

ثم أوماً إلى المجنونِ الآخرِ وقال : وأسَمُ هذا أَلْبَلِهْ كلفِظِ الجبر : لا أسمعُهُ إلا أسود . .

وسكّنتُ «النابغة» وسكّنتها ؛ فقال له س . ع . مالك لا تتكلّم ؟ قال : لأنّي أريدُ السكوت . قال : فلماذا تُريدُ السكوت ؟ قال : لأنّي لا أريدُ أن أتكلّم . .

وتحرّك في نفسه الغيظُ منَ المجنونِ الآخرِ ، فرمى بعينه الفضاءَ ينظرُ الأشياءَ وقال : إذا أصبحَ كلُّ النساءِ ذواتٍ لِحى أصبحَ هذا عاقلاً . . فدقَّ الآخرُ برجلِهِ دقاتٍ معدودة ؛ فتأرَّ (النابغة) وقال : من هذا يشتمني ؟

قال : س . ع : لم يشتمك أحد ، هذا خَفَقَ رجلٍ على الأرض .

قال : بل شتمني هذا الخبيثُ ، وسَمِعِي لا يَكْذِبُنِي أبداً ، وأنا رجلٌ ظَنُونٌ ، أسيءُ الظنَّ بكلِّ أحد ، وعلامةُ الحازمِ «العاقلِ» سوءُ ظنّه بالناس . فهنّه كما قلتُ قد خَفَقَ بنعلِهِ ، أو خَبَطَ برجلِهِ ؛ فهو ما يعني من ذلك ، وأنا أسمعُ ما يعنيه . لقد طَفَحَ^(٢) أشعُرُ على قلبي فلا بدّ لي من هجائه ، ولا بدّ لي أن أدبّحه ولو بالكلام ، فإنّي إذا هَجَوْتُه رأيتُ دمه في كلماتي ، وأريدُ أن أجعله كالغُرِّ أَلْتِي كائنٌ عندنا وذبحناها .

ثم أنتزعُ قلم س . ع ، وقال : هذه هي السكّين . ولكن أسألك يا أستاذي أن

(٢) طَفَحَ : فاض .

(١) الدكنة : اللون ما بين الحمرة والوساد .

تذبحه أنت بكلمتين وتصف له جنونه، فقد عَزَبَ^(١) عني الشعر... إِنَّ خَفَقَةَ رِجْلٍ
على الأرض تستطيرُ الأرانِبَ فَرَعَا؛ فيَنفِرْنَ إلى أَجْحَارِهِنَّ ويتَهَارِضْنَ، وما كَانَتْ
أبيات الشعر في ذهني إلَّا أَرَانِب..

أنتم لا تعرفون أَنَّ مَنْ كَانَ حَصِيْفًا^(٢) ثَبِيْتًا مثلي، كَانَ دَقِيقَ الْحِسِّ؛ وَمَنْ كَانَ
قَدَمًا^(٣) غَبِيًّا مِثْلَ هَذَا، كَانَ بَلِيدَ الْحِسِّ غَلِيظًا كَثِيْفًا؛ فَإِذَا أَنَا أَسْتَشْعِرْتُ الْبَرْدَ رَأَيْتُنِي
قَدْ سَافَرْتُ إِلَى الْقُطْبِ الشَّمَالِي؛ أَمَا هَذَا الْمَجْنُونُ فَهُوَ إِذَا أَسْتَشْعَرَ بَرْدًا سَافَرَ إِلَى
عِبَاءَتِهِ أَوْ لِحَافِهِ.. إِذْ هُوَ لَا يَعْرِفُ جُغْرَافِيَا، وَلَا يَدْرِي مَا طَحَّاهَا.

قُلْتُ: هَذَا مِنْكَ أَطْرَفٌ مِنْ نَادِرَةِ أَبِي الْحَارِثِ. قَالَ: وَمَا نَادِرَةُ أَبِي الْحَارِثِ؟
وَهَلْ هُوَ نَابِغَةٌ؟

قُلْتُ: جَلَسَ يَتَغَدَّى مَعَ الرَّشِيدِ وَعَيْسَى بْنِ جَعْفَرٍ، فَأَتَيْتُ بِخَوَانٍ^(٤) عَلَيْهِ
ثَلَاثَةُ أَرْغِفَةٍ، فَأَكَلَ أَبُو الْحَارِثِ رَغِيْفَةً قَبْلَهُمَا، وَالرَّشِيدُ مَلِكٌ عَظِيمٌ: لَا يَأْكُلُ أَكْلَ
الْجَانِعِ، وَإِنَّمَا هُوَ التَّشْعِيبُ مِنْ هُنَا وَهَنَا؛ فَكَأَنَّ رَغِيْفَهُ لَا يَزَالُ بَاقِيًّا؛ فَصَاحَ أَبُو
الْحَارِثِ فَجَاةً: يَا غَلَامَ، فَرَسِي. فَفَزَعَ الرَّشِيدُ وَقَالَ: وَيْلَكَ مَا لَكَ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ
أَرْكَبَ إِلَى هَذَا الرَغِيْفِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ..

قَالَ (النَابِغَةُ): وَلَكِنْ فَرَقًا بَيْنَ أَبِي الْحَارِثِ وَبَيْنَ (نَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ)، فَإِنَّ
مَنْ الْعَجَائِبِ أَنِّي رُبَّمَا نَظَرْتُ إِلَى الرَّجُلِ وَهُوَ يَأْكُلُ فَأَجِدُ الشَّبْعَ، حَتَّى كَأَنَّهُ يَأْكُلُ
بِطْنِي لَا بَيْطَنَهُ، وَلَكِنْ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ هَذَا لَا يَتَّقِي لِي أَبَدًا حِينَ أَكُونُ جَانِعًا...
أَمَّا هَذَا الْمَجْنُونُ الَّذِي أَمَامَنَا، فَرُبَّمَا أَبْصَرَ الْجِمَارَ عَلَى ظَهْرِ الْجَمَلِ، فَيَشْعُرُ
كَأَنَّ الْجَمَلَ عَلَى ظَهْرِهِ هُوَ لَا عَلَى ظَهْرِ الْحِمَارِ.

قَالَ الْآخَرُ: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ»: أَنَّهُ سُرِقَ لِأَعْرَابِي جِمَارٍ، فَقِيلَ لَهُ أَسْرَقَ حِمَارَكَ؟
قَالَ: نَعَمْ، وَأَحْمَدُ اللَّهِ. فَقِيلَ لَهُ: عَلَى مَاذَا تَحْمَدُهُ؟ قَالَ: عَلَى أَنِّي لَمْ أَكُنْ عَلَيْهِ
حِينَ سُرِقَ.. فَأَنَا إِذَا رَأَيْتُ جِمَارًا مَثْقَلًا الظَّهْرِ، حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَى أَنَّ الْجَمَلَ لَمْ
يَكُنْ عَلَيَّ، لَا كَمَا يَقُولُ هَذَا. ثُمَّ دَقَّ بِرِجْلِهِ دَقَاتٍ..

فَأَسْتَشَاطُ (النَابِغَةُ) وَقَالَ: أَسْمَعْتُمْ كَيْفَ يَقُولُ إِنِّي مَجْنُونٌ، ثُمَّ لَا يَكْتَفِي بِهَذَا
بَلْ يَقُولُ إِنِّي جِمَارٌ عَلَى ظَهْرِ الْجَمَلِ؟

(٣) قدمًا: جبانًا غيبًا.

(٤) خوان: مائدة الطعام.

(١) عزب: غرب.

(٢) حصيفًا: عاقلًا رزينًا.

قلت: ينبغي أن تتكافأ، وهذا لا يعيبك منه ولا يعيبك منك، فإن من تواضع «النوابغ» أن يشعروا بيوأس الحيوان، فإذا شعروا بيوأس دخلتهم أرقه له، فإذا دخلتهم أرقه صار خيال الجمل جملًا على قلوبهم أرقية؛ وقد يصنعون أكثر من ذلك: حكى الجاحظ عن ثمامة قال: كان (نابغة) يأتي ساقية لنا سحرًا؛ فلا يزال يمشي مع دابتها ذاهبًا وراجعًا في شدة الحر أيام الحر، وفي البرد أيام البرد، فإذا أمسى تواضًا وقال: اللهم أجعل لنا من هذا ألهم فرجًا ومخرجًا. فكان كذلك إلى أن مات!

قال المجنون الآخر: «مِمَّا حفظناه»: ثمرة الدنيا السرور، ولا سرور للعقل، فلو لم يكن هذا عقل العقلاء لما محق سروره في الدنيا هذا المحق إلى أن مات غمًا، رحمه الله!

قال: س. ع. فأعف الآن عن صاحبك ولا تذبخه بالهجة.

قال: لقد ذكرتني من نسيان، وهذا المجنون يرى نسياني من مرض عقلي، وكان الوجه - لو تهدي إلى الحقيقة - أن يراه شذوذًا في العقل، أي نبوغًا عظيمًا كنوع ذلك الفيلسوف الذي أراد أن يتثبت في كم من الزمن تسلق البيضة؛ فأخذ بيده الساعة وبيده الأخرى بيضة، ثم نسي نسيان النبوغ، فألقى الساعة في الماء على النار، وثبت عينه على البيضة ينظر فيها على أنها هي الساعة. ولو قد رآه هذا الأبله لرعمه مجنونًا كما يزعمني، فإن المجانين يزرون العقل مرضى بمواهبهم وأعمالهم التي يعملونها.

وأنا فليس يهيجني شيء ما تهجينني كلمات ثلاث: أن يقال لي مجنون، أو أبله، أو أحمق. فمن رغب في صحتي فليتنجب هذه الثلاث كما يتجنب الكفر والكفر والكفر.

قال أ. ش: فإذا قيل لك مثلاً. مثلاً. أي على التمثيل: مغفل.

فحك رأسه قليلاً وقال: لا، هذه ليست من قدري.

قلت: فبعض الكلمات إذا قطعت عندك غير الحقائق، كذلك القرن الذي قطع فرد البقرة فرسًا؟

قال: وكيف كان ذلك؟

قُلْتُ: زعموا أنَّ أعرابياً خرَجَ إخْوَتُه يشترونَ خيلاً، فخرَجَ معهم فجاءَ بعجلٍ يقودُه؛ فقبلَ له: ما هذا؟ قال: فرسٌ أَشترَيْتُه. قالوا: يا مائق^(١) هذه بقرة، أما ترى قرنيها؟

فرجعَ إلى منزلِهِ ففقطَعَ قرنيها، ثُمَّ قَادَهَا إِلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: قد أعدْتُها فرساً كما تُريدون..

قالَ (النابغة): هذا غيرُ بعيد، فقد رأيتُنا حينَ ذبحنا العنَزَ وكسرتُنا قرنيها أعدناها كلبَةً سوداء، فتقلَّدَتْها وعَفَّتْ لحمَها ولم أطعمْ منها.

ثُمَّ أومأَ إلى الآخرِ وقال: هذا لا يدري ما طَحَّاهَا، وهو مثل العنَز: تحسبُ قرنيها للقتالِ والنُّطاحِ ومنهما تُمسِكُ لِلذَّبْحِ؛ فقلْ في هذا يا أستاذَ (نابغةِ القرنِ العشرين).

قُلْتُ لِلْآخِرِ: أُبرِضِكَ أَنْ أَقولَ في المَعْنَى لا فيكَ أنت...؟ قال: نعم. فكتبتُ هذه الأبيات على ما يُريدُ النابغة:

قُلْ لِعَنْزٍ نَاطِحَاها لِقَتَالٍ سَالِحَاها
مالها قد طَرَحَاها في يَدَيْنِ ذَبَحَاها؟

شَيْمَةٌ مِنْي نَحَاها عقلُ غِرٍّ^(٢) قَلَحَاها
ليسَ يدري ما طَحَّاهَا^(٣) بل يَرى شَمْسَ ضَحَاها
خَجراً مِثْلَ رَحَاها وَيَرى أَلِيلَ مَحَاها
ظُلماً طَالَتْ لِحَاها

وسُرَّ (النابغة) وأزدهى، وجعلَ يقول: طَالَتْ لِحَاها، طَالَتْ لِحَاها. وما كانَ هذا إلا السُرورُ الأصغر؛ أما سرورُهُ الأكبرُ فمجيءُ ساعي (البريدِ المُستعجلِ) إلى أُنْدِي، وفي يَدِهِ رسالةٌ عنوانُها: نابغةُ القرنِ العشرين فلان، بنديّ كذا.

وجعلَ الرَّجُلُ يهتَفُ بالعنوانِ يسألُ عن صاحِبِهِ؛ فتطاوَلَتْ أعناقُ الناسِ، ورفعوا أَبصارَهُم ينظرونَ إلى (نابغةِ القرنِ العشرين) وقد مَدَّ يَدَهُ يتناولُ الرِّسالةَ

(١) مائق: أحمق.

(٢) غِر: أحمق، لا تجربة له.

(٣) طحَّاهَا: بسطها وسهلها ومَدَّها.

وكانه ملك من القدماء أسقط له كتاب بالفتح العظيم وبضم دولة إلى دولته .
ثم ترك الرسالة بين أصابعه يقلبها ولا يفضها^(١) ونحن في دهشة من أمره ؛
فنظر فيها المجنون وقال له : هذا عجيب يا أخي ، كيف هذا؟ إن هذا لا يصدق ؛
إنك لم تلقها في صندوق البريد إلا منذ ساعة . .

(١) يفضها: يفتحها.

المجنون

٤

وضاق «نابغة القرن العشرين» بِحُمَيِّ الْمَجْنُونِ الْآخِر؛ وَرَأَتْ دَاهِيَةً دَوَاوِ، كُلَّمَا تَعَاقَلَ أَوْ تَحَادَقَ^(١) لَمْ يَأْتِ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ يَكْشِفَ عَنْ جُنُونِهِ هُوَ: فَلَا يَبْرَحُ يُجْرِعُهُ الْغَيْظُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَلَا يَزَالُ كَأَنَّهُ يَسُبُّهُ فِي عَقْلِهِ؛ فَأَرَادَ أَنْ يَحْتَالَ لِصَرْفِهِ عَنِ الْمَجْلِسِ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ أَلْسَالَةَ أَلْتِي جَاءَ بِهَا (أَلْبَرِيدُ الْمُسْتَعْجَلُ) وَقَالَ لَهُ: خُذْ هَذِهِ فَأَذْهَبْ فَأَلْقِهَا فِي دَارِ أَلْبَرِيدِ، فَسِجِيءُ بِهَا أَلْسَاعِي مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ تَذْهَبُ أَلثَانِيَةً فَتُلْقِيهَا، وَيَعُودُ فِيجِيءُ بِهَا، وَتَكُونُ أَنْتِ تَذْهَبُ وَيَكُونُ هُوَ يَجِيءُ، فَنَضْحُكَ مِنْهُ وَيَضْحَكُونَ.

قال س. ع: ولكن كم يذهب هذا وكم يجيء ذاك؟

فغمزهُ (أَلْنَابِغَةُ) بِعَيْنِيهِ أَنْ أَسْكُتَ؛ فَتَعَاقَلَ س. ع، وقال: كم تُرِيدُ أَنْ يَجِيءَ أَلْسَاعِي لِيَهْتَفَ بِنَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ؟

قال الْمَجْنُونُ الْآخِر: هَذَا هُوَ أَلْرَأْيِ، فَلَسْتُ قَائِمًا حَتَّى أَعْرِفَ كَمْ مَرَّةً أَذْهَبُ؛ فَإِنْ أَلْسَاعِي لَا يَجِيءُ إِلَّا رَاكِبًا، وَأَنَا لَا أَذْهَبُ إِلَّا رَاجِلًا، وَإِنْ لِي رَجُلِي إِنْسَانٍ لَا رَجُلِي دَابَّةٌ..

قال (أَلْنَابِغَةُ): سَبْحَانَ اللَّهِ؟ بِقَلِيلٍ مِنَ الْجُنُونِ يَخْرُجُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْنُونًا كَامِلًا مُسْتَلَبًا أَلْعَقْلَ. بَيِّنْ أَنَّهُ لَا يَأْتِي أَلْنَابِغَةُ إِلَّا مِنْ كَثِيرٍ وَكَثِيرٍ، وَمِنْ أَلَنْبُوغٍ كُلِّهِ بِجَمِيعِ وَسَائِلِهِ وَأَسْبَابِهِ عَلَى تَعَدُّدِهَا وَتَفَرُّقِهَا وَصُعُوبَةِ أَجْتِمَاعِهَا لِلْإِنْسَانِ وَاحِدٍ (كِنَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ)، فَهُوَ أَلَّذِي تَوَافَتْ إِلَيْهِ كُلُّ هَذِهِ أَلْأَسْبَابِ، وَتَوَارَثَتْ فِيهِ كُلُّ تِلْكَ أَلْجَلَالِ. إِنَّهُ لَيْسَ أَلْأَشْأَنُ فِي أَلْعِلْمِ وَلَا فِي أَلتَّعْلِيمِ؛ وَلَكِنَّمَا أَلْأَشْأَنُ فِي أَلْمُوَهَبَةِ أَلَّتِي تُبَدِّعُ

(١) تحاذق: تذاكى.

الابتكار، كموهبة (نابغة القرن العشرين)، فيها تجيء أعماله منسجمة دالة بنفسها على نفسها؛ ومتميزة مع كونها منسجمة دالة بنفسها على نفسها؛ ومتلائمة مع كونها متميزة دالة بنفسها على نفسها. . .

هذا س. ع، كان الأول بين خريجي مدرسة دار العلوم، مدرسة الأدب والعربية، والمنطقي والتحدثي، وبلاغة اللسان وصحة النظر؛ وهو يعرف أن الكتاب يلقي في البريد وعليه طابع واحد، فيصل إلى غايته بهذا الطابع، ثم يرى بعيني رأسه أربعة طابع على هذه الرسالة المَعنونة باسم (نابغة القرن العشرين)، فلا يدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصل إليّ أنا أربع مرات.

فطرب المجنون الآخر، وأهتز في مجلسه، وصفق بيديه، وقال: «مما حفظناه» هذا الحديث: «يُحَاسِبُ اللَّهُ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عَقُولِهِمْ». فلا تؤاخذ س. ع، فإن مدرسة دار العلوم تعلمهم: «فيها قولان»، وفيها ثلاثة أقوال، وفيها أربعة أوجه، ولكنها لا تعلمهم فيها أربعة طابع. .

ثم ألفت إلى س. ع، وقال له: لا عليك، فأنا صاحبه وخليطه، وحامل علمه وروايه أدبه، وأكبر دُعَايِهِ وَثِقَاتِهِ، وما علمت هذه الحكمة منه إلا في هذه الساعة.

قال ا. ش: فإذا كان هذا، فإن لِقَائِي أَنْ يَقُولَ: لماذا لم يضع على كتابه عشرة من الطابع، فيجيب به الساعي عشر مرات.

قال (النابغة): وهذا أيضاً. . . ؟

وما شرُّ الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصحبن؛ إنَّ الشَّمعَةَ في يد العاقل تكون للضوء فقط، ولكنها في يد المجنون للضوء وإحراق أصابعه. كم الساعة الآن؟

قلنا: هي التاسعة.

قال: ومتى ينصرف أهل هذا الندي؟

قلنا: لتمام الثانية عشرة.

قال: فإذا كان الساعي يتردد في كل ساعة مرة، فهي أربع مرات إلى أن ينفض المجتمعون^(١) هنا، وبين ذلك ما يكون قد ذهب قوم عرفوا (نابغة القرن

(١) ينفض المجتمعون: يتفرقون.

العشرين)، وجاء قومٌ غيرهم فيعرفونه . وأما بعدَ ذلك فلا يجدُ الساعي هنا أحداً؛ فلا تكونُ فائدةٌ من مجيئه .

فصقَّ المجنونُ الآخرُ وقال: هذا وأبيك هو التَّهْدِي إلى وجهِ الرأْي وسَدَّاه، وهذا هو الكلامُ الرصينُ الَّذِي يقومُ على أصولِ الحساب والجغرافيا . . «ومِمَّا حفظناه» هذا الحديث: «لا مالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ» . فأربعةٌ طوابع، لأربعِ مرات، في أربعِ ساعات؛ وما عدا هذا فإسرافٌ وتبذير؛ ولا مالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ . .

ورضيَ (النابغة) عن صاحبه وقالَ له: لَئِنْ كَانَتْ فِيكَ ضَغْفَةٌ إِنَّ فِيكَ لَبَقِيَّةً تَعْقِلُ بها . . . ثُمَّ أَخَذَ مِنْهُ الرِّسَالَةَ وَدَسَّهَا فِي ثَوْبِهِ . قلنا: ولكن ألا تَقْضُهَا لِتَعْرِفَ مَا فِيهَا؟

فضحك وقال: أَتَئِن جَارَيْتُكُمْ فِي بَابِ الْمُطَايَبَةِ وَالنَادِرَةِ، وَجَارَيْتُ هَذَا الْأَبْلَهَ فِي بَابِ جُنُونِهِ وَحُكْمِهِ - تحسبون أن الأمرَ على ذلك، وأن الرِّسَالَةَ فارغةً إلا من عناوينها، وأن نابغةَ القرنِ العشرين هو [من] أرسلها إلى نابغةِ القرنِ العشرين، كما قال سعد باشا: (جورج الخامس يُفاوضُ جورج الخامس) . . .؟ لَحَقْتُ - والله - أنُ الْعَقْلُ الْكَبِيرُ الَّذِي يَأْبَى الصِّغَاثَرُ، هو الَّذِي تَأْتِي مِنْهُ الصِّغَاثَرُ أحياناً لَتُنْبِتَ أَنَّهُ عَقْلٌ كبير، وهكذا تَسَخَّرُ الْحَقِيقَةُ مِنْ كِبَارِ الْعُقُولِ (كنابغةِ القرنِ العشرين) . .

فغضبَ المجنونُ الآخرُ وهَمَّ أَنْ يَتَكَلَّمَ: فَقَالَ لَهُ (النابغة): أَنْتِ كَاذِبٌ فِيمَا سَتَقُولُهُ .

قلنا: ولكئنه لم يقل شيئاً بعدُ، فكما يجوزُ أن يكونَ كاذباً بجورُ أن يكونَ صادقاً .

قال: وسيُخطئُ في رأيه الَّذِي يُبديه . .

قلنا: ولم يُدِ شيئاً من رأيه . .

قال: ولا يعرفُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي سَيَتَكَلَّمُ عَنْهَا .

قلنا: ويحك، أَدْخَلْتَ فِي عَقْلِ الرَّجُلِ أَمْ تَعْلَمُ الْغَيْبَ؟

قال: لا هذا ولا ذاك، ولكئنه قِياسٌ منطقيُّ يَتَوَهَّمُ أَطْرَاهُ^(١) إِنَّهُ سَيَقُولُ: إِنِّي

مجنون . .

(١) أطْرَاهه: استمرارُ حدوته .

فأخرج الآخرُ لسانه.. قال: (النابعة): تبأ لك، لقد رأيتُ الكلمةَ في لسانِكَ كأنها مكتوبةٌ بحروفِ المطبعة. ويحك يا مَرْقَعان^(١)، ألا تعرفُ أنَّ لك دماغاً مخروقاً تسقطُ منه أفكارُك قبلَ أن تتكلَّم بها، ولولا أنَّه مخروقٌ لحفظتُ المتن! إنَّ كلَّ تخطئةٍ لي منك هي اعترافٌ لي منك بصواب.

فنظرَ الآخرُ إليه نظرةً كانَ تفسيرُها في حواجبه، إذ مطَّ^(٢) حواجبه ورَقَصَها. فقالَ (النابعة): ونظراتُه خبيثةٌ مِلْحَةٌ الطعم، مَزْعُوقَةٌ كَمَاءِ الْبَحْرِ الْمُرِّ أَخَذَ مِنَ الْبَحْرِ وَأَضِيفَ إِلَى مِلْحِهِ الطَّبِيعِيِّ مِلْحٌ، أكاذُ أَنهَوُعُ^(٣) من هذه النظرةِ فأنيء.

الآنَ فهمتُ معنى قولِهِم: «مِلْحَةٌ في عينِ الحسود». فإنَّ المِلْحَ لا يغلُبُهُ إلَّا المِلْحُ، كالحديدِ بالحديدِ يُفْلَحُ^(٤). هاتوا كأساً من مُعْتَقَةِ الخمر، ثُمَّ لينظرُ فيها الخبيثُ هذه النظرةَ، فإنَّ الخمرَ لا بدَّ مستحيلةٍ «شربة ملح إنجليزي»... هذا الأبلهُ ثقيلُ الأدم كأنَّ دمهَ مأخوذٌ من مستنقع... أهذا الذي لا يستطيعُ أن يقولَ لشيءٍ في الدنيا: هُوَ لي، إلَّا الْفَقْرَ وَالْجَنُونَ وَالْخُرَافَةَ - يُكذِّبُ ما في الرِّسَالَةِ التي جاءَ بها الْبَرِيدُ الْمُسْتَعَجَلُ، ولا يُصدِّقُ أنها مرسلَةٌ إلى نابعةِ القرنِ العشرينِ من صاحبِ السَّمَوِ الْأَمِيرِ؟

هذا الأذهابُ الْعَقْلُ هو كالجبانِ المنقطعِ في وَخْشَةِ الْفَقْرِ، في ظلامِ اللَّيْلِ: إذا تَوَجَّسَ حركةً ضعيفةً أَتَقَلَّبَتْ في وهمِهِ قِصَّةُ جَرِيْمَةِ ماوُها الرُّعْبِ وفيها الْقَتْلُ وَالذَّبْحُ؛ ولهذا يخشى ما في الرِّسَالَةِ التي جاءتْ من صديقي صاحبِ السَّمَوِ. هاؤُمُ أَقْرَءُوا الرِّسَالَةَ.

وفضضنا^(٥) الْغِلَافَ، فإذا ورقَتانِ مهورتانِ بتوقيع أميرِ معروف، إحداهما صكٌّ بِالْفِ جَنِيهِ تُدْفَعُ (لنابعةِ القرنِ العشرينِ)، والثانيةُ أَمْرٌ بِالْقَبْضِ على المجنونِ الآخرِ.. وإرسالِهِ إلى المارستانِ...

* * *

وذهبتُ أَصْلِحُ بينهما صلحاً فقلتُ: إنَّ في الحديثِ الشريفِ: «بينما رسولُ

(١) المرقع والمرقعان: هو الأحمق الذي يرتج عليه وأيه.

(٢) مطَّ حواجبه: رفعها استغراباً واستغهاماً.

(٣) تهوُّع الشيء: تكلفه.

(٤) يُفْلَحُ: يُشَقُّ.

(٥) فضضنا: فتحنا.

اللَّهُ ﷻ في أصحابه إذ مرَّ به رجلٌ، فقال بعضُ القومِ: هذا مجنون. فقال رسولُ
اللَّهُ ﷻ: هذا مُصاب؛ إنَّما المجنونُ المقيمُ على معصيةِ الله.

فقال صاحبُ المتن: «مِمَّا حفظناه» إنَّما المجنونُ المقيمُ على معصيةِ الله.

قلت: وليسَ فيكما مقيمٌ على معصيةِ الله...

قال المجنون: «مِمَّا حفظناه»: وليسَ فيكما مقيمٌ على معصيةِ الله...

قلت: هذا ليسَ مِنَ الحديثِ ولكنه من كلامي...

قال (النابغة): أنبأتكم أنَّ هذا الأبلهَ يَضلُّ في دارِهِ كما يضلُّ الأعرابيُّ في
الصحراء؛ وأنَّ الأسطولَ الإنجليزيَّ لو استقرَّ في ساقيةٍ يدورُ فيها ثورٌ، لكانَ ذلك
أقربَ إلى التصديقِ مِن استقرارِ العقلِ في رأسِ هذا الأبله؟...

فأخَذَتم^(١) الآخرَ وهمُ أن يقولوا: «مِمَّا حفظناه»، ولكِنِّي أسكتُهُ وقلتُ
(لِلنابغة): إنَّكَ دائماً في دروةِ العالمِ، فلا غَرَوَ أنَّ ترى المحيطَ الأعظمَ ساقيةً.
«والنوابغُ» هم في أنفسهم نوابغٌ، ولكثُهم في رأيِ الناسِ مَرَضَى بمرضِ الصعودِ
الخياليِّ إلى دروةِ العالمِ. ومن هذا يكونُ المجانينُ همُ المَرَضَى بمرضِ النزولِ
الحقيقيِّ إلى حضيضِ الآدميةِ؛ فهناك يعملون فتكونُ أفكارُهُم من أعمالِهِم، ثُمَّ
تكونُ عقولُهُم من أفكارِهِم، فيكونُ هذا هو الجنونُ في عقولِهِم، وذلك معنى
الحديث: «إنَّما المجنونُ المقيمُ على معصيةِ الله».

قال (النابغة): لَعَمْرِي إنَّ هذا هو الحقُّ؛ فنبوغُ العقلِ مَرَضٌ من أمراضِ
السموِّ فيه؛ فالشاعرُ العَظيمُ مجنونٌ بالكونِ الَّذي يتخيَّلُهُ في فكرِهِ، والعاشقُ مجنونٌ
بكونِ آخرَ لهُ عِنانٍ مكحولتان؛ والفيلسوفُ مجنونٌ بالكونِ الَّذي يدأبُ في معرفتِهِ؛
ونابغةُ القرنِ العشرينِ مجنون... لا. لا. قد نسينا. ش، فهو مجنون، وس. ع
فهو مجنون.

وكلُّ الناسِ مجنونٌ بليلىَ وليسلى لا تُقرُّ لَهُم بِذاكَ
ومن حقُّ ليليَ ألا تقرُّ لَهُم، إذ هي لا تقرُّ إلا لِنابغةِ القرنِ العشرينِ وحدِهِ؛
وما أعجبَ سحرَ المرأةِ في الكونِ الأنفسانيِّ لِلرجالِ! أمَّا في الكونِ الحقيقيِّ فهي
أنثى كِئاناثٍ ألبهائمٍ ليسَ غيرِ. وأعقلُ الرجالِ مَنْ كانَ كالجمارِ أو الثورِ أو غيرِهِما

(١) احتدم: اشتطاط غضباً.

من ذكور البهائم. فالجمال لا يعرف الجمارة إلا أنها جمارة، والثور لا يعرف البقرة إلا أنها بقرة؛ ولا ينظمون شعراً، ولا يكتبون «أوراق الورد». وإنات البهائم أمات^(١) لا غير، ولكن العجيب أن ذكورتها ليست آباء؛ فهذه الذكورة طفيلية في الدنيا، والطفيلي لا يأكل إلا بحيلة يحتال بها، فيكون صاحب نواز وأصاحيك وأكاذيب. ولهذا كان عشق الرجال للنساء ضروباً من الخداع والأكاذيب والأصاحيك والحيل والمفلة والبلاهة؛ وإذا نظرنا إليه من أوله فهو عشق، أما آخره فهو آخر الحيلة والأكذوبة، وهو قول الطفيلي: قد شبعْتُ وقد رَويت. ونحكم، أين أول الكلام؟

قلنا: أوله ما أعجب سحر المرأة في الكون النفساني للرجال!

قال: نعم هذا هو. إنه سحر لا أعجب منه في هذا الكون النفساني إلا سحر الذهب؛ فلو مسخت المرأة الجميلة شيئاً من الأشياء لكأنت سبيكة ذهبية تلمع؛ ولهذا يوجد الذهب للصوص في الدنيا، وتوجد المرأة الجميلة لصوصاً آخرين، فيجب أن يَصانَ الذهب وأن تُصانَ^(٢) المرأة.

قلت: ولكن أليس من المال فضة، وهي توجد للصوص كالذهب؟

قال: نعم، وفي النساء كذلك فضة، وفيهن النحاس؛ ولو أنت أقيت ريالاً في الطريق لأحدثت معركة يختصم فيها رجلان، ثم لا يذهب بالريال إلا الأقوى، ولو تركت قِرشاً لتضارب عليه طفلان، ثم لا يفوز به إلا من عض الآخر...

ولكن (فورد) ألغى الأمريكي العظيم الذي يجمع يده على أربع مائة مليون جنيه، لا يتكلم عن القِرش؛ و(نابغة القرن العشرين) الذي يملك (ليلي)، لا يتكلم عن غيرها من قروش النساء...

قلت: فأني أحسبك أعلمتني أن اسمها فاطمة لا ليلي.

قال: هل يستقيم الشعر إذا قلت: وكل الناس مجنون بفاطمة، وفاطم لا تقر لهم؟ قلت: لا

قال: إذن فهي (ليلي) ليستقيم الشعر... أما حين أقول: أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل، فهي فاطمة ليصح الكوزن.

(١) جمع يقال في غير العاقل، أمات، وفي العاقل: أمهات.

(٢) تصان: تحفظ.

قُلْتُ: يُشْبِهُ - والله - أَلَّا يَكُونُ اسْمُهَا لَيْلَى وَلَا فَاطِمَةُ؛ وَإِنَّمَا هِيَ تَسْمَى حَسَبَ الْوِزْنِ وَالْبَحْرِ، فَاسْمُهَا فَعُولُنْ أَوْ مُفَاعَلَتُنْ . . .

ثُمَّ قُلْنَا لَهُ: فَمَا رَأَيْكَ فِي الْحَبِّ، فَإِنَّهُ لَيُقَالُ: إِنَّكَ أَعَشَقْتُ النَّاسَ وَأَغْرَلُ النَّاسَ؟ قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ لَيُقَالُ (وهو الأصح)، ثُمَّ أَطْرُقُ يَفْكُرُ. ويدا عليه أَنَّهُ مَدْهُوشٌ ذَاهِبُ الْعَقْلِ، كَأَنَّهُ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى مَسَافَةٍ أَبْعَدَ مِنَ الْمَسَافَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَقْلِهِ. وَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّ الْأَنْسَاءَ قَدْ حُضِرْنَ^(١) جَمِيعاً فِي رَأْسِهِ، وَمَرَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ تَعْرِضُ مَفَاتِيحَهَا وَغَزَلَهَا، وَثَلَاثُ مِثَالِهَا^(٢) مِنْ جَمَالِهَا، فَهُوَ يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَغْرِضُ وَيَتَخَيَّرُ. ثُمَّ أَضْطَرَبَ كَالَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يُمَسِكَ بَشْيَءٍ أَفْلَتَ مِنْهُ؛ فَلَمْ يَنْبُتْهُ إِلَّا قَوْلُ الْمَجْنُونِ الْآخِرِ: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ» أَنَّ أَعْرَابِيَّةً سَلَّتْ عَنِ الْعَشَقِ فَقَالَتْ: إِنَّهُ دَاءٌ وَجُنُونٌ . . .

قَالَ: اسْكُتْ يَا وَيْلَكَ لَقَدْ أَطْفَأْتَ الْأَنْوَارَ بِكَلِمَتِكَ الْمَجْنُونَةِ. كَانَ فِي رَأْسِي مَرْقَصٌ عَظِيمٌ تَسْطُعُ الْأَنْوَارُ فِيهِ بَيْنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَخْضَرِ وَالْأَبْيَضِ؛ وَتَرْقُصُ فِيهِ الْجَمِيلَاتُ مِنَ الطَّوِيلَةِ وَالْقَصِيرَةِ وَالْمَمْشُوقَةِ وَالْبَادِنَةِ، فَجِئْتُ بِالْأَدَاءِ وَالْمَجْنُونِ - فَبَحَكَ اللَّهُ - فَأَخْرَجْتَنِي عَنْهُنَّ إِلَيْكَ. أَحْسَبُ أَنَّكَ لَوْ أَنْتَحَرْتَ لَصَلَحَ الْعَالَمُ أَوْ صَلَحْتُ أَنَا عَلَى الْأَقْل . . . فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشُقَّ نَفْسُكَ فَأَنَا أَتِيكَ بِالْحَبْلِ الَّذِي كُنْتُ مَقِيداً فِيهِ أَيَّ الْحَبْلِ الَّذِي عِنْدِي فِي الْكَدَارِ . . . عَلَى أَنَّ رَأْسَكَ الْفَارِغَ مَشْنُوقٌ فِيكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي.

قَالَ الْآخِرُ: مَا أَنْتَ مُنْذُ الْيَوْمِ إِلَّا فِي شَنْقِي وَتَعْذِيبِي أَوْ فِي شَنْقِ عَقْلِي (على الأصح). «وَمِمَّا حَفَظْنَاهُ» قَوْلُ الْأَحْنَبِ بْنِ قَيْسٍ: إِنِّي لِأَجَالِسُ الْأَحْمَقَ سَاعَةً فَاتَّبِعُنِي ذَلِكَ فِي «عَقْلِي» . . .

فَلَمْ يَرُغْنَا إِلَّا قِيَامَ الْمَجْنُونِ مُسَلِّحاً بِحِذَائِهِ فِي يَدِهِ . . . وَهُوَ حِذَاءٌ عَتِيقٌ غَلِيظٌ يَقْتُلُ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَحُلْنَا بَيْنَهُمَا وَأَبْشَنَاهُ فِي مَكَانِهِ. وَقُلْنَا: هَذَا رَجُلٌ قَدْ غُلِبَ عَلَى عَقْلِهِ فَلَا يَدْرِي مَا يَقُولُ؛ فَإِذَا هُوَ دَلٌّ عَلَى أَنَّهُ مَجْنُونٌ، أَفَلَا تَدُلُّ أَنْتَ عَلَى أَنَّكَ عَاقِلٌ؟ مَا سَأَلْنَاكَ فِي أَنْتِحَارِهِ وَجُنُونِهِ، بَلْ سَأَلْنَاكَ رَأْيَكَ فِي الْحَبِّ؛ وَمَا نَشُكُّ أَنَّكَ قَدْ أَطْلَلْتَ التَّفَكِيرَ لِيَكُونَ الْجَوَابُ دَقِيقاً، فَإِنَّكَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ)، فَانْظُرْ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ كَذَلِكَ.

(٢) الهذيان: الجنون.

(١) حُضِرْنَ: جَمَعْنَ.

قال: نعم إنَّ العاقلَ إذا وَرَدَ عليه السَّوَالُ أَطَالَ الْفَكْرَ في الجواب. فأَكْتُبَ يا فلان (س. ع):

(جلس نابغةُ القرنِ العشرينَ مجلسَ الإِملاءِ مُرتَجِلاً فقال: قصَّةُ الحُبِّ هي قصَّةُ آدمَ، خلقَ اللهُ المرأةَ من ضِلْعِهِ. فأولُ علاماتِ الحُبِّ أنَّ يشعرَ الرَّجُلُ بالألمِ كأنَّ المرأةَ أَلَتِي أَحْبَبْتُ كَسَرْتُ لَهُ ضِلْعاً... وكلُّ قديمٍ في الحُبِّ هو قديمٌ بمعنى غيرِ معقولٍ، وكلُّ جديدٍ فيه هو جديدٌ، بمعنى غيرِ مفهومٍ؛ فغيرُ المعقولِ وغيرُ المفهومِ هو الحُبُّ.

والجمرَةُ الحمراء إذا قِيلَ إنَّها انْطَفَأَتْ وبقيَتْ جمرَةٌ فذلك أقربُ إلى الصِّدْقِ من بقاءِ الحُبِّ حيًّا بمعناه الأولِ إذا انطفأ أو بَرَدَ.

والعاشقُ مجنونٌ. وجنونهُ مجنونٌ أيضاً، فهو كالذي يرى الجمرَةَ منطفئةً، ويرى معَ ذلك أنَّها لا تزالُ حمراءَ، ثُمَّ يُمَيِّنُ في خياله فيراها وردةً مِنَ الورد... وإذا سألتَهُ أنَّ يَصِفَ الجمالَ الذي يهواهُ كانَ في ذلك أيضاً مجنونُ الجنونِ، كالذي يرى قمرَ السماءِ أنَّه قد تَفَتَّتْ وتناثَرَتْ ووَقَعَ في الروضةِ، فكانَ يَنَارُهُ هو الياسمينُ الأبيضُ الجميلُ الذكي... .

والمجنونُ يرى الدُّنيا بجنونهِ والعاقلُ يراها بعقلِهِ؛ ولكنَّ العاشقَ المخبولَ لا ينظرُ مَنْ يهواهُ إلَّا ببقيَّةٍ من هذا وبقيَّةٍ من ذلك، فلا يخلُصُ معَ حبيبِهِ إلى جنونٍ ولا عقلٍ.

(والمجهولُ) إذا أرادَ أن يَظهرَ في دِماغِ بشريٍّ لم يسعُه إلَّا أخذُ رأسين: رأسِ المجنونِ ورأسِ العاشقِ... .

ولا صعوبةٌ في الحُكْمِ على شيءٍ بأنَّه خيرٌ أو شرٌّ إلَّا حينَ يكونُ الخيرُ والشرُّ امرأةً معشوقةً. أمَّا أوصافُ الشعراءِ والكُتَّابِ لِلجمالِ والحُبِّ فهي كُلُّها تقليدٌ قد توسَّعوا فيه؛ والأصلُ أنْ ثوراً أَحَبَّ بقرةً فكانَ يقولُ لها: يا نجمةَ القطبِ أَلَتِي نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ لِتَدورَ في السَّاقِيَةِ كما دارَتْ في أَلْفَلَكِ.

قالَ (النابغة): هذا رأيي في حُبِّ العاشقين؛ أمَّا حُبِّي أنا (نابغةُ القرنِ العشرينِ) فيجمعه قولُك: قلَّ، ورد، زهر... .

قلنا ما هذه الألفاظُ؟ وهل يَلْحَبُ مَتْنٌ كقولهم: حروفُ أَلْفَلَقَلَةٍ يجمَعُها قولُك (قطبٌ جدٍ)، وحروفُ الزيادةِ يجمَعُها قولُك (سألتُمونها)؟

فتضاحك (النابعة)، وقال: تكاثرت الأطباء على خراش، فلكيلا ننسى... إن كل حرف هو بدء أسم، الفاء فاطمة، واللام ليلى، والواو ورده، والراء رباب، والدال دلال، والأزاي زكية، وألهاء هند، والراء رباب...

قلنا: رباب قد مضت في (ورد).

قال: كنا تهاجرنا مدة ثم أصطلحنا بعد هند...

* * *

قلت: هكذا «النوابغ» فإن رجلاً أديباً كانت كنيته (أبا العباس) فلما «نبغ» صيرها (أبا العير)^(١) وفتق له نبوغه أن يجعلها تاريخاً يعرف منها عمره. قالوا فكان يزيد فيها كل سنة حرفاً حتى مات وهي هكذا:

أبو العير طآذ طيل طليري بك بك بك...

* * *

(١) العير: الحمار.

المجنون

٥

ثُمَّ إِنَّ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) اسْتَخَفَّهُ الطَّرْبُ لِذِكْرِ صَوَاحِبِهِ وَجَمِيلَاتِهِ مِنْ فَاطِمَةَ إِلَى رَبَابٍ؛ وَمَنْ طَبَعَ الْمَجْنُونِ أَنَّهُ إِذَا كَذَبَ صَدَّقَ نَفْسَهُ، فَإِنَّ قُوَّةَ الضَّبْطِ فِي عَقْلِهِ إِمَّا مَعْدُومَةٌ وَإِمَّا مُخْتَلَةٌ؛ وَكُلُّ وَجْهِ تَخَيَّلَ مِنْهُ خَيَالًا فَهُوَ وَجْهُ مِنْ وَجُوهِ الْعِلْمِ عِنْدَهُ، إِذْ كَانَ عَالَمُهُ أَكْثَرُهُ فِي دَاخِلِهِ لَا فِي الْعَالَمِ، فَإِذَا تَوَهَّمَ أَوْ أَحَسَّ أَوْ شَعَرَ، فَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِطَرِيقَتِهِ هُوَ لَا بِطَرِيقَةِ النَّاسِ الْعُقَلَاءِ؛ فَلَيْسَ يَحْتَمِلُ عَقْلُهُ إِلَّا فِكْرَةً وَاحِدَةً تَمْضِي مَنْفَرَدَةً بِنَفْسِهَا مُسْتَقِلَّةٌ بِمَعْنَاهَا كَأَنَّهَا قَدَرٌ غَالِبٌ عَلَى جَمِيعِ أَفْكَارِهِ الْآخَرَى، فَلَا شَأْنَ لَهَا بِالْوَقَاعِ، وَلَا شَأْنَ لِلْوَقَاعِ بِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ تُحَقِّقُ مَعْنَاهَا كَمَا تَخْطُرُ لَهُ، لَا كَمَا تَتِمَّلُ فِيهَا حَوْلَهُ.

فَيَبِينُ كُلَّ مَجْنُونٍ وَبَيْنَ مَا حَوْلَهُ دِمَاغُهُ الْمُتَدَجِّي^(١) بِالْغُيُومِ الْعَقْلِيَّةِ، لَا تَزَالُ تَغْرِضُ لَهُ الْغَيْمَةَ بَعْدَ الْغَيْمَةِ مِنْ أَخْثَالٍ بَعْضُ الْمَرَكَزِ الْعَصَبِيَّةِ فِيهِ، وَفَسَادِ أَعْمَالِهَا بِهَذَا الْأَخْثَالِ، وَقِيَامِ الطَّبِيعَةِ فِيهَا عَلَى هَذَا الْفُسَادِ.

وَمِنْ ذَلِكَ تَنْقَلِبُ الْكَلِمَةِ مِنَ الْكَلَامِ، وَإِنَّهَا لِحَادِثَةٌ تَأْتِي فِي عَقْلِ الْمَجْنُونِ كَالْقَصَةِ الْوَاقِعَةِ لَهَا زَمَانٌ وَمَكَانٌ، وَبَدْءٌ وَنِهَايَةٌ، لَا يُخَايِرُهُ فِيهَا الشُّكُّ، وَلَا يَغْتَرِبُهَا التَّكْذِيبُ؛ وَكَيْفَ وَهِيَ قَائِمَةٌ فِي ذِهْنِهِ مِنْ وَرَاءِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ قِيَامَ الْحَقِيقَةِ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ؟

وَلِحَوَاسِّ الْمَجْنُونِ جِهَتَانِ فِي الْعَمَلِ، لِأَنَّهَا بَيْنَ كَوْنَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا الْكُونُ الْخَرِبُ الَّذِي فِي دِمَاغِهِ؛ وَفِي هَذَا يَقُولُ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ): إِنَّ فِي دَاخِلِ عَيْنِهِ مِنْظَارًا يَرَى بِهِ الْأَشْيَاءَ فِي غَيْرِ حَقَائِقِهَا، أَيْ فِي حَقَائِقِهَا.

وَحَدَّثَنَا أَلْكَتُورُ مُحَمَّدُ الْأَرَفِيُّ قَالَ: إِنَّ فِي دَارِ الْمَجَانِينِ بِمَدِينَةِ لِيُونِ بِفَرَنْسَا

(١) المتدجى: المظلم.

نابغة كتابغة القرن العشرين، ذُكِرَتْ أَمَامَهُ قيصرة روسيا وَخَبِرَ مَقْتَلُهَا، فَأَحْفَظُهُ^(١)
 هذا وَأَرْمَضُهُ^(٢) وَقَالَ يَا وَنَحَهُمْ! كَذَبُوا عَلَيْهَا وَعَلَيَّ. فَسَأَلَهُ الدُّكْتُورُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟

قَالَ: كَانَ مِنْ خَبَرِ الْقَيْصَرَةِ أَنَّهَا رَأَتْني فَأَجَبْتَنِي، وَعَلِمْتُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ يُمكنُ
 أَنْ يُعْلَمَ مِنْهُ قَلْبُهَا أَنِّي أَنَا رَجُلُهَا لَا الْقَيْصَرُ؛ فَمَا زَالَتْ بَعْدَهَا تُنَاكِدُ^(٣) الْقَيْصَرَ
 وَتَلْتَوِي عَلَيْهِ وَلَا تَصْلُحُ لَهُ فِي شَيْءٍ حَتَّى يَيْسَ مِنْهَا فَطَلَّقَهَا، فَحَمَلَتْ كَنُوزَهَا
 وَجَلَّاهَا وَلَجَأَتْ إِلَى حَبِيبِهَا، ثُمَّ تَبِعَتْهَا نَفْسُ الْقَيْصَرِ وَلَمْ يُطِقِ الْعَيْشَ بَعْدَهَا
 فَأَنْتَحَرَ... ثُمَّ طَلَبَهَا الشُّيُوعِيُّونَ لِمَا مَعَهَا مِنْ كَنُوزٍ، فَأَخْفَاهَا هُوَ فِي مَكَانٍ حَرِيزٍ^(٤)
 لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ؛ ثُمَّ إِنَّهُ هُوَ لَا يَصِلُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي أَحْرَزَهَا فِيهِ إِلَّا إِذَا نَامَ...
 كَيْلَا يَرَاهُ أَحَدٌ مِنَ الشُّيُوعِيِّينَ فَيَتَعَقَّبَهُ فَيَعْلَمَ مَقَرَّهَا؛ وَلِهَذَا كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَنْسَى
 الْمَكَانَ إِذَا اسْتَيْقِظَ... فَقَدْ يَزُولُ مَرَّةً فَيُخْبِرُ بِهِ أَوْ يَغْلِبُهُ الشُّوقُ مَرَّةً عَلَى «عَقْلِهِ»...
 فَيَذْهَبُ إِلَيْهِ؛ فَعَسَى أَنْ يَرَاهُ مَنْ يَنْمُ بِذَلِكَ، فَتَفْضَحَ الْحَبِيبَةُ وَتُوَحِّدَ مِنْهُ.

قَالَ: وَإِنَّ الْقَيْصَرَةَ هِيَ تَحْتَاطُ أَيْضاً مِثْلَ ذَلِكَ فَتُرَاسِلُهُ كُلَّ يَوْمٍ بِالْإِسْلَاسِكِيِّ
 رِسَائِلَ تَفْعُ مِنَ الْجَوِّ فِي دِمَاعِهِ فَيَقْرُؤُهَا وَحْدَهُ، وَإِنْ أَخْرَفَ مَا يَخَافُهُ أَنْ يَغْلِبَهَا
 جَنُونَ الْحُبِّ يَوْمًا فَتَطْبِشُ طَبِشَ الْمَرْأَةِ، فَتَزُورُهُ فِي هَذَا الْمَارِسْتَانِ... فَقَدْ تَقَتَّلُ إِذَا
 رَأَاهَا الشُّيُوعِيُّونَ.

قَالَ الدُّكْتُورُ: وَهَآكَ (نَابِغَةُ) آخِرُ ثَبَتٍ فِي ذِهْنِهِ أَنَّ أَمْرًا مِنْ أَجْمَلِ النِّسَاءِ قَدْ
 اسْتَهَامَتْ^(٥) بِهِ وَأَنَّهَا مُبْتَلَاةٌ فِي حُبِّهَا إِيَّاهُ بِجَنُونَ الْغَيْرَةِ، وَقَدْ تَنَاهَتْ فِيهِ حَتَّى إِنَّهَا
 لَتَقْتُلُ نَفْسَهَا إِذَا عَلِمَتْ أَنَّ لِصَاحِبِهَا هَوًى فِي أَمْرَةٍ أُخْرَى. وَخَبَلَتْهُ هَذِهِ الْفِكْرَةُ،
 فَاعْتَقَدَ أَنَّ حَبِيبَتَهُ مِنْ جَنُونَ غَيْرَتِهَا وَاقَعَهُ بَيْنَ السَّلَامَةِ وَالتَّلَفِّ؛ ثُمَّ تَوَهَّمَتْ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّ
 وَاشِيَاءَ قَدْ أَعْلَمَهَا أَنَّ النِّسَاءَ أَفْتَنَتْ بِهِ؛ فَطَارَ صَوَابُهَا، فَهِيَ آتِيَةٌ إِلَيْهِ فِي الْمَارِسْتَانِ
 لِتُؤَبِّخَهُ وَتَشْفِي غَيْظَهَا مِنْهُ، ثُمَّ تَتَحَرَّ أَمَامَ عَيْنَيْهِ... وَأَدَارَ (النَّابِغَةُ) الْفَكْرَ فِي إِقْنَاعِهَا
 لِتُعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَخُنْهَا بِالْغَيْبِ... فَلَمْ يَهْتِدِ إِلَى مَقْنَعٍ تَسْتَيْقِنُ بِهِ الْمَرْأَةُ أَنَّ لَا أَرْبَ لِلنِّسَاءِ
 فِيهِ إِلَّا أَنْ... فَعَلَّ وَجَبَّ خِصْيَتَيْهِ بِيَدِهِ لِيَقْدَمَهُمَا بُرْهَانًا أَنَّهُ لَهَا وَحْدَهَا... .

(١) أَحْفَظُهُ: أَغْضَبُهُ.

(٢) أَرْمَضُهُ: أَلْهَمَهُ.

(٣) تَنَاكَدَ: تَخَاصَمَ.

(٤) مَكَانٌ حَرِيزٌ: مَصُونٌ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ أَحَدٌ.

(٥) اسْتَهَامَتْ: عَشَقَتْ.

قلنا: وطرب (نابغة القرن العشرين) لذكر صواحيه وجمالياته، فجعل يترنم بهذا الشعر:

قالوا جئت بمن تهوى فقلت لهم ما لذة العيش إلا للمجانين
فقال المجنون الآخر: «مما حفظناه»: ما لذة «الخبز» إلا للمجانين...

فضحك (النابغة): وقال: ما أسخفك من أحمق. إذا كان هذا هو المعنى فقل: ما لذة (الكعك). ألم أقل لكم إن هذا الأبله لو تهجأ كلمة خبز قال إنها ل. ح. م. ولو تهجأ كلمة لحم لقال ف. و. ل.

إنه طفل عمره ثلاثون سنة وفيه دائماً غضب الطفل ونزقة^(١) وحمافته، وفيه كذلك سرور الطفل وطيشه وأحلامه؛ غير أنه ليس فيه عقل الطفل. وهو من الضعف، وشدة الحاجة إلى العناية في حياته وسياسته وأبرز به كطفل صغير - بحيث يُخيل إلي أحياناً أنني أمه.

قلنا: وتنسى في هذه الحالة أنك رجل؟

قال: وأنتم كذلك تتهمونني بالنسيان، وهو شرعاً جهة ملزمة للحكم بالجنون فما النسيان إلا الكلمة الأخرى لمعنى ضعف العقل؛ وضعف العقل هو اللفظ الآخر لمعنى جنوني؛ وقد أعلمتكم ما أكره من الكلام.

قلت: لا، النسيان لا يكون منك نسياناً بمعناه في المجانين، بل بمعناه فيك أنت من ترائب الأفكار النابغة وتزاحمها في تواردها على العقل. فإذا ترائبت وتزاحمت كان أمرها إلى أن ينسى بعضها بعضاً، فلا ينطلق منها إلا القوي النابغ حق نبوغه، فيجيء كالمنقطع مما قبله؛ فيحسب ذلك نسياناً وما هو به. وقد تصطبغ الأفكار في هذه المعركة الذهنية إذا كان النابغة مسروراً محبوراً يرقص طرباً. فيكون أمرها إلى أن تجيء كلها معاً على اختلاف معانيها وتناقضها؛ فيحسب ذلك ضرباً من الدهول عند من يجهل العللة «النبوغية»؛ وعذره جهل هذه العللة، وهي في دلالة العقل ليست نسياناً ولا دُهولاً.

قال: فأعلمني كيف نسيان المجانين، فقد خفي علي أن أدرك هذا الأمر العجيب فيهم، ولست أدري كيف يفوتهم ما أستدنى لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقر وحصل في عقولهم؟

(١) نزقة: طيشه.

قلت: لا يكون النسيانُ تُهمةً بِالْجنونِ إِلَّا في أحوالٍ ثلاثٍ، جاءتْ بكلِّها الروايةُ الصحيحةُ المحفوظةُ:

فأما الأولى: فما يُروى عن رجلٍ كان سرّياً غنياً وعُمَرَ حتى أدرَكَهُ الخَرْفُ؛ فجاءهُ كاتبُهُ يوماً يستعيثُهُ على تجهيزِ أمِّهِ وقد ماتت، فدفعَ إلى غلامٍ لَهُ دنانيرَ يشترى بها كفنًا، ودنانيرَ أخرى يتصدَّقُ بها على القبرِ، ثُمَّ قالَ للغلامِ آخرُ: امضِ إلى صاحبنا وغاسِلِ موتانا فلانٍ فأدعُهُ يغسلُها. قالَ الكاتبُ: فاستحييتُ منه وقلتُ: يا سيدي إبعثْ خَلَفَ فلانةٍ وهي جازةٌ لنا تغسلُها. قالَ: يا فلان: ما تدعُ عقلَكَ في حَزَنِ ولا فرح. كيف تُدخِلُ عليها مَنْ لا نعرفُهُ؟

قالَ الكاتبُ: نعم تأذُنْ بذلك. قالَ: لا - واللَّهِ - ما يغسلُها إِلَّا فلان.

فضاقَ الكاتبُ بهذا الحمقِ وقالَ: يا سيدي كيف يغسلُ رجلٌ امرأةً؟

قالَ: وإنَّما أمُّك امرأةٌ؟... - واللَّهِ - لقد أنسيتُ..

وأما الحالةُ الثانيةُ: فما يُروى عن رجلٍ كان نائمًا في ليلةٍ باردةٍ فخرجَتْ يَدُهُ مِنَ الْفراشِ فبردَتْ، فأدناها إلى جسدِهِ وهو نائمٌ فأحسَّ برَدَها فأيقظَته، فأنْتَبَهَ فزِعًا فقبَضَ عليها بيدهِ الأخرى وصاح: أَللصوص. أَللصوص.. هذا أَللصُّ قد قبضْتُ عليه، أدركوني لِئلاَّ تكونَ في يَدِهِ حديدَةٌ يضربُني بها، فجاءوا بِالسَّراجِ فوجدوه قابضاً بيدهِ على يَدِهِ وقد نسيَ أَنَّها يَدُهُ...

وأما الثالثةُ: فهي روايةٌ عن رجلٍ قد وَرِثَ نِصْفَ دارٍ، ففكَّرَ طويلاً كيف تَخْلُصَ أَدَارُ كُلِّها لَهُ ثُمَّ أَهْتَدَى إلى الوسيلةِ؛ فذهبَ إلى رجلٍ وقالَ لَهُ: أريدُ أَنْ أبيعَكَ حِصَّتِي مِنَ الدَّارِ وأشتريَ بِمِنْهَا النِّصْفَ الباقِي لِتصيرَ الدَّارُ كُلِّها لي...

قالَ (النابغةُ): لَعَمْرِي إِنَّ هذا لهُوَ الجنونُ، وما يُذكِّرُ مع هؤلاءِ مجنونُ المَتنِ ولا «غيرُهُ»...

فقالَ الآخرُ: «تاللهُ لولا أَنَّ (نابغةَ القرنِ العَشرينِ) يرفعُ نَفْسَهُ عَنِ الجنونِ لَجاءَ في الجنونِ بما يُذهِلُ «العقول»...

ثُمَّ نَظَرَ فإذا النابغةُ يتحفَّرُ^(١) لَهُ... فأسرَعَ يقولُ: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ» كُنْ حذراً

(١) يتحفَّرُ: يستعد.

كَأَنَّكَ غِرٌّ، وَكُنْ ذَاكِرًا كَأَنَّكَ نَاسٍ. فَهَذَا هُوَ نِسْيَانُ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ، نِسْيَانُ حُكَمَاءَ لَا نِسْيَانُ مُجَانِينَ.

قَالَ (النابغة): وَلَكِنْ قَدْ فَسَدَ قَوْلُ الشَّاعِرِ: مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمُجَانِينَ؛ فَمَا بَقِيَتْ مَعَ الْجَنُونَ لَذَّةٌ.

قُلْتُ: إِنَّ الشَّاعِرَ لَا يُرِيدُ الْمُجَانِينَ الَّذِينَ هُمْ مُجَانِينَ بِالْمَرَضِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْعُشَّاقَ الْمُجَانِينَ بِالْجَمَالِ؛ وَجَنُونَ الْعَاشِقِ فِي هَذَا الْبَابِ كَعُيُوبِ الْعُظَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْفَنِّ، وَهِيَ عُيُوبٌ تُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا بِحَسَنَاتِ الْعُظْمَةِ، فَلَيْسَتْ كَغَيْرِهَا مِنَ الْعُيُوبِ. قَالَ: فَيَجِبُ أَنْ أَصْنَعَ بَيْتًا آخَرَ يَفْسُرُ ذَلِكَ الشَّعْرَ لِيَسْتَقِيمَ لِي التَّمَثُّلُ بِهِ، ثُمَّ فَكَّرْتُ وَهَنَهُمْ، ثُمَّ كَتَبْتُ فِي وَرْقَةٍ ثُمَّ طَوَاهَا وَقَالَ: اصْنَعْ أَنْتِ أَوَّلُ، وَسَاتِمُنْ س. ع. عَلَى عَشْرِي وَدْفَعِ إِلَيْهِ الْوَرْقَةَ:

فَنَظَرْتُ وَقُلْتُ: يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الشَّعْرُ هَكَذَا:

قَالُوا: جُنِثْتُ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمُجَانِينَ الْعَقْلُ إِنْ حَكَمَ الْعُشَّاقُ أَثْقَلَ مِنْ فَقْرِ تَحَكُّمِ فِي رِزْقِ الْمَسَاكِينِ وَنَشَرَ س. ع. الْوَرْقَةَ فَإِذَا فِيهَا:

قَالُوا: جُنِثْتُ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمُجَانِينَ إِنَّ الْعُيُوبَ مِنَ الْمَجْنُونِ دَافِعَةٌ بَأْتُهُ «نَابِغَةُ فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ»... وَضَحَكْنَا جَمِيعًا؛ فَقَالَ النَابِغَةُ: أَبْعَدَكَ اللَّهُ يَا س. ع. إِنْ مَنِ اتَّيَمَّنَ الْمَجْنُونُ عَلَى سِرٍّ وَقَالَ لَهُ أَكْتَمْتُهُ فَكُنَّا قَالِ لَهُ: أَنْشُرْهُ...

ثُمَّ قَالَ: وَدِدْتُ - وَاللَّهِ - أَنْ يَكُونَ س. ع. هَذَا «نَابِغَةُ»، وَلَكِنِّي سَاجِعُهُ نَابِغَةً، فَقَدْ صَارَ لَهُ عَلَيَّ حَقُّ الصَّدِيقِ وَهُوَ حَقٌّ لَا أَضِيعُهُ وَلَا أُخْلِي بِهِ. فَإِذَا أَحْتَجَجْتُ يَا س. ع. إِلَى خُطَابِ رَنَانٍ ثُلُقِيهِ فِي حَفْلِ عَظِيمٍ، أَوْ قَصِيدَةٍ تَمْدُحُ بِهَا وَزِيرَ الْمَعَارِفِ، فَالْجَأُ إِلَيَّ فَإِنِّي مُلْجَأٌ لَكَ. وَمَتَى أَتَحَلَّتْ شِعْرِي كُنْتُ عِنْدَ النَّاسِ الْمُنْتَبِيهِ أَوْ الْبَحْثَرِيِّ. أَوْ أَبْنِ الْأُرُومِي، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقُدَامَى لَمْ يَنْفَعْهُمْ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ، وَلَمَّا لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ أَعْجَبُوا النَّاسَ إِذَا أَنِّي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ...

قُلْنَا فَمَا حُكْمُكَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَدَبِ؟

قَالَ: إِذَا حَكَمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي بَيْنَهُمْ. فَمِنْ الطَّبِيعِيِّ إِلَّا يُعْجَبَنِي مِنْهُمْ أَحَدٌ. إِنَّ «نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ» لَا يَقُولُ لِمَعْنَى هَذَا أَحْسَنُ، فَإِنَّهُ هُوَ فَوْقَ

الأحسن، ولا يقول عن نابغة هذا أشهر، فإنه هو فوق الأشهر.

قلت: كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهد العظيم الذي لا يقول في حسن هذا أحسن لأنه فوق الشهوة، ولا في نعيم هذا أطيّب لأنه فوق الطمع، ولا في مالٍ هذا أكثر لأنه فوق الجزص. وأحسبك لو كنت ترعى غنماً لكنت الحقيق في عصرنا بقول تلك الراعية الزاهدة: أصلحت شأني بيني وبينه فأصلح بين الذئب والغنم.

قال: وكيف ذلك؟

قلت: حكيت عن بعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال في نفسه: يا رب. من زوجتي في الجنة؟ فأري في منامه ثلاث ليالٍ أنها جارية سوداء في أرض كذا. فجاء تلك الأرض فسأل عن الجارية، فقال له رجل ما هذا؟ تسأل عن جارية سوداء مجنونة كانت لي فاعتقها؟ قال وماذا رأيتم من جنونها؟ قال: كانت تصوم النهار فإذا أعطيناها فطورها تصدقت به، وكانت لا تهدأ الليل ولا تنام فضجرنا منها.

قال: فأين هي؟ قال ترعى غنماً للقوم في الصحراء:

فذهب إلى الصحراء فإذا هي قائمة في صلاتها، ونظر إلى الغنم فإذا ذئب يدلّها على المرعى وذئب يسوقها. فلما فرغت من صلاتها سلّم عليها فأنبأته أنه زوجها في الجنة وأنبأها أنه بشر بها؛ ثم سألها ما هذه الذئبان مع الأغنام؟ قالت: نعم أصلحت شأني بيني وبينه فأصلح بين الذئب والغنم.

قال (النابغة): هذا كذب لأنه عجيب، وهو عجيب لأنه كذب.

قلت: وأي عجيب في هذا؟ إن الذئب والشاة، والأسد والغزال، والشعبان والغصفور، وكلّ آكلٍ ومأكولٍ من الأحياء، لو هي دخلت في دائرة الصلاة الحقيقية لأنظمت كلها صفًا واحدًا يركع ويسجد. فهذه الجارية نشرت روح الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئن بالإيمان فوق الذئب منها في دائرة مغناطيسية، فسلب وحشيته ورجع مسخرًا لفكرة الصلاح والخير إذ تجانست فيه الأحياء بما حولها، وأنسجم النوع والنوع في حركة متجاوبة انسجام الرجل المغناطيسي هو ومن يتوّمه في إرادة واحدة وفكرة واحدة.

قال (النابغة): فإذا دخل الذئب مسجدًا يرتج بالمصلين، أثره يصف أربعته ويقف بينهم للصلاة، أم يصلي صلاته الذئبية في لحومهم؟

قلت: وأين هم الذين يصلُّون بحقيقة الصلاة، فيخرجون بها من النفس إلى الكون، ومن الزمن إلى الأبد، ومن الأسباب إلى مسبِّها، ومِمَّا في القلب إلى ما فوق القلب؟ إن هؤلاء جميعاً يصلُّون بجوارحهم وببَينهم وبين أرواحهم طول الدنيا وعرضها؛ وما منهم إلا من يتصل فكره بما يغلب عليه، كما يتصل فكر اللص بيده، وفكر العاشق بعينه، وفكر الطفيل بمعدته. فاسمها عندهم الصلاة، وحقيقتها عند الله كما ترى.

قال (النابغة): ولكنَّه ذئب من طبيعته أن يأكل الشاة لا أن يراها، فلا أفهم شيئاً.

وقال الآخر: «مِمَّا حفظناه» رتغ^(١) الذئب في الغنم، ولم يقولوا صلى الذئب في الغنم، فلا أفهم شيئاً.

قلت: سأزيدكم عدَمَ فهم... إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة ملتنصق بالله، وليس فيه شيء من طباعها الإنسانية ولا ظل من ظلال الدنيا؛ وقد تجلَّى فيه سرُّ الحياة، وهو السرُّ الذي لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتهي ولا يطمع في شيء ولا يُحرز شيئاً، وإنما طبيعته أسواقه الكونية، واتصاله بتفحات القوة الأزلية المستخرجة للوجود كله. فانتشرت هذه الموجة الكهربائية الأثيرية حول الجارية من قلبها، وجاء الذئب فالتجَّ فيها وغمرته الروحانية الغالبة، فإذا هو يفتح عينه على كون غريب قد تجلَّى أسلام عليه، فليس فيه إلا قوة امرأة أمرها بأتلاف كل شيء مع كل شيء، واجتماع المتناقضين في حالة معروفة لا في حالة إنكار. فصار الذئب مستقيظاً، ولكنَّه في رُوح النوم، وشلت فيه الذئبية الطبيعية، فإذا هو يحمل الأنياب والأظافر وقد أنسى استعمالها؛ ويقبض حركته الحيوانية، ولكن تعطلت بواعثها فبطل معناها.

ومن كل ذلك أختفى الذئب الذي هو في الذئب، وبقي الحيوان حياً ككلِّ الأحياء، فناسَب الشاة وفزع إليها إذ لم تكن العلاقة بينهما علاقة جسم أأكل بجسم الأكلة، بل علاقة الروح الحي بروح حي مثله.

* * *

قال (النابغة): أمَّا أنا فقد فهمت ولكنَّ هذا المجنون لم يفهم. أكتب يا س.

(١) رتغ: أكل وشرب ما شاء في خصب.

ع: جلس نابغة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعداد ولا تمكن، وبدون كتب البتة... وكان هذا أجمع لرأيه وأذهن له وأدعى لأن يتوفر على الإملاء بكل مواهب العقلية؛ ولما أن فكر النابغة أعطى الأنظر حقه وجمع في عقله ألفد جزالة الرأي إلى قوة ألتفتن والابتكار، قال مرتجلاً: إن فلسفة الذنب والشاة حين لم يأكلها ولم تنطخه، هي بالنص وبالحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين.

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة.

فأتمض الآخر وقال «مما حفظناه»:

وبات يقدح^(١) طول الليل فكرته وفسر الماء بعد الجهد بالماء فقال (النابغة): ويلك يا أبله! أما - والله - لو كنت تقطويه أو سبيويه لما كنت عندي إلا جحشويه أو بعلويه.

لقد كنت أرى الكلام في تلك الفلسفة طريقاً نزهاً جميلاً حفته الأشجار والأزهار عن جانبيه، وأندفعت في سوائه (تميلات) الأفكار خاطفة كالبريق. فلما تكلمت أنت أنتهينا من سخافتك إلى طريق حجري تققع^(٢) فيه عربات النقل تجرها البغال البطيئة.

فقال: الآخر وهو يعتذر إليه: ما أردت - والله - مساءتك^(٣) ولو أردتها لقلت وفسر الماء بعد الجهد بالسبرتو... فهذا هو الخطأ، أما تفسير الماء بعد الجهد بالماء فهو صحيح.

قال (النابغة): ولكنه تفسير مفرط السقوط كتفسير المجانين، فهو يقول إني مجنون.

قلت: كلا، إن تفسير المجانين يكون على غير هذا الوجه، كالذي حكاه الجاحظ قال: سمعت رجلاً يقول لآخر: ضربنا الساعة زنديقاً. قال الآخر: وأي شيء أرنديقاً؟ قال الذي يقطع المزيقاً. قال: وكيف علمت أنه يقطع المزيقاً؟ قال: رأيته يأكل التين بالخل...

* * *

(١) يقدح: يشعل ويعمل.

(٢) تققع: تصدر صوت القعقة.

(٣) مساءتك: الإساءة إليك.

المجنون

٦

تتمة

وطالَ المجلسُ بنا وبالمجنونين، والكلامُ على أنعائه يندفعُ من وجهٍ إلى وجه، ويمرُّ في معنى إلى معنى؛ فأردتُ أن أبلغَ به إلى الغاية التي جمعتُ من أجلها بين هذين المجنونين، بعد ما أنطلقنا في القولِ وأنفتحَ القفلُ الموضوعُ على عقلِ كُلِّ منهما.

وكانَ قد مرَّ في الندويِّ بائعُ رواياتٍ مترجمةٍ «بوليسيَّةٍ وگراميَّةٍ ولصوصيَّةٍ» يحملُ الرجلُ منها مَزَبَلَةً أخلاقيَّةً أوربيَّةً كاملةً لينفضَّها في نفوسِ الأحداثِ من فتياننا وفتياتنا، فقلْتُ (لِنابعةِ القرنِ العشرين): أنقِري الروايات؟ قال: لا، إلَّا مرةً واحدةً ثُمَّ لم أعاوِذْ، إذ جعلتني الروايةُ الروايةَ مثلها.

قلنا: هذا أعجبُ ما مرَّ بنا منذَ اليوم، فكيف صيرتَ روايةً؟

قال: أنتم لا تعرفون طبيعةَ النوايغِ، إذ ليسَ لكم جِسْمُهُم المرقَفُ، ولا طبعُهُم المستخِكم، ولا خصائصُهُم الغيبيَّة، ولا خواطرُهُم المتعلِّقةُ بما فوقَ الطبيعة.

قلت: نعم أعرفُ ذلك؛ وما من (نابعة) إلَّا وهو بينَ عالمين على طَرَفٍ مِمَّا هنا وطَرَفٍ مِمَّا هناك، فهو خَرَّاجٌ ولَّاجٌ^(١) بينَ العالمين؛ ولَهُ نفسٌ مركَّبةٌ تركيبها على نواميسَ معروفةٍ وأخرى مجهولة؛ فهي تأخذُ مِنَ الظاهرِ والباطنِ معاً، ويحصِرُها المكانُ مرةً ويُفلِّثُها مرةً، وتكوُنُ أحياناً في زمانِ الأَرْضِ، وأحياناً في زمنِ الكواكبِ مِنَ القَمَرِ فصاعداً... ولكن...

فقطعَ عليَّ وقال: أضفَ إلى ذلك أن هذه العقولَ التي تحصرُ مَنْ يسمونَهُم

(١) ولَّاج: دخال.

ألعقلاً في الزمانِ والمكانِ، لا تُوجدُ أهلُها إلاَّ الهمومُ والأحزانُ، والمطامعُ
السافلة، والأفعالُ الدنيئة، فإنَّهم يعيشون فوقَ الترابِ.

قلتُ: نعم، وإذا عاشوا فوقَ الترابِ فياضطُّرُّوا أنْ تكونَ معاني الترابِ فوقَهم
وتحتهم ومن حولهم وبين أيديهم، فليسوا يقطعونَ على هذه الأرضِ إلاَّ عمراً ترائياً
في كلِّ معانيه ولكن...

قال: وزِدْ على ذلك أنَّهم مقيِّدونَ تقييدَ المجانين، غيرَ أنَّ جبالهم وسلاسلهم
عقليةً غيرَ منظورة؛ ويتغلَّيلهم تغليلَ المجانين يسمُّونَ أنفسهم عقلاء، وأعقلهم
أنقلهم قيوداً، وهذا من الغرابة كما ترى.

قلتُ: نعم، أمَّا العقلاء بحقيقة العقل، فهم الذين يضحكون على هؤلاء
ويسخرونَ منهم، إذ كانوا في حالٍ كحالِ المنطليِّ من المقيِّد، وفي موضعٍ كموضعِ
المعاقى من المبتلى ولكن...

قال: وفوقَ هذا وذاك، إنَّهم لا يملكونَ السعادةَ، إذ ليسَ لهمُ العقلُ
الضاحكُ الساخرُ العايبُ الذي خُصَّ به النوابغُ وكانَ الأوحُدُ فيه (نابغة القرنِ
العشرين).

قلتُ: نعم، وإذا ملكوا السعادةَ لم يشعروا بها، أمَّا (النوابغُ) فقد لا
يملكونها، ولكن لا يفوتهمُ الشعورُ بها أبداً فيجثُّهمُ الفرحُ من أسبابه ومن غيرِ
أسبابه ما دامَ لهمُ العقلُ الضاحكُ الساخرُ العايبُ الذي دأبه أبداً أنْ ينسى ليضحك،
ولا قانونَ له إلاَّ إرادةُ صاحبه، على مشيئةِ صاحبه، لِمَنفعةِ صاحبه. ولكن...

قال: والذي هو أهمُّ من كلِّ ما سبق؛ أنَّ أعظمَ خصائصِ هذا العقلِ
الضاحكِ الساخرِ العايبِ أنْ يطردَ عن صاحبه ما لا يحبُّ ويجنبُه أنْ يخسرَ شيئاً من
نفسه؛ فهو لذلك يجعلُ حسابَه مع الأشياءِ حساباً يهودياً لا بدُّ فيه من ربحِ خمسينَ
في المائة...

قلتُ: نعم، وهو دائماً كالطفلٍ؛ وما أظرفَ بلاهةَ أطفلٍ وما أجداها عليه!
إذ يضعُ بلاهتهُ دائماً في أرواحِ الأشياءِ وأسرارِها فتخرجُ بلهاءً مثله، وتنقلبُ له
ألدنيا كأنها أمُّ تضحكُ أبنتها وتلاعبُه ولكن...

قال: ولكن هذا مبلغُ لا تبلغُه الإنسانيَّةُ إلاَّ شذوذاً في أفرادها من جبابرةِ
العقولِ (كتابغة القرنِ العشرين).

قلت: نعم (ولكن) كيف صارَ (نابعة القرن العشرين) رواية حينَ قرأَ الرواية! قال: هذه نكتةُ النبوغ؛ فلو أن مؤلفها كانَ نابعةً مثلنا يتلقَّى في نفسه وحيَ الأثيرِ وإشاراتِ الروحِ الأعظم؛ لَعَلِمَ مِنَ الْغَيْبِ أن (نابعة القرن العشرين) سيقراً روايته، فكانَ يتحرَّى^(١) معاني غيرَ معانيه ويتوخى بهذه القصة وضعاً آخرَ لا تكونُ فيه حبيبةٌ خائنة، ولا لصٌ عارم، ولا قاتلٌ سفّاح، ولا سجنٌ مظلم، ولا محكمةٌ تقولُ حيثُ وحيث...

قلت: وما عليك من حبيبة خائنة في الورق، ولصٌ بينَ الحروفِ المطبعيةِ وقاتلٍ لا يقتلُ إلاً كلاماً، وسجنٌ ومحكمةٌ على الصحيفة لا على الأرض؟ قال: هذه نكتةُ النبوغ، فما استوعبتُ القصةَ حتى عمرتني أشخاصها، وأفحنتُ^(٢) منها على قولِ هائل، فخاننتي الخائنة لعنها الله. ولولا خوفُ السجنِ والمحكمةِ لَقَتَّهَا أشنعُ قثلة، ومثلتُ بها أقبحَ تمثيل. ونِخَ الخائنة كيف استمالها ذلك الدميمُ الطويلُ العِملاقُ المشبوحُ العظامُ المفتولُ العَضَلُ؟ ولكنتي لستُ عملاقاً ولا منياً بناءً الحائط، ثمَّ كانَ مجنوناً بشهواتِهِ جنوناً أفليلُ الهانج، وكنتُ في شهواتي عاقلاً عقلُ الإنسان، ثمَّ كانَ غنياً غنى الجُهاال، وكنتُ فقيراً فقراً فقرُ العلماء. والنساء؛ فبحَ الله النساء. إنهنَّ زينةُ تطلبُ زينةً مثلها وإن المرأةَ لتمنحُ وجهها للقرْدِ يُعْلَهُ إذا كانَ الذهبُ يتساقطُ من قُبَلاتِهِ. أمّا مَنْ كانَ مثلي، أموالهُ الشبابُ والجمالُ والعقلُ والنبوغ، فهو مُفْلِسٌ عندَهُنَّ إفلاسُ الْقِرْدِ في الغابة، فهو عندَهُنَّ قِرْدٌ لِهَذِهِ المُشابهة.

قلت: هذا ليسَ عجيباً فإنَّ اللغويينَ يُجرون على الشيءِ أسمَ ما يُقارِبُهُ في المعنى.

قالَ المَجْنُونُ آخِرُ: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ» أنَّ اللغويينَ يُجرون على الشيءِ أسمَ ما يُقارِبُهُ في المعنى...

فتربَّدُ^(٣) وجهُ (النابعة) غضباً وقال: أبي يلعِبُ هذا المَجْنُونُ؟ إنَّه يزعمُ أنَّ اللغويينَ يسمونني قِرْداً، فهاتوا القواميسَ كُلَّها وأرجعوا إلى مادة (قِرْد) ومادة (نابعة)... سَوَاةُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الصَّبِيُّ المَعْمَرُ... أَلَا فدعوني أُوذِيهِ أدبُ الصَّبِيانِ فَإِنَّ اللطمةَ القويَّةَ على وجهِ الطُفْلِ المَكابِرِ في حقيقةٍ تُلْمِسُهُ الحَقِيقَةُ الَّتِي يُكابرُ فيها إذْ تُدْخِلُهَا إلى عقلِهِ من أَقربِ طريق...

(٣) تربَّد: تلبَّد.

(٢) أفحمت: أدخلت.

(١) يتحرَّى: يبحث.

قال ا. ش: أنت قلت، لا هو. على أنك لست قِزداً أبداً إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيلة متماجنة، قد تضع البردعة على ظهر الأمير وتجعله حمارها، فيُغجب الأمير أن يكون حمارها. ولست قِزداً مع قِزاد إلى جانب عتر وقلب.

قال: الآن علمت السبب، فإن الخائنة كانت متخيلة مؤلفة كتب وروايات، والمرأة التي تُولف الكتب، غير بعيد أن تُولف الرجل أيضاً، وتجعله قصة هو فيها قِزود. لا وهذا إن كانت جميلة كأمرأة الرواية. أما إن كانت دميمة مجموعة من المتناقضات، أو عجوزاً مجموعة من السنين؛ فهذه وهذه كل أيامها كيوم الأحد عند الأنصاري. يوم للعطلة لا بيع فيه ولا شراء ولا مساومة. هذه وهذه كلتاها تجعل الرجل كالماء في سبيل التجمد. لا يشتعل، فضلاً عن أن يستعر، فضلاً عن أن يحترق.

ومؤلفة الكتب لا يكون وجهها إلا إحدى وثيقتين: إما جميلة، فوجهها وثيقة بأن لها ذبونا على الرجال؛ وإما غير جميلة، فوجهها (مخالصة) من كل الديون. . . قلنا: هذا في الخائنة. فكيف سرقك اللص ولست غنياً؟

قال: هذه هي نكتة النبوغ؛ وفي النبوغ أشياء لا ينكشف تفسيرها، وليس في جهلها مضرة على أحد، وجهل لا يضر هو علم لا ينفع، لكنّه علم. والبحث في بعض أعمال (النايعة) هو كالبحث عن سر الحياة فيه، إذ يعمل أعماله تلك بسر الحياة لا بسر العقل، أي بالعقل النايغ الخاص به وحده لا بالعقل الطبيعي المشترك بين الناس.

قلت: ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات، ولكنك مع ذلك تُولفها. . .

قال: إن ذلك ليكون، وإن لم أولفها أنا تألفت هي لي. فإذا تقدّم الليل ونام الناس جميعاً أنتبهت أنا وحدي لرواية العالم فأرى ما شئت أن أرى. وفي ضوء النهار أجد أناس عقلاً ولكني في ظلمة الليل أبصرهم مجانين. فهذا الليل برهان الطبيعة على جنون الناس وضعف عقولهم إذ هو يثبت حاجة هذه العقول إلى ضرب من أنسيان الأبله التام لولاه ما عقلت في نهارها ولا استقام لها أمر.

يُضرعُ الناس في الليل ضُرعة المجانين فيغمضون أعينهم ولا يرون شيئاً. أما أنا فأرى العالم في الليل مسرحاً هزلياً يضجُّ بالضحك من الإنسان الأحمق الذي

يقطع سَرَاةَ نهاره، وهو معتقد أنه قابض على الوجود بالأعين والآذان والآناف . .
أئن رأيت الأسد بعينك أيها الأحمق وسِغمت في أذنك زئيره، أذعيت الدَّعوى
العريضة، وزعمت أنك ملكته وقبضت عليه، ولا تدري في هذا أنك كالمعتوه إذا
قبض على الظل بيده، وصاح هاتوا الحبل لأقيده لا يُقِلَّتْ؟ . . .

قلت: فإذا كان العالم كله روايتك فأخرج لنا فصلاً من الرواية.

قال: أيما أحب إليكم، أن أكتب أو أمثل؟

قلنا: بل أتمثيل أحب إلينا. فنظر إلى المجنون الآخر وقال: إن المجنون في
طبيعته ينبوع من الأشخاص يفيض حالاً بعد حال، كينوع الماء يسبح^(١) الدفعة بعد
الدفعة، فهنا المسرح، والرواية الآن رواية الطبيب والمجنون.

أنت يا س. ع. عم هذا المجنون. فإذا قال لك يا عم. قل له: أنا لسنت
عمك ولكني أخو أبيك. لننظر أينبئه على الفرق بين الصيغتين أم لا؛ فإنه فرق
عقلي دقيق تُمتحن به العقول . . .

تعال أيها المريض فإني أرجو أن يكون شفاؤك على يدي، وفي يدي هذه لمسة
من لمسات المسيح، لأن (نابغة القرن العشرين) هو الآن طبيب القرن العشرين . . .

إنقروا أن تغضبوه أو تخيفوه، وأقيموا له كل ما يحتاج إليه، وتحروا^(٢) مسرته
دائماً، فإن إدخال بغض السرور إلى نفس المجنون هو إدخال بغض العقل إلى رأسه.

متى أنكرت يا س. ع. عقل ابن أخيك وما كان السبب؟ وكيف غلب على
عقله؟ وهل ا. ش. هو خاله أو أخو أمه؟

لطف ألكل لك أيها المسكين. قل لي: أتذكر أمس؟ أتذكر غداً؟ . . إن
الأمس والغدا ساقطان جميعاً من حساب المجانين؛ ومن الرحمة بهم أن الدنيا تبدأ
لهم كل يوم فقد استراحوا من ثلثي هموم الزمن في العقلاء. وهم لا يصلحون أن
ينفعوا الناس كالعقلاء، غير أنهم صالحون أكثر من العقلاء للانتفاع بأنفسهم في
الضحك والمرح والطرب، وهذا حسنهم من النعمة عليهم.

قل لي أيها المجنون: أتجس أن الدنيا تصنع لك نفسك، أم نفسك هي تصنع

(٢) تحروا: فتشوا واكتشفوا.

(١) يسبح: يسيل وينهمر.

لك الدنيا؟ إنَّ هذه مسألة يحلُّها كلُّ مجنونٍ على طريقته الخاصة به، فما هي طريقتك في حلِّها؟

مالك لا تُجيب أيُّها الأبله؟ (هذا من جهة ومن جهة) أعطوه قِرشاً لينطلق لسانه، وآتوا الطبيب أجره وافيّاً وهو لا يقلُّ عن قِرشين . . .

ثمَّ مال (النابعة) على مجنونٍ آلمتِ وسارّه بشيء. فقلنا ما أمرُ المالِ بيسرٍ؟ هذا قِرشٌ للمريضِ وهذان قِرشانِ للطبيب.

فقالَ المجنون: «مِمّا حفظناه» كفى بِالسّلامة داءً.

قالَ «الطبيب»: هذا مريضٌ بنوعٍ منَ الجنونِ أسمه «مِمّا حفظناه» وهو جنونُ النسيانِ الَّذي يضعُ في مكانِ العقلِ كلمةً ثابتةً لا يتذكّرُ المجنونُ إلّا بها؛ ومن أعراضِهِ جنونُ الشكِّ فكلُّ ما حولَ المريضِ مشكوكٌ فيه، وقد يترامى إلى جنونِ اللُّبسِ، فلو لَمَسْتَهُ بِإصبعِكَ توهمَهَا عقرباً فخافَ مِنَ الإصبعِ تلمسُهُ خوفاً مِنَ العقربِ تلدغه، ولكنْ بقيتْ أشياء لا بدُّ مِنَ التّدقيقِ في فحصِها، فليسَ هذا منَ مجانينِ العبقريّةِ الّتي انحرفتْ عن طريقِها أو شدّت في قوّتها؛ ولا هو مِمّنْ يتجانّ^(١) ويتحامقُ أتماساً للرّزقِ والنعيشِ كما قالَ بعضهم: حماقةٌ تعولني خيرٌ منَ عقلٍ أعولُه.

فقالَ المجنون: «مِمّا حفظناه» حماقةٌ تعولني.

فضحك (النابعة) وقال: هو كما بيّنتُ لكم مصابٌ بجنونٍ (مِمّا حفظناه) وهو أقلُّ الجنونِ وأهونهُ، وعلاجهُ البَسْطُ والسّروُرُ والقِرْشُ؛ والضّربُ أحياناً. . فإذا تابّرَ عليه الداءُ تحوّلَ إلى جنونٍ (مِمّا ضربناه). . فيعتدي المصابُ على كلِّ مَنْ يراه أو يوقعُ به ضرباً، وعلاجهُ حينئذٍ القميصُ المرقومُ^(٢)؛ فإذا فدَحَ^(٣) العيلةُ أنقلبَ المرضُ إلى جنونٍ (مِمّا قتلناه). وعلاجهُ يومئذٍ السّلاسِلُ والأغلال.

والحقُّ أقولُ لكم إنَّ آخرَ ما انتهتْ إليه فلسفةُ الطُّبِّ في القرنِ العشرينِ أنَّ النّاسَ جميعاً مجانينٌ ولكنْ بعضهم أوفرُ قِسْطاً^(٤) من بعض. كأنَّ سلبَ العقلِ هو أيضاً حظوظٌ كحظوظِ موهبةِ العقل. وأهلُ المِريخِ من أجلِ ذلك يسمونَ الأرضَ بيمارستانِ ألفلك.

ولكنْ بقيتْ أشياء لا بدُّ مِنَ التّدقيقِ في فحصِها؛ وعندي في الدارِ عاطوسٌ

(١) يتجان: يصطع الجنون.

(٢) القميص المرقوم هو قميص السجن يلبسه المسجون.

(٣) فدحت: عظمت المصيبة.

(٤) قسطاً: قدراً، حظاً.

إذا أشممتُهُ هذا المَجْنُونُ عَطَسَ بِهِ عَطَسَةً قَوِيَّةً فَخَرَجَ جَوْنُهُ مِنْ أَنْفِهِ . . . قُلْ لِي أَيُّهَا
المسكين: أَتَخَافُ إِذَا سِرْتَ وَحَدَّكَ فِي مِيدَانٍ وَاسِعٍ كَأَنَّ الْمِيدَانَ سِيلَتَفُ عَلَيْكَ؟
أَتَضْطَرُّ إِذَا مَشَيْتَ فِي مَضِيقٍ كَأَنَّ الْمَكَانَ سَيَنْطَبِقُ عَلَيْكَ؟ وَإِذَا كُنْتَ فِي عَرَبٍ
أَلْقِطَارٍ فَهَلْ يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّ أَلْبِمَارِستانَ قَدْ جَرَّهَ أَلْقِطَارُ وَأَنْطَلَقَ بِهِ هَارِباً؟ وَهَلْ
شَعَرْتَ مَرَّةً أَنَّهُ أَوْحَى إِلَيْكَ أَنْ تَتَجَرَّ؟

أَرْنِي هَذَا أَلْقِرَشَ الَّذِي فِي يَدِكَ . فَمَدَّ إِلَيْهِ أَلْمَجْنُونُ يَدَهُ بِأَلْقِرَشٍ .
قال (النابغة): أَنْظِرِ أَلَّآنَ هَلْ تُحَدِّثُكَ نَفْسُكَ أَنْ تُغْصِنِي هَذَا أَلْقِرَشُ أَوْ تَسْرِقَهُ
مَنِي؟ قال: نعم .
قال (النابغة): إِذَنْ يَجِبُ أَنْ أُحْرِزَهُ فِي جَيْبِي . . وَأُسْرِعَ فَأَخْفَاهُ فِي جَيْبِهِ . . .

* * *

فَصَاحَ الْآخَرُ وَشَغَبَ^(١) ، وَقَالَ سَلِّبْنِي وَنَهَبْنِي . قُلْنَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَّصِلَ بَيْنَكُمَا
شَرٌّ فِي تَمَثُّلِ الْروَايَةِ فَهَذَا قِرَشٌ آخَرٌ ، وَلَكِنْ أَفِي الْفَلَسَفَةِ عِنْدَ (النابغة) إِبَاحَةُ السَّرِقَةِ
وَالْغَضَبُ؟

قال: فَالْروَايَةُ أَلَّآنَ هِيَ رِوَايَةُ الْفِيلَسُوفِ الْعَظِيمِ أَفَلَاطُونٍ وَتَلْمِيزُهُ أَرِسْطُو .
قُلْ لِي وَيَحَكَ يَا أَرِسْطُو . أَعَلِمْتُ أَنَّ فِي أَلْمَجَانِينِ أَغْنِيَاءَ يَسْرِقُونَ أَلْشَيْءَ
أَلْقَلِيلَ لَا قِيَمَةَ لَهُ وَهُمْ أَغْنِيَاءَ وَلَيْسَتْ بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ . فَمَا عَلِمْتُ ذَلِكَ عِنْدَكَ وَمَا وَجْهُهُ
فِي مَقُولَةِ أَلْجَنُونِ؟

أَعْجِزْتَ عَنِ الْجَوَابِ؟ إِذَنْ فَأَعْلَمْ يَا أَرِسْطُو أَنَّ أَلْمُصَابَ بِهَذَا الضَّرْبِ مِنْ
أَلْجَنُونٍ إِذَا اشْتَرَى هَذَا أَلْشَيْءَ بِدَرَاهِمٍ كَانَتْ قِيَمَتُهُ مِنْ أَلدَّرَاهِمِ وَحَدَهُ ، وَهُوَ غَنِيٌّ لَا
قِيَمَةَ لِلدَّرَاهِمِ فِي مَالِهِ فَلَا يَحْفِلُ بِأَلشَّرَاءِ بَيِّدَ أَنَّهُ إِذَا سَرَقَهُ كَانَتْ قِيَمَتُهُ عِنْدَهُ مِنْ عَقْلِهِ
وَحِيلَتِهِ فَيَجِئُهُ بِلَذَّةٍ لَا تَشْتَرِيهَا كُلُّ أُمُورٍ وَلَا كُلُّ أُمُورٍ أَلدُّنْيَا . فَهَذَا جَنُونٌ بِأَللَّذَّةِ لَا
بِالسَّرِقَةِ ، وَهُوَ بِذَلِكَ ضَرَبٌ مِنْ أَلْعِشْقِ يَجْعَلُ أَلْشَيْءَ إِذَا لَمْ يُسْرِقْ كَأَنَّهُ أَلْمَرَأَةُ
أَلْمَعشُوقَةُ أَلْمَمْتَنَعَةُ عَلَى عَاشِقِهَا .

وَأَلْجِياعُ إِذَا سَرَقُوا لِيَأْكُلُوا وَيُمْسِكُوا أَلرَّمَقَ^(٢) عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، لَا يُقَالُ فِي لُغَةِ
أَلْفَلَسَفَةِ إِنَّهُمْ سَرَقُوا بَلْ أَخَذُوا . فَبِاضْطِرَارٍ جَاعُوا وَبِاضْطِرَارٍ مِثْلِهِ أَكَلُوا ، وَالسَّارِقُ
هنا هُوَ أَلْغَنِيُّ الَّذِي مَنَعَهُمُ الْإِحْسَانُ وَالْمَعُونَةُ .

(٢) الرَّمَقُ: بَقِيَّةُ الْحَيَاةِ .

(١) شَغَبَ: أَحْدَثَ ضَجَّةً .

فَالدُّنْيَا مَعْكُوسَةٌ مَنقَلِبَةً أَوْضَاعُهَا يَا أَرِسْطُو، وَلَوْ اسْتَقَامَتْ هَذِهِ الْأَوْضَاعُ
لَوُجِدَتْ السَّعَادَةُ فِي الْأَرْضِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ جَمِيعًا. وَكَيْفَ لَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالنَّاسِ
مَخْلُوقُونَ بِعُيُوبِهِمْ؟ وَبِأَلَيْتَهُمْ مَخْلُوقُونَ بِعُيُوبِهِمْ فَقَطْ، وَلَكِنَّ الطَّائِمَةَ الْكَبِيرَى أَنَّ
عُيُوبَهُمْ تَعْمَلُ دَائِمًا عَلَى أَنْ تَرَى فِي الْآخِرِينَ عُيُوبًا مِثْلَهَا.

كُلُّ جِمَارٍ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَمْلَأَ جَوْفَهُ تَيْنًا وَفُولًا وَشَعِيرًا، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَرِ جِمَارًا
قَطُّ يُرِيدُ أَنْ يَمْلَأَ لِنَفْسِهِ الْإِصْطَبْلَ؛ فَإِذَا وَجَدَ جِمَارًا هَذِهِ هِمَّتُهُ وَهَذَا عَمَلُهُ فَاسْمُهُ
إِنْسَانٌ لَا جِمَارٌ.

يَا أَرِسْطُو إِنَّ مُعْضِلَةَ الْمَعْضَلَاتِ أَنْ يُحَاوِلَ إِنْسَانٌ حُلَّ مُشْكِلَةٍ دَاخِلِيَّةٍ مُحْضَةٍ
قَائِمَةٍ فِي نَفْسِ جِمَارٍ أَوْ ثَابِتَةٍ فِي ذَهَبِ الْجِمَارِيِّ... وَمِثْلُ هَذَا أَنْ يُحَاوِلَ جِمَارٌ حُلَّ
مُشْكِلَةٍ نَفْسِيَّةٍ فِي ذَهْنِ إِنْسَانٍ أَوْ فِي قَلْبِهِ، فَلَا حُلَّ لِمَشَاكِلِ الْعَالَمِ أَبَدًا مَا دَامَ كُلُّ
إِنْسَانٍ مَعَ غَيْرِهِ كَجِمَارٍ مَعَ إِنْسَانٍ...

وَالْمَعْضَلَاتُ^(١) الْنَفْسِيَّةُ مِنْ عَمَلِ الشَّيَاطِينِ، فَكَأَنَّ يَنْبَغِي أَنْ تَجِيءَ الْمَلَائِكَةُ
لِتُحَارِبَ الشَّيَاطِينَ بِالْبَرْقِ وَالرَّعْدِ دِفَاعًا عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - مَنَعَهَا،
وَأَرْسَلَ لِلْإِنْسَانِ مَلَائِكَةً أُخْرَى إِنْ شَاءَ هَذَا الْإِنْسَانُ عَمِلَتْ، وَإِنْ شَاءَ عَجِزَتْ؛ وَهِيَ
فَضَائِلُ الْأَدْيَانِ الْمَنْزَلَةِ. فَإِذَا مَنَحَهَا الْإِنْسَانُ إِرَادَتَهُ وَقُوَّتَهُ، فَعَمِلَتْ عَمَلَهَا كَأَنَّ
الْإِنْسَانَ هُوَ الْمَلَكُ بَلْ فَوْقَ الْمَلَكِ، وَإِذَا أضعَفَهَا وَمَحَقَهَا كَانَ الْإِنْسَانُ هُوَ الشَّيْطَانُ
وَأَسْفَلَ مِنَ الشَّيْطَانِ.

يَا أَرِسْطُو: «هَذَا الْعَالَمُ عِنْدِي كِتْلَةٌ مِنَ الْعَدَمِ اتَّفَقَتْ عَلَى الظُّهُورِ وَاسْتَخْتَفِي.
وَالْعَالَمُ عِنْدِي ضَعْفٌ رُكْبٌ وَقُوَّةٌ رُكْبَتْ. وَالْعَالَمُ عِنْدِي لَا شَيْءَ. وَالْعَالَمُ بَيْنُ بَيْنٍ.
وَالْعَالَمُ قِسْمَانِ: مِنْهُمُ أَفْلَاحُ الْزَّرَاعِيِّ وَذَلِكَ أَفْضَلُ فِلَسَفَةٍ طَبِيعِيَّةٍ. وَالْعَالَمُ فِي حَاجَةٍ
إِلَى الْمَوْتِ وَالْمَوْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ. وَالْأَدَبُ هُوَ الْحَيَاةُ وَلَا حَيَاةٌ بِلَا أَدَبٍ. وَالْأَدَبُ
ضَرْبَانِ: أَدَبٌ نَفْسَانِيٌّ وَأَدَبٌ مَكْتَسَبٌ، وَقَدْ يَكُونُ طَبِيعِيًّا كَمَا هُوَ عِنْدَ نَابِغَةِ الْقَرْنِ
الْعَاشِرِينَ. وَمَنْ هُوَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَاشِرِينَ؟ هُوَ شَخْصٌ مَاتَ بِلَا مَوْتٍ، وَبَحْيَا بِلَا حَيَاةٍ».

أَتُرِيدُ يَا أَرِسْطُو أَنْ تَعْرِفَ سِرَّ تَرْكِيبِ الْعَالَمِ؟ الْأَمْرُ يَسِيرُ غَيْرَ عَمِيرٍ، فَإِنَّ سِرَّ
تَرْكِيبِهِ كَسِيرُ تَرْكِيبِ الْقِرْشِ الَّذِي فِي يَدِكَ، فَدَعْنِي أَظْهَرُكَ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَمُدَّ
يَدَكَ بِالْقِرْشِ لِأَبَيِّنَ لَكَ سِرَّ التَّرْكِيبِ فِيهِ...

(١) المعضلات: المشاكل الصعبة الحل.

ولكن المجنون الآخر أسرع فغيب القِرْشَ في جيبه . فقال (النابغة) : هذا سياسي داهية خبيث . والرواية الآن رواية سياسي القرن العشرين .

ليس في حقيقة السياسة إلا الرذل من أفعال السياسيين . والألفاظ السياسية التي تحمل أكثر من معنى هي التي لا تحمل معنى . فليحذر الشرق من كل لفظ سياسي يحتمل معنيين ، أو معنى ونصف معنى ، أو معنى وشبهة معنى ؛ فإن قالوا لنا (أحمر) قلنا لهم اكتبوه بهذا اللفظ ؛ فإذا كتبوه قلنا لهم : أرسموا إلى جانبه معناه بالكلون الأحمر لتشهد الطبيعة نفسها على أن معناه أحمر لا غير . . . وعلى هذه الطريقة يجب أن تكتب المعاهدات السياسية بين أوروبا والشرق . . .

إنهم يكتبون لنا جريدة بأسماء الأطعمة ثم يقولون : أكلتم وشبعتم . . . ولقد رأيت (مظاهرات) كثيرة ولا كالمظاهرة التي أتمناها ؛ فما أتمنى إلا أن يخرج كل المجانين في مظاهرة . .

وهذا الأبله الذي أماننا ليس وطنياً ولا فيه ذرة من الوطنية ؛ فإن كان وطنياً أو زعم أنه وطني ، فليخرج القِرْش الذي في جيبه . . . ليكون فلاحاً حسناً لخروج جيش الاحتلال من مصر . .

ولكن المجنون لم يخرج القِرْش وترك جيش الاحتلال في مكانه . فقال (النابغة) : الرواية الآن رواية الشرقي واللص . وبحق من القانون يكون للشرقي أن يقتل هذا اللص ليخرج القِرْش من جيبه . . .

غير أن المجنون امتنع . فقال (النابغة) : كل ذلك لا يجدي^(١) مع هذا الخبيث ، فالرواية الآن رواية هارون الرشيد مع أبرامكة . ويجب أن ينكب الرشيد هؤلاء أبرامكة ليستصفي القرش . .

بيد أننا منعناه أن ينكب «أبرامكة» فقال : الرواية الآن رواية العاشق والمعشوقة . ونظر طويلاً في المجنون وصعد فيه عينه وصب فلم ير إلا ما يذكر

(١) لا يجدي : لا ينفع .

بأنه رجل، فتهذى^(١) إلى رأي عجيب. فوقع على قدميه وتوهمه امرأة في
حذاءها... وجعل يُناجي الحذاء بهذه المناجاة:

إن سخافات الحب هي أقوى الدليل عند أهله على أن الحب غير سخي؛
فكل فكرة في الحب مهما كانت سخيفة، عليها جلال الحب؛ وللحذاء في قدميك
يا حبيبتى جمال الصندوق المملوء ذهباً في نظر البخيل، وكل شيء منك أنت فيه
سراً جمالك أنت. والحذاء في قدميك ليس حذاءً، ولكنه بعض حدود جسمك
الجميل، فلا أكون كل العاشق حتى أحيط بكل حدودك إلى الحذاء..

إن جسمك يا حبيبتى كالماء الجاري العذب؛ في كل موضع منه روح الماء
كله؛ وحيثما وقعت القبلت من جسمك كان فيها روح شفتيك الورديتين، هذه قبلت
على قدميك يا حبيبتى؛ وهذه قبلت على ساقيك؛ وهذه قبلت على ثوبك وهذه قبلت
على جيبك..

وكادت يد (النابعة) تخرج بالقزش؛ فعضه المجنون في كتفه عضّة وحشيّة،
فجأه الخوف منها فطار صوابه؛ فصرخ صرخة عظيمة دوى لها المكان وترددت
كصرصرّة البازي^(٢) في الجو، ثم أعتراه الطيف، وأطبّق عليه الجنون فأختلط
وتخبّط..

(والرواية الآن؟)... رواية عربية الإسعاف...

(٢) صرصرّة البازي: صوته.

(١) تهذى: اهتدى وتوصل.

فهرس المحتويات

٥	الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام
١٢	حقيقة المسلم
١٧	وحي ألّهجرة
٢٣	فلسفة قصة
٢٩	فوق الآدمية الإسراء والمعراج
٣٦	الإنسانية العليا
٤٤	سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم
٥٠	سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم
٥٧	درس من النبوة
٦٣	شهر للثورة فلسفة الصيام
٦٩	ثبات الأخلاق
٧٥	قلت لنفسي وقالت لي . . .
٨٢	الانتحار ١
٩١	الانتحار ٢
٩٩	الانتحار ٣
١٠٧	الانتحار ٤
١١٤	الانتحار ٥
١٢٣	الانتحار ٦
١٢٣	تتمة
١٣٢	وحي القبور
١٣٦	عروس تزف إلى قبرها
١٤١	موت أم
١٤٦	قصة أب

١٥٢	السَّمكة
١٦١	الزاهدان
١٦٧	إبليسُ يُعلِّمُ
١٧٤	الدنيا والدرهم
١٨٠	دُعابةُ إبليس
١٨٧	الشيطان . . .
١٩٧	تاريخُ يتكلَّمُ . . .
٢٠٠	المجلدُ الأول
٢٠١	المجلدُ الثاني
٢٠٢	المجلدُ الثالث
٢٠٢	المجلدُ الرابع
٢٠٣	المجلدُ الخامس
٢٠٤	المجلدُ السادس
٢٠٤	المجلدُ السابع
٢٠٥	المجلدُ الثامن
٢٠٥	المجلدُ التاسع
٢٠٥	المجلدُ العاشر
٢٠٧	كُفِّرَ الذُّبَابَةُ . . .
٢١٥	يا شبابَ العرب!
٢١٩	لَوْ . . . !
٢٢٥	في محنةِ فلسطين
٢٢٥	أيُّها المسلمون!
٢٢٩	قصةُ الأيدي المتوضَّعة . . .
٢٣٥	نجوى التمثال
٢٣٨	فاتحُ الجوّ المصري
٢٤٢	أجنحةُ المدافع المصرية
٢٤٦	أحاديثُ الباشا:
٢٤٦	الطماطمُ السياسي . . .

٢٥٠	البك والباشا
٢٥٤	ساكنو أليباب ..
٢٥٨	الأخلاقُ المحاربة
٢٦٢	خضعَ يخضع
٢٦٦	فلتتعصب
٢٧١	ورْزُ الماضي
٢٧٥	المعجمُ السياسي
٢٧٩	اللسانُ المَرْقَع
٢٨٣	سرُّ القُبعة
٢٨٧	سعد زغلول
٢٩٠	حماسةُ الشعب
٢٩٤	الجمهور
٢٩٩	المجنون ١
٣٠٦	المجنون ٢
٣١٣	المجنون ٣
٣٢١	المجنون ٤
٣٣٠	المجنون ٥
٣٣٨	المجنون ٦
٣٣٨	تتمة